

مكتبة
٧٨٢

لكن كتاب باب



فرانك هيربرت
ترجمة: نادر أسامة



مكتبة



مكتبة | 782
سُر مَنْ قَرَأَ

كثيب

كشيب
فرائك هربرت

ترجمة: نادر أسامة
دار كلمات للنشر والتوزيع
البريد الإلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

دار عصير الكتب
مصر 2021

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٠٢١ ١٢ ٢٦

ردمك: 978-9921-730-74-6

كثيب

فرانك هربرت

مكتبة | 782
سُر مَنْ قَرَأَ

ترجمة:

نادر أسامة

2021

//kalemat



إلى سن تتخطى جهودهم نطاق الأفكار وتطول العالم المادي،
إلى علماء بيئة الأراضي الجافة أينما كانوا ووقتما كانوا،
أهدي ثمرة هذا الجهد المبذول في التنبؤ، بكل تواضع وإعجاب.

مكتبة
t.me/t_pdf

المحتويات

9	توطئة لا بُدَّ منها : بقلم المترجم
13	الكتاب الأول: كتيب
379	الكتاب الثاني: المؤدّب
675	الكتاب الثالث: النّبي
903	الملحق الأول: بيئة كتيب
917	الملحق الثاني: ديانة كتيب
931	الملحق الثالث: تقرير عن دوافع وأهداف البنيّ چيسيرت
935	الملحق الرابع: تاريخ الأشراف (مختارات من سير العائلات النبيلة)
939	مسرد المصطلحات المستخدمة في الإمبراطورية
996	تعليقات على الخريطة
998	خريطة

توطئة لا بُدَّ منها

(عن التعامل مع الكلمات العربية الواردة في النص الأصلي)

تُعدُّ رواية «كثيب» -التي نُشرت أوَّل مرَّة عام 1965- واحدةً من أهمِّ ملاحم الخيال العلمي التي تمخَّضت عنها قريحة مؤلِّف في القرن العشرين، وقد نجحت في اجتياز اختبار الزَّمن بنجاح تام. كما أنها رُبَّما تكون المثال الأبرز على تضفير الموروث الثقافيِّ العربيِّ/ الإسلاميِّ في الأدب الغربيِّ. في عالمه الخياليِّ، استخدم فرانك هيرت -الذي يبدو أنه تأثَّر تأثُّراً كبيراً بالثقافات الإسلامية- عدداً غير قليل من الألفاظ المشتقة والمأخوذة والمحرَّفة عن اللغة العربية. صحيح أن استعمال بعضاً من هذه الألفاظ في غير محلِّها، وحملها بمعنى بعيداً تماماً عن معناها الأصليِّ، إلَّا أن هذا لا يشير بالضرورة إلى عدم إلمامه بمعاني الألفاظ التي استخدمها، بل من الممكن رده إلى الرخصة الإبداعية التي تمنح المؤلِّف حق تطويع الكلمات والألفاظ والأسماء كما يشاء لإثراء عالمه الخياليِّ.

لذا، وحتى لا تتوه الكلمات العربية التي أوردها المؤلِّف في النص الأصلي بين آلاف الكلمات العربية الأخرى التي تُكوِّن النص المترجم القابع بين يديك (ما قد يفقده جزءاً مهماً من مذاقه الخاص) ارتأيت وضع نجمة صغيرة -بلا هامش- أعلى اللفظ عند ظهوره لأوَّل مرَّة. حين تصادف هذه النجوم في أثناء القراءة، اعلم أن «الكلمة العربية» التي تقرأها وردت كذلك في النصِّ الأصليِّ، أو أنها كلمة مُحَرَّفة النطق رُدَّت إلى نطقها العربيِّ. وأنصحك وقتها بالرجوع إلى المسرد الوارد في نهاية الكتاب

لتذوق النطق الغريبي المُحرَّف للكلمة، لما في ذلك من إثراء لتجربة القراءة.

ومن ناحيةٍ أخرى، لم أحبِّد ردَّ بعض الكلمات إلى أصولها العربية، وآثرت الإبقاء عليها كما هي بالنطق والرَّسم المحرَّفين، ففي النهاية هذه رواية تدور أحداثها بعد نحو 20 ألف سنة من عصرنا، بعد أن استوطن البشر عددًا غير محدَّد من الكواكب المنتشرة في المجرَّة، وفي هذا سببٌ أكثر من كافٍ لتحريف ألفاظ أيِّ لغة. الكلمات التي فضَّلت الإبقاء عليها مُحَرَّفة ستجدها أيضًا في المسرد، لكنني لن أُميِّزها بنجمة في النص، لأنها في هذه الحالة مثلها مثل أيِّ لفظ غريب آخر ابتكره المؤلِّف أو اشتقَّه من جذور لغات أخرى غير العربية.

أيضًا يُرجى عند مراجعة المسرد ملاحظة أن بعض التفسيرات التي أوردتها فيه بين القوسين المعكوفين [..] ليست قاطعة أو نهائية، فالأمر برمته مجردَّ جهد قد يصيب أو يُخطئ، ومحاولة لاستقراء التشابه بين الألفاظ المستخدمة وجذورها العربية. القول الفصل في هذا الأمر لفرانك هربرت نفسه، وبما أنه رحل عن عالمنا دون إماطة اللثام عن عنه أو شرحه بنفسه، فلن نستطيع أن نعرف أبدًا على وجه اليقين ما كانت تعنيه كل كلمة في ذهنه.

شيءٌ آخر أنصح به هو محاولة إلقاء نظرة سريعة على المسرد الذي أوردته فرانك هربرت لتفسير عالمه قبل القراءة، لأخذ فكرة عامَّة عن المصطلحات الغريبة الكثيرة الواردة في الرواية. أو على الأقل الرجوع إليه في كلِّ مرَّة تصادف فيها مصطلحًا جديدًا يصعب فهمه من السياق، ففي هذا تسهيل كبير لعملية فهم واستيعاب النَّصِّ، وإزالة لبعض الغموض الذي قد يستشعره من يخطو بقدميه في عالم «كثيب» الثري المتشابه للمرَّة الأولى.

الكتاب الأول

كثيب

البداية هي أنسب وقت يتحقق فيه المرء من صَعَةِ موازينه. هذه حقيقة تعرفها كل أخت من أخوات البني جيسيرت. لذا عند الشروع في دراسة حياة المؤدّب*، احرص أولاً على تحديد زمنه الصحيح: وُلِدَ في العام 57 من حُكْم الإمبراطور الپاديشاه شادام الرَّابِع. وكن أشدَّ حرصًا وأنت تحدّد مكانه الصحيح: كوكب أَرَاكس. لا تخدعَنَّك حقيقة أنه وُلِدَ على كوكب كلادان، حيث عاش أوّل خمسة عشر عامًا من حياته. فأَرَاكس، ذلك الكوكب المعروف باسم كَثِيب، سيُعرف بأنه موطنه إلى الأبد. من كتاب «دليل المؤدّب» للأميرة إيrolان.

في الأسبوع الذي سبق الرّحيل إلى أَرَاكس -عندما بلغت فوضى الاستعدادات الأخيرة حدًا لا يُحتمل- جاءت حيزيون شمطاء لزيارة أمّ الصبيّ پول.

كانت الليلة دافئة في قلعة كلادان، وقد تشبّعت كومة الحجارة العتيقة التي ظلّت مقرّاً آل آتريدس طوال ستة وعشرين جيلًا بتلك الرطوبة النديّة التي تكتسبها كل عام قبل تغيّر الطّقس.

دخلت المرأة العجوز من الباب الجانبي المفضي إلى غرفة پول في نهاية الممرّ المقبّب، وسُمِحَ لها بأن تتأمّله برهة وهو مستلقٍ في الفراش. على الضوء الخافت المنبعث من المصباح المعلق في الهواء بالقرب من الأرض، رأى الصبيّ المستيقظ خيالاً أنثويًا ضخماً عند بابه، يقف متقدّمًا بخطوة عن أمّه. كانت هيئة المرأة العجوز تشبه

السَّاحرات، بشعرها المُلَبَّد المتشابك كخيوط العنكبوت، وملامحها المستترة في ظلال غطاء الرأس، وعينيها المتألفتين كالجواهر. سألت العجوز: «أليس ضئيل الجسد بالنسبة إلى أقرانه يا جيسيكاف؟». كان صوتها رناناً فيه زحير، كأنه أوتار آلة باليست غير مضبوطة.

أجابت أم پول بحسّها الأوبرالي الناعم: «يشتهر آل آتريدس بتأخر نموهم يا سيدتي الموقرة».

زحرت العجوز: «هكذا سمعت، هكذا سمعت. لكنه بلغ الخامسة عشرة؟».

- «أجل أيتها الموقرة».

قالت المرأة العجوز: «إنه مُستيقظ ويستمع إلينا»، ثم تمتمت إلى نفسها ضاحكة: «الوغد الصغير الماكر»، قبل أن تستدرك: «لكن المُلْك يتطلَّب مكرًا، وإن كان هو حقًا الكويزاتس هاديراك المُنتظر ف... حسنًا...».

بين الظلال التي تكتنف فراشه، ظلَّ پول مضيقًا عينيه فاتحًا إياهما بالكاد. شعر بأن عيني العجوز البيضاويتين اللامعتين كعيني طير كاسر تتسعان وتوهجان وهما تحدقان إليه.

قالت العجوز: «نم جيّدًا أيُّها الوغد الصغير الماكر، ففدًا ستحتاج إلى كل قواك الذهنية والبدنية وأنت تواجه الجوم جبار». ثم أنهت عبارتها وغادرت وهي تدفع أمّه أمامها إلى الخارج، وأغلقت الباب برطمة قوية.

استلقى پول في فراشه متسائلًا: ماذا تكون الجوم جبار؟ على الرغم من هذا الوقت الحرج الذي يسوده التغيير، تظلُّ المرأة العجوز هي أغرب شيء رآه. أيتها الموقرة.

وما هذه الطريقة المهينة التي خاطبت بها أمّه جيسيكّا كأنّها
تخاطب خادمة شقيّة، لا امرأة في مكانتها: سيّدة من البني
جيسيرت، وخليلة الدوق، وأم ولي عهد الدوق؟
تساءل الصبي: هل الجوم جبار شيء له علاقة بأراكس عليّ
معرفة قبل ذهابنا إلى هناك؟

ثم راح يلوّكُ وقع كلماتها الغريبة في فمه: جوم جبار...
كوزاتس هاديراك.

لقد وجد نفسه مضطراً إلى تعلّم أمور كثيرة في الآونة
الأخيرة. سيكون أراكس مكاناً مختلفاً جذرياً عن كلادان، وكم
المعارف الجديدة جعلت عقل پول محمّوماً بالتفكير.
أراكس.. كثيب.. كوكب الصّحراء.

لقد شرح له ظفير حوّاط -كبير المفتالين الذي يعمل تحت إمرة
والده- طبيعة الأمر: يحكم آل هاركونن، أعداؤهم الألداء، كوكب
أراكس منذ ثمانين عاماً، ويبسطون سيطرتهم على الكوكب، بموجب
عقد شبه إقطاعي مع شركة تشوم، للتنقيب عن المِزاج.. الاسپايس
المُعَمَّر. الآن سيرحل آل هاركونن وسيحلّ محلّهم آل آتريدس بعقد
إقطاعي احتكاري كامل، وهذا انتصار واضح للدوق ليتو. لكن هذا
التحوّل ينطوي على مخاطر مهلكة، هكذا أخبره حوّاط، إذ إن الدوق
ليتو يحظى بشعبية كبيرة بين النبلاء في مجلس اللاندراد.

«يثير الرجل المحبوب غيرة الأقوياء»، هكذا قال حوّاط.

أراكس.. كثيب.. كوكب الصّحراء.

غاب پول في النوم ليحلم بفار في صحاري أراكس، وبأناس
صامتين يتحرّكون من حوله في ضوءٍ خافت منبعث من كرات

إنارة طافية. كان المكان مهيباً وأشبه بكتدرائية، وسمع فيه صوت تقاطر ماء خافت، قطرة تلو القطرة تلو القطرة. حتى وهو في الحلم، كان پول يعلم أنه سيتذكره عند استيقاظه، فلطالما تذكر الأحلام التي كانت تنبؤات. تلاشى الحلم.

استيقظ پول ليجد نفسه في فراشه الدافئ.. وراح يفكر ويفكر. إن عالمه هنا في قلعة كلادان، الذي لا لهو ولا لعب ولا رفاق من سنه فيه، رُبما لا يستحق الحزن عند الوداع. لقد ألمح له معلمه يُوي أن نظام فارفلوشس التعليمي غير مُطبّق بصرامة على كوكب أراكس؛ الكوكب الذي يُؤوي قومًا يجوبون أطراف الصّحراء من دون قائد* أو باشار يحكمهم: شعب الرمال المعروفون باسم الضرمين، الذين لم ينجح أي إحصاء رسمي أجرته الإمبراطورية في حصر أعدادهم. أراكس.. كتيب.. كوكب الصّحراء.

شعر پول بالتوتر ينمو في صدره، فقرّر ممارسة أحد التدريبات العقلية الجسدية التي علّمته إياها أمّه. أخذ ثلاثة أنفاس سريعة، فأثارت ردود الفعل المطلوبة: دخل في حالة من الوعي الأسمى. تركّز إدراكه، وتجنّب التشتت المجبول عليه الوعي، واتّسع شريانهِ الأورطي، وتشبّع دمه بالأكسجين، وتدفّق سريعاً إلى المناطق المُجهدّة في جسده. كانت حالة خاصة يصبح المرء فيها واعياً بمحض إرادته. لا ينال المرء حرية استدامة الغذاء بالفريزة وحدها، فالوعي الحيواني يعجز عن إدراك ما وراء اللحظة الرَّاهنة، ولا يفهم فكرة أن الفرائس قد تنقرض. الحيوانات تستهلك ولا تُنتج. الملذّات الحيوانية أسيرة الحواس الخمس، ولا تعرف الإدراك

الحسّي. يحتاج الإنسان إلى شبكة من المعلومات الأساسية يستطيع من خلالها رؤية كونه، وتركيز الإدراك الحسّي الإرادي ينسج هذه الشبكة. تتدفّق السلامة البدنية مع الدم وتسري مع الأعصاب وفقاً لإدراك أعمق احتياجات الخلايا. كل الأشياء والخلايا والكائنات فانية، وتنتهي استمرار تدفّق الحياة فيها.

مرّة تلو الأخرى تلو الأخرى، دار الدرس داخل وعي بول.

استشعر بول ضوء الفجر الأصفر الذي لمس حافة نافذته من خلال جفنيه المُغلّقين، ثم فتحهما وراح يصفي إلى ضجيج الحركة والنشاط اللذين دبّا في القلعة وهو يتأمّل زخارف عوارض سقف غرفة نومه المألوفة.

انفتح باب الرواق وأطلّت أمّه منه، بشعرها البرونزي القاتم المعقود بشريط أسود أعلى رأسها. كان وجهها البيضاوي خالياً من التعبير، وعيناها الخضراوان تحدّقان إليه بجديّة. قالت: «أنت مستيقظ. هل نمت جيّداً؟».

- «أجل».

تأمّل الفتى عودها الطويل الرشيق، ولاحظ التوتّر البادي في كتفيها وهي تنتقي له ملابس من رفوف الخزانة. ربّما شخصٌ غيره لم يكن سيلاحظ توتّر جسدها، لكنها درّبتة على نهج البني جيسيرت، وهو ما يعني قدرة فائقة على ملاحظة أدقّ التفاصيل. استدارت إليه حاملةً سُترة شبه رسمية يزيّن صقر آل آتريدس الأحمر جيب صدرها.

قالت له: «ارتدّ ملابسك سريعاً، الأمّ الموقرة تنتظر».

قال بول: «لقد حلّمت بها. من هي؟».

- «كانت معلّمتي في مدرسة البني جيسيرت. الآن هي عرّافة الحقيقة في بلاط الإمبراطور، ويا پول...»، ثم تردّدت قليلاً قبل أن تضيف: «عليك أن تخبرها بأمر أحلامك».

- «سأفعل. أهي السبب في أننا حصلنا على أراكس؟».

- «نحن لم نحصل على أراكس»، قالتها جيسيكاً ونفضت الغبار عن أحد البناتيل، وعلّقت مع السُترة على مشجب الملابس بجوار الفراش. «لا تدع الأمّ الموقرة تنتظر طويلاً».

اعتدل پول جالساً، واحتضن ركبتيه، وسأل: «ما الجوم جبار؟». مرّة أخرى كشف له التدريب الذي تلقّاه على يديها تردّدها غير البادي تقريباً، لحظة خاطفة خانتها فيها أعصابها جعلته يستشعر خوفها.

اتّجهت جيسيكاً إلى النافذة، وفتحت الستائر على أنساعها، وسرحت ناظرةً إلى جبل سيوبي، متجاوزةً ببصرها البساتين المحيطة بالنهر.

قالت: «ستعرف ما الجوم جبار قريباً جداً».

لاحظ پول اختلاج الخوف في صوتها، وتعجّب من الأمر. استطردت جيسيكاً دون أن تلتفت إليه: «الأمّ الموقرة تنتظرك في غرفتي الصباحية. أسرع أرجوك».

جلست الأمّ الموقرة جايس هيلين موهيم على كرسيّ مُزدان بالنقوش تراقب اقتراب الأم وابنها، وإلى جانبيها نافذتان مطلّتان على انعراجة النهر الجنوبية ومزارع آل آتريدس الخضراء، لكن الأمّ الموقرة لم تعر انتباهها إلى المشهد. كانت متعكّرة المزاج هذا الصباح وتثقلها سنون عمرها. أرجعت الأمر إلى عناء السفر في

الفضاء واضطرارها إلى التعامل مع أعضاء نقابة الفضاء البغيضين وأساليبهم السرية. لكنها أمام مهمة تتطلب اهتماماً شخصياً منها بصفتها إحدى أخوات النبي جيسيرت المبصرات. حتى من تتولى منصب عرافة الحقيقة في بلاط الإمبراطور الباديشاه لا يمكنها التهرب من مسؤولية كهذه عندما تسمع نداء الواجب.

فكرت الأم الموقرة: اللعنة على جيسيكال ليتها أنجبت لنا فتاة كما أمرت أن تفعل!

توقفت جيسيكال على بُعد ثلاث خطوات من الكرسي، وثبتت ركبتيها بخفة، ومررت يدها اليسرى على امتداد ثورتها بلطف في تحية احترام. انحنى پول انحناء مقتضبة علمه إياها معلّم الرقص، تلك الانحناء التي تُستخدم عند «عدم التأكد من مكانة الشخص الذي أمامك».

لم يغب مدلول تحية پول عن ذهن الأم الموقرة، فقالت: «إنه صبيّ حذر يا جيسيكال».

وضعت جيسيكال يدها على كتف پول، وشدّت عليه. لثانية، نبض الخوف في راحة يدها، ثم استعادت السيطرة على نفسها. «هكذا تعلّم يا سيّدي».

تساءل پول: ممّ تخاف؟

تفحّصت العجوز پول بنظرة خاطفة: وجهه بيضاوي كوجه جيسيكال، لكن عظامه قويّة. شعره أسودّ فاحم كشعر الدوق لكن يحمل جبين جدّه لأمه الذي لا يمكن التصريح باسمه. أما ذلك الأنف الرفيع الأشم، والعينان الخضراوان حادّتا النظرة فورثها من جدّه لأبيه، الدوق الكبير الراحل.

فَكَثُرَتِ الْأُمُّ الْمُوقَّرَةُ: كَانَ رَجُلًا يَقْدُرُ قُوَّةَ الشَّجَاعَةِ، حَتَّى فِي الْمَوْتِ.

ثُمَّ قَالَتْ: «التَّعْلِيمُ شَيْءٌ، وَمَعْدَنُ الشَّخْصِ شَيْءٌ آخَرٌ. سَنَرَى». رَمَتِ الْعَيْنَانِ الْمُسِنَّتَانِ نَظْرَةَ حَازِمَةٍ سَرِيعَةٍ إِلَى جَيْسِيكََا، ثُمَّ أَرْدَفَتِ الْمَرْأَةَ: «أَتَرْكِينَا بِمَفْرَدِنَا. أَذْهَبِي وَمَارَسِي التَّأْمُلَ، هَذَا أَمْرٌ».

أَنْزَلَتْ جَيْسِيكََا يَدَهَا مِنْ فَوْقِ كَتِفِ بُولٍ وَقَالَتْ: «سَيِّدَتِي الْمُوقَّرَةُ، أَنَا...»

- «جَيْسِيكََا، تَعْرِفِينَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ فَعْلٍ ذَلِكَ».

رَفَعَ بُولُ بَصَرَهُ إِلَى أُمِّهِ شَاعِرًا بِالْحَيْرَةِ.

اعْتَدَلَتْ جَيْسِيكََا فِي وَقْفَتِهَا وَقَالَتْ: «أَجَلٌ.. بِالتَّأَكِيدِ».

عَادَ بُولٌ يَنْظُرُ إِلَى الْأُمِّ الْمُوقَّرَةِ. حُثِّهُ التَّأَدُّبُ وَخَشْيَةُ أُمِّهِ الْوَاضِحَةُ مِنْ هَذِهِ الْعَجُوزِ عَلَى التَّصَرُّفِ بِحَذَرٍ، لَكِنَّهُ شَعَرَ بِتَحَفُّظٍ غَاضِبٍ بِسَبَبِ الْخَوْفِ الَّذِي اسْتَشْعَرَهُ يُشْعُّ مِنْ أُمِّهِ.

أَخَذَتْ جَيْسِيكََا نَفْسًا عَمِيقًا وَقَالَتْ: «بُولُ، هَذَا الْاِخْتِبَارُ الَّذِي أَنْتِ عَلَى وَشْكِ خَوْضِهِ... مَهْمٌ لِي».

رَفَعَ بَصَرَهُ نَحْوَهَا مِتْسَائِلًا: «اِخْتِبَارٌ؟».

قَالَتْ جَيْسِيكََا: «تَذَكَّرْ أَنَّكَ ابْنُ دَوْقٍ».

t.me/t_pdf

ثُمَّ اسْتَدَارَتْ وَخَرَجَتْ مِنَ الْغُرْفَةِ وَتَتَوَرَّتُهَا تَخْتَلِجُ بِالْحَفِيفِ، وَأَغْلَقَتِ الْبَابَ خَلْفَهَا بِقُوَّةٍ.

وَأَجَهَ بُولُ الْمَرْأَةَ الْعَجُوزَ مَسِيطِرًا عَلَى غَضَبِهِ: «كَيْفَ تُصَرِّفُ اللَّيْدِي جَيْسِيكََا هَكَذَا كَمَا لَوْ كَانَتْ خَادِمَةً؟».

شَاعَ شَبَحُ ابْتِسَامَةٍ فِي زَوَايَا الضَّمِّ الْمَجْعَدِّ، وَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «كَانَتْ اللَّيْدِي جَيْسِيكََا خَادِمَتِي فِي الْمَدْرَسَةِ بِالْفَعْلِ لِأَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةً»،

ثم أردفت بإيماءة: «وكانت خادمة جيّدة أيضًا. الآن، اقترب».
جلده الأمر كالسوط، ووجد پول نفسه يطيعها مسلوب الإرادة
ويقترّب. مفكّرًا: إنها تستخدم (الصّوت) معي. ثم توقّف عند
ركبتها بإشارة منها.

سألته: «أترى هذا؟»، وأخرجت من طيّات عباءتها مكعبًا
معدنيًا أخضر سُمكُه نحو خمسة عشر سنتيمترًا. أدارته فرأى
پول أن أحد جوانبه مفتوحًا، كفم أسود حضوره مخيف مبهم. لم
يخترق الضوء ذلك السّواد المفتوح.

قالت العجوز: «ضع يدك اليمنى في الصندوق».
سرى الخوف في أوصال پول، وبدأ يتراجع، لكن العجوز قالت
سائلة: «أهكذا تُطيع والدتك؟».

رفع ناظريه فالتقى بعيني الطير الكاسر اللامعتين.
ببطء، وبعجزٍ أمام الإكراه الذي لا يُقاوم، دسّ پول يده في
فتحة الصندوق. في البداية أحس ببرودة عندما طوّق السّواد
يده، ثم استشعر المعدن الأملس على أصابعه وشعر بوخزٍ كأن
يده أصابها خدرٌ.

شاعت نظرة مفترسة في ملامح العجوز، قبل أن ترفع يدها
اليمنى عن الصندوق وتضعها قيد شعرة من عنق پول. لمح الصبيُّ
بريقًا معدنيًا بطرف عينه، وبدأ يلتفت نحوه.
صاحت فيه: «توقّف!».

إنها تستخدم (الصّوت) مرّة أخرى! أعاد انتباهه إلى وجهها.
قالت له: «إنني أسلّط الجوم جبار على عُنُقك. الجوم جبار،
العدو المتسلّط! إنها إبرة على طرفها قطرة سُمّ. آها! إيّاك أن
تسحب يدك وإلا سيصيبك السُمّ».

حاول پول ابتلاع ريقه فمنعه جفاف حلقه. لم يستطع إبعاد نظره عن الوجه المجعد العجوز، والعينين المتألمتين، واللثة الشاحبة المحيطة بالأسنان الفضيّة التي تومض كلّما تحدّثت. قالت: «لا بُدَّ من أن ابن الدوق على دراية بالسُّموم. إنها موضة العصر، أليس كذلك؟ مسكي الذي يُسمّم شرابك، وأوماس الذي يُسمّم طعامك. السُّموم السريعة، والسُّموم البطيئة، وما بينهما. إليك سُمٌّ جديد اليوم: الجوم جَبّار. إنه لا يقتل سوى الحيوانات». تغلّبت كبرياء پول على خوفه، وسألها: «أتجرئين على قول إن ابن الدوق حيوان؟».

قالت: «دعنا نقول إنني أُلَمِّحُ إلى أنك قد تكون إنساناً»، ثم صاحت: «اثبت! أحمّرك من محاولة التملُّص. صحيح أنني عجوز، لكن يدي قادرة على غرس هذه الإبرة في عنقك قبل أن يرتدَّ إليك طرفك».

همس الصبي: «من أنت؟ كيف أقنعت أمّي أن تتركني بمفردي معك؟ هل أنت من آل هاركونن؟».

- «الهراكنة؟ حاشا وكلّا! والآن، التزم الصمت!».

لمست إصبعٌ جافاً عُنُقَ پول، لكنه قمع الدافع الغريزي الذي طالبه بالقفز مبتعداً.

قالت: «جميل. لقد اجتزت الاختبار الأوّل. الآن إليك ما تبقى منه: إذا سحبت يدك من الصندوق ستموت. هذه هي القاعدة الوحيدة. أبقِ يدك في الصندوق وستعيش، اسحبها وستموت». أخذ پول نفساً عميقاً لتهدئة روعه، وقال: «إذا رفعت صوتي بالنداء سيحيط بك الحرس في ثوان معدودة، وسيردونك قتيلاً». - «ثق بأن الحرس لن يتخطّوا أمّك التي تقف خارج الباب.

لقد اجتازت أمك هذا الاختبار، والآن حان دورك. كن فخوراً، فتادراً ما يخوض الأطفال الذكور هذا الاختبار».

قلل الفضول خوف پول إلى مستوى يمكن التحكم فيه، واستشعر صدقاً لا يُنكر في نبذة المرأة المعجوز. إن كانت أمه تقف حارسة على الباب... إن كان هذا اختباراً حقاً -أو أيّاً كان- فهو يعلم أنه متورط فيه، وأنه أسير تلك اليد المُسلّطة على عنقه: الجوم جبار. تذكر پول تعويذة درء الخوف التي علّمته إياها أمه ضمن طقوس البني جيسيرت.

«يجب ألا أخاف. الخوف قاتل. الخوف ميتة صُفري تُهلك قبل الألوان. سأواجه خوفي. سأسمح له بتجاوزي والمرور من خلالي. وحين يمرّ، سأرنو بعين البصيرة لأرى مسلكه. وحيث مضى الخوف لن يبقى شيء، لن يبقى سواي».

شعر بالطمأنينة تعود إليه، وقال: «فلننتهِ من هذا أيتها العجوز».

صاحت المرأة: «عجوز! حقاً إنك شجاع، ولا يمكن إنكار ذلك. حسناً، سنرى يا فتى»، ثم انحنت مقترية خافضة صوتها، وهمست في أذنه: «ستشعر بألم كاسح يصطلي يدك التي في الصندوق، ولكن! اسحب يدك وسألمس عنقك بالجوم جبار. سيكون الموت سريعاً كضربة السيّاف. اسحب يدك وستنال منك الجوم جبار. مفهوم؟».

- «ماذا في الصندوق؟».

- «الألم».

شعر پول بالخدر يتزايد في يده، فزّم شفّتيه بقوة، وتساءل: كيف يُعقل أن يكون هذا اختباراً؟

بدأ الخدر يتحوّل إلى حَكَّة.

قالت العجوز: «هل سمعت عن الحيوانات التي تقضم إحدى قوائمها للإفلات من شرك الصيَّادين؟ تلك حيلة حيوانية، أمّا الإنسان فسيبقى في الشرك متحملاً الألم، متظاهراً بالموت، أملاً في قتل الصيَّاد والتخلُّص من تهديده لبني جنسه».

تحوّلت الحَكَّة إلى حُرقة خفيفة.

سألها پول: «لِمَ تفعلين ذلك؟».

- «لتحديد إذا أنت إنسان أم لا. التزم الصَّمْتُ».

مع تزايد الشعور بالاحتراق في يده، ضمَّ پول يده اليسرى في قبضة. تزايد الألم ببطء: سخونة من فوق سخونة من فوق سخونة، سميراً بعضه فوق بعض. شعر بأظافر يده الحرة تنغرز في راحتها، وحاول ثني أصابع يده التي تكتوي بالنار، لكنه لم يقوَ على تحريكها. همس: «هذا مؤلم».

- «صمّاً».

انتشر الألم نابضاً في ذراعه. تفصّد جبينه بالعرق. كل نسيج في جسده يصرخ به لسحب يده من هذا التجويف الكاوي، لكن... الجحوم جبار. من دون أن يُدير رأسه، حاول تحريك عينيه لرؤية تلك الإبرة الرهيبة المُسلّطة على عنقه. أدرك أنه يلهث، وحاول تهدئة أنفاسه المتقطعة لكن دون جدوى.

يا للألم!

تلاشى كل شيء من حوله، باستثناء تلك اليد التي تصلى العذاب، ووجه العجوز المُلاصق الذي يرمقه.

كانت شفتاه شديديتي الجفاف حتّى أنه وجد صعوبة في فتحهما.

الألم الحارق! يا للألم الحارق!

شعر بأن جلد يده ينكمش ويتجعد من الاكتواء، وبأن لحمها ينضج ويتساقط، تاركًا خلفه عظامًا عارية متفحمة.

ثم توقف كل شيء!

توقف الألم كما لو أن زراً قد صُفِط.

شعر بول بذراعه اليمنى ترتجف، وبالعرق يُحمم جسده.

«هذا يكفي»، هكذا تمتت المرأة العجوز، ثم أضافت: «وإعجاباً! لم تصمد فتاة إلى هذا الحد من قبل. يبدو أنني كنت أتمنى لك الفشل». ثم تراجعت مُبعدة الجوم جبار عن عنقه. «أخرج يدك من الصندوق وانظر إليها أيها البشري الصغير». قاوم بول رجفة مُوجعة سرت في أوصاله، وحدق إلى الفراغ المظلم الذي بدا كأنه يكتنف يده بمحض إرادتها. لجأت ذكرى الألم حركته، وأخبره المنطق بأنه سيُخرج من الصندوق كتلة شائثة متفحمة. أمرته العجوز بحدة: «افعلها!».

انتزع يده من الصندوق بسرعة، وتأملها مذهولاً. كانت سليمة من غير سوء، لم يخلف العذاب أثراً فيها. رفع يده إلى وجهه، وقلبها محرّكاً أصابعه.

قالت له: «هذا يُدعى الإيلام بتحريض الأعصاب، فليس من الحكمة تشويه من نتوَسَّم في بشريتهم خيراً. يُوجد من هم مستعدون للتضحية بالغالي والنفيس لمعرفة سرّ هذا الصندوق»، ثم أنهت عبارتها ودسّته بين طيّات عباءتها.

قال: «لكن الألم.....».

ردّت باستخفاف: «مُجرّد ألم. يمكن للإنسان تسخير أيّ عصبٍ

في جسده».

شعر پول بألم في يده اليسرى، فأرخی قبضته المضمومة، ورأى أربع علاماتٍ داميةٍ حيث جرحته أظافره راحة يده. أنزل يده إلى جانبه، ورمق المرأة العجوز: «هل فعلت هذا بأُمِّي ذات يوم؟».

سألته: «أسبق لك أن نخلت رمالاً من غريال؟».

صدم السؤال المباغت عقله وأذكى وعيه. رمال من غريال. أوماً مجيباً.

- «نحن معشر البني جيسيرت نغريل الناس لاصطفاء البشر من بينهم».

رفع پول يده اليمنى مستعيداً ذكرى الألم. «وهذا كل ما يتطلَّبه الأمر، الألم؟».

- «لقد راقبتك وأنت تتألم يا فتى. الألم ليس إلا محور الاختبار. لا بُدَّ أن أُمَّك قد حدَّثتك عن أساليبنا في المراقبة والرصد، فأنا أرى آثار تعليمها فيك. يمكن تلخيص اختبارنا في شقين: المحنة والمراقبة».

ميّز پول نبرة الصدق في صوتها، فقال: «هذا صحيح!». حدَّجته ببصرها. لقد استشعر الحقيقة! هل يمكن أن يكون هو المنشود؟ هل يمكن أن يكون هو المنشود حقاً؟ لكنها سرعان ما أخمدت حماسها، وذكَّرت نفسها: «الأمل يؤثّر في المُشاهدة». قالت له: «تستطيع تمييز الصدق في كلام الناس».

- «أجل».

ميّزت العجوز في صوته نبرة اقتناع بقدرته ناتجة عن تجارب سابقة متكرّرة، فقالت: «رُبَّما أنت الكويزاتس هاديراك بالفعل».

اجلس هنا يا أخي الصغير، عند قدميَّ».

- «أفضل الوقوف».

- «لقد جلست أمك عند قدمي ذات يوم».

- «أنا لست أمي».

- «أنت تكن شيئاً من الكره لنا، أليس كذلك؟»، قالتها ونظرت

باتجاه الباب وصاحت: «جيسيكال!».

انفتح الباب على مصراعيه ووقفت جيسيكاً تُحدّق إلى الغرفة بعينين جامدتين، ثم ذاب الجمود من عينيها حين رأت پول، وتمكّنت من رسم ابتسامة باهتة على ثغرها.

سألتهما العجوز: «هل توقّفت عن كُرهي قط يا جيسيكال؟».

قالت جيسيكال: «أنا أحبك وأكرهك في الوقت نفسه. الكره نابع من آلام عليّ ألا أنساها أبداً. أما الحب ف...».

قالت العجوز مُقاطعة: «لم أرغب إلّا في سماع ما أعرف»، لكن كان في صوتها لين: «بإمكانك الدخول الآن، لكن التزمي الصّمت. أغلقي هذا الباب وتأكّدي من أن أحداً لن يقاطعنا».

خطت جيسيكال إلى داخل الغرفة، وأغلقت الباب خلفها واستتدت بظهرها إليه، وفكّرت: ابني نجا. لقد نجا، وهذا يعني أنه... بشري. كنت واثقة بذلك... لكنه... نجا. الآن أستطيع الاستمرار في الحياة. شعرت بصلاية الباب وراء ظهرها. كان كل شيء في الغرفة حاضراً، يملأ حواسّها.

ابني نجا.

نظر پول إلى أمّه. إنها لم تكذب. كان يرغب في الانفراد بنفسه والتفكير بعمق في تلك التجربة، لكنه كان يعرف أنه لا يستطيع المفارقة قبل أن يؤذن له.

لقد صار للعجوز سُلطة عليه.

كلّهما لم تكذب. لقد اجتازت أمّه هذا الاختبار، لا بُدَّ إذاً أن غايةً رهيبةً مَرَجُوءَةٌ منه، لأن الألم والخوف كانا رهيبيين. كان يعرف سمات الغايات الرهيبة. إنها تتجاوز جميع العقبات، وتسير ضد كل الاحتمالات، وتحمل داخلها بذور حتميتها الخاصة. شعر پول أنه أُصيب بعدوى غاية رهيبة، لكنه لم يكن يعرف بعد ماهيتها. قالت العجوز: «يَوْمًا ما يا فتى، أنت أيضًا قد تضطر إلى الوقوف خارج باب كهذا. يتطلّب الأمر بأسًا لفعله».

نظر پول إلى اليد التي ذافت العذاب، ثم رفع بصره نحو الأُمّ الموقرة. كان لصوتها نبرةً تختلف عن أيّ صوت آخر سبق أن مرّ عليه. كان لإيجاز كلماتها وقعٌ وصدى، وكان بها حِدَّةٌ. شعر بأن أيّ سؤال قد يطرحه عليها سيُقابل بإجابة ستُخرجه من عالم التجربة البشرية المادي إلى شيءٍ أعظم.

سألها: «لماذا تبحثين بين الأشخاص عن البشرية؟».

- «لتحريرك».

- «تحريري؟».

- «قديمًا، ترك الناس مهمّة التفكير للألات، على أمل أن يحرّر ذلك البشرية، لكن هذا سمح لأناس آخرين يملكون الألات باستعبادهم».

تمتم پول مقتبسًا: «لا تصنعوا آلاتٍ تُحاكي العقل البشري».

قالت: «اقتباس مباشر من الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي وحقبة الجهاد البطلري. لكن كان يجدر بالإنجيل البرتقالي قول: "لا تصنعوا آلاتٍ تتحل صفات العقل الآدمي". هل تدبّرت أساليب المنتجات الذي يعمل لديكم؟».

- «تعلّمت على يد ظفير حوّاط».

قالت: «الثورة الكبرى سلّبت البشرية العُكَّاز الذي تتكئ عليه، وأجبرت العقول الأدمية على التطوُّر، فظهرت مدارس لشحن المواهب البشرية وتدريبها».

- «مدارس البني جيسيرت؟».

أومأت قائلة: «من بين تلك المدارس العتيقة نجت منظمتان رئيستان: البني جيسيرت ونقابة الفضاء. لا تركّز النقابة إلّا على الرياضيات البحتة تقريباً، أو هكذا نظن، أمّا البني جيسيرت فتضطلع بمهام أخرى».

قال: «السياسة».

صاحت المرأة العجوز: «وا عجباه!»، ووجَّهت نظرة حادة إلى جيسيكَا.

قالت جيسيكَا: «لم أخبره بشيء أبْتها الموقرة».

أعادت الأمُّ الموقرة اهتمامها إلى پول، وقالت: «لقد أصبت بناءً على أدلة قليلة جداً. السياسة بالفعل. مدرسة البني جيسيرت الأصلية كانت تديرها جماعة رأت الحاجة إلى خيط من الاستمرارية في الشؤون الإنسانية، هذه الجماعة رأت أن تلك الاستمرارية لن تحدث دون فصل ذوي النزعة الإنسانية عن ذوي النزعة الحيوانية، لأغراض تحسين النسل».

فجأة، فقدت كلمات المرأة العجوز وقعها المؤثر في أُذني پول، وشعر فيها بإهانة لما سمّته أمّه فيه بـ«غريزة الصواب». لم يكن ما ضابقه هو كذب الأمِّ الموقرة عليه، فمن الواضح أنها تؤمن بما قالت، بل كان شيئاً أعمق، شيئاً مرتبطاً بتلك الغاية الرهيبة.

قال لها: «لكن أمي أخبرتني بأن أخوات كثيرات في مدارس
البنّي جيسيرت لا يعرفن شيئاً عن أسلافهن».
قالت: «الأنساب محفوظة جيّداً في سجلّاتنا. أمّك تعلم أنها
إما من نسل البنّي جيسيرت وإما أن نسبها كان مقبولاً في حدّ
ذاته».

- «لماذا إذا لا يمكن لها أن تعرف من والديها؟».

- «بعضهن يعرفن، وكثيرات لا يعرفن. على سبيل المثال، قد
نرغب في أن تتناسل مع قريب لها من الدرجة الأولى لتعزيز
إحدى الصفات الوراثية السائدة في عائلتها. لدينا من الأسباب
الكثير».

مرّة أخرى شعر پول بإهانة لصوابه، فقال: «تحملن أنفسكن
أمرّاً جليلاً».

رمقته الأم الموقرة وتساءلت متعجّبة: أهذا الذي استشعره في
صوته انتقاد؟ ثم قالت: «نحمل عبئاً ثقيلاً».

شعر پول بأنه يتجاوز شيئاً فشيئاً صدمة الاختبار، فوجّه لها
نظرة فاحصة وقال: «أنت تقولين إنني ربّما أكون... الكويزاتس
هاداريك. ماذا يعني ذلك؟ أهو اختبار آخر كالجوم جبار، ولكن
بشري؟».

قالت جيسيكّا: «پول، يجب ألا تتحدّث بهذه النبرة مع...».

قاطعتها العجوز قائلة: «سأتعامل مع الأمر يا جيسيكّا. قل لي
يا فتى، أتعرف شيئاً عن عقار كشف الحقيقة؟».

رد پول: «أخبرتني أمي بأنه عقار يؤخذ لتحسين قدرة المرء
على تمييز الحق من الباطل».

- «هل سبق لك أن شهدت نشوة الحقيقة؟».

هزَّ رأسه نافيًا: «كلا».

قالت: «العقار خطرٌ، لكنه يمنح نظرة ثاقبة. عندما تشحذ عرَّافة الحقيقة قدرتها بالعقار، تستطيع التجوُّل في أماكن كثيرة في ذاكرتها، في ذاكرتها الجسدية. نحن نستطلع كثيرًا من دروب الماضي، لكننا مقيِّدات بالدروب الأنثوية فحسب»، وشاع في صوتهما نبرة حزن وهي تقول: «ومع ذلك، ثمة مكان لا تستطيع أيُّ كاشفة حقيقة رؤيته. مكان مروِّع نفّر منه. تقول النبوءة إن رجالًا سيأتي يومًا ما وستشحذ هبة العقار عين بصيرته. هذا الرجل سينظر إلى حيث لا نستطيع النظر، وسيرى دروب كل من الماضي الأنثوي والذكوري».

- «وهل هذا هو الكويزاتس هاداريك الذي تقولين عليه؟».

- «أجل، صاحب الخطوة، من يستطيع أن يكون في أكثر من مكان في الآن ذاته: الكويزاتس هاداريك. رجالٌ كثيرون جرَّوا العقار، كثيرون جدًّا، لكن أحدًا منهم لم ينجح».

- «جميعهم حاول وفشل».

هزَّت العجوز رأسها هائلة: «أوه، كلا. جميعهم حاول ومات».

إن محاولة فهم حياة المؤدّب من دون فهم الهراكنة،
خصومه اللدودين، أشبه بمحاولة رؤية الحق دون
معرفة الباطل، أشبه بمحاولة رؤية النور دون معرفة
الظلام: أمرٌ يتعدّر فعله.

من كتاب «دليل المؤدّب» للأميرة إيrolان.

على حاملٍ حُرٍّ بجوار أحد حوائط الغرفة العديدة النوافذ، قبع
مُجسّمٌ كروي لكوكبٍ بارز التضاريس، نصفه متوارٍ في الظلال،
يدور بفعل الزخم الناتج عن دفع يدٍ سميكة تتلأل الخواتم فيها.
وعلى الحوائط الأخرى، تناثرت رقّع من مخطوطاتٍ متعدّدة الألوان
وكتب مرثية وأشرطة وبكرات. كان الضوء الساطع في الغرفة يأتي
من كرات ذهبية تطفو في حقول طاقة معلّقة قابلة للتحريك.

في منتصف الغرفة، تأرّض مكتبٌ بيضاوي سطحه وردي بلون
اليشم مصنوع من خشب الإلاكة المتحجّر، تحيط به مقاعد
معلّقة مضادة للجاذبية، يحتل شخصان اثني منها: أحدهما شاب
مستدير الوجه، داكن الشعر، متجهّم العينين، سنّه نحو ستة عشر
عامًا. أما الآخر فرجلٌ نحيفٌ قصيرٌ ذو وجهٍ مخنث.

كان الرَّجل والشاب يحدّقان إلى مُجسّم الكوكب، وإلى الرجل
المتواري في الظلال الذي يديره.

جاءت قهقهة خفيضة من جهة المُجسّم، ودمدم صوتٌ عميق
من بين ثناياها قائلاً: «ها هي يا بايتر، أكبر مصيدة في التاريخ،
والدوق الغافل يتّجه نحو فكّيها. أليس هذا أروع شيءٍ فعلته، أنا
البارون فلاديمير هاركونن؟».

قال الرجل: «من غير ريب أنَّها البارون». كان صوته ناعماً وفيه رنة موسيقية عذبة.

نزلت اليد السمينة على مُجَسَّم الكوكب وأوقفت دورانه، وهنا استطاعت العين في الغرفة التركيز على الكرة الثَّابِتة وتبيَّن أنها من المُجَسَّمات التي تُصنع لهواة جمع المقتنيات من الأثرياء، أو لِحُكَّام الكواكب في الإمبراطورية، وبدا واضحاً من تفاصيلها الدقيقة أنها إمبراطورية الصنع. كانت خطوطُ الطول ودوائر العرض عليها مصنوعة من أسلاك بلاتينية أدق من الشعر، أمَّا القُطبان الجليديان فكانا ألماسيتين بلون الحليب من أجود أنواع الألماس.

تحركت اليد السمينة متبَّعة التفاصيل على سطح الكرة، ودمدم صاحب الصَّوت العميق قائلاً: «أدعوك للنظر والمعاينة من كتب يا بايتر، وأنت أيضاً يا عزيزي فيد راوثا: هذه التَمَوُّجات الرائعة التي تمتد من 60 درجة شمالاً إلى 70 درجة جنوباً. ألاحظان ألوانها؟ ألا تذكركما بحلوى الكراميل؟ لا وُجود لزُرقة البحيرات أو الأنهار أو البحار الصافية في أيِّ مكان. وهذان القُطبان الأبيضان الجميلان، كم هما صغيران! هل يمكن لأيِّ شخصٍ ألا يتعرَّف هذا المكان؟ إن أَرَّاكس لكوكبٌ فريد حقاً! ساحة رائعة لتحقيق انتصارٍ فريد».

لمست ابتسامة خفيفة شفطي بايتر وهو يقول: «وتخيَّل يا بارون أن الإمبراطور الپاديشاه يظنُّ أنه منح الدوق كوكب الاسپايس الذي تحكمه. كم هذا مؤثراً».

تمتم البارون: «هذا كلام سخيف لا معنى له تقوله لتشويش الفتى فيد راوثا، لكن لا داعي لتشويش ابن أخي بمثل هذا الكلام الفارغ».

تلملم الفتى مُتجهِّم الوجه في مقعده، وفرد بيده تجعيدة في الزيِّ الأسود الضيق الذي يرتديه. كان يجلس منتصباً عندما سمع نقرأ مهذباً على الباب في الحائط الذي خلفه. قام بايتر من مقعده وسار إلى الباب، وفتح فرجة صغيرة منه تكفي لاستلام رسالة ملفوفة في أسطوانة، ثم أغلق الباب، وفض الرسالة وتفحص فحواها. فلتت منه ضحكة خافتة، ثم تبعها أخرى. سأل البارون: «ما الأمر؟».

- «لقد أرسل الأحمق ردّاً علينا أيُّها البارون».

تساءل البارون: «ومتى فوّت أحد آل آتريدس فرصة القيام بلفتة طيبة؟ حسناً، ماذا يقول؟».

- «إنه غير مهذب البتّة أيُّها البارون، يخاطبك باسمك المجرّد "هاركونن"، بلا ألقاب ولا حتّى "سموك" أو "عزيزي"».

دمدم البارون: «إنه اسم جيّد»، ثم فضح صوته نفاذ صبره وهو يردف: «ما الذي يقوله العزيز ليتو؟».

- «يقول: "عرض الاجتماع الذي قدّمته مرفوض. غدرك معروف للجميع، وقد لدغت منه مراراً"».

سأل البارون: «ثم؟».

- «يقول: "لا يزال لذن الكانلي معجبون في الإمبراطورية". ثم ذيل الرسالة بتوقيعه: "ليتو آتريدس، دوق أراكس"، قالها بايتر وبدأ يضحك بصوت عالٍ: «دوق أراكس! يا إلهي! يا لها من نكتة تُميت من الضحك!».

قال البارون: «صه يا بايتر»، فتوقّف الرجل عن الضحك كأنما بضغط زر. ثم غمغم البارون متسائلاً: «الكانلي، هه؟ الثأر

المقنن، أليس كذلك؟ لقد قصد استخدام الكلمة القديمة العريقة للتأكد من أنني أعلم أنه يعينها».

قال بايتر: «لقد أبديت حسن نية وقدّمت بادرة صلح يا سيّدي، وبهذا تكون اتّبعت التقاليد».

قال البارون: «أنت ثرثار جدّاً بالنسبة إلى منّات»، ثم هكّر: يجب أن أتخلّص منه قريباً، لقد عاش أطول من اللازم ولم يعد مفيداً تقريباً. حدّق البارون عبر الغرفة إلى المِنّات كبير المغتالين الذي يعمل تحت إمرته، ورأى الملمح الأبرز الذي يلحظه كل من يراه للمرّة الأولى: العينين الضيّقتين المدلهمتين بدرجات متداخلة من الزُرقة بعضها في بعض، العينين اللتين لا يياض فيهما.

طرأت ابتسامة على وجه بايتر، وكانت أشبه بقناع مخيف أسفل تلك العينين الفائرتين. «لكن أيّها البارون! لم أكن أعلم أن الثأر يمكن أن يكون بمثل هذا الجمال. الخطة الموضوعية تتطوي على أروع أشكال القدر. أن يُخدع ليتو ويقبل أن يكون حاكماً على كتيب بدلاً من كلابان، وألاً يكون أمامه بديل آخر لأن الإمبراطور أمر بذلك، لهو دهاءٌ وكيدٌ عظيم!».

قال البارون بنبرة باردة: «الكلام يندلق من فمك يا بايتر».

- «لأنني سعيد يا سيّدي البارون. في حين أن شعورك... يشوبه غيرة».

- «بايتر!».

- «أجل أيّها البارون! ألا تأسف لأنك لم تستطع أن تحيك هذه الخطة النميرة بمفردك؟».

- «يوماً ما سأمر بخنقك يا بايتر».

- «لا شك في هذا أيُّها البارون! بعض الناس إذا وجد البديل نكر الجميل، أليس كذلك؟».

- «هل كنت تمضغ حشيشة الفيريت أو السموتا يا بايتر؟».

قال بايتر: «كلمة الحق بلا خوف تُدهش البارون»، والتوت قسَمات وجهه إلى ما يشبه قناعًا كاريكاتوريًا عابسًا، وأردف: «لعلمك أيُّها البارون، بصفتي مِنَتًا، فأنا أعلم متى سترسل من سيقتلني، وأنت لن تفعلها ما دمت مفيدًا. التعجيل بقتلي سيكون خسارة كبيرة لك، وأنا ما زلت مفيدًا. أعرف الحكمة التي تعلَّمتها من كوكب كتيب: إيَّاك وإهدار الموارد. أليس كذلك يا بارون؟».

واصل البارون تحديقَه إلى بايتر.

تملَمل فيد راوثا في جلسته، وفكَّر: يا لهذينَ الأحمقين المتشاحنين دومًا. لا يستطيع عمِّي الحديث إلى مِنَتاته دون جدال. أيضًا أن أنه ليس لدي ما أفعله سوى الاستماع إلى جدالهما؟

قال البارون: «فيد، لقد طلبت منك الاستماع والتعلُّم حين دعوتك إلى هنا. هل تتعلَّم شيئًا؟».

ردَّ فيد بصوتٍ حرص على أن يكون خنوعًا: «أجل يا عمي».

قال البارون: «أحيانًا أتعجَّب من أمر بايتر. أنا لا ألجأ إلى العنف إلَّا للضرورة، أمَّا هو.. فأقسم أنه يستمتع به. عن نفسي، أشعر بالشفقة تجاه الدوق ليتو. سيتحرَّك الدكتور يُوي ضده قريبًا، وستكون هذه نهاية آل آتريدس عن بكرة أبيهم. لكن بالتأكيد ليتو سيعرف اليد التي حرَّكت الطبيب المطيع.. وهذه المعرفة ستكون شيئًا فظيئًا».

سأل بايتر: «لماذا إذا لم تطلب من الطبيب أن يطمئه بخنجر بين ضلوعه بهدوء وكفاءة؟ أنت تتحدث عن الشفقة، لكنك...».

قال البارون: «يجب أن يعلم الدوق أنني من تسبب في هلاكه، ويجب أن تعلم الأسر النبيلة الأخرى الأمر كذلك. ستشمل المعرفة تفكيرهم لبرهة، وسأكسب وقتًا للمناورة وتوظيف نفسي. الضرورة جليّة، لكن ليس عليّ أن أحبها».

قال بايتر ساخرًا: «وقتًا للمناورة. إن عينَ الإمبراطور مسألة عليك بالفعل يا بارون. أنت تتصرّف بجرأة كبيرة. يومًا ما سيرسل الإمبراطور فيلقًا أو اثنين من جنوده السّاردوكار إلى هنا، إلى جيدي برايم، عندها ستكون هذه نهاية البارون فلاديمير هاركون».

سأله البارون: «تود أن ترى ذلك يا بايتر، أليس كذلك؟ ستستمتع برؤية كنائس السّاردوكار تنهب مُدُنِي وتنهب هذه القلعة. ستستمتع بذلك حقًا».

همس بايتر: «وهل يحتاج البارون إلى مثل هذا السؤال؟».

قال البارون: «كان يجب أن تكون باشارًا عسكريًا، فأنت مولع بالقتل والدماء. أظن أنني تسرّعت كثيرًا في وعودي لك بغنائم أراكس».

سار بايتر خمس خطوات غربية رشيقة في الغرفة، وتوقّف خلف فيد راوثا مباشرة. كان الهواء في الغرفة ثابتًا مشحونًا بالتوتر، ونظر الفتى إلى أعلى نحو بايتر بعبوس قلق.

قال بايتر: «لا تعبت مع بايتر أيّها البارون. لقد وعدتني بالليدي جيسيكا. لقد وهبتها لي».

سأل البارون: «مقابل ماذا يا بايتر؟ مقابل الألم؟».

ظلّ بايتر يحملق إليه، مسترسلًا في الصّمت.

حرَّك فيد راوثا مقعده المعلق في الهواء جانباً وقال: «هل عليَّ البقاء يا عمِّي؟ لقد قلت إنك...».

قال البارون: «عزيزي فيد راوثا ينفذ صبره»، وبدأ يتحرَّك بين الظلال المحيطة بالمجسَّم. «صبراً يا فيد»، ثم أعاد انتباهه إلى المنتات وقال: «ماذا عن ابن الدوق يا عزيزي بايتر؟ الصبيُّ پول». غمغم بايتر: «سيقع في المصيدة كذلك أيُّها البارون».

قال البارون: «ليس هذا ما قصدت. ألا تذكر أنك توقَّعت أن ساحرة البني جيسيرت ستنجب ابنةً للدوق؟ كنت مخطئاً يا منتات، أليس كذلك؟».

قال بايتر: «معظم الوقت أُصيب أيُّها البارون»، وللمرَّة الأولى شاب صوته نبرة خوف: «عليك أن تعترف لي بهذا، فأنا نادراً ما أخطئ. وأنت نفسك تعرف أن هؤلاء البني جيسيرت يحملن إناناً في الغالب. حتى قرينة الإمبراطور لم تلد سوى إناث».

تنحج فيد راوثا: «عمِّي، لقد قلت إنه سيكون هناك شيء مهم ينبغي لي أن...».

قال البارون: «استمع إلي ابن أخي. إنه يطمح إلى الحُكم من بعدي، لكنه يعجز عن التحكُّم في نفسه». تحرَّك البارون بجانب مجسَّم الكوكب، كظل بين الظلال. «حسنأ يا فيد راوثا هاركونن، لقد استدعيتك إلى هنا أملاً في تعليمك بعض الحكمة. هل انتبهت إلى كلام منتاتنا المخلص؟ يجب أن تكون قد تعلمت شيئاً من جدالنا».

- «لكن يا عمِّي...».

- «إنه منتات شديد البراعة، ألا توافقني الرأي يا فيد؟».

- «أجل، ولكن...».

- «نعم، اعتراضك في محلّه! لكنه يسهّلك الكثير من الاسپايس.. يتأوله كالعلوى. انظر إلى عينيه! يبدو كأنه أحد أفراد الطبقة الأرأكسية العاملة. إن پايتر لكُفء، لكنه لا يزال رهيفاً وعرضة للانفعالات العاطفية. إن پايتر لكُفء، لكنه غير معصوم من الخطأ».

تكلّم پايتر بنبرة خفيضة حرون: «أدعوتي إلى هنا للنيل من كفاءتي يا بارون؟».

- «النيل من كفاءتك؟ أنت تعرفني جيّداً يا پايتر. كل ما أريده هو أن يدرك ابن أخي أوجه قصور ومحدودية المِنتات».

سأله پايتر: «هل بدأت تدريب بديل لي بالفعل؟».

- «بديلٌ لك؟ لماذا يا پايتر؟ أين سأجد مِنتاتاً آخر يتمتّع بمكرك وضمينتك؟».

- «في نفس المكان الذي وجدتي فيه أيّها البارون».

قال البارون متأمّلاً: «ربّما ينبغي لي فعل ذلك، فانت تبدو غير مستقر بعض الشيء مؤخّراً. ويا لكم الاسپايس الذي تأكله!».

- «أملدّاتي باهظة الثمن يا بارون؟ ألك اعتراضٌ عليها؟».

- «عزيزي پايتر، ملدّاتك هي ما يربطك بي. كيف لي أن أعترض عليها؟ كل ما أبغاه أن يعرف ابن أخي هذا عنك».

قال پايتر: «أنا فقرة للعرض إذا، أتريدني أن أرقص؟ أتريدني أن أستعرض وظائفني المختلفة لحضرة العظيم فيد راوٲ...».

قال البارون: «بالضبط، أنت فقرة للعرض، التزم الصّمت الآن»، ثم نظر إلى فيد راوٲا، ولاحظ أن شفّتي ابن أخيه الممثلّتين المكتزّتين -السمة الجينية المميّزة لنسل الهراكنة- قد التوتا

الآن بعض الشيء طرياً. «هذا مِنّات يا فيد، تدرب وتكيف لأداء واجبات محدّدة. ومع ذلك، يجب عدم إغفال حقيقة أنه ما زال حبيساً في جسدٍ بشري. هذا عيبٌ خطيرٌ. أحياناً أخال أن الأسلاف كانوا على حق باعتمادهم على الآلات الذكية».

زمجر پايتر: «تلك الآلات كانت مجرد ألعاب أطفال مقارنةً بنا. حتّى أنت أيّها البارون كنت ستتفوّق عليها».

قال البارون: «رُبّما، حسناً...»، ثم أخذ نفساً عميقاً وتجشّأ: «الآن يا پايتر، أوجز لابن أخى الملامح البارزة لحملتنا ضد آل آتريدس. أدّ وظيفتك المِنّاتية إذا سمحت».

- «لقد حدّرتك أيّها البارون ألا تأتمن شخصاً صغير السنّ بهذه المعلومات، فمن مُعانيّتي لـ...».

قاطعه البارون: «لست أنت من يقرّر. لقد أعطيتك أمراً يا مِنّات. أدّ إحدى وظائفك المختلفة».

قال پايتر: «فليكن»، ثم اعتدل في وقفته، وانتصب في وضعٍ غريب يكتنفه شموخ بدا كأنه قناعٌ آخر يغطّي جسده بالكامل هذه المرّة. «في غضون أيّام قليلة حسب التقويم القياسي الموحد، ستصعد عائلة الدوق ليتو بكامل حاشيتها إلى متن إحدى السفن التابعة لنقابة الفضاء، وستنزلهم النقابة في مدينة أراكين بدلاً من مدينة قرطاج عاصمة حكمنا. ظفير حوّاظ، مِنّات الدوق ليتو، سيكون قد استنتج -بشكل صائب- أن أراكين أسهل في الدفاع عنها».

قال البارون: «استمع بعناية يا فيد. لاحظ الخطط ضمن الخطط ضمن الخطط».

أوماً فيد راوثا مفكراً: هذا أكثر ممّا كنت أتمنّى. الوحش
المعجوز يطلّعي على بعض الأسرار أخيراً. لا بُدّ أنه يرغب حقاً
في أن أكون وارثه.

قال بايتر: «هناك انحرافات عدّة محتملة. يميل توقّعي إلى
أن آل آتريدس سيذهبون إلى أراكس بالفعل، ومع ذلك، يجب ألا
نتجاهل احتمال تعاقد الدوق مع النقابة لإنزاله في مكان آمن
خارج النظام. آخرون في ظروف مشابهة أصبحوا عائلات مارقة،
وأخذوا أسلحتهم ودروعهم الذريّة وهربوا إلى مناطق نائية بعيدة
عن نفوذ الإمبراطورية».

قال البارون: «الدوق رجلٌ يمنعه اعتزازه عن فعل ذلك».
قال بايتر: «هذا احتمال قائم، لكن النتيجة النهائية بالنسبة
إلينا لن تختلف».

زمجر البارون: «بل ستختلف! يجب أن يموت وينقطع نسله».
قال بايتر: «هذا هو الاحتمال الأكبر. ثمة استعدادات بعينها
تشير إلى احتمالية تمرّد إحدى العائلات، والدوق لا يبدو أنه
يقوم بأيّ منها».

تنهّد البارون في ارتياح: «حسناً، واصل استعراض الخطة يا
بايتر».

قال بايتر: «في مدينة أراكين، سيشغل الدوق وعائلته دار
الإقامة التي كان يشغلها في الآونة الأخيرة الكونت فترينج
والليدي زوجته».

ههته البارون: «سفير المهرّبين».

سأل راوثا: «سفير ماذا؟».

ردّ پايتر: «عمُّك يلقي النكات. إنه ينعت الكونت فنرينج بسفير المهرَّيين، في تلميحٍ إلى اهتمام الإمبراطور بعمليات التهريب على كوكب أراكس».

رمق فيد راوثا عمّه بنظرة حائرة.

- «لماذا؟»

ردّ البارون بعدّة: «لا تكن غيبياً يا فيد. ما دامت أعمال النقابة لا تخضع لسيطرة الإمبراطورية، كيف ستمضي الأمور خلاف ذلك؟ كيف يمكن للجواسيس والقتلة التحرك؟».

تكوّر فم فيد راوثا في آهة فهم عديمة الصّوت: «أوه!».

واصل پايتر: «لقد ربّنا لتنفيد عمليات إلقاء في دار الإقامة. ستجرى محاولة لاغتيال وارث الدوق أتريدس، وهي محاولة قد تنجح». دمدم البارون: «پايتر، لقد أكّدت أن...».

قاطعه پايتر: «أكّدت أن الحوادث ستقع، لذا يجب أن تبدو محاولة الاغتيال مقنعة».

قال البارون: «أجل، لكن الفتى يتمتّع بجسدٍ جميل يافع. بالتأكيد قد يكون أكثر خطورة من أبيه، خصوصاً مع تدريب أمّه السّاحرة له. تلك الملعونة! حسناً، أكمل يا پايتر من فضلك».

قال پايتر: «سيستنتج حوَّاط أننا زرعنا عميلاً بينهم، والمشتبه فيه الأوّل سيكون الدكتور يوي، عميلنا بالفعل. لكن حوَّاط أجرى تحريّاته عنه مسبقاً، وعرف أن طبيبنا تخرّج في كليّة سوك، وتلقّى تهيئة عقلية إمبراطورية، ومن مثله يؤتمنون على خدمة الإمبراطور نفسه. تُجرى التهيئة العقلية الإمبراطورية بحرصٍ وعناية كبيرين، ويقال إن التهيئة النهائية لا يُمكن إزالتها دون قتل

من خضع لها. لكن كما قال أحدهم يومًا ما، يستطيع المرء تحريك كوكبٍ كامل باستخدام الرافعة المناسبة، وقد عثرنا على الرافعة المناسبة لتحريك الطبيب».

سأل فيد راوثا: «كيف؟». أثار الموضوع شغف الفتى بشدة، فالجميع يعلم أن اختراق التهيئة العقلية الإمبراطورية مستحيل! قال البارون: «رُبَّما في وقتٍ آخر. أكمل يا بايتر». أكمل بايتر: «بدلاً من يُوي، سنضع في طريق حوَّاطٍ مشتبهاً فيها مثيرة للاهتمام. جرأة تلك المشتبه فيها في حدِّ ذاتها ستجعلها محط اهتمام حوَّاط».

سأل فيد راوثا: «تقول هي؟». قال البارون: «الليدي جيسيكاً بشحمها ولحمها». سأل بايتر: «أولست فكرةً عظيمةً؟ سيمتلاً عقل حوَّاط بهذا الاحتمال إلى درجة ستشوّش على قدراته المِنتائية وتضعفها، ولربَّما حتّى حاول قتلها»، ثم قطب جبينه وأردف: «لكنني لا أظن أنه سيكون قادراً على تنفيذ ذلك».

سأل البارون: «بل لا تريده أن يفعل ذلك، صح؟». قال بايتر: «لا تشئتني. في أثناء انشغال حوَّاط بالليدي جيسيكاً، سنصرف انتباهه أكثر بإحداث قلاقل وانتفاضات في مدن الحاميات العسكرية وغيرها، لكننا سنخمدّها بعد ذلك. يجب أن يشعر الدوق بأنه اكتسب قدراً من الأمان. وعندما تحين اللحظة المناسبة، سنعطّي أمراً لِيُوي بالتحرك، وسنهبط بقوّاتنا الرئيسية... آه...».

قال البارون: «أكمل، أخبره بكل شيء». - «سنتحرك بدعم من فيلقي ساردوكار متكرّرين في زِيّ حاشية آل هاركونن».

صاح فيد راوثا لاهثاً: «ساردوكارا»، وراح يتخيّل الصوّات الإمبراطورية التي تبثُّ الفزع والرعبة في القلوب، أولئك القتلة العديمي الرحمة، أشاوس الإمبراطور الهاديشاه المتعصّبين. قال البارون: «أترى إلى أيّ مدى أثق بك يا فيد؟ يجب ألاّ تخرج كلمة ممّا يُقال هنا إلى أيّ من العائلات النبيلة الأخرى، وإلاّ قد يتّحد مجلس اللاندراد ويقف في وجه العائلة الإمبراطورية وتعمّ الفوضى».

قال پايتير: «الفكرة هنا كالآتي: اكتسب آل هاركونن أفضلية منذ أن أخذوا على عاتقهم القيام بأعمال الإمبراطور القذرة. إنها أفضلية محفوظة بالمخاطر بلا شك، لكن إن استُخدمت بحرص ستجلب على آل هاركونن ثروة عظيمة لا تُضاهيها ثروة عائلة نبيلة أخرى في الإمبراطورية».

قال البارون: «لن تصدّق حجم الثروة التي على المحك يا فيد، لن ترد حتّى في أقصى خيالاتك جموحاً، بادئ ذي بدء، سنحصل على مقعد دائم في مجلس إدارة شركة تشوم».

أوماً فيد راوثا متفهّماً. الثروة هي المُراد، وشركة تشوم هي مفتاح الحصول على تلك الثروة. كل عائلة نبيلة تنهل من خزائن الشركة كل ما تستطيع بالسُّلطة التي يحوّلها لها مقعدها في مجلس الإدارة. عضوية مجلس إدارة شركة تشوم هي المقياس الحقيقي للنفوذ السياسي في الإمبراطورية، وهو يتغيّر بتغيّر الأصوات داخل مجلس اللاندراد الذي يشكّل جبهة موازنة في وجه الإمبراطور وأنصاره.

قال پايتير: «قد يحاول الدوق ليتو الفرار إلى حتالة الفرمن الذين يعيشون بامتداد حافة الصّحراء، أو قد يحاول إرسال

أسرته إلى هذا الملاذ الوهمي. لكن هذا الطريق مسدود بأحد عملاء جلاله الإمبراطور، عالم البيئات الكوكبية. رُبُّما تتذكَّره، اسمه كاينز».

قال البارون: «فيد يتذكَّره، أكمل».

قال بايتر: «أنت عاجز عن السيطرة على لعبك يا بارون».

زار البارون: «أكمل. هذا أمر».

هزَّ بايتر كتفيه وقال: «إن سارت الأمور كما خُطِّط لها، فخلال سنة واحدة ستحوز عائلة هاركونن وكالة إقطاعية على أَرَاكس من الباطن ستمكَّنها من الاستحواذ عليه. سيدبر عمُّك تلك الوكالة وسيكون له حق التوزيع منها، وسيحكم نائبه الشخصي كوكب أَرَاكس».

قال فيد راوثا: «وهذا يعني مزيداً من الأرباح».

قال البارون: «بالتأكيد»، ثم فكَّر: هذا هو العدل، فنحن من رَوْضنا كوكب أَرَاكس وأحكمنا قبضتنا عليه بالكامل، باستثناء قِلَّة من الفرمن الأنغال المختبئين في أطراف الصَّحراء، وبعض المهريين سهلي الانقياد المرتبطين بالكوكب بشدَّة مثل العمَّال المحليين.

قال بايتر: «ولسوف تعلم العائلات النبيلة أن البارون دمر آل

آتريدس، أجل سيعلمون».

تنفَّس البارون قائلاً: «سيعلمون».

قال بايتر: «أجمل ما في الأمر أن الدوق كذلك سيعلم، إنه

حتَّى يعلم الآن، ويستشعر المكيدة بالفعل».

قال البارون وفي صوته مسحة من الحزن: «صحيح أن الدوق

يعلم، لا مفر من أن يعلم.. ولعمري هذا مؤسف».

تحرَّك البارون بعيداً عن مُجسَّم كوكب أَرَاكس، ومع خروجه

من بين الظلال، ارتسمت أبعاد جسده الضخم سافر البدانة. من

أسفل ثايا رداثه الداكن، برزت انتفاخات طفيفة تكشف أن كل هذه الدهون محمولة جزئياً بنظام تعليق مضاد للجاذبية مشدوداً بحزام إلى جسده. رُبَّما كان وزنه مئتي كيلوجرام، لكن قدميه لا تحملان إلا خمسين كيلوجراماً منها.

تلمَّظ البارون قائلاً: «أنا جائع»، وفرك شفتيه الغليظتين بيدٍ مكتنزة تملؤها الخواتم، ونظر إلى فيد راوثا بعينين غائرتين في طبقاتٍ من الدهن، ثم أردف: «أبلغ الخدم بأن يُعدّوا لنا الطعام يا عزيزي، سنأكل قبل أن نخلد إلى الفراش».

مكتبة
t.me/t_pdf

«على الأم الموقرة أن تجمع بين غواية العشيقات وشموخ الآلهة العذراوات، وأن تحافظ دومًا على شعرة غير مقطوعة بين الصفتين ما دام ماء الشباب يسري في جسدها. لأنه حين يذهب الشباب ويذبل الجمال، ستجد أن هذه الشعرة قد تحولت إلى حبل مجدول من المكر والدَّهاء». هكذا تحدّثت القديسة عالية* حاملة السكين.

من كتاب «المؤدّب: شروح السيرة العائلية» للأميرة إيrolان.

سألت الأم الموقرة: «حسنًا يا جيسيكَا، بم ستسوّغين فعلتك؟». كانت شمس يوم اجتياز پول الاختبار العصيب قد أوشكت على الغروب عن قلعة كلادان، وكانت المرأتان بمفرديهما في غرفة جيسيكَا الصباحية، في حين ما جلس پول ينتظر في حجرة التأمل المجاورة العازلة للصوت.

وقفت جيسيكَا في مواجهة النوافذ الجنوبية ترمق ألوان المساء البادية عبر المرج والنهر لكن دون أن تراها، وسمعت سؤال الأم الموقرة لكن دون أن تسمعه.

تذكّرت اختبارًا عصيبًا آخر حدث منذ سنوات كثيرة. في ذلك اليوم، كانت لا تزال فتاة نحيلة برونزية الشعر، جسدها مُعذَّبٌ برياح البلوغ، تخطو داخله مكتب الأم الموقرة جايس هيلين موهيم مشرفة مدرسة البني جيسيرت العليا على كوكب والاك 9. نظرت جيسيكَا إلى أسفل متأمّلةً يدها اليمنى، وشت أصابعها متذكّرة الألم، متذكّرة الرعب، متذكّرة الغضب.

ثم همست لنفسها: «يا لهول المسكين!».

- «وَجَّهْتُ إِلَيْكَ سَوْأَلًا يَا جِيسِيكَا!». كان صوت المرأة العجوز حادًا .. أَمْرًا.

«ماذا؟ آ...»، صرخت جيسيكَا الماضي عن انتباهها، وواجهت الأُمَّ الموقرة التي كانت تجلس وظهرها إلى الجدار الحجري الذي يتوسط النافذتين الغربيتين. «ماذا تريد مني أن أقول؟». - «ماذا أريد منك أن تقولي؟ ماذا أريد منك أن تقولي؟»، هكذا ردَّت العجوز بنبرة ساخرة قاسية.

انفجرت جيسيكَا عالمة أنها تُساق إلى هذا الغضب عن عمد: «أنجبت ولدًا، ما الجريمة في ذلك؟».

- «أمرت بإنجاب فتيات فحسب لآل آتريديز». قالت جيسيكَا مستعطفة: «كان يرغب في صبيٍّ بشدة». - «وانت أخذتك العِزَّة وظننت أنك ستلدين الكويزاتس هاديراك!».

رفعت جيسيكَا أنفها بشمم وقالت: «لمست الاحتمال». صاحت العجوز: «لم تفكّري إلَّا في رغبة دوقك في ابن، ورغباته لا قيمة لها. كان بالإمكان تزويج ابنة آل آتريديز بوارث آل هاركونن وإغلاق الدائرة، لكنك بفعلتك هذه عقّدت الأمور إلى درجة ميؤوس منها، والآن قد نفقد كلا السلالتين».

قالت جيسيكَا متحدية نظرة العينين المُسنَّتين الثَّاقبة: «لا أحد معصوم من الخطأ، حتَّى أنت».

مرَّت هنيهة صمت، ثم غمغمت العجوز في النهاية: «ما حدث حدث».

قالت جيسيكَا: «تعهدت ألا أندم على قراري أبدًا». ردَّت الأُمَّ الموقرة بسخرية: «لا ندم! يا للنبل! سنرى معدنك

الحقيقي حين تصبحين هاربة، وتُرصَد جائزة لمن يأتي برأسك،
وتقلب كل الأيدي ضدَّك ساعيةً لقتلك وقتل ابنك».
شحب وجه جيسिका وهمست: «ألا يوجد بديلٌ آخر؟»
- «بديلٌ آخر؟ أهذا سؤال تسأله امرأة من البني جيسيرت؟»
- «لا أطلب سوى لمحة من المستقبل الذي تبصرينه ببصيرتك
النَّافذة».

- «أبصر في المستقبل ما أبصرته في الماضي. تعرفين جيِّداً
النمط الذي يحكم شؤوننا يا جيسिका. العرق البشري يعني أنه
يحمل بذور فنائه بداخله، ويخشى ركود صفاته الوراثية، لذا
تجري الرغبة في خلط سلالات الجينات بشكل عشوائي غريزة
في عروقنا مجرى الدم. ما الإمبراطورية وشركة تشوم وكل
العائلات الكبيرة إلا قطع حُطام في طريق الطوفان».
تمتت جيسिका: «ظننت أن تشوم قرَّرت بالفعل كيف ستعيد
تقسيم غنائم أراكس».

قالت العجوز: «تشوم ليست إلا مؤشر اتُّجاه الريح في هذا
العصر. الإمبراطور وأصدقاؤه يسيطرون الآن على 59.56% من
أصوات مجلس إدارة تشوم. قطعاً هم يشمُّون رائحة الأرباح،
وستزداد نسبة هذه الأصوات على الأرجح عندما يشتمُّ آخرون
شذا تلك الأرباح. هكذا نخبرنا التاريخ يا فتاة».

قالت جيسिका: «كأن ما كان ينقصني الآن هو درسٌ في التاريخ».
- «لا تتظارفي يا فتاة! أنت تعرفين كما أعرف طبيعة القوى
المحيطة بنا. لحضارتنا ثلاثة أضلع: البلاط الإمبراطوري من
ناحية، وائتلاف العائلات الكبيرة المُمثَّل في مجلس اللاندراد

من الناحية الأخرى، وبينهما تقبع النقابة باحتكارها اللعين
للسفر في الفضاء. في عالم السياسة، يُعدُّ الهيكل ثلاثي القوائم
أقل الأنظمة السياسية استقرارًا. هذا الوضع سيئٌ إلى درجة
كافية من دون التعقيدات الإضافية التي تفرضها ثقافة التجارة
الإقطاعية السائدة التي تدير ظهرها لمعظم العلوم».

قالت جيسिका بمرارة لاذعة: «قطع حطام في طريق الطوفان.
هذه القطعة هي الدوق ليتو، وتلك ابنه، وتلك...».

- «صه يا فتاة. لقد دخلت اللعبة وأنت تعلمين مدى صعوبة
السير على حدِّ الموسى».

اقتبست جيسिका القول المأثور: «أنا من بنات البني جيسيرت،
وُجدتُ في الحياة لأخدم».

قالت العجوز: «بالضبط. وكل ما نستطيع تمنّيه الآن هو منع
هذا الأمر من الاستفحال كي لا يحرقنا جميعًا، وأن ننقذ قدر ما
نستطيع من السلالات المهمة».

أغلقت جيسिका عينيها، وشعرت بالدموع تحتشد وتضغط
جفنيها. قاومت بشدّة ارتجاعها الداخلي، وارتعاشها الخارجي،
وأنفاسها المتقطّعة، ونبضها غير المنتظم، وتعرّق كفيها. وفي
النهاية قالت: «سأدفع ثمن غلطتي».

- «وابنك سيدفع الثمن معك».

- «سأحميه قدر استطاعتي».

صاحت العجوز: «تحمينه! ألا تعرفين الضعف الذي تورّثه
الحماية؟! بالف في حماية ابنك يا جيسिका، وسيشب رخوًا بلا
عزم كافٍ لتحقيق أيِّ أمرٍ جليل».

أدارت چيسيكاً وجهها بعيداً، ونظرت من النافذة إلى الظلام الذي يوطد نفسه في الخارج: «أهو حقاً بهذا السوء، هذا الكوكب أراكس؟» - «إنه سيئٌ بما يكفي، لكن ليس كله سيئاً. لقد زارته بعثات المبشّرات الحاميات قديماً ومهدّته إلى حد ما»، قالتها الأم الموقرة ونهضت واقفة على قدميها، وفردت طيّة في رداثها، ثم أردفت: «استدعي الصبيّ. يجب أن أغادر قريباً».

- «هل أنت مضطرة إلى الرحيل؟».

لان صوت العجوز وهي تقول: «چيسيكاً يا عزيزتي، أتمنى لو أستطيع أن أكون مكانك وأنحمّل معاناتك بدلاً منك، لكن كلاً منا يجب أن تصنع قدرها الخاص».

- «أعلم ذلك».

- «أنا أحبُّك مثلما أحبُّ بناتي، لكنني لا أستطيع أن أسمح لذلك بالتعارض مع واجبي».

- «أدرك ذلك.. للضرورة أحكامها».

- «كلنا نعلم ماذا فعلتِ يا چيسيكاً، ولماذا فعلته. لكن الإخلاص يُحتم عليّ مصارحتك بأن فرصة أن يكون طفلك هو الشخص المنشود الذي تسعى خلفه البني چيسيرت ضئيلة، لذا لا تفرطي في التفاؤل».

نفضت چيسيكاً دموعاً احتشدت في ركنيّ عينيها في هزة غاضبة، وقالت: «جعلتني أشعر كأنني فتاة صغيرة من جديد، أقرأ درسي الأول»، ثم أجبرت الكلمات على الخروج من فمها: «يجب ألا يخضع البشر للحيوانات»، ثم هزّ جسدها نشيجٌ جاف، وفي صوت خفيض همست: «كنتُ أشعر بوحدة شديدة».

قالت العجوز: «علينا أن ندرج اختباراً للوحدة ضمن اختباراتنا، فكثيراً ما يشعر البشر بالوحدة. الآن استدعي الصبيّ، لقد مرّ

بيوم طويل ومخيف لكنه أخذ وقته في التفكير والتذكر، ولا بُدَّ لي من طرح الأسئلة الأخرى حول طبيعة أحلامه.

أومأت جيسيكَا، واتَّجهت إلى باب غرفة التأمل وفتحتَه وقالت: «بول، تعال الآن من فضلك».

تقدَّم بول ببطءٍ عنيد، محدِّقًا إلى أمِّه كأنها غريبةٌ عنه. كان الحذر يملأ عينيه حين نظر إلى الأمِّ الموقَّرة، لكنه أومأ لها هذه المرَّة بالطريقة التي يفعلها المرء مع من هم في مقامه.

قالت العجوز: «أيُّها الشاب، لنعد إلى الحديث عن أحلامك».

- «ما الذي تريدن معرفته؟»

- «هل تعلم كل ليلة؟»

- «أضغاث أحلام لا تستحق التذكُّر. أتذكُّر جميع أحلامي،

لكن بعضها يستحق وبعضها لا».

- «وكيف تعرف الفارق؟»

- «أعرفه وكفى».

ألقت العجوز نظرة سريعة إلى جيسيكَا، ثم عادت إلى بول.

- «بم حلمت البارحة؟ هل كان حلمًا يستحق التذكُّر؟»

أغلق بول عينيه، وقال بشرود: «أجل. حلمتُ بكهفٍ كبير.. وبماء.. وبفتاة هناك. فتاة نحيلة جدًّا ذات عَيْنين واسعتين. كانت عيناها زرقاوين بالكامل لا بياض فيهما. تحدَّثتُ إليها وحدَّثتها عنك، قلت لها إنني قابلت الأمِّ الموقَّرة على كладان». أنهى بول كلامه وفتح عينيه.

- «هل حكيت لتلك الفتاة الغريبة عن رؤيتي اليوم؟»

فكَّر بول قبل أن يُجيب ثم قال: «أجل. قلت للفتاة إنك جيئت ودمغيتني بالغرابة».

- «دمفتك بالغرابة»، قالتها المرأة وأخذت نفساً عميقاً، ومن جديد رمقت جيسिका بنظرة سريعة قبل أن تعيد اهتمامها إلى پول. «كن صادقاً معي يا پول، هل كثيراً ما تعلم بأشياء تتحقق بعدها كما حلمت بها بالضبط؟».

- «أجل، وقد سبق لي أن حلمت بتلك الفتاة».

- «حقاً؟ أهي فتاة تعرفها؟».

- «سوف أعرفها».

- «حدثني عنها».

مرة أخرى أغلق پول عينيه، ثم قال: «رأيتنا في مكان ضيق تحيط بنا الصخور. كان الظلام قد حلَّ تقريباً، لكن الجوَّ ما زال حاراً، وكنت أرى رمالاً ممتدةً من فرجة بين الصخور. كنا... ننتظر شيئاً... ننتظر ذهابي للقاء بعض الناس. كانت خائفة وتحاول حجب خوفها عني، أما أنا فكنت متحمساً. ثم سمعت صوتها يقول لي: "حدثني عن الماء على كوكبك.. أصول*".».

فتح پول عينيه، وتساءل قائلاً: «أليس هذا غريباً؟ كوكبي اسمه كلادان، لم أسمع من قبل عن كوكب اسمه أصول». حثته جيسिका قائلة: «ألهذا الحلم بقيّة؟».

قال پول: «أجل، لكن من الممكن أنها كانت تقصدني أنا باسم أصول. لقد خطرت لي هذه الفكرة للتوّ»، ومن جديد أغلق عينيه وواصل: «طلبت منّي أن أحكي لها عن الماء، فأخذتُ يدها في يدي، وأخبرتها بأنني سألقي عليها قصيدة. أقيت عليها القصيدة بالفعل، لكن كان عليّ أن أشرح لها معاني بعض الكلمات، كالشاطئ والموج وأعشاب البحر وطيور النورس».

سألته الأُم الموقرة: «أي قصيدة ألقىت؟».

فتح پول عينيه وقال: «واحدة من قصائد جيرني هاليك
الغنائية التي يلقيها في أوقات الحزن».

من خلف پول، بدأت جيسيكا في الإلقاء:
«أتذكر الدُخان المالح

المتصاعد من نار أوقدناها على الشاطئ،

وظلالاً تحت أشجار الصنوبر

راسخة بلا حراك.

أتذكر طيور نورس جاثمة عند حافة المرج

مستقرّة في أماكنها.. وضّاءة..

محض بياض فوق خضار.

ثم من بين أشجار الصنوبر أنت ربح،

فمالت لها الظلال،

وفردت النوارس أجنحتها وحلّقت

لتملأ السماء بصياحها.

ها أنا أسمع الريح تهب عبر شاطئنا،

وعبر الموج،

فأدرك أن نارنا أحرقَت أعشاب البحر».

قال پول: «هذه هي القصيدة».

حملت العجوز هنيهة إلى وجهه، ثم قالت: «أيها الشاب،

بصفتي واحدة من مشرفات البني جيسيرت العلى فأنا أسعى

للعثور عن الكويزاتس هاديراك، الذكر الذي يمكن أن يصير

واحدًا منّا. أمك ترى فيك هذا الاحتمال، لكنها تبصر بقلب الأُم.

أنا أيضًا أرى هذا الاحتمال، لكنه مجرد احتمال، لا أكثر ولا أقل».

ثم أنهت عبارتها وصمتت، وشعر پول أنها تريد أن يتحدث، لكنه ظلّ كتومًا منتظرًا مبادرتها.

في النهاية قالت: «كما شئت. أنت بئرٌ عميقة، أعترف لك بهذا».

سألها: «أبإمكانني المغادرة الآن؟».

سألته جيسيكا: «ألا تريد سماع ما في جعبة الأمّ الموقرة عن

الكويزاتس هاديراك؟».

- «لقد قالت إن كل من حاولوا سلك هذا الدرب ماتوا».

قالت الأمّ الموقرة: «لكنني أستطيع مساعدتك ببعض التلميحات

عن أسباب فشلهم».

فكر پول: إنها تتحدّث عن تلميحات، إذاً هي لا تعرف شيئًا

حقّ المعرفة. ثم قال: «ألمحي إذا».

قالت: «تحسبني شمطاء لعينة لا أفقه شيئًا، أليس كذلك؟».

وابتسمت بسخرية فتقاطعت التجاعيد وتداخلت في الوجه

المعجوز، ثم أردفت قائلة: «حسنًا: "من يخضع بحكم"».

دهش پول ممّا قالت. إنها تتحدّث عن أشياء مُسلّم بها،

وتستخدم التضاد هي المعنى لإبرازه. أتنظّر أن أمّه لم تعلّمه شيئًا

على الإطلاق؟

سألها: «أتعدّين هذا تلميحًا؟».

قالت المعجوز: «لسنا هنا للتلاعب بالكلمات أو الجدل حول

معناها. شجرة الصفصاف تخضع للريح، وتنمو بانحنائها له، إلى

أن يأتي اليوم وتصير الصفصافة شجرًا كثيرًا وتشكّل جدارًا في

وجه الريح. هذه هي غاية الصفصاف».

حدّق پول إليها. هرّته كلمة «غاية» حين لفظتها، وذكرته من

جديد بالغاية الرهيبة. استشعر الصبّي غضبًا مفاجئًا نحوها: يا

لها من ساحرة شمطاء سخيقة تتفوّه بالتراهات.

قال لها: «أنت تظنين أنني قد أكون هذا الكويزاتس هاديراك، وتحدّثين عني كثيرًا، لكنك لم تقولي شيئًا واحدًا عمّا يمكن فعله لإعانة أبي. لقد سمعتك تتكلّمين مع أمي، تتكلّمين معها كأن أبي قد مات، لكنه لم يمت بعد!».

زمجرت العجوز: «لو كان في وسعنا فعل شيءٍ له، لكنّا فعلناه. ربّما نستطيع إنقاذك أنت، صحيح أن هذا غير مؤكد، لكنه ممكن. أما بخصوص والدك، فلا شيء يمكن فعله. عندما تتعلّم تقبّل هذه الحقيقة ستكون قد تعلّمت درسًا حقيقيًا من دروس البني جيسيرت». لاحظت بول كيف هزّت الكلمات أمّه، وصوّب نظرة نارية إلى المرأة العجوز. كيف تجرّو أن تقول هذا عن أبيه؟ ما هذه الثقة التي تتحدّث بها؟ راح عقله يغلي من الغيظ.

نظرت الأمّ الموقرة إلى جيسيكّا: «أرى أنك درّبتَه على نهجنا، لاحظت دلائل على ذلك. لو كنت مكانك لفعلت الأمر نفسه دون أن أخشى لومة لائم».

أومأت جيسيكّا.

قالت العجوز: «الآن، أحذرك من عدم اتّباع ترتيب التدريب المعتاد. تتطلّب سلامته الشخصية أن يتقن استخدام "الصّوت" أولاً. إن مستواه جيّد، لكن كلينا نعرف أنه يحتاج إلى ما هو أكثر بكثير لإتقانه، وأنه في أمسّ الحاجة إلى ذلك».

قالتها وخطت مقترية من بول، وحدّقت إليه: «وداعًا أيّها البشري الصغير. أرجو أن تنجو. لكن إن لم تنج، سننجح في مسعانا من بعدك».

ثم نظرت إلى جيسيكّا من جديد، ومرّت بينهما لحظة تفاهم

مشارك. انسحبت العجوز خارجة من الغرفة تجر جرثوبها خلفها دون إلقاء نظرة أخرى إلى الوراء، وانمحت الغرفة بمن فيها من تفكيرها بمجرد خروجها.

لكن جيسكا استطاعت أن تلمح وجه الأم الموقرة وهي تنعطف مبتعدة، ورأت دموعاً تبلل وجنتيها الياستين. أوجلت الدموع قلبها أكثر من أي كلمة أو إشارة أخرى تبادلتها معها هذا اليوم.

انضم إلى مكتبة

اصح الكود

@t_pdf



لرُئيَما قرأتم أن المؤدّب لم يحظ برفاقٍ من سنّه على
 كладان، إذ كان في ذلك مخاطرة كبيرة. لكن المؤدّب
 حظي بصحبة مجموعة من المعلمين الرائعين. مثل
 جيرني هاليك، التروبادور⁽¹⁾ المحارب، الذي ستنندن
 بعض أغانيه وأنت تقرأ هذا الكتاب. وظفير حوَّاط،
 المنتات العجوز كبير المفتالين الذي يبيثُ الرعب
 في القلوب كافّة، بما فيها قلب الإمبراطور البادي شاه
 ذاته. ودانكن آيداهو، خبير فنون النزال، نجيب
 مدرسة آل جناز، أسياذ السيوف. والدكتور ولينجتون
 يوي، الاسم الأسود الملوّث بالخيانة، عظيم الحُجّة
 في المعرفة. والليدي جيسيكَا، من درّيت ابنها على
 نهج البني جيسيرت. وبالتأكيد الدوق ليتو ذاته،
 الذي غفلت الأذهان عن حميد خصاله الأبوية منذ
 زمن بعيد.

من كتاب «سيرة المؤدّب للأطفال» للأميرة إيrolان.

انسلّ ظفير حوَّاط إلى غرفة التدريب في قلعة كladان
 وأغلق الباب برفق من خلفه. وقف الرجل في مكانه لحظة،
 مُثَقلاً بالشيخوخة والإرهاق وعصف السنين، شاعراً بنبض الألم
 الممض في ساقه اليسرى حيث قُطعت ذات مرّة إِيّان عمله في
 خدمة الدوق الكبير الراحل.

جال في خاطره: خدمت ثلاثة أجيال منهم حتّى الآن.

(1) مطرب شاعر.

أجال حَوَّاطٌ بصره في الغرفة الكبيرة التي تخترقها أشعة شمس الظهيرة من كَوَّاتِ السقف، ورأى الصبيَّ جالسًا وظهره إلى الباب، عاكفًا على أوراقٍ وخرائطٍ تتناثر أمامه على طاولة تأخذ شكل حرف L.

كم مرَّةً يجب أن أُذَكِّرَ هذا الفتى ألاَّ يجلس معطياً ظهره إلى الباب؟ هكذا فكَّرَ حَوَّاطٌ ثم تتحنح. ظلَّ بول منكفئاً على أوراقه.

مرَّت غيمةٌ من فوق كَوَّاتِ السقف فأعتم ظلُّها المكان. تتحنح حَوَّاطٌ مجدداً.

اعتدل بول في جلسته وقال دون أن يلتفت: «أعلم، أجلس وظهري إلى الباب».

كتم حَوَّاطٌ ابتسامته، وقطع الغرفة بخطوات واسعة. رفع بول نظره إلى الرجل المُسنَّ أشيب الرأس الذي توقَّف عند زاوية الطاولة. كانت عينا حَوَّاطٍ لُجَّتَيْنِ من اليقظة في وجهٍ أسمر متفضن تنتشر فيه التجاعيد. قال بول: «ميَّزت وقع خطواتك في الرواق، وسمعتك وأنت تفتح الباب».

- «الأصوات التي تصدر عني يمكن تقليدها».

- «سأعرف الفرق».

فكَّرَ حَوَّاطٌ: قد يكون ذلك في استطاعته بالفعل. لقد منحته أمُّه السَّاحرة تدريباً مكثفًا من دون شك. تُرى ما رأي طائفتها العزيزة فيه؟ ربَّما أرسلن مُشرفتهن العجوز إلى هنا لشدَّ أُذن عزيزتنا جيسيكا وإعادتها إلى صوابها.

سحب حَوَّاط مقعدًا قبالة بول وجلس مواجهًا الباب. فعلها
بِحِدَّة وعن قصد، ثم أرجع ظهره إلى الوراء وأمعن في النظر
إلى الغرفة. اعتراه شعور بأنها تبدو مكانًا غريبًا بعد نقل أغلب
لوزامها إلى أَرَاكس. بقيت طاولة التدريب، وكذلك مرآة المبارزة
بمناشيرها البلّورية العاكسة غير المُفَعَّلة، وإلى جوارها دمية
التدريب المرقَّعة المحشوة التي تبدو كجندي مُشاة قديم عصفت
به الحروب وشوّهته.

فكَّر حَوَّاط: هذا أنا.

سأله بول: «هيم تُفكِّر يا ظفير؟».

نظر حَوَّاط إلى الصبي وقال: «أفكِّر في أننا سنغادر هذا
المكان قريبًا، وقد لا نراه مرَّةً أخرى».
- «أُحزنك هذا؟».

- «يُحزنني؟ هُراء! ما الحُزن إلَّا فراق الأصدقاء، أما الأماكن
فمجرَّد أماكن»، قالها ورمق الخرائط المتناثرة على الطاولة، ثم
أردف: «وأَرَاكس مجرَّد مكان آخر».

- «أرسلك أبي لاختباري، أليس كذلك؟».

قطب حَوَّاط جبينه متعجبًا. يتمنَّع الفتى بفراصة حقيقية. ثم
هز رأسه بالإيجاب وقال: «كنت تريد أن يأتي بنفسه، لكن لا بُدَّ
أنك تعلم مدى انشغاله. سيأتي لاحقًا».

- «كنت أقرأ عن عواصف أَرَاكس».

- «عواصف أَرَاكس، جميل».

- «يُقال إنها شديدة».

- «وصفها بالشديدة ببخسها قدرها. تستفحل تلك العواصف
تدرجيًّا عبر سِتَّة أو سبعة آلاف كيلومترٍ من الأراضي المسطَّحة،

متغذيةً على أي شيء يزيدها زخمًا: تأثير كوريوليس، عاصفة أخرى، أي ظاهرة تحتوي ولو على حفنة من الطاقة. أحيانًا تصل سرعتها إلى سبعمئة كيلومتر في الساعة، وتكون مُحَمَّلةً بكل شيء جرفته في طريقها: رمال، غبار، أي شيء. تلك العواصف قادرة على تجريد العظام من اللحم، ونخر العظام إلى رميم».

- «لماذا لا يملكون تقنيات تحكم في الطقس؟».

- «لأراكس مشكلاته الخاصة. التكاليف هناك أعلى، فضلًا عن معوقات الصيانة وما شابه، كما أن النقابة تطلب ثمنًا باهظًا نظير التحكم في الطقس بالأقمار الصناعية، وعائلة أبيك ليست من العائلات الثرية الكبيرة يا فتى، أنت تعرف ذلك».

- «هل سبق أن رأيت الفرمن؟».

فكَّر حوَّاط: عقل الفتى اليوم زوبعة لا تهدأ ولا تتوقف.

قال: «ربما أكون رأيت بعضهم، فلا توجد فروق كبيرة تميِّزهم عن سكاّن الأخاديد والأحواض. جميعهم يرتدون أرديةً فضفاضة طويلة، ورائحتهم لا تُطاق في الأماكن المغلقة بسبب ارتدائهم تلك البذلات التي تعيد تدوير مياه الجسم التي يسمونها "بذلات التقطير"».

ابتلع بول ريقه وقد انتبه فجأةً إلى رطوبة فمه، وتذكَّر حُلْم الظَّمأ الذي سبق أن راوده. هزَّته الحاجة الماسَّة التي تحتم على أولئك الناس إعادة تدوير رطوبة أجسادهم، وأصابته بشيء من الوحشة، وقال: الماء عزيزٌ هناك».

أومأ حوَّاط مؤمنًا على عبارته، وفكَّر: يبدو أنني نجحت في توضيح أهمية التعامل مع هذا الكوكب كعدوله. من الجنون الذهاب إلى هناك دون هذا الحذر اليقظ في أذهاننا.

رفع پول عينيه إلى الكوّة، مُدركاً أن السّماء بدأت تُمطر،
ولاحظ الببل الذي راح ينتشر على الزجاج المتحوّل الرمادي،
وهمس: «ماء».

قال حوّاظ: «على أراكس ستتعلم أن يكون الماء أولى أولوياتك.
بصفتك ابن الدوق فلن يعوزك الماء أبداً، لكنك ستري بصمة
العطش حولك في كل مكان».

بلّل پول شفّيته بلسانه مُفكّراً في ذلك اليوم الذي مضى عليه
أسبوع، والاختبار العصيب الذي خاضه مع الأمّ الموقرة. لقد
ذكرت هي الأخرى شيئاً عن القحط.

لقد قالت له: «ستُعين السهول الجنائزية القاحلة، والفيء
الخالية الجدباء، والأراضي القفر التي لا يسكنها غير ديدان
الرمال العملاقة ولا ينبت فيها غير الاسپايس. ستلطّخ محيط
عينيك بالسواد مخافة وهج الشمس، وسيكون المأوى في نظرك
هو التجويف الذي يقيك هول الريح ويحبّجك عن الأنظار.
ستجوب الفيافي على قدميك، من دون ثوبتر أو مركبة أو مطية».
رغم ثقل ما قالت، استشعر پول من نبرتها الرتيبة المرتعشة
وجلاً أكثر من كلماتها نفسها.

قالت له: «عندما تعيش على أراكس، الخلاء الذي لا شيء فيه،
سيصير قمراه صديقك، وشمسه عدوّ لك».

وقتها شعر پول بأُمّه تقترب منه تاركةً موقعها عند الباب، ثم
نظرت إلى الأمّ الموقرة وسألتها: «ألا ترين بارقة أمل في الأفق
يا سيّدتي؟».

- «لا أمل للأب».

هكذا قالت العجوز وأشارت إلى جيسكا كي تصمت، وخفضت عينيها إلى پول وأردفت: «احضر ما سأقول في ذاكرتك يا فتى: يقوم العالم -أي عالم- على أربعة أعمدة...»، ثم رفعت أربع أصابع يابسة بارزة المفصل وراحت تعدد: «تعاليم الحكماء، وعدل العظماء، ودعوات الصالحين، وشوكة الشجعان.. لكن كل هذه الأمور لا يقدو لها قيمة...»، وضمت أصابعها في قبضة وهي تنهي عبارتها، «... من دون حاكم يفقه فن الحكم. اجعل هذه الدراية سنة تفكيرك!».

ها قد مضى أسبوع على يوم لقائه الأم الموقرة، والآن فقط بدأ يتبدى له معنى ما ظهر من كلامها وما بطن. الآن وهو جالس في غرفة التدريب مع ظفير حواط، شعر پول بوخزة خوف حادة. لمح پول العبوس الحائر البادي على وجه المنتات. سأله حواط: «أين شردت هذه المرة؟».

- «هل قابلت الأم الموقرة؟».

- «تلك الساحرة عرافة الحقيقة من بلاط الإمبراطور؟ أجل قابلتها»، قالها حواط وانتقدت عيناه بالاهتمام.

قال پول: «إنها...»، ثم تردد، ووجد نفسه عاجزاً عن إخبار حواط بأمر الاختبار، كأن حائلاً يمنعه من البوح بما يجيش في صدره.

- «أجل؟ ماذا عنها؟».

أخذ پول نفسين عميقين وقال: «قالت لي شيئاً». ثم أغلق عينيها، مستدعيًا إلى ذهنه الكلمات الصحيحة، وعندما تكلم -ودون وعي منه- تلخف صوته بصوت المرأة العجوز: «أنت يا پول آتريديز، يا سليل الملوك، يا ابن الدوق، يجب أن تتعلم كيف

تحكم، وهذا أمرٌ أخفق أسلافك في تعلُّمه»، ثم فتح پول عينيه وأردف: «أغضبني كلامها فأخبرتها أن أبي يحكم كوكباً برمته، فردَّت قائلةً "إنه يخسره". قلت لها إنه سيحصل على كوكبٍ أكثر ثراءً بدلاً منه، فردَّت قائلةً "سيخسره كذلك". لحظتها أردت أن أركض إلى أبي وأحذِّره، لكنها قالت لي إنه حُذِر بالفعل. قالت إنك حذَّرتَه، وإن أُمِّي حذَّرتَه، فضلاً عن آخرين».

غمغم حوَّاط: «هذا صحيح تماماً».

سأله پول في غيظ: «لماذا نحن ذاهبون إذا؟».

- «لأن الإمبراطور أمر بذلك، ولأنه ثمة أمل رغم أنف تلك الجاسوسة السَّاحرة. أخبرني يا پول، بأيِّ شيءٍ آخر نضج إناء الحكمة العتيق هذا؟».

اختلس پول نظرة إلى يده اليمنى المشدودة في قبضة تحت الطاولة، وبيطء أرغم عضلاته على الاسترخاء وهو يُفكِّر: لقد تركت بصمة ما عليّ، كيف؟

قال پول: «سألتي أن أخبرها ما معنى أن يحكم المرء، فقلت لها إن معناه أن يكون الأمر الناهي، فردَّت قائلة إن عليّ نسيان بعض ممَّا تعلَّمت».

فكَّر حوَّاط: لم تكذب في ذلك، وأوماً برأسه إلى پول كي يُكمل.

- «قالت إن على الحاكم أن يتعلَّم فنون الإقناع لا الإخضاع، قالت إنه يجب أن يقدِّم أفضل قهوة ليجتذب خيرة الرجال للالتفاف حوله».

سأله حوَّاط: «وكيف تحسب أن والدك استطاع اجتذاب رجالٍ مثل دانكن وجيرني؟».

هزّ پول كتفيه وقال: «ثم قالت إن على الحاكم أن يُحيط بمفردات عالَمه، تلك التي تختلف باختلاف الكوكب. فظننت أنها تشير إلى أنهم لا يتحدثون الجلاكية على أراكس، لكنها قالت إن الأمر لا علاقة له باللغة المنطوقة. قالت إنها تقصد مفردات الجمادات والأحياء، اللغة التي لا تُسمع بالأذن وحدها، فقلت لها إن هذا ما يدعوهُ الدكتور يُوي بـ"لغز الحياة"». فقهقه حوّاط وقال: «وماذا كان ردّها؟».

- «أظنها غضبت. قالت إن لغز الحياة ليس مسألة تتطلّب حلًّا، لكنه واقع نعيشه. هنا، اقتبست قانون المِنتات الأوّل وتلوته عليها: "الظواهر لا تُفهم باعتراضها، بل ينبغي للفهم التحرك مع تدفّق الظاهرة، عليه مسابرتها والتماشي معها"، وبدا أن هذا نال رضاها».

فكّر حوّاط: يبدو أنه بدأ يتجاوز ما مرّ به، لكن تلك السّاحرة الشمطاء أزعجته حقًا. لِمَ فعلت ذلك؟

قال پول: «ظفير، هل سيكون أراكس بالسوء الذي ذكّرتُهُ؟». قال حوّاط مجبرًا نفسه على الابتسام: «لا شيء يمكن أن يكون بهذا السوء. خذ الفرمن على سبيل المثال، أهل الصّحراء المارقين. من تحليلي لتعدادهم التقريبي المبدئي، أنا متيقّن من أن أعدادهم أكبر بكثير جدًّا ممّا يظنّه البلاط الإمبراطوري. هناك شعبٌ كامل يعيش على الكوكب يا فتى، شعب كبير...». قالها حوّاط وقرب إصبعه من إحدى عينيه وواصل: «وهم يكرهون الهراكنة من شُغف قلوبهم. إيّاك أن تتفوّه بكلمة ممّا أقول يا فتى، أنا أطلعك على الأمر فحسب لأنني ظهير أبيك».

قال پول: «أخبرني أبي عن سالوسا سوكانداس. إنه يبدو لي أشبه بأراكس يا ظفِير. ربّما ليس بمثل سوئه، لكنه يشبهه جدًّا». قال حوَّاط: «لا نعلم الكثير عن حال سالوسا سوكانداس اليوم، فقط نعرف كيف كان الكوكب منذ زمن بعيد، وبشكلٍ عام. لكن في ضوء معلوماتنا عنه، فأنت محقٌّ».

- «هل سيساعدنا الفرمن؟»

قال حوَّاط: «هذا احتمالٌ قائم»، ثم نهض وأردف: «سأغادر اليوم إلى أراكس. في هذه الأثناء، اعتن بنفسك، لأجل خاطر شيخٍ مُسنٍّ يحبك، اتفقنا؟ عندما تأتي إلى هذه الغرفة كن مُطيعًا واجلس في مواجهة الباب. ولا أعني بهذا أنني أشك في وجود خطر يهدّد حياتك في القلعة، ما هي إلا عادة أريدك أن تكتسبها». قام پول كذلك، ودار حول الطاولة قائلاً: «سترحل اليوم؟».

- «أجل، وأنت ستتبعني غدًا. سيكون لقاءنا القادم على أرض كوكبك الجديد»، قالها حوَّاط وأمسك پول من ذراعه اليمنى وشدّد عليه: «حافظ على يدك التي تحمل السلاح حُرّة دومًا، وعلى درعك مشحون بكامل طاقته، اتفقنا؟»، ثم ترك ذراعه، وربّت على كتفه واستدار متّجهًا إلى الباب بخطوات واسعة. صاح پول: «ظفيرا!».

توقّف حوَّاط عند عتبة الباب والتفت.

قال پول: «لا تجلس وظهرك لأيّ باب».

شاعت ابتسامة في تجاعيد وجه الرجل المُسنّ، وقال: «لك ما طلبت يا فتى، اطمئن»، ثم غادر وأغلق الباب برفق خلفه. جلس پول حيث كان حوَّاط، وراح ينظّم أوراقه مُفكّرًا: آخر يوم لي هنا. ثم تفقّد الغرفة. سنفادر غدًا. فجأة بدت فكرة الرحيل

أكثر واقعية ممّا كانت عليه من قبل، وتذكّر شيئاً آخر قالتها
المجوز عن كيف أن العالم، أيّ عالم، هو حاصل جمع عناصر
كثيرة: الناس، والأرض، والأحياء، والأقمار، والبحار، والشموس.
المُحصّلة المجهولة التي تُسمّى «الطبيعة»، مجموع مُبهم ما إن
تفهم حاضره يتغيّر، ووجد نفسه يتساءل: وما الحاضر؟

انفتح الباب المواجه لبول بضربة قدمٍ عنيفة، ودخل منه رجلٌ
قبيح ينوء بثقل الأسلحة التي يحملها.

صاح بول: «ما هذا يا جيرني هاليك، هل أنت مدرّب الأسلحة
الجديد؟».

ركل هاليك الباب بكعبه مغلقاً إيّاه وقال: «كنت تُفضّل لو
جئت للعب واللهو، أعرف ذلك»، ثم تفحّص أرجاء الغرفة من
حوله، ولاحظ أن رجال حوَّاط سبقوه وفَتَّشوها بالفعل وتأكدوا
من سلامتها على وارث الدوق. كانت العلامات الشيفرية الخفية
في كل مكان.

راقب بول الرجل القبيح وهو يتحرّك صوب طاولة التدريب
بحمولة الأسلحة، ولمح بالباليست ذات الأوتار التسعة المعلّقة على
كتفه، وريشة العزف المتعدّدة السنون التي تتخلّل الأوتار بالقرب
من لوحة الأصابع.

ألقي هاليك الأسلحة على طاولة التدريب وبدأ يرتّبها: سيوف
المبارزة، المخارز، الخناجل، الصواعق البطيئة المقدوفات، أحزمة
دروع الطاقة. وحين التفت هاليك مبتسماً عبر الغرفة، التوت
النُدبة التي خلّفها سوط الإنكثاين على عظام فكّه السفلي.

قال هاليك: «من غير صباح الخير حتّى أيّها العفريت الصغير؟

وأيُّ شوكةٍ مؤذيةٍ تلك نخست بها حَوَاطِ العجوز يا ولد؟ لقد مرَّ بي مهرولاً في الرواق كرجلٍ ذاهبٍ إلى جنازةٍ أحد أعدائه.

ابتسم پول. من بين جميع رجال أبيه، كان جيرني هاليك هو الأقرب إلى قلبه. كان يألف حالات الرجل المزاجية ومزاحه الشيطاني، ويُعدُّه صديقاً حقيقياً لا مُجرَّد مقاتل أجير.

أنزل هاليك الباليست من كتفه، وبدأ يضبط أوتارها وهو يقول: «إن لم يكن لديك رغبة في الكلام، فلا تتكلَّم».

نهض پول وتقدَّم عبر الغرفة وهو يصيح: «ما هذا يا جيرني، أتستعد للعزف في وقت القتال؟».

قال هاليك: «إنه يوم الإساءة إلى جميع شيوخك إذا»، وضرب وترًا على آلهة الموسيقى، وأوماً بعدها معلناً رضاه.

سأل پول: «أين دانكن آيداهو؟ أليس هو من يُفترض أن يدرِّبني على الأسلحة؟».

قال هاليك: «غادر دانكن لقيادة الموجة الثانية المتَّجهة إلى أراكس. لم يتبق لك غير جيرني المسكين، الذي فرغ من القتال ويتوق إلى عزف بعض الموسيقى»، ثم أنهى عبارته وضرب وترًا آخر، وشنَّف أذنيه من رنئه، وابتسم. «وقد قرَّر المجلس الذي عقدناه أن مهاراتك القتالية سيئة، لذا رأينا أنه من الأفضل تعليمك حرفة الموسيقى، كي لا تضيع حياتك بكاملها هباءً».

قال پول: «غنَّ لي شيئاً إذا، كي أتعلَّم أن أفعل عكسه».

ضحك جيرني: «آه ها ها»، ثم بدأ يندندن أغنية «الفتيات الجلاقيات»، وراحت ريشته المتعددة السنون تتحرَّك برشاقة وخفَّة على الأوتار:

آه من الفتيات الجلاكيات
يَبْغِينَ مقابل اللَّائِي
والأَرَاكِسيَّاتِ مقابل الماءِ!
أَمَّا إِنْ كُنْتَ تَشْتَهِي حَسَنَاتِ
مَتَأَجَّجَاتِ كَالنِّيرَانِ
فَعَلَيْكَ بَغَادَاتِ كِلَادَانِ!

قال پول: «لا بأس بذلك لمثل هذه اليد الخشنة في العزف، لكن إن سمعتك أُمِّي تُغَنِّي مثل هذه الأغاني الفاحشة في القلعة، فستقطع أذُنِيكَ وتزَيِّن بهما الجدار الخارجي».

أمسك جِيرَنِي أذُنَهُ اليسرى وقال: «بئس الزينة، لقد تورَّمتا من استراق السمع من ثقوب المفاتيح لعزف صبيٍّ صغير وهو يتمرَّن على إتقان بعض المقطوعات الغريبة على الباليست».

قال پول: «يبدو أنك نسيت شعور الاستيقاظ على ملمس الرمال في فراشك»، ثم سحب حزام درع طاقة من الطاولة، وربطه سريعاً حول خصره. «إنه القتال إذاً».

اتَّسَعَتْ عَيْنَا جِيرَنِي فِي دهشة مصطنعة: «إذا يدك الآثمة هي الفاعلة! دافع عن نفسك جيِّداً اليوم يا سيِّدي الشاب، ها أنا أقولها لك صريحة، دافع عن نفسك...»، ثم التقط سيفاً وشقَّ به الهواء وهو يردف: «... لقد خرج الشيطان من الجحيم سعياً للانتقام!».

التقط پول سيف المبارزة الآخر، وشاء بيده من طرفه، ووقف في وضع الاستعداد مُقَدِّمًا سَاقًا عن الأخرى مصطنعاً الجدية، في تقليدٍ هزلي للدكتور يوي.

هزج پول محاكياً: «أيُّ أحمق أرسله أبي لتدريبي على الأسلحة».

لقد نسي جيرني هاليك الأخرق الدرس الأوّل في قتال رجلٍ مسلّحٍ ومُدْرَعٍ». ضغط پول زر تشغيل الدرع الذي عند خصره، وشعر بجلد نصف جسده العلوي يقشعر نتيجة مجال طاقة الدرع الدفاعي المحيط به، واكتسبت الأصوات الخارجية الطابع المُشوَّش المألوف عند استخدام الدروع. قال پول: «في القتال بالدروع، يتحرّك المرء بسرعة في الدفاع ويبطئ في الهجوم. هدف الهجوم الوحيد هو خداع الخصم لتزل قدمه عن ثبوتها ويصير هدفاً سهلاً أمام هجومٍ مكر. يصدُّ الدرع الضربات السريعة، لكن نقطة ضعفه أنه يسمح بمرور طعنة خنجل يدفعها المهاجم ببطء!». طوَّح پول سيفه في هجومٍ سريعٍ خادع، ثم سحبه إلى الوراء ليطلعن به طعنة بطيئة موقوتة بحيث تخترق مجال طاقة الدرع.

راقب هاليك المناورة، ومال جانباً في اللحظة الأخيرة متفادياً النصل الثلم المتّجه إلى صدره، وصاح: «استخدام مثالي للسرعة، لكنك تركت المجال مفتوحاً أمام هجمة مضادة بنصلٍ منسل». تراجع پول متكدّراً، وتوقّف التدريب.

قال هاليك: «رُبّما يجب أن أضربك على مؤخرتك جزاء هذا الإهمال»، والتقط خنجلًا من الطاولة ورفعهُ عاليًا. «مثل هذا الشيء في يد الخصم قادر على إراقة دمائك! أنت تلميذ نجيب لم أر مثله، لكنني حدّرتك من قبل ألا تسمح لشخص في يده سلاح أن يقترب منك، حتّى في أثناء اللعب».

قال پول: «أظن أن مزاجي ليس رائعًا للقتال اليوم». بانّت نبرة هاليك الغاضبة حتّى عبر مجال طاقة الدرع: «مزاجك؟ ما علاقة المزاج بالأمر؟ المرء يقاتل عند الضرورة،

مهما كان مزاجه! المزاج الذي تتحدث عنه يكون لأمر الماشية
أو لممارسة الحب أو للعزف على الباليست، لا للقتال!». -
«أنا آسف يا جيرني».

- «لست آسفًا بما يكفي».

فَعَلْ هاليك درعه، وانحنى رافعًا سيفه عاليًا في يده اليمنى،
ومدَّ يده اليسرى بالخنجر. «الآن من الأفضل أن تدافع عن نفسك
بحق!». ثم قفز جانبًا عاليًا، واندفع إلى الأمام في هجوم شرس.
تراجع پول متفاديًا ضرباته، وشمر بقطعة الطاقة حيث
تلامست حواف الدرعين وتنافرت، وأحسَّ بوخز الكهرباء على
جلده في مواضع الاحتكاك. ما خطب جيرني؟ إنه لا يصطنع
هذا! هكذا سأل نفسه. حرَّك پول يده اليسرى، وأسقط مخرزه
من غمد معصمه إلى راحة يده.

زأر هاليك: «ترى أنك في حاجة إلى نصلٍ إضافي، أليس
كذلك؟».

تساءل پول: /هذا غدر؟ بالتأكيد ليس جيرني!
في أرجاء الغرفة تقاتلا.. هجومًا وصدًا، كَرًّا وفَرًّا، إقبالًا
وإدبارًا. بدأ الهواء المحصور بين فقّعتي درعيهما يفسد من
فرط اللهاث، فلم ينجح التبادل الغازي البطيء الذي يحدث عن
حواف مجال الدرع في تجديده بسرعة كافية. ومع كل تصادم
جديد، ازدادت رائحة الأوزون. استمرَّ پول في التراجع، لكنه وجَّه
تقهقره نحو طاولة التدريب. راح يُفكِّر: إن استطعت إجباره على
الانعطاف من جوار الطاولة، سأريه خُدعة. هَيَّا يا جيرني، خطوة
أخرى.

أخذ جيرني الخطوة المطلوبة.

انحنى پول متفادياً ضربة منخفضة، واستدار ليرى سيف هاليك محشوراً في حافة الطاولة. راوغ پول بجسده إلى الجانب مطوّحاً سيفه عالياً، وباليَد الأخرى دفع مخرزه ببطء على مستوى نحر هاليك، وأوقف النصل على قيد أنملة من وريده الوداجي. همس پول: «أهذا ما تريد؟».

قال جبرني لاهثاً: «انظر إلى الأسفل يا فتى».

فعل پول كما قال، ورأى طرف خنجل هاليك يكاد يلمس ما بين فخذه من تحت حافة الطاولة.

قال هاليك: «لن يمت أحدنا من دون الآخر. لكنني أعترف أنك قاتلت بشكل أفضل تحت الضغط. يبدو أنك استعدت مزاجك»، وابتسم ابتسامة وحشية التوت لها نُدبة سوط الإنكفاين بطول فكه.

قال پول: «ما تلك الضراوة التي هاجمتني بها؟ هل كنت ستسفك دمي بالفعل؟».

سحب هاليك خنجله، واعتدل في وقفته قائلاً: «إن كنت شعرت بأنك تقا تل بتراخ، لتركك على جسدك نُدبة قبيحة لن تنساها. لن أسمح لتلميذي المفضّل أن يسقط صريعاً على يد أوّل صعلوك هاركونني بصادفه».

أبطل پول عمل درعه، وانحنى على الطاولة ملتقطاً أنفاسه. «كنت سأستحقّها يا جبرني، لكنك كنت ستواجه غضبة أبي إن أذيتني، وأنا لن أَرْضَى أن تُعاقب على تقصيري أنا».

قال هاليك: «إخفاكك يُعدُّ تقصيراً مني كذلك. ولا تقلق من أن تُصاب بنُدبة أو اثنتين في تدريبك. أنت محظوظ لندرة إصابتك. أما بخصوص أبيك الدوق، فهو لن يعاقبني إلا إذا فشلت في

أن أصنع منك مقاتلاً لا يُشَقُّ له غبار. كنت سأفضل حقاً إن لم أشرح لك مغالطة المزاج التي طرأت عليك فجأة».

اعتدل پول في وقفته، ودسَّ مخززه في غمده.

قال هاليك: «ما نفعله هنا ليس لهواً بالضبط».

أوماً پول متفهِّماً، لكنه دهش من الجدِّية والرصانة غير المعهودة في سلوك هاليك. حدَّق الصبيُّ إلى نُدْبَةِ الإنكثابين بنجرية اللون على فك الرجل، متذكِّراً كيف أُصيب بها على يد رابان الوحش في إحدى حُضر العبيد على كوكب جيدي پرايم، وشعر بالخزي لأنه شك في هاليك ولو لوهلة. أدرك پول في تلك اللحظة أن المأ شديداً صاحب نُدْبَةِ هاليك، ربَّما كالآلم الذي أوقعته به الأمُّ الموقِّرة، ثم نبذ هذه الفكرة المرجفة التي تزعزعه كلَّما تذكَّرها.

قال پول: «بيدو أنني كنت أميل إلى بعض اللهو اليوم، فقد صارت الأمور هنا جادة جداً مؤخَّراً».

أشاح هاليك بوجهه ليداري مشاعره، شاعراً بحرقه في عينيه. ثمة ألم يأبى مفارقتَه كأنه مقروح، بقايا ماضٍ ضائع استأصل الزمن معظمه.

فكَّر هاليك: سرعان ما سيُضطرُّ هذا الصبيُّ إلى ارتداء عباءة الرجولة، سرعان ما سيتعيَّن عليه تقبُّل أعباء النضج وما يفرضه من مخاطر. سيبلغ أشدَّه قبل الأوان، وسيُدرك السنَّ التي إذ بلغها المرء حُسبت عليه أنفاسه. سيعلم أن الاختيارات التي يتخذها قد تقتله، وأن أفعاله قد تؤثر في الآخرين بأسوأ طريقة ممكنة.

تكلم هاليك دون أن يواجهه: «استشعرت رغبتك في اللهو اليوم يا فتى، ولكم وددت لو جارتك فيها. لكن لم يعد ما نفعله

لعبيًا ولهوًا. غداً سنغادر إلى أراكس، وأراكس واقعٌ قاصٍ، وكذلك
الهراكنة».

لمس پول جبهته بنصل سيفه المرفوع.

استدار هاليك ولاحظ تحيئة السلاح، فردَّ عليها بإيماءة من
رأسه، ثم أشار إلى دمية التدريب وقال: «الآن، سنعمل على
تحسين مهاراتك في التوقيت. أمتعني برؤيتك وأنت تتغلب
على هذا الشيء الخبيث. سأتحكّم فيها من مكاني هذا حيث
أرى ساحة المباراة بوضوح وأراقب جميع تحرّكاتك. كن حذرًا،
سأستخدم مناورات دفاع جديدة اليوم. هذا تحذير لن يمنحك
إيّاها خصم حقيقي».

شبَّ پول على أطراف أصابعه وأرخى عضلاته. كان مُغتَمًا من
أن حياته صارت ملأى بالتغيّرات السريعة. اقترب من الدمية،
وضغط الزر على صدرها بطرف سيفه فشعر بمجال طاقة الدرع
المفعّل يجبر نصله على الارتداد.

صاح هاليك: «وضع الاستعداد... هيّا»، ثم بادرت الدمية
بالهجوم.

فعلَّ پول درعه، وبدأ يتفادى الضربات ويردها.

راقبه هاليك وهو يتحكّم في مفاتيح تحريك الدمية، وشعر
بأن عقله قد انشطر إلى نصفين: نصف يقظ منتبه إلى مجريات
القتال التدريبي، والنصف الآخر شارد يطن كذبابة.

أنا شجرة فاكهة مثمرة حسنة التدريب، ملأى بمشاعر
ومهارات مصقولة جيّدًا حُفرت حفرةً في، ولكن ثمراتها الدانية
تنتظر شخصًا آخر ليقطفها.

ولسبب ما تذكر أخته الصغيرة، وارتسم وجهها الشبيه بوجوه الجنّيات بوضوح في مخيلته. لكنها ماتت منذ زمن في بيت بغاء مخصّص لامتاع جنود آل هاركونن. كانت تُحبُّ زهور البنفسج، أم لعلها الأقحوانات؟ لم يستطع التذكّر، وشعر بالضيق من عدم قدرته على التذكّر.

صدّ پول ضربة بطيئة من الدّمية، وهوى بيده اليسرى في هجمة مضادة على النصل.

يا للشيطان الصغير الماكر! هكذا فكّر هاليك وهو يركّز على حركات يد پول السريعة المتشابكة. لقد كان يتدرّب ويذاكر بمفرده. ليس هذا أسلوب دانكن في النزال، وبالتأكيد ليس شيئاً علّمته إياه.

زادت هذه الأفكار من حزن هاليك، وقال لنفسه: لقد أُصبت بعدوى المزاج. ثم راح يتساءل إن كان التفكير في الغد يؤرّق پول، إن كان النوم يجافيه وهو يُنصت إلى خفقان قلبه في وسادته ليلاً. وتمتم لنفسه: «إن كانت الأمنيات أسماكاً، لألقى الجميع الشباك».

كان هذا مثلاً سمعه من أمّه، وكثيراً ما كان يستخدمه عندما يشعر بقتامة الغد تطبق على روحه. بعدها فكّر في غرابة أخذ مثل هذا المثل إلى كوكب لم يعرف البحار أو الأسماك من قبل.

يُوي ويلنجتون (10082 - 10191): طبيب بشري
تخرّج في كلية سوك الطبيّة عام 10112 بالتقويم
القياسي الموحد. الزوجة: وانا ماركوس، من طائفة
البنّي جيسيرت (10092 - 10186?). يذكره التاريخ
-في المقام الأوّل- بأنه خائن الدوق ليتو آتريديز
(انظر: قائمة المراجع، الملحق السابع: التهيئة
العقلية الإمبراطورية والخيانة).
من «قاموس المؤدّب» للأميرة إيrolان.

على الرغم من أنه سمع دخول الدكتور يُوي إلى غرفة التدريب،
وميّز وقع خطوات الرجل الرصينة الواثقة، ظلّ پول مُمدّدًا على
طاولة التمرين ووجهه إلى أسفل كما تركه المُدّلك. كان يشعر
باسترخاء لذيذ بعد التدريب الذي خاضه مع جيرني هاليك.
قال يُوي بصوتٍ حادٍ عالي النبرة: «تبدو مرتاحًا».

رفع پول رأسه ولمح الرجل الطويل العود النحيل كالعصا يقف
على بُعد خطواتٍ منه، ولاحظ ثيابه السوداء المجعّدة، ورأسه
المربّع الكبير، وشفتيه الأرجوانيتين الداكنتين، وشاربه المتدلّي،
ووشم ألماسة التهيئة العقلية الإمبراطورية على جبهته، وشعره
الأسود الطويل المعقوص بطوق فضّي المتدلّي على كتفه اليسرى.
قال يُوي: «سيسعدك سماع أنه ليس لدينا وقت اليوم للدروس
المعتادة، فوالدك سينضم إلينا بعد قليل».

اعتدل پول جالسًا.

- «لكنني جهّزت لك عارض كُتبٍ فيلمية يضم دروسًا عدّة
لتحمّله معك في أثناء الرحلة إلى أراكس».

بدأ پول يرتدي ملابسه وقد تحمّس لخبر قدوم أبيه، إذ كانا لم يمضيا وقتًا كافيًا معًا منذ أن أمر الإمبراطور بانتقال حُكم إقطاعية أراكس لهم.

تخطّاه يُوي وقصد الطاولة وهو يُفكّر: يا للخسارة! يا لها من خسارة مُحزنة. ثم ذكر نفسه: يجب ألا أتردّد. يتحمّ عليّ فعل ما سأفعل لضمان ألا تتأذى عزيزتي وأنا أكثر من ذلك على يد وحوش الهراكنة عديمي الرحمة.

انضم إليه پول عند الطاولة وهو يزرّر سترته.

- «ماذا سأدرس في أثناء الرحلة إلى أراكس؟».

- «أشكال الحيّة الأرضية التي تعيش على أراكس. تقول الأبحاث إن الكوكب فتح ذراعيه لإيواء أشكال حياة أرضية معيَّنة. لا أدري كيف حدث هذا. بعد أن نصل إلى وجهتنا سأبحث عن الدكتور كاينز، عالم البيئات الكوكبية، وسأعرض عليه المساعدة في البحث».

قالها يُوي ثم فكّر: ما هذا الذي أقول؟ أنا أنافق حتّى نفسي.

سأله پول: «هل ستتضمّن الدروس معلومات عن الفرمن؟».

- «الفرمن؟» قالها يُوي ونقر بأصابعه على الطاولة، ثم أدرك

أن پول لاحظ حركته العصبية فسحب يده.

قال پول: «رُبّما لديك بعض المعلومات عن سُكّان أراكس».

قال يُوي: «أجل، بالتأكيد. ينقسم سُكّان الكوكب إلى قسمين:

الفرمن، وسكّان الأخاديد والأحواض والوهاد. سمعت إن بعضهم يتزوَّج ببعض أحيانًا، إذ تُفضّل نساء قُرى الوهاد والأحواض أزواجًا فرمنيين، ويُفضّل رجالهن الزوجات الفرمنيات. لديهم مثلٌ يقول: "الرُقي منبته المُدن، والحكمة منبعاها الصّحراء"».

- «ألديك صورٌ لهم؟».

- «سأرى ما يمكنني فعله في هذا الشأن. السُّمة الأبرز فيهم بلا شك هي أعينهم. إنها زرقاء بالكامل، لا بياض فيها».
- «أهي طفرة وراثية؟».
- «كلا، هذا نتيجة تشبُّع دمائهم بالمِرْاج».
- «لا بُدَّ أن الفرمن شجعان لكونهم يعيشون على أطراف تلك الصَّحراء».

قال يُوي: «بكل ما تحمله كلمة شجاعة من معنى. إنهم يَأْلِفون القصائد لخناجرهم، ونساؤهم شرسات مثل الرجال، حتَّى أطفالهم عنيفون وخطرون. لا أظن أنه سيُسمح لك بمخالطتهم». أطلال پول النظر إلى يُوي وقد وجد في هذه الكلمات الزهيدة عن طبيعة الفرمن قوَّة استحوذت على انتباهه بالكامل.

يا لهم من قوم يكسبهم المرء حلفاء!

سأل پول: «ومأذا عن الديدان؟».

- «ماذا؟».

- «أودُّ دراسة المزيد عن ديدان الرمال».

- «آها، بالتأكيد. لدي كتاب مرئي عن عِيَّنة صغيرة منها اقتُصت في المناطق الشمالية لا يتعدَّى طولها 110 أمتار وقطرها 22 مترًا. شهودٌ موثوق بهم أبلغوا عن ديدان يزيد طولها على أربعمئة متر، وثمَّة أدلَّة على وجود ديدان أكبر حجمًا».

نظر پول إلى الخريطة مخروطية الإسقاط التي تُظهر قطاعات أَرَاكس الشمالية المترامية على الطاولة أسفله. «حزام الصَّحراء والمناطق القطبية الجنوبية مُعلَّمة بأنها غير صالحة للسُّكنى.

أهذا بسبب الديدان؟».

- «والعواصف».

مكتبة
t.me/t_pdf

- «ولكن أيّ مكان يمكن تسخيرهِ وجعله صالحاً للسكنى».

قال يُوي: «إن كان ذلك سيعود بالنفع اقتصادياً. أراكس مملوء بالمخاطر المُكلّفة»، ثم تحسّس شاربه المتدلّي وأردف: «سيأتي والدك قريباً. لدي هديّة لك قبل أن أغادر، شيءٌ وجدته مصادفةً وأنا أحزم أمتعتي»، ثم وضع على الطاولة بينهما كتاباً أسود، مستطيلاً، أصغر من ظفر إبهام پول.

نظر پول إليه، ولاحظ يُوي كيف أن الصبيّ لم يمدّ يده للإمساك به وفكّر: كم هو حذراً!

- «هذه نسخة قديمة جداً من الإنجيل الكاثوليكي البرتغالي صُنعت خِصيصاً لمُسافري الفضاء. ليس هذا كتاباً مرئياً، بل كتاب حقيقي مطبوع على ورقٍ مصنوع من خيوط نانوئية، ومزوّد بعدسة تكبير خاصة ونظام شحن كهروستاتي»، قالها والتقطه مواصلاً الشرح: «تحافظ الشحنة على الكتاب مغلقاً، وتضغط صفحاته بين غلافيه المزوّدين بقفل زمبركي. إذا ضُغِطت الحافة هكذا، تتناثر الصفحات التي اخترتها ويُفتح الكتاب».

- «إنه صغير جداً».

- «لكنه يضم بين دفتيه ثمانمئة صفحة. اضغط الحافة هنا، وستقلب الشحنة الصفحة وأنت تقرأ. إيّاك أن تلمس الصفحات نفسها بأصابعك، فتسيج الخيوط رقيق جداً».

أغلق يُوي الكتاب، وناولهُ إلى پول قائلاً: «جرّبه».

راقب يُوي پول وهو يجرّب ضبط الصفحات، وفكّر: ها أنا أُسكّن ضميري بإهدائه كتاب دين قبل أن أغدر به، كي أستطيع أن أقول لنفسِي إنه ذهب إلى حيث لا أستطيع الذهاب.

قال پول: «لا بدّ أنه صُنِع قبل ظهور الكُتب المرئية».

- «إنه قديم جدًا. لنبقى سرًا بيننا، اتفقنا؟ قد يُعده أبواك أقيم من أن يُترك في يد صبيٍّ صغيرٍ مثلك».

قالها وفكر: إذا علمت أمه به فقطعًا سنشك في دوافعي.

أغلق بول الكتاب وأمسكه في يده وقال: «حسنًا... إن كان بهذه القيمة...».

قاطعه يُوي: «طاول هوى رجلٍ مُسنٍّ، لقد مُنحت إياه وأنا صغير جدًا». ثم فكر: يجب أن أستحوذ على عقله، وأن أُغذي طمعه. «افتحه على سفر الكلمة*، الآية 467، التي تبدأ بعبارة "ومن الماء كل شيء حيّ". على حافة الغلاف حُرّ طفيف يُعلم الموضع».

تحسّس بول الغلاف، ولاحظ وجود حُرّين، أحدهما أصغر من الآخر. ضغط الحُرّ الصغير ففتح الكتاب على راحة يده، وانزلت العدسة المُكبّرة إلى الموضع المختار.

قال يُوي: «اقرأ بصوت عالٍ».

بلّل بول شفّتيه بلسانه وبدأ يتلو: «فكر في الأصمّ الذي لا يدرك معنى الصّوت، ثم تأمل، ألا يمكن أن نكون جميعًا صمًا بطريقة أو بأخرى؟ أيّ حواس نفتقر إليها تُعجزنا عن رؤية وسماع عوالم أخرى مُحيطّة بنا؟ ماذا يحيط بنا ولا نستطيع...».

صاح يُوي: «توقّف!».

قطع بول قراءته، وحدّق إليه في دهشة.

أغلق يُوي عينيه وجاهد لاستعادة رباطة جأشه. أيّ شرّ جعل الكتاب يُفتح على آية حبيبتي وأنا المُفضّلة؟ ثم فتح عينيه ورأى بول يحملق إليه.

سأله بول: «أثمة خطب؟».

قال يُوي: «معدرة، كانت هذه... الفقرة المُفضَّلة... لزوجتي الراحلة. إنها ليست الفقرة التي قصدت لك أن تقرأها. إنها تُعيد إليّ ذكريات... مؤلمة».

- «على الغلاف حَزَّان».

فَكَرَّ يُوي: لا شك أن وانا علَّمت فقرتها المُفضَّلة. إن أصابعه أكثر حساسية من أصابعي فتلمَّس علامتها. لقد كان حادثًا غير مقصود.

قال يُوي: «ستجد الكتاب مثيرًا للاهتمام. إن به من الحقائق التاريخية الكثير، بالإضافة إلى فلسفة أخلاقية نافعة».

تأمل پول الكتاب الصغير المفتوح في راحة يده ودهش كم هو ضئيل! لكنه على الرغم من هذا يضمُّ بين دفتيه غموضًا كبيرًا. شيءٌ ما حدث له وهو يقرأ منه، شيءٌ حرَّك فيه غايته الرهيبة. قال يُوي: «سيأتي والدك في أيِّ لحظة. أخفِ الكتاب واهرب منه في وقت فراغك».

لمس پول الحافة كما بيَّن له يُوي فانفلق الكتاب ودسَّه في جيب سُترته. عندما صاح به يُوي منذ لحظات خشي بول أن يطالبه باستعادة الكتاب.

قال پول متحدثًا بجديَّة: «أشكرك على هديَّتكَ يا دكتور يُوي. سيكون هذا سرِّنا الصغير. إن كانت هناك خدمة أستطيع تقديمها لك كهديَّة في المقابل، فأرجو ألا تتردَّد في سؤالني».

قال يُوي: «لا شيء ينقصني».

ثم راح يُفكِّر: لماذا أتلذَّذ بتعذيب نفسي وتعذيب هذا الفتى المسكين، على الرغم من أنه لا يعرف ذلك؟ أوَّاه! اللعنة على أولئك الهراكنة الوحوش! لِمَ اختاروني أنا لتنفيذ فعلتهم الشنيعة؟

ما المدخل المناسب لدراسة شخصية والد المؤدّب؟
إن الدوق ليتو آتريديز رجلٌ لا مثيل لحنانه، وقارس
البرودة في الآن ذاته. على أن حقائق كثيرة تُمهّد
الطريق أمام سبر أغوار هذا الدوق: حُبُّه الدائم
للإيدي زوجته ربيبة البني جيسيرت، والأحلام الكبيرة
التي ينشدها لابنه، وإخلاص رجاله له. تتأمّله
فتأسى على النبيل الذي وقع في شرك القدر، على
الوحيد المهجور الذي طمس نوره بسطوع مجد ابنه.
وعلى الرغم من هذا، نجد أنفسنا نتساءل: وماذا
يكون الابن إن لم يكن امتداداً لأبيه؟
من كتاب «المؤدّب: شروح السيرة العائلية» للأميرة إيrolan.

شاهد پول أباه يدخل غرفة التدريب، ورأى حرسه الشخصي
يتّخذون مواقعهم في الخارج وأغلق واحدٌ منهم الباب. وكالعادة
حيثما وُجد، استشعر پول حضور أبيه الطاغية الذي يملأ الحواس
في المكان.

كان الدوق طويل القامة ذا بشرة زيتونية، لوجهه الرفيع زوايا حادة
تلطّفها -إلى حدٍّ ما- عيناه الرماديتان العميقتان. كان يرتدي بزّة
العمل السوداء المزدانة بشعار صقّر أحمر على الصدر، ويشدّ خصره
الضيق حزام الدرع الفضي الذي يعلوه الصدا من كثرة الاستخدام.
قال الدوق: «أتجهّد في الاستذكار يا بُني؟».

ثم عبر الغرفة إلى الطاولة، وألقى نظرة سريعة إلى الأورق
المتناثرة عليها، وأجال عينيه في الغرفة قبل أن يعود إلى پول.
بدا الدوق مُرهقاً، وبنوء بحمل إخفاء كلاله وإجهاده.

فكّر الدوق: يجب أن أستغل كل فرصة في أثناء سفرنا إلى أراكس للراحة، فلن أجد الراحة هناك.

قال پول: «ليس بالقدر الكافي، فكل شيء...»، لكنه لم يكمل عبارته، واكتفى بهز كتفيه.

- «أعرف ما تريد أن تقول. على أيّ حال، سنرحل غداً. سيكون من الجيد الاستقرار في موطننا الجديد والقاء كل هذه الفوضى وراء ظهورنا».

أوما پول، وفجأة باغتته ذكرى كلمات الأمّ المؤقّرة: «... لا أمل للأب».

سأل پول: «أبي، هل سيكون أراكس خطراً كما يقول الجميع؟». أرغم الدوق نفسه على التلويح بإيماءة لا مُبالية، وجلس إلى رُكن الطاولة وابتسم. راح عقله يفيض بأجزاء من مختلف الخطب التشجيعية التي يستخدمها لتبديد أبخرة الخوف من أذهان رجاله قبل المعارك، لكن الكلام نجمّد على لسانه قبل أن ينطقه، تصدّه فكرة واحدة:

لن أخدع ابني.

ووجد نفسه يعترف: «سيكون خطراً».

قال پول: «أخبرني حوَّاط أن لدينا خُطةً للتعامل مع الفرمن»، وفي قرارة نفسه تساءل: لِمَ لا أخبره بما قالته المرأة المعجوزة؟ هل ألجمت لساني؟

لاحظ الدوق الضيق البادي في صوت ابنه، فقال: «كالعادة ينصب اهتمام حوَّاط على الفرص الكبيرة، لكن الأمر ينطوي على ما هو أكثر. أنا مثلاً أضع نُصب عيني على "الائتلاف المجريّ" لأقطاب التجارة الأشراف"، أو شركة تشوم. عندما أعطانا جلاله

الإمبراطور السيادة على كوكب أراكس، بات مضطراً إلى منحنا مقعداً إدارياً في شركة تشوم.. وفي هذا مكاسب خفية كثيرة». قال پول: «تتحكم تشوم في الاسپايس».

قال الدوق: «وأراكس بما فيه من اسپايس سيكون هو الباب الذي سننفذ منه إلى تشوم، وفي تشوم مآرب أخرى غير المزاج». وجد پول نفسه يقول فجأة من دون تفكير: «هل حذرتك الأم المؤقرة؟»، ثم ضمَّ قبضتيه شاعراً بالعرق الذي جعل راحتيه زلقتين من المجهود اللاواعي الذي بذله لتوجيه هذا السؤال. قال الدوق: «أخبرني حوَّاط أنها أخافتك بتحذيراتها من أراكس. لا تدع مخاوف النساء تشتت تفكيرك، فلا توجد امرأة تريد أن يتعرَّض أحباؤها للخطر. يدُ أمك هي المعركة لتلك التحذيرات. خذ تصرفها كعلامة على حبها لنا».

- «أهي على علم بأمر الضرمين؟».

- «أجل، وما هو أكثر بكثير».

- «مثل ماذا؟».

فكَّر الدوق: قد تكون الحقيقة أسوأ ممَّا يتخيل، ولكن حتى أخطر الحقائق قد تكون ذات قيمة إذا تدرب المرء على التعامل معها. وإن كان في تهذيب النشء شيء لم يسلم منه ابني، فهو التعامل مع الحقائق الخطيرة. لكن يجب ترك هذه الأمور لتختمر، فهو ما زال يافعاً.

قال الدوق: «منتجات قليلة جداً تقلت قبضة شركة تشوم، فهي تعمل في تجارة الأخشاب، والحمير، والخيول، والأبقار، والخطب، والروث، وأسماك القرش، وشعر الحيتان. باختصار، كل ما هو معتاد وكل ما هو غريب. حتى أرزنا البُندي الرخيص الذي نزرعه

هنا على كلابان لم يفلت منها . إنها تتاجر في كل سلعة تستطيع
سفن النقابة نقلها ، بما فيها مشغولات كوكب عكاظ الفنية ، وآلات
كوكبي ريشيس واكس . لكن لا شيء في كل ذلك يعلو على المزاج ،
الذي تستطيع بحفنه زهيدة منه شراء منزل على كوكب تيوبايل .
المزاج مادة لا تُصنَّع ، بل لا بُدَّ من استخراجها من صحاري
أراكس . إنه خامٌ فريد له خصائص مضادة للشيخوخة بالفعل .
- «والآن صرنا نتحكَّم فيه» .

- «إلى حدِّ ما . لكن الشيء المهم هو أن نضع في حُسابنا
جميع العائلات النبيلة التي تعتمد على أرباحه . فكَر في كل تلك
الأرباح الهائلة الآتية من مصدر واحد ، الاسپايس ، وتخيَّل ما
يُمكن أن يحدث إذا تسبَّب أمرٌ طارئٌ في انخفاض معدَّل إنتاجه» .
قال پول : «كل من كدَّس مخزونًا من المزاج سيحقِّق أرباحًا
طائلة ، وسيجد الآخرون أنفسهم في العراء» .

سمح الدوق لنفسه بلحظة من الرضا المثقل بالهمِّ وهو يتأمَّل
ابنه ويتدبَّر راحة تلك الملاحظة ، ثم أوماً : «يخزَّن الهراكنة
الاسپايس منذ أكثر من عشرين عامًا» .

- «إذا فهم يعتزمون عرقلة إنتاجه كي يقع اللوم عليك» .

قال الدوق : «إنهم يريدون أن يصبح لقب آل آترديز مكروهاً .
فَكَر في نبلاء مجلس اللانديسراد الذين ينظرون إليَّ بقدرٍ معيَّن
من الزعامة ، وفي الناطقين غير الرسميين بأسمائهم ، وتخيَّل
ماذا ستكون ردَّة فعلهم إذا صرت مسؤولاً عن انخفاضٍ حاد في
دخلهم . عندها سيقولون اللعنة على المعاهدة الكبرى ! المصلحة
في المقام الأوَّل . لن يسمح المرء لشخصٍ بأن يُفقره» ، ثم التوت

شفتا الدوق في ابتسامة قاسية وأردف: «حينها سيفضُّون الطرف عن أيِّ شيءٍ يحدث لي».

- «حتَّى لو هُوجمنا بالأسلحة الذرية؟».

- «لن يصل الأمر إلى هذا الحدِّ، ولن يخرق الهراكنة المعاهدة بشكل صريح، لكن توفَّع كل ما دون ذلك. قد يلجؤون حتَّى إلى تغيير المحاصيل أو تسميم التربة».

- «لماذا نتَّجه إلى هذا الشرك إذا؟».

قطب الدوق جبينه وقال لابنه: «لأن معرفة مكان الشرك هي أوَّل خطوة في تقاديه يا بول. الأمر أشبه بالقتال الفردي يا بُني، لكن على نطاق أكبر، مكرٌّ محبوبٌ في مكرٍ محبوبٍ في مكرٍ، هكذا بلا نهاية، ومهمَّتنا هي فك الخيوط وتتبعها. بمعرفتنا أن الهراكنة يكْدسون المِزاج، علينا أن نسأل: ومن أيضًا يكْدسه؟ هكذا نحصل على قائمة بأعدائنا».

- «ومن أيضًا يكْدسه؟».

- «بعض العائلات التي كنا نعلم بعداوتها لنا، وآخرين كنا نظنُّهم حلفاء. لكن يجب ألا نشغل بالنا بأولاء وأولئك في الوقت الحالي، لأن شخصًا آخر أكثر أهمية في الصورة: إمبراطورنا الپاديشاه المحبوب».

حاول بول أن يبتلع ريقه لكن جفاف حلقه المفاجئ منعه.

- «ألا يمكنك أن تعقد اجتماعًا لمجلس اللاندسراد،

وتكشف...».

- «ونجعل أعداءنا يعلمون أننا نعرف أيَّ يدٍ تحمل الخنجر؟ كلا

يا بول، نحن نرى تلك اليد الآن، لكن من يدري إلى أيِّ يدٍ سينتقل

الخنجر بعد ذلك؟ إذا طرحنا الأمر على مجلس اللاندسراد، فلن يؤدي ذلك إلا إلى خلق حالة من البلبلة الكبيرة، وسينكر الإمبراطور التهمة، وعندها من ذا الذي سيجرؤ على تكذيبه؟ كل ما سنكسبه هو القليل من الوقت، وفي المقابل سنخاطر بوقوع فوضى عارمة، ولن نعرف من أين ستأتي الضربة التالية».

- «قد تبدأ جميع العائلات في تكديس الاسپايس».

- «أعداؤنا لهم سبق الآن، وبات من الصعب اللحاق بهم».

قال پول: «تواطؤ الإمبراطور يعني تواطؤ السَّاردوکار».

قال الدوق: «بلا شك، سيتنكرون في زي الهراكنة، لكنهم سيظلُّون جنود الإمبراطور المخلصين».

- «كيف يمكن أن يساعدنا الفرمن في مواجهة السَّاردوکار؟».

- «هل حدِّثك حوَّاط عن كوكب سالوسا سوكانداس؟».

- «السجن الإمبراطوري؟ كلا».

- «ماذا لو كان أكثر من مجرد سجن كوكبي يا پول؟ ثمة سؤال لم يُطرح مطلقاً عن قوَّات السَّاردوکار الإمبراطوريين: من أين يأتون؟».

- «تقصد أنهم يأتون من الكوكب السجن؟».

- «لا بدَّ لهم من مكانٍ يأتون منه».

- «لكن ماذا عن التجنيد الإلزامي الذي يفرضه الإمبراطور على...».

- «هذا ما دُفعنا إلى تصديقه، أنهم مجرد جنود الإمبراطور الذين تلقوا تدريباً فائقاً منذ نعومة أظافرهم. من حينٍ لآخر نسمع كلاماً هامساً عن كوادرات التدريب الإمبراطورية، لكن يظل

ميزان حضارتنا كما هو لا يختل: قوَّات عائلات اللاندراد النبيلة العسكرية في كَفَّة، وقوَّات السردوكار والمجنَّدون الداعمون لهم في الكَفَّة الأخرى. ضَع خطًّا تحت "الداعمون لهم" يا بول. ما السَّاردوكار إلَّا ساردوكار».

- «لكن كل التقارير تقول إن سالوسا سوكانداس كوكبٌ جحيمي!».

- «بلا شك. لكنك إن أردت تنشئة رجالٍ أقوياء قساة شرسين، فما الظروف البيئية التي ستعرضهم لها؟».

- «كيف يكسب المرء ولاء رجال كأولئك؟».

- «تُوجد طرائق مجرَّبة: اللعب على أوتارٍ نفسية معيَّنة، كتنفيذة إحساسهم بالتفوق، ودغدغة مشاعرهم بفكرة الميثاق السَّري الذي يربطهم، وإنماء مفهوم روح المعاناة المشتركة فيما بينهم. ليس من الصعب تحقيق الأمر، وقد سبق أن نجح تحقيقه مرَّات كثيرة على كواكب كثيرة».

أوما بول متفهِّمًا وهو يركِّز اهتمامه على وجه أبيه، شاعرًا أن أمرًا مهمًّا على وشك أن يُقال.

قال الدوق: «خُذ أَرَّاكس على سبيل المثال، عندما تخرج من المدن والحاميات تجد نفسك في بيئة معادية رهيبة لا تختلف عن سالوسا سوكانداس».

اتَّسمت عينا بول. «الفر من!».

- «أرى أن أولئك القوم قد يشكِّلون نواة قوَّات صلبة تضاهي قوَّة وخطورة السَّاردوكار. صحيح أن استقطابهم في السَّرِّ سيتطلَّب منَّا صبرًا وأناةً، وتسليحهم بشكلٍ جيِّد سيتطلَّب ثروة.. لكنهم موجودون، والثروة المتمثِّلة في الاسپايس موجودة كذلك.

أظن أنك فهمت الآن لماذا سندهب إلى أراكس على الرغم من علمنا بالشرك المنصوب لنا».

- «ألا يعرف آل هاركونن بوجود الفرمن؟».

- «الهراكنة يحتقرون الفرمن، ويضطادونهم من أجل الترفيه، ولم يكلفوا أنفسهم حتى عناء إجراء إحصاء دقيق لأعدادهم. سياسة تعامل الهراكنة مع سكّان الكواكب التي يحكمونها تتلخّص في إنفاق أقل قدر من المال للحفاظ عليهم من الانقراض».

لمعت الخيوط المعدنية في شعار الصقر الذي يزُين صدر الدوق عندما غيّر وضعه، وقال: «أفهمت؟».

قال پول: «إذا نحن نتفاوض مع الفرمن في الوقت الحالي».

قال الدوق: «لقد أرسلت بعثة بقيادة دانكن آيداهو. إن دانكن رجلٌ أشم لا يعرف الرحمة، لكنه مفرم بالحقيقة. أظن أن الفرمن سيمعجبون به. إن حالنا الحظ، قد يُكوّنون رأيهم عنّا وفقًا له، دانكن الخلق».

قال پول: «دانكن الخلق، وجيرني الشجاع».

قال الدوق: «أحسن انتقاء اللقب».

وجد پول نفسه يفكر: جيرني واحد من الذين قالت الأم الموقرة إن الموائم تُشيد على أكتافهم: «... شوكة الشجعان».

قال الدوق: «أخبرني جيرني بأنك أبليت حسنًا في تدريب الأسلحة اليوم».

- «ليس هذا ما قاله لي».

ضحك الدوق بصوت عالٍ وقال: «إنه ممّن يضنّون بالشاء، لكنه قال إنك تتمتع بإدراك دقيق - حسب تعبيره - للفرق بين سنّ النصل وحده».

- «يقول جيرني إنه لا فنٌ في القتل بسنّ النصل، وإن القتل الحق يكون بالحدّ».

قال الدوق مزمجراً وقد شعر بانزعاج من حديث ابنه عن القتل: «جيرني رجلٌ شاعري. أتمنّى ألا تضطر إلى القتل، لكن إن استدعت الضرورة، فلتفعلها كيفما استطعت، بالسنّ أو الحدّ»، ثم أنهى عبارته ورفع بصره إلى كوّات السقف التي كان المطر ينقرها بزخّاته.

عندما رأى پول اتّجاه نظرة أبيه، فكّر في السماوات النديّة في الخارج، الظاهرة التي يستحيل مشاهدتها على أراكس، وقاد تفكيره في السماوات إلى التفكير في الفضاء الخارجي، فسأل: «هل سُنّ النقابة ضخمة حقّاً؟».

رنا الدوق إليه، وقال: «إنها أوّل مرّة ستغادر فيها الكوكب. أجل سُنّهم كبيرة. سننتقل على متن هايلاينر لأن الرحلة طويلة. الهايلاينرات كبيرة حقّاً. أسطول فرقاطاتنا ومركباتنا كله لن يشغل سوى ركنٍ صغيرٍ بها. سنكون مجرّد جزء صغير من حمولة السفينة».

- «ولن يُسمح لنا بمغادرة فرقاطاتنا؟».

- «هذا جزء من السعر الذي يُدفع مقابل تأمين النقابة. يمكن أن تَركن سُنّ هاركونية إلى جوارنا ولن يكون لدينا ما نخشاه منها، فالهراكنة أذكى من تعريض امتيازات النقل الممنوحة لهم للخطر».

- «سأرقب شاشتنا لأحاول رؤية أحد ملاحِي النقابة».

- «أرح نفسك، لن تراهم. حتّى وكلائهم لم يروا منهم أحداً. تغار النقابة على خصوصيتها بقدر ما تغار على احتكارها، فلا ترتكب شيئاً يعرّض امتيازات النقل الممنوحة لنا للخطر يا پول».

- «أتظن أنهم يختبئون لأنهم تحوَّروا ولم يعودوا.. يشبهون

هزَّ الدوق كتفيه وقال: «من يعرف؟ إنه لغز لا يشغلنا حلُّه،
ف لدينا مسائل أكثر إلحاحًا، من ضمنها أنت».

- «أنا؟».

- «أُمك أرادت أن أكون الشخص الذي ينقل إليك الخبر يا
بُني. من الواضح أنك تتمتع بقدرات مِنتات».

حدَّق پول إلى والده، وانعقد لسانه للحظة، ثم قال: «قدرات
مِنتات؟ أنا؟ لكنني...».

- «حوَّاط يؤيِّد ذلك. إنها الحقيقة يا بُني».

- «لكنني كنت أعتقد أن تدريب المِنتات يجب أن يبدأ منذ
المهد، وأنه لا يجوز إخبار المتدرِّب كي لا يعيق ذلك...»، ثم
بتر عبارته بغتةً، إذ وجد كل التفاصيل والمواقف التي مرَّ بها
في حياته قد تركَّزت في عملية حسابية عقلية واحدة. ثم مرَّت
لحظة، قال پول بعدها: «الآن فقط أدركت».

قال الدوق: «يأتي يومٌ على المِنتات المرتقب يدرك فيه حقيقة
ما خضع له، ربُّما بعد انتهاء تهيئته، حينها يكون عليه اختيار إذا
ما كان سيستمر في التدريب أم سيتخلَّى عنه. ينجح البعض في
مواصلة الطريق، بينما يعجز آخرون. وحده المِنتات المرتقب هو
الذي يستطيع تحديد ذلك بنفسه».

حكَّ پول ذقنه مفكرًا في كل التدريب الخاص الذي تلقَّاه
من حوَّاط ومن أمِّه: فنون الاستذكار، وتركيز الوعي، والسيطرة
على العضلات، وشحذ الحواس، ودراسة اللغات، وتمييز الفروق
الدقيقة بين الأصوات. احتشدت كل تلك الأشياء بغتةً في ذهنه
بازدةً فيه بذرة وعي جديدٍ تمامًا.

قال أبوه: «في أحد الأيام ستصير دوقاً يا بُني، والدوق المنتات
لهو رجلٌ مهيب الجانب. هل أنت قادر على اتُّخاذ قرارٍ الآن، أم
نحتاج إلى مزيدٍ من الوقت؟».

أجاب پول من دون أدنى تردُّد: «سأواصل التدريب».

غمغم الدوق: «مهيب الجانب بالفعل»، ولاحظ پول ابتسامة
الفخر التي تتلاعب على ثغر أبيه، لكنَّها صدمته، إذ شدَّت ملامح
وجه أبيه الناحل حتَّى بدت تفاصيل جمجمته. فكَّر پول: لعلَّ
الغاية الرهيبة هي أن يكون المرء منتاتاً.

لكن حتَّى مع تركيزه على هذا الفكرة، وجد أن وعيه الجديد
ينكرها.

مع انتقال الليدي چيسيكاً إلى كوكب أراكس، حقق برنامج البني چيسيرت لزراعة الخرافات والأساطير في العوالم البدائية عن طريق المبشرات الحاميات كامل أهدافه لم ينقص منها شيئاً. لطالما كانت الحكمة من زرع مختلف كواكب الكون المعروف بنبوءات مصممة لحماية نساء البني چيسيرت موضع تقدير، لكنَّ أحدًا لم يشهد من قبل حالة فريدة حدث فيها تزواجٌ مثالي بين الشخص والتجهيز كهذه. لقد استشرت النبوءات الأسطورية في أراكس وتغلّلت حتّى تشرّيتها الثقافة وطالت المُسمّيات نفسها (على سبيل المثال: أمٌ موقرة، وكانتو ورسبونديو، ومعظم ألفاظ شريعة* نبوءات پانوليا). ومن المسلّم به عمومًا الآن أن قدرات الليدي چيسيكاً الكامنة قد أُستُهِينَ بها بدرجة فادحة.

من كتاب «الأزمة الأراكسية: دراسة تحليلية» للأميرة إيrolان.
(أرشيف البني چيسيرت السري: ملف رقم AR-81088587)

في كل مكان حول الليدي چيسيكاً، تكدّست أكوام المتاع المغلّف في زوايا بهو قصر أراكين العظيم، وتراكت عشرات الصناديق والخزائن والحاويات والحقائب في المساحات المفتوحة منه، وقد بدأ إفراغ بعضها بالفعل. ترمى إلى مسمعي چيسيكاً جلبة عمّال شحن مكوك النقابة وهم ينزلون حمولة أخرى عند المدخل. وقفت چيسيكاً في منتصف البهو، واستدارت ببطء، ناظرةً إلى أعلى متفقدّة المنحوتات المظلمة والزوايا المظلمة والنوافذ

الغائرة في الجدار. ذكَّرتها الردهة العملاقة العتيقة الطراز بقاعة اجتماعات الأخوات في مدرسة البني جيسيرت. لكن قاعة مدرستها كان لها طابعٌ حميميٌّ، عكس الجدران الحجرية الكثيبة هنا.

فكَّرت جيسيكَا أن المعماري الذي شيَّد هذا المكان لا بُدَّ من أنه استحضر روح عصورٍ تاريخيةٍ مוגلةٍ في القدم ليخرج بهذه الجدران القوطية والستائر الداكنة. كان السقف المقوَّس المقبَّب يعلو رأسها بارتفاع طابقين، ومدعوًما بعوارض خشبية عملاقة كانت واثقة بأنها سُحنت إلى أَرَأكس عبر الفضاء بكُلفة هائلة. لا تنمو أشجار بهذا الحجم على أيِّ كوكب من كواكب هذا المجموعة النجمية.. إلا لو كانت العوارض من الخشب المُقلَّد. ولم تكن تظن ذلك.

كان هذا القصر مقرَّ الحكومة في أيام الإمبراطورية القديمة. في ذلك الوقت، لم تكن التكاليف تهْمُهُم. كان ذلك قبل قدوم الهراكنة وتشيد مدينتهم الكبرى الجديدة في قرطاج، المدينة المبهرجة النحاسية التي تبعد نحو مئتي كيلومترٍ إلى الشمال الشرقي عبر إقليم الأرض الوعرة. كان ليتو حكيماً لاختيار هذا المكان كي يكون مقرَّ حُكمه، فلمدينة أراكين اسمٌ رنَّانٌ، يوحى بالعراقة والأصالة. كما أنها مدينة أصغر وأسهل في تطهيرها والدفاع عنها.

سمعت جيسيكَا مجدِّداً جلبة العُمَّال وهم ينزلون حمولة الصناديق في مدخل القصر، وتنهَّدت.

على أحد الصناديق إلى يمينها، ارتكزت لوحة والد الدوق، تتدلَّى منها خيوط التغليف كأنها زينة مهترئة، وكان بعضُ

منها ما زال في قبضة جيسيكَا اليسرى. بجانب اللوحة قبع رأس
ثورٍ أسود مثبَّتٌ على لوح مصقول. بدا الرأس كجزيرة مظلمة في
بحرٍ من لفائف ورق الحُشو الأبيض. كان اللوح ممدَّدًا باستواء
على الأرض، وكمام الثور اللامع موجَّهًا إلى السقف، كما لو كان
الوحش على وشك الخوار متحدِّيًا أصداء تلك القاعة الفارغة.
تساءلت جيسيكَا عن الدافع الخفي الذي جعلها تفضُّ هاتين
القطعتين أولًا: الرأس واللوحة. كانت تعلم أن لتصرُّفها دلالة
رمزية. لم تشعر بمثل هذا الخوف والتردُّد وعدم الثقة بالنفس
منذ ذلك اليوم الذي ابتاعها فيه رجال الدوق من المدرسة.
الرأس واللوحة.

زادت القطعتان من شعورها بالارتباك. سرت رعدة في
جسدها، فألقت نظرة خاطفة إلى شقوق النوافذ الضيقة العالية.
كان الوقت لا يزال في بداية الظهيرة، لكن عند هذا الارتفاع
شمالًا بدت السماء سوداء وباردة، وأعم بكثير من سماءات
كلادان الزرقاء الدافئة. آلمتها وخزة حنين إلى الوطن.
ما أبعد كلادان.

- «ها قد وصلنا!».

كان هذا صوت الدوق ليتو.

استدارت جيسيكَا فرأته قادمًا بخطوات واسعة من الممرِّ
المقوَّس المؤدِّي إلى قاعة الطعام. كانت بزَّته السوداء المزدانة
بشعار صقْرِ أحمر على الصدر تبدو رثة ومغبَّرة.
قال الدوق: «ظننت أنك ضللت طريقك في هذا المكان
البغيض».

قالت جيسيكَا: «إنه منزلٌ مُوحش»، ثم تأملت قامته الفارعة،

وذكرتها بشرته السمراء بأشجار الزيتون، وانعكاس أشعة الشمس الذهبية على المياه الزرقاء. كانت عيناه رماديتين كرماد الفحم، لكن وجهه حادّ كوجه طيرٍ جارح: رفيع ومملوء بالزوايا والأسطح الحادة. قبض صدرها خوف مفاجئ منه. لقد تحوّل إلى شخصٍ عنيفٍ أمر منذ أن قرّر الرضوخ لأمر الإمبراطور.

قالت: «المدينة برمتها تبدو موحشة».

وافقها قائلاً: «إنها حامية صغيرة قذرة مغبّرة، لكننا سنغيّرها»، ثم جال ببصره في أرجاء القاعة وأردف: «هذه من الغرف العامة المخصّصة للمناسبات الرسمية. لقد أقيمت نظرة سريعة إلى بعض الغرف العائلية في الجناح الجنوبي، وهي أجمل بكثير»، ثم اقترب خطوة منها، ولمس ذراعها، وراح يتأمّل شموخها بإعجاب. ومرةً أخرى وجد نفسه يتساءل عن أصلها غير المعروف، وأسلافها المجهولين: ربّما هي من نسل أسرة منشقة؟ أو سليله فرع ملكيّ نُفّي في الأرض؟ إنها تليق بالملك أكثر من ذرية الإمبراطور نفسها.

استدارت جيسिका تحت وطأة نظراته، فبدا له جانب وجهها، وأدرك ليتو أن لا ملمح بعينه فيه هو مصدر جمالها. تأمّل وجهها البضاوي الذي يعلوه غطاء من الشعر البرونزي المصقول، وعينيها الخضراوين الصافيتين كسماء كلابان في الصباح، وأنفها الدقيق، وفمها الواسع السخيّ، وعودها الجميل الرهيف الطويل، الذي غلبت نحافته انحناءته.

تذكّر أن زميلاتها الأخوات في بيت الطالبات في المدرسة كان ينعنونها بالنحيلة، هكذا أخبره رجاله الذين ابتاعوها، لكن هذا الوصف غير دقيق ومبالغ في تبسيطه. لقد أعادت جيسिका

الجمال الملوكي إلى نسل آل آترديدز، وكم كان سعيداً أن پول أخذ ملامحه منها.

سألها: «أين پول؟».

- «في مكانٍ ما في القصر يتلقَّى دروسه مع يُوي».

قال: «سمعت صوت يُوي في الجناح الجنوبي، لكن لم يكن لديَّ وقتٌ لتفقّد المكان، أظنهما هناك»، ثم ألقى نظرة إليها بطرف عينه، وقال متردداً: «جئت إلى هنا لأعلق مفتاح قلعة كلادان في قاعة الطعام فحسب».

حبست جيسيكا أنفاسها، ومنعت نفسها من مد يد العون له وتأييده. إن تعليق المفتاح لفعلٌ حاسم، ويعني أن هذه الدار صارت مستقرّاً ومقاماً. لكن لم يكن هذا هو الوقت ولا المكان المناسب للتهوين والمواساة. قالت له: «رأيت رايتا فوق المنزل عندما دخلنا».

رمى الدوق صورة والده بنظرة خاطفة وقال: «أين كنت ستعلقين هذه؟».

- «في مكانٍ ما هنا».

- «كلّاً»، قالها بنبرة قاطعة وحاسمة أكّدت لها أن النقاش سيكون عديم الجدوى، لكنها تستطيع استخدام حيلها وكيدها لإقناعه. ومع ذلك، رأت أن تحاول معه أولاً، ولو لتذكير نفسها بأنّها لن تخدعه.

قالت له: «مولاي، لو أنك فقط...».

- «جوابي لن يتغيّر. إنني أنصاع لرغباتك بشكل مخزٍ في معظم الأمور، لكن ليس في هذا الأمر. لقد جئت لتوّي من قاعة الطعام حيث وجدت...».

- «مولاي! أرجوك».

قال الدوق: «أنت تخيّرني بين شهيتك واعتزازي بأجدادي يا عزيزتي. سيعلقان في قاعة الطعام».

تنهّدت مستسلمة: «كما تشاء يا مولاي».

- «يمكنك العودة إلى عادتك في تناول الطعام في جناحك متى سنحت الفرصة. لا أنتظر منك الحضور إلى قاعة الطعام إلا في المناسبات الرسمية».

- «أشكرك يا مولاي».

- «لا داعي للحديث معي بجفاء وبطريقة رسمية هكذا! كوني ممتنة لعدم زواجي بك يا عزيزتي، وإلا لحتم عليك الواجب مشاركتي المائدة في كل وجبة».

حافظت جيسिका على وجهها جامداً بلا تعبير، وأومأت.

قال الدوق: «وضع حوَّاط كشَّاف سموم على مائدة الطعام، ويوجد واحد آخر متقل في غرفتك».

قالت: «توقّعت هذا الخلاف بيننا إذا».

- «أنا أفكر أيضاً في راحتك يا عزيزتي. لقد عيّنت بعض الخدم. إنهم من السكّان المحليين، لكن حوَّاط تحرّى عنهم جميعاً. إنهم من الفرمن، وسيؤدّون الغرض إلى أن تفرغ حاشيتنا من مهامها الأخرى».

- «هل يمكن حقاً الوثوق بأيّ شخص من هذا المكان؟».

- «سأثق بأيّ شخص يكره الهراكنة. ربّما حتّى سترغبين في الاحتفاظ بمدبّرة المنزل الأساسية، ميبس الشادوت، بعد انتهاء هذه الفترة الانتقالية».

قالت جيسिका: «الشادوات، أهذا لقب فرمّني؟».

- «قيل لي إنه يعني "الغارفة من البئر"، وهذا معنى له دلالات مهمة هنا. قد لا تبدو لك كالخادِمات، رغم أن حوَّاطٍ يمتدحها كثيرًا بناءً على التقرير الذي قدَّمه دانكن. كلاهما مقتنع بأنها ترغب في خدمتنا، وترغب في خدمتك أنت بالتأكيد».

- «خدمتي أنا؟».

قال لها: «تأهلي إلى علم الفرمن أنك من البني جيسيرت. لديهم أساطير هنا عن البني جيسيرت».

فكرت جيسيكاً: هذا من عمل المَبَشِّرات الحاميات، لا كوكب يفلت منهن.

سألته جيسيكاً: «أهذا يعني أن دانكن نجح في مهمته؟ هل سيصبح الفرمن حلفاء لنا؟».

أجابها الدوق: «لا شيء مؤكد بعد. يرى دانكن أنهم يرغبون في مراقبتنا بعناية لبعض الوقت، لكنهم وعدوا بالتوقف عن مداومة القرى النائية التابعة لنا خلال مدة الهدنة. هذا مكسب أهم ممَّا يبدو. أخبرني حوَّاطٍ بأن الفرمن كانوا شوكة عميقة في حلق الهراكنة، وقد حرص الهراكنة على ألا يشيع سرُّ مقدار ما تعرَّضوا له من خسائر على أيديهم، فلو علم الإمبراطور بقلَّة حيلتهم أمام الفرمن، لكان له تصرف آخر».

قالت جيسيكاً مُفَكِّرةً وقد عادت إلى موضوع ميبس الشادوات: «هممم، مدبِّرة منزل من الفرمن، هذا يعني أن عينيها زرقاوان بالكامل».

قال لها: «لا تدعي مظهر هؤلاء القوم يخدعك، فهم يتمتعون بقوة وبأس، وفي عروقهم حيويَّة وصحَّة. أظن أنهم سيكونون كل ما نحتاج إليه».

قالت له: «إنها مقامرة كبيرة».

قال: «كفانا جدالاً في هذا الأمر».

أجبرت نفسها على الابتسام، وقالت: «نحن ملتزمون بالموافقة، لا شك في ذلك». ثم لجأت إلى روتين تهدئة سريع: نفسان عميقان، واستحضار ذهني، ثم قالت بعده: «حين أبدأ توزيع الغرف، أتحب أن أحجز لك غرفة معينة؟».

ابتسم الدوق وقال: «حسنًا، ننتقل إلى توزيع الغرف: احرصني على وجود غرفة مكتب مساحتها كبيرة بجوار جناح نومي، الأعمال الورقية هنا ستكون أكثر ممّا كانت عليه في كلابدان. وغرفة للحرس بالتأكيد، هذا كل شيء. لا تشغلي بالك بأمن المنزل، لقد أدّى رجال حوَّاط عملهم وأمنّوه على أكمل وجه».

- «أنا متأكّدة من ذلك».

نظر الدوق إلى ساعة معصمه: «قد تلاحظين أن جميع ساعاتنا ضُبطت حسب توقيت مدينة أراكين المحلي. لقد عيَّنت تقنيًا للاعتناء بالأمر، سيأتي بعد قليل». ثم أزاح خصلة من الشعر سقطت على جبهتها وأردف: «عليّ العودة إلى المهبط الآن. المكوك الثاني على وشك الوصول في أي لحظة وعلى متنه طاقمنا الاحتياطي».

- «ألا يُمكن لحوَّاط استقبالهم بدلاً منك يا مولاي؟ تبدو منهُكاً بشدّة».

- «ظفير الطيّب أكثر انشغالاً منّي. تعلمين أن هذا الكوكب موبوء بالبدسائس الهاركوننية. أيضًا يجب أن أحاول إقناع بعض صائدي الاسبايس المتمرّسين بعدم المغادرة. تعلمين أنهم يملكون حق الموافقة أو رفض الاستمرار في العمل مع تغيير حاكم

الإقطاعية، وعالم البيئات الكوكبية هذا -الذي عيّنه الإمبراطور قاضياً للفترة الانتقالية- لا يُمكن شراؤه، وقد سمح لهم بالاختيار. نتوقع مغادرة ثمانمئة يدٍ عاملةٍ خبيرةِ الكوكب على متن مكوك نقل الاسپايس، وثمّة سفينة شحن تابعة للنقابة تنتظرهم».

- «مولاي...»، قالتها ثم بترت عبارتها فجأة، متردّدةً.

- «نعم؟».

لن تفلح أيّ محاولة لإقناعه بالكفّ عن مساعيه لجعل هذا الكوكب آمناً لنا، وأنا لن أمارس ألاعبي عليه.

سألته: «متى تريد تناول العشاء؟».

فكّر الدوق: ليس هذا ما كانت على وشك أن تقوله. أم يا عزيزتي جيسيكَا، أم لو كنّا في مكانٍ آخر، في أيّ مكانٍ آخر بعيداً عن هذا الكوكب الرهيب.. وحدنا.. أنا وأنت فحسب.. دون اكتراثٍ بالعالم.

قال لها: «سأتناول الطعام في مطعم الضُّباط في الميدان. لا تتوقّعي قدومي إلا متأخراً جداً. أم، بالمناسبة، سأرسل حارساً لاصطحاب پول، أريده أن يحضر اجتماع وضع الاستراتيجية».

ثم تتنح كأنه سيضيف أمراً آخر، لكنه استدار فجأةً وأسرع الخطى في اتجاه المدخل، حيث يواصل الرجال إنزال حمولة الصناديق، ثم ترمى إلى أذنيها صوته من هناك، أمراً متعجرفاً، كما يتحدّث دائماً مع الخدم وهو في عجلة من أمره: «الليدي جيسيكَا في القاعة الكبرى، انضمّي إليها في الحال!».

وسمعت البوابة الخارجية تُصفع بعنف.

استدارت جيسيكَا لتواجه لوحة والد ليتو، التي رسمها الفنّان الشهير آلبى للدوق الراحل في منتصف عمره، والتي تُظهره في

زِيَّ مصارع ثيران، مع حرملة حمراء أرجوانية ملقاة على ذراعه اليسرى. بدا وجهه شابًا، بالكاد أكبر من وجه ليتو الآن، ويتمتع بذات الملامح الصقرية ونفس النظرة الرمادية. ضمت جيسिका قبضتيها إلى جانبيها، ونظرت شزراً إلى اللوحة، وهمست:

- «تَبَا لك! تَبَا لك! تَبَا لك».

- «يم تأمرين يا نبيلة المنبت؟».

كان الصوت صوت امرأة، رقيقاً وترياً.

استدارت جيسिका فوجدت امرأة كَعْبَرَة، شيباء الرأس، ترتدي ثوباً فضفاضاً بُني اللون شنيع المظهر من ثياب الرقيق. بدت المرأة يابسة وتعاني الجفاف مثل جميع الفوغاء الذين هَلَّلُوا لهم على طول الطريق من المهبط صباح وصولهم. فكَّرت جيسिका أن كل من رآته من أهل هذا الكوكب يبدو كالبرقوق المجفَّف ويعاني سوء تغذية. لكن ليتو قال إن فيهم بأساً وحيوية، وبالطبع لا داعي لذكر أن عيني المرأة كانتا لجنتين زرقاوين عميقتين قاتمتين، لا بياض فيهما، وتحملان من السرية والغموض ما أجبر جيسिका على عدم إطالة النظر.

حيَّتها المرأة بهزة رأس متحفظة، وقالت: «يدعونني ميپس الشادوات يا نبيلة المنبت. ما أوامرك؟».

قالت جيسिका: «ناديني بـ"سيديتي"، فليست نبيلة المنبت. أنا خلية الدوق ليتو الملازمة له».

ردَّت المرأة بنفس الإيماء المتحفظة الغريبة، ثم رفعت بصرها نحو جيسिका وسألت بمكر: «تُوجد زوجة إذا؟».

- «كلَّا، لا الآن ولا في أي وقت مضى. أنا.. رفيقة الدوق الوحيدة، وأمُّ وارثه».

في أثناء رُدّها، ضحكت جيسिका في قرارة نفسها على الفخر الذي يبطّن كلماتها، وسألت نفسها: ماذا قال القديس أوجستين؟ «عندما يأمر العقل الجسد بطيعه، لكن حين يأمر العقل نفسه يواجه مقاومة». أجل، أنا أواجه مزيداً من المقاومة مؤخراً. أحتاج إلى الاختلاء بنفسى بعض الوقت.

تاهى إلى مسمعيها نداءً غريباً متكرراً آتٍ من الشارع المتاخم للمنزل: «سو، سو، سوق*! سو سو سوق!»، ثم: «إخوتي*! إخوتي!»، ومن جديد: «سو سو سوق!».

سألت جيسिका: «ما هذا النداء؟ سمعته مرّات عدّة ونحن نجوب الطرقات بالمركبة الأرضية هذا الصباح».

- «إنه بائع ماء يا سيّدي. لا تشغلي بالك بأمثاله. الخزان هنا يسع خمسين ألف لتر ماء، وهو ممتلئ على الدوام»، ثم نظرت المرأة إلى ثوبها وقالت: «كيف تظن سيّدي أنني لا أرثدي بذلة تقطير هنا؟»، ثم ضحكت بخشونة: «وها أنا ما زلت حيّة!».

أرادت جيسिका أن تطرح أسئلة كثيرة على هذه المرأة الضرمية وتحصل منها على معلومات لإرشادها في هذا العالم، لكنها تردّدت، فترتيب الفوضى التي تعم القلعة مسألة أهم الآن. ومع ذلك، أزعجتها فكرة أن الماء يُعدّ علامة أساسية على الثراء هنا. قالت جيسिका: «أخبرني زوجي عن لقبك، وميّزت الكلمة. إنها كلمة قديمة جداً».

سألته ميبس: «تحدّثين الألسن العتيقة إذا؟»، وانتظرت إجابتها بحدّة غريبة.

قالت جيسिका: «الألسن هي أوّل ما تتعلّمه فتيات البني جيسيرت. أتحدّث البوتاني جيب والتشاكوبسا وكل لغات الصيد». أومأت ميبس في رضا: «تماماً كما تقول الأساطير».

وتعجبت جيسيكاً من نفسها: لِمَ أساير هذه الأوهام؟

لكن أساليب البني جيسيرت كانت مأكرة ومغرية باستخدامها. واصلت جيسيكاً: «إنني خبيرة في تعاليم الظلام وسُبل الأمّ العظيمة»، وقرأت في سحنة ميپس وأفعالها تعابير دقيقة تفضح ما يختلج في داخلها، فقالت بلغة تشاكوبسا: «ميسيسز بريجيا، أندرال تيرا بيرال ترادا سيك بوسكاكري ميسيسز بيراكري...». تراجعت ميپس خطوة إلى الوراء، وبدا أنها مستعدة للفرار. قالت جيسيكاً: «أنا أعرف الكثير. أعرف أنك أنجبت أطفالاً، وأنك فقدت أحبّاء، وأنك مختبئة خوفاً، وأنك ارتكبت أفعالاً عنيفة في الماضي، وأنك سترتكبين أفعالاً عنيفة في المستقبل. أنا أعرف الكثير من الأشياء».

في صوتٍ خفيض، قالت ميپس: «لم أقصد أيّ إهانة يا سيّديتي».

قالت جيسيكاً: «أنت تتحدّثين عن الأساطير وتبحثين عن إجابات. لكن احذري الإجابات التي قد تجدينها. أعرف أنك جئت مستعدة للعنف، بسلاح تخفينه في صدريتك». - «سيّديتي، أنا...».

قالت جيسيكاً: «هناك احتمال ضئيل أن تتمكّني من إراقة دمائي، لكن إن نجحت في ذلك فستتسبّين في خرابٍ أكثر ممّا يرد في أعتى مخاوفك. بعض المصائر أسوأ من الموت، ويمكن أن تصيب شعوباً بكاملها».

توسّلت ميپس إليها وهي على وشك أن تخر على ركبتيها من الرعب: «سيّديتي! ما السلاح إلّا هديةٌ مُرسلةٌ إليك، إن تبين أنك المنتظرة بالفعل».

قالت جيسिका: «ووسيلة لموتي إن تبين العكس»، ثم انتظرت في حالة الاسترخاء الظاهري التي تجعل متدريبات البني جيسيرت مرعبات في القتال.

فكرت جيسिका: لنرى الآن إلى أي كفة سيميل قرارها.

ببطء، مدت ميبس يدها في فتحة ثوبها، وأخرجت منه غمدًا قائمًا يبرز منه مقبض أسود منحوت فيه مواضع أصابع عميقة. ثم أمسكت المقبض في يدٍ والغمد في اليد الأخرى، وسحبت منه نصلًا أبيض حليبي اللون ورفعته عاليًا. كان النصل ذا حدين كالخنجل، وطوله نحو عشرين سنتيمترًا.

سألت ميبس: «أتعرفين ما هذا يا سيدتي؟».

عرفت جيسिका أنه لا يمكن أن يكون إلا شيئًا واحدًا فقط، سكين أراكس العاجية الأسطورية، النصل الذي لم يغادر الكوكب قط، والذي نال شهرته عن طريق الشائعات والقييل والقال. قالت لها: «إنها سكينٌ عاجية».

قالت ميبس: «لا تستخفي بالاسم، أتعرفين معناه؟».

فكرت جيسिका: هذا سؤال مقصود ولم يلق على عواهنه. لقد قبلت هذه المرأة الفرمنية العمل في خدمتي لطرح هذا السؤال بالتحديد، وجوابي يمكن أن يُعجل بالعنف أو... بماذا يا تُرى؟ إنها تنتظر مني إجابة عن معنى لفظة سكين. لقب ميبس في لغة تشاكوبسا هو «شادوات»، والسكين في لغة تشاكوبسا تعني «صانعة الموت». لقد بدأت تتعلم. يجب أن أُجيب الآن. التأخر في الجواب لا يقل خطورةً عن الجواب الخاطئ.

قالت جيسिका: «إنها صانعة....».

ناحت ميبس: «هيسسي!». حمل صوتها من الحزن قدر ما حمل من الانتشاء، وأخذ جسدها يرتجف بقوة راح معها نصل السكّين يعكس ومضات متألّثة في أرجاء الغرفة.

حافظت جيسكا على اتزانها، وانتظرت في وقار. كانت تتوي أن تقول إن السكّين تعني صانعة الموت، ثم تضيف الكلمة القديمة بعدها، لكن كل حواسّها حدّرتها الآن من المواصلّة، وساعدها في ذلك تدريب الوعي العميق على كشف المعاني الكامنة خلف أبسط الحركات العضلية الذي تلقّته.

الكلمة التي جنّت جنونها هي... صانعة.

صانعة؟ أجل، صانعة.

ومع ذلك، ظلّت ميبس رافعة السكّين كما لو كانت مستعدّة لاستخدامه.

قالت جيسكا: «أظننت أنّي لن أعرف الصّانعة، أنا المحيطة بأسرار الأمّ العظيمة».

أنزلت ميبس السكّين وقالت: «سيّدتي، عندما يعيش المرء مدّة طويلة في كنف نبوءة، تكون لحظة التّكشّف صادمة».

فكّرت جيسكا في النبوءة، وفي الشريعة*، وفي كل نبوءات بانوبليا التي بذرتها واحدة من مُبشّرات البني جيسيرت الحاميات في أرض هذا الكوكب منذ قرون خلت. لقد رحلت تلك الأخت بلا شك منذ زمن بعيد، لكنها نجحت في مسعاها، وزرعت الأساطير الوقائية الحامية في أذهان هؤلاء القوم تحسّباً ليومٍ تحتاج فيه إحدى أخوات البني جيسيرت إليها.

وها قد أتى هذا اليوم.

أعادت ميپس السكّين إلى غمدها وقالت: «هذا من النصال غير المستقرّة يا سيّدتي، لذا أبقيه إلى جوارك، إذ سيبدأ في التحلّل إن انقضى عليه أسبوع بعيداً عن جسدك. هذه سنّ من أسنان شَيّ هولود، وهي لك ما دُمّت حيّة».

مدّت چيسيكا يدها اليمنى وقالت مُقامِرةً: «ميپس، لقد أعدت النصل إلى غمده دون سفك دم».

شهقت ميپس وأسقطت السكّين بالغمد في يد چيسيكا، وشقّت صدريتها البنية وهي تتحبّ:

- «أريقي ماء حياتي!».

أخرجت چيسيكا السكّين من غمدها. ما أشدّ لمعانها! ثم وجّهت الطرف نحو ميپس، ورأت خوفاً يفوق الموت يستحوذ على المرأة. تساءلت چيسيكا: هل الطرف مسموم؟ ثم أبعدت الطرف وشقّت بحافة النصل جرحاً سطحياً فوق صدر ميپس الأيسر. خرج من الجرح دمٌ غليظ وتخثّر على الفور. يا له من تخثّر فائق السرعة! أهى طفرة للحفاظ على الرطوبة؟ هكذا فكّرت چيسيكا. ثم أغمدت النصل وقالت: «زرّري ثوبك يا ميپس».

أطاعتها ميپس وهي ترتعش، ورمقتها العينان اللتان بلا بياض، ثم غمغت المرأة: «أنت أملنا، أنت المنتظرة».

جاء صوت تفريغ حمولة آخر من المدخل. بسرعة، أمسكت ميپس بالسكّين المغمّد وأخفته في صدرية چيسيكا، وفحّخت كالأفعى: «من يرى السكّين لا بُدّ من تطهيره أو ذبحه، أنت تعرفين هذا يا سيّدتي!».

فكّرت چيسيكا: صرت أعرفه الآن.

غادر عمّال الشحن دون التطلّع على البهو العظيم.

استعادت ميپس رباطة جأشها وقالت: «إذا رأى غير الأطهار السكّين العاجية لا يُسمح لهم بمغادرة أراكس أحياء. لا تتسي هذا يا سيّدتى، فقد صِرت مُؤتمنةً على سكّينٍ عاجية»، ثم أخذت نفساً عميقاً وأضافت: «لا بُدَّ للأمر من أن يأخذ مجراه، ولا ينبغي استعجاله». ثم نظرت إلى الصناديق والمتاع المكدّس حولهما وقالت: «والكثير من العمل ينتظر إلى أن يحين الوقت».

تردّدت جيسيكا. «لا بُدَّ للأمر من أن يأخذ مجراه»، هذا اقتباس مباشر من مخزون تعاويز المبشرات الحاميات الخاص بفكرة: مجيء الأم الموقرة لتحريركم.

فكرت جيسيكا: لكنني لست أمًا موقرة، ثم استطرد تفكيرها: بحق الأمّ العظيمة! لقد زرعوا تلك الأسطورة هنا! أيّ مكانٍ بشع هذا! سألت ميپس بنبرة عملية: «بم تريدني أن أبدأ يا سيّدتى؟».

دفعته الفريزة جيسيكا إلى أن تتجاوب معها بمثل نبرتها العادية، فأجابت: «صورة الدوق الراحل التي هناك، يجب أن تُعلّق على أحد جدران قاعة الطعام، وعلى الحائط المقابل يجب أن يُعلّق رأس الثور».

اتّجهت ميپس إلى رأس الثور وقالت: «يا لعظمة الحيوان الذي حمل مثل هذا الرأس!»، ثم توقّفت قبل أن تضيف مستفسرة: «يجب أن أنظفها أولاً، أليس كذلك يا سيّدتى؟».

- «كلّا».

- «لكن الوحل يلوّث القرنين».

- «هذا ليس وحلاً يا ميپس، إنها دماء والد دوقنا. لقد رُشّ على قرني هذه البهيمة مثبّتاً لونيّاً شفافاً بعد ساعات قليلة من قتلها الدوق القديم».

وقفت ميپس وصاحت في دهشة: «أها، الآن فهمت!».

قالت جيسिका: «إنها مجرد دماء، دماء قديمة بالأحرى. استعيني بأحد الخدم لتعليق هذين الشيئين البغيضين، فهما ثقيلان». سألتها ميپس: «أظننت أن الدماء أزعجتني؟ أنا من الصَّحراء وقد رأيت دماءً كثيرة تسيل».

قالت جيسिका: «هذا واضح».

قالت ميپس: «بعضها دمائي أنا، وقد سال منها أكثر من تلك التي تسبَّب فيها خدشك الصغير». - «أكنت تفضِّلين لو تعمَّقت أكثر؟».

- «أوه، كلاً مااء الجسم شحيح بما يكفي ونفقد منه الكثير في الهواء. لقد فعلت الصواب».

لاحظت جيسिका كلماتها وتعبيراتها، وأدركت المعاني الضمنية الأعمق في قولها: «ماء الجسم». ومرة أخرى شعرت بضيق في صدرها من أهمية الماء على أراكس.

سألتها ميپس: «على أيِّ جانبي قاعة الطعام أُعلِّق هاتين التحفتين يا سيِّدتي؟».

فكَّرت جيسिका: هذه المرأة عملية دائماً وأبداً. ثم قالت: «اتَّخذي القرار بنفسك يا ميپس، الأمر سواء».

- «أمرك يا سيِّدتي»، قالتها ميپس وتوقَّفت، وبدأت تزيل الأغلفة والخيوط عن الرأس، ثم قالت بصوتٍ طفولي: «أنت قاتل الدوق القديم، أليس كذلك؟».

سألتها جيسिका: «أتريديني أن أstdعي حملاً لمساعدتك؟».

- «سأندبِّر الأمر يا سيِّدتي».

فَكَرَّتْ جِيسِيكا: حَتْمًا سَتَتَدَبَّرُ الأَمْرَ، هَذِهِ هُوَ المُمَيِّزُ فِي هَذِهِ المَخْلُوقَةِ الفَرْمَنِيةِ: القُدْرَةُ عَلَى التَّدَبُّرِ.

شَعُرَتْ جِيسِيكا بِبرودة غَمَدِ السَّكِّينِ العَاجِيَةِ أَسْفَلَ صَدْرَيْتِهَا، وَفَكَرَّتْ فِي سِلْسَلَةِ مَكائِدِ البِنِيِّ جِيسِيرَتِ الطَوِيلَةِ الَّتِي صَنَعَتْ لِنَفْسِهَا حَلْقَةً أُخْرَى هُنَا. بِفَضْلِ هَذَا التَّخْطِيطِ، اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَنْجُو مِنْ أَرْزَمَةِ قَاتِلَةٍ. قَالَتْ مِيبِس: «لَا يَنْبَغِي اسْتِعْجَالُ الأَمْرِ». وَمَعَ ذَلِكَ، شَعُرَتْ جِيسِيكا بِأَنَّهُمْ ائْتَدَعُوا إِلَى هَذَا المَكَانِ بِتَهَوُّرٍ شَدِيدٍ يُنْذِرُ بَشَرًّا مَلَأَ عَقْلُهَا بِهَوَاجِسٍ لَنْ تَفْلَحَ فِي تَبْدِيدِهَا كُلِّ تَحْضِيرَاتِ المَبَشِّرَاتِ الحَامِيَّاتِ، وَلَا كُلِّ الفَحْصِ الدَّقِيقِ الَّتِي أَجْرَاهُ حَوَاطُ لَكُومَةِ الصَّخُورِ هَذِهِ.

قَالَتْ جِيسِيكا: «حِينَ تَنْتَهِيَنَّ مِنْ تَعْلِيقِهِمَا، ائْتَرَعِي فِي إِفْرَاقِ الصَّنَادِيقِ. أَحَدُ رِجَالِ الشَّحْنِ المَوْجُودِينَ فِي المَدْخَلِ مَعَهُ جَمِيعُ المَفَاتِيحِ وَيَعْرِفُ مَكَانَ وَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ. خُذِي مِنْهُ القَائِمَةَ وَالمَفَاتِيحَ، وَإِذَا كَانَ لَدَيْكَ أَيُّ أَسْئَلَةٍ سَاكُونِ فِي الجَنَاحِ الجَنُوبِيِّ». قَالَتْ مِيبِس: «أَمْرُكَ يَا سَيِّدَتِي».

اسْتَدَارَتْ جِيسِيكا مَبْتَعِدَةً وَهِيَ تَفَكَّرُ: رُبَّمَا يَكُونُ حَوَاطُ قَدْ أَعْلَنَ أَنَّ الدَّارَ آمَنَةً، لَكِنْ هُنَاكَ خَطْبًا مَا فِي المَكَانِ. اسْتَطَاعَ الشَّعُورُ بِهِ.

سَيَّطَرَتْ عَلَى جِيسِيكا حَالَةٌ مُلَحَّةٌ لِرُؤْيَا ابْنِهَا. بَدَأَتْ السَّيْرَ نَحْوَ المَدْخَلِ المَقْوَّسِ الَّتِي يَفْتَحُ عَلَى المَمَرِّ المَوْدِيِّ إِلَى قَاعَةِ الطَّعَامِ وَالأَجْنَحَةِ العَائِلِيَّةِ، وَرَاحَتْ تَسْرِعُ مِنْ خَطَايَا حَتَّى كَادَتْ تَجْرِي. مِنْ خَلْفِهَا، تَوَقَّضَتْ مِيبِسُ لِلْحِظَّةِ عَنْ إِزَالَةِ التَّغْلِيفِ الَّتِي يَلْفُ رَأْسَ الثَّورِ، وَرَنَتْ إِلَى ظَهْرِهَا المُبْتَعِدِ وَهِيَ تَتَمَتَّمُ: «لَا شَكَّ فِي أَنَّهَا المَنْتَظَرَةُ.. يَا لِلْمَسْكِينَةِ».

تردّد الجوقة في الأغنية: «يُوي! يُوي! يُوي! ألف
موتة لم تكن تكفي يُوي!».
من كتاب «سيرة المؤدّب للأطفال» للأميرة إيrolان.

كان الباب مواربًا، فدخلت چيسیکا منه إلى غرفة ذات حوائط
صفراء. إلى يسارها، كانت هناك أريكة منخفضة من الجلد
الأسود، وخزانة كُتِبَ فارغتين، وقارورة ماء معلقة تراكم التراب
على جوانبها المنتفخة. وإلى يمينها، وقفت خزانة كُتِبَ أخريان
على جانبي باب آخر، ومكتب من كладان، وثلاثة مقاعد. وأمامها
مباشرةً، كان الدكتور يُوي يقف عند النوافذ معطيًا ظهره لها،
مشدودًا إلى المشهد الخارجي.

خطت چيسیکا خطوة أخرى بصمت داخل الغرفة.

لاحظت أن معطف يُوي كان مجعدًا، تلمّخه بقعة بيضاء قرب
المرفق الأيسر كما لو كان قد اتكأ على طباشير. بدا من الخلف
كأنه عصا بلا لحم عليها ثياب سوداء واسعة، كدُمية ماريونيت
معلقة بخيوط تنتظر أن يشدّ خيوطها محرّك الدُمى. وحده رأسه
المرّيع الكبير الذي يتدلّى منه شعر طويل أبنوسي معقوص على
كتفه بطوق سوك الفضّي بدا حيًا وهو يتحرّك ببطء متابعًا حركة
ما في الخارج.

جالت چيسیکا ببصرها الغرفة مرّة أخرى ولم تلمح أثرًا
لابنها، لكنها كانت تعرف أن الباب المُغلق إلى يمينها يفضي إلى
غرفة نوم صغيرة قال پول إنها تروق إليه.
قالت: «مساء الخير يا دكتور يُوي، أين پول؟».

أوماً برأسه كما لو كان يشير إلى شيء وراء النافذة، وتحدث بشرود دون أن يلتفت إليها: «تملك الإرهاق من ابنك يا جيسيكَا، فأرسلته إلى الغرفة المجاورة للراحة».

ثم شدَّ قامته فجأة، واستدار سريعاً ما جعل شاربه المتدلي يتحرك فوق شفّتيه الأرجوانيتين: «اعذريني يا سيّدتِي! كان عقلي شاردًا جدًّا، لم أقصد رفع الكُلفة».

ابتسمت جيسيكَا، ورفعت كفّها اليمنى، وقد خشيت للحظة أن يركع أمامها. «لا عليك يا ويلنجتون».

- «أن أناديك باسمك المجرّد هكذا لو... أنا...».

قالت جيسيكَا: «يعرف أحدنا الآخر منذ ستّة أعوام يا يُوي. لقد تأخرنا كثيرًا في التخلّي عن الرسميّات حين نكون على انفراد».

رسم يُوي ابتسامة صفراء على شفّتيه، وفكّر: أظن أنني نجحت. ستُرجع الآن أن أيّ تصرّف غريب غير معتاد يصدر عني إلى الإحراج. لن تبحث عن أسبابٍ أعمق وهي تعتقد أنها تعرف الإجابة بالفعل.

قال لها: «أخشى أنني كنت منغمسًا في أفكاري. كلّما أشعر بالأسف على حالك، أجدني أفكّر فيك بصفّتك جيسيكَا فحسب».

- «الأسف على حالي؟ لم؟».

هزَّ يُوي كتفيه. منذ زمنٍ بعيد أدرك أن جيسيكَا لم تكن موهوبة في كشف الكذب مثل زوجته الحبيبة وانا. ومع ذلك، كان يستخدم الحقيقة دائمًا مع جيسيكَا كلّما أمكن ذلك، فهذا أسلم السبل.

- «لقد شاهدت هذا المكان يا سيّدت... يا جيسيكَا». تلثم يُوي في نطق الاسم، ثم واصل: «إنه قاحل تمامًا مقارنةً بكلا دانا. وما أغرب هؤلاء القوم! النساء اللاتي مررنا بهن ونحن في طريقنا

هنا كُنَّ ينتحبن أسفل خمرهن، وينظرن إلينا بطريقة مريبة».

طوت جيسिका ذراعيها على صدرها، محتضنة نفسها، وأحسَّت بالسكِّن العاجية في صدريتها، النصل المصنوع من سنٍّ إحدى ديدان الرمال، إذا كانت التقارير صحيحة، وقالت: «هذا فقط لأننا غريباء عنهم، وللغريباء عادات مختلفة، وهم لم يعرفوا طوال حياتهم سوى الهراكنة»، ثم تجاوزته ببصرها وأطلَّت إلى ما خارج النافذة وسألته: «إلام كنت تحدِّق في الخارج؟».

عاد إلى النافذة وقال: «إلى القوم».

عبرت جيسिका الغرفة ووقفت إلى جواره، ونظرت يسارًا إلى واجهة المنزل حيث يتركِّز انتباه يُوي. هناك، اصطفت عشرون نخلة في محيط من التربة الجرداء النظيفة، يفصلها سياج عن الطريق الذي يمشي فيه مارَّة يرتدون ثيابًا طويلة. لاحظت جيسिका وميضًا خافتًا في الهواء يفصلها عن الناس، درع المنزل، وواصلت دراسة الحشد المار متسائلة لماذا يلفتون انتباه يُوي. ثم تبدَّى لها النمط المتكرِّر، فوضعت يدها على ذقنها مفكِّرة. إنها الطريقة التي ينظر بها الناس إلى النخيل! رأت جيسिका الحسد في أعينهم، وبعض الكره.. بل حتَّى نفحة من الأمل. لم يمرَّ شخصٌ دون أن يلقي نظرة خاطفة -بملامح جامدة- على تلك النخلات.

سألها يُوي: «أتعلمين فيم يُفكِّرون؟».

سألته: «أتدَّعي القدرة على قراءة الأفكار؟».

قال لها: «تلك العقول، إنها تنظر إلى النخيل وتفكِّر: "هذه تساوي مئة منَّا". هذا ما يفكِّرون فيه».

التفتت إليه بعبوسٍ حائر وسألت: «لماذا؟».

قال لها: «هذا نخيل تمر. نحتاج التمرة الواحدة إلى أربعين لترًا من المياه يوميًا، ويحتاج الإنسان إلى ثمانية فقط. إذا النخلة الواحدة تساوي خمسة أشخاص. وبما أنها عشرون نخلة، فهي تساوي مئة شخص».

- «لكن بعضهم ينظر إلى الأشجار بأمل».

- «يأملون أن تُساقط عليهم بعض الرطب، لكن ليس هذا موسم الإثمار».

قالت له: «إننا ننظر إلى هذا المكان بعين ناقدة أكثر من اللازم. أرى أن فيه من الأمل قدر ما فيه من الخطر. الأسبايس قد جعلنا أثرياء، وبالثروة نستطيع تحويل هذا الكوكب إلى أي شيء نريد».

ثم ضحكت على نفسها بصمت وفكرت: من أحاول أن أقنع؟ ثم فلتت منها ضحكة جافة لا مرح فيها وهي تقول: «لكن لا يمكن شراء الأمان».

أعرض يوي مبتعدًا ليخفي وجهه عنها. آه لو كنت أستطيع كره هؤلاء الناس بدلًا من حُبِّي لهم! كانت جيسيكا تُشبه زوجته وأنا من نواح كثيرة، وفي كثير من تصرفاتها. لكن قسوة تلك الفكر لم تزد إلا صلابة وتصميمًا على تحقيق هدفه. إن أساليب الهراكنة وحشية وملتوية. قد لا تكون وأنا ميّنة. عليه أن يتأكد.

سألته جيسيكا: «لا تقلق علينا يا ويلنجتون. فهذه مشكلتنا، لا مشكلتك».

رمش يوي بعينه ليداري دموعه، وتنهّد مفكرًا: نظن أنني قلقٌ عليها! وأنا كذلك بلا شك. لكنني يجب أن أكون قد أنجزتُ مُراد هذا البارون الأسود قبل أن أقف أمامه، وحينذاك أغتتم الفرصة

الوحيدة لأضرب ضريتي وهو في أضعف حالاته.. في لحظة شماتته!

سألته: «أتظن أن پول سيقلق لو ألقى نظرة إليه؟»
- «كلًا البتة. لقد أعطيته مهدئًا».

سألته: «هل يتكيف مع التغيرات على ما يرام؟»
- «أجل، ما عدا بعض الإرهاق الزائد. إنه متحمس، لكن أي فتى في مثل سنّه لن يتحمس في ظروف كهذه؟»، ثم اتّجه إلى الباب وفتحه: «إنه هنا».

تبعته جيسيكَا، وأطلّت برأسها في الغرفة المعتمة.
كان پول ممدّدًا على سرير سفر ضيق، إحدى ذراعيه ممدّسة تحت غطاء خفيف، والأخرى ملقاة خلف رأسه. غزلت الستائر المضلّعة المعلّقة على النافذة المجاورة للسرير نسيجًا من الظلال على وجهه وبطانيته.

رمقت جيسيكَا ابنها، وتأمّلت وجهه البيضاوي الذي يشبه وجهها كثيرًا، والشعر الأشعث الأسود بلون الفحم الذي ورثه من الدوق. أخفت رموشه الطويلة عينيه الخضراوين الليمونيتين. ابتسمت جيسيكَا وبدأت مخاوفها تتبدّد، واستحوذت اللمسات الوراثية البادية في سيماء ابنها على تفكيرها: جيناتها التي في عينيه وملامح وجهه، وجينات أبيه الحادة التي تثبت بين تلك الملامح كما ينبت الرُشد من رحم الطفولة.

فكرت في ملامح الصبيّ باعتبارها خليطًا رائعًا من أنماط عشوائية: خلاصة صُدفٍ لا حصر لها اجتمعت في هذا الوعاء. جعلتها الفكرة ترغب في الركوع إلى جوار السرير وتضمّ ابنها بين ذراعيها، لكنها أحجمت لوجود يُوي وتراجعت مغلقة الباب برفق.

كان يُوي قد عاد إلى النافذة، غير قادر على تحمّل رؤية الطريقة التي تحدّق بها جيسिका إلى ابنها، وتساءل في نفسه: لم لم تُجب لي وأنا أطفالاً؟ أعلم بصفتي طبيباً أنه لم يكن يُوجد مانع طبّي. هل كان يُوجد سبب يخصّ البني جيسيرت؟ هل تلقّت تعليمات لتحقيق غرض آخر؟ وماذا يمكن أن يكون هذا الغرض؟ لقد أحبّتي بالتأكيد.

للمرّة الأولى، فكّر يُوي في احتمال أنه ربّما يكون جزءاً من مخطّط أكثر تعقيداً والتواءً ممّا يمكن أن يستوعبه عقله.

وقفت جيسिका إلى جواره وقالت: «ينام الصغار نومًا هائلاً ملء جفونهم».

ردّ برتابة آليّة: «ليت الكبار ينالون مثل هذه الراحة».

- «صدقت».

غمغم يُوي: «متى تفقدها؟».

رمقته سريعاً وقد لاحظت نبرته الغريبة، لكن عقلها كان ما زال مشغولاً ببول، يفكّر في الصعوبات الجديدة التي ستواجه تدريبه هنا، وفي شكل حياته الذي اختلف أيّما اختلاف عمّا خطّطاً له قديماً.

ردّت قائلة: «إننا نفقد شيئاً بالفعل في منتصف الطريق».

ثم نظرت إلى منحدر محدودب مكسوّ بشجيرات خضراء رمادية تزرّوها الرياح، أوراقها مغبرة وأغصانها جافّة حادّة كالمخالب. كانت السماء الشديدة الإعتام تخيّم فوق المنحدر كوصمة، ونور شمس أراكس الأبيض الحليبي يصبغ المشهد بصبغة فضيّة، نور له لون السكّين العاجية المُخفاة في صدريتها نفسه.

قالت: «السماء مظلمة جداً».

ردَّ عليها: «يرجع هذا جزئياً إلى نقص الرطوبة».

صاحت قائلة: «أينما نظرت هنا يصدمك شُحُّ الماء!».

قال لها: «إنه أقدس أسرار أراكس».

- «لِمَ الماء شديد الندرة هنا؟ الكوكب فيه صخور بركانية، ومصادر طاقة عدَّة، وجليد قطبي. يقولون إنه يتعدَّر حفر الآبار في الصَّحراء، فالعواصف وأمواج الرمال تُدمِّر المعدات أسرع مما يمكن تركيبها، هذا إن لم تدمرها الديدان أولاً. على أيِّ حال، لم يُعثر على أثرٍ للماء في الصحراء المفتوحة، لكن اللغز يا ولينجتون، اللغز الحقيقي هو الآبار التي حُفرت ها هنا في الأودية والأحواض. هل قرأت عنها؟».

أجابها: «مجرَّد نضيب ماء، يجفُّ بعدها تماماً».

- «لكن هذا لغز يا ولينجتون. يظهر الماء في البئر، ثم سرعان ما تجفُّ ولا يُرى أثرٌ للماء فيها. ويتكرَّر الأمر في حفرة قريبة أخرى: مجرَّد نضيب، يجفُّ بعده الماء. ألم يعتر أحدًا الفضول إزاء هذا؟».

قال لها: «الأمر مثير للفضول بالفعل. أتشتبهين في سبب عضوي وراء الظاهرة؟ وإن كان الأمر كذلك، ألم يكن من المفترض أن يظهر في العينات المأخوذة من التربة؟».

- «ما الذي سيظهر؟ متعضِّية نباتية أو حيوانية غريبة؟ ومن سيستطيع تمييزها؟»، قالتها جيسيكا وعادت تتأمَّل المنحدر، ثم أردفت: «الماء ينقطع، وهذا يشير إلى أن شيئاً ما يسدُّه. هذا هو اشتباهي».

قال لها: «ربَّما السبب معروف بالفعل. لقد حجب الهراكنة

الكثير من مصادر المعلومات الخاصّة بأراكس، رُبّما لديهم سبب لإخفاء الأمر».

سألته: «أيّ سبب؟ وخذ عندك أيضًا مسألة الرطوبة الجويّة. أينعم هي قليلة، لكنها موجودة. إنها مصدر الماء الرئيس هنا، ويحصلون عليها باستخلاصها بمصائد الرياح والمكثّفات. من أين تأتي؟»
- «رُبّما من جليد القطبين؟».

- «الهواء البارد لا يحمل إلا نسبة قليلة من الرطوبة يا ولينجتون. ثمة أمور مستترة خلف ستار الهراكنة في حاجة إلى تحقيقٍ دقيق، وليست جميعها تتعلّق بشكل مباشر بالاسپايس».
قال لها: «نحن بالفعل خلف ستار الهراكنة، رُبّما...»، ثم بتر عبارته ملاحظًا الطريقة الحادّة التي رمقته بها فجأة، وقال: «أثمة مشكلة؟».

قالت له: «الطريقة التي لفظت بها اسم الهراكنة. صوت الدوق نفسه لا يحمل هذا القدر من المقت المسموم وهو ينطق الاسم البغيض. لم أكن أعرف أن لديك أسبابًا شخصية تدفعك لكرههم يا ولينجتون».

بحقّ الأمّ العظيمة! هكذا فكّر. لقد أثرت شكوكها! الآن يجب أن أستخدم كل حيلة علّمتني إياها حبيبتي وأنا. الحل الوحيد هو قول الحقيقة قدر استطاعتي.

قال لها: «ألم تعرفي أن زوجتي، حبيبتي وأنا...»، انحشرت غصّة مريّة في حلقه، فهزّ كتفيه عاجزًا عن مواصلة الكلام، ثم قال بصعوبة: «إنهم...». تابى الكلمات مفادرة فمه. شعر بالذعر، وأغلق عينيه بقوة شاعرًا بألم قابض يعتصر صدره، حتّى لمست يدّ حانية ذراعه برفق.

قالت جيسिका: «سامحني، لم أقصد أن أفتح جرحًا قديمًا». وفكّرت: الحيوانات! إن زوجته من البني جيسيرت، كل الدلائل تشير إلى ذلك. ومن الواضح أن الهراكنة قتلوها. إنه ضحية مسكينة أخرى يربطها بآل آتريديز رباط الكراهية.

قال لها: «معدرة، لا أستطيع الكلام عن الأمر». ثم فتح عينيه مسلّمًا نفسه لمشاعر الحزن الداخلية. على الأقل ما قاله كان حقيقة. تأملت جيسिका ملامحه، ولاحظت الوجنتين حادّتي الزوايا، والعينين الداكنتين اللامعتين كالترتر والمسحوبتين كاللوز، وبشرته الدهنية، وشاربه الرفيع المتدلّي كإطار منحني حول شفّتين أرجوانيتين وذقن ضيّق. أدركت جيسिका أن تجاعيد وجنتيه وجبينه هي ندوب حضرها الحزن بقدر ما رسمها الزمن، فتملّكها عطفٌ كبير نحوه.

قالت له: «ولينجتون، يؤسفني أننا أحضرناك إلى هذا المكان الخطر».

قال لها: «جئت بإرادتي». هذه أيضًا حقيقة.
- «لكن الكوكب برمته شركٌ نصبه الهراكنة، وأنت تعلم ذلك».
قال لها: «الإيقاع بالدوق ليتو يتطلّب ما هو أكثر من شرك». هذه أيضًا حقيقة.

قالت: «رُبّما يجدر بي الوثوق أكثر بقدراته. إنه ماهر وداهية في التخطيط».

قال: «لقد اقتلنا من جذورنا، لهذا نحن مرتبكون».
قالت: «وما أسهل قتل النبات عندما يُقتلع من جذوره، خاصة إذ زرع في تربةٍ معادية».

- «هل نحن على يقين من أن التربة معادية؟».

ردّت: «لقد نشبت أعمال شغب على الماء حين عرف الناس عدد الأشخاص الذين سيضيفهم الدوق إلى تعداد السكّان، ولم تتوقّف إلا عندما تيقّن الناس أننا سنشيّد مصايد رياح ومكثّفات جديدة لتطوير الشبكة وتخفيف العبء عليها».

قال يُوي: «الماء هنا محدود. يعرف الناس أنه إذا جاء المزيد لشرب كمّية محدودة من الماء، فسيرتفع السعر وسيموت الأشد فقرًا. لكن الدوق حلّ هذا الأمر. أعمال الشغب لا تعني بالضرورة استمرار العداوة ضده».

قالت: «وماذا عن الحرس المنتشرين في كل مكان؟ والدروع التي ترى مجالاتها المشوّشة أينما نظرت؟ لم نعش بهذه الطريقة على كладان».

قال لها: «امنحي هذا الكوكب فرصة».

لكن جيسिका واصلت تحديقها البارد عبر النافذة، ثم قالت: «أشتمّ رائحة الموت في هذا المكان. حوَّاط أرسل كتائب وأفواجًا من التعزيزات المسبقة إلى هنا. هؤلاء الحراس في الخارج رجاله، وعمّال الشحن كذلك رجاله، كما جرت عمليات سحب غير مفسّرة لمبالغ كبيرة من خزانة المال، وهذه المبالغ لا تعني إلّا شيئًا واحدًا فقط: رُشّي لأشخاص في مناصب مرموقة». ثم هزّت رأسها وأضافت: «حيثما ينزل حوَّاط يؤمّه الموت، ويمشي في أثره الخداع».

- «أنت تفترين عليه».

- «أفتري عليه؟ كلاً، أنا أمدحه. لا أمل لنا الآن سوى الموت والخداع، لكنني لن أخدع نفسي بشأن أساليب ظفير».

قال لها: «عليك أن... تشغلي نفسك. لا تمنحي نفسك وقتًا

لمثل هذا التشاؤم....».

- «أشغل نفسي! ألا تعلم ما يستنزف معظم وقتي يا ولينجتون؟
إنني سكرتيرة الدوق. أنا مشغولة إلى درجة أنني أتعلّم في كل
يوم أن أخشى أشياء جديدة.. أشياء لا يشك هو نفسه في أنني
أعرفها»، ثم ضغطت شففتيها وتحدّثت همسًا: «أحيانًا أنساءل إن كان
تدريبي على إدارة أعمال البني جيسيرت قد أسهم في اختياره لي».
- «ماذا تعنين؟»، قالها يُوي وقد أخذته النبرة الساخرة البادية
في صوتها، والمرارة التي لم يسبق لها إظهارها أمامه.

سألته: «في رأيك يا ولينجتون، هل تحظى السكرتيرة العشيقة
بأمان أكبر من غيرها؟».

- «هذه فكرة لا تليق بك يا جيسيك».

كان عفويًا في توبيخه لها، إذ لم يكن ثمة شك في شعور
الدوق نحو خليلته، فكل ما على المرء فعله لمعرفة هو مراقبته
وهو يتتبعها بعينه.

تهدّدت قائلة: «معلّك حق، إنها لا تليق بي».

واحتضنت نفسها من جديد، ضاغطة السكّين العاجية المغمدة
إلى صدرها، وهي تُفكّر في المهمّة غير المكتملة التي يمثلها
النصل.

قالت: «ستراق دماء كثيرة قريبًا. لن يرتاح الهراكنة إلّا وهم
جُثثٌ هامدة، أو بالقضاء على الدوق. لن ينسى البارون أن ليتو
تربطه صلة دم بالعائلة الإمبراطورية، حتّى وإن كانت صلة بعيدة،
في حين أن مناصب الهراكنة خرجت من جعبة الأرباح التي
حقّقوها من شركة تشوم، أمّا السُمّ الزعاف الذي يُسمّم عقله
بالفعل هو حقيقة أن أحد أسلاف آل آترديز كان السبب في نفي

واحد من الهراكنة بتهمة الجبن بعد معركة كورين».

غمغم يُوي: «العداوة القديمة». وللحظة شعر بلمسة الكراهية الحارقة. لقد أوقعته العداوة القديمة في شباكها، وتسببت في قتل زوجته وأنا، أو الأسوأ.. تركتها أسيرة براثن الهراكنة، يذيقونها العذاب حتّى يتم زوجها عملهم. لقد أوقعته العداوة القديمة في شباكها، وهذه العائلة جزء من هذا المستقع السّام. المفارقة أن كل هذا الموات أتى ليزدهر هنا على كوكب أراكس، المصدر الوحيد في الكون للمزاج، مُطيل العمر، واهب الصحة. قالت له: «فيم تُفكّر؟».

- «أفكّر في أن سعر الاسپايس في السوق بلغ 620 ألف سولاري لكل ديكاجرام الآن. ثروة كهذه قادرة على ابتياع أشياء كثيرة».

- «أمسك الجشع أنت أيضًا يا ولينجتون؟».

- «ليس الجشع ما مسّني».

- «ماذا إذا؟».

هزّ كتفيه وقال: «الخيبة»، ثم نظر إليها: «أتذكّرين أوّل مرّة تذوّقت فيها الاسپايس؟».

- «كان مذاقه كالقرفة».

قال: «لكنها كانت لحظة لا تتكرّر أبدًا. الاسپايس كالحياة، يمنح تجربة جديدة في كل مرّة. يعتقد البعض أن الاسپايس يحفّز ردة فعل مذاقية مكتسبة. عندما يدرك الجسم أن مادةً مُفيدةً له يجعلها مصدر مُتعة ونشوة لمتعاطيها. وهو أيضًا كالحياة، لا يمكن تخليقه أو صنعه».

قالت: «أعتقد أنه كان من الحكمة أن نهرب إلى كوكب بعيد

عن قبضة الإمبراطورية».

لاحظ يُوي أنها لم تكن تنصت إليه، وتأمّل كلماتها متسائلاً:
لِمَ لم تحمله على فعل ذلك؟ إنها قادرة على جعل الدوق ينقذ
أيما تريد.

سارع يُوي بالكلام لأنه وجد سؤالاً صادقاً يطرحه ويغير به
الموضوع: «هل ستعدينها جراً مني يا... جيسيكاً لو سألتك
سؤالاً شخصياً؟».

مالت جيسيكاً بجسدها إلى حافة النافذة شاعرة بوخزة قلق
لا يمكن تفسيرها: «بالطبع لا، فأنت... صديقي».

- «لِمَ لم ترغمي الدوق على الزواج بك؟»
رفعت جيسيكاً رأسها وحدّجته بعينيها: «أرغمه على الزواج
بي؟ لكن...».

قال: «ما كان يجب أن أسأل».

هزّت كتفيها وقالت: «لا بأس. يُوجد سببٌ سياسيٌ قوي لهذا،
فما دام الدوق غير متزوج، فسيظلّ الأمل يحدو بعض العائلات
الكبيرة في التحالف معه عن طريق المصاهرة، كما أن...» ثم
تنهّدت قبل أن تضيف: «... كما أن حثّ الناس، وإرغامهم على
تنفيذ رغباتك، يكسباك نظرة هازئة مستخفة بالبشرية تحط من
شأن كل ما تطوله. إن أرغمته على الزواج بي، لن يكون هذا فعلاً
نابعاً من إرادته الحرّة».

غمغم يُوي: «هذا ما كانت ستقوله حبيبتي وأنا». وكان هذا
قولاً صادقاً كذلك. وضع يُوي يده على فمه، وابتلع ريقه بصعوبة.
إنه يكاد أن يجاهر معترفاً بدوره السري.

تحدّثت جيسيكاً مُبدّدة اللحظة: «إلى جانب ذلك يا ولينجتون،

فللدوق شخصيتان مختلفتان بالكامل. إحداهما ساحرة ومازحة ومعطاة ورقيقة وفيها كل ما قد ترغب فيه امرأة من صفات. هذا الرجل أحبه. أمّا الأخرى فباردة وقظة وأمرة وأنانية ومؤذية وموجعة كريح الشتاء. هذا هو الرجل الذي شكّل صفاته أبوه، ثم التوت قسماتها من المقت وهي تقول: «يا ليتة قد مات قبل أن يُولد الدوق!». خيّمَت عليهما لحظة صمت أنصتا فيها إلى الهواء الخارج من فتحات التهوية وهو يداعب الستائر.

في النهاية، أخذت جيسيكا نفساً عميقاً وقالت: «ليتو محقّ، هذه الغرف أجمل من تلك التي في أقسام المنزل الأخرى»، ثم التفتت وتفقّدت الغرفة، وأردفت: «إذا سمحت لي يا ولينجتون، سألقي نظرة أخرى إلى هذا الجناح قبل أن أُعيّن لكل غرفته». أوماً قائلًا: «بالأكيد»، وفكّر: آه لو كانت هناك طريقة لتحاشي ذلك الأمر الذي لا بُدَّ لي من فعله.

أنزلت جيسيكا ذراعيها من فوق حافة النافذة، وسارت إلى الباب المفضي إلى الرواق ووقفت هناك لحظة مترددة، ثم خرجت وهي تفكّر: طوال حديثنا كان يخفي شيئاً ما، يتكتم شيئاً في صدره، كي لا يجرح مشاعري بلا شك. إنه رجلٌ طيّب. لكنها تردّدت مرة أخرى، وكادت تعود لمواجهة يُوي واستخراج مكنون صدره. لكن هذا سيسبّب له إحراجاً، وستخيفه معرفة أنه تسهل عليّ تعريضه وقراءة ما يدور في عقله. عليّ أن أضع ثقة أكبر بأصدقائي.

مكتبة

t.me/t_pdf

لاحظ الكثيرون السرعة التي تعلّم بها المؤدّب ضرورات الحياة على أركاس، وبلا شك، نعلم نحن -معشر البني جيسيرت- الأسباب الكامنة خلف هذه السرعة. أما للآخرين فنقول لهم إن المؤدّب تعلم بسرعة لأن أوّل تدريب تلقّاه كان في كيفية التعلّم، وأن درسه الأوّل كان أن يثق ثقةً تامةً بقدراته على التعلّم. يُصدم المرء من عدد البشر الذين لا يؤمنون بقدرتهم على التعلّم، فضلاً عن عدد الأشخاص الذين يعتقدون أن في التعلّم صعوبة. كان المؤدّب يعلم أن دروس الحياة صناديقُ مغلقة، مفاتيحها التجارب.

من كتاب «إنسانية المؤدّب» للأميرة إيrolان.

استلقى پول على سريريه متظاهراً بالنوم. لم يجد صعوبة في إخفاء القرص المنوم الذي أعطاه إياه الدكتور يُوي في راحة يده والتظاهر ببلعه. كنتم پول ضحكته. حتّى أمّه صدّقت أنه نائم. أراد أن يقفز من رفقته ويطلب إذنها للخروج وتفقد المنزل، لكنه أدرك أنها سترفض. لم تستقر الأمور بعد. كلّاً، هكذا أفضل.

إن أنسلتُ خارجاً دون إذن، فأنا لم أعصِ الأوامر. كما أنني لن أبرح محيط المنزل الآمن.

سمع أمّه ويوي يتحدّثان في الغرفة المجاورة، لكن كلامهما لم يكن واضحاً. إنهما يتحدّثان عن الاسپايس والهراكنة، ووتيرة الحديث تحدّ وتلين.

تأمل پول إطار السرير المُزدان بنقوش غائرة، المثبت إلى الجدار كحلية لإخفاء أضرار التحكُّم في منافع الغرفة. كان محفوراً على خشبه سمكة تقفز فوق خطوط أمواج بُنية سميقة. كان يعلم أنه لو ضغط عين السمكة ستُضاء مصابيح الغرفة الطافية في الهواء، وأن تحريك إحدى الموجات يتحكَّم في تهوية الغرفة، في حين تحريك موجة أخرى يغيِّر درجة حرارتها.

بهدوء، اعتدل پول جالساً في السرير. إلى يساره، انتصبت مكتبة مرتفعة مستندة إلى الجدار. كان يمكن إزاحتها جانباً لتكشف عن خزانة متعددة الأدراج. أما مقبض باب الرواق فكان على هيئة ذراع الدِّفع في طائرات الأورنيثوبتر. بدا الأمر كما لو أن الغرفة صُمِّمت لإغرائه. الغرفة وهذا الكوكب.

تذكَّر پول عنوان الكتاب المرئي الذي عرضه يُوي عليه: «أراكس: محطة تجارب النباتات الصحراوية التابعة لجلالة الإمبراطور». كان كتاباً مرثياً قديماً، يعود إلى عصر ما قبل اكتشاف الاسپايس. توالى أسماء النباتات على عقل پول، كل اسم مصحوباً بصورة طُبعت على ذهنه عن طريق نبضات الكتاب التذكيرية: الساجوار، الدمسيسة الدغلية، نخيل التمر، زهرة غندور الرمال، زهرة الربيع المسائية، صبار البرميل، شجيرة البخور، والشجرة الدخانية، حشيشة الشحم... الثعلب القزم، صقر الصَّحراء، فأر الكنفر.

أسماء وصور كثيرة، أسماء وصور تعود إلى ماضي البشرية على الأرض، وكثير من النباتات التي تعرضها لم يعد موجوداً في أيِّ مكان آخر في الكون إلا هنا على أراكس.

أمورٌ كثيرةٌ عليه الإحاطة بها: الاسبايس مثلاً.
وديدان الرمال.

انفلق بابٌ في الغرفة الأخرى، وسمع بول وقع خطوات أمّه
المبتعدة في الرواق. كان يعلم أن الدكتور يُوي سينتقي كتاباً ليقراه
ولن يبرح الغرفة المجاورة.
حان وقت الاستكشاف.

انزلق بول من السرير واتّجه إلى باب المكتبة الذي يفتح على
خزانة الملابس، ثم توقّف واستدار عندما سمع صوتاً من خلفه.
رأى الصبيّ إطار السرير المنحوت يُطوى لأسفل فوق البقعة التي
كان نائماً فيها. تجمّد بول في مكانه، وهذا الجمود أنقذ حياته.
من فتحة وراء إطار السرير انسلّت «صيّادة متعقّبة» لا يزيد
طولها على خمسة سنتيمترات. ميّزها بول على الفور، إذ كان هذا
سلاح اغتيال شائع يعرفه كل أطفال العائلات النبيلة في سنّ
مبكرة: شظية معدنية فتّاقة يتحكّم فيها شخصٌ متوارٍ في مكان
قريب، وهي قادرة على رصد أدنى حركة، ومن ثم اختراق جسد
الشخص، والمرور في قنواته العصبية ممزّقة إيّاه، حتّى تصل
إلى أقرب عضو حيوي.

ارتفعت المتعقّبة في الهواء، وراحت تُفَتّش الغرفة جيئةً وذهاباً.
ومضت المعلومات التي يعرفها بول عن نقاط ضعف الصيّادات
المتعقّبات بشكل خاطف في عقله: في المساحات الضيقة، يُشوّه
مجال الآلة المضاد للجاذبية الموجودات فتعجز عن تحديد
الهدف، ويضطر المُشغّل إلى الاعتماد على حركة الهدف لتحديده.
يمكن لدرع الطاقة أن يبطئ الصيّادة، ما يُتيح وقتاً لتدميرها، لكن

بول كان قد خلع درعه وتركه على الفراش. تستطيع بنادق الليزر
نسف الصيَّادة، لكن بنادق الليزر باهظة الثمن وصيانتها معقَّدة،
كما أن خطر حدوث انفجار عند لحظة تلامس شعاع الليزر مع
مجال طاقة درعٍ ساخن قائمٌ دائماً. لهذا تعتمد فلسفة آل آترديز
القتالية على دروعهم ودهائهم.

أمسك بول جسده في حالة تخشُّب شبه كامل، عالماً أنه لن
ينجو من هذا الخطر إلاً بذكائه.

ارتفعت الصيَّادة المتعقِّبة نصف مترٍ آخر في الهواء، وتموَّجت
في أشعة الضوء المارَّة عبر فرجات ستائر النافذة، وراحت تجوب
الغرفة ذهاباً وإياباً كحيوانٍ مفترس.

فكَّر بول: عليَّ أن أحاول الإمساك بها. ستكون زلقة من أسفل
بسبب المجال المضاد للجاذبية، لذا يجب أن أحكم عليها قبضتي.
هبطت الآلة نصف متر، واتَّجهت يساراً، ودارت حول السرير
وهي تُصدر طنيناً خافتاً.

تساءل بول: من يتحكَّم في هذا الشيء؟ يجب أن يكون المُشغِّل
قريباً. بإمكانني مناداة يُوي، لكنها ستفتاله في اللحظة التي سيفتح
فيها الباب.

أصدر باب الرواق من خلفه صريراً، وسمع طرقاً عليه، ثم فُتح.
انطلقت الصيَّادة المتعقِّبة كالسهم من جوار رأسه متَّجهة
صوب الحركة.

مدَّ بول يده اليمنى بسرعة خاطفة إلى أعلى، وأنزلها قابضاً
على الآلة الفتَّاكة. راحت المتعقِّبة تطنُّ وتتلوَّى في يده المضمومة،
لكن عضلاته قبضت عليها باستماتة، ثم التفت الصبيُّ بسرعة

وضرب مقدمة الشيء بعنف على لوحة الباب المعدنية، وشعر
بتحطم عين المتعقبة في يده، ثم همدت حركتها.
لكنه لم يفلتها، من باب التأكد.

رفع پول بصره فالتقى عيني ميبس الشادوات المتسعتين
التامتي الزرقعة.

قالت له: «لقد أرسل والدك في طلبك، والحرس ينتظرونك
في الرواق لمرافقتك».

أوماً پول وعقله وناظره يركزان على هذه المرأة الغريبة
المتدثرة بثوبٍ واسع من ثياب الرقيق البنية، التي راحت تحملق
الآن إلى الشيء الذي يمسكه في يده.

قالت له: «لقد سمعت عن هذه الأشياء. كانت ستقتلني، أليس
كذلك؟».

اضطر پول إلى ابتلاع ريقه قبل أن يجيب: «كنت أنا هدفها».

- «لكنها كانت آتية من أجلي».

- «لأنك كنت تتحركين». ثم سأل نفسه: من هذه المرأة؟

قالت: «إذا أنت أنقذت حياتي».

- «أنقذت حياتينا».

قالت: «يبدو لي أنه كان بإمكانك تركها تنال مني وتهرب».

سألها: «من أنت؟».

- «أنا ميبس الشادوات، مدبرة المنزل».

- «كيف عرفت مكاني؟».

- «أخبرتني أمك. قابلتها عند الدرج المؤدي إلى غرفة

العجائب في نهاية الرواق»، ثم أشارت إلى اليمين وأردفت: «ما
زال رجال والدك في انتظارك».

فَكَرَّ بُولُ: هَؤُلَاءِ رَجَالٌ حَوَّاطٌ. يَجِبُ أَنْ نَعْتَرِ عَلَى مُشْغَلٍ هَذِهِ
الآلَةِ.

قال: «أذهبى إلى رجال أبى وأخبرهم بأننى أمسكت بصيَّادة
متعقِّبة فى المنزل وأن عليهم الانتشار والبحث على مُشغِّلها.
أخبرهم بأن يغلقوا جميع مداخل ومخارج المنزل، وهم سيعرفون
ما عليهم فعله. لا بُدَّ أن المُشغِّل دُخِلَ اندس بيننا، وسيسهل
إيجاده».

ثم تساءل: أيمكن أن تكون هذه المخلوقة هي الفاعلة؟ لكنه
كان يعلم استحالة ذلك، فالمتعقِّبة كانت تعمل عندما دخلت.
قالت ميپس: «قبل أن أنفُذ ما طلبت، لا بُدَّ أن أصفِّي ما بيننا
أولاً. لقد وضعت عبء ماء علىّ، ولا أعلم إن كنت أستطيع حمله.
لكننا معشر الفرمن نسدُّ ديوننا، سواء أكانت ديوناً سوداء أم
بيضاء. نحن نعلم بوجود خائن بين صفوفكم. لا نعرف من هو
بالتحديد، لكننا على يقين من ذلك. ربَّما هو صاحب اليد التي
وجَّهت مخترقة اللحم تلك».

استوعب بول كلماتها في صمت: تقول خائن! وقبل أن يتفوَّه
بشيء، استدارت المرأة الغريبة وهرعت عائدة من حيث أتت.
فَكَرَّ فى أن يستدعيها مرَّةً أخرى، لكن شيئاً فى سلوكها أخبره
بأنها ستستاء من ذلك. لقد أخبرته بما تعرف، وهي الآن ذاهبة
لتففيذ أمره. سيُعْجُ المنزل برجال حَوَّاط فى غضون دقيقة
واحدة.

انتقل عقل بول للتفكير فى أجزاء أخرى من تلك المحادثة
الغريبة: غرفة المجائب. ثم نظر إلى اليسار حيث أشارت: نحن
معشر الفرمن. إذا هي من الفرمن. توقَّف بول للحظة ليحفظ

أنماط تقاسيم وجهها في ذاكرته: ملامح وجهها البنية الداكنة
المجعدة كالبرقوق المجفّف، وعينيها المشبّعتين بزرقة بعضها
فوق بعض، بلا أيّ بياض. ثم ربط الاسم بالوجه: ميبس الشادوات.
استدار پول في الغرفة وهو ما زال قابضاً على المتعقبة محطّمة
في يده، واتّجه إلى سريره والتقط حزام الدرع من فوقه بيده
اليسرى، وربطه حول خصره وهو يركض نحو الرواق وعبره بعدها.
لقد قالت إن أمّه في مكان هنا، قرب الدرج... في غرفة العجائب.

علام أنكأت الليدي جيسيكَا في وقت المحنة؟ قد
تعينك حكمة البني جيسيرت التالية على الفهم إن
تأملتها جيّدًا: «الطريقُ الذي يُسلكُ بحذافيه إلى
نهايته لا يؤدي إلى أيِّ مكانٍ. يكفي تسلُّقُ جزء صغير
من الجبل للتيقُّن من أنه جبل، فمن قِمّة الجبل لا
يُرى الجبل».

من كتاب «المؤدّب: شروح السيرة العائلية» للأميرة إيرولان.

هي كفاء الجناح الجنوبي، وجدت جيسيكَا دَرَجًا لولبيًا معدنيًا
يصعد إلى بابٍ بيضاوي. ألقت نظرة سريعة خلفها إلى الرواق،
ثم رفعت رأسها نحو الباب.
وتساءلت متعجّبة: باب بيضاوي؟ يا له من تصميم غريب
للمنزل.

عبر النواهد أسفل الدَرَج اللولبي، رأت جيسيكَا شمس أَرَاكس
البيضاء العظيمة الفاربة. امتدّت الظلال الطويلة بطول الرواق.
أعادت جيسيكَا انتباهها إلى الدَرَج، ولاحظت -في أشعة الشمس
المائلة- آثار ترابٍ جاف بين تفاريج قضبان الدرجات المعدنية.
وضعت جيسيكَا يدها على الدرايزين، وبدأت الصمود. شعرت
ببرودة المُتَكَأ تحت كفها المنزلفة، ثم توقفت عند الباب ورأت أنه
بلا مقبض، لكنها لاحظت في موضع المقبض تجويفًا بسيطًا.

قالت لنفسها: بالتأكيد ليس هذا «قفل راحة يد»، فتلك الأقفال
يجب أن تأخذ شكل كَفِّ الشخص والخطوط المحفورة عليها. لكنه
بدا كأنه قفل راحة يدٍ، وثمّة أساليب مجرّبة تعلّمها في المدرسة
لفتح أيّ قفل راحة يد. اختلست جيسيكَا نظرة سريعة إلى الورا

لتطمئن أن أحداً لا يراقبها، ووضعت كفّها على تجويف الباب، ضاغطة بأرق لمسة ممكنة لتزيّف خطوط اليد، ثم أدارت راسها مرّة، فثانية، ومسحت بكفّها السطح الأملس بحركة ملتوية. شعرت بتكّة فتح القفل.

لكنها سمعت خطوات مسرعة في الرواق أسفلها، فرفعت يدها عن الباب، والتفتت لترى ميبس تقترب من الدَرَج. قالت ميبس: «في القاعة الكبرى رجال يقولون إن الدوق أرسلهم لاصطحاب السيّد الصغير پول. إنهم يضعون شعار الدوقية، وقد تعرّفهم الحارس»، ثم ألقت نظرة سريعة إلى الباب، وعادت بعدها إلى جيسिका.

فكرت جيسिका: إنها امرأة حذرة. هذه علامة جيدة. قالت جيسिका: «إنه في الغرفة الخامسة في نهاية الرواق، غرفة النوم الصغيرة. إن لم تستطيعي إيقاظه، استدعي الدكتور يُوي من الحجرة المجاورة، فقد يحتاج پول إلى حقنة لإيقاظه من تأثير المنوم».

مرّة أخرى، حدّجت ميبس الباب البيضاوي بنظرها، وشعرت جيسिका أنها لاحظت اشمئزاً في تعبير وجهها. لكن قبل أن تستفسر عن الباب وما يخفيه، استدارت ميبس مبتعدة، تهرول عبر الرواق.

فكرت جيسिका: لقد أمّن حواط هذا المكان جيّداً. لا يمكن للباب أن يخفي خلفه أيّ شيءٍ فظيع.

دفعت جيسिका الباب، ففتّح إلى الداخل على حجرة صغيرة، على جدارها المقابل بابّ بيضاويّ آخر مزوّد بمقبض دائري.

فَكَرَّتْ جِيسِيكا: باب عازِل! ثم لمحت على أرض الغرفة الصغيرة عصا ساقطة تحمل ختم حَوَّاط الشخصى. لقد أُبْقِيَ على الباب الخارجى مفتوحًا بالعصا، وَرُبَّما أسقطها أحدهم بالخطأ غير مدرك أنه يُفلق بقفل راحة اليد.

خطت جِيسِيكا من فوق العتبة ودخلت إلى المقصورة الصغيرة. سألت نفسها: من يضع بابًا عازِلًا في منزل؟ وفجأة تخيلت مخلوقات غريبة معزولة في مناخٍ خاصٍ.
مناخ خاص!

هذا منطقيٌّ على أَرَاكس، الكوكب الذى تحتاج فيه النباتات الأكثر تحمُّلاً للجفاف المجلوبة من عوالم أخرى إلى رِيٍّ مستمرٍّ. بدأ الباب خلفها يتحرَّك منغلَقًا، فأدركته جِيسِيكا وأبقت عليه مفتوحًا بالعصا التى تركها حَوَّاط، ثم واجهت الباب الداخلى المُفلق بالعجلة، ولاحظت نقشًا باهتًا محفورًا فى المعدن فوق المقبض. ميَّزت جِيسِيكا الكلمات المكتوبة، التى كانت باللغة الجلاكية، فقرأت: «أيُّها الداخِل! ستجد هنا عيِّنات بديعة من صنِيعَةِ الرَّبِّ، فقف أمامها فى تواضع، وتعلَّم أن تذوب حُبًّا فى كمال الصديق الأعلى».

مالت جِيسِيكا بوزنها على العجلة فدارت إلى اليسار وانفتح الباب الداخلى. لمست نسمة هواء خفيفة خديها وداعبت شعرها. شعرت باختلاف فى نوعية الهواء، وبرائحة عطرية قوية. فتحت الباب على اتِّساعه، وأطلَّت منه برأسها فرأت كساءً أخضر يانِعًا تغمره أشعة شمسٍ صفراء. سألت نفسها: شمسٌ صفراء، كيف؟ ثم فهمت: يستخدمون فلاتر ضوئية.

خطت من فوق العتبة وأغلق الباب وراءها .

تنفّست الهواء العليل وقالت: «هذا مشتل زجاجي لنباتات كوكب رطب».

في كل مكانٍ حولها، تناثرت الأشجار المشدّبة وأُصص النباتات. ميّزت نبات الميموسا، والسفرجل المزهر، والسونداجي، والبنيسنتا الخضراء المزهرة، والأكارسو المخطّط بالأبيض والأخضر، وأحواض الورد..

حتّى الورد!

انحنّت جيسिका لتستنشق عبير زهرة وردية عملاقة، ثم اعتدلت لتتفقّد الغرفة.

سمعت ضجيجًا رتيبًا استحوذ على اهتمامها.

أزاحت جيسिका أكمة من الأوراق المتشابكة بيديها، ونظرت من بينها إلى مركز المقصورة، حيث انتصبت نافورة صغيرة منخفضة لها حواف دائرية مُثلّمة. أما الضجيج الرتيب فكان صوت قوس الماء الذي يفور إلى أعلى قبل أن يسقط مجلجلًا في طستٍ معدني.

أدخلت جيسिका نفسها في حالة وجيزة لتصفية ذهنها، ثم بدأت تفحص محيط المقصورة بشكلٍ منهجي. كانت مساحتها نحو عشرة أمتار مربعة، ومع الأخذ في الاعتبار مكانها أعلى نهاية الرواق، ومن الاختلافات الطفيفة الواضحة في تصميمها، خمّنت جيسिका أنها أُضيفت إلى سطح هذا الجناح بعد مدة طويلة من اكتمال المبنى الأصلي.

توقّفت عند طرف المقصورة الجنوبي أمام الزجاج الملون العريض، ونظرت حولها. لم تُترك مساحة شاغرة في الغرفة إلا

وُمِلَّتْ بِالنَّبَاتَاتِ الْغَرِيبَةِ الْمَجْلُوبَةِ مِنْ مَنَاخِ رَطْبٍ. سَمِعْتُ جَيْسِيكَ
حَفِيفًا آتِيًا مِنْ وَسْطِ الشَّجِيرَاتِ فَتَحَفَّزْتُ، ثُمَّ لَمَحْتُ آليَةَ سِرْفُوكِ
أَوْتُمَاتِيَّةً بَسِيطَةً تَبْرُزُ مِنْهَا أَنْيَابٌ وَأَذْرَعُ خِرَاطِيمٍ. ارْتَفَعْتُ إِحْدَى
الْأَذْرَعِ وَرَشْتُ رِذَاذًا رَطْبًا خَفِيفًا بَلَّلَ وَجْنَتَيْهَا، ثُمَّ تَرَاوَعْتُ الذَّرَاعَ
فَنَظَرْتُ جَيْسِيكَ إِلَى مَا سَقَتْهُ: كَانَتْ شَجَرَةً سَرَخَسَ.

الماء في كل مكان في هذه المقصورة، على كوكبٍ يُعَدُّ الماء
فيه إكسير الحياة. راعاها إهدار الماء بهذا الشكل إلى درجة
زَعَزَعَتْ سَكُونَهَا الدَّاخِلِيَّ.

نَظَرْتُ إِلَى الْخَارِجِ نَحْوَ الشَّمْسِ الصَّفْرَاءِ الْمُنْخَفِضَةِ فِي
الْأَفْقِ الْمَتَعَرِّجِ الَّذِي يعلو المنحدرات التي تشكِّلُ جزءًا مِنْ تَكْوِينِ
الصَّخُورِ الْهَائِلِ الْمَعْرُوفِ بِاسْمِ الْجِدَارِ الْحَامِي. فَكَّرْتُ جَيْسِيكَ:
إِنَّهُمْ يَسْتَخْدِمُونَ الْفَلَاتِرَ الضَّوْثِيَّةَ لِتَحْوِيلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ الْأَبْيَضِ
إِلَى شَيْءٍ أَنْعَمَ وَأَكْثَرَ أَلْفَةً. مِنَ الَّذِي شَيَّدَ هَذَا الْمَكَانَ؟ أَهْوَلِيْتُو؟
لَنْ أَتَعَجَّبَ إِنْ أَرَادَ مَفَاجَأَتِي بِمِثْلِ هَذِهِ الْهَدِيَّةِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ
وَقْتُ لَذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ مَشْغُولًا بِمَسَائِلِ أَكْثَرَ جَدِّيةً.

وَتَذَكَّرْتُ التَّقْرِيرَ الَّذِي أَفَادَ بِأَنَّ مَنَازِلَ كَثِيرَةً عَلَى أَرَاكُسٍ مَزُودَةٍ
بِأَبْوَابٍ وَنَوَافِذَ عَازِلَةٍ لِلْحِفَاطِ عَلَى الرُّطُوبَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَاسْتِعَادَتِهَا.
قَالَ لَيْتُو إِنْ تَجَاهَلَ هَذَا الْمَنْزِلَ لِمِثْلِ هَذِهِ الْإِحْتِيَاطَاتِ مُتَعَمِّدًا،
لِلدَّلَالَةِ عَلَى سُلْطَةِ وَثَرَةٍ قَاطِنِيهِ، وَإِنْ أَبْوَابُهُ وَنَوَافِذُهُ كَانَتْ مُعَدَّةً
فَقَطْ لَصَدِّ الْغُبَارِ الْمُنْتَشِرِ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

لَكِنْ هَذِهِ الْغُرْفَةُ تَجَسَّدَ شَيْئًا أَهَمَّ بِكَثِيرٍ مِنْ مَجَرَّدِ غِيَابِ
عَوَازِلِ الرُّطُوبَةِ عَنِ الْأَبْوَابِ الْخَارِجِيَّةِ، إِذْ قَدَّرْتُ أَنَّ مَقْصُورَةَ
الْمَسَرَّاتِ هَذِهِ تَسْتَهْلِكُ مَاءً يَكْفِي لِسَدِّ حَاجَةِ أَلْفِ شَخْصٍ عَلَى
أَرَاكُسٍ، وَرُبَّمَا أَكْثَرَ.

سارت جيسيكاً بطول النافذة، مستمرةً في تفحص المقصورة، واكتشفت وجود سطح معدنيّ بارتفاع طاولة بجانب النافذة، ولمحت عليه مفكرةً بيضاء وقلماً تحجبهما جزئياً ورقة شجر مروحية الشكل. اتجهت إلى الطاولة، ولاحظت العلامة التي تركها حواط عليها، وشرعت في قراءة الرسالة المكتوبة في المفكرة:

إلى الليدي جيسيكاً،

عسى أن يكون هذا المكان قرّة عينٍ لك كما كان لي. أرجو أن تسمح لي للغرفة بتذكيرك بالدرس الذي علّمتنا إيّاه نفس المعلمات: قُرب المرء ممّا تشتهي نفسه، يقرّبه بالانغماس فيه. وفي هذا الدرب يكمن الخطر.

أطيب تمنّياتي،

الليدي مارجو فنرينج.

هزّت جيسيكاً رأسها وقد تذكّرت أن ليتو ذكر وكيل الإمبراطور السابق الذي كان يقطن هذا المنزل، الكونت فنرينج. أمّا الرسالة المخفاة بين السطور فتتطلّب اهتماماً فورياً منها، فهي مُصاغة بطريقة كي تخبرها بأن الكاتبة أخت أخرى من أخوات البني جيسيرت. ثم عبرت خاطرة مريّة في ذهن جيسيكاً: الكونت تزوّج بخيلته. لكن حتّى مع مرور هذه الخاطرة في ذهنها، كانت منحنية على الرسالة تبحث عن الفحوى الكامن بين سطورها. لا بُدّ أنه موجود. تحتوي الرسالة المقروءة على عبارة رمزية يتعيّن على كل أخت من البني جيسيرت تمريرها لأخت أخرى عندما تستدعي الظروف، إن لم يمنعها عن ذلك أمر من المدرسة: «في هذا الدرب يكمن الخطر».

تحسّست جيسيكاً المفكّرة من الخلف، وفركت سطحها بأصابعها باحثة عن نقاط بارزة، لكنها لم تعثر على شيء. تلمّست حواف المفكّرة بأصابعها الحسّاسة، لا شيء. شعرت بضرورة ملّحة جيسيكاً لإعادة المفكّرة حيث وجدتها، ففعلت ذلك في عجلة.

أفي وضعها على السطح دليل؟ هكذا تساءلت.

لكن حوَّاط تفقّد هذه الغرفة وبالتأكيد حرّكها من مكانها. نظرت إلى ورقة الشجر التي تعلو المفكّرة. الورقة! مرّرت إصبعها أسفل سطح الورقة، وبطول حافّتها وساقها، فوجدت ما تبحث عنه! استشعرت أصابعها النقاط البارزة الدقيقة، ومرّت عليها قارئاً الفقرة الوحيدة:

«كلّ من خليلك الدوق وابنك في خطرٍ محقق. لقد صُمّمت إحدى غرف النوم لجذب انتباه ابنك، وقد ملأها "الهاء" بفخاخ مميتة سهل اكتشافها، لكن واحداً منها فقط مختلف وقد يتعدّر كشفه». كبحت جيسيكاً الرغبة الجامحة في الإسراع بالعودة إلى پول، فلا بُدّ من استيعاب الرسالة الكاملة. جرت أصابعها على النقاط: «لا أعرف طبيعة التهديد، لكنه يتعلّق بالسرير. أما الخطر الذي يهدد خليلك الدوق فيتضمن خيانة أحد الضبّاط أو المرافقين الموثوق بهم. يخطّط "الهاء" بأن يُقدّموك هديّة إلى أحد عملائهم. حسب علمي، هذا المشتل آمن. سامحيني لأنني لا أستطيع البوح بالمزيد. مصادري قليلة لأن زوجي الكونت غير متواطئ مع "الهاء"». كتبتُ هذا في عجلة، ميم فاء..

أفلتت جيسيكاً الورقة وركضت عائدة إلى پول. في تلك اللحظة، انفتح الباب العازل بقوة، ووثب عبره پول وهو يمسك بشيء في

قبضته اليمنى، ثم صفعه خلفه. رأى أمّه، فاندفع صوبها مخترقاً الأوراق الكثيفة، وألقى نظرة سريعة إلى النافورة، ثم مدّ يده بالشئ الذي يقبضه في يده تحت شلال الماء الصغير.

- «بول! ما هذا؟»، قالتها جيسيكَا وهي تمسكه من كتفه وتحذق إلى يده.

تكلم الصبي بعفوية كأن الأمر غير مهم، لكنها شعرت بالمجهود الذي يبذله للسيطرة على نبرته: «صيّادة متعبّة. أمسكت بها في غرفتي وحطّمت مقدّماتها، لكنني أريد التأكد من تعطّلها. الماء سيفسد دائرتها الكهربائية».

قالت أمّرة: «اغمرها بالكامل».

اطاع أمرها.

في النهاية قالت: «اسحب يدك واتركها في الماء».

أخرج بول يده، ونفض عنها الماء دون أن يرفع عينيه عن قطعة المعدن الهامدة الراقدة في قاع النافورة. قطعت جيسيكَا ساق أحد النباتات، ونخست به الشظية الفتّاقة.

كانت هامدة.

ألقت جيسيكَا ساق النبات في الماء، ونظرت إلى بول.

كانت عيناه تتفحصان الغرفة بنظرة ثاقبة بأسلوب ميّزته الأم:

هذا أسلوب البني جيسيرت.

قال لها: «يمكن إخفاء أيّ شيء في هذا المكان».

قالت: «عندي أسباب تدفعني للاعتقاد أنه آمن».

- «كان من المفترض أن تكون غرفتي آمنة كذلك. حوَّاط قال...».

ذكرته جيسيكَا: «إنها صيّادة متعبّة. هذا يعني أن شخصاً يتحكّم فيها من داخل المنزل، وبما أن إشارات التحكّم في المتعبّة

محدودة النطاق، فقد تكون نُشِطت بعدما أنهى حوَّاط فحصه». لكنها فكَّرت في فعوى الرسالة المتروكة على ورقة الشجرة: «... خيانة أحد الضُّباط أو المرافقين الموثوق بهم». كلا، ليس حوَّاط. أوه، يستحيل أن يكون حوَّاط.

قال لها: «رجال حوَّاط يفتشون المنزل الآن. كادت المتعقبة أن تفتك بتلك المرأة العجوز التي جاءت لإيقاظي». قالت جيسيكا وقد تذكَّرت لقاءها عند الدَّرَج: «اسمها ميبس الشادوات، لقد أرسل أبوك في طلبك كي...». قال هول: «يمكن لهذا أن ينتظر. لماذا تظنين أن هذه الحجرة آمنة؟».

أشارت إلى الرسالة، وشرحت له أمرها. استرخى جسده قليلاً. لكن جيسيكا ظلَّت متوتِّرة، وفكَّرت: صَيَّادة متعقبة! بحق الأُم الرحيمة! ثم استجمعت كل ما تلقَّته من تدريب لكبح نوبة من الارتعاش الهستيري. قال هول بطريقة عملية: «هذا من فعل الهراكنة. علينا أن ندمِّرهم».

ثم سمعا طرقاً على الباب المقصورة. كان ذلك الطرق السري المتَّفَق عليه بين جماعة حوَّاط. صاح هول: «ادخل».

فُتِح الباب وأطلَّ منه رجلٌ طويل يرتدي زيَّ آل آتريديز الموحَّد ويحمل شارة حوَّاط على قُبْعته. قال الرجل: «ها أنت ذا يا سيِّدي. قالت مدبِّرة المنزل إنك ستكون هنا»، ثم أجال ناظره في الغرفة وأردف: «وجدنا جثوة من الحجارة في القبو، وأمسكنا بالرجل

المختبئ فيها. كان يحمل جهاز التحكم في المتعبئة».

قالت چيسيكا: «أريد المشاركة في استجوابه».

- «معذرة يا سيّدي. لقد أوسعناه ضرباً عندما أمسكنا به.

لقد مات».

سألته: «أليس من شيء للتعرف على هويّته؟».

- «لم نجد شيئاً بعد يا سيّدي».

سأله پول: «أهو من مواطني أراكس؟».

هزّت چيسيكا رأسها معجبةً بحداقة السؤال.

قال الرجل: «ملاحه محليّة، ويبدو من مظهره أنه وُضع في

هذه الجثوة منذ أكثر من شهر، وأمر بأن ينتظر قدومنا. كانت

الحجارة والملاط اللتان خرج منهما إلى القبو سليمتين عندما

فتشنا المكان أمس. أراهن بسمعتي على ما أقول».

قالت چيسيكا: «لا أحد يُشكّك في دقّة عملك».

- «أنا أشكّك فيها يا سيّدي. كان علينا استخدام المجسات

الصّوتية».

قال پول: «أفترض أن هذا ما تفعلونه الآن».

- «أجل يا سيّدي».

- «أرسل لوالدي إفادة بأننا سنأخّر».

- «في الحال يا سيّدي»، ثم نظر إلى چيسيكا بارتباك وأردف:

«أوامر حوَّاط أن يُوضع السيّد الصغير تحت حراسة مشدّدة في

مكانٍ آمن في مثل هذه الظروف»، ومن جديد، تفحّصت عيناه

في الغرفة: «ما وضع هذا المكان؟».

قالت: «لدي أسباب تدفعني للاعتقاد أنه آمن. فحصه حوَّاط،

ومن بعده أنا».

- «إِذَا سَأَضَعُ حَارِسًا عَلَى الْبَابِ يَا سَيِّدَتِي إِلَى أَنْ نَنْتَهِيَ مِنْ فَحْصِ الْمَنْزِلِ مَرَّةً أُخْرَى»، قَالَهَا وَانْحَنَى، وَلَمَسَ قَبْعَتَهُ مَحْيِيًا بِوَلٍ، ثُمَّ غَادَرَ الْمَقْصُورَةَ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَرَاءَهُ.

كَسَرَ بِوَلٍ الصَّمْتَ الَّذِي خَيَّمَ فَجْأَةً قَائِلًا: «أَيَجْدُرُ بِنَا فَحْصَ الْمَنْزِلِ بِأَنْفُسِنَا لِأَحْقًا؟ قَدْ تَلْتَقَطَ عَيْنَاكَ مَا تَعْجَزُ عَنْهُ أَعْيُنُ الْآخَرِينَ».

قَالَتْ: «هَذَا الْجَنَاحُ هُوَ الْمَكَانُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَمْ أَفْحَصْهُ، أَرْجَاؤُهُ لِلنَّهَايَةِ لِأَنَّ...».

قَاطَعَهَا مِنْهَا الْجَمْلَةُ بِالنِّيَابَةِ عَنْهَا: «لَأَنَّ حَوَّاطَ أَوْلَاهُ اِهْتِمَامَهُ الشَّخْصِيَّ».

حَدَّجَتْهُ بِنَظَرَةٍ سَرِيعَةٍ مَتَسَائِلَةً: «أَتَشْكُ بِحَوَّاطٍ؟».

- «كَلَّا، لَكِنَّهُ كَبُرَ فِي السَّنِّ، وَيَجْهَدُ نَفْسَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ. بِإِمْكَانِنَا إِزَاحَةَ بَعْضِ الْعَبَاءِ عَنْ كَاهِلِهِ».

قَالَتْ: «لَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا مَصْدَرُ خِزْيٍ لَهْ، وَسَيَتَسَبَّبُ فِي إَضْعَافِ كِفَائَتِهِ. لَنْ تَتِمَّ حَشْرَةُ ضَالَةٍ مِنْ دُخُولِ هَذَا الْجَنَاحِ بَعْدَمَا سَيَسْمَعُ بِالْأَمْرِ. سَيَشْعُرُ بِالْعَارِ لِأَنَّهُ...».

قَالَ لَهَا: «عَلَيْنَا أَنْ نَتَّخِذَ تَدَابِيرِنَا الْخَاصَّةَ».

قَالَتْ: «لَقَدْ خَدِمَ حَوَّاطٌ ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ مِنْ آلِ آتَرِيدِيزَ بِشَرَفٍ، وَيَسْتَحِقُّ كُلَّ الْإِحْتِرَامِ وَالثَّقَةِ الَّتِي يُمْكِنُنَا أَنْ نَضْعُهَا فِيهِ.. أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً».

قَالَ بِوَلٍ: «عِنْدَمَا يُغْضِبُ أَبِي مِنْكَ يَقُولُ "بَنِي چيسيرت" مِنْ تَحْتِ أَسْنَانِهِ، كَأَنهَا سُبَّةٌ».

- «وَمَا الَّذِي يُغْضِبُ وَالِدَكَ مِنْهُ؟».

- «مجادلتك له».

- «أنت لست أباك يا پول».

فَكَّرَ پول: يجب أن أخبرها بما قالتة ميبس عن وجود خائنٍ بيننا. سينهشها القلق، لكن ما باليد حيلة.

سألتة جيسيكَا: «ماذا تخفي عني يا پول؟ هذا ليس من طبيعتك».

هَزَّ پول كتفيه، وروى لها النقاش الذي دار مع ميبس. فَكَّرَت جيسيكَا في الرسالة التي على ورقة الشجرة، ثم حسمت قرارها فجأة وعرضت الورقة على پول وأخبرته بفحواها.

قال پول: «يجب أن يعلم والدي بهذا الأمر في الحال، سأكتبها بلغة الشيفرة وأرسلها في برقية».

قالت جيسيكَا: «كلًا، تمهَّل حتَّى تتفرد به شخصيًا وتخبره. يجب الاحتياط كي لا يعلم بشأنها إلا أقل القليل».

- «أتعنين أنه لا ينبغي لنا الوثوق بأحد؟».

قالت: «ثُمَّ احتمال آخر. رُبَّمَا قُصِدَ لهذه الرسالة أن تقع في أيدينا. من أرسل إلينا هذه الرسالة قد يكون مؤمنًا بصحتها، ولكن قد يكون كل الفرض منها أن تصل إلينا».

ظَلَّت ملامح وجه پول متكدرَةً وجامدةً، ثم قال: «لَبِثُ الفتنة والشكوك بين صفوفنا، لإضعاف شوكتنا».

قالت له: «عليك أن تخبر أباك على انفراد، وتحذِّره من هذا الاحتمال».

- «فهمت».

استدارت لتواجه الزجاج المفلتر العريض، وحدَّثت باتِّجاه

الجنوب الغربي حيث شمس أراكس الفاربية التي بدت ككرة مصفرة دانية على المنحدرات.

استدار پول معها وقال: «أنا مثلك لا أظن أنه حوَّاط. هل من الممكن أن يكون يُوي؟».

قالت جيسىكا: «يُوي ليس ضابطاً ولا مرافقاً، كما أؤكد لك أنه يَمُت الهراكنة من شفاف قلبه مثلاً».

وَجَّهْ بُولِ اِهْتِمَامِهْ إِلَى الْمُنْحَدِرَاتِ، وَفَكَّرْ: وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ جِيرَنِي.. أَوْ دَانِكُنْ. أَيْمَكُنْ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الصُّبَّاطِ الْأَدْنَى رُتْبَةً؟ مُسْتَحِيلٌ، فَكُلُّهُمْ مِنْ عَائِلَاتٍ مُوَالِيَةٍ لَنَا مِنْذُ أَجْيَالٍ، وَلِأَسْبَابٍ وَحِيدَةٍ.

فركت چيسكا جبينها شاعرةً بالتعب. الخطر في كل مكان هنا. تأملت المشهد المصبوغ بصبغة الزجاج الصفراء. وراء الأراضي الدوقية، امتدت ساحة تخزين واسعة مُحاطة بسياج عالٍ، تتراص فيها صفوف من صوامع الاسپايس، ومن حولها أبراج حراسة مشيئة على قوائم مرتفعة كأنها عناكب متحفزة. استطاعت أن ترى ما لا يقل عن عشرين صومعة تخزين تمتد حتى منحدرات الجدار الحامي: صومعة تلو الأخرى، بامتداد منطقة الحوض الصحراوي.

بيطء، غابت الشمس المصفرة وراء الأفق، وأطلت النجوم على
المشهد. رأت نجماً ساطعاً قريباً جداً من خط الأفق يرتجف
ضوءه متلألئاً بإيقاع واضح ودقيق: ومضة.. ومضة.. ومضة..
ومضة.. ومضة...

تملئ پول إلى جوارها مع ازدياد عتمة الغرفة في ضوء
الفسق الشاحب.

لكن چيسكا ركزت على ذلك النجم الوحيد الساطع، ولاحظت أنه منخفضٌ جدًا إلى درجة تشير إلى أن ضوءه قادمٌ من بين منحدرات الجدار الحامي.

إنها إشارة! أحدهم يرسل إشارة!

حاولت أن تقرأ الرسالة، لكنها لم تكن مشفرة بأيّ شيفرة تعلمتها.

امتأ السهل أسفل المنحدرات بأضواءٍ أخرى: أضواء صفراء صغيرة متناثرة في الظلام الأزرق. إلى يسار تلك الأضواء الصغيرة، بدأ ضوءٌ يومض بقوة رداً على الضوء الآتي من الجرف: بريق، فلمعان، فومضة!

ثم اختفى.

وعلى الفور اختفى وميض النجم الكاذب من الجرف. ملأتها تلك الإشارات بالهواجس.

سألت چيسكا نفسها: لِمَ يستخدمون الأضواء لتبادل الإشارات عبر الحوض؟ لِمَ لا يستخدمون شبكة الاتصالات؟

كان الجواب واضحاً: الاتصالات الآن خاضعة لرقابة عملاء الدوق ليتو، لذا الإشارات الضوئية لا يمكن أن تعني إلا شيئاً واحداً فقط: إنها رسائل متبادلة بين أعدائه، بين عملاء الهراكنة. سمعا نقرأ على الباب من خلفهما، وجاءهما صوت أحد رجال حوَّاط يقول: «كل شيء آمن يا سيدي ويا سيديتي. حان وقت إيصال السيّد الصغير إلى والده».

يُقال إن الدوق ليتو غَض الطرف عن مخاطر أَرَاكس
بمحض إرادته، وإنه سار بتؤدة إلى الهاوية غير
مبالٍ. لكن أليس من الأحرى بنا قول إنه عاش أغلب
حياته في كنف مخاطر محدقة، إلى درجة قد يكون
أساء معها التقدير حين ازدادت حِدَّة الخطر؟ أو
رُبَّما يكون قد ضحَّى بنفسه عامداً كي يعيش ابنه
حياةً أفضل؟ فجميع الدلائل تشير إلى أن الدوق لم
يكن رجلاً يسهل خداعه.
من كتاب «المؤدَّب: شروح السيرة العائلية» للأميرة إيrolان.

مال الدوق ليتو آنريديز إلى حاجز شرفة برج المراقبة في
الميناء الفضائي الرأبض خارج حدود مدينة أراكين. كان قمر
أَرَاكس الأول معلقاً في سماء الليل كعملة فضية فوق الأفق
الجنوبي. أسفله، وعبر الضباب الغباري، تألَّقت قمم منحدرات
الجدار الحامي الحادة البيضاء كأنها مكسوَّة بطبقة من كريمة
السكر. وإلى اليسار، توهَّجت أضواء مدينة أراكين عبر الضباب
بألوان صفراء.. وبيضاء.. وزرقاء.
كان ليتو يفكر في المنشورات الممهورة بتوقيعه التي وُزعت
في جميع الأماكن المكتظة بالسكان على الكوكب، والتي تقول:
«سَلِّمني إمبراطورنا الباديشاه المعظم مقاليد حُكم هذا الكوكب،
وكلفني بإنهاء النزاعات كافة».

لمس الدوق في صيغة المنشور الرسمية شيئاً من الوحشة.
من سينخدع بهذا التقيُّد السخيف بالشرعية؟ بالتأكيد ليس
الفرمين، ولا العائلات الصغيرة التي تتحكم في التجارة الداخلية

على أراكس.. تلك الطفيليات التي يدين كل فردٍ منها تقريباً
بالولاء للهراكنة.

لقد حاولوا قتل ابني!

كان من الصعب كبح جماح الغضب الذي يشتعل بداخله.

شاهد ليتو ضوء مصابيح مركبة أرضية تقترب من ميدان
الهبوط قادمة من أراكين. تمنى أن تكون حاملة الحرس والجنود
التي ستُحضر پول إليه. كان التأخير مقلّماً، لكنه كان يعلم أنه
بسبب حيطة وحذر الضابط الذي يعمل تحت إمرة حوَّاط.

لقد حاولوا قتل ابني!

هز رأسه لنفض الأفكار المُحنِقة عنه، وعاد يبصره إلى أرض
المهبط التي تنتشر خمس من فرقائاته على أطرافها كأنها
مراكز حراسة متراصة.

تأخيرٌ حذر أفضل من...

ذكر ليتو نفسه بأن الضابط المرافق لابنه مشهودٌ له بالكفاءة،
وفي طريقه إلى الترقّي، لطالما كان مخلصاً تماماً.
«إمبراطورنا الباديشاه المعظم...».

آه لو رأى أهل هذا الحامية البائسة الملاحظة الشخصية التي
تركها الإمبراطور له «دوقه النبيل»، وقرؤوا تلميحاته التي تزدري
الرجال والنساء الملتئمين: «... ولكن ما الذي قد يتوقَّعه المرء
من برابرة همجيين أقصى أمانهم هي العيش خارج نطاق الأمان
المنظَّم الذي يوفره نظام فارفلوشس الطبقي؟».

شعر الدوق في هذه اللحظة أن أعز أمانيه هو القضاء على
جميع الفروق الطبقيّة وعدم التفكير مرة أخرى في مثل هذا
النظام الطّاحن. رفع بصره إلى السماء ونظر عبر الغبار إلى

بريق النجوم الثابت، وفكّر: حول أحد تلك الأضواء الصغيرة يدور كلابان... لكنني لن أرى وطني مرّة أخرى. باغتته وخزة حنين إلى كلابان، لكنه لم يشعر بأنها نابغة من صدره، بل كأنها قطعت طريقها قادمة إليه من كلابان. لم يستطع حمل نفسه على الشعور بأن هذا الكوكب القاحل الجاف وطنه، وشك في أنه قد يشعر بذلك يوماً.

ثم فكّر: عليّ إخفاء مشاعري حرصاً على مصلحة الصبي. إن قُدِّر أن يكون له وطن، فبالأكيد سيكون هذا. ربّما أرى في أراكس جحيماً أُلقيت فيه قبل موتي، لكن لا بُدَّ له أن يجد هنا ما يشجّعه ويلهمه. حتماً يوجد شيء.

اعترته موجة من الرثاء للنفس، لكنه احتقرها ونبذها على الفور، فمرّت من خلاله دون أن تمسّه بسوء، ولسبب ما وجد نفسه يتذكّر بيتي قصيدة كثيراً ما كان جبرني يردّدهما:

«تتذوّق رثائي هواء الزمن

الهابّ على بحارٍ من رمال...».

حسنًا، سيجد جبرني كثيراً من بحار الرمال هنا، هكذا فكّر الدوق. الأراضي القاحلة الواقعة خلف تلك المنحدرات التي يكسو القمر قممها بضياؤه محض صحراء، لا شيء فيها سوى صخورٍ وعرةٍ وكثبان ورياح محمّلة بالغبار. يهماء جرداء مجهولة، تتناثر بؤر الفرمن مبعثرة على أطرافها، وربّما في عمقها أيضاً. إن كان من شيء سيؤمّن مستقبل آل آتريديز، فهم الفرمن. هذا يفرض أن الهراكنة لم ينجحوا بالفعل في إصابة الفرمن بعدوى مخططاتهم السامة.

لقد حاولوا قتل ابني!

سرى رنينٌ معدني عالٍ في أوصال البرج، ارتجَّ له حاجز الشرفة الذي يتكئ عليه. سقطت سدائل الوقاية من وهج وقود الصواريخ المحترق وحجبت عنه الرؤية.

فكَّر الدوق: المَكوك قادم. حان وقت النزول وبدء العمل. استدار إلى السُلَّم خلفه، وبدأ يهبطه متَّجهاً إلى غرفة الاجتماعات الكبيرة وهو يحاول الحفاظ على هدوئه وتعايير وجهه للقاء المرتقب.

لقد حاولوا قتل ابني!

وحين وصل إلى الغرفة ذات القبة الصفراء كان الرجال يتوافدون بالفعل من المهبط، يحملون حقائبهم الفضائية على أكتافهم، ويعربدون ويصيحون كأنهم طلاب عائدين من إجازة. - «يا هياه! أشعر بهذا الثقل تحت قدميك؟ إنها الجاذبية يا رجل!»، «كم تبلغ قوَّة جاذبية هذا الكوكب؟ أشعر بأنني ثقيل»، «تسعة أعشار الجاذبية القياسية».

امتلأت الغرفة الكبيرة بالهرج والصياح المتبادل.

- «هل رأيت هذا المكان اللعين في أثناء هبوطنا؟ أين كل تلك المغانم التي يُفترض أن يحتوي عليها؟»، «أخذها الهراكنة معهم!»، «أحتاج إلى حمَّامٍ دافئٍ وفرشٍ وثير»، «ألم تسمع بعد أيُّها الأحمق؟ لا يوجد ماء هنا. ستمسح مؤخرتك بالرمال»، «صه! أغلق فمك! الدوق هنا!».

خطا الدوق إلى الحجرة من مكانه عند المدخل، فعمَّ الصَّمْت الغرفة في الحال.

هرول جيرني هاليك مخترقاً الحشد حاملاً حقيبتَه على كتفه، ممسكاً بعنق الباليست ذات الأوتار التسعة في اليد الأخرى. كانت أصابع يديه طويلة وإبهاماه كبيران، لكنها جميعاً ماهرة رشيقة في حركاتها، وقادرة على استخراج أعذب الألحان طرّاً من الباليست. راقب الدوق هاليك قبيح المظهر بنظرة إعجاب، ملاحظاً عينيه الحادّتين كشظايا الزجاج التي يلتصق فيهما ذكاءٌ وحشي. ها هو رجلٌ عاش حياته خارج نظام فارفلوشس الطبقي، ورغم ذلك يطيع كل قواعده. بِمَ وصفه پول؟ «جيرني الشجاع».

كان شعر جيرني الأشقر الناعم ينتشر على البقع الصلعاء في رأسه، وعلى فمه الواسع ارتسمت ابتسامةٌ لطيفةٌ بدت معها نُدبة سوط الإنكثاين التي تقطع فكّه كأن لها حياتها الخاصّة. كان في مظهره العفوي الواثق ما يُوحى بالكفاءة والمهارة. اقترب هاليك من الدوق وانحنى.

ردّ ليتو التحيّة: «جيرني».

أشار جيرني بيده الممسكة بالباليست إلى الرجال في الغرفة: «سيّدي، هذه هي الدفعة الأخيرة. كنت أفضلُ القدوم مع الموجة الأولى لكن...».

قال الدوق: «لا تقلق، تركت لك بعض الهراكنة. تعال يا جيرني، أريد التحدّث معك».

- «رهن إشارتك يا سيّدي».

انتقلا إلى خلوة بجانب آلة مياه كهربائية، ريثما راح الرجال يهرجون في الغرفة الكبيرة بلا هوادة. أسقط هاليك الحقيبة عن كتفه في أحد الأركان، وظلّ ممسكاً بالباليست.

سأله الدوق: «كم رجلاً من رجالك تستطيع تركه لحوّاط؟».

- «أظفِر في ورطة يا سيدي؟».

- «لم يفقد سوى رجلين، لكن رجاله الذين سبقونا قدّموا لنا معلومات وافية عن شبكة الهراكة هنا. لو تحرّكنا سريعاً قد نستطيع توفير بعض الاستقرار الأمني، ما سيمنحنا المتفّس الذي نريد. إنه يحتاج إلى أكبر عدد ممكن من الرجال الذين تستطيع الاستغناء عنهم، رجال لن يحجموا عن المشاركة في بعض المعارك بالسكّين».

قال هاليك: «سأعطيه ثلاثمئة من أفضل رجالي. إلى أين أرسلهم؟».

- «إلى البوابة الرئيسة، وكيه ينتظرهم هناك».

- «هل أرسلهم على الفور يا مولاي؟».

- «بعد قليل. لدينا مشكلة أخرى يجب معالجتها أولاً. سيختلق قائدنا الميداني ذريعة ما للإبقاء على المكوك هنا حتّى الفجر. الهايلاينر التابعة للنقابة التي جئنا على متنها ستمضي إلى حال سبيلها، أمّا المكوك فمن المفترض أن يلتحم بسفينة شحن على متنها حمولة من الاسپايس».

- «الاسپايس الذي نملكه يا مولاي؟».

- «هو بعينه يا جيرني. لكن المكوك سيحمل على متنه أيضاً بعض صائدي الاسپايس من النظام القديم. لقد اختاروا المغادرة مع تغيير الإقطاعية، وقد سمح لهم قاضي الفترة الانتقالية بذلك. هؤلاء عمّال ذوو قيمة يا جيرني، نحو ثمانمئة منهم. يجب أن تستميل بعض هؤلاء الرجال وتقنعهم بالانضمام إلينا قبل مغادرة المكوك».

- «ما مدى قوّة الإقناع التي تريد استخدامها يا مولاي؟».

- «أريد تعاونهم الطوعي يا جبرني. يمتلك هؤلاء الرجال الخبرة والمهارات التي نحتاج إليها، ومغادرتهم تشير إلى أنهم ليسوا جزءًا من آلة الهراكنة. يعتقد حوَّاط أن بعض العملاء قد يكونون مُندسِّين في المجموعة، لكن حوَّاط رجلٌ كثير الارتياب، يرى قتلَةً تحت كل حجر».

- «على مدار تاريخه، قلب حوَّاط أحجارًا كثيرة وأخرج مصائب من تحتها يا سيِّدي».

- «ومع ذلك أخفق في اكتشاف بعضها، لكنني أرى أن زرع خلايا نائمة في هذه الزمرة المغادرة أمرٌ يفوق ذكاء الهراكنة».

- «ربُّما يا سيِّدي. أين أولئك الرجال؟».

- «في غرفة الانتظار في الطابق السفلي. أقترح أن تهبط وتعزف لهم مقطوعة أو اثنتين لتلطيف الجو أولًا، ثم تبدأ الضغط. اعرض على المؤهَّلين منهم مناصب قيادية، وعلى الجميع زيادة في الأجر بنسبة عشرين بالمئة على ما كانوا يتقاضونه من الهراكنة».

- «عشرون بالمئة فحسب يا مولاي؟ لقد اطلعت على جداول الأجر التي يدفعها الهراكنة. هؤلاء الرجال جيوبهم ممتلئة بمكافأة نهاية الخدمة، وفي قلوبهم نزعة وشهوة للسفر والتجوال، لا أظن أن عشرين بالمئة ستكون حافزًا كافيًا لإقناعهم بالبقاء يا سيِّدي».

قال ليتو بنفاد صبر: «تصرَّف وفقًا لما تراه مناسبًا مع بعض الحالات. فقط تذكر أن الخزانة لها قعر، وتمسَّك بنسبة العشرين بالمئة قدر استطاعتك. نحتاج إلى عرَّافي الطقس وسائقي مركبات الاسپايس ورجال الكُتبان خصوصًا، ممَّن لديهم خبرة ميدانية في الصَّحراء».

- «فهمت يا سيدي. "وسياتون جميعاً للبطش، برؤوسٍ مرفوعة
 هي شموخ كالرياح، وسيجمعون سبياً كالرمال" (١)».

قال الدوق: «اقتباس مؤثر في محلّه. اترك فريقك تحت قيادة
 أحد الضباط، واطلب منه أن يعطيهم تدريباً قصيراً على انضباط
 الماء، ثم بيّت الرجال الليلة في التكنات المجاورة للساحة.
 سيرشدكم إليها عمّال المهبط. ولا تنس رجال حوَّاط».

- «ثلاثمئة من أفضل رجالي يا مولاي»، قالها هاليك ثم التقط
 حقيبته الفضائية وأردف متسائلاً: «أين أجذك لأقدم تقريري
 إليك عند الانتهاء من مهامى؟»

- «أتخذت قاعة الاجتماعات في الطابق العلوي من البرج
 مقرّاً لي. سنعقد اجتماعاتنا هناك. أريد وضع خطة انتشار
 كوكبية جديدة تتقدّمها الفرق المدرّعة».

همّ هاليك بالمغادرة لكنه توقّف فجأة، وحدّق إلى ليتو: «هل
 تتوقّع مثل هذا النوع من القلاقل يا مولاي؟ ظننت أن قاضي
 الفترة الانتقالية يشرف على الأمور».

قال الدوق: «أتوقّع حرباً مفتوحة وأخرى سرّية. دماء كثيرة
 ستراق هنا قبل أن يستقر لنا الحكم».

قال هاليك مستشهداً: «فيصير الماء الذي تأخذه من النهر
 دماً على اليابسة» (٢).

تهدّد الدوق وقال: «سارع بالعودة يا جبرني».

قال: «سمعاً وطاعة يا سيدي»، وتموّجت ندبة السوط مع
 ابتسامته وهو يضيف: «أشهدوا، ها أنا كالحمار البرّي في

(١) اقتباس من سفر حبقوق، الإصحاح الأوّل، آية ٩ (بتصرّف).

(٢) اقتباس من سفر الخروج، الإصحاح الرابع، آية ٩.

الصَّحراء، أخرج إلى عملي⁽¹⁾، ثم استدار وأسرع إلى مركز الغرفة حيث يتجمّع الرجال، وتوقّف ليعطي أوامره، ثم اخترق صفوفهم مفادراً.

هزّ ليتو رأسه في إعزاز. إن هاليك لدهشة مُستمرةٌ تمشي على قدمين. رأسه مملوء بالأغنيات والاقتباسات والعبارات المنمّقة، وقلبه قلب قاتل حين يتعلّق الأمر بالهراكنة. في النهاية، سار ليتو إلى المصعد بتؤدة وهو يردّ تحيّات الجنود بحركة عابرة من يده. ثم تعرّف على جندي الشؤون المعنوية وتوقّف ليعطيه رسالة ليمرّها إلى الرجال بالطرق المعتادة: فمنهم من أحضروا نساءهم معهم ويريدون التأكّد من سلامتهم وسهولة الوصول إليهن، أما الآخرون فسيُسروُن لمعرفة أن عدد النساء هنا أكثر من الرجال.

رَبّت الدوق على كتف رجل الشؤون المعنوية، في إشارة إلى أن للرسالة أولوية قصوى ويجب تمريرها على الفور، ثم واصل طريقه عابراً الغرفة وهو يُومئ ويبتسم ويتبادل المزاح مع الرجال. فكّر الدوق: على القائد أن يبدو واثقاً دائماً. يضع الجنود كل ثقتهم في قائدهم في الوقت الذي تملأ قلبه الشكوك ولا يُظهر منها شيئاً.

تنفس ليتو الصعداء عندما ابتلعه المصعد، واستدار ليواجه بوأبته غير المبالية التي لا تثقله بشيء.

لقد حاولوا قتل ابني!

(1) اقتباس من سفر أيوب، الإصحاح الرابع والعشرون، آية 5 (بتصرّف).

فوق مدخل ميناء أراكين الفضائي عبارة منقوشة بخط خشن، كأنها حُفرت بأداة رديئة. على مدار حياته، اقتبس المؤدّب هذه العبارة مرّات عدّة، وقد رآها للمرّة الأولى في أوّل ليلة له على أراكس، بعدما استُدعي إلى مقرّ قيادة الدوقية للمشاركة في أوّل اجتماع عقده والده لضباط أركان مجلسه العسكري. الكلمات المنقوشة كانت رجاءً موجّهاً لمن يغادر أراكس، لكن كان لها وقعاً كئيباً في نفس الصبيّ الذي نجا لتوّه من الموت. تقول العبارة: «يا من لمست قدر معانقتنا هنا، لا تنسانا من صالح دعائك».

من كتاب «دليل المؤدّب» للأميرة إيrolan.

قال الدوق: «إن فكرة الحرب برمتها مخاطرة محسوبة. لكن عندما يُحدّق الخطر بأسرتك، لا يعود للحسابات أهميّة أمام الاعتبارات الأخرى».

كان يعلم أنه لا يسيطر على غضبة كما ينبغي له، فاستدار، راح يذرع طاولة الاجتماعات الطويلة ذهاباً وإياباً.

كان الدوق وپول وحدهما في غرفة اجتماعات الميناء الفضائي. كانت الغرفة خالية إلا من طاولةٍ طويلة، تحيط بها مقاعد قديمة الطراز بثلاث أرجل، وخريطة لوحية، ومسلاط ضوئي في أحد الأركان. جلس پول إلى الطاولة بالقرب من الخريطة. كان قد أخبر والده بتفاصيل حادثة الصيّادة المتعقّبة، وقال له إن التهديد مصدره خائن بين صفوفهم.

توقّف الدوق في مقابلة پول، وضرب الطاولة بقبضته قائلاً:
«حوّاط أخبرني أن المنزل آمن!».

تكلم پول بتردد: «كنت غاضباً مثلك.. في البداية، وألقيت اللوم على حوّاط. لكن التهديد جاء من خارج المنزل، وكان بسيطاً وذكياً ومباشراً، وكان سينجح لولا التدريب الذي تلقّيته على يدك وعلى أيدي آخرين كثر.. منهم حوّاط».

سأله الدوق مستهجناً: «أدافع عنه؟».

- «أجل».

- «إنه يشيخ. هذا يكفي، عليه أن...».

قال پول: «إنه حكيم ولديه خبرة طويلة. كم خطأ تتذكّر لحوّاط؟»

قال الدوق: «أنا الذي يجب أن أدافع عنه، لا أنت».

ابتسم پول.

جلس ليتو إلى رأس الطاولة، ووضع يده فوق يد ابنه وقال:
«لقد.. نضجت مؤخراً يا بُني»، ثم رفع يده: «وهذا يسعدني». ثم رسم ابتسامة مماثلة لابتسامة پول: «حوّاط سيعاقب نفسه بنفسه على هذا الأمر. سيصيب من الغضب على نفسه ما يفوق أيّ غضبٍ قد يصبّه كلانا عليه».

نظر پول إلى النوافذ المعتمة وراء الخريطة اللوحية، وحملق في سواد الليل. انعكست أضواء الغرفة على درابزين الشرفة في الخارج، ولاحظ حركة هناك، ثم أدرك أنه أحد الحراس في زيّ آل آترديدز الرسمي. أعاد پول بصره إلى الجدار الأبيض خلف أبيه، ثم خفضه راقماً سطح الطاولة اللامع، ومنه إلى يديه المضمومتين في قبضتين عليه.

انفتح الباب المقابل للدوق بقوة، ودخل منه حوَّاط، وقد بدت عليه علامات السن والإجهاد أكثر من أي وقت مضى. أسرع المِنتات الخُطى بطول الطاولة، وتوقَّف في وضع انتباه أمام ليتو. قال حوَّاط وهو ينظر إلى نقطة فوق رأس ليتو: «مولاي، علمت لتوِّي أنني خذلتك، وصار من الضروري الآن أن أقدم استقفا...». قاطعه الدوق وهو يشير إلى المقعد المقابل لپول: «اجلس وكفَّ عن تصرُّفات الحمقى. إذا كنت ارتكبت خطأً، فهو المبالغة في تقدير ذكاء الهراكنة. لم تتفقَّ عقولهم البدائية إلا على حيلة بدائية، ونحن لم نضع في حسابنا الحيل البدائية. لقد بذل ابني جهداً كبيراً لإقناعي أن نجاته من هذا الموقف تعود بنسبة كبيرة إلى التدريب الذي تلقَّاه على يديك، وفي هذا أنت لم تخزني!». أنهى الدوق كلامه وخبط على المقعد الخالي مكرِّراً: «قلت لك اجلس!».

غاص حوَّاط في المقعد: «لكن...».

قال الدوق: «لا أريد سماع المزيد. لقد مرَّ الحادث على خير، ولدينا الآن أعمال أهم. أين البقية؟».

- «طلبت منهم الانتظار في الخارج لحين...».

- «استدعيهم».

نظر حوَّاط في عيني ليتو وقال: «سيدي أنا...».

قال الدوق: «أعرف من هم أصدقائي الحقيقيون يا ظفير. استدع الرجال».

ابتلع حوَّاط ريقه وقال: «في الحال يا مولاي»، ثم استدار بالمقعد، ونادى باتِّجاه الباب المفتوح: «جيرني، أدخلهم». قاد هاليك طابور الرجال إلى الغرفة. كانت الجديَّة بادية في ملامح

ضَبَّاط الأركان الصارمة، بينما انتشرت حالة من الحماس بين
المساعدين والخبراء الأصغر. تعالت أصوات جر المقاعد في
الغرفة في أثناء ما كان الرجال يجلسون، وانبعثت من الطاولة
رائحة خافتة لمادة الرأشاج المُنْبَهة.

قال الدوق: «تُوجد قهوة لمن يريدُها».

ثم أمعن في رجاله مفكراً: إنه فريقٌ جيّد. يمكن للمرء أن
يرضى بأقل من ذلك بكثير في هذا النوع من الحروب. انتظر
ليتو ريثما تُجلب القهوة من الغرفة المجاورة وتُقدّم، ولاحظ التعب
البادي على بعض الوجوه. في النهاية، وضع قناع الحزم الهادئ
على وجهه، ونهض لافتاً انتباههم بنقرة من إصبعه على الطاولة.
قال: «حسناً أيّها السّادة، يبدو أن حضارتنا قد سقطت في بئر
التناحر إلى درجة لا نستطيع معها تنفيذ أمرٍ إمبراطوريّ بسيط
من دون أن تطفو إلى السطح العادات القديمة».

ضجّت الطاولة بقهقهات جافة، فأدرك پول أن والده قال
العبارة المناسبة تماماً بالنبرة المناسبة تماماً لرفع الروح المعنوية
وتحسين المزاج العام. حتّى نبرة الإرهاق في صوته كانت مناسبة.
قال الدوق: «أرى أنه من الأفضل في البداية أن نعرف من ظفير
إن كان لديه أيُّ شيء يضيفه إلى تقريره عن الفرمن. ظفير؟».

رفع حوَّاط بصره عن الأوراق وقال: «أريد التحدّث بالتفصيل عن
بعض المسائل الاقتصادية بعد تقديم تقريرِي العام يا سيّدي، لكن
بإمكاني القول الآن إن الفرمن هم بالفعل الحلفاء الذين نحتاج إليهم.
إنهم يراقبون تصرفاتنا في الوقت الحالي ليعرفوا ما إن كان بإمكانهم
الوثوق بنا، لكنهم يتعاملون معنا بانفتاح وصراحة. لقد أرسلوا لنا
هدية: مجموعة من بذلات التقطير التي يصنعونها، وخرائط لبعض

المناطق الصحراوية المحيطة بالنقاط الحصينة التي تركها الهراكنة»، ثم ألقى نظرة إلى التقرير وأردف: «ساعدتنا تقاريرهم الاستخبارية بصورة ملحوظة في تعاملنا مع قاضي الفترة الانتقالية، وثبت أنه يمكن الاعتماد عليها تمامًا. بالإضافة إلى أنهم أرسلوا إلينا أيضًا بعض الأغراض الثانوية الأخرى: جواهر لليدي جيسيك، وخمر ممزوج بالاسپايس، وبعض الحلوى، وإمدادات طبية. يكف رجالنا الآن على فحص أغراض كثيرة، ويبدو أن الأمر لا ينطوي على مكيدة من أي نوع». سأل رجل من طرف الطاولة الآخر: «أنت معجب بهؤلاء القوم، أليس كذلك يا ظفير؟».

أدار حواط وجهه للسائل وأجاب: «دانكن آيداهو يقول إنهم جديرون بالإعجاب».

ألقى پول نظرة سريعة إلى والده، ثم عاد ببصره إلى حواط، وغامر بطرح سؤال: «هل حصلت على أي معلومات جديدة عن أعداد الضرمين؟».

نظر حواط إلى پول وقال: «استنادًا إلى كمّيات الطعام المستهلك وبعض الأدلة الأخرى، يقدّر آيداهو أن المجمّع الكهفي الذي زاره يأوي نحو عشرة آلاف شخص في المجمل. يقول قائدهم إنه يحكم سييتشًا يضم ألفي مجمرة فحم. لدينا أسباب تجعلنا نعتقد بوجود عدد كبير جدًا من هذه المجتمعات، وجميعها تدين بالولاء لشخص يُدعى لبيّت».

قال ليتو: «هذه معلومة جديدة».

- «قد يكون هذا خطأ مني يا مولاي، فثمّة ما يُشير إلى أن لبيّت هذا إلهٌ محليٌ يعبّدونه».

تحنّج رجلٌ آخر عبر الطاولة وسأل: «أصبح أنهم يتعاملون مع المهريين؟».

- «في أثناء وجود آيداهو هناك، غادرت قافلة مهرّبين تحمل حمولةً كبيرةً من الاسپايس من السييتش. كان معهم قطيع دواب يستخدمونه في نقل الحمولة، وأشاروا إلى أنهم بصدد رحلة تستغرق ثمانية عشر يومًا».

قال الدوق: «من الواضح أن المهرّبين استغلّوا فترة الاضطرابات الجارية وضاعفوا عدد عملياتهم، وهذا أمر يستلزم منا المراقبة بعناية. لا ينبغي لنا أن نقلق أكثر من اللازم بشأن الفرقاطات غير المرخّصة التي تعمل خارج الكوكب، فهذا يحدث دائمًا، لكن يجب ألا نجعلهم خارج نطاق مراقبتنا بالكامل، فهذا ليس في صالحنا». سأله حوّاط: «أليّك خطة يا سيّدي؟».

نظر الدوق إلى هاليك وقال: «جيرني، أريدك أن تترأس وفدًا، هيئةً من الممثلين الدبلوماسيين إن جاز التعبير، وتذهب للقاء رجال الأعمال العالميين هؤلاء. أخبرهم أنني سأغض الطرف عن عملياتهم ما داموا سيدفعون ضريبة العُشر للدوقية. تقرير حوّاط يقول إن الرُشى التي يدفعونها لإتمام عملياتهم، والمرتزقة الذين يستأجرونهم لحمايتها، تكلفهم أربعة أضعاف هذا المبلغ». سأل هاليك: «ماذا لو شَمَّ الإمبراطور خبرًا بالأمر؟ إنه شديد الحرص على أرباحه من تشوم يا سيّدي».

ابتسم ليتو وقال: «سنجمع ضريبة العُشر باسم شادام الرابع، وسنخصم قيمتها قانونيًا من تكلفة الجباية التي ندفعها له، وسلّم لي وقتها على الهراكنة! بهذا سننقضي على مزيد من الأثرياء المحليين الفاسدين الذين امتلأت بطونهم بالسُّحت في ظلّ نظام الهراكنة. لا مزيد من الكسب غير المشروع!».

تلاعبت ابتسامة على ثغر هاليك وقال: «ضربة موفقة تحت الحزام يا مولاي. كم أود أن أرى وجه البارون حين يعلم بالأمر». التفت الدوق إلى حواط وقال: «ظفير، هل حصلت على دفاتر الحسابات التي قلت إن بإمكانك شراؤها؟».

- «أجل يا مولاي. إنها تُراجع بدقّة الآن، لكنني تصفّحتها سريعاً، وأستطيع تقديم تقدير مبدئي عنها».

- «هات ما عندك».

- «أرباح الهراكنة من هذا الكوكب تصل إلى 10 مليارات سولاري كل 330 يوماً قياسياً».

فغرت الأفواه في صمت حول الطاولة. حتّى المساعدون الشباب الذين كانوا قد بدؤوا يشعرون ببعض الملل اعتدلوا في جلساتهم وتبادلوا نظراتٍ مشدوهة.

تمتم هاليك: «وسيسخرجون خيرات البحار والكنوز المظمورة في الرمال»⁽¹⁾.

قال ليتو: «كما ترون يا سادة، هل بينكم ساذج ما زال يظن أن الهراكنة حزموا أمتعتهم ورحلوا بهدوء فقط لأن الإمبراطور أمر بذلك؟». اهتزت معظم الرؤوس نافيةً، وسرت الهمهمات تصدّق على كلامه.

قال ليتو: «سنضطر إلى استلاب المفانم بحدّ السيف»، ثم التفت إلى حواط قائلاً: «وأرى أن هذا مدخلٌ جيّد للاستماع إلى تقريرك عن المعدات. أخبرنا كم زخّافة رمال وحصّادة عملاقة ومصنّع اسپایس ومعدّة دعم تركوا لنا؟».

(1) سفر التشية، الإصحاح الثالث والثلاثون، آية 19 (بتصرّف)

قال حوَّاط: «تركوا خلفهم عتادًا كاملاً، كما ورد في قوائم الجرد الإمبراطورية التي راجعها قاضي الفترة الانتقالية يا مولاي»، ثم أشار إلى أحد المساعدين كي يمرر له ملفًا، وفتح الملف على الطاولة أمامه، وبدأ يقول: «لكن القوائم لم تذكر أن عدد الزخافات القابلة للتشغيل أقل من النصف، وأن ثلثها تقريبًا فقط لها حاملات جوّية لنقلها إلى مواقع الاسبايس في الصَّحراء، وأن كل ما تركه لنا الهراكنة خردة على وشك التعطل والتفكك. سنكون محظوظين إن نجحنا في تشغيل نصف المعدات، وسنكون أكثر حظًا إن ظل ربعها يعمل بعد ستة أشهر من الآن».

قال لينو: «كما توقَّعنا. ما الإحصاء الدقيق للمعدات الأساسية؟».

راجع حوَّاط ملفه وقال: «نحو 930 مصنع حصد جاهز للإرسال إلى العمل في غضون أيام، ونحو 6250 طائرة أورنيثوبتر استطلاعية لعمليات المسح والمراقبة الجوّية، أما الحاملات الجوّية فأقل قليلًا من الألف».

تساءل هاليك: «ألن يكون من الأرخص استئثاف المفاوضات مع النقابة للحصول على تصريح بوضع فرقطة في مدار حول الكوكب واستخدامها قمرًا صناعيًا لرصد الطقس؟».

نظر الدوق إلى حوَّاط: «هل من جديد بهذا الشأن يا ظفير؟».

قال حوَّاط: «علينا أن نلجأ إلى طرائق أخرى في الوقت الحالي. وكيل النقابة لم يكن يجري معنا مفاوضات حقيقية، بل كان يوضح لي فحسب -من منتجات إلى آخر- أن السُّعر المطلوب بعيد عن متناول أيدينا، وأنه سيظل كذلك بغض

النظر عن العرض الذي سنقدمه. علينا أن نعرف السبب وراء ذلك قبل أن نفتح مجددًا في الأمر».

استدار أحد مساعدي هاليك الجالسين عند طرف الطاولة بمقعده وصاح: «لا عدالة في هذا».

نظر الدوق إلى الرجل وقال: «عدالة؟ ومن طلب العدالة؟ نحن نصنع عدالتنا بأيدينا هنا على أراكس، وإما أن نريح وإما أن نموت. هل أنت نادم على انضمامك إلى صفوفنا يا سيدي؟». رمق الرجل الدوق هنيهة، ثم قال: «لا يا سيدي. أينما تولي وجهك سأتبعك. اغفر لي انفعالي، لكن...»، وهز كتفيه: «... تمر علينا جميعًا أوقات نشعر فيها بالمرارة».

قال الدوق: «أفهم المرارة، لكن دعنا لا نلعن العدالة ما دمنا نمتلك الأسلحة وحرية استخدامهما. هل يكتُم أيُّ من بقيتكم مرارة في صدره؟ إن كان الأمر كذلك، فنفضوا عنها. هذا اجتماع ودِّي يمكن لأيِّ رجل فيه أن يقول رأيه بأريحية». تلمل هاليك في جلسته وقال: «أظن أن ما يقض مضجعي يا سيدي هو عدم وجود متطوعين من العائلات الكبيرة الأخرى معنا. إنهم يلقَّبونك بـ"ليتو العادل" ويتعهدون بصداقة أبدية ما دامت لا تكلفهم شيئًا في المقابل».

قال الدوق: «إنهم لا يعرفون بعد من سيفوز بهذه الحرب. معظم العائلات كوَّنت ثرواتها بتجنُّب المجازفات قدر الإمكان، ولا يمكن للمرء أن يلومهم على هذا، لكن يمكنه احتقارهم». ثم نظر إلى حوَّاط وعاد إلى الموضوع: «كنا نتحدَّث عن المعدادات. هلاً تعرض بعض الأمثلة لتعريف الرجال بهذه الآلات؟».

أوماً حوَّاط وأشار إلى أحد المساعدين ليشغل المسلات. ظهر مجسَّم سوليدو ثلاثي الأبعاد على سطح الطاولة يبعد

عن الدوق نحو ثلث المسافة من المسلاط. قام بعض الرجال
الأبعد من مقاعدهم لإلقاء نظرة أوضح على المجسم.
مال پول إلى الأمام، محدقًا إلى الآلة. بالمقارنة بالنماذج
البشرية الضئيلة المعروضة إلى جوارها، كان طول الآلة نحو مئة
وعشرين مترًا وعرضها نحو أربعين مترًا. كان هيكلها طويلًا يشبه
الحشرات بشكل عام، وتتحرك على زوجين من الجنازير العريضة
المستقلة.

قال حواط: «هذه حصادة عملاقة. اخترنا واحدة في حالة
جيّدة لنعرضها عليكم، لكن تُوجد واحدة أخرى من طراز قديم
لها جرّار جاءت مع الرعيل الأوّل من علماء البيئة الإمبراطوريين
وما زالت تعمل حتّى الآن، وإن كنت لا أعلم كيف أو السبب في
ذلك».

قال أحد الضبّاط المعاوين: «إن كنت تقصد "ماريا العجوز"،
فهذه مكانها في متحف. أظن أن الهراكنة أبقوا عليها كنوع من
العقاب بالعمل، كتهديد مسلّط على أعناق عمّالهم. كن مطيعًا وإلاّ
ستُحال للعمل مع طاقم "ماريا العجوز"».

ضجّت الطاولة بالضحك.

لم ينخرط پول في نوبة الضحك، وركّز اهتمامه على المجسم
وعلى السؤال الذي شغل عقله. أشار بإصبعه إلى الصورة ثلاثية
الأبعاد المعلّقة فوق الطاولة، وقال: «ظفير، أتوجد ديدان رملية
كبيرة بما يكفي لابتلاع هذه الآلة؟».

هبط صمّت مفاجئ على الطاولة، وهمس الدوق بسبّة من
تحت أسنانه، ثم فكّر: كلاً، عليهم مواجهة الحقائق هنا.

قال حوَّاط: «تعيش في أعماق الصَّحراء ديدان قادرة على ابتلاع هذا المصنع دفعة واحدة، أمَّا هنا بالقرب من الجدار الحامي -حيث تُجرى أغلب عمليات استخراج الاسپايس- فتعيش ديدان كثيرة قادرة على إخراج هذا المصنع من الخدمة، والتهامه على مهل».

سأل پول: «لم لا نحيط الآلات بدروع طاقة؟».

قال حوَّاط: «وفقًا لتقرير آيداهو، فإن استخدام الدروع في الصَّحراء عملٌ محفوف بالمخاطر. تفعيل الدرع البشري العادي يجتذب كل الديدان الموجودة على بُعد مئات الأمتار. يبدو أن طاقة الدروع تثير فيها هياجًا، وتدخلها في نوبة افتراسٍ مسموم. عرفنا هذا من الضرمين، ولا نرى ما يدعو للشك في ذلك. لم يرَ آيداهو أي دليل على وجود دروع في السييتش».

سأل پول: «لا شيء بتاتًا؟».

قال حوَّاط: «سيكون من الصعب جدًّا إخفاء هذا النوع من الأشياء بين عدَّة آلاف من الأشخاص. يتمتَّع آيداهو بصلاحيات تجوُّل في أرجاء السييتش جميعها، وهو لم يرَ أي دروع أو مؤشرات على استخدامها».

قال الدوق: «هذا أمرٌ محير».

قال حوَّاط: «لا شك أن الهراكنة استخدموا الكثير من الدروع هنا، ففي كل قرية من قرى الحاميات مستودعات تصليح تابعة لهم، كما تظهر في دفاترهم بنود إنفاق باهظة على قطع غيار الدروع».

سأل پول: «هل يمكن أن يكون لدى الضرمين طريقة ما لإبطال

عمل الدروع؟».

قال حوّاط: «احتمال ضعيف. صحيح أن هذا ممكن نظريًا، فمن المفترض أن تعريض الدرع لطاقة كهربائية هائلة -تعاذل استهلاك مقاطعة برمتها- سينجح في تعطيله، لكن أحدًا لم يجرب فعل ذلك من قبل».

قال هاليك: «كنا سنسمع بهذا الأمر، فالمهريون على علاقة وثيقة بالفرمن، وكانوا سيحصلون على مثل هذا الجهاز إن كان متاحًا، وهؤلاء ما كانوا سيمانعون تسويقه خارج الكوكب».

قال ليتو: «لا أحب أن يترك سؤال بهذه الأهمية دون إجابة. ظفیر، أريدك أن تعطي أولوية قصوى لبحث هذه المسألة».

- «نعمل على ذلك بالفعل يا سيدي»، ثم تتحنن قائلاً: «آه، في الحقيقة أيداهو ذكر أمرًا، قال إن المرء لا يمكن أن يخطئ موقف الفرمن من دروع الطاقة، قال إنهم يجدونها مسلية غالبًا».

قطب الدوق جبينه، ثم قال: «لنعد إلى ما كنّا ننقاشه، معدات التتقيب عن الاسپایس».

أشار حوّاط لمساعدته بالانتقال إلى الصورة التالية. اختفى مجسم مصنع الحصد وحلّ محله مجسم آخر يعرض آلة مجنحة تقرّم إلى جوارها مجسمات الأفراد المحيطين بها. قال حوّاط: «هذه حاملة جوية. إنها في الأساس ثوبتر كبيرة الحجم، ووظيفتها الوحيدة توصيل المصنع إلى الميدان وإنزاله فوق الرمال الغنية بالاسپایس، ثم انتشال المصنع عندما تظهر إحدى الديدان، وهي تظهر دائمًا. عملية حصد الاسپایس يمكن تلخيصها كالآتي: إنزال سريع، ثم مفادرة بأكبر كمّ ممكن من الاسپایس».

قال الدوق: «ولهذا هي متماشية تمامًا مع أخلاق الهراكنة».

ضجّت الغرفة بضحك مفاجئ وصاخب جدًا.

حلَّ مجسَّم أورنيثوبتر محل نموذج الحاملة الجويّة في بؤرة الإسقاط.

قال حوَّاط: «هذا هو الطراز الشائع من الثوبترات، لكن أحياناً يُضاف إليها تعديلات مختلفة لمنحها نطاق طيران أوسع. تُبدل عناية كبيرة في عزل أجزاء الثوبترات الحسّاسة لحمايتها من الرمال والغبار، لكن واحدة فقط من كل ثلاثين تكون مزوَّدة بدرع طاقة، والتخلُّص من مولِّدات طاقة الدروع يكون غالباً لتخفيف الوزن لتحقيق نطاق طيران أوسع».

تمتم الدوق: «لا أرتاح إلى غياب التركيز على الدروع هذا»، وفكَّر: «أهذا هو سرُّ الهراكنة؟ أيّني هذا أننا لن نتمكّن من الهروب على متن فرقاطات محمّية بدروع إذا انقلب كل شيء ضدّنا؟ هزّ ليتو رأسه بحدّة لينفض عنه هذه الأفكار، ثم قال: «لننتقل إلى التقديرات العملية. ما حجم الأرباح المتوقّعة؟».

قلب حوَّاط ورقّتين في مفكّرتِه وقال: «بعد تقييم الإصلاحات والمعدّات القابلة للتشغيل، توصّلنا إلى تقدير أوّلي لتكاليف التشغيل، مع الأخذ في الاعتبار العمر الإنتاجي وقيمة إهلاك الأصول، للحفاظ على هامش أمانٍ مُرضٍ»، ثم أغلق العِنتات عينيه في إغشاء جزئية، وبدأ يحسب: «في ظلّ حكومة الهراكنة، بلغت تكاليف الصيانة والأجور 14 بالمئة من إجمالي الدخل. سنكون محظوظين لو استطعنا جعلها 30 بالمئة في البداية. ومع مراعاة عاملي إعادة الاستثمار والنمو، بالإضافة إلى التكاليف العسكرية والنسبة التي ستأخذها شركة تشوم، سيهبط هامش ربحنا إلى 6 أو 7 بالمئة، إلى أن نتمكّن من استبدال المعدّات المستهلكة. بعد ذلك يُفترض أننا سنكون قادرين على رفعه إلى معدّله الطبيعي، أي

إلى نحو 12 أو 15 بالمئة». أنهى حوَّاط كلامه ثم فتح عينيه وقال:
«إلا إن كان مولاي يرغب في تبني أساليب الهراكنة».

قال الدوق: «نحن نهدف إلى إنشاء قاعدة كوكبية وطيدة ودائمة،
علينا أن نضمن سعادة نسبة كبيرة من السَّكَّان، وبالذَّات الفرمن». وافقه حوَّاط: «وبذات الذَّات الفرمن».

قال الدوق: «تفوقنا على كلادان اعتمد على القوَّة البحرية والجوية، أمَّا هنا فعلينا أن نطوِّر سلاحًا أحب أن أُسمِّيه: قوَّة الصَّحراء. قد يشمل هذا السلاح القوَّة الجوية، وقد لا يشملها. أود أن أذكركم بافتقار الثوبترات إلى دروع الطاقة»، ثم هزَّ رأسه قبل أن يضيف: «اعتمد الهراكنة على معدَّل تدويرٍ وظيفيٍّ مرتفع، وما انفكوا عن استقطاب أفرادٍ جدد من كواكب أخرى لاستبدال موظَّفيهم الرئيسيين. لكننا لن نجرؤ على فعل ذلك، ففي كل دفعة موظَّفين جدد سيندسُّ لنا عملاء محرَّضون».

قال حوَّاط: «علينا إذا أن نرضى بأرباح أقل بكثير وبمحصول أقل. سيقل إنتاجنا في الموسمين الأوَّلين بمقادير ثلث عن متوسط إنتاج الهراكنة».

قال الدوق: «لا جديد تحت الشمس، كما توقَّعنا بالضبط. علينا أن نوطد علاقتنا بالفرمن سريعًا. أريد أن يكون لدينا خمس كتائب جنود من الفرمن قبل موعد أوَّل مراجعة مالية لدفاترنا ستجريها شركة تشوم».

قال حوَّاط: «لكنها ليست مهلة زمنية كافية يا سيدي».
- «كما تعلم، ليس أمامنا متَّسعٌ من الوقت، ففي أوَّل فرصة سيباغتوننا بصحبة قوَّات من السَّاردوكار متتكرِّين في زِيِّ الهراكنة. ما تقديرك لعدد الجنود الذين سيشحنونهم إلى هنا يا ظفير؟».

- «أربع أو خمس كتائب في المِجمل يا سيدي، ليس أكثر من ذلك، فرسوم نقل الجنود التي تحصّلها النقابة باهظة».

- «إذا خمس كتائب من الفرمن بالإضافة إلى قوّاتنا ستكون كافية. إذا نجحنا في أسر بعض من قوّات السّاردوكار وعرضهم أمام مجلس اللاندسراد ستختلف الأمور جذريًا، سواء حقّقنا أرباحًا أم لم نحقّق».

- «سنبذل قصارى جهدنا يا سيدي».

نقل پول بصره بين أبيه وحواط، واتّضح له فجأة كم صار المِنَيات طاعنًا في السنّ، وكيف أن هذا الشيخ الهرم قد خدم ثلاثة أجيال من آل آترديدز. إنه في أرذل العمر. تبدّى له ذلك من بريق عينيه البُنَيّتين الغائمتين، ومن وجنتيه المِجْعَدَتَيْن التي لفحتها شمسٌ غريبة، ومن انحناءة كتفيه المستديرة، ومن شفّتيه الرفيعتين اللتين أورثهما شراب السافو بقعًا بلون التوت.

فكّر پول: أمورٌ كثيرة مرهونة برجلٍ واحد في أرذل العمر.

قال الدوق: «نحن الآن في منتصف حرب اغتيالات، لكنها لم تبلغ ذروتها بعد. ظفّير، ما آخر مستجدّات الوضع مع شبكة الهراكنة؟».

- «قضينا على مئتين وتسعة وخمسين من أهم رجالهم يا مولاي. لم يبق إلا ثلاث خلايا تابعة لهم، ولا أظن أن عدد أفرادها يزيد على مئة شخص في المِجمل».

قال الدوق: «ما قضيت عليهم من طُفيلِيّات الهراكنة، أكانوا من أصحاب ثروات؟».

- «أغلبهم كانوا ميسوري الحال يا مولاي، من طبقة رجال الأعمال».

قال الدوق: «أريدك أن تزوّر بيانات مُبايعة مهورة بتوقعات كل واحد منهم، وأرسل نسخًا منها إلى قاضي الفترة الانتقالية».

سندّعي أنهم خانوا العهد وسنأخذ الإجراءات القانونية ضدّهم. صادر ممتلكاتهم، واسلب أموالهم، وشرّد عائلاتهم، وجردّهم من كل شيء. واحرص على إرسال نسبة العشرة بالمئة إلى التاج الإمبراطوري. كل شيء يجب أن يكون قانونيًا».

ابتسم ظفير فكشف عن أسنان مُبَقَّعة ببقع حمراء خلف شفّتيه القرمزيّتين: «حركة تليق بجدّك يا مولاي. يُخجلني أنني لم أفكر فيها قبلك».

من مكانه عند طرف الطاولة لاحظ هاليك العبوس العميق البادي على وجه پول فقطب حاجبيه، أما الآخرون فكانوا يتسّمون ويهزّون رؤوسهم في تأييد.

فكّر پول: هذا قرارٌ يجانبه الصواب، وسيجعل الآخرين يقاتلون بقوة أكبر لأنه لن يكون لديهم ما يكسبونه باستسلامهم.

كان يعلم أن كل شيءٍ مباح وفقاً لأعراف ثار الكانلي، لكن مثل هذه الخطوة قد تهلكهم حتّى لو جلبت النصر إليهم.

قال هاليك مقتبساً: «لقد كنت غريباً في أرض غريبة».

رمقه پول بإمعان وقد تعرّف على الاقتباس من الإنجيل الكاثوليكي البرتغالي، وتساءل: هل يأمل جيرني كذلك في إنهاء المؤامرات المخادعة؟

لمح الدوق الظلام في الخارج، ثم عاد ينظر إلى هاليك: «جيرني، كم من عمّال الرمال أقتعت بالبقاء معنا؟».

- «مئتان وثمانية وستون رجلاً يا سيّدي. أظن أن علينا أن نرضى بهم ونعتبر أنفسنا محظوظين، فكلّهم يعملون في تخصّصات مفيدة».

«فقط؟»، ثم زَمَّ الدوق شفّتيه وقال: «حسنًا، أذع خبرًا إلى...».

قاطعته جلبه آتية من عند الباب، فرفع بصره ورأى دانكن آيداهو يتجاوز الحارسين الواقفين هناك، ويسرع الخطى بامتداد الطاولة، ثم ينحنى على أذنه. أشار له ليتو بالاعتدال وقال: «تكلم على الملأ يا دانكن، فكما ترى هذا اجتماع الفريق الاستراتيجي». تأمل پول آيداهو، ملاحظًا رشاقة القلطي في حركته، وردود أفعاله السريعة التي جعلته مُعلِّم سلاح تصعب محاكاته. استدار وجه آيداهو الأسمر المستدير نحو پول، ولم ير پول في العينين الفائرتين أثرَ ابتهاج لوجوده، لكن پول ميّز قناع الهدوء الذي يُخفي به حماسه العارمة.

أجال آيداهو النظر في الرجال الجالسين حول الطاولة، ثم قال: «قضينا على قوّة من مرتزقة الهراكنة متكرّرين في زيّ الفرمن. لقد أرسل لنا الفرمن أنفسهم ساعيًا يحذّرنا من المجموعة الزائفة، لكننا في أثناء الهجوم اكتشفنا أن الهراكنة نصبوا كمينًا لساعي الفرمن، وأنخنوه بجراح بالغة، وقد مات الرجل ونحن ننقله إلى هنا ليعالجه أطبّاؤنا. رأيت بنفسي مدى سوء حالة الرجل وتوقّفت لمساعدته قدر استطاعتي، لقد باغته في أثناء ما كان يحاول رمي شيء ما بعيدًا»، ثم نظر آيداهو إلى ليتو وأردف: «كانت سكينًا يا مولاي، سكينًا لم تر عيناك مثلها من قبل».

سأل أحد الرجال: «سكين عاجية؟».

قال آيداهو: «هي بلا شك، بيضاء كالحليب وتشع بنور من تلقاء نفسها»، ثم أدخل يده في غلالته وأخرج منها غمدًا يبرز منه مقبض أسود.

- «اترك هذا النصل في غمده!».

جاء الصَّوت الرُّنَّان النافذ من عند الباب المفتوح في نهاية الغرفة لاويًا جميع الأعناق إليه.

عند الباب، وقف رجلٌ طويل في ثوبٍ مُحكم، يمنعه من الدخول سيفًا الحارسين المشهران في وجهه. كان الثوب بُنيًا فاتحًا ويغطّي جسد الرجل بالكامل، باستثناء فتحة في غطاء الرأس، واللثام الأسود الذي تطل منه عينان زرقاوان بالكامل، لا أثر لبياض فيهما.

مكتبة

t.me/t_pdf

همس أيدهو لليتو: «دعه يدخل».

قال الدوق: «أدخل هذا الرجل».

تردّد الحارسان، ثم خفضا سيفيهما.

دخل الرجل الغرفة، ووقف قبالة الدوق.

قال أيدهو: «هذا ستيلجار، زعيم السييتش الذي زرته، وقائد الفرقة التي حذرتنا من المجموعة الزائفة».

قال ليتو: «مرحبًا بك يا سيّدي، ولم لا نخرج النصل من غمده؟».

رمق ستيلجار أيدهو وقال: «أنت قد اتّبعْتَ عادات الطهارة والشرف بين ظهرينا، ولهذا أسمح لك برؤية نصل الرجل الذي صادفته»، ثم أجال عينيه في الغرفة وأردف: «لكنني لا أعرف هؤلاء. أتريدهم أن يُدنّسوا سلاحًا شريفًا؟».

قال الدوق: «أنا الدوق ليتو. هل تسمح لي برؤية النصل؟».

قال ستيلجار: «سأسمح لك بنيل شرف إخراج النصل من غمده». تعالت همهمات الاحتجاج في الغرفة، فرفع الرجل يداً ناحلة ذات عروقي داكنة وأردف: «أذكركم بأن هذا نصل رجلٍ كان صديقًا لكم».

في صمت الانتظار، تفرّس بول في ملامح الرجل، مستشعرًا هالة السُلطة التي تشعُّ منه. كان زعيمًا بحق، زعيمًا فرمانيًا. تمتم رجلٌ يجلسُ قبالة بول في منتصف الطاولة: «من يكون هذا كي نخبرنا بحقوقنا على أراكس؟».

قال الرجل الفرمني: «يُقال إن الدوق ليتو آتريدز يستمد شرعية حُكمه من رضا رعاياه، لذا يجب أن تعلم تقاليدنا هنا: كل من يرى السكّين العاجية تقع مسؤولية معيّنة على عاتقه»، ورمى أيدها بنظرة قاتمة وأردف: «من يراه يصير مننا، ولا يحق له مغادرة أراكس من دون رضانا».

بدأ هاليك وبعض الرجال ينهضون من مقاعدهم وعلى وجوههم تعابير غضب، وقال هاليك: «الدوق ليتو هو من يُقرّر...».

قال ليتو بنبرة فيها من الحلم ما كبح جماحهم: «لحظة من فضلكم»، وفكّر: يجب ألا يخرج الوضع عن السيطرة. ثم وجّه كلامه إلى الفرمني: «سيدي، أنا أجل وأحترم كرامة أيّ رجلٍ يحترم كرامتي. إنني مدينٌ لك بالفعل، وأنا أسدّد ديني دائمًا. إن كانت تقاليدكم تُحتم أن تظل هذه السكّين مغمدة، فستظل مغمدة، بأمرٍ منّي. وإن كان في أعرافكم أيّ طريقةٍ أخرى نستطيع بها تكريم بها الرجل الذي مات في خدمتنا، فما عليك إلا أن تذكرها».

حدّق الفرمني إلى الدوق، ثم حسر لثامه عن وجهه، كاشفًا عن أنفٍ رفيع وفمٍ غليظ الشفتين تحيط به لحية سوداء لامعة، ثم انحنى فوق الطاولة، وبصق على سطحها المصقول.

هبّ الرجال واقفين في هياج، لكن صوت أيدها تردّد هادرًا في أنحاء الغرفة: «في أماكنكم!».

ثم قال وسط الصّمت المشحون المفاجئ الذي غشي الغرفة: «نشكرك يا ستيلجار على هديّة ماء جسدك، ونقبّلها عن طيب خاطر، بنفس النّيّة التي مُنحت بها»، وبصق آيداهو على الطاولة أمام الدوق.

ثم مال إلى الدوق وهمس له: «تذكّر يا سيّدي ندرة وقيمة الماء هنا. هذا تعبير عن الاحترام».

غاص ليتو في مقعده مجدّداً، والتقت عيناه بعيني پول، ولاحظ ابتسامة ابنه الشاحبة، وأحسّ بحدّة التوتر تنسحب مع استيعاب الرجال الأمر.

قال آيداهو: «إنه يطلب مني التطوُّع للعمل تحت إمرته يا سيّدي».

سأل ليتو: «هل يقبل أن تكون مُزدوج الولاء؟».

- «أتريدني أن أذهب معه يا سيّدي؟».

- «أريدك أن تتخذ قرارك بنفسك في هذا الشأن»، قالها ليتو

عاجزاً عن إخفاء نبرة الإلحاح في صوته.

تفرّس آيداهو في وجه الفرمني، ثم سأل: «هل تقبل بي تحت هذه الشروط يا ستيلجار؟ ستأتي أوقات يجب أن أعود فيها إلى خدمة دوقي».

قال ستيلجار: «أنت محارب بارع وقد فعلت ما في وسعك لإنقاذ صديقنا»، ثم نظر إلى ليتو: «ليكن الأمر كالآتي: هذا الرجل المسمّى آيداهو سيحتفظ بالسكّين العاجية التي يحملها كدلالة على ولائه لنا. لا بُدّ من تطهيره بالطبع، ومُراعاة الطقوس، لكن هذا أمرٌ يسير. سيكون فرداً من الفرمن وجنديّ آل آتريديز في الوقت نفسه. تُوجد سابقة مماثلة، فلييت يخدم سيّدين».

سأل ليتو: «دانكن؟».

قال آيداهو: «واع للأمر يا سيدي».

قال ليتو: «إذن اتفقنا».

قال ستيلجار: «ماؤك أصبح لنا يا دانكن آيداهو، أما جثمان صديقنا فسيبقى مع الدوق. ماؤه ملك آل آتريديز. هذا رباط بيننا».

تنهّد ليتو في ارتياح، والتقت عيناه بعيني المنتات العجوز. أوما حواط في رضا، وتهلّلت أساريره.

قال ستيلجار: «سأنتظر في الأسفل ريثما يودّع آيداهو أصدقاءه. كان اسم صديقنا الميت توروك. تذكّروا الاسم عندما يحين وقت تسريح روحه. أنتم أصدقاء توروك».

همّ ستيلجار بالاستدارة ليفادر.

سأله ليتو: «ألن تبقى معنا بعض الوقت؟».

استدار إليه الفرمني وهو يعيد اللثام إلى مكانه بحركة عابرة، ويضبط شيئاً ما أسفله. لمح پول ما يبدو كأنه أنبوب رفيع قبل أن يستقرّ اللثام على وجه الرجل.

سأل الفرمني: «هل من سبب يدعو للبقاء؟».

قال الدوق: «نطمع في شرف مجالستك».

قال الفرمني: «الشرف يستدعي أن أكون في مكان آخر الآن»، ثم ألقى نظرة أخرى إلى آيداهو، واستدار عابراً من بين حارسي الباب بخطوات واسعة.

قال ليتو: «لو أن باقي الفرمن مثله، سيخدم بعضنا بعضاً على الوجه الأمثل».

تكلّم آيداهو بصوتٍ جافٍ: «إنه عينة جيّدة يا سيدي».

- «هل تفهم طبيعة مهمّتك يا دانكن؟».

- «أنا سفيرك إلى فرمن يا سيدي».

- «الكثير يعتمد عليك يا دانكن. سنحتاج إلى خمس كتائب على الأقل من أولئك القوم قبل أن تباغتنا قوّات السّاردوكار». قال آيداهو: «سيتطلب ذلك بعض الجهد يا سيدي، فالفرمن قومٌ مستقلّون جدًّا»، وتردّد قليلاً قبل أن يضيف: «وهناك شيءٌ آخر يا سيدي. أحد المرتزقة الذين داهمناهم كان يحاول أخذ هذا النصل من صديقنا الفرمني الميّت، هذا المرتزق قال إن الهراكنة وضعوا مكافأة قدرها مليون سولاري لأيّ شخص سيحضّر سكيناً عاجية واحدة».

ارتفع ذقن ليتو إلى أعلى في حركة دهشة واضحة: «لماذا يريدون أحد هذه النصال بهذا القدر؟».

- «تُصنع هذه السكاكين من أسنان ديدان الرمال، وهي علامة على الفرمن يا سيدي. بحيازتها يستطيع أيّ رجلٍ أزرق العينين أن يندس وسط أيّ سييتش على الكوكب. كانوا سيشكون في أمري لولا أنهم يعرفونني. أنا لا أشبه الفرمن، ولكن...».

قال الدوق: «بايتر دي فريس».

قال حوّاط: «إنه رجلٌ ماهر كالشياطين يا سيدي».

دسّ آيداهو السكين المغمدة أسفل غلالته.

قال الدوق: «احرس تلك السكين جيّدًا».

- «لا تقلق يا سيدي»، قالها ورثت على جهاز الإرسال والاستقبال في عُدّة حزامه وأردف: «سأقدم تقريرًا في أقرب وقت ممكن. ظفير معه رمز الاتصال بي، استخدموا لغة المعمارك»، ثم أدّى التحية العسكرية، ودار على عقبيه، وأسرع في أثر الفرمني.

سمع الجلوس وقع خطواته القوي يبتعد عبر الممر.

تبادل ليتو وحوّاط نظرة تفاهم مشترك، وابتسما.

قال هاليك: «أمامنا عمل كثير يا سيدي».

قال ليتو: «وأنا عطَّلْتُكم عن عملكم».

قال حوَّاط: «لدي التقرير الخاص بقواعد طلائع الاستيطان».

هل أوْجَلْهُ إلى وقت لاحق يا سيدي؟».

- «هل سيستغرق وقتًا طويلاً؟».

- «ليس إن أوجزته. يُقال بين الفرْمِن إن أكثر من مئتين من

قواعد طلائع الاستيطان هذه شُيِّدَتْ على أَرَاكس إِبَّان الفترة

التي كان فيها محطة تجارب للنباتات الصحراوية. من المفترض

أنها جميعًا مهجورة الآن، لكن بعض التقارير تقول إنها أُغْلِقت

بإحكام قبل هجرها».

سأل الدوق: «أحتوي على مُعدَّات؟».

- «أجل، وفقًا للتقارير التي أبلغني بها دانكن».

سأل هاليك: «أين واقعها؟».

قال حوَّاط: «إجابة هذا السؤال دومًا هي: لبيت وحده يعلم».

تمتم ليتو: «الرَّب وحده يعلم».

قال حوَّاط: «رُبَّما ليس هذا هو المقصود يا سيدي، لقد

سمعت ستيلجار بنفسك وهو يستخدم الاسم. أمن المحتمل أنه

كان يشير إلى شخصٍ حقيقي؟».

ذكر هاليك: «قال إن المذكور يخدم سيِّدين. يبدو كأنه اقتباس

ديني».

قال الدوق: «وأنت أعلم بهذه المسائل»، فابتسم هاليك.

قال ليتو: «ماذا عن قاضي الفترة الانتقالية، هذا المدعو

كاينز، عالم البيئة الإمبراطوري.. ألا يعرف أماكن تلك القواعد؟».

قال حوَّاط محدِّرًا: «سيدي، هذا المدعو كاينز يمثل الإمبراطور».

قال ليتو: «وهو بعيد جدًا عن الإمبراطور الآن. أريد وضع يدي على تلك القواعد. ستكون مُحَمَّلة بمواد يمكن انتشالها واستخدامها في إصلاح معدَّاتنا».

قال حوَّاط: «سيدي! تلك القواعد لا تزال -من الناحية القانونية- تابعة لجلالة الإمبراطور».

قال الدوق: «الطقس هنا قاسٍ وقادر على تدمير أي شيء. يمكننا دومًا إلقاء اللوم على الطقس. اعثر على هذا المدعو كاينز واعرف منه إن كانت القواعد موجودة على الأقل».

قال حوَّاط: «من الخطر الاستيلاء عليها. دنكان كان واضحًا بهذا الشأن: هذه القواعد أو فكرة وجودها لها أهمية كبيرة لدى الفرمن، وقد ينفرون منا إذا استولينا عليها».

نظر پول في وجوه الرجال من حوله، ورأى حِدَّة الطريقة التي يتابعون بها كل كلمة تُقال. بدوا منزعجين بشدة من موقف أبيه.

قال پول بصوتٍ خفيض: «استمع إلى رأيه يا أبي، معه حق».

قال حوَّاط: «مولاي، هذه القواعد قد توفَّر لنا مواد ستساعدنا على إصلاح كل قطعة من المعدَّات المتروكة لنا، لكنها بعيدة المنال لأسبابٍ استراتيجية، ومن التسرُّع أن نتحرَّك دون مزيدٍ من المعلومات. هذا المدعو كاينز يستمد سلطته التحكيمية من البلاط الإمبراطوري، يجب ألا ننسى هذا، كما أن الفرمن يذعنون لرأيه».

قال الدوق: «حاول استدراجه بلطف إذا. أود أن أعرف فقط إن كانت هذه القواعد موجودة أم لا».

- «كما تشاء يا مولاي»، قالها حوَّاط وعاد بظهره إلى الورا، خافضًا عينيه.

قال الدوق: «حسنًا يا رجال، كلنا يعلم ما نحن بصدد: العمل الشاق الذي تدربنا عليه، والذي نتمتع ببعض الخبرة فيه. جميعنا يعلم ما ينتظرنا من مكاسب، كما أن البدائل واضحة بالقدر الكافي. كلُّ يعلم مهامه».

ثم نظر إلى جيرني وقال: «اجعل الاعتناء بموضوع المهريين على رأس أولوياتك يا جيرني».

قال هاليك: «سأذهب إلى المتمردين الذين يسكنون الرمضاء»⁽¹⁾.

قال الدوق: «يومًا ما لن يجد هذا الرجل اقتباسًا يسعفه، وسيبدو كرجلٍ عارٍ».

ضجَّت الغرفة بضحكات الرجال، لكن پول ميَّز الافتعال فيها. التفت الدوق إلى حوَّاط وقال: «أنشئ مركز قيادة آخر للاستخبارات والاتصالات في هذا الطابق يا ظفير، وعندما تنتهي منه أريد إلقاء نظرة عليه».

نهض حوَّاط، وأجال بصره في الغرفة كمن يبحث عن دعم من أحد. ثم استدار مبتعدًا، وقاد موكب الرجال خارج الغرفة. تحرَّك الآخرون على عجل، تاركين المقاعد مبعثرة خلفهم، واحتشدوا في تجمُّعات صغيرة مرتبكة.

اختُتِمت الجلسة بالحيرة والارتباك، هكذا فكَّر پول وهو يرمق ظهور آخر الرجال المغادرين. في السابق، دائمًا ما انتهت اجتماعات المجلس والرؤية واضحة كالشمس، أما هذا الاجتماع فبدأ كأنه اضمحلَّ تدريجيًا بعدما تركته نقائسه نخرًا.. وفوق

(1) المزمور الثامن والستون، الآية 6 (بتصرف).

ذلك انتهى بجَدال.

للمرّة الأولى، سمح پول لنفسه التفكير في احتمالية الهزيمة، لكنه لم يفكر فيها بسبب الخوف أو بسبب التحذيرات كالتّي قالتها له الأمّ الموقّرة، وإنما بسبب تقيّيمه الشخصيّ للوضع. فكّر پول: أبيّ في موقفٍ لا يُحسد عليه. الأمور لا تسير معنا على ما يرام على الإطلاق.

وماذا عن حوّاط؟ تذكر پول كيف تصرّف المِنتات العجوز خلال الاجتماع: تردّده غير الملحوظ، وعلامات الاضطراب البادية عليه.

شيءٌ ما يثير قلق حوّاط بشدّة.

قال الدوق: «من الأفضل أن تمكث بقيّة الليلة هنا يا بُني، فالفجر أوشك على البزوغ. سأخطر أمّك بأنك ستبيت هنا»، ثم نهض على قدميه، ببطء وتيّبس. «ما رأيك أن تضمّ هذه المقاعد وتتمدّد عليها لتتال قسطًا من الراحة».

- «لا أشعر بالتعب يا سيّدي».

- «حسنًا، كما تشاء».

قالها الدوق وعقد يديه وراء ظهره، وبدأ يذرّع الغرفة جيئةً وذهابًا.

فكّر پول: إنه يتصرّف كحيوانٍ محبوس في قفص.

سأله پول: «هل ستناقش احتمالية وجود خائن مع حوّاط؟».

توقّف الدوق قبالة ابنه، وتحدّث وهو يواجه النوافذ المعتمة: «لقد ناقشنا الاحتمالية مرات عدّة».

قال پول: «بدت المرأة العجوز واثقة جدًا ممّا تقول، والرسالة

التي وجدتها أمي...».

قاطعه الدوق: «لقد اتَّخذنا التدابير اللازمة»، ثم تفحَّص أرجاء الغرفة، ولاحظ پول نظرة الفريسة المذعورة في عيني والده. «ابق هنا، أريد مناقشة بعض الشؤون الخاصة بمراكز القيادة مع ظفير». ثم استدار، وخرج مسرعًا من الغرفة محيِّيًا الحارسين باقتضاب.

حملق پول إلى البقعة التي شغلها والده منذ لحظات. كانت خالية حتَّى قبل أن يغادر الغرفة.
ثم تذكر تحذير العجوز: «... لا أمل للأب».

في اليوم الذي جاب فيه ركب المؤدّب وأسرته شوارع أراكين للمرّة الأولى، تذكّر بعض المارّة من الشعب على جانبي الطريق النبوءة والأساطير، وغامروا بالصياح: «المهدي!»، لكن صيحاتهم كانت أقرب إلى سؤال منها إلى تصريح، لأنهم إلى تلك اللحظة لم يكن في وسعهم غير تمنّي أن يكون هو ذلك المُنتظر الذي حكّت عنه النبوءة: لسان الغيب*، الصّوت الآتي من عالم آخر. أيضًا انصبّ اهتمامهم على الأمّ، بعد أن بلغهم أنها من البني جيسيرت، وكان من البديهي في نظرهم أن تكون هي كذلك لسان غيب آخر. من كتاب «دليل المؤدّب» للأميرة إيrolan.

عثر الدوق على ظفير حواط جالسًا بمفرده في الغرفة الجانبية التي دلّه الحارس عليها. ترامى إلى سمعه أصوات الرجال الذين يركّبون معدات الاتصالات في الغرفة المجاورة، لكن هذه الغرفة كانت هادئةً إلى حد ما. نظر الدوق حوله في حين ما نهض حواط من خلف الطاولة المزدحمة بالأوراق. كانت حواط الغرفة الصغيرة خضراء، وتضم بالإضافة إلى الطاولة ثلاثة مقاعد مضادة للجاذبية نُزعت عنها حروف «الهاء» شعار الهراكنة- على عجالة، تاركة خلفها بقعة غامقة مشوّهة. قال حواط: «المقاعد مُستلبة لكنها آمنة. أين پول يا سيّدي؟» - «تركته في غرفة الاجتماعات. أريده أن ينال بعض الراحة دون أن يشغل وجودي عقله».

أوماً حوَّاط، وأنَّجه إلى باب الغرفة المجاورة وأغلقه، كاتمًا
ضجيج تركيب الأجهزة وأصوات الشرر الكهربائي.
قال ليتو: «ظفير، مخزون الاسپايس الإمبراطوري والهاركونني
يشغلان بالي».

- «ماذا تقصد يا مولاي؟».

زَمَّ الدوق شفَّتيه وقال: «تلك المخازن ليست منيعة ضد
التدمير»، ثم رفع يده مقاطعًا عندما همَّ حوَّاط بالكلام: «تجاهل
مخزون الإمبراطور، لن نمسَّه، لكن إذا فقد الهراكنة ما كنزوه
سيشمت فيهم سرًّا. ومن ناحية أخرى، هل يمكن للبارون الاحتجاج
على تدمير شيءٍ لا يستطيع الاعتراف بامتلاكه صراحةً؟».
هزَّ حوَّاط رأسه وقال: «عدد الرجال قليل للاستغناء عن
بعضهم يا مولاي».

- «أوكل الأمر إلى بعض رجال أيدهو، ربَّما بمشاركة بعض
الفرمن، فقد يستمتعون برحلة إلى كوكب آخر. غارة على جيدي
برايم، مثل هذا الهجوم المُشَتَّت له منافع تكتيكية يا ظفير».
- «كما تأمر يا مولاي»، قالها حوَّاط واستدار، ولاحظ الدوق
العصبية البادية على الرجل العجوز، وفكَّر: «ربَّما يشكُّ في أنني
لا أثق به. يجب أن يعرف أن لدي تقاريرٍ الخاصة عن الخونة.
حسنًا، من الأفضل أن أبُدَّ مخاوفه في الحال».

قال الدوق: «ظفير، نظرًا إلى أنك من القلائل الذين أثق بهم
ثقةً عمياء، أودُّ مناقشة مسألة أخرى معك. كلانا يحتاط بشدَّة
ويعلم أن علينا الحفاظ على مراقبة مستمرة لمنع أيِّ خونة من
التسلل إلى قواتنا، لكن جاءني تقريران جديدان بهذا الشأن».
استدار حوَّاط، وحدَّق إليه.

كرّر ليتو على مسمعه القصص التي حكاها له پول، لكن بدلاً من أن تستفز فيه تركيزه المنتاتي، زادت التقارير من اضطراب حوّاط.

تفرّس ليتو في ملامح الرجل المعجوز لوهلة، ثم قال في النهاية: «أنت تكتم شيئاً عني يا صديقي القديم، كان لا بُدَّ لي الانتباه إلى ذلك عندما لاحظت توتُّرك الشديد في أثناء اجتماع طاقم العمل. ما الأمر الجلل الذي لم تستطع البوح به أمام كامل أعضاء الاجتماع؟».

زَمَّ حوّاط شفّتيه المبقّعتين بشراب السافو بقوة حتّى صارتا كخط مستقيم تتشعّب منه تجاعيد صغيرة، وظلّتا في حالة التيبّس المتجمّد هذه وهو يقول: «مولاي، لا أدري كيف أنطرق إلى هذا الأمر».

قال الدوق: «يا ظفير، ما في جسدنا موضع إلا ويحمل ندبة جناها أحدها في ذوده عن الآخر. تعلم جيّداً أنك تستطيع مُفاتحتي في أيّ موضوع».

ظلّ حوّاط يحدّق إليه وهو يفكّر: هذا هو ما أحبه فيه. هذا هو الرجل الشريف الذي يستحق كامل ولائي وخدمتي، وها أنا مضطّر إلى إيذائه بما سأقول.

سأل الدوق: «حسناً؟».

هزّ حوّاط كتفيه: «إنها قصاصة من رسالة أخذناها من جاسوس هاركونني. الرسالة كانت موجّهة إلى عميل اسمه پاردي. لدينا أسباب تجعلنا نعتقد أن پاردي هذا كان أحد أهم عملاء شبكة جواسيس الهراكنة هنا. هذه الرسالة حمّالة أوجه، قد يكون لها عواقب خطيرة أو لا عواقب على الإطلاق».

- «وما الفحوى الحساس الذي تنطوي عليه تلك الرسالة؟».

- «إنها قصاصة من رسالة يا مولاي. غير تامة. كانت على فيلم ميركوني مرفق به كبسولة التدمير الذاتي المعتادة. نجحنا في إيقاف عمل الحمض قبل أن يمحو كل شيء، ولم يتبق سوى قصاصة. ومع ذلك، فإن هذه القصاصة تحمل إحياءات خطيرة».

- «مثل؟».

فرك حوَّاط شفّيته وقال: «إنها تقول: "... يتو لن يشك أبداً، وحين تأتية الضربة من يدٍ حبيبةٍ، ستكون الصدمة وحدها كفيلة بتدميره". الرسالة كانت مختومة بختم البارون نفسه، وقد تحقّقت من صحّته».

قال الدوق وقد اكتنفت صوته برودة فجأة: «يتّضح لي علام تنصب شكوكك».

قال حوَّاط: «أقطع ذراعِي قبل أن أتسبب في أذى لك يا مولاي. ماذا لو...».

قال ليتو شاعراً بالغضب ينهش صدره: «الليدي چيسिका. ألا تستطيع انتزاع الحقائق من پاردي هذا؟».

- «للأسف لم يكن پاردي في عداد الأحياء عندما اعترضنا الجاسوس، أما الأخير فأنا متيقّن من أنه لا يعلم فحوى ما يحمله».

- «فهمت».

هزّ ليتو رأسه مفكّراً: يا لها من دسيّسة مأكرة. هذا محض افتراء وتدليس، فأنا أعرف امرأتِي.

- «مولاي، ماذا لو...».

جأر الدوق: «لا قطعاً في الأمر خطأ...».

- «لا يمكننا تجاهل الأمر فحسب يا مولاي».

- «إنها معي منذ ستة عشر عامًا! وقد أُتيحت أمامها فرص لا حصر لها كي... أنت بنفسك تحققت من المدرسة ومن المرأة!». قال حوَّاط بمرارة: «من المعروف الآن أن بعض الأشياء تقوتني».

- «أقول لك إن هذا مستحيل! يريد الهراكنة تدمير سلاسة آل آترديز بالكامل، وهذا يشمل پول، وقد حاولوا ذلك بالفعل. أيعقل أن تتآمر امرأة ضد ابنها؟».

- «رُبَّما لم تتآمر معهم ضد ابنها، وأن تكون محاولة البارحة خدعة ذكية».

- «لم تكن خدعة».

- «سيدي، من المفترض أنها لا تعرف أبويها، لكن ماذا لو أنها تعرف؟ ماذا لو كانت يتيمة، وأن من تسبَّب في يُتمها مثلاً أحد آل آترديز؟».

- «كانت ستفتالني منذ زمن طويل. سندسُّ السُمَّ في شرابي، أو ستطعنني بخنجر في أثناء نومي.. فمن غيرها لديه فرصة أفضل؟».

- «الهراكنة عازمون على تدميرك بالكامل يا مولاي، وهدفهم ليس القتل فحسب. في قواعد الكانلي فروقٌ دقيقة بين المسمِّيات. قد يكون هذا انتقامًا بارعًا لم يُر مثله من قبل». تهدَّلت كتفا الدوق وانحنى إلى الأمام، وأغلق عينيه وقد بدا متعبًا وعجوزًا. مستحيل، لقد فتحت المرأة قلبها لي.

سأل الدوق: «أيُّ طريقة أفضل لتدميري من زرع الشك في المرأة التي أحبها؟».

- «فكرت في هذا التفسير، ولكن...».

فتح الدوق عينيه، وحملق إلى حوَّاط مفكِّراً: فليظلُّ متشكِّكاً، الشكُّ من اختصاصه لا اختصاصي. ربَّما لو أبديت التصديق، سيدركه الإهمال وتغيب عنه البقطة.

همس الدوق: «ماذا تقترح؟».

- «في الوقت الحالي، مراقبتها باستمرار يا مولاي. يجب أن تظلَّ تحت المراقبة طوال الوقت، وسأحرص على أن يجري الأمر بصورة غير ملحوظة. أرى أن أيدهو سيكون الخيار المثالي للمهمة. ربَّما في غضون أسبوع أو نحو ذلك نستطيع أن نستدعيه. ثمَّة شاب كنا ندرِّبه من جنود أيدهو، وقد يكون مثاليًا لإرساله إلى الفرمن كبديل عنه، إنه موهوب في الشؤون الدبلوماسية».

- «لا تعرِّض علاقتنا مع الفرمن للخطر».

- «قطعاً لا يا مولاي».

- «وماذا عن پول؟».

- «ربَّما يجب تحذير الدكتور يوي».

استدار ليتو معطياً حوَّاط ظهره وقال: «سأترك لك القرار».

- «سأتصرَّف بحذر يا مولاي».

فكَّر ليتو: على الأقل أستطيع الاتِّكال على ذلك، ثم قال: «سأتمشَّى قليلاً. سأكون في محيط المكان إن احتجتني. يستطيع الحارس أن...».

- «قبل أن تذهب يا مولاي، لدي مقطع فيلمي أريدك أن تطلع عليه. إنه التحليل المبدئي لديانة الفرمن. طلبت مني تقديم تقرير عن ذلك لو تتذكَّر».

توقّف الدوق وقال دون أن يستدير: «ألا يمكن أن ينتظر؟».

- «بالتأكيد يا مولاي، لكنك طلبت معرفة الكلمة التي كانوا يصيحون بها: "المهدي". كانوا يوجّهونها إلى السيّد الصغير عندما...».

- «إلى پول؟».

- «أجل يا مولاي. عندهم أسطورة هنا، أو نبوءة، أن قائدًا سيأتيهم، وسيكون ابنًا لامرأة من البني جيسيرت، وسيقودهم إلى الحرية الحقيقية. إنها قصّة تتبع نمط أساطير المسيح المألوفة».

- «وهم يظنون أن پول هو هذا... هذا...».

- «هذا ما يأملون يا مولاي»، قالها حوّاط وهو يمدّ يده بكبسولة المقطع الفيلمي.

أخذها الدوق ودسّها في جيبه: «سألقي نظرة إليها لاحقًا».

- «بالتأكيد يا سيّدي».

- «أمّا الآن فأنا بحاجة إلى وقت.. لأفكر».

- «أجل يا سيّدي».

أخذ الدوق نفسًا عميقًا وزفره متهدّدًا، وأسرع خارجًا من الباب، ثم انعطف إلى اليمين في نهاية الممرّ، وبدأ يمشي على مهل عاقدًا يديه خلف ظهره تاركًا ساقيه تقودانه دون هدي. قطع ممرّات وسلالم، ومرّ بشُرُفاتٍ وأروقة.. وفي كلّ منها قدّم له الرجال التحية وتنحّوا جانبًا مفسحين له الطريق.

بعد مدّة عاد إلى غرفة الاجتماعات. وجدها مظلمة ووجد پول نائمًا فوق الطاولة يغطّيه ثوبٌ ألقاه عليه أحد الحرس، ويتخذ من حقيبة صغيرة وسادةً لرأسه. قطع الدوق الغرفة بخفّة

مَتَّجَهَا إِلَى الشَّرْفَةِ الْمُطْلَئَةِ عَلَى سَاحَةِ الْمَهْبِطِ. اتَّخَذَ حَارِسُ كَانَ
يَقِفُ فِي زَاوِيَةِ الشَّرْفَةِ وَضَعَ انْتِبَاهَ صَارِمٍ عِنْدَمَا تَعَرَّفَ الدُّوقُ فِي
الْأَضْوَاءِ الْخَافِتَةِ الْآتِيَةِ مِنَ السَّاحَةِ، فَتَمَتَّعَ لَهُ الدُّوقُ: «اسْتَرَحْ»، ثُمَّ
مَالَ مُسْتَدْنًا إِلَى حَدِيدِ الدَّرَازِينِ الْبَارِدِ.

كَانَ يَعْمُ الْخَوْضَ الصَّحْرَاوِي ذَلِكَ الصَّمْتُ الشَّامِلُ الَّذِي يُسْبِقُ
الْفَجْرَ. رَفَعَ الدُّوقُ بَصْرَهُ إِلَى أَعْلَى، وَرَأَى النُّجُومَ فَوْقَ رَأْسِهِ كَشَالِ
مَزَيْنٍ بِالْتَرْتَرِ عَلَى خَلْفِيَةِ زَرْقَاءٍ دَاكِنَةٍ. أَطْلَلَ قَمَرَ اللَّيْلِ الثَّانِي
-مَنْخَفُضًا فِي الْأُفُقِ الْجَنُوبِيِّ- عَبْرَ طَبَقَةِ ضَبَابٍ غُبَارِي رَقِيقَةٍ،
وَنَظَرَ إِلَيْهِ مُتَشَكِّكًا بِنُورٍ سَاخِرٍ.

وَفِي أَثْنَاءِ مَا كَانَ الدُّوقُ يَتَأَمَّلُ الْمَشْهَدَ، غَابَ الْقَمَرُ وَرَاءَ
مَنْحَدَرَاتِ الْجِدَارِ الْحَامِي، مُضْفِيًا عَلَيْهَا رَدَاءً مِنَ الثَّلْجِ بِنُورِهِ
الْفَضِّي، وَهِيَ حِدَّةُ الظَّلَامِ الْمَفَاجِئِ الَّذِي حُلَّ، اعْتَرَتْ لِيَتَوَقَّعَ
قَشْعَرِيرَةً مَفَاجِئَةً، وَسَرَى الْغَضَبُ فِي أَوْصَالِهِ.

وَفَكَّرَ: هَذِهِ آخِرُ مَرَّةٍ سَأَسْمَحُ فِيهَا لِلْهَرَائِكَةِ بِأَنْ يَعْزِلُونِي
وَيُلَاحِقُونِي وَيَطَارِدُونِي. مَا هُمْ إِلَّا أَكْوَامُ رُوثٍ بِعُقُولٍ قُرُوبَةٍ بَلِيدَةٍ.
هَذَا سَأَنْصِبُ دِفَاعَاتِي وَسَأَصْمُدُ صَمُودِي الْآخِرِ. ثُمَّ فَكَّرَ بِمَسْحَةِ
مِنَ الْحَزَنِ: يَجِبُ أَنْ أَحْكُمَ بِالْعَيْنِ وَالْمَخْلَبِ: كَالصَّقَرِ بَيْنَ الطَّيُورِ
الْأَدْنَى. ثُمَّ بَلَا وَعِي مِنْهُ، مَسَحَ عَلَى شَعَارِ الصَّقَرِ الَّذِي يَزِينُ
صَدْرَ غَلَالَتِهِ.

مِنَ الشَّرْقِ، تَبَيَّنَ وَسْطَ عَتَمَةِ اللَّيْلِ خَيْطٌ رَمَادِيٌّ مُضِيٌّ،
سُرْعَانِ مَا أَضْحَى بَرِيقًا كَبِيرًا أَصْدَافَ الْبَحْرِ أَغْشَى مَعَهُ ضَوْءُ
النُّجُومِ. ثُمَّ بَزَغَتْ يَدُ الْفَجْرِ الطَّوِيلَةِ، وَرَاحَتْ تَقْرَعُ الْأَجْرَاسَ
مَوْقُظَةً النِّيَامَ وَهِيَ تَمْضِي بَيْنَ شَخَايَا الْأُفُقِ الْمُتَصَدِّعِ.

فَتَنَّهُ الْمَشْهَدُ السَّاحِرَ وَأَخَذَ بِلُبِّهِ. تَتَفَرَّدُ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ بِرُؤَا

منقطع النّظير، هكذا ففكر.

لم يتخيّل وجود شيء هنا يستطيع مضاهاة جمال هذا الأفق الأحمر المتشقق، وبهاء تلك المنحدرات الأرجوانية المشوبة بصفرة. رأى خلف ساحة المهبط - حيث كانت قطرات ندى الليل تمنح قبلة الحياة لبذور نباتات أراكس - برّكاً موحلاً بها أزهار حمراء، يخترقها درّب واضح من زهور البنفسج، كأنه آثار أقدام عملاقة.

قال الحارس: «إنه صباح جميل يا سيّدي».

- «إنه كذلك».

ثم أوماً مفكراً: قد يجد المرء في هذا الكوكب ما يستحق التعلّق به، وقد يحسّن مستقرّاً ومقاماً لابني. ثم رأى أشخاصاً يتّجهون نحو برك الأزهار ويكسحونها بأدوات غريبة تشبه المناجل: هؤلاء جامعو الندى. الماء شحيح هنا إلى درجة أن الندى نفسه يجب أن يُجمع.

فكر الدوق: وقد يسوء مستقرّاً ومقاماً.

رُبَّمَا لَا تُوجَد لِحِظَةِ أَفْظَعٍ فِي حَيَاةِ الْمَرْءِ مِنْ تِلْكَ
الَّتِي يَكْتَشِفُ فِيهَا أَنَّ وَالِدَهُ مَجْرَدُ إِنْسَانٍ، مِنْ لَحْمٍ
وَدَمٍ.

مِنْ كِتَابِ «أَحَادِيثُ الْمُؤَدِّبِ الْمَجْمَعَةِ» لِلْأَمِيرَةِ إِيْرُولَانَ.

قَالَ الدُّوقُ: «بُولُ، سَأَفْعَلُ أَمْرًا بَغِيضًا، لَكِنِّي مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ». كَانِ يَقِفُ إِلَى جِوَارِ كَشَّافِ السُّمُومِ الَّذِي أُحْضِرَ إِلَى غُرْفَةِ الْاجْتِمَاعَاتِ لِفَحْصِ إِفْطَارِهِمْ. كَانَتْ مَجَسَّاتُ اسْتِشْعَارِ الْجِهَازِ مَرْتَخِيَةً عَلَى الْمَائِدَةِ، فَبَدَأَ لِبُولِ كَأَنَّهُ حَشْرَةٌ غَرِيبَةٌ مَاتَتْ مِنْذُ لِحِظَاتٍ. انْصَبَّ اهْتِمَامُ الدُّوقِ عَلَى سَاحَةِ الْمَهْبِطِ وَرَاءَ النُّوَافِذِ، وَسَحَابَةِ الْغُبَارِ الْمُتَصَاعِدَةِ مِنْهَا إِلَى عَنَانِ سَمَاءِ الصَّبَاحِ. كَانِ أَمَامَ بُولِ شَاشَةٌ تَعْرِضُ مَقْطَعًا فِيلِمِيًّا قَصِيرًا عَنْ شَعَائِرِ الْفُرْمَنِ الدِّينِيَّةِ، جَمَعَهُ أَحَدُ الْخُبَرَاءِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ تَحْتَ إِمْرَةٍ حَوَّاطٍ، وَوَجَدَ بُولُ نَفْسَهُ مَنْزَعَجًا مِنَ الْإِشَارَاتِ وَالْإِحَالَاتِ إِلَيْهِ فِي الْمَقْطَعِ.

«الْمَهْدِي!».

«لِسَانُ الْغَيْبِ».

أَغْلَقَ بُولُ عَيْنَيْهِ وَتَذَكَّرَ صَبِيحَاتِ الْجُمُوعِ. هَذَا إِذَا مَا يَأْمَلُونَ أَنْ أَكُونَهُ، هَكَذَا فَكَّرَ. ثُمَّ تَذَكَّرَ مَا قَالَتْهُ الْأُمُّ الْعَجُوزُ الْمَوْقَرَةُ: الْكُويزَاتِسْ هَادِيرَاكِ. أَعَادَتْ إِلَيْهِ الذِّكْرَ شَعُورُهُ السَّابِقُ بِالْغَايَةِ الرَّهِيْبَةِ، وَأَضْفَتِ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ الْغَرِيبِ أَحَاسِيْسَ أَفْءَةٍ لَمْ يَفْهَمَهَا.

رَدَّدَ الدُّوقُ: «أَمْرٌ بَغِيضٌ».

- «مَاذَا تَقْصِدُ يَا سَيِّدِي؟».

استدار ليتو ونظر إلى ابنه: «يظن الهراكنة أنهم قادرون على خداعي وزعزعة ثقتي بأُمِّك، لكنهم لا يعرفون أنني سأشك في نفسي قبل أن أشك فيها».

- «لا أفهم يا سيّدي».

عاد ليتو ينظر عبر النوافذ. كانت الشمس البيضاء قد احتلت موقعها في الربع الأوّل من السماء، وأنار ضوءها اللبني سُحب الغبار التي تتسرّب عبر أخاديد صخور الجدار الحامي العميقة. شرح الدوق لبول أمر الرسالة الغامضة على مهلٍ وبتأنٍ كي يستطيع السيطرة على غضبه.

قال بول: «ولم لا يفقدك هؤلاء الحمقى ثقتك بي كذلك».

قال الدوق: «يجب أن يعتقدوا أنهم نجحوا في خداعي، وأنني أبله والتقطت الطّعم. يجب أن يبدو الأمر حقيقياً، حتّى أُمِّك يجب ألاّ تعلم به».

- «لكن لماذا يا سيّدي؟».

- «أريد أن تكون ردّة فعل أُمِّك طبيعية. أعرف أنها بارعة في التمثيل، لكن أموراً مهمة كثيرة على المحكّ هنا. أمل أن أكشف الخائن، لذا يجب أن أبدو كأنني خُدعت وبلعت الطّعم بالكامل. يجب أن تتأدّى أُمِّك بهذه الطريقة كي لا تعاني أدّى أكبر بعد ذلك».

- «لماذا تخبرني بالأمر يا أبي؟ ألا تخشى أن يزلّ لساني وأُفشي السرّ».

قال الدوق: «لن يلتفتوا إليك في هذا الأمر، لكن يجب أن تحافظ على السرّ»، ثم اتّجه إلى النوافذ، وتحدّث دون أن يستدير: «بهذه الطريقة، ستمكّن من إخبارها بالحقيقة إن أصابني مكروه،

وستعلمها أنني لم أشك فيها ولو للحظة. يُهمُّني أن تعلم أمك ذلك».

لاحظ پول فكرة الموت في كلمات أبيه، فقال سريعاً: «لن يصيبك مكروه يا سيدي، الد...».

- «صمتاً يا بُني».

حملق پول إلى ظهر والده، ورأى الإرهاق بادياً في إنحناء رقبته، في ارتخاء كتفيه، في حركاته البطيئة.

- «أنت منهك يا أبي».

وافقه الدوق: «أجل أنا منهك، لكنني منهك معنوياً. ربّما أدركني التدهور الكئيب الذي أحاق بنبلاء العائلات الكبرى أخيراً. لكم كنا قوماً أقوياء في السابق».

قال پول في انفعالة غضب سريعة: «عائلتنا لم تتدهور!».

- «أحقاً؟».

استدار الدوق مواجهاً ابنه، كاشفاً عن الهالات السوداء أسفل عينيه، والتواءة فم ساخرة: «كان يجب أن أتزوَّج بأُمِّك وأجعلها دوقتي. لكن بقائي عازباً يمنح بعض الأسر النبيلة الأخرى الأمل في التحالف معي بتزويجي إحدى بناتهم»، ثم هزَّ كتفيه: «لذا، آثرت...».

- «لقد شرحت لي أُمِّي الأمر».

قال الدوق: «لا شيء يُكسب القائد ولاء رجاله أكثر من الشجاعة والإقدام. لذلك أحيط نفسي بهالة من الشجاعة».

قال پول محتجاً: «أنت قائدٌ محنَّك، وحاكِمٌ رشيد. الرجال يحبُّونك ويتبعونك عن طيب خاطر».

قال الدوق: «أمتلك فريقاً من أفضل فرق الدعاية والإعلام».

ثم استدار ثانيةً ناظرًا إلى منطقة الحوض الصحراوي. «المكاسب المحتملة المتاحة أمامنا هنا تفوق كل ما تظنه الإمبراطورية، ومع ذلك أشعر أحيانًا بأنه من الأفضل لنا أن نهرب وننجو بحياتنا، أن ننشق. أحيانًا أتمنى أن تختفي هويتنا ونذوب مجددًا بين الناس، ونعود أقل عرضة لل...».

- «أبي!».

قال الدوق: «معدرة، أنا منهك بالفعل. أعلم أننا نستخدم بقايا الاسپايس موادَّ خام، وأنا نملك بالفعل مصنعًا لتصنيع المادة الفيلمية؟».

- «سيدي؟».

قال الدوق موضِّحًا: «يجب ألا نتقصنا المادَّة الفيلمية، وإلا كيف سنغرق القرى والمُدن بالمعلومات التي نريد لها أن تنتشر؟ يجب تذكير الناس دائمًا بمدى نجاح حُكمي، وإلا كيف سيعرفون إذا لم نخبرهم؟».

قال پول: «يجب أن تنال بعض الراحة».

واجه الدوق ابنه مجددًا وقال: «يتمتع أَرَاكس بمزية أخرى كدت أغفل عن ذكرها. الاسپايس موجود في كل شيءٍ على هذا الكوكب. يتنفَّسه الناس في الهواء ويأكلونه في الطعام. نما إلى علمي أن هذا يُكسب مناعةً طبيعيةً ضد مجموعة من أكثر السُّموم الواردة في دليل المغتالين شيوعًا. أيضًا الحاجة الدائمة إلى ترشيد استهلاك كل قطرة ماء تضع عمليات الإنتاج الغذائي كلها تحت إشراف صارم ورقابة مشدَّدة: بما في ذلك مزارع الخمائر، والمزروعات المائية، والأسمدة الكيماوية، وكل شيء. باختصار، مثلما لا نستطيع القضاء على أعداد كبيرة من السكَّان باستخدام

السُّمُوم، لا يُمكن مهاجمتنا بالطريقة نفسها أيضًا. أَرَّاكس يهْدُبنا ويجعلنا أحسن خُلُقًا».

همَّ پول بالكلام، لكن الدوق قاطعة: «أحتاج إلى من أستطيع البوح أمامه بهذا الكلام يا بُني». ثم تنهَّد، وعاد ينظر إلى الأرض القاحلة التي اختفت منها الأزهار، بعد أن داسها جامعو الندى، وجفَّت تحت أشعة شمس الصباح.

قال الدوق: «على كلالدان، حكمنا بالقوَّة الجويَّة والقوَّة البحرية، أما هنا فعلينا الاستعاضة عنهما بقوة الصَّحراء. هذا هو ميراثك يا پول. ماذا سيحدث لك إذا أصابني مكروه؟ لن تكون مجرد فرد في عائلة مُنشقَّة، بل عضو في عُصبة هاربة مطاردة».

بحث پول عن أيِّ كلام يقوله، لكنه لم يجد ما يُقال. لم يسبق له أن رأى والده بهذا القنوط.

قال الدوق: «في سبيل إحكام قبضتنا على أَرَّاكس، يواجه المرء قرارات قد تكلفه احترامه لذاته»، ثم أشار إلى راية آل آتريديز المتدلِّية من سارية في الخارج عند حافة ساحة المهبط بلونيهما الأخضر والأسود، وأردف: «قد يأتي يوم تتحوَّل فيه هذه الراية المشرَّفة إلى رمز شر».

ابتلع پول غصَّة عالقة في حلقه الجاف. كانت كلمات والده تحمل عبثيةً وخيبةً وشعورًا بالقدرية جعلت الصبيَّ يشعر بفراغٍ موحش في صدره.

أخرج الدوق قرصًا لتخفيف الإرهاق من جيبيه، وابتلعه دون ماء، ثم قال: «القوَّة والخوف من أهم أدوات الحكم. يجب أن أصدر أمرًا لمعلميك للتركيز معك على أساليب حرب العصابات. في هذا المقطع الفيلمي يطلقون عليك "المهدي"، و"لسان الغيب".

يبدو أنك الملاذ الأخير في نظرهم، ربّما تستطيع استغلال هذا لمصلحتك في المستقبل».

حدّق بول إلى والده، ولاحظ أن كتفيه بدأتا تشتدّان تدريجيًا من أثر الدواء، لكنه تذكّر كلماته المملوءة بالخوف والشكّ. تمتم الدوق: «لماذا تأخّر عالم البيئة هذا؟ لقد أكّدت على ظفيري أن يحضره مبكرًا».

في أحد الأيام، أمسكني أبي الإمبراطور الهاديشاه من يدي، فلمست لحظتها الانزعاج الذي يعتمل في صدره بفضل الأساليب التي تعلّمتها من أمي. قادني أبي عبر قاعة الصور، إلى أن وقفنا أمام صورة «ذات مُجسّدة» للدوق ليتو آتريديز. لاحظت الشبه الكبير بين أبي والرجل الذي في الصورة: كلاهما ذو وجهٍ نحيلٍ مليح، بملامح حادة تهيمن عليها عينان باردتان. قال أبي: «آه يا ابنتي الأميرة، كم تمنيت لو كنت أكبر سنًا عندما قرّر هذا الرجل اختيار امرأة لتكون إلى جواره». كان أبي وقتها في الحادية والسبعين من عمره، ولم يبدُ أكبر سنًا من الرجل الذي في الصورة، وكنت أنا في الرابعة عشرة، ومع ذلك أتذكّر أنني استنتجت لحظتها أن والدي كان يتمنّى سرًا لو أن الدوق كان ابنًا له، وأنه كان يكره كل الضرورات السياسية التي جعلت منهما عدوين. من كتاب «في بيت أبي» للأميرة إيrolan.

اللقاء الأول بين الدكتور كاينز وآل آتريديز الذين أمر بخيانتهم تركه مهزوزًا. لطالما كان يفتخر بكونه عالمًا لا يرى في الأساطير إلا قصصًا تحمل دلالات مثيرة للاهتمام تشير إلى الجذور الثقافية، لكن هذا الصبيّ يطابق وصف النبوءة القديمة بدقّة. إنه يمتلك «العين الفضولية»، ويتحلّى بـ«الصدق الأصيل». بالطبع، تركت النبوءة بعض الأمور مبهمّة وعرضة للتأويل، مثل إذا ما كانت الإلهة الأم ستحضر المسيح معها إلى الكوكب

أم أنها ستلده هنا. ومع ذلك، كان هناك تطابقٌ غريب بين النبوءة وشخصها. حدث اللقاء في منتصف النهار خارج المبنى الإداري الملحق بساحة مهبط أراكين. في الجوار، جثمت طائفة أورنيثوبتر لا تحمل أيَّ شعار كحشرة ناعسة يصدر عنها ذلك الطنين الخافت المميّز لوضع الاستعداد، وإلى جوارها وقف أحد حُرَّاس آل آتريديز شاهراً سيفه، محاطاً بمجال درع طاقة يشوّه الهواء من حوله بعض الشيء.

رمق كاينز باستهزاء نمط التشوية الناتج عن درع الطاقة، وفكّر: يحمل أراكس مفاجأة لهم بهذا الشأن!

رفع عالم البيئة يده، مشيراً لحارسه الفرمني بالمكوث في مكانه، ثم أسرع الخُطى إلى مدخل المبنى الذي بدا كفجوة سوداء وسط الصخور المغلفة بالبلاستيك، وفكّر: هذا البناء المتراص مكشوف تماماً، أيّ كهفٍ في الصّحراء أنسب منه بكثير. لفتت انتباهه حركة في المدخل فتوقّف، وأخذ لحظة كي يعيد هندام ثوبه ويضبط أدوات بذلة التقطير على كتفه اليسرى.

انفتحت بوابة المدخل على مصراعيها، وخرج منها حرسٌ مدجّجون بمختلف الأسلحة: سيوف ودروع وصواعق، ثم ظهر من خلفهم رجلٌ طويل، أسمر اللون وداكن الشعر بلامح صقرية، يرتدي جُبّة* على صدرها شعار آل آتريديز. كان يرتديها بطريقة تكشف عن عدم اعتياده هذا النوع من الملابس، إذ تشبّث طرف الجُبّة بساق بذلة التقطير التي يرتديها أسفلها من جانب، ولم تكن تتأرجح بحرية مع خطواته الواسعة.

إلى جوار الرجل سار شابٌ له نفس الشعر الداكن لكن وجهه أكثر استدارة. بدا جسد الصبيّ ضئيلاً على سنّه الذي كان كاينز

يعرف أنها خمسة عشر عامًا، لكن أمارات القيادة كانت بادية على جسده اليافع، وأحاطت به هالة من الاتزان والثقة بالنفس، كما لو كان يرى ويدرك أشياء من حوله لا يراها الآخرون. وكان يرتدي نفس طراز جُبَّة والده، لكن بطريقة عفوية تجعل من يراه يظنُّ أنه اعتاد ارتدائها منذ نعومة أظافره.

النبوءة قالت: «سيكون المهدي على علم بأشياء يعجز الآخرون عن رؤيتها».

هزَّ كاينز رأسه، وقال لنفسه: ما هم إلا بشر. برفقتهم سار رجلٌ يرتدي مثلهما ملابس الصَّحراء، وتعرّفه كاينز: هذا جبرني هاليك. أخذ كاينز نفسًا عميقًا لقمع استيائه من هاليك، الذي كان التقاه من قبل وأطلعته على آداب معاملة الدوق وولي عهد الدوق.

«في وسعك مخاطبة الدوق بـ"مولاي" و"سيدي". استخدام لقب تبيل المنبت" جائز أيضًا، لكنه يقتصر عادةً على المناسبات الرسمية. يمكن مخاطبة الابن بلقب "السيد الصغير" أو "مولاي". الدوق رجلٌ متساهل الطبع، لكنه لا يحبُّ رفع الكلفة».

فكَّر كاينز وهو يراقب اقتراب المجموعة: قريبًا سيعرفون من هو سيّد أراكس الحقيقي. ألم يخضعوني لاستجواب ذلك المنتات نصف ليلة أمس؟ ألا يتوقعون مني أن أرشدهم في عملية تفتيش على استخراج الاسبايس؟ حسنًا.

لم يفت على كاينز مفزى أسئلة حوَّاط. إنهم يريدون العثور على القواعد الإمبراطورية، التي يبدو أنهم عرفوا بأمرها من أياداهو. قال كاينز في قرارة نفسه: سأمّر ستيلجار بإرسال رأس أياداهو إلى هذا الدوق.

أصبحت المجموعة التي يتصدّرها الدوق على بعد خطوات منه الآن، تسحق أقدامهم التي تنتعل بيادات الصّحراء الرمال أسفلها .
انحنى كاينز قائلاً: «مولاي الدوق».

مع اقترابه، تفحص الدوق هيئة الرجل الواقف بمفرده إلى جوار الأورنيثوبتر: كان طويلًا، رفيعًا، يرتدي ثوبًا فضفاضًا وبذلة تقطير، وينتعل في قدميه بيادة صحراء . كانت قلنسوة الرجل مُلقاة خلفًا، ويتدلّى لثامها إلى الجانب كاشفًا عن لحية مشعّنة وشعر طويل أصفر بلون الرمال . أما العينان المطلتان من أسفل حاجبيه الكثين فكانتا بتلك الزُرقة العميقة التي لا أثر لبياض فيها، وتحيط بمحجريها بقايا هالات .

قال الدوق: «أنت عالم البيئة».

ردّ كاينز: «نفضّل هنا اللقب القديم يا مولاي . عالم البيئات الكوكبية».

قال الدوق: «كما تحب»، ثم نظر إلى پول وأردف: «يا بُني، هذا هو قاضي الفترة الانتقالية، حكم النزاع، الرجل الذي عُيّن ليتأكّد من اتّباع الأعراف وتطبيق القوانين في أثناء انتقال سلطة هذه الإقطاعية إلينا»، ثم رمق كاينز بنظرة سريعة وقال: «وهذا ابني».

قال كاينز: «مولاي».

سأله پول: «هل أنت من الفرمن؟».

ابتسم كاينز: «أنا فرد مُرحّب به في السييتش وفي القرى يا سيدي الصغير . لكنني في خدمة جلالة الإمبراطور، أن عالم البيئات الكوكبية الإمبراطوري».

أوما پول متفهّمًا، معجبًا بهالة القوّة المحيطة بالرجل . كان هاليك قد لفت نظر پول إلى كاينز مسبقًا من إحدى نوافذ

المبنى الإداري العلوية قائلاً: «إنه الرجل الواقف هناك مع الحرس الفرمني، الذي يتحرك الآن باتجاه الأورنيثوبتر». وكان پول قد تفحص كاينز لمدة وجيزة عبر النظارة المعظمة، ملاحظاً فيه المزموم المستقيم، وجبهته العريضة، في أثناء ما راح هاليك يهمس في أذنه: «إنه رجل غريب الطباع، يتكلم بطريقة دقيقة وحادة كشفرة الموسيقى، مقتضبة لا لغو فيها». وقتها علق الدوق من خلفهما: «كديدن العلماء».

أما الآن وهو يقف على بعد خطوات قليلة من الرجل، استشعر پول قوة حضور كاينز، وتأثير شخصيته الكاسح. بدا كأن دماء ملكية تجري في عروق الرجل، كأنه وُلد ليأمر فيطاع. قال الدوق: «يجب علينا أن نشكر لأنك أمددتنا ببذلات التقطير، وتلك الأردية».

قال كاينز: «أمل أن يكون مقاسها قد جاء مناسباً يا مولاي. إنها من صنع الفرمن، وهي أقرب ما يمكن للمقاسات التي أعطاني إياها رجلك هاليك».

قال الدوق: «تعجبت عندما قلت إنك لن تستطيع أخذنا في رحلة إلى الصحراء ما لم نرتد هذه السراويل، ففي مقدورنا حمل الكثير من الماء، كما أننا لا ننوي قضاء وقتٍ طويلٍ هناك، وسيصبحنا غطاء تأمين جوي، تلك الطائرات التي تراها فوق رؤوسنا. من غير المرجح أن نضطر إلى الهبوط».

حدّق كاينز إليه متأملاً بشرته الغنية بالماء، ورد ببرود: «على أراكس لا يتحدث المرء عن المرجحات، فقط عن الاحتمالات». احتدّ هاليك قائلاً: «يجب مخاطبة الدوق بمولاي أو سيدي».

رفع ليتو يده إلى هاليك بالإشارة الخاصة المتفق عليها للكفّ
عن الكلام، وقال: «ما زالت أعرافنا جديدة هنا يا هاليك، علينا
التساهل بعض الشيء».
- «كما ترى يا مولاي».

قال ليتو: «نحن مدينون لك يا دكتور كاينز، لن ننسى لك
إمدادنا بهذه البذلات ومراعاتك مصلحتنا».

دون سابق تفكير، استدعى پول إلى ذهنه اقتباساً من الإنجيل
الكاثوليكي البرتقالي، وقال: «الهدية نعمة من المانع».

رئت الكلمات في الهواء الساكن. وثب الحرس الضرمي الذين
تركهم كاينز في ظل المبنى الإداري جالسين القرفصاء من
أماكنهم، وراحوا يتمتمون في انفعالٍ واضح، وصاح أحدهم بصوتٍ
مسموع: «لسان الغيب!»

استدار كاينز، ورفع يده إلى الحرس في إشارة مقتضبة
حازمة، مشيراً لهم بالابتعاد. تراجع الحرس متذمّرين فيما بينهم،
وعادوا إلى أماكنهم حول المبنى.
قال ليتو: «هذا مثير للاهتمام».

وجّه كاينز نظرة صارمة إلى الدوق وبول، وقال: «معظم
سكان الصّحراء هنا يؤمنون بالخرافات. لا يشغلنّكما أمرهم، فلا
خطر منهم». لكنه تذكّر كلمات الأسطورة: «بالكلمات المقدّسة
سيستقبلونكم، وستكون هداياكم في نظرهم نعمة».

فجأة تبلور في عقل ليتو تقييمه لكاينز (الذي اعتمد جزئياً
على تقرير حوَّاط الشفهي الموجز الذي وصفه بأنه حذر ومملوء
بالشكوك): كان الرجل فرمناً. جاء كاينز مصحوباً بحرسٍ فرمني،

وهو ما يعني ببساطة أن الفرمن رُبَّما يختبرون حريتهم الجديدة في دخول المناطق الحضرية. لكن الحرس يبدو حرسًا شرفيًا. كما أن كاينز يبدو من أسلوبه أنه رجلٌ ذو كبرياء، معتمد على الحرية، لا يصون لسانه وأفعاله سوى حيطة. لقد كان سؤال پول السابق مباشرًا وفي صلب الأمر.

لقد صار كاينز واحدًا من الفرمن.

سأل هاليك: «ألا يجب أن نتحرَّك يا سيدي؟».

أوما الدوق قائلاً: «سأقود الثوبتر الخاصة بي. يمكن لكاينز أن يصحبني في المقدمة لتوجيهي. اجلس أنت وبول في المقاعد الخلفية». قال كاينز: «لحظة من فضلك. بعد إذن مولاي، يجب أن أتحرَّق من سلامة بذلاتيكما».

همَّ الدوق بالتحدُّث، لكن كاينز أصر: «إنني أهتم بسلامتي الشخصية بقدر ما أهتم بسلامتیکما يا سيدي، فأنا أعلم جيِّدًا أيُّ عُنُقٍ سيطيِّر إذا أصابكما مكروهٌ وأنتما في رعايتي».

قطب الدوق جبينه مفكرًا: يا لحساسية الموقف! إذا رفضت، قد يشعر بالإهانة، وقد يكون هذا رجلًا ذا قيمة لا تُقدَّر بثمن. ومع ذلك، كيف أسمح له بتجاوز درعي ولمسي وأنا لا أعرف إلا أقل القليل عنه؟

تسارعت الأفكار في عقله، وأعقبها قرارٌ فوري. قال الدوق: «نحن رهن تصرُّفك»، ثم خطا إلى الأمام، وفتح عباءته، ورأى هاليك يقف على مشطٍ قدميه مستنفرًا وعلى أهبة الاستعداد، لكنه لم يبرح مكانه. قال الدوق: «سيسعدني أن أسمع شرحًا لطريقة عمل البذلة من شخص يألفها جيِّدًا، إذا تکرَّمت».

قال كاينز: «بالأكيد»، وهو يتحسَّس من تحت العباءة بحثًا

عن موانع تسرُّب الكتفين. وبدأ يشرح وهو يتفَقَّد البذلة: «البذلة مصنوعة من طبقات رقيقة تحيط بالجسم كالشطيرة، تعمل كمرشِّح عالي الكفاءة وكنظام تبادل حراري»، ثم ضبط موانع تسرُّب الكتفين. «الطبقة الملامسة للجلد مسامية، يمرُّ العرق من خلالها بعد أن يكون قد برَّد الجسم، وهي عملية تشبه التبخُّر الطبيعي». شد كاينز رباط الصدر وأردف: «تتضمن الطبقتان التاليتان على خيوط للتبادل الحراري ومرسِّبات للملح. هكذا يُستعاد الملح». أشار كاينز إلى الدوق فرغ ذراعيه، وقال: «مدهش جدًّا». قال كاينز: «تنفَّس بعمق».

أطاعه الدوق.

تفحَّص كاينز سدَّادات الإبط، وضبط إحداها وهو يقول: «حركة الجسم، بالأخص التنفُّس وبعض العمليات الأسموزية، توفرُّ قوَّة الضخ المطلوبة». ثم أرخى منطقة الصدر بعض الشيء. «يُخزَّن الماء المُعاد تدويره في جيوب التجميع، ومنها يمكنك شفط الماء عبر هذا الأنبوب المعلَّق في المشبك قرب عنقك». لوى الدوق ذقنه إلى الداخل وإلى أسفل لينظر إلى طرف الأنبوب، وقال: «عملي ومريح. تصميم هندسي جيّد».

ركع كاينز على ركبته ليتفحَّص سدَّادات الساقين، وواصل شرحه: «تُجرى معالجة البول والبراز في حشوة الفخذ»، قالها وقام واقفًا، وتحسَّس الجزء المحيط بالعُنق، ورفع سديلة منفصلة به. «في الصَّحراء المفتوحة ستضع هذا المرشِّح على وجهك، وستدخل هذا الأنبوب في فتحتي الأنف وستحكم غلقه بهاتين السدَّادتين لضمان عدم حدوث تسريب. ستتتنفَّس عبر مرشِّح الفم، وتزفر عبر أنبوب الأنف. مع بذلة فرمينة بحالة جيِّدة، لن

تفقد أكثر من ملء كشتبان من الرطوبة في اليوم، حتَّى لو علقت في نطاق العرق * العظيم».

ردَّ الدوق: «ملء كشتبان في اليوم».

ضغط كاينز بإصبعه على حشوة غطاء الجبهة وقال: «قد تشعر بحكَّة خفيفة، أرجو أن تخبرني إذا أزعجتك، أستطيع أن أشدها لتكون أكثر إحكامًا».

قال الدوق: «أشكرك»، وراح يحرك كتفيه في البذلة في أثناء ما تراجع كاينز خطورة إلى إلى الخلف. شعر ليتو بأنها صارت أكثر إحكامًا وراحةً، ولا تسبب حكَّة مزعجة.

التفت كاينز إلى پول وقال: «لنلقي نظرة إليك الآن يا فتى».

فكَّر الدوق: إنه رجل صالح ولكن عليه أن يتعلَّم مخاطبتنا بشكلٍ لائق.

وقف پول مستسلمًا فيما راح كاينز يتفقَّد بذلته. كان قد شعر بإحساس غريب عند ارتدائه هذه البذلة المعقَّدة ذات السطح الأملس. في عقله الواعي كان متيقنًا تمام التيقن من أنه لم يرتدِ بذلة تقطير من قبل. ومع ذلك، فإن كل حركة فعلها وهو يضبط ألسنتها اللاصقة تحت توجيهات جيرني عديم الخبرة بدت طبيعية وفطرية. وعندما شد منطقة الصدر للحصول على أقصى قدر من الضخ من حركة التنفُّس، كان يعرف ماذا يفعل ولماذا يفعله. وعندما أحكم شد نطاق العنق وألسنة الجبين، كان يعلم أن ذلك لمنع البثور التي تنتج عن الاحتكاك.

اعتدل كاينز وخطا إلى الوراء وقد بدا على وجهه تعبير حائر.

سأله: «هل ارتديت بذلة تقطير من قبل؟».

- «هذه أوَّل مرَّة».

- «هل ضبطها أحدٌ لك؟».

- «كلا».

- «بيادتك الصحراوية محكمة الربط من عند الكاحلين، من أخبرك أن تفعل هذا؟».

- «بدت أنها.. الطريقة الصحيحة».

- «هي كذلك بكل تأكيد».

حكَّ كايْنز ذقنه مفكِّراً فيما ذكرته الأسطورة: «ولسوف يعلم عاداتكم كأنه نشأ عليها».

قال الدوق: «إننا نضيِّع الوقت»، ثم أشار إلى الثوبتر المنتظرة وتقدَّمت المجموعة إليها، مجيئاً تحيَّة الحارس العسكرية بإيماء من رأسه. صعد علي متن الطائرة، وربط حزام الأمان، وفحص الأجهزة وأدوات التحكم. أصدرت المركبة صريراً مع صعود الآخرين على متنها.

ربط كايْنز حزام الأمان، وقد لفت نظره فخامة بطانة المركبة المريحة من الداخل، وراح يتأمل البذخ البادي في تجديد المقاعد الناعم ذي اللون الفستقي، والمعدَّات البرَّاقة، وإحساس الهواء النقي المفسول في رئتيه عندما أغلقت الأبواب ودبَّت الحياة في مراوح التهوية.

يا للترف! هكذا فكَّر.

قال هاليك: «الكل جاهز يا سيدي».

غذَّى ليتو الأجنحة بالطاقة، وشمر بها تتحرَّك إلى أعلى وأسفل: مرَّة، وثانية. ثم صاروا يحلِّقون على ارتفاع عشرة أمتار في الهواء، والأجنحة ترفرف بإحكام وقوَّة، فيما تدفعهم المحرَّكات النفاثة إلى أعلى في صعودٍ حادٍ وصاخب.

قال كاينز: «سننتجه إلى الجنوب الشرقي من فوق الجدار الحامي، صوب المكان الذي طلبت من مشرف الرمال -مدير العمليات التابع لكم- أن يركز معدّاته».

- «عُلم».

مال الدوق بالثوبتر نحو طائرات الحراسة الجوية، فأتخذت المركبات الأخرى مواقع التأمين المعهودة، وانطلق السرب نحو الجنوب الشرقي.

قال الدوق: «يشي تصميم وتصنيع هذه البذلات بدرجة عالية من الاحترافية».

قال كاينز: «يومًا ما قد أصحبك في جولة عبر أحد مصانع السييتشات».

قال الدوق: «سيكون هذا مثيرًا. لاحظت أيضًا أن البذلات تُصنّع في بعض مدن الحاميات».

قال كاينز: «إنها نسخ مقلّدة رديئة الجودة. أيُّ رجل يحترم جسده يرتدي بذلة من صنع الفرمن».

- «وتقول إن هذه تجعل خسارة الماء تعادل ملء كشتبان في اليوم؟».

قال كاينز: «إذا ارتديت بطريقة صحيحة، مع إحكام غطاء الجبهة وكل السدّادات، سيكون فقد الماء الأكبر من خلال راحتي يديك. بالطبع يمكنك ارتداء قمّازي البذلة إذا كنت لا تستخدم يديك في عمل ضروري، ولكن معظم الفرمن في الصّحراء المفتوحة يفركون أيديهم بعصارة أوراق شجيرة الكريوزوت الزيتية، فهو يمنع التعرّق».

نظر الدوق إلى أسفل نحو منحدرات الجدار الحامي المتصدّعة،

ورأى الشقوق المحفورة في الصخور المعذبة: الجلاميد الصفراء
البنية التي تقطعها خطوط صدعية سوداء التي بدت كأنها هوت
من السماء وتُركت محطمة حيث سقطت. ثم عبروا حوضاً ضحلاً
تحده بوضوح رمال رمادية وتنتشر من حوله قادمة من مخرج وادٍ
ضيّق إلى الجنوب. كانت أخاديد الرمال تتشعب كالشرايين عبر
الحوض، دلّتا جافة مُحاطة بصخور داكنة.

استرخى كاينز في مقعده مفكراً في الجسدين العامين
بالمياه الذين استشعرهما أسفل بذلتي التقطير. كانا يرتديان
حزامي درعي طاقة أسفل عبا، وهما، وويتمنطقان بصواعق بطيئة
السهم عند خصريهما، ويعلّقان جهاز إرسال للطوارئ في حجم
عملتين معدنيتين من سلسلتين حول عنقيهما. كلّ من الدوق وابنه
يحمل خنجرًا في غمدٍ على معصمه، وقد بدا الغمدين باليين
من كثرة الاستعمال. رأى كاينز في هؤلاء القوم مزيجاً غريباً
أثار دهشته من النعومة والقوة المسلّحة، رأى فيهم اتزاناً يختلف
تماماً عمّا عهده في الهراكنة.

سأل ليتو: «عندما ستقدّم تقريرك إلى الإمبراطور عن تغيير
الحكومة هنا، هل ستقول إنّنا راعينا الأعراف وأتبعنا القوانين؟»
ثم رمق كاينز بنظرة خاطفة، قبل أن يعود للتركيز على المسار.
قال كاينز: «الهراكنة غادروا، وأنتم أتيتم».

سأله ليتو: «وهل سار الأمر كما ينبغي أن يسير؟»
بدا توتّر لحظي في انقباض إحدى عضلات فك كاينز، ثم
قال: «بصفتي عالم بيئة كوكبي وقاضي فترة انتقالية، فأنا لا
أخضع إلا لسلطة الإمبراطور مباشرة.. يا مولاي».

ابتسم الدوق بشكس وقال: «لكن كلينا يعرف حقيقة الأوضاع».

- «أذكرك بأن جلالته يدعم عملي هنا».

- «حقاً؟ وما عملك هنا بالضبط؟».

مرّت لحظة صمت قصيرة فكّر فيها پول: إنه يضغط على هذا المدعو كاينز أكثر من اللازم. نظر پول إلى هاليك، لكن المحارب المطرب كان يحملق سارحاً في الأراضي القاحلة. قال كاينز بتحفظ: «أنت - قطعاً - تلمّح إلى واجباتي بصفتي عالم بيئة كوكبي».

- «بلا شك».

- «يتعلّق عملي في المقام الأوّل بدراسة أحياء ونباتات الأراضي الجافة، وبيعض الدراسات الجيولوجية أيضاً، كالحفر في باطن الأرض وإجراء التجارب. لا يمكن للمرء أن يفرغ من دراسة كوكب برمّته».

- «وهل تدرس الاسپايس كذلك؟».

التفت كاينز إلى الدوق، ولاحظ پول الصرامة البادية على جانب وجهه: «هذا سؤال فضولي يا سيّدي».

- «لا تنس يا كاينز أنني الحاكم على هذه الإقطاعية الآن، وأساليبي تختلف عن أساليب الهراكنة. لا أمانع إن كنت تدرس الاسپايس، ما دمت سأطلع على ما تكتشفه»، قالها الدوق وألقى نظرة إلى عالم البيئات الكوكبية ثم أردف: «لم يكن الهراكنة يشجّعون دراسة الاسپايس، أليس كذلك؟».

بادله كاينز التحديق دون أن يجيب.

قال الدوق: «يمكنك التحدّث بوضوح بلا خوف على حياتك».

- «البلاط الإمبراطوري بعيد جداً بالفعل»، هكذا تمتم كاينز، ثم فكّر: ماذا يتوقّع هذا الغازي الغض بالمياه؟ أبظن أنني أحرق بما يكفي للانضمام إلى صفّه؟

ضحك الدوق دون أن يرفع عينه عن المسار، ثم قال: «أستشعر بعض المرارة في صوتك يا سيدي. أنت ترى أننا نزلنا على هذا الكوكب بعصابتنا من القتلة المروّضين، وأننا نتوقّع منك أن تدرك على الفور أننا مختلفون عن الهراكنة، أليس كذلك؟».

قال كاينز: «لقد رأيت المنشورات التي أغرقتم بها السييتشات والقرى. أحبُّوا الدوق الصالح! إن قوّاتك...»

صاح هاليك مقاطعاً: «هذا يكفي!»، وقد أبعد انتباهه عن النافذة ومال إلى الأمام متحفّزاً.

وضع پول يده على ذراع هاليك.

قال الدوق: «على رسلك يا جيرني! هذا الرجل عاش طويلاً تحت حكم الهراكنة».

تراجع هاليك في مقعده، وقال: «حسناً».

قال كاينز: «رجلك حوّاط حاذق، لكن ما أراد انتزاعه مني كان واضحاً تماماً».

سأله الدوق: «هل ستفتح لنا هذه القواعد إذا؟».

قال كاينز باقتضاب: «إنها ملك جلالة الإمبراطور».

- «لكنها مهجورة وغير مستخدمة».

- «قد تُستخدم».

- «هل يؤيّد جلالته هذا الرأي؟».

رمى كاينز الدوق بنظرة حادة: «يمكن تحويل أراكس إلى جنّة

عدن إذا كفّ حكّامه عن التهافت على الاسپايس».

فكّر الدوق: لم يجب عن سؤالي، ثم قال: «وكيف يمكن أن

يصير الكوكب جنّة دون مال؟».

سأله كاينز: «وما نفع المال إن لم يبتاع الخدمات التي يحتاج المرء إليها؟».

فكّر الدوق: يا للهراء!، وقال: «سنناقش هذا في وقتٍ لاحق. أظن أننا نقرب من حافة الجدار الحامي، هل أحافظ على نفس المسار؟».

تمتم كاينز: «نفس المسار».

نظر پول عبر النافذة. أسفلهم، بدأت سفوح المنحدرات المتشققة تتحوّل تدريجيًا إلى أراضٍ وعرة ومسطحات صخرية حادة كالسكاكين. وخلفها، امتدّت على مرمى البصر طيّات هلالية تلو أخرى من الكثبان الرملية، تتخلّلها بقعٌ داكنة متفرقة، ولطخات باهتة هنا وهناك، تدل على وجود تكوينات جيولوجية أخرى غير الرمال. قد تكون نتوءات صخرية، ولكن عبر تموجات الهواء الساخن، لم يستطع پول التأكّد.

سأل پول: «أتوجد نباتات هنا في الأسفل؟».

قال كاينز: «توجد بعض النباتات، يحتوي النطاق الإحيائي لخطوط العرض هذه على ما نسمّيه سارقات المياه الصغيرة، وهي نباتات تكيفت على مداهمة بعضها بعضًا لاقتناص الرطوبة من الجو، والتهام بقايا قطرات الندى. بعض المناطق في الصّحراء تموج بأشكال الحياة، لكنها جميعًا تعلّمت كيف تتجو في ظل هذه الظروف القاسية. إذا حدث وعلقت في هذه المنطقة من الصّحراء، إما أن تحاكي أساليب هذه الكائنات وإما ستموت».

سأل پول: «أتعني سرقة المياه بعضنا من بعض؟». أغضبته الفكرة، وخانت نبرة صوته مكنون صدره.

قال كاينز: «هذا يحدث أحياناً، لكن لم يكن ذلك ما أعنيه بالضبط. ما عنيتَه أن مناخي يتطلَّب أسلوب تعامل خاص مع المياه. عليك أن تظل واعياً للماء في جميع الأوقات، لا يفضل عن بالك. لا تهدر أيَّ شيء يحتوي على الماء».

فكَّر الدوق: «... مناخي!».

قال كاينز: «انحرف بمقدار درجتين تجاه الجنوب يا مولاي، فثمة عاصفة قادمة من الغرب».

أوماً الدوق، إذ كان قد لاحظ بالفعل سحابة الغبار الداكنة التي بدأت تتصاعد. مال الدوق بالثوبتر، ولاحظ انعكاس اللون البرتقالي الغائم على أجنحة الطائرات المرافقة وهي تستدير لمواكبته، الناتج عن انكسار الضوء بفعل الغبار.

قال كاينز: «سينأى هذا بنا عن حافة العاصفة».

قال پول: «تبدو هذه الرمال خطيرة إذا حلَّقنا فيها. أهي قادرة حقاً على قطع أقوى المعادن؟».

قال كاينز: «ما تراه على هذا الارتفاع ليس رملاً، بل غبار، الخطورة تكمن في انعدام الرؤية، والاضطرابات الجويّة، وانسداد فتحات التهوية».

سأله پول: «هل سنشاهد اليوم عملية تنقيب فعلية عن الاسپايس؟».

قال كاينز: «احتمال كبير».

تراجع پول في مقعده. لقد استخدم الأسئلة وتركيز الوعي لتحقيق ما تُسمِّيه أمُّه «تسجيل ملف» الشخص. لقد صار مُلمّاً بسمات كاينز الآن: نبرة صوته، وكل تفاصيل ملامحه وحركاته وسكناته. تلك الطيَّة الغريبة في كم الرجل الأيسر تشي بوجود

سكين مخفي في غمد الذراع، وفي خصره أيضًا انبعاجات غريبة. يُقال إن رجال الصَّحراء يلفُّون خواصرهم بوشاح يستخدمونه نطاقًا يدسُّون فيه حاجيات صغيرة. ربُّما هذه الانبعاجات سببها هذا النطاق، فهي قطعًا ليست ناتجة عن حزام درع مخفي. أيضًا ثَمَّة دبوس نحاسي محفور عليه شكل أرنب يشبك رداء كاينز قرب العنق، ودبوس آخر أصغر عليه شكل مشابه معلق في جانب القلنسوة التي يلقِيها وراء كتفيه.

استدار هاليك في المقعد المجاور إلى پول، ومدَّ يده إلى الحاوية الخلفية والتقط الباليست. نظر كاينز حوله عندما بدأ هاليك يضبط آلتِه الموسيقية، ثم أعاد انتباهه إلى المسار. سأل هاليك: «ماذا تحب أن تسمع يا سيِّدي الصغير؟».

قال پول: «فاجئني يا جيرني».

مال هاليك وقربَّ أُذُنَه من اللوحة الصَّوتية، وضرب على الأوتار وغنَّى بعدوبة:

«أكل آباؤنا المنَّ في الصَّحراء،

في الأراضي اللافتة حيث تهتاج الزوابع.

أنقذنا يا ربُّنا من هذه الغبراء!

أنقذنا، إنا نعوز بك، أنقذنا

من أرض العطش الجدباء».

نظر كاينز إلى الدوق وقال: «سمعت أنك تتقلَّب برفقة حرس خفيف يا مولاي، هل جميعهم رجال متعدِّدو المواهب هكذا؟». ضحك الدوق: «أتعني جيرني؟ جيرني فريدٌ من نوعه. أحب أن يرافقني لعينيهِ الثاقبتين. هاتان عينا صقر لا يفوتهما شيء».

قطب عالم البيئات الكوكبية جبينه.

تدخّل هاليك قائلاً دون أن يترهّل إيقاع لحنه:

«لأنني كبومة الصّحراء!»

حقاً أقول! كبومة الصّحراء أنا..

مدّ الدوق يده إلى لوحة الأجهزة والتقط ميكروفوناً، وضغط زرّه وقال:

- «من القائد إلى الحامية جيما. جسم طائر في اتّجاه عقرب الساعة التاسعة، القطاع ب، أتعرف هويّته؟».

قال كاينز: «إنه مجرد طائر»، ثم أضاف: «تتمتع بنظر لثاقب». صدرت قطعة من السمّاعة في اللوحة، ثم: «هنا الحامية جيما. فُحص الجسم بعناية بعد تكبير كامل لمجال الرؤية. إنه طائر كبير».

نظر پول إلى الاتّجاه المذكور، ورأى نقطة بعيدة، نقطة تتحرّك حركة متقطّعة، وأدرك إلى أيّ مدى والده يقظ، وكيف أن كل حاسة من حواسه مشحوزة بالكامل.

قال الدوق: «لم أكن أعرف أن طيوراً بهذا الحجم تعيش في هذا العمق في الصّحراء».

قال كاينز: «إنه عُقاب على الأرجح. مخلوقات كثيرة تكيّفت على الحياة في هذا الكوكب».

حلّقت الأورنيثوبتر فوق أرض صخرية جرداء. نظر پول من ارتفاع ألفي متر ورأى الظلال المتعرّجة التي تلقيها طائرتهم والطائرات المرافقة. بدت الأرض أسفلهم مسطحة، لكن تعاريج الظلال وشتت بغير ذلك.

سأل الدوق: «هل سبق أن عاد أحدهم سيرًا من الصَّحراء؟»
توقَّف هاليك عن العزف، ومال إلى الأمام لسمع الجواب.
قال كاينز: «ليس من أعماق الصَّحراء. بعض الرجال عادوا من
النطاق الثاني مرَّات عدَّة، وهؤلاء نجوا بعبور المناطق الصخرية
التي نادرًا ما تقصدها الديدان».
جذبت نبرة صوت كاينز اهتمام پول، وانتبهت حاسته الإدراكية
كما درَّبت أن تفعل.

قال الدوق: «آها، الديدان. يجب أن أرى واحدة لاحقًا».
قال كاينز: «قد ترى واحدة اليوم، فأينما وُجد الاسپايس
وُجدت الديدان».
سأل هاليك: «دائمًا؟»
- «دائمًا».

قال الدوق: «أ توجد علاقة بين الديدان والاسپايس؟»
التفت كاينز نحوه فلاحظ پول شفتي الرجل المزمومتين، ثم
قال: «إنها تدافع عن الرمال الغنية بالاسپايس، فلكل دودة منطقة
نفوذ. أما بخصوص الاسپايس، فمن يعرف؟ عينات الديدان
التي فحصناها تجعلنا نشبهه في حدوث عمليات تبادل كيميائي
معقدة داخل أجسادها، فقد وجدنا آثار حمض الهيدروكلوريك
في عروقها، وأحماض أخرى أكثر تعقيدًا في أماكن أخرى من
أجسادها. سأطلعك على دراستي عن هذا الموضوع».
سأل الدوق: «وهل لا تفلح دروع الطاقة في صدِّها؟».

قال كاينز ساخرًا: «دروع الطاقة! فقط فُعل درع طاقة داخل
إحدى مناطق الديدان وسينتهي أمرك. تتجاهل الديدان مناطق
النفوذ عند تشغيل الدرع، وتأتي من كل فجٍّ عميق لمهاجمته. لم

يسبق أن نجا رجلٌ يضع درعاً من هجوم كهذا».

- «وكيف تُصاد الديدان إذا؟».

قال كاينز: «الطريقة الوحيدة المعروفة لقتل الدودة والحفاظ عليها سليمة تكون بتوجيه صدمة كهربائية عالية الجهد إلى كل حلقة من الحلقات المكوّنة لجسدها. يمكن شلُّ حركة الدودة وتدميرها بالمتفجرات، لكن كل قطاع حلقي له حياة مستقلة. باستثناء الأسلحة الذرية، لا أعرف متفجرات أخرى قادرة على تدمير دودة كبيرة بشكل كامل. إن أجسامها شديدة الصلابة».

سأل پول: «لِمَ لم يُبذل جهدٌ للقضاء عليها وإبادتها جميعاً؟».

قال كاينز: «هذا مكلف جداً. المساحة المطلوب تغطيتها شاسعة».

تراجع پول إلى الركن الذي يحتله. لقد أخبره حسّه الكاشف للكذب، ووعيه بنبرات الصّوت، بأن كاينز يكذب، ويتفوّه بأنصاف حقائق فحسب. ووجد نفسه يُفكّر: إن كانت هناك علاقة بين الاسپايس والديدان، فإبادة الديدان ستبديد الاسپايس كذلك.

قال الدوق: «قريباً لن يُضطر أحدٌ للعودة من الصّحراء سيراً. كل ما على المرء فعله هو تفعيل أجهزة البثّ الصغيرة هذه المعلّقة في أعناقنا، وستكون النجدة في الطريق. قريباً سيرتدي كل عامل من عمّالنا جهازاً كهذا، فنحن بصدد إنشاء خدمة إنقاذ خاصة».

قال كاينز: «خطوة تستحق الإشادة».

قال الدوق: «نبرتك تقول إنك لا تتفق».

- «لا أتفق؟ بالتأكيد أتفق، لكنها بلا نفع حقيقي. الكهرباء الساكنة الناتجة عن العواصف الرملية تعجب الكثير من الإشارات

وتُفسد دوائر أجهزة البث. لقد سبق تجربتها هنا. إن أَرَاكس
لكوكبٍ قاسٍ على المُعدَّات. ومن ناحيةٍ أخرى، إذا طاردتك إحدى
الديدان فلن يكون أمامك الكثير من الوقت. في أغلب الأحيان لا
يكون أمامك أكثر من خمس عشرة أو عشرين دقيقة».

سأل الدوق: «وبم تنصح؟».

- «هل تطلب نصيحتي؟».

- «أجل، بصفتك عالم بيئات كوكبية».

- «وهل ستتبع نصيحتي؟».

- «إن وجدتتها منطقية».

- «حسنًا يا سيدي، لا تسافر وحدك أبدًا».

حوَّل الدوق انتباهه عن أجهزة التحكم، وقال: «أهذا كل ما
لديك؟».

- «هذا كل ما لدي. لا تسافر وحدك أبدًا».

سأل هاليك: «لكن ماذا لو انفصلت عن مجموعتك وأُجبرت
على الهبوط بسبب عاصفة؟ ألا يوجد ما يُمكن فعله حينها؟».

قال كاينز: «هذا سؤال عام جدًا».

سأل بول: «ماذا ستفعل أنت حينها؟».

استدار كاينز وحدَّج الصبيَّ بنظرة حادة، ثم أعاد انتباهه إلى
الدوق: «أوَّل شيء سأناكِّد من سلامة بذلة التقطير. إذا كنت
خارج مناطق نفوذ الديدان أو في منطقة صخرية، سألزم مركبتي.
أما إذا كنت في منطقة رمال مفتوحة، سأبتعد عن المركبة بأسرع
ما يمكن. ألف متر تقريبًا ستكون كافية، ثم سأختبئ تحت ردائي.
ستلتهم الدودة المركبة، لكنها قد لا تلاحظ وجودي».

سأله هاليك: «وماذا بعد؟».

مكتبة

t.me/t_pdf

هَزَّ كَايْنَزْ كَتْفِيهِ وَقَالَ: «سَأَنْتَظِرُ حَتَّى تَرْحَلَ الدَّودَةُ».

سَأَلَهُ بُولُ: «هَذَا كُلُّ شَيْءٍ؟».

قَالَ كَايْنَزْ: «بَعْدَ رَحِيلِ الدَّودَةِ، يُمْكِنُ لِلْمَرْءِ الْبَدْءَ فِي السَّيْرِ، لَكِنْ عَلَيْهِ السَّيْرُ بِنَعُومَةٍ، وَتَفَادِي الرَّمْلِ الطَّبْلِي، وَأَحْوَاضَ الْمَدِّ وَالْجَذْرِ الْغُبَارِيَّةِ، وَالتَّوَجُّهَ إِلَى أَقْرَبِ مَنْطِقَةٍ صَخْرِيَّةٍ. يُوجَدُ الْكَثِيرُ مِنْ هَذِهِ الْمَنَاطِقِ. إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، رُبَّمَا تَتِمَكَّنُ مِنَ الْخُرُوجِ حَيًّا».

سَأَلَ هَالِيكَ: «الرَّمْلُ الطَّبْلِي؟».

قَالَ كَايْنَزْ: «إِنَّهَا حَالَةٌ مِنْ انْضِغَاطِ الرَّمَالِ. أَقَلُّ خُطْوَةٍ تَجْعَلُ الرَّمْلَ يَقْرَعُ كَالطَّبْلِ، وَدَائِمًا مَا يَجْذِبُ ذَلِكَ الْبِيدَانَ».

سَأَلَ الدُّوقُ: «وَمَاذَا عَنْ حَوْضِ الْمَدِّ وَالْجَذْرِ الْغُبَارِيِّ؟».

- «بَعْضُ الْمُنْخَفِضَاتِ فِي الصَّحَرَاءِ امْتَلَأَتْ بِالْغُبَارِ عَلَى مَدَارِ قُرُونٍ، وَبَعْضُهَا وَاسِعٌ جَدًّا إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُ يَحْتَوِي عَلَى تِيَارَاتٍ وَمَدِّ وَجُزُرٍ. هَذِهِ الْأَحْوَاضُ سَتَبْتَلِعُ الْغَافِلَ الَّذِي يَدْخُلُهَا».

تَرَجَعَ هَالِيكَ فِي مَقْعَدِهِ، وَاسْتَأْنَفَ الضَّرْبَ عَلَى أَوْتَارِ الْبَالِيْسِتِ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ كَانَ يَغْنَى:

«هَنَا تَتَصَيَّدُ الْوَحُوشَ الْبَرِّيَّةَ فِي الصَّحَرَاءِ،

هَنَا تَتَرَيِّصُ لِمُرُورِ الْأَبْرِيَاءِ.

أَوْه، إِيَّاكَ وَإِغْضَابَ آلِهَةِ الْيَهْمَاءِ،

إِلَّا إِنْ كُنْتَ تَبْحَثُ عَنْ ضَرْحٍ مَهْجُورٍ.

مَخَاطِرُ الدَّ...»

ثُمَّ بَتَرَ هَالِيكَ غَنَاءَهُ بَغْتَةً، وَمَالَ إِلَى الْأَمَامِ قَائِلًا: «سَحَابَةُ غُبَارٍ أَمَامَنَا يَا سَيِّدِي».

- «أَرَاهَا يَا جِيرَنِي».

قَالَ كَايْنَزْ: «هَذَا مَا نَبْحَثُ عَنْهُ».

شبَّ پول في مقعده لينظر إلى الأمام، ورأى غيمة صفراء تعلو سطح الصَّحراء على ارتفاع منخفض وتبعد نحو ثلاثين كيلومترًا. قال كاينز: «إنها إحدى مجارف الرمال التابعة لك. إنها على السطح، وهذا يعني أنها فوق أرض غنيّة بالاسپايس. السحابة تتكوّن من رمالٍ مطرودة بالهواء، بعد فصل الاسپايس عنها بالطرد المركزي، ولا تشبهها سحابة أخرى». قال الدوق: «هناك طائفة تحلق فوقها».

قال كاينز: «أرى اثنتين، ثلاث، أربع حوَّامات مراقبة. إنها تراقب المحيط بحثًا عن إحدى علامات الديدان». سأل الدوق: «علامات الديدان؟».

- «إنه المصطلح الذي نطلقه على الموجة الرملية المتحرّكة باتجاه زحّافة الرمال. أيضًا توجد مجسات زلزالية منشورة على السطح، فأحيانًا تتحرّك الديدان على مسافة عميقة في باطن الأرض، ما لا يُسبّب موجة في الرمال»، قالها كاينز وأدار بصره في السماء، ثم أردف: «يُفترض أن تكون هناك حاملة جويّة في الجوار، لكنني لا أراها».

قال هاليك: «الديدان تأتي دائمًا، أليس كذلك؟». - «دائمًا».

مال پول إلى الأمام، ولمس كتف كاينز وسأله: «ما مساحة منطقة النفوذ التي تحرسها كل دودة؟». قطب كاينز جبينه. لا ينفك الفتى عن طرح أسئلة أكبر من سنّه.

- «يعتمد الأمر على حجم الدودة».

سأل الدوق: «إلى أيّ مدى تتراوح المساحة بالتقريب؟».

- «الديدان الكبيرة قد تفرض نفوذها على ثلاثمئة أو أربعمئة كيلومترٍ مربعٍ. أما الصغيرة...»، قطع كاينز عبارته حين ضغط الدوق المكابح النَّفَّاثَة، ما أدَّى إلى طرح المركبة إلى الأمام مع تباطؤ دوران مراوح الذيل قبل توقُّفها. استطالت ألواح الأجنحة المعدنية ورفرفت محتضنة الهواء. تحوَّلت المركبة إلى ثوبتر كاملة، فمال الدوق بها محافظًا على إيقاع رفرفة الأجنحة وهو يشير بيده اليسرى إلى الشرق خلف زحَّافة الرمال.

- «أهذه من علامات الديدان؟».

مال كاينز نحو الدوق كي ينظر إلى حيث يشير، فيما تكدَّس كلُّ من پول وهاليك وهما ينظران إلى الاتجاه نفسه. لاحظ پول أن الطائرات المرافقة تجاوزتهم بسبب المناورة المبالغتة، لكنها كانت تعود أدراجها الآن. كانت زحَّافة الرمال قابضة أمامهم، لا تزال على بُعد نحو ثلاثة كيلومترات.

حيث أشار الدوق، امتدَّت الكتبان الهلالية حتَّى الأفق، ناشرةً ظلالاً متموجة على مرمى البصر... وكان يجري عبرها، في خطٍّ مستقيم، انبعاث ممدود كأنه جبلٌ متحرِّك: حلبة في الرمال ذكَّرت پول بالطريقة التي تثير بها سمكة كبيرة اضطرابًا في صفحة الماء حين تسبح تحت سطحه مباشرةً.

قال كاينز: «إنها دودة كبيرة». ثم اعتدل في مقعده، والتقط الميكروفون من لوحة الأجهزة، وضغط زر تغيير التردد، وبدأ يتحدَّث فيه وهو يختلس النظر إلى الخريطة المعلقة فوق رؤوسهم: «إلى الزحَّافة في الموقع دلتا أچاكس ناينر. تحذير: علامة على وجود دودة. إلى الزحَّافة في الموقع دلتا أچاكس ناينر.

تحذير: علامة على وجود دودة. يُرجى تأكيد الاستلام». أنهى كاينز كلامه وانتظر.

صدرت طقطقة استاتيكية من السمّاعة، ثم جاء صوتٌ يقول: «من المتّصل بدلتا أچاكس ناينر؟ حوّل».

قال هاليك: «يتصرّفون بهدوء شديد».

قال كاينز عبر الميكروفون: «نحن رحلة جوّية غير مدرجة على الجدول، شمال شرق موقعك، على بُعد ثلاثة كيلومترات تقريبًا. الدودة تتّجه إلى موقعكم، وقت الوصول المتوقّع خمس وعشرون دقيقة».

جاء صوتٌ آخر عبر السمّاعة يقول: «هنا حوامة المراقبة المركزية، نوّكد الرؤية. استعد لتلقّي تصحيح زمن الوصول». مرّت لحظة صمت، ثم: «الوصول في أقل من ستة وعشرين دقيقة. تقديركم كان دقيقًا جدًا. من يطير على متن تلك الرحلة غير المسجّلة؟ حوّل».

فكّ هاليك حزام الأمان، واندفع إلى الأمام بين كاينز والدوق قائلاً: «هل هذا ترددّ العمل المعتاد يا كاينز؟».

- «أجل، لماذا؟».

- «ومن أيضًا يستمع إليه؟».

- «لا أحد غير أطقم العمل في المنطقة، هذا يحدّ من تداخل الإشارات».

مرّة أخرى صدرت طقطقة من السمّاعة، ثم: «هنا دلتا أچاكس ناينر، من الذي سيحصل على مكافأة هذا الاكتشاف؟».

نظر هاليك إلى الدوق في حيرة.

قال كاينز: «تُخصّص مكافأة لمن يعطي أول تحذير من الدودة،

تُحسب بناءً على حجم حمولة الاسبايس. إنهم يريدون معرفة...». قال هاليك: «أخبرهم بهوية أوّل من رصد الدودة». أوماً الدوق موافقاً.

تردّد كاينز لحظة، ثم رفع الميكروفون إلى فمه وقال: «صاحب الاكتشاف هو الدوق ليتو آتريديز. أكّرر، الدوق ليتو آتريديز، حوّل». جاء الصّوت من السّمّاعة غير واضح، تشوّش عليه دفقة من الكهرياء الاستاتيكية: «عُلم، وشكراً لك».

أمره هاليك: «الآن، قل لهم أن يقسّموا المكافأة فيما بينهم. أخبرهم إنها رغبة الدوق».

أخذ كاينز نفساً عميقاً ثم قال: «الدوق يوصي بتقسيم المكافأة على أفراد طاقمك. هل تسمعني؟ حوّل».

قال الصّوت من السّمّاعة: «عُلم، وشكراً لك».

قال الدوق: «نسيت أن أخبرك أن جيرني أيضاً موهوب جداً في أمور العلاقات العامّة».

التفت كاينز ووجّه نظره عابسة حائرة إلى هاليك.

قال هاليك: «هذا سيجعل الرجال يعرفون أن دوقهم يهتم بسلامتهم، وسيُشاع الخبر. كما أن الأمر أذيع عبر تردّد موجة العمل، فمن غير المحتمل أن يكون أحد عملاء الهراكنة قد التقطه». ثم نظر إلى الخارج نحو الحراسة الجوّية وأردف: «كما أننا برفقة قوّة جويّة لا يُستهان بها. كانت مخاطرة محسوبة». مال الدوق بالمركبة متّجّها نحو سحابة الغبار المنبعثة من زخّافة الرمال، وقال: «ماذا سيحدث الآن؟».

قال كاينز: «في مكانٍ ما قريب تحوم حاملّة جويّة، ستأتي وتحمل الزخّافة بعيداً».

سأل هاليك: «ماذا لو أصاب الحاملة عطب؟».

قال كاينز: «ستُفقد المعدّات. اقترب من زحّافة الرمال يا مولاي، ستجد المشهد مثيراً».

قطب الدوق جبينه، وانصب اهتمامه على أجهزة التحكم مع اقترابهم من الهواء المضطرب الذي يعلو الزحّافة. نظر پول إلى أسفل ورأى الرمل الذي ما زال الوحش المعدني البلاستيكي يقذفه. بدت زحّافة الرمال أشبه بخنفسة برونزية زرقاء تخرج منها أذرع كثيرة تنتهي بجنازير عريضة. رأى پول خرطومًا عملاقًا ينتهي بقمع مقلوب مغروس في الرمال الداكنة أمام الزحّافة.

قال كاينز: «من لون التربة يبدو أن الرمال غنيّة جدًا بالاسپايس. سيواصلون العمل حتّى آخر دقيقة».

ضخّ الدوق مزيدًا من الوقود في الأجنحة، وصلّبها هابطًا بالثوبتر بجِدّة إلى ارتفاع منخفض، ثم وراح يحوم حول الزحّافة. نظر إلى اليمين واليسار ورأى طائرات التأمين الجوّي المرافقة تحوم فوقه في دائرة محافظة على ارتفاعها.

تأمّل پول السحابة الصفراء التي تخرج من فتحات أنابيب الزحّافة، ثم رنا ببصره نحو الصّحراء المترامية مراقبًا مسار الدودة المقتربة.

سأل هاليك: «أليس من المفترض أن نسمع اتّصالهم بالحاملة الجوّية».

قال كاينز: «عادةً ما يستخدمون موجة أخرى للتواصل مع الطائرة».

سأل الدوق: «ألم يكن ينبغي تخصيص حاملتين متأهّبتين

لكل زحافة رمال؟ من المفترض أن الزحافة تحمل ستة وعشرين رجلاً، فضلاً عن تكلفتها هي نفسها».

قال كاينز: «ليس لديك ما يكفي من الم...».

لكنه بتر عبارته فجأة مع ارتفاع صوت غاضب من سماعة الاتصال: «هل رأى أحدكم الطائرة؟ القائد لا يجيب؟».

قرقمت السماعة بضجيج مشوش، قبل أن تقطعه بفتة إشارة أخرى متداخلة، ثم عم الصمت، وقال الصوت الأول: «قدموا تقاريركم كل على حدة حول».

- «هنا حوامة المراقبة المركزية، آخر مرة رأيت فيها الحاملة كانت تحلق على ارتفاع عالٍ وتحوم في اتجاه الشمال الغربي. أما الآن فلا أراها، حول».

- «حوامة المراقبة 1: ليست في مجال الرؤية، حول».

- «حوامة المراقبة 2: ليست في مجال الرؤية، حول».

- «حوامة المراقبة 3: ليست في مجال الرؤية، حول».

عم الصمت.

نظر الدوق إلى أسفل حيث كان ظلُّ مركبته يعبر لتوه فوق الزحافة، وقال: «حوامات المراقبة أربع لا غير، أليس كذلك؟»
قال كاينز: «صحيح».

قال الدوق: «سرينا مكوّن من خمس مركبات، وكلّها أكبر حجمًا. يمكننا حمل 3 رجال إضافيين في كل مركبة، وتستطيع كل حوامة من حوامات المراقبة حمل رجلين إضافيين على الأكثر».

أجرى پول عملية حسابية سريعة في ذهنه، وقال: «هكذا سي تبقى ثلاث رجال».

صاح الدوق غاضبًا: «لِمَ لم تُخصّص حاملتان لكل زحافة؟».

قال كاينز: «ليس لديك ما يكفي من المعدات الإضافية».

- «هذا سببٌ أدعى لحماية ما لدينا».

سأل هاليك: «تُرى أين ذهبت تلك الحاملة؟».

قال كاينز: «رُبَّما تكون اضطرَّرت إلى الهبوط في مكان ما

بعيداً عن الأنظار».

التقط الدوق الميكروفون، وتوقَّفت إصبعه فوق زر التحدُّث،

وسأل: «كيف يمكن لحاملة جويَّة كاملة أن تغيب عن أنظارهم؟».

قال كاينز: «لأن اهتمامهم ينصب على الأرض، بحثاً عن

علامات الديدان».

ضغط الدوق الزر، وتحدَّث عبر الميكروفون: «الدوق ليتو يتحدَّث.

سنهبط لإجلاء طاقم عمل الزخَّافة دلنا أجاكس ناينر. على جميع

الحوَّامات الامتثال للأمر. ستهبط الحوَّامات على الجانب الشرقي،

ونحن سنأخذ الجانب الغربي، حوِّل»، وأنهى كلامه ثم ضغط زرَّ

التحوِّل إلى تردُّد قيادة سريره، وكرَّر الأمر لطائرات التأمين الجوي

المرافقة، قبل أن يعيد الميكروفون إلى كاينز.

عاد كاينز إلى تردُّد العمل، فخرج صوتٌ صاخبٌ من السمَّاعة:

«... حمولة اسپايس كاملة تقريباً! أكرِّر، لدينا حمولة كاملة تقريباً! لا

لا يمكننا ترك ذلك لدودة لعينة! حوِّل».

جأر الدوق في غضب: «سُحَقاً للاسپايس!»، ثم اختطف

الميكروفون مجدِّداً وقال: «يمكننا دوماً الحصول على مزيد من

الاسپايس. لدينا مقاعد تسعكم باستثناء ثلاثة. أجروا قرعة أو

قرَّروا بأي طريقة من سياأتي. لكنكم ستنفذون ما أقول، هذا

أمر!»، قالها وصفع الميكروفون بقوةً إلى يد كاينز وغمغم «آسف»

عندما هزَّ الأخير أصابعه من الألم.

سأل پول: «كم تبقى من الوقت؟».

قال كاينز: «تسع دقائق».

قال الدوق: «محرك هذه المركبة أقوى من محركات المركبات الأخرى. إذا أقلعنا بالنفاثات وبالأجنحة مفرودة ثلاثة أرباع امتدادها، نستطيع حمل رجلٍ إضافي».

قال كاينز: «تلك الرمال ناعمة».

قال هاليك: «الإقلاع بالنفاثات مع حمولة أربع رجال إضافية قد تكسر الأجنحة يا سيدي».

قال الدوق: «ليس مع هذه الطائرة».

ثم سحب عصا التحكم إلى الخلف فانزلقت الثوبتر إلى جوار الزخافة، ومع ضم الأجنحة إلى أعلى، وقفت الثوبتر بعد انزلاقها على بُعد عشرين مترًا من المصنع.

كانت الزخافة صامته الآن، بعد أن توقفت عن العمل ولم تعد تقذف الرمال من فتحات الأنابيب، فقط ظلّ يصدر منها دمدمة ميكانيكية خافتة، صارت أوضح عندما فتح الدوق بابه. على الفور، هجمت رائحة القرفة على أنوفهم. كانت ثقيلة ونفاذة.

انزلقت إحدى حوَامات المراقبة هابطة فوق الرمال على الجانب الآخر من الزخافة بصوت رفرفة مرتفع، وسرعان ما هبطت طائرات الحراسة المرافقة للدوق إلى جواره.

عندما نظر پول إلى المصنع، لاحظ كيف يقزم حجمه الهائل كل الثوبترات إلى جواره، التي بدت كما لو كانت بعموضًا إلى جوار خنفسة محاربة.

قال الدوق: «جيرني، اخلع مع پول المقاعد الخلفية وتخلصا منها»، ثم يدويًا، ضبط امتداد الأجنحة إلى ثلاثة أرباع الطول،

وعَدَّل زواياها، وفحص أذرع التحكم النَّفَّاثَات. «لماذا لم يخرجوا من تلك الآلة بحق الشيطان؟».

قال كاينز: «يأملون أن تظهر الحاملة. ما زال أمامهم بضع دقائق»، ثم نظر بعيداً باتجاه الشرق.

التفت الجميع ونظروا في الاتجاه نفسه. لم يلمحوا أثراً للدودة، لكن الهواء بدا مشحوناً بتوتر شديد.

التقط الدوق الميكروفون، وانتقل إلى تردد القيادة قائلاً: «فليتخلَّص اثنان منكم من مولِّدات دروع الطاقة، ستمكنون من حمل رجل إضافي بهذه الطريقة. لن نترك أي رجل خلفنا لهذا الوحش». ثم عاد إلى تردد موجة العمل، وصاح: «حسنًا، أنتم يا من داخل دلتا أجاكس ناينر! اخرجوا حالاً! هذا أمر مباشر من دوقكم! اخرجوا على وجه السرعة وإلا مَرَّقت هذه الزخَّافة ببنادق الليزر».

فُتحت كُوة بالقرب من مقدِّمة المصنع، وأخرى من المؤخِّرة، وثالثة من الأعلى. تدافع الرجال خارجين من الكوَّات، متعثِّرين ومتدحرجين نحو الرمال. كان آخر الخارجين رجلٌ طويل يرتدي جلباب عملٍ مرقَّع، وقد قفز أولاً إلى أحد الجنازير، ومنه إلى الرمال.

علَّق الدوق الميكروفون على لوحة الأجهزة، ووقف متأرجحاً على عتبة المركبة، وصاح: «رجلان في كل حوَّامة».

بدأ الرجل ذو الجلباب المرقَّع في جمع رجال طاقمه في أزواج، ودفعهم نحو المركبة المنتظرة على الجانب الآخر.

صاح الدوق: «ليأت أربعة منكم إلى هنا! وأربعة آخرون إلى تلك المركبة في الخلف!»، وأشار بإصبعه إلى إحدى طائرات

الحراسة الرابضة خلفه مباشرة، التي كان الحرس يجاهدون لإخراج مولد درع الطاقة منها. «وأربعة في تلك المركبة هناك»، وأشار إلى طائفة الحراسة الأخرى التي تخلص طاقمها من مولد درعها. «وثلاثة في كلٍ من الطائرات الأخرى! اركضوا يا كلاب الرمال!».

انتهى الرجل الطويل من عدّ رجاله، وجاء يهرول عبر الرمال، يتبعه ثلاثة من رفاقه.

قال كاينز: «أسمع صوت الدودة، لكنني لا أراها». عندها سمع الآخرون الصّوت: صوت كشطٍ خشن، بعيد لكنه يزداد قوّة.

تمتم الدوق: «طريقة فوضوية لعينة للعمل». بدأت الطائرات ترفرف بأجنحها مثيرّة الغبار من حولهم. ذكّر المشهد الدوق بشيءٍ حدث معه ذات مرّة في غابات كوكبه: خروجه المفاجئ إلى مساحة خالية من الأشجار، ورؤيته لأكلات جيفٍ تحلّق مبتعدةً عن جثّة ثورٍ بري.

هرول عمّال الاسپايس نحو الثوبتر وتجمّعوا عند أحد جانبيها، وبدؤوا يتسلّقون خلف الدوق، وراح هاليك يسحبهم إلى الخلف وهو يصيح: «إلى الدخال يا شباب! أسرعوا!».

انحشر پول في الركن إلى جوار رجلٍ متعرّق، واشتم في عرقه رائحة الخوف، ورأى أن بذلتي تقطير اثنين من الرجال تقتقر إلى الإحكام من عند الرقبة. سجّل المعلومة في ذاكرته لاتّخاذ إجراء بشأنها مستقبلاً. على والده أن يأمر العمّال بالتزام الانضباط في ارتداء بذلات التقطير، فالرجال يصبحون مهملين إذا لم يراقب المرء مثل هذه الأمور.

قال آخر الصاعدين إلى المؤخرة: «الدودة تكاد تكون أسفلنا! ألق على الفور!».

انزلق الدوق إلى مقعده عابسًا وقال: «لا يزال أمامنا نحو ثلاث دقائق وفقًا لتقدير زمن الوصول الأصلي. أليس كذلك يا كاينز؟». ثم أغلق الباب، وتأكد من إحكامه.

قال كاينز: «بلى يا سيدي»، وفكر: هذا الدوق رابط الجأش.

قال هاليك: «كل شيء على ما يرام في الخلف يا مولاي».

أوماً الدوق وهو يراقب آخر طائفة حراسة تطلع بسلام، وضبط مفتاح الإشعال، وألقى نظرة أخيرة إلى الأجنحة والأدوات، ثم ضغط زر إشعال النفاثات.

مع انطلاق الثوبتر، غاص الدوق وكاينز في مقعديهما، وانضغطت المجموعة المتكدسة في الخلف. راقب كاينز الروية والثقة التي يتحكم فيها الدوق في الطائفة. كانت الثوبتر تحلق في الجو بالكامل الآن. فحص الدوق معداته، وألقى نظرة إلى اليمين واليسار على أجنحة طائرته.

قال هاليك: «إنها ثقيلة جدًا يا سيدي».

قال الدوق: «الحمل في نطاق الوزن المسموح به، هل كنت تعتقد أنني سأخاطر بهذه الحمولة يا جبرني؟».

ابتسم هاليك قائلاً: «لم أشك لثانية يا مولاي».

مال الدوق بطائرته في منحني واسع مريح، محلّقًا فوق زخّافة الرمال.

حدّق بول المحشور في الركن بالقرب من النافذة إلى الآلة العملاقة الهامدة على الرمال في الأسفل. كان مسار الدودة قد

اختفى على بعد أربعمئة متر من الزحافة، والآن بدا أن اضطراباً
يشيع في الرمال المحيطة بالمصنع.

قال كاينز: «الدودة الآن أسفل الزحافة، أنتم على وشك أن
تشهدوا شيئاً لم يشهده إلا قليلاً».

الآن، راح الغبار المتطاير يتجمّع في غيمة فوق الرمال المحيطة
بالزحافة، وبدأت الماكينة الضخمة الانزلاق نحو اليمين، في
الوقت الذي بدأت فيه دوّامة رملية هائلة تتكوّن في البقعة التي
إلى يمين الزحافة وتكتسب زخماً. ازدادت سرعة دوران دوّامة
الرمال أكثر فأكثر، وملأ الرمل والغبار الهواء على مسافة مئات
الأمطار.

وعندها رأوها!

انبثقت حفرة واسعة من بين الرمال، وانعكست أشعة الشمس
على سنونٍ بيضاء داخلها. قدّر پول أن قطر الحفرة يصل إلى
ضعف طول الزحافة على الأقل، وراقب الماكينة وهي تفوض
في تلك الفتحة وسط موجة عاتية من الغبار والرمال. ثم بدأت
الحفرة تتراجع، إلى أن اختفت كما ظهرت.

تمتم رجلٌ إلى جوار پول: «بحق الآلهة، يا له من وحش!».

قال آخر متذمّراً: «لقد التهمت كل ما جمعناه من اسبابس
لعين!».

قال الدوق: «شخصٌ ما سيدفع ثمن هذا، أعدكم بذلك».

استشعر پول في نبرة صوت والده الجافة غضباً عميقاً، ووجد
أنه يشاركه شعوره. هذه خسارة فادحة!

وفي الصمت الذي تلى ذلك، سمعوا جميعاً همهمة كاينز.

كان يقول: «بوركت الصّانعة وماؤها. بورك مجيئها ورحيلها.

عسى أن يظهر مرورها الأرض، وعسى أن تحفظ العالم لقومها». سأل الدوق: «ما هذا الذي تقوله؟»
ظل كاينز صامتاً.

نظر پول إلى الرجال المحتشدين حوله، ورأى كيف يحملون إلى مؤخرة رأس كاينز بخوف. همس أحدهم: «لييت». استدار كاينز إليه مكفهاً، فانكمش الرجل في خزي إلى الوراء. بدأ رجل آخر يسعل سعالاً جافاً خشناً، وفي النهاية لفظ لاهتاً: «اللعة على حفرة الجحيم هذه!».

قال الرجل الطويل الذي كان آخر الخارجين من زحافة الرمال: «لا تتكلم كثيراً يا كوس، ستزيد سعالك سوءاً»، ثم تحرك بين الرجال إلى أن استطاع النظر عبرهم إلى مؤخرة رأس الدوق وقال: «أنت الدوق ليتو لا ريب. نحن مدينون لك بحياتنا. كنا قد تقبلنا الموت، إلى أن أتيت».

غمغم هاليك: «اصمت يا رجل، ودع الدوق يقود المركبة». نظر پول إلى هاليك. هو كذلك لاحظ تجاعيد الاحتقان البادية على زاوية فك أبيه. على المرء التزام الصمت التام عندما يكون الدوق غاضباً.

بدأ ليتو يخرج بالثوبتر من الدائرة التي تحوم فيها برفق، وتوقف عندما رأى حركة جديدة على الرمال. كانت الدودة قد انسحبت عائدة إلى الأعماق، والآن -بالقرب من البقعة التي كانت الزحافة تحتلها- رأوا شخصين يتحركان شمالاً بعيداً عن منخفض الرمال. بدت حركتهما غريبة. كانا ينزلقان على سطح الرمال تقريباً، ويثيران أقل قد من الغبار يدل على مسارهما. قال الدوق بصوت عالٍ: «من هذان اللذان في الأسفل؟».

قال رجل الكتبان الطويل: «شابان كانا يتسكَّعان معنا».

- «لماذا لم يذكر أحدٌ شيئاً عنهما؟».

قال رجل الكتبان: «هما اللذان خاطرا بالمجيء يا سيدي».

قال كاينز: «سيدي، هؤلاء الرجال يدركون أنه لا يمكن فعل شيء لمساعدة أيِّ شخصٍ يُحاصر في إحدى مناطق نفوذ الديدان».

صاح الدوق: «سنرسل طائرة من القاعدة لنجدتهما فور عودتنا!».

قال كاينز: «كما تشاء يا مولاي، لكن على الأرجح لن تجد الطائرة من تتجده عندما تصل إلى هنا».

قال الدوق: «سنرسل الطائرة في كل الأحوال».

قال پول: «لقد كانا قريبين من مكان ظهور الدودة، كيف تمكَّنا من النجاة؟».

قال كاينز: «تتقوَّض حواف الحفرة وتتهار إلى الداخل، هذا يجعل المسافات خادعة».

تجرأ هاليك بقول: «أنت تهدر الوقود بالبقاء هنا يا سيدي».

- «معك حق يا جبرني».

التفَّ الدوق بالطائرة ووجَّهها صوب الجدار الحامي. هبطت طائرات التأمين الجوّي من مركز الدائرة التي تحوم حولها، وأخذت مواقعها أعلى طائرة الدوق وإلى جانبيها.

فكَّر پول في ما قاله كاينز ورجل الكتبان، واستشعر في كلامهما أنصاف حقائق، ومحض أكاذيب. كان الرجلان ينزلقان على سطح الرمال بثقة شديدة، ويتحرَّكان في خطواتٍ واضح أنها

محسوبة بدقة كي لا تفري الدودة بالعودة من الأعماق.

فكّر پول: لا بُدَّ أنهما من الفرمن! فمن غيرهم يتحرّك بتلك الثقة على الرمال؟ من غيرهم لا يخشى المرء عليهم شيئاً، لأنهم ليسوا في خطرٍ من الأساس؟ هذان الرجلان يألفان أساليب النجاة هنا ويعرفان كيف يخدعان الدودة!

سأل پول: «ما الذي كان يفعله رجلان من الفرمن على متن تلك الزحّافة؟».

استدار كاينز نحوه.

التفت رجل الكتبان الطويل ورمق پول بعينين متسعيتين من الدهشة، لجّتين مشبّعتين بزرقه بعضها فوق بعض، لا أثر لبياض فيهما، وقال: «من هذا الفتى؟».

تحرّك هاليك وحشر نفسه بين الرجل وبول، وقال: «هذا پول آتريديز، ولي عهد الدوق».

سأل الرجل: «ولماذا يدّعي أن رجلين من الفرمن كانا على متن زحّافتنا؟».

قال پول: «ينطبق الوصف عليهما».

قال كاينز بنبرة ساخرة: «الفرمن لا يعرفون بمجرد النظر إليهم!»، ثم رمق رجل الكتبان وسأله: «أنت، من هذان الرجلان؟».

قال رجل الكتبان: «صديقان لأحد الرجال، مجرد رجلين من أهل القرية أرادا مشاهدة الرمال الغنية بالاسپايس».

اعتدل كاينز في مقعده وتمتم: «ويقول عنهما فرمن!».

لكنه في الآن ذاته تذكّر كلمات الأسطورة: «سيكشف لسان الغيب ببصيرته كل الأكاذيب».

قال رجل الكتبان: «إنهما في عداد الموتى على الأرجح يا سيدي الصغير، يجب ألا نذكرهما بسوء».

لكن پول ميّز الباطل في صوتيهما، واستشعر الخطر الذي جعل هاليك يتحرّك بشكل غريزي لحمايته ويحشر نفسه بينهما.

قال پول متهمّماً ولكن بنبرة جافّة: «يا لها من ميتة شنيعة في مكان مربع!».

قال كاينز دون أن يستدير: «عندما يكتب الرب على نفس أن تموت في أرض معيّنة، فهو يأمرها بتوجيه صاحبها إلى مكان حتفه».

حدّج ليتو كاينز بنظرة صارمة.

لكن بينما راح كاينز يبادلّه تحديجه، وجد نفسه منزعجاً من حقيقة لاحظها هنا: هذا الدوق اهتمّ بسلامة رجاله أكثر من اهتمامه بالاسپايس، وخاطر بحياته وحياة ابنه لإنقاذ الرجال.

لقد تقبّل خسارة زخّافة الاسپايس بصدور رجب، فيما أثار الخطر الذي يهدّد حياة الرجال عارم غضبه. قائد كهذا سيحظى بولاء أعمى من رجاله، وسيكون من الصعب هزيمته.

وهكذا، ورغماً عن إرادته وعن كل أحكامه السابقة، اعترف كاينز لنفسه: يعجبني هذا الدوق!

الانتفاخ بالعظمة ليس إلا شعوراً مؤقتاً سريع الزوال، فهو يعتمد جزئياً على مخيّلات البشر وميلها إلى نسج الأساطير. لهذا، لا بُدَّ للشخص الذي يُوصف بالعظمة من أن يُقدَّر أبعاد الأسطورة التي نُسجت حوله، وأن يعكس للناس الصفات التي أسبغوها عليه. كما لا بُدَّ له من التمتع بحسٍ ساخرٍ قوي، فلا شيء غيره سينأى به عن أوهامه وينجيه من الإيمان بها. وحده الحسُّ الساخر سيمكّنه من التجوّل بأمان في جنبات نفسه بلا خوفٍ من أن تُزلَّ قدمه، ومن دونه، حتّى أدنى درجات الشعور بالعظمة ستكون كفيلة بتدمير حياة الإنسان.

من كتاب «أحاديث المؤدّب المجمّعة» للأميرة إيrolan.

في قاعة الطعام في قصر أراكين العظيم، أُضيئت المصابيح الطافية في الهواء لتبديد العتمة المبكرة، وألقت وهجاً أصفر على رأس الثور الأسود بقرنيه الداميين، وكذلك على لوحة الدوق القديم الزيتية التي عكست الضوء بريقٍ داكن.

تحت هاتين التيميتين، سطع بياض مفرش المائدة الناصع، توطّره انعكاسات الأنية الفضيّة التي رُصّت بعناية دقيقة بطول المنضدة الكبيرة. بدت الأطقم المنتظرة بجوار أكواب كريستالية كأرخبيل من الجزر في محيط، كلّ منها منضّد قبالة كرسيّ خشبيّ ثقيل. أبقيت الثريّا المركزية العريقة المتدلّية فوق المائدة غير مضاءة، تمتدُّ سلسلتها إلى أعلى متوارية في ظلال السقف، حيث خُبئت آلية كشّاف السُّموم.

من مكانه عند المدخل حيث وقف يتفقد الترتيبات، فكَّر الدوق في كشَّاف السُّموم، وما يحمله من دلالة في مجتمعه. إنه نموذج مثالي على النمط الذي يسود حياتنا. بإمكانك معرفة الكثير عنَّا من مفردات لغتنا، من الكلمات الدقيقة المحددة التي نصف بها أساليب القتل الفادر المختلفة. هل سيحاول أحدهم الليلة دسَّ الشاومركي في شرابنا؟ أم هل سيستخدم شوماس، سُمَّ الطعام؟ هزَّ الدوق رأسه نافضًا عنه تلك الأفكار.

إلى جوار كل طبق وُضع إبريق مياه. قدَّر الدوق أن على المائدة ماءً يكفي لإبقاء عائلة أراكية فقيرة على قيد الحياة لأكثر من عام. كان على جانبي المدخل الذي يقف عنده حوضا اغتسال واسعان مكسوَّان ببلاط مزخرف باللونين الأصفر والأخضر، معلقٌ إلى جوار كلٍّ منهما رفٌّ رُصَّت عليه مجموعة من مناشف الأيدي. أوضحت مدبرة المنزل أن العادة جرت على أن يغمس الضيوف أيديهم في الحوض بشكل احتفالي عند الدخول، ثم يدلِّقون أكوابًا عدَّة من الماء على الأرض، ويجفِّفون أيديهم بالمناشف، ثم يلِّقون المناشف في البركة المتنامية عند عتبة الباب. بعد العشاء، يحتشد المتسولون في الخارج للحصول على الماء المعصور من المناشف المبلَّلة.

فكَّر الدوق: مثال نموذجي على مدَّة حُكم الهراكنة، الذي يتعمَّد فعل كل إهانة يمكن توجيهها إلى النفس البشرية. أخذ الدوق نفسًا عميقًا مستشعرًا الغضب يعتصر بطنه، وتمتم: «هذه العادة ستتوقَّف الآن!».

رأى إحدى الخادومات العجائز المجعَّات التي أوصت بهن مدبرة المنزل تحوم حول مدخل المطبخ على الجهة المقابلة.

أشار لها الدوق بيده كي تأتي، فتحرّكت المرأة خارجة من الظلال، وهرولت حول الطاولة في اتّجاهه، فلاحظ وجهها اليابس الذي تغزوه التجاعيد، والعينين الزرقاوين بالكامل التي لا يشوبها بياض.

- «أمر مولاي؟». قالتها المرأة مُحافضة على جبهتها محنية وعينيها في الأرض.

أشار لها: «أريد إزالة هذين الحوضين وهذه المناشف». رفعت المرأة عينيها، وبهم فاجر من الدهشة قالت: «ولكن، يا نبيل المنبت...».

صاح فيها: «أعرف ما جرت عليه العادة! خذي هذين الحوضين إلى باب القصر، وفي أثناء ما نأكل وحتى ننتهي، أعطوا كل متسول يسأل كوبًا كاملاً من الماء، مفهوم؟».

بدى على وجهها المجعّد مشاعر متضاربة: ارتباك، وغضب... فجأة أدرك ليتو أنها لا بُدّ قد خطّطت لبيع الماء المعصور من المناشف المداسة بالأقدام، لتقتصب حفنة عملات نقدية من البؤساء الذين جاؤوا إلى الباب يسألون الماء. ربّما كانت هذه أيضًا عادة.

تجهّم وجهه وقال هادرًا: «سأضع حارسًا عند الباب ليتأكّد من تنفيذ أوامري بالحرف!».

ثم استدار على عقبه، وعاد بخطى واسعة عبر الممر المؤدّي إلى القاعة الكبرى. دارت الذكريات في عقله كأنها تتمتات عجائز شمطاوات هُتم. تذكّر البحار والأمواج، تذكّر أيامًا زاخرة بالأعشاب لا الرمال، وفصول صيفٍ مذهله مرّت سريعًا كأوراق شجر حملتها العاصفة معها.

كلها ذهبت بلا رجعة.

فكّر الدوق: إنني أشيخ. لقد شعرت بدبيب الموت البارد،
وبسبب ماذا؟ بسبب جشع امرأة عجوز!

في القاعة الكبرى، كانت الليدي جيسिका تتوسّط مجموعة
مختلطة واقفة أمام المدفأة التي يفرقع الحطب فيها وتلقي منها
ألسنة اللهب وميضاً برتقالياً على المجوهرات وشرائط الزينة
والأقمشة الباهظة الثمن. تعرف الدوق في المجموعة على صانع
بذلات تقطير من قرطاج، ومورّد أجهزة إلكترونية، ومتعهد مياه
يقع قصره الصيفي بالقرب من مصنعه في القطب الجليدي،
وممثل لبنك النقابة (ذاك الطويل الذي يقف منعزلاً)، وتاجر
قطع غيار معدّات التنقيب عن الاسپايس، وامرأة نحيفة حادّة
الملامح يقال إن شركتها التي تقدّم خدمة مرافقات للزائرين من
الكواكب الأخرى تعمل كغطاء لمختلف عمليات التهريب والتجسّس
والابتزاز.

بدت معظم النساء في القاعة من نفس الطين: مبهرجات،
متباهيات، يغلّفن أنفسهن بمزيج غريب من الاشتهااء وبُعد المنال.
حتّى لو لم تكن المضيفة، كانت جيسिका ستهيمن على المجموعة
بحضورها، هكذا فكّر. لم تكن تتقلّد بأيّ جواهر، واختارت ارتداء
ألوانٍ دافئة: فستانٍ طويل يكاد لونه يماثل إحدى درجات اللهب،
وشريطٍ بنّي بلون أديم الأرض تعقص به شعرها البرونزي.
أدرك أنها تعمّدت فعل ذلك لتوبيخه بشكل مهذّب، تأنيباً له
لبرودته معها مؤخّراً. كانت تدرك جيّداً أنه يحب رؤيتها في هذه
الألوان. كان يرى في خليط الألوان الدافئة انعكاساً لجوهرها.

في مكان قريب، نائياً بنفسه عن المجموعة، وقف دانكن أيداهو في زيٍّ رسميٍّ متألق، ووجهه قناعٌ جامد من الملامح يصعب قراءته، وشعره الأسود المجعد مُمشطٌ بعناية. كان حواط قد استدعاه من وسط الفرمن وأعطاه أوامرَ جديدة: «الإبقاء على الليدي جيسيكَا تحت المراقبة المستمرة بحجة حراستها». أدار الدوق عينيه في الغرفة.

ها هو پول يقف في الركن محاطاً بمجموعة مدهانة من أبناء أثرياء أراكين، وإلى جوارهم ولكن بمعزل، يقف ثلاث ضباط من قوَّات الحرس المنزلي في تحفُّظ. تفرَّس الدوق في وجوه الشباب خصوصاً. لا بُدَّ أن ولي عهد الدوقية صيدٌ ثمين في نظرهن. لكن پول كان يعاملهن جميعاً بتحفُّظ النبلاء.

فكَّر الدوق: كم سيليق به لقب الدوق! ثم أدرك راجفاً أن هذه خاطرة أخرى متعلِّقة بالموت.

لمح پول والده يقف عند المدخل فتحاشى النظر إليه. ثم نظر حوله إلى تجمُّعات الضيوف، إلى الأيادي المرصَّعة بالجواهر الممسكة بالمشروبات (وإلى عمليات الفحص الخفية التي تجريها كشافات سموم صغيرة عن بعد). رؤية كل هذه الوجوه الثرثرة، أشعرت پول بنُصُورٍ مفاجئٍ منها. إنها أقنعة رخيصة مغلقة على أفكارٍ متقيحة. مجرد أصوات تهذر بكلامٍ فارغٍ لملء الفراغ الموحش الذي ينهش كل صدر.

فكَّر پول: أنا في مزاجٍ سيئٍ، وتساءل ما سيكون تعليق جيرني عن ذلك.

كان يدرك السبب في تمكير مزاجه، فهو لم يرغب في حضور هذه المناسبة، لكن والده كان حازماً في إصراره. «لديك مكانة

ومركز يجب أن تحافظ عليهما. لقد كبرت بما يكفي لحضور تلك المناسبات الرسمية. لقد صرت رجلاً تقريباً».

شاهد پول والده يترك المدخل ويخطو إلى القاعة جانلاً فيها بعينيه، ثم اتّجه إلى المجموعة الملتقّة حول الليدي چيسيكّا. مع اقتراب ليتو من المجموعة، كان متعهّد المياه يسأل: «أحقاً سيضع الدوق أقماراً صناعية للتحكّم في الطقس؟».

قال الدوق من خلف الرجل: «لم نشطح بخططنا إلى هذا الحدّ بعد يا سيّدي».

استدار الرجل كاشفاً عن وجهٍ مستدر ليّن تشويه سُمرة داكنة: «آها، إنه الدوق. كنا نفتقدك».

نظر ليتو إلى چيسيكّا وقال: «كان عليّ الانتهاء من أمرٍ ما»، ثم أعاد اهتمامه إلى متعهّد المياه، وشرح له ما أمر به بخصوص حوضي الغسل، ثم أضاف: «هذه العادة القديمة ستنتهي الآن». سأل الرجل: «أهذا أمر دوقي يا مولاي؟».

قال الدوق: «سأترك هذا... أم... لضميرك». ثم استدار ولمح كاينز يقترب من المجموعة.

قالت إحدى النساء: «أظن أن هذا كرمًا كبيرًا، إعطاء الماء ل...»، لكن شخصًا أوقفها عن إكمال عبارتها.

نظر الدوق إلى كاينز، ولاحظ أن عالم البيئات الكوكبية يرتدي زيًا رسميًا بنّياً داكنًا قديم الطراز، تزيّن كتفيه شرائط موظّفي حكومة الإمبراطور، ويعلّق في ياقة سترته رتبة ذهبية صغيرة تأخذ شكل دمعة.

سأل متعهد المياه بنبرة غاضبة: «هل يقصد الدوق التلميح بانتقاد عاداتنا؟».

قال ليتو: «هذه العادة لم تعد موجودة». ثم أوماً إلى كاينز محيياً، ولاحظ العبوس على وجه جيسिका، وفكّر: العبوس لا يليق بها، لكنه سيدعم شائعات وجود خلاف بيننا. قال متعهد المياه: «إذا سمح الدوق لي، أود الاستفسار أكثر بخصوص العادات».

سمع ليتو نبرة مدهنة مفاجئة في صوت الرجل، ولاحظ الصمت المترقب الذي عمّ المجموعة، والطريقة التي بدأت بها الرؤوس في الغرفة تدور نحوهم. سألت جيسिका: «ألم يحن الوقت لتناول العشاء؟».

قال ليتو: «لكن ضيفنا ما زال لديه بعض الأسئلة»، ثم ثبت نظره على متعهد المياه، متفرساً في وجهه المستدير وعينيهِ الواسعتين وشفثيه الغليظتين، وتذكّر تقرير حواط: «... أمّا المدعو لينجار بيوط، متعهد المياه، فرجل يجب مراقبته بحرص.. تذكر الاسم جيداً. اعتاد الهراكنة استخدامه، لكنهم لم ينجحوا في التحكم فيه بالكامل».

قال بيوط: «إن أعراف المياه مثيرة للاهتمام جداً»، ثم شاعت ابتسامه في وجهه وأردف: «لدي فضول لمعرفة ماذا تنوي فعله بشأن المشتل الملحق بهذا المنزل. هل تنوي الاستمرار في التباهي به أمام الناس.. يا سيدي؟».

كتم ليتو غضبه وظلّ يحدّق إلى الرجل. تسابقت الأفكار في عقله. إنه يتمتع بجرأة كبيرة ليتحدّاه في قصره الدوقي، خاصة أنهم حصلوا على توقيع بيوط على مبايعته وتعهدّه بالولاء. كما أن سلوكه يدل على أنه يعي جيداً حجم نفوذه الشخصي ومقدار تأثيره، فالماء هنا قوة لا يُستهان بها بلا شك، خاصّة إذا كانت مرافق المياه

-على سبيل المثال- مُلغمة، وفي انتظار إشارة منه لتفجيرها، هذا الرجل قادر على إتيان شيءٍ من هذا القبيل. تدمير مرافق المياه قد يؤدي إلى تدمير أراكس، وربما تكون هذه هي ورقة الضغط التي كان هذا المدعو بيوط يستخدمها مع الهراكنة.

قالت جيسيكَا: «مولاي الدوق وأنا لدينا خططٌ أخرى بخصوص المشتل»، ثم ابتسمت إلى ليتو وواصلت: «نحن ننوي الاحتفاظ به بالتأكيد، ولكن كأمانة لشعب أراكس، فنحن نحلم أن يتغيّر مناخ أراكس يوماً ما بما يسمح لزراعة مثل هذه النباتات في أيّ مكان في العراء». ففكر ليتو: بوركت روحها! فليأت متعهّدا المائي الهُمام برّد على ذلك إن استطاع.

قال الدوق: «إن اهتمامك بالمياه وبالتحكّم في الطقس واضح، لكنني أنصحك بتوسيع نشاط عملك! فيوماً ما لن يكون الماء سلعةً ثمينة على أراكس».

وفكر: يجب أن يضاعف حوَّاط جهوده في اختراق منظّمة بيوط هذا، ويجب أن نبدأ في بناء مرافق مياه احتياطية على الفور. لن أسمح لرجلٍ أيّاً كان بوضع سيف على عنقي واستخدام ورقة ضغط ضديّ.

أوماً بيوط والابتسامة لا تزال على وجهه: «هذا حلمٌ محمود يا مولاي»، ثم انسحب خطوة إلى الخلف.

استرعى التعبير الذي يعلو وجه كاينز اهتمام ليتو. كان الرجل يُحمق في جيسيكَا مشدوهاً على غير عادته، كأنه رجل واقع في الحب.. أو تتتابه نشوة دينية.

طغت كلمات النبوءة على عقل كاينز في النهاية: «وسوف يشاركونكم أغلى أحلامكم»، فوجد نفسه يسأل جيسيكاً مباشرة: «هل ستجلبين لنا مختصر الطريق؟».

قال متعهّد المياه: «آه، الدكتور كاينز. لا بُدَّ أنك عُدت لتوِّك من تسكُّعك مع رعاك الفرمن، يا له من كرم زائد منك». رمى كاينز بيوط بنظرة باردة يصعب فهم مغزاها: «يُقال في الصَّحراء إن حيازة الماء بكميَّات كبيرة تجعل المرء يتصرَّف بنزقٍ قاتل».

قال بيوط: «لديهم أقاويل غريبة كثيرة في الصَّحراء»، لكن نبرة صوته خافته وفضحت اضطرابه.

اقتربت جيسيكاً من ليتو ودسَّت يدها تحت ذراعَه لتحظى بلحظة لتهدئة نفسها. لقد قال كاينز: «... مختصر الطريق»، وهذا المصطلح يُترجم في اللغة القديمة إلى «الكويزاتس هاديراك». يبدو أن سؤال عالم البيئات الكوكبية الغريب قد مر دون أن يلاحظه أحد، والآن كان كاينز ينحني إلى إحدى النساء المرافقات، وينصت إلى همسها الفانج.

فكَّرت جيسيكاً: هل زرعت مبشَّراتنا الحاميات أسطورة الكويزاتس هاديراك هنا أيضاً؟ أيقظت الفكرة فيها الأمل الخفي الذي تُكُنُّه ليهول. قد يكون هو الكويزاتس هاديراك بالفعل.. حقاً قد يكون! كان ممثِّل بنك النقابة قد انخرط في حديث مع متعهّد المياه، وقد علا صوت بيوط فوق همهمة المحادثات التي تجددت: «كثيرون سعوا لتغيير أراكس».

لاحظ الدوق كيف اخترقت الكلمات مسمعي كايترز، وجعلته ينتفض مبتعداً عن المرأة التي يغازلها.

في الصُّمت المفاجئ الذي خيَّم على المكان، تنحج أحد رجال الحرس المنزلي المتكبرين في زيِّ الخدم من خلف ليتو وقال: «العشاء جاهز يا مولاي».

وجَّه الدوق نظرة متسائلة نحو جيسिका.

قالت: «جرت العادة هنا أن يسير المضيف والمضيضة خلف ضيوفهما إلى المائدة، هل سنغيِّر هذه العادة أيضاً يا مولاي؟».

رد عليها ببرود: «تبدو عادة محموددة، سنتركها على حالها في الوقت الحالي».

وفكَّر: يجب الحفاظ على خدعة أنني أشك في خيانتها، وراح يرمق طابور الضيوف المارين أمامه. تُرى من بينكم يصدِّق هذه الكذبة؟

تعجَّبت جيسिका من سبب معاملته الجافَّة كما فعلت كثيراً الأسبوع الماضي، وفكَّرت: إنه يتصرَّف كرجلٍ يتصارع مع نفسه.

أهذا لأنني سارعت بإعداد حفل العشاء هذا؟ لكنه يعرف مدى أهمية انخراط ضبَّاطنا ورجالنا مع السكَّان المحليين على صعيد اجتماعي، فنحن بمنزلة أب وأم بديلين لهم جميعاً، ولا شيء يؤكِّد هذه الحقيقة أكثر من هذا النوع من المشاركة الاجتماعية.

تأمل ليتو مرور طابور الضيوف من أمامه، وتذكَّر ما قاله ظفير حوَّاط عندما علم بأمر إقامة هذه المناسبة: «/عترض بشدَّة يا مولاي!».

ارتسمت ابتسامةٌ مريرةٌ على فم الدوق. ثارت ثورته وقتها، وعندما ظلَّ الدوق مُصرّاً على حضور العشاء، هز حوَّاط رأسه قائلاً: «ينتابني شعورٌ سيئٌ حيال هذا يا مولاي. الأمور على

أراكس تتحرّك بسلاسة وسُرعة أكثر ممّا يجب. ليس هذا من شيم الهراكنة، ليس من شيمهم على الإطلاق».

عبر پول من جوار والده برفقة شابة أطول منه قليلاً، ورماء بنظرة ساخطة وهو يومئ برأسه على شيء قالت الفتاة.

مالت جيسيكَا إلى أذن الدوق وقالت: «والدها يصنع بذلات التقطير. قيل لي إن الحمقى فقط هم من يغامرون بالتوغل في الصّحراء مرتدين بذلات هذا الرجل».

سأل الدوق: «من هذا الرجل صاحب النُدبة الذي يتقدّم پول؟ لم أتعرف عليه».

همست: «إنه إضافة متأخرة إلى قائمة المدعوّين. جيرني هو من ربّ إرسال دعوة إليه، إنه أحد المهرّيين».

- «جيرني يُربّ من نفسه؟».

- «بناءً على طلبي. مرّرت الأمر على حوّاط ووافق، رغم أنني شعرت بأنه كان متصلّب الرأي قليلاً. المهرّب يدعى تويك، أسمر تويك. إنه ذو نفوذ بين المهرّيين. الجميع هنا يعرفه، وعائلات كثيرة استضافته على العشاء».

- «ولمّ هو هنا؟».

قالت: «كل الحاضرين سيسألون نفس السؤال. سيزرع تويك الشك والريبة بمجرد حضوره. كما سيكون أيضاً بمثابة بيان للجميع بأنك لن تتساهل مع عدم تنفيذ أوامرك ضد الكسب غير المشروع، وأن المهرّيين سيدعمونك في هذا. كانت هذه هي النقطة التي أثارت إعجاب حوّاط».

- «لست واثقاً من أنها تثير إعجابي أنا». ثم هزّ رأسه محيياً زوجين مازّين، ولاحظ أنه لم يتبق سوى حفنة من ضيوفهما يجب أن يسبقونهما. «لِمَ لم توجّهي دعوة إلى بعض الفرمن؟».

قالت: «كاينز موجود».

قال: «صحيح، كاينز موجود. هل رُتبت لي أيّ مفاجآت صغيرة أخرى؟»، ثم تَأَبَّط ذراعها وقادها للسير خلف الموكب.
قالت: «كل الترتيبات الأخرى عادية جداً».

وفكَّرت: ألا ترى يا عزيزي أن هذا المهرب يتحكَّم في سفن سريعة، ويمكن رشوته؟ يجب أن يكون لدينا مخرج طوارئ، باب خلفي للهروب من أَرَاكس في حال أن خذلتنا جميع الأمور الأخرى هنا.
مع دخولهما قاعة الطعام، تركت ذراعها، وسمحت له بأن يجلسها. بعدها، أسرع الخطى إلى طرف المائدة الآخر، حيث كان أحد الخدم ينتظره ممسكاً بالكرسي. بدأ الضيوف الجلوس فضجَّت القاعة بأصوات جر المقاعد وحفيف الملابس والأقمشة، لكن الدوق ظلَّ واقفاً. ثم أعطى إشارة بيده، فتراجع جنود الحرس المنزلي المتكرين في زي الخدم من حول الطاولة، ووقفوا منتبهين. خيَّم صمْتٌ مزعج على الغرفة.

عبرت جيسيكا المائدة الطويلة بنظرها، ورأت ارتعاشة خافتة في ركن فم ليتو، ولاحظت الغضب المحتقن في وجنتيه، فسألت نفسها: ما الذي أغضبه؟ بالتأكيد ليست دعوتي للمهْرَب.

قال ليتو: «شكَّك البعض في قراري بتغيير عادة أحواض الفسل. هذه طريقتي في إخباركم أن أشياء كثيرة ستتغيَّر».

خيَّم صمْتٌ مُحرَج على المائدة.

فكَّرت جيسيكا: يظُنُّون أنه ثمل.

أمسك ليتو بإبريق الماء الموضوع أمامه، وحمله عاليًا لينعكس عليه ضوء المصابيح الطافية في الهواء، وقال: «بصفتي أحد فرسان الإمبراطورية، سأشارككم نخباً».

أمسك الآخرون أباريقهم وأعينهم معلقة على الدوق. وفي لحظة السكون المفاجئ هذه، انجرف أحد المصاييح الطافية في الهواء قليلاً بفعل نسمة شاردة هبت من ردهة مطبخ التقديم، فتراقصت الظلال على ملامح وجه الدوق الشبيه بالصقر.

وصاح الدوق: «هأنذا هنا، وقد أتيت لأبقى!».

تحركت بعض الأيدي بالأباريق نحو الشفاه، لكنها توقفت مع بقاء الدوق رافعاً ذراعه.

- «نخبي سيكون أحد الأقوال المأثورة المحببة جداً إلى قلوب آل آترديدز: العمل يجلب الازدهار! والفرص متاحة للجميع!».

ثم رشف الماء.

انضم إليه الآخرون وهم يتبادلون نظرات متسائلة.

صاح الدوق: «جيرني!».

من فجوة في الجدار في طرف القاعة الذي يقف فيه ليتو، جاء صوت هاليك: «هنا يا مولاي».

- «اعزف لنا شيئاً يا جيرني».

من الفجوة خرج لحنٌ رشيق على أوتار الباليست، وبدأ الخدم وضع الأطباء على المائدة بإشارة من يد ليتو. تنوعت الأصناف ما بين الأرنب الصحراوي المشوي بصوص السيبيدا، ووصفة الأبلوماج السيربانية، والتشوكا المقدّمة تحت الزجاج، والقهوة المخلوطة بالمزاج (ما جعل رائحة القرفة القوية تفوح عبر المائدة)، وطبق الإوز الأصلي المقدّم مع نبيذ كلاداني فوّار.

لكن الدوق ظلّ واقفاً.

جلس الضيوف منتظرين، وانتباههم مشتت بين الأطباق الموضوعة أمامهم والدوق الواقف، ثم قال ليتو: «في العصور

القديمة، كان من واجب المضيف أن يرفقه عن ضيوفه بمواهبه الخاصة»، ابيضت مفاصل أصابعه لغياب الدماء عنها من شدة ضغطه على إبريق المياه. «لكنني لا أستطيع الغناء، لهذا أهديكم كلمات أغنية جيرني. اعتبروها نخبًا آخر، نخب كل من فقدوا أرواحهم لنصل إلى ما نحن فيه».

شاعت حركة مضطربة حول المائدة.

خفضت جيسيكا بصرها، ونظرت إلى الجالسين بالقرب منها: متعهد المياه مستدير الوجه الذي يجلس إلى جوار امرأته، وممثل بنك النقابة المتجهّم الشاحب (الذي بدا كأنه فزاعة لا حياة فيها وهو يُحدّق إلى ليتو)، وتويك الفظ ذو النُدبة، الذي جلس خافضًا عينيه التامّتي الزرقاء.

بدأ الدوق يرتّل: «انظروا يا أصدقاء إلى جنودٍ ولّوا منذ زمن، لقوا مصيرهم مثقلين بالآلام والدولارات، أرواحهم ترتدي ياقاتنا الفضّية. انظروا يا أصدقاء إلى جنودٍ ولّوا منذ زمن، وصار كلّ منهم نقطة في الزمن، بلا ادّعاء أو نفاق، تاركين خلفهم إغواء الثروة. انظروا يا أصدقاء إلى جنودٍ ولّوا منذ زمن، فعندما يأتي أجلنا ونغادر العالم بابتسامة النهاية، سنترك خلفنا إغواء الثروة». خفض الدوق صوته بالتدرّج في العبارة الأخيرة، وجرع جرعة كبيرة من إبريق الماء، وأنزله بعنف على المائدة، فاندلق بعض الماء من حافّته على المفروش.

شرب الآخرون في صمتٍ مُحرج.

مرّة أخرى، رفع الدوق إبريق المياه، وهذه المرة أفرغ نصفه المملوء على الأرض، مدركًا أن الجالسين حول المائدة سيضطرون إلى فعل الشيء نفسه.

كانت چيسيكاً أوّل من حذا حذوه.

مرّت لحظة صمت تجمّد الآخرون فيها، قبل أن يبدؤوا إفراغ أباريقهم على الأرض. لاحظت چيسيكاً كيف يدرس پول -الجالس إلى جوار والده- ردود الفعل من حوله، ووجدت نفسها أيضاً مفتونة بما كشف عنه سلوك ضيوفها، خاصة النساء منهم. هذا ماء نظيف صالح للشرب، وليس ماء غسل تشربته منشقة. بدت عدم الرغبة في التخلص منه واضحة في الأيدي المرتعشة، وردود الفعل المتأخّرة، والضحك العصبي، ثم في الامتثال القسري الواجب. أسقطت إحدى النساء إبريقها، وأشاحت بوجهها بعيداً في حين ما استعاده رفيقها.

ولكن كاينز كان أكثر من أثار اهتمامها.

تردّد عالم البيئات الكوكبية، ثم أفرغ إبريقه في حاوية مُخفاة تحت سترتهن، وابتسم إلى چيسيكاً عندما لاحظ أنها تراقبه، ورفع الإبريق الفارغ إليها في نخبٍ صامت، وهو يبدو مُحرجاً تماماً ممّا فعل.

كانت موسيقى هاليك ما زالت تنساب في أرجاء القاعة، لكنها لم تعد عذبة شجية، بل صارت مرحلة وحيوية كأنه يحاول تغيير الحالة المزاجية.

قال الدوق: «فليبدأ العشاء»، ثم غاص في مقعده.

فكرت چيسيكاً: إنه غاضب ومتذبذب. لقد أصابته خسارة هذا المصنع بضيقٍ أكبر مما ينبغي. لا بُدَّ أن غضبه ينطوي على ما هو أكثر من تلك الخسارة، فهو يتصرّف كرجلٍ يائس. ثم رفعت شوكتها، أمله أن تخفي حركتها المرارة المفاجئة التي شعرت بها. ولم العجب؟ إنه يائس بالفعل.

بيطء في البداية، ثم بنشاطٍ متزايد، بدأ الضيوف يتناولون الطعام. أثنى صانع بذلات التقطير على جيسिका على الطاهي والنبيد.

قالت له: «أحضرنا كليهما معنا من كلادان».

قال وهو يتذوّق طبق التشوكا: «رائع! ببساطة رائع! وليس به أدنى نكهة مزاج. لقد سئمت من مذاق الاسپايس في كل شيء». نظر ممثّل بنك النقابة عبر المائدة نحو كاينز، وقال: «بلغني يا دكتور كاينز أن زخّافة رمال أخرى فُقدت في هجوم دودة».

قال الدوق: «يبدو أن الأخبار تنتقل سريعاً».

قال المصرفي: «الخبر صحيح إذاً»، محوّلًا انتباهه إلى ليتو. رد الدوق بقوة: «قطعاً صحيح! لقد اختفت الحاملة الجوّية اللعينة كأنها لم تكن. ليس من المفترض لشيء بهذا الحجم أن يختفي!».

قال كاينز: «عندما جاءت الدودة، لم يكن هناك شيء لحمل الزخّافة بعيداً».

كرّر الدوق: «وهو ما ليس من المفترض حدوثه!».

سأل المصرفي: «ولم يشاهد أحد الحاملة الجوّية وهي ترحل؟».

قال كاينز: «عادةً ما يبقي المراقبون أعينهم على الرمال، فمهمّتهم في المقام الأوّل هي اكتشاف علامات الديدان. طاقم الحاملة الجوّية عادةً ما يتكوّن من أربعة رجال: طيارين ورخّالين مرافقين. فإن كان أحدهم أو اثنان منهم يتلقّيان الرُشى من أعداق الدوق، ف...».

قاطعه المصرفي قائلاً: «آها، فهمت. وهل ستطعن في هذا الأمر بصفتك قاضي الفترة الانتقالية؟».

قال كاينز: «يجب أن أفكر في موقفي بعناية، وبالتأكيد لن أناقشه في أثناء وليمة طعام»، ثم فُكّر: يا لهذا الهيكل العظيم الشاحب من مأكرا إنه يعلم جيّدًا أن هذا هو نوع المخالفة التي طُلب مني تجاهلها.

ابتسم المصرفي، وأعاد انتباهه إلى طبق طعامه. جلست چيسیکا تتذكّر أحد الدروس التي تلقّتها في مدرسة البني چيسيرت. كان الدرس يتكلّم عن التجسّس والتجسّس المضاد. كانت الأمّ المؤقّرة التي تلقي الدرس ممثلة الجسم بشوشة الوجه، يتعارض المرح في صوتها بشكل غريب مع موضوع الدرس.

ما يجب ملاحظته حول أي مدرسة تجسّس و/أو مدرسة لمكافحة التجسّس هو نمط رد الفعل الأساسي المماثل لجميع خريجيها، فأني تخصّص مفلق يترك بصمته ونمطه على طلابه، وهذا النمط يكون قابلاً للتحليل والتنبؤ.

الآن، ستجد أن أنماط التحفيز متشابهة بين جميع عملاء التجسّس. هذا يعني أن بعض الدوافع ستكون متشابهة على الرغم من اختلاف المدارس أو تعارض الأهداف. أولاً، ستدرس طريقة فصل هذا العنصر - أي الدوافع - لإجراء تحليلكن، وسيكون هذا في البداية من خلال طرائق الاستجواب التي ستكشف لكن عن الميل الداخلي للمحققين وانتماءاتهم، وبعدها عن طريق الملاحظة الدقيقة للتوجّهات الفكرية اللغوية لمن يخضعون للتحليل. ستجد أنه من السهل تحديد جذور المرجعية اللغوية للأشخاص قيد الدراسة، وهذا بالطبع من خلال نبرة الصّوت ونمط الكلام.

الآن، وبينما هي جالسة إلى المائدة مع ابنها ودوقها وضيوفهم، وسماعها لكلام ممثل بنك النقابة، شعرت جيسيكاً بقشعريرة إدراك مفاجئة: هذا الرجل أحد جواسيس الهراكنة. كلامه يحمل نمط أهل كوكب جيدي برايم. صحيح أنه يخفيه بمهارة، لكنه مُعَرِّى أمام وعيها المتدرب كأنه يعلن عن نفسه.

سألت جيسيكاً نفسها: أهذا يعني أن النقابة نفسها انحازت ضد آل آتريديز؟ راعتها الفكرة واعتصرت قلبها، فأخفت مشاعرها وطلبت إحضار صنف طعام جديد، دون أن تكف عن الإصغاء إلى الرجل مُنتظرة منه ما سيفضح ما يضمّره. قالت لنفسها: سيفيّر الحديث إلى موضوع آخر يبدو بريئاً، ولكن بإيحاءات مشؤومة. هذا هو نمطه.

ابتلع المصرفي طعامه، وأخذ رشفه من النبيذ، وابتسم على شيءٍ قالت له المرأة التي تجلس إلى يمينه. بدا للحظة كأنه ينصت إلى رجلٍ يشرح للدوق أن نباتات أراكس الأصلية ليس بها أشواك.

قال المصرفي موجّهاً كلامه إلى جيسيكاً: «أستمتع بمشاهدة تخليق الطيور في سماء أراكس. كل طيورنا بطبيعة الحال آكلة جيف، وكثير منها تعيش دون مياه، بعد أن صارت تشرب الدم». التوت ملامح ابنة صانع بذلات التقطير -الجالسة على الطرف الآخر من الطاولة بين پول وأبيه- وشاعت تكشيرة في وجهها الجميل وهي تقول: «أوه يا سو سو، دائماً ما تتفوّه بأكثر الأشياء إثارة للاشمئزاز».

ابتسم المصرفي موضّحاً: «ينادونني سو سو لأنني المستشار المالي لاتّحاد باعة الماء الجائلين»، وعندما لاحظ أن جيسيكاً

تواصل تحديقها إليه دون فهم، أضاف: «لأن باعة الماء يرفعون عقيرتهم صائحين: 'سو سو سوق'»، ثم قلَّد الصَّوت بدقَّة متناهية جعلت كثير من الجالسين حول المائدة يضحكون.

سمعت جيسيكاً نبذة صوته المتبجَّحة، لكنها أكثر ما لفت انتباهها أن الشابة تحدَّثت في الوقت المناسب، كأنها تمثيلية، وقَدَّمت العذر للمصرفي كي يقول ما قاله. نظرت جيسيكاً إلى لينجار بيوط. كان قطب المياه عابساً، موجَّهاً انتباهه إلى عشائه، ففهمت جيسيكاً أن المصرفي كان يقصد بكلامه: «أنا أيضاً أتحمَّك في مصدر النفوذ الأعظم على أراكس: الماء».

كان پول قد ميَّز الزيف في صوت الضيف، ورأى أن والدته كانت تتابع المحادثة بانتباه البني جيسيرت. بدافع غريزي، قرَّر پول استدراجه وإطالة النقاش، وسأل موجَّهاً حديثه إلى المصرفي: «هل تعني يا سيِّدي أن تلك الطيور تَأْكُل من بني جنسها؟».

قال المصرفي: «هذا سؤال غريب أيُّها السيِّد الصغير. لم أقل إلا أن الطيور تشرب الدماء، ليس بالضرورة أن تكون دماء أفراد من نوعها، أليس كذلك؟».

قال پول: «لم يكن سؤالاً غريباً»، فميَّزت جيسيكاً في صوته الهجوم السريع اللاذع الذي درَّبته عليه. «يعرف معظم المتعلِّمين أن أخطر منافسة محتملة لأيِّ كائنٍ حيٍّ حديث السن قد تأتي من أفراد نوعه»، ثم عن عمد غرس شوكته في طبق الضيف ملتقطاً قطعة طعام، وأكلها. «فهم يتغذُّون من نفس الطعام، ولديهم الاحتياجات الأساسية نفسها».

اعتدل المصرفي في جلسته، ونظر إلى الدوق متجهماً.

قال الدوق مبتسمًا: «لا تقع في خطأ اعتبار ابني طفلًا».

جالت جيسिका بنظرها حول الطاولة، ولاحظت أن بيوط تهللت أساريره، وأن كلاً من كاينز والمهرّب تويك يبتسم.

قال كاينز: «هذا قانون في علم البيئة، ويبدو أن السيد الصغير يفهمه جيّدًا. الصراع بين الكائنات الحيّة لهو صراع على مصادر الطاقة المتوفّرة في النظام البيئي، والدم مصدر جيّد للطاقة».

وضع المصرفي شوكتة، وقال بصوتٍ غاضب: «يُقال إن حثالة الفرمن يشربون دماء موتاهم».

هزّ كاينز رأسه بهدوء وتكلّم كمن يلقي محاضرة: «ليس الدماء يا سيّدي، بل كلّ ماء المرء يؤوّل في النهاية إلى قومه، أي قبيلته. إنها ضرورة حياتية تتعلّمها عندما تعيش على تخوم "الفلاة الكبرى". كل الماء ثمين هناك، وسبعون بالمئة من وزن الجسم البشري ماء، وقطعًا الميت لم يعد بحاجة إلى تلك المياه».

وضع المصرفي كلتا يديه على المنضدة بجانب طبقه، وظنّت جيسिका أنه سيدفع كرسيه إلى خلف ويفادر غاضبًا

نظر كاينز إلى جيسिका وقال: «اعذريني يا مولاتي للاستفاضة في مثل هذا الموضوع القبيح على المائدة، ولكنك كنت تسمعين معلومات مضلّة، وكان لا بُدّ من إيضاحها».

قال المصرفي بنبرة فظة: «لقد اختلطت بالفرمن مدّة طويلة حتّى فقدت كل حسّ سليم».

نظر إليه كاينز بهدوء، متدبّرًا انفعالات وجهه الشاحب المرتجف: «أتحدّثني يا سيّدي؟».

تجمّد المصرفي في مكانه، ثم ابتلع ريقه، وقال بتصنّع: «بالطبع لا. لن أهين مضيفنا ومضيفتنا بمثل هذا السلوك».

ميّزت جيسिका الخوف في صوت الرجل، ورأته في وجهه، واستشعرته في أنفاسه، ولمسته في الوريد النابض في صدغه. كان الرجل مرعوباً من كايّنزا

قال كايّنز: «مضيفنا ومضيفتنا قادران تماماً على التقرير بنفسيهما عندما يتعرضان للإهانة. إنهما شجاعان ويدركان جيّداً مبدأ الدفاع عن الشرف. نستطيع جميعاً أن نشهد على جسارتهما بحقيقة أنهما هنا.. الآن.. على أراّكس».

لاحظت جيسিকা أن ليتو مستمتع بالأمر، بينما لم يكن معظم الآخرين كذلك. جلس الضيوف حول المائدة يخفون أيديهم أسفل المائدة كأنهم متأهبين للفرار. باستثناء بيوط، الذي كان يتسم بصفاقة في وجه المصرفي إمعاناً في زعزعته، والمهرّب تويك، الذي بدا كأنه يراقب كايّنز منتظراً إشارته. رأت جيسিকা أن پول يرمق كايّنز بإعجاب.

قال كايّنز: «ما قولك؟».

غمغم المصرفي في صوتٍ خفيض: «لم أقصد أيّ إهانة، وإن شعرت بإهانة من كلامي، فأرجو أن تقبل اعتذاري».

قال كايّنز: «اعتذارك مقبول بما أنك قدّمته عن طيب خاطر». ثم ابتسم إلى جيسিকা، وواصل تناول طعامه كأن شيئاً لم يحدث. لاحظت جيسিকা أن المهرّب استرخى كذلك، فسجلّت الملاحظة في ذهنها: لقد أظهر الرجل أنه على أتم الاستعداد للوثوب في أيّ لحظة لمؤازرة كايّنز. من الواضح أن بين كايّنز وتويك عهدٌ ما. عبث ليتو بشوكته، وراح يتأمّل كايّنز. يشير سلوك عالم البيئات الكوكبية إلى أن موقفه تجاه آل آترديدز قد تغيّر، فقد بدا الرجل أكثر جفاءً في رحلتهم إلى الصّحراء.

أشارت جيسिका إلى إحضار صنف آخر من الطعام ومن الشراب. جلب الخدم أطباق ألسنة الأرانب البرية، التي تقدّم مع النبيذ الأحمر وصوص خميرة الفطر.

ببطء، استؤنفت محادثات العشاء، لكن جيسिका استشعرت التوتر الذي يغلفها واتّسامها بالحساسية، ورأت أن المصرفي يأكل طعامه في صمت متجهّم، وخطر لها: كان كاينز سيقته دون ذرّة تردد. أدركت أن كاينز يتعامل مع مسألة القتل بعفوية. إنه لا يبالي بالقتل البتّة، وخمنت أن هذه صفة من صفات الفرمن.

التفتت جيسिका إلى صانع بذلات التقطير الجالس إلى يسارها وقالت: «أجد نفسي مشدوّه باستمرار من أهميّة الماء على أراكس». وافقها الرجل قائلاً: «إنه فائق الأهميّة. ما الذي في هذا الطبق؟ إنه شهّي».

قالت له: «ألسنة الأرانب البرية المطبوخة في صلصة خاصة. إنها أكلة عتيقة».

قال الرجل: «يجب أن أحصل على الوصفة». أومأت جيسिका: «سأؤكد من حصولك عليها». نظر كاينز إلى جيسिका وقال: «عادة ما يستهين الوافدون الجدد إلى أراكس بأهميّة الماء هنا. كما ترين، نحن نتعامل هنا مع قانون الحد الأدنى».

سمعت في صوته نبرة اختبار، فقالت: «آها، تقصد مبدأ اعتماد نمو النباتات على العنصر الأقل توفراً في البيئة، ما يجعل أقل الظروف المواتية هو المتحكّم في معدّل النمو بطبيعة الحال». قال كاينز: «من النادر أن يجد المرء أحد أفراد العائلات النبيلة على دراية بالمشكلات البيئية لأحد الكواكب. الماء هو

العنصر الأقل توفُّرًا للحياة وبالتالي هو أقل الظروف مواتية، وتذكّري أن النمو في حدّ ذاته يمكن أن تنتج عنه ظروفٌ غير مواتية ما لم يُجر التعامل معه بحذر شديد».

استشعرت جيسिका رسالة خفية في كلمات كاينز، لكنها لم تفهم فحواها. كرّرت من بعده: «النمو»، ثم سألت: «هل تعني أن أراكس يمكن أن يتمتّع بدورة مياه منتظمة قادرة على دعم الحياة البشرية في ظل ظروف أكثر ملاءمة؟».

صاح قطب الماء قائلاً: «مستحيل!».

أدارت جيسिका انتباهها إلى بيوط وقالت: «مستحيل؟».

قال: «مستحيل على أراكس. لا تنصتي إلى هذا الحالم. كل الأدلة العملية تقول عكس كلامه».

نظر كاينز باتجاه بيوط، ولاحظت جيسिका أن النقاشات الأخرى الدائرة حول المائدة قد توقّفت، وركّز المدعوون اهتمامهم على هذا الجدل الجديد.

قال كاينز: «تميل الأدلة العملية إلى إعمائنا عن حقيقة بسيطة جدًّا، هذه الحقيقة تقول: إننا نتعامل هنا مع أمور نشأت -وما زالت قائمة- في العراء حيث تعيش النباتات والحيوانات حياتها الطبيعية».

قال بيوط ساخرًا: «طبيعية! لا شيء على أراكس طبيعي!».

قال كاينز: «العكس هو الصحيح. بالإمكان خلق أنظمة منسجمة مكثفية بذاتها على هذا الكوكب، كل ما عليك هو فهم حدود موارده والضغط الواقعة عليه».

قال بيوط: «لن يحدث هذا أبدًا».

بفتة، أدرك الدوق اللحظة التي تغيّر فيها سلوك كاينز: إنها اللحظة التي تحدّثت جيسيكاً فيها عن الإبقاء على مشتل النباتات كأمانة لشعب أراكس.

سأل ليتو: «ما الذي يتطلبه إنشاء نظام مكتفٍ ذاتياً يا دكتور كاينز؟».

قال كاينز: «إذا استطعنا جعل ثلاثة بالمئة من الحياة النباتية على أراكس تبدأ تكوين مركبات الكربون في هيئة موادّ غذائية، سنكون قد بدأنا دورة حياة النظام المنشود».

سأل الدوق: «والماء هو العقبة الوحيدة؟»، واستشعر حماسة كاينز، ووجد أنه قد التقط عدواها.

قال كاينز: «عقبة الماء تطفئ على المشكلات الأخرى. يحتوي هذا الكوكب على الكثير من الأكسجين دون ما يصاحبه من ظواهر معتادة، كانتشار الحياة النباتية، وكوجود مصادر كبيرة لغاز ثاني أكسيد الكربون الحر الناتجة عن ظواهر مثل البراكين. أيضاً تحدث عمليات تبادل كيميائية غير عادية على مساحات كبيرة هنا».

سأل الدوق: «ألديك مشاريع تجريبية؟».

قال كاينز: «لقد أمضينا وقتاً طويلاً لتحقيق ما يُدعى بتأثير تانسلي: إجراء تجارب ضيقة النطاق في معامل محدودة، وهي تجارب بإمكانني استخدامها نواةً لعملتي والبناء على النتائج التي توصّلت إليها».

قال بيوط: «لا يوجد ماءً كافٍ، هذا كل شيء».

قال كاينز مبتسماً: «السيد بيوط خبير في أمور الماء»، ثم عاد إلى عشاءه.

أشار الدوق بحدّة بيده اليمنى، وصاح: «كلّا! أريد جوابًا! هل يُوجد ماءٌ كافٍ يا دكتور كاينز؟».

ظلّ كاينز يحدّق إلى طبقه.

راقبت جيسيكا انفعالات وجهه وفكّرت: إنه بارع في إخفاء مشاعره، لكنها كانت قد درستّه جيّدًا، وقد قرأت في ملامحه أنه نادّم على ما باح به من كلام.

قال الدوق بنبرة أمرّة: «أُوجد ماءٌ كافٍ؟».

قال كاينز: «آه... رُبّما».

فكّرت جيسيكا: إنه يتظاهر بعدم اليقين!

بحسّه الأعمق الكاشف للحقيقة، أدرك پول الدافع الكامن وراء ذلك، واضطر إلى استخدام كل ما تلقّاه من تدريب للسيطرة على نفسه وإخفاء حماسه. يُوجد ما يكفي من الماء بالفعل! لكن كاينز لا يُريد لتلك الحقيقة أن تُعرف.

قال بيوط: «لدى عالمنا البيئي الهمام أحلامٌ مثيرة. إنه يشارك الفرمن أحلامهم بالنبوءات والأنبياء».

تعالّت ضحكات مكتومة من أماكن متفرّقة حول المائدة، حدّتها جيسيكا بدقّة: المهرّب، وابنة صانع بذلات التقطير، ودانكن أيدا هو، والمرأة التي تدير شركة خدمات مرافقات غامضة.

وفكّرت: التوتّرات موزّعة بشكل غريب الليلة، وأمورٌ كثيرة لست على علم بها. عليّ تجنيد مصادر معلومات جديدة.

نقل الدوق بصره من كاينز إلى بيوط إلى جيسيكا، وتملّكه شعورٌ غريب بالخذلان، كأن شيئًا هامًا حدث أمامه ولم يفهمه.

في النهاية غمغم: «رُبّما».

قال كاينز سريعاً: «رُبَّما علينا مناقشة الأمر في وقتٍ آخر يا مولاي، فثَمَّة الكثير من الـ...».

بتر عالم البيئات الكوكبية عبارته مع دخول حارس آتريديزي بالزي الرسمي يهرول عبر باب الخدمة متجاوزاً الحارس ومسرّعاً نحو الدوق. انحنى الرجل، وهمس شيئاً في أُذن ليتو.

ميّزت چيسيكاً علامة جند حوَّاط على قُبَّعته، فحاولت نفض القلق عنها بتوجيه حديثها إلى رقيقة صانع بذلات التقطير، وهي امرأة تشبه الدمية: ضئيلة الجسد، وداكنة الشعر، وعيناها مسحوبتان قليلاً.

قالت چيسيكاً: «لم تلمسي شيئاً من عشائك يا عزيزتي، آتريدين أن أطلب لك طبقاً معيَّناً؟».

نظرت المرأة إلى صانع بذلات التقطير قبل أن تُجيب، ثم قالت: «لست جائعة».

بغتة، نهض الدوق واقفاً إلى جوار جنديه، وقال بنبرة أمرة جافّة: «ليبق الجميع في مقاعدهم. اعدروني فقد طرأ أمرٌ يتطلَّب تدخُّلي الشخصي»، ثم تنحَّى جانباً، وأضاف: «بول، تولّ منصب المضيف من بعدي من فضلك».

وقف بول راغباً في أن يسأل والده عن سبب مغادرته، لكنه علِم أن عليه معالجة الموقف بسلوك رفيع، فاتَّجه إلى مقعد والده وجلس عليه.

استدار الدوق إلى الفرجة التي يجلس هاليك فيها وقال: «جيرني، تعال وخذ مكان بول على المائدة من فضلك، فلا يجب أن نترك مقعداً شاغراً هنا، وعندما ينتهي العشاء، قد أحتاج منك إلى أن تصحب بول إلى مبنى القيادة في ساحة المهبط. انتظر اتّصالي».

خرج هاليك من الفرجة مرتدياً زيَّه الرسمي، وبدت كتلتة الدميمة في غير محلَّها مع كل البذخ والتأنُّق الذي في القاعة. أسند الباليست إلى الجدار، وسار إلى المقعد الذي كان پول يجتله، وجلس عليه.

قال الدوق: «لا داعي للقلق، لكن يجب أن أطلب منكم ألا يغادر أحد حتَّى يقول الحرس المنزلي أن الوضع آمن. ستكونون في أمان تام ما برحتم في المنزل. سنتخلَّص من هذه المشكلة الصغيرة سريعاً جداً».

التقط پول كلمات الشيفرة في رسالة والده: (حرس - آمن - أمان - سريعاً). إنها مشكلة تتعلَّق بالأمن، لا بأعمال عنف. لاحظ أن أمَّه قرأت نفس الرسالة في كلماته، فشعر كلاهما بالارتياح. أوماً الدوق باقتضاب إلى ضيوفه، واستدار مفادراً القاعة في خطوات عريضة عبر باب الخدمة، يتبعه جنديه.

قال پول: «واصلوا تناول العشاء من فضلكم، أظنُّ أن الدكتور كاينز كان يناقش موضوع المياه».

سأل كاينز: «هلاً ناقشناه في وقتٍ لاحق؟».

قال پول: «بكل سرور».

لاحظت جيسكا -بكل فخر- رفعة ووقار ابنها، وشعوره الناضج بالثقة.

التقط المصرفي إبريق المياه الموضوع أمامه، وأشار به باتجاه بيوط: «ليس بيننا من يتفوّق على السيّد لينجار بيوط في حُسن العبارة وفصاحة اللسان، حتَّى أن المرء قد يظن أنه كان يطمح إلى بلوغ رتبة كبار النبلاء. هيّا يا سيّد بيوط، قدّم لنا

نخبًا. رُبَّمَا يكون لديك بعض الحكمة يمكن تعليمها للصبي الذي يجب أن يُعامل كرجل».

ضمّت جيسيكا راحة يدها اليمنى في قبضة أسفل المائدة، ورات هاليك يُمرّر إشارة يدٍ خفيّة إلى أيّدهو، ولاحظت كيف تحرّك أفراد قوَّات الحرس المنزلي بطول الجدران إلى مواقع حراسة مشدّدة.

ألقي بيوط نظرةً سامّةً إلى المصرفي.

رمى پول هاليك بنظرة سريعة، مراعيًا المواقع الدفاعية التي اتخذها حرَّاسه، ثم حدّق إلى وجه المصرفي حتّى خفض الرجل إبريق المياه، فقال پول بعدها: «ذات مرّة على كلابان، رأيت جثة صيَّاد سمك غريق بعد انتشالها».

- «غريق؟». كانت هذه ابنة صانع بذلات التقطير.

تردّد پول قليلاً ثم قال: «أجل. أي غُمر تحت الماء حتّى مات.. غرقًا».

تمتّت: «يا لها من طريقة غير مألوفة للموت».

ابتسم پول ابتسامةً باهتةً، ثم أعاد انتباهه إلى المصرفي وقال: «المثير للاهتمام في أمر هذا الرجل كانت الجروح على كتفيه، التي تسبّب فيها حذاء صيَّاد آخر ثقيل. هذا الصياد كان واحدًا من عدّة صيادين على قارب -وهو مركب للانتقال في الماء- وقد غرق القارب بهم وغاص أسفل المياه. قال صيَّاد آخر ساعد في انتشال الجثة أنه رأى مثل هذه الجروح التي على كتفي الرجل مرّات كثيرة، وأنها تعني أن صيَّادًا آخر كان يفرق حاول الوقوف على أكتاف هذا الرجل المسكين في محاولة يائسة منه للوصول إلى السطح.. للوصول إلى للهواء».

سأل المصرفي: «وما المثير في الاهتمام في ذلك؟».

- «المثير للاهتمام هو الملاحظة التي أبدتها أبي في ذلك الوقت. لقد قال إنه من الممكن فهم الرجل الذي يتسلق كتفيك لينجو بنفسه من الفرق، لكن لا يمكن فهم من يفعل ذلك في قاعات الاستقبال»، وسكت پول برهة كافية كي يستوعب المصرفي ما يرمي إليه، ثم أردف: «وأحب أنا أن أضيف، لكن لا يمكن فهم من يفعل ذلك على موائد العشاء».

خيم على الغرفة صمتٌ مفاجئ.

فكرت جيسكا: كان هذا تصرفًا طائشًا، فمكانة هذا المصرفي قد تكون كافية لتحديّ ابني. لاحظت أن أيدها متأهبًا للتحرك الفوري، وأن حرس المنزل في حالة استنفار، وأن عيني جيرني هاليك مثبتتين على الرجال المقابلين له.

- «هاه هاه هاه هاه هاه». كان هذا هو المهرّب تويك، الذي ألقى رأسه إلى الوراء وراح يضحك دون تحفظ.

ارتسمت ابتسامات عصبية صفراء على بعض الوجوه حول المائدة. أما ابتسامة بيوط فكانت عريضة، وحشية.

دفع المصرفي كرسيه إلى الخلف وهو ينظر شزراً إلى پول.

قال كاينز: «على من يستفز أحد آل آترديدز إدراك مغبة ما يفعل».

سأل المصرفي بغضب: «وهل من عادة آل آترديدز إهانة ضيوفهم؟».

قبل أن يتمكن پول من الإجابة، مالت جيسكا إلى الأمام وقالت: «سيدي!»، ثم فكرت: يجب أن نعرف أي لعبة يمارسها عميل الهراكنة هذا؟ أهو هنا لجر پول إلى تحدّي هل يتلقّى مساعدة من أحد؟

سألته جيسيكاً: «ابني يعرض ثوباً على الملائ، فتأتي أنت وتزعم أنه مفضل على مقاسك؟ يا له من أمر غريب!». وانسلت يدها متحسّسة السكين العاجية التي لفت غمدها على ريلة ساقها.

استدار المصرفي موجّهاً نظره المستشيط غضباً نحو جيسيكاً، ورأت أن پول عاد بكرسيه إلى الوراء ليحرّر نفسه استعداداً للقتال، وهو يصب تركيزه على الكلمة السرية: ثوب أي «استعد لعمل عنيف». وجه كاينز نظرة فضولية إلى جيسيكاً، وأعطى إشارة يد خفية إلى تويك.

قفز المهرّب واقفاً على قدميه، ورفع إبريقه قائلاً: «سأعطيك أنا نخباً. إلى الشاب پول آتريديز، الفتى بمظهره، الرجل بأفعاله». سألت جيسيكاً نفسها: لماذا يتدخلان؟

كان المصرفي يحملق الآن إلى كاينز، ولاحظت جيسيكاً الرعب يعود ويعتلي ملامح وجه العميل.

بدأ الناس يستجيبون من كل مكان حول المائدة. فكّرت جيسيكاً: حيث يقود كاينز، يتبعه الناس. لقد أظهر لنا أنه ينحاز إلى جانب پول، ولكن ترى ما سر نفوذه؟ ليس من المعقول أن ذلك لكونه قاضي الفترة الانتقالية، فتلك وظيفة مؤقتة، وبالتأكيد ليس لأنه موظف حكومي.

أبعدت جيسيكاً يدها عن مقبض السكين العاجية، ورفعت إبريقها نحو كاينز، الذي ردّ تحيئتها بالمثل.

وحدهما پول والمصرفي (سو سول يا له من لقب أبله! هكذا فكّرت) ظللاً فارغين اليدين. لم يبعد المصرفي انتباهه المنصب على كاينز، أما پول فكان يحملق إلى طبقه.

ويفكر: كنت أتعامل مع الموقف على نحو صحيح، لِمَ تدخلوا؟ ثم استرق النظر إلى الضيوف الذكور الجالسين بالقرب منه. استعد لعمل عنيف؟ ممّن؟ بالتأكيد ليس من هذا المصرفي. تقلقل هاليك في جلسته، وتحدّث دون أن يخاطب أحداً على وجه الخصوص، موجّهاً كلامه إلى الجدار الواقع خلف رؤوس الضيوف المقابلين له: «في مجتمعنا، ليس من المفترض أن نكون سريعى الامتعاض، فكثيراً ما يكون ذلك سلوكاً انتحارياً»، ثم نظر إلى ابنة صانع بذلات التقطير الجالسة إلى جواره وأردف: «ألا تظنين ذلك يا آنستي؟».

قالت الفتاة: «أوه، أجل، أظن ذلك بالفعل. هناك الكثير من العنف، وهذا يشعرني بالغثيان. في كثير من الأحيان لا تكون الإهانة مقصودة، ومع ذلك يموت الناس. هذا لا يُعقل». قال هاليك: «بالفعل لا يُعقل».

لاحظت جيسिका الأداء المتقن الذي أدّت به الفتاة دورها، وأدركت: هذه الأنثى الصغيرة ذات العقل الفارغ ليست مجرد أنثى صغيرة ذات عقل فارغ. ثم أدركت طبيعة الخطر البادي أمامها، وفهمت أن هاليك قد اكتشفه أيضاً. لقد خطّطوا لإغراء پول بالجنس. شعرت جيسिका بالارتياح، فلا بُدَّ أن ابنها كان أوّل من لاحظ الأمر، فلم يكن تدريبه ليفضل عن تلك المناورة الواضحة. وجّه كاينز حديثه إلى المصرفي قائلاً: «ألم يحن وقت تقديم اعتذار آخر؟».

استدار المصرفي إلى جيسिका وعلى وجهه ابتسامة سقيمة، وقال: «مولاتي، أخشى أنني قد أفرطت في تناول النبيذ. أنت تقدّمين خمراً قوياً على المائدة، وأنا لست معتاداً على ذلك».

سمعت جيسيكَا النبرة السَّامة التي يحملها صوته، وردَّتْ
بعذوبة: «عندما يلتقي الغريباء، يجب التماس العذر وترك مساحة
واسعة للتفهُّم بسبب الاختلافات في العادات والتقاليد».
قال الرجل: «أشكركَ يا مولاتي».

مالت رقيقة صانع بذلات التقطير الداكنة الشعر نحو جيسيكَا،
وقالت: «قال الدوق إننا سنكون بمأمنٍ هنا، أمل ألا يعني ذلك
وقوع المزيد من القتال في الخارج».
فكَّرت جيسيكَا: لقد طُلب منها توجيه المحادثة إلى هذا
الطريق.

قالت جيسيكَا: «الأمر لا يستجوب القلق على الأرجح، لكن
تفاصيل كثيرة تتطلَّب اهتمام الدوق الشخصي في هذه الأوقات.
فما دامت العداوة مستمرة بين آل آترديدز وآل هاركونن، علينا
توخي أقصى درجات الحذر. الدوق أقسم على ثأر الكانلي، وهذا
يعني أنه لن يترك عميلًا هاركوننيًا حيًّا على أرَّاكس»، ثم رمت
ممثِّل بنك النقابة بنظرة وأضافت: «والمعاهدات بطبيعة الحال
تدعمه في هذا»، ثم نقلت انتباهها إلى كاينز وأردفت متسائلة:
«أليس كذلك يا دكتور كاينز؟».

قال كاينز: «بلا شك».

جذب صانع بذلات التقطير رفيقته إلى الخلف برفق، فنظرت
إليه ثم قالت: «أظن أنني سأكل شيئًا الآن. أرغب في تذوق طبق
الطيور الذي قدَّمته سابقًا».

أشارت جيسيكَا إلى الخادم لتلبية طلبها، وعادت إلى
المصرفي: «وأنت يا سيدي، لقد كنت تتحدَّث سابقًا عن الطيور
وعاداتها. أجد الكثير من الأشياء المثيرة للاهتمام في أرَّاكس».

أخبرني، أين يعيش هذا النوع؟ وهل يتوغّل الصيَّادون في أعماق الصَّحراء؟».

قال: «أوه، كلاً يا سيّدي. لا يُعرف إلّا أقل القليل عن قلب الصَّحراء، ولا شيء معروف تقريباً عن المناطق الجنوبية».

قال كاينز: «تقول إحدى الروايات إن المناطق الجنوبية تحوي كمّيات هائلة من الاسپايس، لكنني أظن أن الأمر محض خيال نُسج لترديده في الأغنيات. يغامر صيَّادو الاسپايس الجريثون باختراق حدود الحزام المركزي في بعض الأحيان، لكن هذا أمر شديد الخطورة، فالملاحه هناك غير دقيقة، والعواصف تهب باستمرار. تزداد الخسائر بشكل كبير كلما ابتعدت العمليات عن قواعد الجدار الحامي. لم يثبت التوغّل جنوباً أنه مُريح اقتصادياً، لكن ربّما لو كنا نملك قمر تحكّم في الطقس...».

رفع بيوط بصره عن طبقه، وتحدّث بفم مملوء بالطعام: «يُقال إن الفرمن يجوبون الصحاري هناك، وإنهم يرتحلون إلى أيّ مكان باحثين عن منافع ماء وآبار رشف، حتّى في خطوط العرض الجنوبية».

سألت چيسیکا: «مناقع وآبار؟».

ردّ كاينز سريعاً: «مجرّد شائعات جامحة يا مولاتي. هذه الأشياء معروفة على الكواكب الأخرى، ولكن ليس على أَرَاكس. المنقع هو مكان يتسرّب فيه الماء إلى السطح، أو قريباً من السطح بما يكفي، ما يسمح للعثور عليه بالحفر وفقاً لعلامات معينة. أما بئر الرشف فهي شكل من أشكال المناقع يُسحب الماء منها باستخدام قصبه. هذا ما يُقال».

فكرت چيسیکا: في حديثه خداع.

وتساءل بول: لماذا يكذب؟

قالت چيسىكا: «كم هذا مشيرٌ للاهتمام!»، وفكرت: «هذا ما يُقال!» ما أغرب أسلوب الكلام المستخدم هنا. فقط لو يعرفون ما يكشفه عن اعتمادهم على الخرافات.

قال بول: «سمعت أن لديكم مقولة تقول: "الرقي منبته المُدن، والحكمة منبعاها الصُّحراء"».

قال كاينز: «الأقوال كثيرة على أراكس».

قبل أن تتمكّن چيسىكا من صوغ سؤال جديد، انحنى أحد الخدم وسلّمها ملاحظة، ففتحتها لترى خط يد الدوق وعلامات شيفرة متناثرة، فقرأتها سريعاً.

ثم قالت: «ستُسروُن جميعاً عندما تعلموا أن دوقنا يرسل إليكم تطميناته. المسألة التي تطلّبت حضوره سُوت. لقد عثروا على الحاملة الجوّية المفقودة. أحد عملاء الهراكنة كان ضمن الطاقم وتغلّب على الآخرين وقاد الطائرة إلى إحدى قواعد المهربين، على أمل بيعها هناك. وقد سلّم كلٌّ من الرجل والآلة لقوّاتنا». ثم هزّت رأسها لتُويك.

فبادلها تُويك الإيماءة.

طوت چيسىكا الورقة ودسّتها في كمّ فستانها.

قال المصرفي: «أنا سعيد أن الأمر لم يتطوّر إلى معركة، فالناس لديهم آمال كبيرة أن يجلب آل آتريدز السلام والازدهار». قال بيوط: «لا سيّما الازدهار».

سألت چيسىكا الحضور: «هلاً نتناول التحلية الآن؟ لقد طلبت من الطاهي أن يُعدّ لنا حلوى كلادانية: أرز البُنْجي بصوص الدولسا». قال صانع بذلات التقطير: «يبدو لذيذاً، هل أستطيع الحصول على الوصفة؟».

قالت جيسيكَا: «تستطيع الحصول على أيِّ وصفة تُحب»،
وسجّلت الرجل في ذهنها كي تذكره لحوَّاط لاحقًا، فقد كان
صانع بذلات التقطير هذا وصوليًا، جبانًا، يمكن شراؤه.
استؤنفت الدردشات من حولها: «يا له من قماشٍ جميل...»،
«سيصنع لي عُقدًا يبرز بهاء الجوهرة...»، «سنحاول زيادة الإنتاج
في رُبع السنة القادم...».

حدّقت جيسيكَا إلى طبقها وهي تُفكّر في الجزء المشفّر
من رسالة ليتو: لقد حاول الهراكنة تهريب شحنة بنادق ليزر
إلى الكوكب، لكننا أمسكنا بهم. هذا يعني أنهم ربّما نجحوا في
إدخال شُحنات أخرى، وهذا يعني أنهم لا يأبهون لدروع الطاقة.
اتّخذي الاحتياطات المناسبة.

ركّزت جيسيكَا ذهنها على بنادق الليزر، وتعجّبت. يستطيع شعاع
الليزر الأبيض الحارق اختراق أيِّ مادة معروفة، بشرط ألا تكون
هذه المادة محاطة بدرع طاقة. لماذا لا يبدو أن الهراكنة يأبهون
لحقيقة أن ردّة فعل الدرع عند التقاء الشعاع به تُفجّر الاثنان معًا؟
لطالما كانت انفجارات دروع الطاقة وبنادق الليزر متغيّرات تابعة
خِطَرَة غير مأمونة الجانب، فقد يكون الانفجار أقوى من الأسلحة
الذريّة، وقد يقتل حامل البندقية وهدفه المحمي بالدرع فحسب.
ملأتهما المجاهيل المحيطة بها بقلق بالغ.

قال پول: «لم أشك قط في أننا سنجد الحاملة الجويّة، فما أن
يتحرّك أبي لحل مُشكلة، فهو يحلّها. هذه حقيقة بدأ الهراكنة يدركونها».
فكّرت جيسيكَا: إنه يتفاخر، ويجب ألا يتفاخر. لا يحقُّ لشخصٍ
سبببت الليلة في غرفة تحت سطح الأرض تحسُّبًا لوقوع هجومٍ
بنادق الليزر أن يتفاخر.

لا مناص من أن ندفع ثمن عنف أسلافنا .
من كتاب «أحاديث المؤدّب المجمعّة» للأميرة إيrolان.

سمعت جيسيكَا الجلبة الآتية من القاعة الكبرى، فأضاءت
المصباح المجاور للفراش. لم تكن قد ضبطت ساعتها على
التوقيت المحلي بدقّة بعد، فكان عليها أن تطرح 21 دقيقة لتقرّر
أنها الثانية صباحًا .

كانت الجلبة صاخبة وعشوائية.

تساءلت: أهذا هجوم الهراكنة؟

انسَلَّت مغادرة الفراش، وتفتّحت شاشات المراقبة لتري
مواقع أفراد أسرتها. أظهرت الشاشة أن پول نائم في غرفة القبو
العميقة التي حوّلها على عجل إلى غرفة نوم له. من الواضح أن
الضجّة لم تبلغ مهجعه. لم يكن الدوق في غرفته، وفراشه مُرتّب
لم يُمس. أما زال في مبنى القيادة في ساحة المهبط.

لم يكونوا قد وضعوا كاميرات مراقبة على واجهة المنزل بعد .
وقفت جيسيكَا في منتصف غرفتها، منصّة.

سمعت شخصًا يصيح بكلام غير واضح، وآخر ينادي الدكتور
يُوي. التقطت جيسيكَا رداءً ووضّعتَه على كتفها، ودسّت قدميها
في نعلين، وربطت السكّين العاجية حول ساقها .
مرّة أخرى، صاح الصّوت مناديًا الدكتور يُوي.

ربطت جيسيكَا حزام الرداء حول خصرها، وخطت خارجة إلى
الرواق، ثم صدمتها خاطرة: ماذا لو أصاب ليتو مكروه؟

راحت جيسيكَا تركض وتركض، وبدا الرواق كأنه يمتدّ ويستطيل
إلى الأبد تحت قدميها، ثم انعطفت عبر المدخل المقبّب في نهاية

الرواق، واندفعت عابرة قاعة الطعام، وقطعت الممر المؤدي إلى القاعة الكبرى، حيث وجدت الإضاءة تغمر المكان، والمصابيح الجدارية المضادة للجاذبية تتوهج بكامل طاقتها.

بالقرب من المدخل الأمامي، رأت رجلين من الحرس المنزلي يمسكان بدانكن آيداهو مُدلى الرأس بينهما، وقد خيم على المشهد صمتٌ ثقيلٌ مفاجئ.

تحدث أحد الحارسين إلى آيداهو بنبرة اتهام: «أرأيت ماذا فعلت؟ لقد أيقظت الليدي چيسिका».

كانت الستائر الكبيرة تنتفخ بالهواء من خلف الرجلين، ما يعني أن الباب الأمامي ترك مفتوحاً. لم يكن في المكان أثرٌ للدوق أو ليوي، وكانت ميبس واقفةً في أحد الأركان في ثوبٍ بُنيٍّ طويل حوافه مهترئة ترمق آيداهو ببرود، وقد انتعلت في قدميها بياذة صحراء أربطتها مفكوكة.

غمغم آيداهو: «إذا فجرمتي أنني أيقظت الليدي چيسিকা»، ثم رفع وجهه إلى السقف وجأر: «أنا الذي أدميتُ سيفي لأول مرةً على كوكب جرومان!».

فكرت چيسিকা: بحق الأم العظيمة! إنه ثمل!

كان العبوس يرتسم على وجه آيداهو الأسمر المستدير، وكان شعره ملتبداً بالوحل كوبر ماعزٍ أسود، وقد تمرقت سترته كاشفةً عن جزء كبير من القميص الذي كان يرتديه في حفل العشاء. عبرت چيسিকা القاعة نحوه.

حيّاهَا أحد الحارسين برأسه دون أن يفلت قبضته عن دانكن، وقال: «لم نعرف ماذا نفعل به يا سيّدتني. كان يثير جلبة في الخارج ويرفض الدخول، وخُفنا أن يأتي بعض السكّان المحليين

ويشاهدونه في هذه الحالة، فهذا غير لائق على الإطلاق وقد يسيء إلى سمعتنا».

سألت جيسिका: «أين كان؟».

- «كان يرافق واحدة من الشابات اللاتي حضرن العشاء إلى منزلها يا سيّدي، بأوامر من حوّاط».

- «أيّ شابة كانت؟».

- «واحدة من باغيات خدمة المرافقة، أنت تفهمين يا سيّدي»، ثم ألقى نظرة سريعة إلى ميبس، وخفض صوته وهو يردف: «دائمًا ما يكلّف أيّدا هو بمراقبة السيّدات».

فكرت جيسिका: «وهن لا يمانعن. لكن لماذا هو مخمور؟ قطبت جبينها، واستدارت إلى ميبس قائلة: «أحضري شرابًا منبّهًا يا ميبس، شيئًا فيه كافيين، ربّما تبقت لدينا بعض القهوة المخلوطة بالاسپايس».

هزّت ميبس كتفيها واتّجهت إلى المطبخ، وبيادتها الصحراوية المفكوكة الأربطة تضرب الأرض الحجرية في غير اتّساق. طوّح أيّدا هو رأسه غير المتّزن ونظر إلى جيسिका بزاوية مائلة ممغمًا بلسانٍ مُعَوّج: «أكثر من ثالثمئة رجل قتلت في خدمة الدوق. أريد معرفت لماذا أتيت إلى هذا المكان؟ لا يمكن العيش تحت الأرض هنا. لا يمكن العيش فوق الأرض هنا. أيّ مكانٍ هذا، ها؟». صدر صوتٌ من جانب القاعة وجذب انتباه جيسिका، فاستدارت ورأت يوي يتقدّم نحوهم وعدّته الطبية تتأرجح في يده اليسرى. كان يرتدي كامل ثيابه، ويبدو شاحبًا ومرهقًا، ووشم الألماسة بارزًا بوضوح على جبهته.

صاح آيداهو: «الطبيب الطيب! من تكون يا دوك؟ رجل
الإسعافات والوصفات؟»، ثم استدار مترنحًا إلى چيسيكا وقال:
«أجعل من نسفي أضحوكة، أليس كذلك؟».

قطبت چيسيكا جبينها وظلّت صامتة، وتساءلت: ما الذي دفع
آيداهو إلى أن يثمل؟ أم هل جرى تخديره؟
قال آيداهو وهو يحاول الاعتدال واقفًا: «جرعت الكثير من
البيرة الممزوجة بالاسپايس».

عادت ميپس بكوب ساخن يتصاعد منه البخار، ثم توقفت
مترددة خلف يوي ونظرت إلى چيسيكا، التي هزّت رأسها نافية.
وضع يوي عدّته الطبيّة على الأرض، وأومأ محييًا چيسيكا
وهو يقول: «البيرة الممزوجة بالاسپايس، هه؟».

قال آيداهو: «أفضل شارب لعين تؤدّقه في حياتي»، وهو
يحاول لفت الانتباه إليه: «أدميتُ سيفي لأوّل مرّة على كوكب
جرومان! قتلت أحد الهكارنة... الهراكنة... قتلته من أجل الدوق».

استدار يوي ونظر إلى الكوب الذي تحمله ميپس.

قال: «ماذا في الكوب؟».

قالت چيسيكا: «كافيين».

أخذ يوي الكوب، وحمله إلى آيداهو، وقال: «اشرب هذا أيّها
الشاب».

- «لا أغرب في شُرب شيءٍ آخر».

- «قلت اشرب!».

مال رأس آيداهو مترنحًا نحو يوي، وتعثّر خطوة إلى الأمام
ساحبًا الحارسين معه: «سئمت من إرضاء هذا الكون المبراطوري
يا دوك. سنفعل الأمور على طريقتي هذه المرّة».

قال يُوي: «حسنًا، لكن بعد أن تشرب هذا. إنه مجرد كافيين».

- «إنه عديم النفع ككل شيء في هذا المكان! الشمس العينة شديدة الستوع! كل شيء لونه غريب، كل شيء إما خاطئ وإما...».

قال يُوي: «حسنًا، نحن في الليل الآن»، ثم قال بعقلانية: «كن فتى مطيعًا واشرب هذا، سيشعرك بتحسّن».

- «لا هاريد أن أسعر بتحسّن».

قالت جيسिका: «لن نجادله طوال الليل»، وفكّرت: حالته هذه تستدعي العلاج بالصدمة.

قال يُوي: «لا داعي لبقائك يا مولاتي، أستطيع الاعتناء بالأمر».

هزّت جيسिका رأسها رافضة، وأخذت خطوة إلى الأمام، وصدفت آيداهو على وجهه.

تعثّر آيداهو خلفًا، وحدّجها بنظرة نارية.

قالت: «هذا سلوكٌ غير لائق في منزل دوقك»، واختطففت الكوب من يد يُوي فاندلق بعضًا من محتواه، ثم دفعت به إلى آيداهو صائحة: «اشرب هذا الآن! إنه أمر!».

اعتدل آيداهو في وقفته، متجهّمًا في وجهها، ثم قال ببطء ضاغطًا على مقاطع كل كلمة: «لا أتلقّى أوامري من جاسوسة هاركونية لعينة».

تجمّد يُوي في مكانه، ثم استدار مواجهًا جيسिका.

كان وجهها شاحبًا، لكنها كانت تومئ في فهم وقد اتّضح لها كل شيء. استطاعت الآن ترجمة المعاني المضمرّة المبتورة التي سمعتها في كلمات وأفعال من حولها في الأيام القليلة الماضية، ووجدت أن غضبًا عارمًا لا يمكن احتواؤه يسيطر عليها. لجأت إلى أعرق تدريبات البني جيسيرت التي تلقّتها كي تهدئ ضربات

قلبها وتُسَهِّلُ تنفُّسها، وعلى الرغم من ذلك ظَلَّتْ تشعر بنار
الاستثارة تسري في أوصالها.

دائماً ما يُكَلِّف آيداهو بمراقبة السيدات.

رمت يُوي بنظرة نارية، فخفض الطبيب بصره متحاشياً
عينها.

سألته: «أكنت تعرف هذا؟».

- «قد... سمعت بعض الشائعات يا مولاتي، لكنني لم أرغب
في زيادة أعبائك».

صاحت أمرة: «حوَّاط! أريد أن يمثل ظفير حوَّاط بين يديَّ
حالاً!».

- «ولكن يا مولاتي...».

- «قلت حالاً!».

وفكرت: لا أحد غير حوَّاط وراء ذلك. مثل هذا الشك لا يمكن
أن يأتي من مصدر آخر دون أن يُقابل بتجاهل فوري.
هزَّ آيداهو رأسه، وتمتم ماضغاً الكلام: «تقيَّأت ما شربت
بالكامل».

حملت جيسكا إلى الكوب الذي تحمله في يدها، ثم ألقت
محتوياته بفتة في وجه آيداهو، وقالت أمرة: «احبساه في واحدة
من غرف الضيوف في الجناح الشرقي، واتركاه ينام حتَّى يفيق!».
رمقها الحارسان في استياء، وتجراً أحدهم بقول: «ربَّما من
الأفضل أن نأخذه إلى مكان آخر يا مولاتي، يمكننا...».

صاحت جيسكا: «يُفترض به أن يكون هنا! لديه وظيفة ليؤدِّيها
هنا!»، ثم امتلأ صوتها بالمرارة وهي تقول: «إنه بارعٌ جداً في
مراقبة السيدات».

ابتلع الحارس ريقه.

سألت جيسिका: «أتعرف أين الدوق الآن؟».

مكتبة

t.me/t_pdf

- «إنه في مقرّ القيادة يا مولاتي».

- «وهل حوَّاط معه؟».

- «حوَّاط في المدينة يا مولاتي».

قالت له: «اذهب واجلب لي حوَّاط في الحال، سأكون في

غرفة جلوسي عندما يأتي».

- «ولكن يا مولاتي...».

قالت: «سأُتصل بالدوق إذا استدعى الأمر، وآمل ألاّ يستدعي،

فأنا لا أريد إزعاجه بأمر كهذا».

- «حسنًا يا مولاتي».

دفعت جيسिका الكوب الفارغ إلى يد ميبس، ورأت النظرة

المتسائلة في العينين الزرقاوين بالكامل، وقالت: «يمكنك العودة

إلى فراشك يا ميبس».

- «هل أنت متأكدة من أنك لن تحتاجي إليّ؟».

ابتسمت جيسिका ابتسامة كالحة وقالت: «أجل متأكدة».

قال يُوي: «رُبّما يمكن تأجيل الأمر ليوم غدٍ، أستطيع إعطاءك

مهدّئًا...».

قاطعته قائلة: «عُد إلى غرفتك ودعني أتعامل مع الأمر

بطريقتي»، ثم ربّتت على ذراعه لتخفّف من حدّة نبرتها الآمرة

وقالت: «إنها الطريقة الوحيدة».

ثم استدارت -مرفوعة الرأس- وأسرعت الخطى متّجهةً إلى

جناحها عبر ممّرات المنزل التي تحدّها جدرانٌ باردة. وصلت

إلى باب غرفتها، وفتحتّه بقوة، واندفعت إلى الداخل وصفعته

خلفها . وقفت جيسكا في منتصف الغرفة تحدّق بنظرة نارية إلى نوافذ غرفة الجلوس المؤمّنة بدرع طاقة . هل يمكن أن يكون حوّاط هو الشخص الذي اشتراه الهراكنة؟ سنرى ذلك .

قطعت جيسكا الغرفة متّجهةً إلى المقعد الوثير القديم الطراز ذي الغطاء المطرّزة من جلد السلاح، وحركته إلى موضع في مواجهة الباب . فجأة تذكّرت السكّين العاجية المربوطة إلى ساقها في غمدها . فكّت رباط الغمد عن ساقها، وربطته حول ذراعها، ثم اختبرت سرعة إخراج السكّين منه . مرّة أخرى، جالت ببصرها في الغرفة متذكّرة موضع كل شيء بدقّة، تحسّبا لأيّ طارئ: الأريكة في الركن، والكراسي مستقيمة الظهر المصطفّة بطول الحائط، والطاولتين القصيرتين، وآلة القانون المثبّثة على حامل إلى جوار باب غرفة نومها .

كانت المصابيح الطافية في الهواء تشع بلونٍ ورديّ فاتح، فخفضت من شدّة إضاءتها، وجلست على المقعد الوثير، وتحسّست تنجيده بيدها، معجبةً بطابع الفخامة الملكية التي يضيفها على هذا الموقف .

ثم أسرع ممّا توقّعت، سمعت طرقاً على الباب، دخل بعده حوّاط بأمرٍ منها .

راقبته دون أن تبرح مكانها على المقعد، ولاحظت حركته المفعمة بالنشاط التي تعزّزها العقاقير التي يتعاطاها، لكنها لاحظت الإعياء الكامن خلفها . كانت عينا حوّاط المسنّتان تلتمعان، وبدت بشرته المجعّدة صفراء باهتة في إضاءة الغرفة، وعلى كُمّ ذراعه التي يستخدم بها السكّين انتشرت بقعة رطوبة كبيرة .

اشنّمت رائحة دماء منبعثة منها .

أشارت چيسيكاً بيدها إلى أحد الكراسي المستقيمة الظهر وقالت: «اسحب هذا الكرسي واجلس أمامي».

انحنى حوَّاط في احترام، وأطاع أمرها وهو يفكر: تَبَا لآيْدَاهُو، هذا السَّكْبَرُ الأحمق! ثم تفرَّس في ملامح وجه چيسيكاً متسائلاً كيف يمكنه إنقاذ هذا الموقف.

قالت چيسيكاً: «ألم يحن الوقت لتصفية الأجواء بيننا؟».

- «ما الذي يزعج مولاتي؟»، قالها حوَّاط وهو يسند يديه على ركبتيه.

صاحت في وجهه: «لا تمارس دور الأبله معي! إن لم يكن يُوي قد أخبرك عن سبب استدعائي لك، فلا بُدَّ أن أحد جواسيسك المنتشرين في منزلي قد فعل. لنكن صريحين على الأقل».

- «كما ترغب مولاتي».

قالت: «أريدك أولاً أن تجيبني عن سؤال واحد: هل أنت عميلٌ للهِراكنة؟».

قام حوَّاط من مقعده نصف قيام بوجهٍ محتقن بالغضب: «أتجرئين على إهانتني؟».

قالت: «اجلس، لقد أهنتني كذلك».

بيطء، غاص حوَّاط في مقعده.

وعندما قرأت چيسيكاً الأمارات البادية على هذا الوجه الذي تألفه جيِّداً، تنفَّست الصعداء. حوَّاط ليس الخائن.

قالت: «الآن بعد أن عرفت أنك ما زلت مخلصاً للدوق، أنا مستعدة لكي أغفر إهانتك لي».

- «وهل حدث ما يستحق الغفران؟».

عبست جيسيكاً وتساءلت: هل أكشف له ورقتي الرابعة؟ هل أخبره عن ابنة الدوق التي أحملها في أحشائي منذ أسابيع قليلة؟ كلا، ليتو نفسه لا يعلم، فعلمه بالأمر سيزيد الأمور تعقيداً، وسيشتت انتباهه في وقتٍ نحتاج فيه إلى القتال من أجل بقائنا. كلا، لم يحن الوقت بعد لاستخدام هذه الورقة.

قالت له: «يمكن لإحدى عرّافات الحقيقة أن تحل هذا الموقف، لكن لسوء الحظ ليس بيننا عرّافة حقيقة مرخصة من المجلس الأعلى».

- «كما تقولين، ليس بيننا عرّافة حقيقة».

سألته: «أوجد خائن بيننا؟ لقد درست حاشيتنا بدقة فائقة، تُرى من يمكن أن يكون؟ بالتأكيد ليس جيرني، ولا دانكن. والضباط الذين يعملون تحت إمرتهم ليسوا في مناصب استراتيجية تستدعي النظر في أمرهم. وأنت لست الخائن يا ظفير، ولا يمكن أن يكون پول، وأعلم جيّداً أنه ليس أنا. هل هو الدكتور يُوي إذا؟ هل أستدعيه للاستجواب للكشف عن انتمائه؟».

قال حوّاط: «تعلمين أن هذا لن يفضي إلى شيء. لقد خضع لتهينة عقلية في الكلية العليا، هذا أمر أنا متأكد منه تماماً».

قالت جيسيكاً: «فضلاً عن أن زوجته كانت من البني جيسيرت، وقد ذبحها الهراكنة».

قال حوّاط: «هذا ما حدث لها إذا، لم أكن أعرف».

- «ألم تسمع نبرة الكره في صوته حين ينطق اسم الهراكنة؟».

قال حوّاط: «تعلمين أن أذني لا تلتقط هذه الأشياء».

سألته: «ما الذي أثار هذه الشكوك الخسيسة حولي؟».

قطب حوّاط جبينه: «مولاتي تضع خادمها في موقفٍ عصيب.

إن ولائي الأول للدوق».

قالت: «وأنا مستعدة لأن أصفح عن الكثير بسبب هذا الولاء».

- «مضطر إلى أن أسأل مجددًا: وهل حدث ما يستحق الصفع؟».

- «إنه طريق مسدود إذًا؟».

هزّ كتفيه في لا مُبالاة.

قالت: «حسنًا، دعنا نناقش شيئًا آخر لبعض الوقت. دانكن آيداهو، المقاتل البارع الذي لا يُشق له غبار، من تأثير قدراته في الحراسة والمراقبة إعجاب الجميع، هذه الليلة، أفرط في احتساء البيرة الممزوجة بالاسپايس. سمعت تقارير تفيد بأن هذا المزيج أذهب عقول رجال آخرين من حاشيتنا. هل هذا صحيح؟».

- «التقارير تقاريرك يا مولاتي».

- «بالفعل. ألا ترى أن هذا الإفراط في الشراب علامة مَرَضِيَّة يا ظفير؟».

- «مولاتي تتحدّث بالألفار».

صاحت فيه: «استخدم قدراتك المِنتاتية للفهم! ما مشكلة دانكن والرجال الآخرين؟ سأوجزها أنا لك في كلماتٍ ثلاث: ليس لديهم وطن».

نقر بإصبعه على الأرض وقال: «لديهم أَرَاكس، هذا وطنهم الآن».

- «أَرَاكس أرض غريبة مجهولة! لقد اقتلعناهم من وطنهم كلادان، وصاروا الآن بلا وطن، ويخشون أن يخذلهم الدوق».

قال بصرامة: «إذا صدر كلام كهذا من أحد الرجال، فلسوف يتلقّى...».

- «أوه، كُفَّ عن هذا يا ظفير. هل من الانهزام أو الخيانة أن يُشخّص الطبيب المرض بشكل صحيح؟ هدفي الوحيد هو علاج المرض».

- «يكلّفني الدوق بمسؤولية مثل هذه الأمور».

قالت: «لكنك تدرك أن لدي شيء من الاهتمام الفطري بشأن تطوّر هذا المرض، ورُبّما توافقني الرأي أنني أتمتّع ببعض القدرات للتصدّي لمثل هذه الأمور».

وتساءلت: هل ينبغي لي أن أصدمه؟ إنه في حاجة إلى صدمة تفيقه، إلى شيء يكسر روتينه.

قال حوّاط: «قلقك قد يكون له تفسيرات عدّة»، وهزّ كتفيه.

- «إذا أنت أصدّرت حكمك ضديّ بالفعل؟».

- «قطعاً لا يا سيّدي، لكن لا يمكنني المجازفة، خاصة ونحن في هذا الوضع».

قالت: «لقد مرّ الخطر الذي هدّد حياة ابني في هذا المنزل من تحت أنفك، أخبرني من جازف بذلك؟».

اسودّ وجهه وقال: «لقد قدّمت استقالتني للدوق».

- «هل قدّمت استقالتك لي، أو لهول؟».

لم يعد يحاول إخفاء غضبه الآن، وبدا واضحاً في أنفاسه المتسارعة، وفي توسّع منخریه، وفي تحديقته الثابت. رأت جيسكا نبض الوريد المنتفخ في صدغه.

قال ضاغطاً على كلماته: «أنا رجل الدوق».

قالت: «لا يوجد خائن. التهديد مصدره شيء آخر. ربّما له علاقة ببنادق الليزر، ربّما سيخاطرون بزرع بعض البنادق المزوّدة بآليات موقوتة لاستهداف دروع المنزل، ربّما سي...».

سألها: «ومن في مقدوره أن يعرف بعد الانفجار إن كان الانفجار ذرّياً أم لا؟ كلاً يا مولاتي، لن يخاطروا بارتكاب أيّ حماقة غير قانونية، فالإشعاع أثره يبقى، وهذا دليل يصعب محوه. كلاً، لن

يخاطبوا بخرق أغلب الأعراف والقوانين. لا بُدَّ من وجود خائن». قالت ساخرة: «تقول إنك رجل الدوق، هل ستدمره في محاولة لإنقاذه؟».

أخذ حواط نفساً عميقاً وقال: «إذا اتضح أنك بريئة، سأقدم لك أشد اعتذارتي أسفاً ومذلةً».

قالت له: «انظر إلى حالك يا ظفير. يعيش البشر في أحسن حال عندما يكون لكل منهم مكانه الخاص، حين يعرف كل منهم مكانته في المنظومة من حوله. إذا دمرت المكانة، سيدمر الشخص. وأنا وأنت يا ظفير -من بين كل الأشخاص الذين يحبون الدوق- كلانا في أمثل مكان ليدمر أحدا الآخر. أليس في مقدوري أن أهمس بشكوك عنك في أذن الدوق ليلاً؟ ترى متى سيكون أكثر عرضة للتأثر بهذه الهمسات يا ظفير؟ هل احتاج إلى توضيح أكثر من ذلك؟».

قال مزمجرًا: «أتهددينني؟».

- «كلًا، أنا فقط أوضّح لك أن شخصًا ما يستخدم منظومتنا الحياتية ضدنا، ويهاجمنا من خلالها. وهو شخص ذكي وشيطاني. أقترح إحباط هذا الهجوم عن طريق إعادة ترتيب منظومتنا بما لا يدع فجوات تدخل منها مثل هذه النصال الغادرة».

- «أنتهمينني بأنني أهمس بشكوك لا أساس لها من الصحة؟».

- «أجل، لا أساس لها».

- «وأنك ستردّين بهمساتك الخاصة؟».

- «أنت من تحيا حياةً قوامها الهمس والشكوك يا ظفير، لا

أنا».

- «أتشكّين في قدراتي إذًا؟».

تهَّدت قائلة: «ظفِير، أريدك أن تختبر بنفسك تورُّطك العاطفي في الأمر. الإنسان العادي مجرد حيوان لا يعرف المنطق، لذا فإن إسقاطاتك المنطقية على كل الشؤون غير طبيعية، لكن يُسمح باستمرارها لأنها مُفيدة. بصفتك مِنْتَأًا، فأنت تجسِّدُ للمنطق. ومع ذلك، فإن الحلول التي تطرحها للمشكلات لهي في حقيقة الأمر مفاهيم تُسقطها خارج ذاتك، حيث تُدرس وتُمعَّص وتُفحص من جميع الجوانب».

سألها دون أن يحاول إخفاء نبرة الازدراء في صوته: «أتظنين أنك ستعلمينني مهنتي الآن؟».

قالت له: «كل ما هو خارج ذاتك تستطيع رؤيته وتطبيق منطقك عليه. ولكن من السُّمات البشرية أننا حين نواجه مشكلات شخصية، نجد أنها أصعب في إخضاعها للتفكير المنطقي، لذا تُزلُّ أقدامنا ونلقي اللوم على كل شيء، ما عدا الشيء المتأصل الذي ينهشنا من الداخل».

تحدَّث بصوتٍ خشن: «أنت تتعمَّدين محاولة تقويض ثقتي بنفسي كمِنتات، ولو أنني رأيت أيَّ رجلٍ آخر من رجالنا يحاول تخريب أيِّ سلاح آخر في ترسانتنا، لما تردَّدت في فضحه وتدميره».

قالت: «لا من مِنْتات بارع لا يراعي هامش الخطأ في حساباته».

- «لم أدَّعِ العصمة قطا».

- «إذا كرَّس نفسك لدراسة الأعراض التي لاحظها كلانا: حالات السُّكر بين الرجال، والمشاجرات، والشائعات الجامحة التي يتبادلونها حول أراكس، وتجاهلهم أبسط ال....».

قاطعها قائلاً: «إنهم يعانون الفراغ والخمول، لا أكثر. لا تحاولي تشتيت انتباهي بجعل مسألة بسيطة تبدو غامضة».

حدّقت جيسيكا إليه، وفكّرت في رجال الدوق الذين لا ينفكّون عن قرع أحزانهم وكروبهم في الثكنات بعضها ببعض، حتّى تكاد تشمُّ رائحة الشرر.

فكّرت جيسيكا: لقد صاروا مثل الرجال الذين تحكي عنهم أسطورة عصر ما قبل نقابة الفضاء، رجال السفينة الضائعة «أمبوليروس» الباحثة عن النجوم، الذين أضناهم وأنهكهم حمل السلاح.. الرجال الباحثين دومًا.. المتأهّبين دومًا.. غير المستعدّين دائماً وأبدًا.

سألته: «لِمَ لم تستغل قدراتي في خدمتك للدوق من قبل؟ أتخشى أن أنافسك على منصبك؟».

صوّب إليها نظرة نارية، وتطاير الشرر من العينين المُسنّتين وهو يقول: «أعرف بعضًا من الأمور التي يدرّبكن عليها يا معشر...»، ثم بتر عبارته متجهّمًا.

قالت: «أكمل، قلها.. ساحرات البني جيسيرت».

قال: «أعرف بعضًا من التدريب الحقيقي الذي تلقّيته، فقد رأيت آثاره في بول، ولا يخدعني ما تقوله مدارسكن للجمهور: أنكن وُجدتن لتخدمن فحسب».

فكّرت جيسيكا: يجب أن تكون الصدمة قوية، وقد صار جاهزًا لها تقريبًا.

قالت: «أراك تستمع إليّ باحترام في المجلس، ومع ذلك نادرًا ما تصغي إلى نصيحتي، لماذا؟».

قال لها: «لأنني لا أثق بدوافع البني جيسيرت. قد تظنين أنك قادرة على سبر أغوار البشر، قد تظنين أنك قادرة على إجبار البشر أن يفعلوا ما يحلو...».

صاحت غاضبة: «ظفير، أيها الأحمق المسكين!».

اكفهر وجه حوَّاط، ودفع نفسه إلى الخلف في مقعده.

قالت له: «مهما كانت الشائعات التي سمعتها عن مدارسنا، فالحقيقة أكبر بكثير. إن كنت أرغب في تدمير الدوق، أو تدميرك، أو تدمير أي شخص آخر في طريقي، فلن تستطيع إيقافني».

وفكرت: لماذا أسمع للكبرياء بانتزاع مثل هذه الكلمات من فمي؟ هذه ليست الطريقة التي تدربت عليها، هذه ليست الطريقة التي يجب أن أصدمه بها.

دسَّ حوَّاط يده أسفل غلالته حيث يحتفظ بقاذفة سهام مسمومة صغيرة، وفكر: إنها لا ترتدي أي نوع من الدروع، فهل ما تفعله مجرد تفاخر متبجح؟ بإمكانني أن أريها قتيلة الآن.. لكن، آه، ستكون المواقب مريرة إن كنت مخطئًا.

لاحظت جيسيكاً حركة يده تجاه جيبه، فقالت: «لندعو ألا يكون العنف ضروريًا بيننا».

وافقها قائلاً: «دعاء وجيه».

قالت: «في غضون ذلك، يواصل المرض انتشاره بيننا. عليّ أن أسألك مجددًا: أليس من الأفضل افتراض أن الهراكنة زرعوا هذا الشك لتأليب كل منا على الآخر؟».

قال: «يبدو أننا عدنا إلى الطريق المسدود».

تنهدت مفكرةً: إنه جاهز تقريبًا لتلقي الصدمة.

ثم قالت: «الدوق وأنا في منزلة أب وأم لقومنا، والمكانة التي...».

قاطعها حواط: «إنه لم يتزوج بك».

أجبرت نفسها على البقاء هادئة، وفكرت: هجوم مضاد فعال.

قالت: «لكنه لن يتزوج بأخرى ما دمت حيّة. وكما كنت أقول، نحن في منزلة أبوين. إذا أراد الهراكنة اختراق منظومة حياتنا الطبيعية وتقويضها، إذا أرادوا تمزيقنا وتشتيتنا وإرباكنا، فأى هدف سيكون الأكثر إغراء لهم؟».

فهم حواط ما ترمي إليه، فانعقد حاجبه في عبوس منخفض.

سألته: «الدوق؟ إنه هدف جذاب بلا شك، لكن لا أحد يحظى بحراسة أفضل منه، ربّما باستثناء پول. أنا؟ بالتأكيد سأشكّل مصدر إغراء لهم، لكن لا بُدّ أنهم يعرفون جيّدًا أن نساء البني جيسيرت ليست أهدافًا سهلة. لكن هناك هدف أفضل، هدف تخلق له واجباته بالضرورة نقطة عمياء كبيرة. شخص يتنفّس الشك مع الهواء، شخص يبني حياته كلها على تتبّع الغمز واللمز، ثم رفعت يدها موجّهة إصبع الاتّهام إليه قائلة: «أنت!».

همّ حواط بالقفز من مقعده كالمسوع.

لكنها صرخت في وجهه: «لم أذن لك بالانصراف يا ظفيرا».

كاد المنتات العجوز أن يسقط على المقعد بعد أن خانت عضلاته بالكامل.

ابتسمت جيسيكَا دون مرح قائلة: «الآن تعرف شيئًا عن التدريب الحقيقي الذي تلقيناه».

حاول حوَّاط ابتلاع ريقه لكن منعه جفاف حلقه . كان أمرها ملكياً قاطعاً ، ونُطق بنبرة سلبت إرادته بالكامل وأعجزته عن المقاومة . لقد أطاعها جسده قبل أن يُفكّر في الأمر . ما كان لشيء أن يكبح ردّة فعله : لا المنطق ولا ثورة غضب .. لا شيء على الإطلاق . نجّاحها في ما فعلت ينم عن معرفة حسّاسة وحميمة بالشخص المأمور ، عن سيطرة تامّة عليه لم يكن يحلم بأنها ممكنة .

قالت له : «سبق أن أخبرتك بأن علينا أن نكون متفاهمين . ما قصدته أن عليك أنت فهمي ، فأنا أفهمك بالفعل . وها أنا أكررها عليك ، ولاؤك للدوق هو كل ما يضمن لك سلامتك معي» .
حدّق حوَّاط إليها ، وبّلل شفّتيه بلسانه .

قالت : «لو كنت أرغب في دمية ، لجعلت الدوق يتزوَّج بي ، ولربّما ظن أنه فعلها بمحض إرادته» .

نكّس حوَّاط رأسه ، ورفع عينيه ناظرًا إليها عبر رموشه القليلة المتناثرة . لم يمنعه عن استدعاء الحارس إلّا سيطرته الصارمة على نفسه .. وخوفه من أن هذه المرأة لن تسمح له . اقشعر جلده عندما تذكّر كيف تحكّمت فيه . في لحظة الوهن تلك ، كان بإمكانها أن تستلّ سلاحًا وتقتله !

وتساءل : هل كل إنسان لديه هذه البقعة العمياء ؟ هل يمكن أن يؤمر أيّ منا بفعل شيء دون أن يستطيع المقاومة ؟ من يستطيع إيقاف شخص بمثل هذه القوة ؟ زلزلته الفكرة .

قالت : «ما رأيته لتوك هو مجردّ لمحة ممّا يخفيه جراب البني جيسيرت .. قلّة رأوها وظلّوا على قيد الحياة . ما فعلته كان أمرًا سهلاً نسبيًا ، فأنت لم تر بعد ترسانة قدراتي الكاملة . فكّر في هذا» .
سألها : «لماذا إذاً لا أراك في الخارج تدمّرين أعداء الدوق ؟» .

سألته: «وماذا كنت تريدني أن أدمر؟ أترغب في أن أجعل دوقنا ضعيفًا، متَّكِّئًا على عصاي إلى الأبد؟»
- «ولكن، يمثل هذه القوَّة...».

قالت له: «القوَّة سلاحٌ ذو حدَّين يا ظفير. لا شكَّ في أنك تفكَّر الآن: "ما أسهل عليها التحكُّم في سلاحٍ بشري وإطلاقه ليصيب العدو في مقتل". هذا صحيح يا ظفير، وبإمكاني إصابتك أنت أيضًا في مقتل بالمثل. ولكن، ما الذي سأحقِّقه بذلك؟ لو فعلت كثيرات منا هذا، نحن معشر البني جيسيرت، ألن تُثار الشكوك حول طائفتنا برمَّتها؟ نحن لا نريد ذلك يا ظفير، لا نريد تدمير أنفسنا»، ثم أضافت وهي تومئ: «فما وُجدنا في الحياة إلا لنخدم بالفعل».

قال: «لا أستطيع إجابتك، أنت تعرفين ذلك».
قالت: «لن تخبر أحدًا بما جرى هنا. أنا أعرفك جيّدًا يا ظفير».

قال الرجل العجوز: «مولاتي...»، وحاول مجدّدًا ابتلاع ريقه لكن جفاف حلقه منعه.
وفكَّر: إنها تتمنَّع بقوى هائلة حقًّا، ولكن ألا يجعلها ذلك منها أداةً أخطر في يد الهراكنة؟

قالت: «يمكن لأصدقاء الدوق تدميره بالسرعة نفسها التي قد يدمِّره بها أعداؤه. أنا الآن واثقة بأنك ستتبع مصدر هذا الشك وتزيله».
قال: «إذا ثبت أنه لا أساس له من الصحَّة».

قالت ساخرة: «إذا!».

كرَّر مؤكَّدًا: «إذا».

- «أنت عنيد».

قال: «بل حذر، ومدرّك تمامًا لهامش الخطأ».

- «سأطرح عليك سؤالاً آخر إذًا: ماذا يعني لك وقوفك أمام شخص آخر، مقيّدًا وعاجزًا تحت رحمته، وهذا الآخر يسلّط سيفًا على رقبتك، لكنه يكفّ يده عن قتلك، بل ويحرّرك من قيودك ويمنحك السيف لتستخدمه كما تريد؟».

ثم قامت من مقعدها، وأدارت له ظهرها، وقالت: «تستطيع الانصراف الآن يا ظفير».

نهض المُنْتَات العجوز متردّدًا، وتسلّلت يده إلى السلاح الفتّاك تحت غلالته، وقد تذكّر ما حدث لوالد الدوق (الذي كان شجاعًا بفضّ النظر عن نقائصه الأخرى) في ذلك اليوم البعيد في حلبة مصارعة الثيران: كان الوحش الأسود الضّاري يقف مشلولًا ومشوّشًا في الحلبة، وقد انحنى رأسه، في حين ما أدار الدوق القديم ظهره لقرنيه وألقى حرملة زِيّه بزهوٍ على ذراعة، ووقف يتلقّى التهافتات التي تمطره من المدرّجات.

فكّر حوّاط: أنا الثور وهي مصارع الثيران. ثم سحب يده بعيدًا عن السلاح، ونظر إلى العرق الزلق اللامع على راحة يده الفارغة. وقتها أدرك أنه لن ينسى أبدًا هذا اللحظة، ولن يفقد شعوره بالإعجاب الفائق بالليدي جيسيكّا، مهما كشفت الحقائق في النهاية. استدار حوّاط بصمت، وغادر الغرفة.

أبعدت جيسيكّا بصرها عن انعكاسها البادي في النوافذ، والتفتت محدّقةً إلى الباب المغلق.

ثم همست: «الآن سنرى بعض الحركة في المياه الراكدة».

هل تصارع الكوابيس؟

هل تتخطفك الظلال؟

هل تسير كما النائم؟

ها قد مضى الوقت..

وسُرقت منك حياتك..

وأضعت العمر في العبث..

ورُحِت ضحية حماقاتك.

مرثية لجيميس قيلت على السهل الجنائزي.

من كتاب «أغاني المؤدّب» للأميرة إيrolان.

وقف ليتو في بهو منزله يقرأ مذكرةً على ضوء مصباحٍ وحيدٍ خافت طاف في الهواء. ما زال أمام الفجر بضع ساعات، وهو يشعر بالتعب. سلّم رسولٌ من الفرمن هذه المذكرة إلى حارس البوابة منذ لحظات، في وقت عودة الدوق من مقر القيادة. كانت الورقة تقول: «خيطة دخان نهاراً، وعمود نار ليلاً». ولم تكن مذيلة بتوقيع.

تساءل الدوق: ما معنى هذا الكلام؟

كان الرسول قد رحل دون انتظار إجابة وقبل استجوابه. غاب في الليل كما لو كان طيف دخان.

دسّ ليتو الورقة في جيب غلالته، متذكراً أن يعرضها على حوَّاط لاحقاً. ثم أبعد خصلة شعرٍ عن جبهته، وأخذ نفساً عميقاً وزفره متهدداً. كان مفعول الحبوب المنشّطة قد بدأ يزول. لقد مرّ يومان طويلان منذ حفل العشاء، وأطول من ذلك منذ أن نام. وعلاوة على كل المشكلات العسكرية التي يُواجهها، كانت هناك

تلك الجلسة المقلقة مع حوَّاط التي عرض فيها تقرير لقائه چيسیکا. تساءل ليتو: هل أوقف چيسیکا؟ لا يُوجد سبب لممارسة لعبة السُّرية معها بعد الآن. أم أنه يُوجد؟ ألا تَبْا وسحقًا لذلك المدعو دانكن آيداهوا!

هزَّ ليتو رأسه. كَلَّا، ليس دانكن السبب، لقد أخطأت بعدم ثقتي في چيسیکا من البداية. لا بُدَّ لي من تصحيح هذا الخطأ، قبل وقوع مزيد من الضرر.

أشعره القرار ببعض التحسُّن، فأسرع بمغادرة البهو، وقطع القاعة الكبرى، وراح يسير عبر الممرَّات المؤدِّية إلى الجناح العائلي. عند المنعطف الذي تتفرَّع فيه الممرَّات إلى منطقة الخدمات، توقَّف ليتو وقد سمع أنينًا غريبًا آتيا من مكان ما في نهاية ممرِّ الخدمة. وضع ليتو يده اليسرى على زرِّ تفعيل درعه، والتقط الخنجل بيمينه. منحه السكِّين شعورًا بالطمأنينة بعد أن أسرى هذا الأنين الغريب بالقشعريرة في أوصاله. تحرَّك الدوق برفق عبر ممرِّ الخدمة وهو يلعن الإضاءة غير الكافية. كانت المصابيح الطافية من الحجم الصغير، يبعد الواحد منها عن الآخر ثمانية أمتار، وقد ضُبِطت جميعها على أدنى مستوى إضاءة.. وما تبقى من الضوء امتصَّته الجدران الحجرية القائمة.

أمامه، رأى بقعة ضوء باهتة على الأرض وسط العتمة. تردَّد ليتو وكاد يُفعل طاقة درعه، لكنه أحجم لأن ذلك سيحدُّ من حركته، ومن سمعه كذلك.. ولأن شحنة بنادق الليزر التي أمسكوها ملأته بالشكوك.

بصمت، سار باتجاه بقعة الضوء الرمادية، ورأى أن لها هيئة بشرية، ثم أدرك أنه رجل ممدَّد على وجهه فوق الأرض الحجرية. قلبه ليتو على ظهره بقدمه، ثم انحنى فوقه مشهورًا سكِّينه في

الضوء الخافت ليرى وجهه. إنه المهزَّب تُويك، وعلى صدره بقعة دماء رطبة. كانت العينان الميَّتان تحدِّقان إلى الفراغ. لمس ليتو بقعة الدم فوجدها دافئة.

وسأل نفسه: كيف يُعقل أن يموت هذا الرجل هنا؟ من قتله؟
كان صوت الأنين أعلى في هذا المكان، وترامى إلى أذنيه من نهاية الممرِّ الجانبي المؤدِّي إلى الغرفة المركزية حيث ركَّبوا مولد درع المنزل الرئيس.

بيد على زر الحزام، وأخرى تُشهر الخنجل، طاف الدوق حول الجثة وانسلَّ بخفَّة قاطعاً الممرَّ، ثم أطلَّ برأسه من عند الزاوية لينظر إلى غرفة مولد الدرع.

على بُعد خطوات منه، استلقت هيئة بشرية رمادية أخرى على الأرضية، وأدرك ليتو على الفور أنها مصدر الأنين. زحف الجسد نحوه ببطء مؤلم، وهو يلهث ويغمغم.

هدأ ليتو من روعه المفاجئ، وانطلق قاطعاً الممرَّ وجثم إلى جوار الشخص الزاحف. كانت هذه ميبس، مدبِّرة المنزل الفرمنية، وقد تناثر الشعر حول وجهها وتبعثرت ملابسها. وبطول جانبها، لمعت بقعة داكنة باهتة اللون. لمس ليتو كتفها فاتكأت على مرفقيها، ورفعت رأسها إلى أعلى لتتظر إليه بعينين تحدِّقان إلى فراغ أسود.

قالت مُنازعة: «أنت... قتل... الحارس... أرسلت... لتُويك... هرب... مولاتي... أنت... أنت... هنا... لا... هنا».

تحسَّس ليتو وريدها الصدغي بحثاً عن النبض، فلم يجده. ثم نظر إلى بقعة الدماء. لقد طُغت في ظهرها. تُرى من طعنها؟ تسارعت أفكاره. هل قصدت بكلامها أن شخصاً قتل أحد

الحرس؟ وماذا عن تويك، هل أرسلت جيسيكاً في طلبه؟ لماذا؟ همّ بالاعتدال واقفاً، لكن حاسته السادسة حذّرتَه. مدّ يده بسرعة إلى زرّ الدرع، لكن كان الأوان قد فات. أصاب ذراعه وخزّ مخدّر، وشعر بال ألم. نظر فرأى سهمًا يبرز من كُمّه، وأحسّ بالشلل يسري منتشراً من موضع السهم إلى أعلى ذراعه. تطلّب الأمر منه جهداً مؤلماً كي يرفع رأسه وينظر إلى نهاية الممر.

كان يُوي يقف عند باب حجرة المولّدات المفتوح، ينعكس على وجهه الضوء الأصفر المنبعث من مصباح متوهّج مضاد للجاذبية يعلو الباب. كانت الغرفة خلفه غارقة في صمت تام. لم يكن للمولّدات صوت.

فكّر ليتو: «يوي! لقد خرب مولّدات دروع المنزل! صرنا بلا حماية!

بدأ يُوي يسير نحوه معيداً قاذفة السهام إلى جيبه. وجد ليتو أنه لا يزال قادراً على الكلام، فقال لاهتاً: «يوي! كيف؟».

ثم وصل الشلل إلى ساقيه فتداعى ساقطاً على الأرض، وأسند ظهره إلى الجدار الحجري.

كان وجه يُوي يحمل لمسة من الحزن وهو ينحني فوق ليتو، ويلمس جبهته. شعر الدوق بلمسته، لكنها كانت بعيدة، وباهتة. قال يُوي: «المخدّر الذي على السهم انتقائي في ما يصيب. تستطيع التحدّث، لكنني لا أنصحك بذلك». ثم ألقى نظرة سريعة إلى نهاية الممر، قبل أن ينحني مجدّداً على ليتو وينزع السهم من ذراعه ويلقيه جانباً. بدا صوت رنين السهم على الحجارة خافتاً وبعيداً في أذني الدوق.

وفكر: لا يُمكن أن يكون يُوي الخائن! إنه خاضع للتهيئة العقلية!
همس ليتو: «كيف؟».

- «أنا آسف يا دوقي العزيز، لكن الضرورات تبيح المحظورات»،
ثم لمس وشم الألماسة الذي يزّين جبهته وأردف: «عن نفسي،
أجد غرابةً شديدةً في الأمر، ومخالفةً لضميري المتّقد، لكنني
أرغب في قتل رجلٍ بعينه. حقًا أرغب في ذلك، ولن يوقفني
شيءٌ».

ثم خفض عينيه إلى الدوق وأردف: «أوه، أنا لا أقصدك أنت
يا دوقي العزيز، بل البارون هاركونن. كم أرغب في قتل البارون».
- «البار... هون هار...».

- «لا ترهق نفسك بالحديث يا دوقي المسكين، فلم يتبقَّ
أمامك الكثير من الوقت. أتذكّر ذلك الضّرس الصناعي التي
زرعته في فمك بعدما تعثّرت في ناركال. يجب استبدال هذا
الضّرس. بعد لحظات ستفقد الوعي وسأستبدل ذلك الضّرس».
ثم فتح يده، وحدّق إلي شيءٍ فيها، وأردف: «هذه نسخة طبق
الأصل منه، يأخذ مركزها شكل العصب تمامًا. سيفلت من أجهزة
الكشف المعتادة، وحتى أشعة المسح السريع. ولكن إذا عضضت
على نواجذك بقوة سيتفتّت الغلاف، ثم حين تزفر أنفاسك بحدة،
ستملأ الهواء من حولك بغاز سام هناك».

حدّق ليتو في وجه يُوي، ورأى الجنون يلتمع في مقلتي الرجل،
والعرق يتفصّد من جبينه ويسيل إلى ذقنه.

قال يُوي: «ستموت على أيّ حال يا دوقي المسكين، لكنك
ستكون قريباً من البارون قبل أن تموت. سيصدّق أنك مخدّر
تماماً إلى درجةٍ تعيقك عن بذل أيّ جهدٍ في محاولة مستميتة

لمهاجمته، وبالفعل ستكون مخدراً ومقيّداً. لكن الهجوم يمكن أن يأتي بأغرب الأساليب. وأنت ستتذكر الضرس جيداً.. الضرس يا ليتو أتريديز.. تذكر الضرس».

انحنى الطبيب المُسنُّ أكثر فأكثر حتّى احتلّ وجهه وشاربه المتدلي مجال رؤية ليتو المتلاشي.

غمغم يُوي: «الضرس».

همس ليتو: «لماذا؟».

ركع يُوي على ركبته بجوار الدوق، واعترف: «عقدت مع البارون صفقة تليق بشيطان*، وعليّ التأكّد من أنه التزم بالنصف الخاص به. سأعرف حين أراه، سأؤكد حين أنظر إلى عينيه، لكنه لن يُسمح لي بالدخول إلى حضرته بلا ثمن. وأنت الثمن الذي يجب دفعه أيّها الدوق المسكين. وحين أراه سأعرف، فقد علّمتني عزيزتي وأنا المسكينة أشياء كثيرة، أحدها هو استشفاف الحقيقة في الأوقات العصيبة. لا أستطيع فعل ذلك دائماً، لكنني حين أرى البارون.. سأعرف».

حاول ليتو النظر إلى الضرس القابع في يد يُوي شاعراً أنه في كابوس لا يمكن أن يكون واقعاً.

التوت شفتا يُوي في تكشيرة متجهّمة، وواصل: «لن أستطيع الاقتراب من البارون بشكلٍ كافٍ، وإلا لفعلت الأمر بنفسِي. كلاً، سيقبّونني على مسافة آمنة منه. أمّا أنت... آه، أنت! ستكون أنت سلاحي الذي أضرب به! سيرغب البارون في الاقتراب منك.. للتشفيّ فيك.. للشماتة منك.. للتباهي بانتصاره».

وجد ليتو نفسه مشدوهاً -منوِّماً تقريباً- وهو يحملق إلى عضلة تلتوي على يسار فكّ يُوي كلّما نكّلم الرجل.

انحنى يُوي مقرباً منه أكثر: «وأنت أيُّها الدوق الطيّب، يا دوقي الغالي العزيز، يجب أن تتذكّر هذا الضُّرس»، ثم أمسكه بسبّابته وإبهامه ورفعاه في وجهه، وأردف: «سيكون كل ما تبقى لك».

تمتت شفتي ليتو بلا صوت، ثم جاهد قائلاً: «أرفض».

- «أوه، يجب ألا ترفض، لأنني مقابل هذه الخدمة الصغيرة، سأفعل شيئاً من أجلك. سأنقذ ابنك وامراتك. لا أحد يستطيع إنقاذهما سواي. أستطيع نقلهما إلى مكان لا يستطيع الهراكنة الوصول إليهما فيه».

همس ليتو: «كيف... ستتقدّ... هما؟».

- «بجعل الأمر يبدو كأنهما ماتا، بإخفائهما بين قوم يشهرون سكاكينهم كلّما سمعوا اسم الهراكنة، أناس يمقتون الهراكنة إلى درجة أنهم يحرقون كرسيّاً لو جلس عليه أحد الهراكنة، ويطهّرون الأرض بالملح لو مشى عليها أحد الهراكنة»، ثم لمس فكّ ليتو وسأله: «هل تشعر بأيّ إحساس في فكّك؟».

وجد الدوق أنه غير قادر على الإجابة، وشعر بأنه ينحرف بعيداً وهو يرى يد يُوي ترتفع وبها خاتم الدوقية.

قال يُوي: «لأجل پول. ستفقد وعيك الآن. وداعاً أيُّها الدوق المسكين، عندما نلتقي في المرة القادمة لن يكون لدينا وقت للمحادثة».

انتشر خدرٌ بارد عبر فكّ ليتو، ومنه إلى وجنتيه، وراح الرواق الذي تكتنفه الظلال ينكمش بالتدريج ويتحوّل إلى نقطة صغيرة مركزها شفتا يُوي الأرجوانيتان.

بينما ظلّ يُوي يفحّ كالحيّة: «تذكّر الضُّرس! الضُّرس!».

ينبغي أن يصير السُّخط علمًا يُدرّس، فالناس في
حاجة إلى الاستبداد وإلى الأوقات العصيبة لتقوية
عضلاتهم النفسية.

من كتاب «أحاديث المؤدّب المجمع» للأميرة إيرولان.

استيقظت جيسيكا في الظلام متوجّسة خيفةً من السكون
المحيط بها. لم تفهم لماذا يعتري الوهن بدنّها وعقلها بهذا
الشكل. كان جلدها مقشعرًا من الخوف ويؤلم أعصابها، وفكّرت
أن تعتدل جالسة وتضيء النور، لكن هاجسًا ما صدّها عن
قرارها. شعرت في فمها... بشعور غريب.

طق.. طق.. طق.. طق!

سمعت الصّوت المكتوم، لكنها تتمكّن من تحديد اتّجاهه في
الظلام. كان في كل مكان حولها.
طالت اللحظات التي قبعتها متململةً، وراح خفيف حركاتها
يوخزها كالإبر.

بدأت تشعر بجسدها، وبالقيد على معصمها وكاحليها،
وبالكمامة التي تسدّ فمها. كانت مستلقاة على جانبها، ويدها
معمودتان خلف ظهرها. حاولت فكّ القيود، لكنها أدركت أنها
مصنوعة من حبال كريمسكل، وأنها ستضيق أكثر إذا جذبتها.
ثم تذكّرت!

لقد استشعرت حركة غريبة في ظلام حجرة نومها، ثم نزلت
خرقة مبلّلة لاذعة الرائحة على وجهها وغطّت فمها بالكامل،
وشعرت بأيادٍ تمسكها وتقيّدّها. عندها شهقت ساحبةً نفسًا
واحدًا فقط، وشعرت بالمادّة المخدّرة في الخرقة المبلّلة، ثم

انحسر وعيها وغرقت في ظلام أسود مرعب.

فكّرت جيسिका: ها قد أنت اللحظة التي طالما خشيتها. كم كان من السهل هزيمة امرأة من البني جيسيرت. كل ما يطلبه الأمر هو الخيانة. كان حوَّاط محقّقًا.

أجبرت نفسها على ألا تشد وثاقها.

وفكّرت: هذه ليست غرفة نومي، لقد أخذوني إلى مكانٍ آخر.

استجمعت سكينتها الداخلية، وراحت تهدئ من روعها.

انتبهت إلى صنان رائحة عرقها، واشتَمَّت فيه جزيئات الخوف.

سألت نفسها: أين بول؟ ماذا فعلوا بابني؟!

تحلّى بالهدوء.

أرغمت نفسها على الهدوء، مستخدمة الأساليب العتيقة.

لكن الذعر ظلّ ملازمًا لها.

ليتو؟ أين أنت يا ليتو؟

شعرت بالظلمة تنقشع. بدأ الأمر بظلال مختلطة، ثم اتضحت الأبعاد وصارت أشواكًا جديدة تُوخز وعيها. ضوءٌ أبيض، خطٌّ طولي ظاهر من أسفل الباب.

أنا على الأرض!

ثمّة أشخاص يسرون. استشعرت ذلك من خلال الأرض.

اعتصرت جيسिका ذعرها في محاولة لتقليصه. عليّ أن أظلّ هادئة، ومنتبهة، ومستعدة، فربّما لن تتاح أمامي إلا فرصة واحدة. ومجدّدًا، أجبرت نفسها على استعادة هدوئها الداخلي.

انتظمت ضربات قلبها المضطّربة، وأعادت إليها شعورها بالوقت. بدأت تعدّ عكسيًا. لقد فقدت الوعي منذ نحو الساعة. أغلقت عينيها، وركّزت جُلَّ انتباهها على الخطوات المقترية.

استطاعت تمييز الفروق في خطواتهم.

عليّ التظاهر بأنني ما زلت فاقدة الوعي، هكذا فكّرت، ثم أرخت جسدها على الأرض الباردة، واختبرت استعداد جسدها. سمعت باباً يُفتح، واستشعرت ازدياد الضوء عبر جفنيها المغلقين. اقتربت قدمان منها، ووقف شخص فوقها.

دمدم صوتٌ عميق قائلاً: «أنت مستيقظة، لا تتظاهري بالعكس».

فتحت جيسيكا عينيها.

كان الواقف فوقها البارون فلاديمير هاركونن. نظرت جيسيكا حولها وأدركت أنها في غرفة القبو حيث كان پول ينام، ورأت سريرته الفارغ في أحد الأركان. كان الحرس قد أحضروا مصابيح مضادةً للجاذبية ووزّعوها بالقرب من الباب المفتوح. أذى ضوء ساطعٍ آتٍ من الردهة خلف الباب عينيها.

رفعت رأسها ناظرةً إلى البارون الذي يرتدي حرملة صفراء تبرز من تحتها مضادات الجاذبية التي تعينه على حمل وزنه. كان خدّاه الممتلئان أشبه بخدود الملائكة الأطفال في الصور والمنحوتات القديمة، وبرزان كهضبتين من تحت عينيْن فاحمتي السواد كأعين العناكب.

دمدم صوت البارون: «حسبنا جرعة المخدّر جيّداً، وعرفنا بالضبط اللحظة التي ستفيقن فيها».

تساءلت: كيف تسنّى لهم ذلك؟ يتعيّن عليهم معرفة وزني بدقة، ومعدّل أبيض، و... يُوي!

قال البارون: «من المؤسف أننا مضطرون إلى الإبقاء عليك
مكثمة. كنا سنتبادل حوارًا شائقًا تمامًا».
فكرت جيسिका: لا يمكن أن يكون الخائن شخصًا غير يُوي.
ولكن كيف؟

ألقي البارون نظرة خلفه إلى الباب، وقال: «تعال يا بايتر».
لم تكن قد رأت من قبل الرجل الذي دخل الغرفة ووقف إلى
جوار البارون، لكن وجهه كان مألوفًا. هذا هو بايتر دي فريس،
المنتات القاتل. تأملت جيسिका ملامحه الشبيهة بالصقر، وزُرقة
الحبر في عينيه التي تشير إلى أنه من مواليد أراكس، لكن
تفاصيل معينة في وقفته وحركته أخبرتها بأنه ليس كذلك، كما
أن بشرته بدت غنية جدًا بالماء. كان طويلًا ونحيلًا، وبه شيء
يُوحى بالخنوثة.

قال البارون: «من المؤسف أنه لا نستطيع إجراء محادثتنا
يا عزيزتي الليدي جيسिका. لكنني على علم بقدراتك»، ثم رمق
المنتات متسائلًا: «أليس هذا صحيحًا يا بايتر؟».
قال الرجل: «تمامًا كما تقول يا بارون».

كان صوته رخيماً جليدياً اقشعر له جلدها، وسرت له رعدة
في عمودها الفقري. لم يكن قد سبق لها أن سمعت صوتاً
بهذه البرودة، وفي أذني امرأة مثلها تدرّبت على أساليب البني
جيسيرت، كان الصوت يصرخ: قاتل!

قال البارون: «لديّ مفاجأة لبايتر، فهو يظن أنه جاء إلى هنا
ليحصل على مكافأته: أنت يا ليدي جيسिका. لكنني أرغب في
إثبات أمر ما: أنه لا يريدك حقًا».

سأل بايتر: «هل تعبت معي أيها البارون؟»، وابتسم.

عندما رأت تلك الابتسامة، تعجبت جيسكا كيف أن البارون لم يثب مدافعاً عن نفسه من هذا المدعو بايتر. ثم صححت لنفسها. البارون لا يستطيع قراءة ما وراء تلك الابتسامة، فهو لم يتلق التدريب الذي تلقته.

قال البارون: «يعدُّ بايتر ساذجاً تماماً من نواح كثيرة. إنه يأبى الاعتراف لنفسه بحقيقة إلى أي مدى أنت مخلوقة فتاكة يا ليدي جيسكا. أستطيع أن أثبت له بشكل عملي، لكنها ستكون مخاطرة حمقاء». ابتسم البارون إلى بايتر الذي بدت على وجهه علامات الانتظار. «أعرف ما الذي يريده بايتر حقاً. بايتر يريد النفوذ».

قال بايتر وقد فقد صوته الرخيم بعضاً من برودته: «وعدتني أن أحصل عليها!».

سمعت جيسكا في نبرات الرجل دلالات عمّا يجيش في صدره، فسرت رعدة في جسدها، وتساءلت: كيف استطاع البارون تحويل هذا المنتات إلى مثل هذا الوحش؟

قال البارون: «سأعطيك خياراً يا بايتر».

- «أي خيار؟».

فرق البارون بأصابع ممثلة وقال: «إما أن تحصل على هذه المرأة وتُنفى من الإمبراطورية، وإما أن تحكم دوقية آل آترديز على أراكس بما تراه مناسباً، باسمي وناثباً عني».

راقبت جيسكا عيني البارون العنكبوتيتين وهما تتفرسان في بايتر. ثم قال البارون: «سيكون لك كل امتيازات الدوق هنا، لكن من دون اللقب».

أهذا يعني أن حبيبي ليتومات؟ هكذا سألت جيسكا نفسها وهي تسمع النحيب الصامت المتردد في جنبات عقلها.

أبقى البارون انتباهه على المِنتات وهو يقول: «افهم نفسك يا بايتر. أنت تريدها لأنها كانت امرأة دوق، لأنها رمزٌ للنفوذ، لأنها جميلة ونافعة ومدربة بشكل رائع على أداء دورها. لكنني أحدثك عن حُكم دوقية برمتهال وهذا أكثر من مجرد رمز، إنها حقيقة ملموسة، وبامتلاكك لها، يمكنك التمتع بنساء كثيرات.. وما هو أكثر.»

- «لا تمزح مع بايتر.»

استدار البارون بتلك الخفة الراقصة التي تمنحه إيَّاهها مضادَّات الجاذبية، وقال: «أمزح معك؟ أنا؟ تذكر أنني أيضًا سأَتخلَّى عن الغلام. ألم تسمع ما قاله الخائن عن التدريب الذي تلقَّاه؟ هذا الشبل من تلك اللبؤة، كلاهما مميت وفَتَّاك»، وأنهى البارون عبارته بابتسامة، ثم أضاف: «يجب أن أغادر الآن. سأستدعي الحارس الذي احتفظت به لتلك اللحظة. إنه أصمُّ كالحجارة. ستكون أوامره أن يوصلك إلى أوَّل محطة من رحلتك إلى المنفى، وسيُخضع هذه المرأة بالقوَّة إذا رأى أنها تتحكَّم بك، كما لن يسمح لك بفكِّ كمامتها إلى أن ترحلا عن أراكس. أما إذا اخترت البقاء، فلديه أوامر أخرى.»

قال بايتر: «لست مُضطَّرًّا إلى المغادرة، لقد اتَّخذت قرارِي.»

ضحك البارون: «آه! هذا القرار السريع لا يعني إلاَّ شيئًا واحدًا.»

قال بايتر: «سأخذ حُكم الدوقية.»

فكَّرت جيسيكَا: ألا يرى بايتر أن البارون يخدعه؟ وكيف له أن يرى؟ إنه مجرد مِنتات مريض.

نظر البارون إلى جيسيكَا، وقال: «أليس من الرائع أنني أعرف بايتر جيِّدًا؟ لقد راهنت رئيس أركانِي أن هذا سيكون اختيار بايتر.

هاه! حسنًا، سأغادر الآن. هذا أفضل كثيرًا. أجل، أفضل كثيرًا. أنت تتفهّمين موقفى يا ليدي چيسيكا، أليس كذلك؟ أنا لا أحمل لك ضغينة شخصية. إنها ضرورة يفرضها الوضع. هكذا أفضل. أجل. وأنا لم أعط أمرًا مباشرًا بالقضاء عليك، لذا عندما أسأل عن الأمر، سأدفع التهمة عن نفسي بكل صدق». قال بايتر: «ستترك الأمر لي إذا؟».

قال البارون: «الحارس الذي سأرسله إليك سينفذ أوامرك. سأترك لك الأمر بالكامل»، ثم حدّق إلى بايتر وأضاف: «أجل، لن تطلّخ دماؤها يديّ. القرار قرارك. لا أريد معرفة شيء عن الأمر. ستنتظر حتّى أرحل قبل أن تفعل ما عليك فعله. حسنًا الآن... آه، أجل، أجل.. هذا جميل».

فكّرت چيسيكا: إنه يخشى الخضوع لاستجواب من إحدى كاشفات الحقيقة، ولكن ممّن منهن؟ بالتأكيد الأمّ الموقرة جايس هيلين موهيم! وإن كان يعلم أنه حتمًا مواجهٌ أسئلتها، فلا بُدَّ أن الإمبراطور متورّط في هذا الانقلاب. آه يا حبيبي ليتو المسكين. ألقي البارون نظرة أخيرة إلى چيسيكا، ثم استدار وخرج من الباب. تبعته چيسيكا بعينها وهي تفكّر: هذا هو الخصم القوي الذي حدّرت منه الأمّ الموقرة.

دخل جنديّان هاركونيّان، وتبعهما ثالث وجهه مملوء بالندوب، ووقف عند المدخل ممسكًا ببندقية ليزر. هذا هو الأصمّ، هكذا فكّرت چيسيكا وهي تفحص ذا الوجه المملوء بالندوب: يعرف البارون أننى قادرة على استخدام (الصّوت) مع أيّ رجلٍ آخر.

نظر ذو الندوب إلى بايتر: «الصبيُّ معنا على محفَّة بالخارج، أوامرِك؟».

تحدَّث بايتر إلى چيسيكا: «فكَّرت في إخضاعك عن طريق تهديد حياة ابنك، لكنني بدأت أرى أن ذلك لن ينجح. لقد سمحت لعاطفتي بالتأثير في تفكيري، وهذه سياسية لا تليق بمنَّات». ثم نظر إلى الجنديين، واستدار ليستطيع الأصمُّ قراءة شفَّتيه: «خذوهما إلى الصَّحراء كما اقترح الخائن بخصوص الصبيِّ، فخطَّته جيِّدة. ستمحي الديدان كل أثر لهما. يجب ألاَّ يُعثر على جثَّتهما».

سأل ذو الندوب: «ألا تريد الإشراف على التخلُّص منهما بنفسك؟».

فكَّرت چيسيكا: إنه يقرأ الشفاه!

قال بايتر: «سأخذو حذو البارون. خذوهما حيث قال الخائن». سمعت چيسيكا نبرة المنَّات الجافَّة، وسيطرته على انفعالاته، ففكَّرت: هو أيضًا يخشى عرَّافة الحقيقة. هزَّ بايتر كتفيه، واتَّجه إلى الباب ثم توقَّف عنده لحظةً متردِّداً. ظنَّت چيسيكا أنه قد يستدير ليلقي نظرة أخيرة عليها، لكنه أكمل طريقه وغادر دون أن يلتفت.

قال كثير الندوب: «عن نفسي، لن أحب مواجهة عرَّافة الحقيقة تلك بعد عمل الليلة».

قال أحد الجنديين الآخرين: «من المستبعد أن تقابل تلك السَّاحرة العجوز»، ثم دار حول رأس چيسيكا وانحنى فوقها: «لن ننهي عملنا بالوقوف والثَّرتة هكذا، ارفع قدميها و...». سأل ذو الندوب: «لم لا نقتلها هنا؟».

قال الأول: «سنحدث فوضى كبيرة، إلا إذا كنت تريد خنقهما. عن نفسي، أحب العمل النظيف المباشر. لنلقيهما في الصحراء كما قال الخائن، ونجرحهما جرحاً أو اثنين، ثم نتركهما للديدان. لن نحتاج إلى التنظيف بعد ذلك».

قال ذو الندوب: «أجل، معك حق».

استمعت جيسكا إليهم، وراقبت أنماطهم وسجلتها، لكن الكمامة كانت تعيقها عن استخدام (الصوت)، فضلاً عن وجود ذلك الأصمّ.

دسّ ذو الندوب بندقية الليزر في جرابها، وأمسك جيسكا من قدميها. رفعها الاثنان كأنها شوال قمح، وعبرا بجسدها من الباب وألقوها فوق محفّة طافية في الهواء بمضادات الجاذبية فوقها جسد آخر مقيّد. هي اللحظة التي قلباها وألقيا بجسدها فوق المحفّة رأت وجه رفيقها: إنه پول! كان مقيّداً، لكن فمه ليس مكمّماً. كان وجهه يبعد ما لا يزيد على عشرة سنتيمترات من وجهها، وعيناه مغمضتان، ويتنفس بانتظام.

تساءلت: أهو مخدّر؟

حمل الجنديّان المحفّة، ففتح پول عينيه بمقدار ضئيل، وحدّق إليها عبر شقين مظلّمين.

تمنّت في عقلها: الحارس الأصمّ! يجب ألا يستخدم الصوت!

أغلق پول عينيه.

كان يمارس التنفّس الإدراكي، مصفّياً ذهنه، مصفّياً إلى أسريه. هذا الأصمّ يشكّل عائقاً، لكن پول سيطر على قنوطه. أبقاه أسلوب التهذئة الذهنية البني جيسيرتي الذي تعلّمه من أمّه في حالة تأهب، مستعداً لاقتصاص أيّ فرصة.

تفحص پول وجه أمه محافظاً على عينيه ضيقتين. بدت له سليمة من غير سوء، لكنها مكّمة.

تعجب كيف استطاعوا أسرها. لقد وقع هو في الأسر بحيلة سهلة. أعطاه يُوي كبسولة دواء قبل خلوده إلى الفراش، واستيقظ ليجد نفسه مقيّداً إلى هذه المحفة. ربّما اتّبعا معها أسلوباً مماثلاً. المنطق يقول إن يُوي هو الخائن، لكنه لم يطلق حكمه النهائي بعد. الأمر غير مفهوم وينافي العقل: فكيف لطبيب متخرّج في كلية سوك أن يخون؟

مالت المحفة قليلاً مع مناورة جنديا الهراكنة بها لإخراجها عبر أحد المداخل إلى ليلٍ مزدانٍ بالنجوم. احتكّت إحدى مضادات الجاذبية بجانب المدخل، ثم أدرك -من وقع أقدامهم- أنهم يسIRON بهما فوق الرمال. لاح من فوقهما جناح ثوبتر حاجباً النجوم، واستقرّت المحفة على الأرض.

اعتادت عينا پول الضوء الخافت، وأدرك أن الجندي الأصم هو من فتح باب الثوبتر، ونظر إلى الداخل حيث ينير الضوء الأخضر الكئيب لوحة العدّادات.

سأل الجندي: «أهذه الثوبتر التي يُفترض أن نستخدمها؟»، ثم استدار ليراقب شفاه رفيقيه.

قال الآخر: «إنها الثوبتر التي قال الخائن إنها عُيِّنت للعمل في الصّحراء».

أوما ذو الندوب وقال: «لكنها من النوع الصغير المخصّص لأغراض الاتّصال، ولا تتّسع إلّا لهما ولاثنين منا».

قال حامل المحفة: «يكفي اثنان»، ثم اقترب منه مظهرًا شفّتيه ليقرأهما: «يمكننا تولّي الأمر من هنا يا كينت».

قال ذو الندوب: «أمرني البارون أن أتَحَقَّقَ ممَّا سيحدث لهما».
قال جندي آخر من وراء حامل المحفَّة: «مَمَّ تَقلق؟»
قال الأصمُّ: «إنها ساحرة من ساحرات البني جيسيرت، لديهن
قدرات خارقة».

قال حامل المحفَّة وهو: «إنها واحدة منهن إذا؟ فهمت ما
تقصد»، وضَمَّ يده في قبضة جوار أذنه.

شعر الجندي الذي خلفه ساخرًا: «ستكون طعامًا للديدان بعد
قليل، فلا تظن أن ساحرات البني جيسيرت يملكن سلطة على
الديدان العملاقة. أليس كذلك يا تشيجو؟».

قال حامل المحفَّة: «أينعم»، ثم استدار إلى المحفَّة، وأمسك
جيسيكا من كتفيها. «هيا يا كينت، بإمكانك مرافقتي إذا كنت
تريد التأكد بنفسك ممَّا سيصيبهما».

قال ذو الندوب: «تسرُّني دعوتك يا تشيجو، هذا لطفٌ منك».
شمرت جيسيكا بجسدها يُرفع، وبظلَّ الجناح يدور على خلفية
النجوم. دفعاها إلى مؤخرة الثوبتر، وفحصا ألياف الكريمسكل
التي تقيدها، ثم شدَّا جسدها بحزام أمان. حُشر پول إلى
جوارها، وشدَّا حزام الأمان عليه بإحكام، ولاحظت أن قيوده
مجرَّد حبال عادية.

أخذ ذو الندوب -هذا الذي ينادونه كينت- مكانه في المقدمة،
أمَّا حامل المحفَّة -المدعو تشيجو- فدار حول الطائرة وأخذ
المقعد الأمامي الآخر. ربَّت تشيجو على كتف رفيقه وقال: «لِمَ لا
تدير مقعدك وتبقي عينيك عليهما؟».

قال كينت: «متأكد من أنك تعرف الطريق؟»، ونظر إلى شفثيه.
- «لقد استمعت إلى الخائن مثلك تمامًا».

أدار كينت مقعده، ورأت جيسिका وميض النجوم يلتصع على
بندقية الليزر التي في يده. بدأت معالم كابينة الثوبتر تتضح
مع اعتياد عيني جيسिका الإضاءة المنخفضة، لكن وجه الحارس
المشوّه ظل معتمًا. اختبرت جيسिका حزام مقعدها، فوجدته
واسعًا. استشعرت شيئًا من الخشونة في الحزام عند ذراعها
اليسرى، وأدركت أنه متاكل تمامًا وشبه ممزّق، ويمكن قطعه
بحركة سريعة واحدة.

فتساءلت: هل جَهّز شخصٌ هذه الثوبتر لنا كي نستطيع
الهروب؟ من يكون؟ ثم أبعدت قدمها المقيّدة عن قدم پول ببطء.
قال ذو الندوب: «من المؤسف أن تموت امرأة جميلة كهذه.
هل سبق أن ذقت واحدة من نبيلات المنبت؟»، واستدار لينظر
إلى الطيّار.

قال الطيّار: «ليست كل نساء البني جيسيرت نبيلات، لكن
كلهن يبدون كذلك».

فكرت جيسिका: إنه يراني بوضوح. رفعت قدميها المقيّدتين
على المقعد، وثبتت جسدها في وضعٍ مثيرٍ مثبتةً عينيها على ذي
الندوب.

قال كينت: «يا لها من حسناء فائقة الجمال»، وبلّل شفّتيه
بلسانه وأردف: «أمرٌ مؤسف بالفعل»، ثم نظر إلى تشيجو.
سأل الطيّار: «هل تفكر في ما أظن أنك تفكر فيه؟».

قال الحارس: «من سيعرف؟ ثم...»، ثم هزّ كتفيه: «كل ما
في الأمر أنني لم أذق واحدة من نبيلات المنبت، وقد لا أحظى
بفرصة كهذه مرّة أخرى».

قال پول محزناً أسنانه: «لو لمست أُمِّي بيدك...»، وحدَّق
شزراً إلى ذي التدوب.

ضحك الطيَّار: «مرحى! الجرو ينبج! لكنه لا يعض».

فكَّرت جيسيكَا: طبقة صوت پول حادَّة جدًّا. ومع ذلك، قد
ينجح.

حلقت بهم الطائرة في صمت.

يا للأحمقين المسكينين، هكذا فكَّرت جيسيكَا وهي تتفحَّص
حرَّاسها وتعيد النظر في كلمات البارون: سيُعدمان ما إن يُيلفا
عن نجاح مهمَّتهما، فلن يرغب البارون في ترك شهود.

مالَت الثوبتر فوق منحدرات الجدار الحامي الجنوبية، ورأت
جيسيكَا أسفلهم بحرًا من الرمال يستحم في ضوء القمر.

قال الطيَّار: «ابتعدنا مسافة كافية. الخائن قال ألقوهمما
على الرمال في أيِّ مكان بالقرب من الجدار الحامي». ثم غاص
بالتائرة بحدَّة متَّجهاً صوب الكثبان الرملية، ثم رفع مقدِّمتها
بقوَّة مع اقترابه من سطح الصَّحراء.

رأت جيسيكَا پول يتفحَّص بذلك الانتظام الإيقاعي المميَّز
لتمرين التهذئة. أغلق عينيه، ثم فتحهما. رمقته جيسيكَا عاجزةً
عن مساعدته، وفكَّرت: إنه لم يتقن استخدام (الصَّوت) بعد، وإذا
أخفق...

حطَّت الثوبتر على الرمال بترنُّح ناعم. نظرت جيسيكَا خلفها،
شمالاً باتجاه الجدار الحامي، ورأت ظلَّ جناحي طائرة يستقر
بعيداً عن مجال الرؤية.

فكَّرت: شخصٌ ما يتبعنا! ولكن من؟ ثم: لا بُدَّ أنهم أولئك
الذين عيَّنهم البارون لمراقبة هذين، كما لا أستبعد أن يكون قد
عيَّن أيضاً مراقبين للمراقبين.

أطفأ تشيجو محرّكات الطائرة، فخيّم الصّمت على الكابينة.
أدارت چيسيكاً رأسها. عبر النافذة، ومن خلف ذي الندوب،
استطاعت أن ترى ضوءَ قمرٍ خافت يبرز فوق الأفق، وحافةُ
صخرية فضية ناتئة في الصّحراء، نحتت جوانبها الرياح الخشنة
المحمّلة بالرمال.

تنحنح بول.

قال الطيّار: «ماذا الآن يا كينت؟».

- «لا أعرف يا تشيجو».

التفت تشيجو وقال: «أها، انظر»، ومدّ يده إلى تتوّرة چيسيكاً.
أمره بول قائلاً: «انزع كمامتها!».

شعرت چيسيكاً بالكلمات تطوف في الهواء. نبرة الرنين في
صوته ممتازة: قاطعة، وحادة تماماً. لو استخدم طبقة صوت
أقل انخفاضاً لكان أفضل، لكنها لا تزال ضمن نطاق طيف هذا
الرجل، وقادرة على التأثير فيه.

نقل تشيجو يده إلى الرباط الذي يكّم فم چيسيكاً، وشدّ
عقدة الكمامة.

أمره كينت: «توقّف!».

قال تشيجو: «أغلق فمك، فيداها مقيدتان».

فكّ تشيجو العقدة فسقط الرباط، والتمعت عيناه وهو
يتفحّص چيسيكاً.

وضع كينت يده على ذراع الطيّار وقال: «اسمع يا تشيجو، لا
داعي ل...».

لوت چيسيكاً عنقها، وبصقت الكمامة، وجعلت نبرة صوتها
منخفضة وحميمية وهي تقول: «لا داعي للقتال من أجلي أيّها
السيدان!»، وفي الوقت نفسه، تأوّدت أكثر لإغراء كينت.

رأتهما يتوتّران، وعلمت أنهما في هذه اللحظة كانا مقتنعين
بضرورة التناقص عليها. لم يتطلّب خلافهما سبباً آخر، فقد كانا
يتقاتلان عليها في ذهنيهما بالفعل.

أبقت وجهها مرفوعاً في إضاءة المعدادات لتتأكد من أن كينت
قادر على قراءة شفيتها، وقالت: «يجب ألا تختلفا!». ابتعد أحدهما
عن الآخر وراح يتفحصه بحذر. فسألتهما: «أستحق امرأة القتال
عليها؟».

بنطقها تلك الكلمات، وبوجودها بينهما، جعلت نفسها جديرة
بالقتال عليها إلى درجة لا تُقاوم.

زَمَّ پول شفّيته بإحكام، مجبراً نفسه على البقاء صامتاً. لقد
أُتيحت له فرصة استخدام (الصّوت) مرّة. الآن كل شيء يعتمد
على أمّه التي تفوقه خبرة بمراحل.

قال كثير الندوب: «أجل، لا داعي للقتال على...».

ثم اندفعت يده منقضة على عنق الطيّار، لكن هجمته قوبلت
بجسم معدني جرح ذراعه، وفي الحركة نفسها، انفرس الجسم
في صدر كينت.

تأوّه ذو الندوب، وتراخى جسده إلى الخلف مائلاً إلى الباب.

قال تشيجو: «أحسبتي أبله لا يعرف هذه الخدعة!»، ثم سحب
يده كاشفاً عن السكين التي تعكس ضوء القمر.

ثم أردف وهو ينحني فوق پول: «والآن دور الجرو».

تمتت جيسيكّا: «لا داعي لذلك».

تردّد تشيجو.

قالت له: «سأكون متعاونة معك إذا تركت الصبي ومنحته
فرصة»، والتوّت شفّتها في ابتسامة ساخرة. «إن احتمال نجاته

ضئيل جدًا على تلك الرمال، ولكن إن منحته الفرصة...»،
وابتسمت: «فسأكافئك جيّدًا».

تلّفَت تشيجو حوله يمينًا ويسارًا، ثم أعاد انتباهه إلى جيسिका،
وقال: «لقد سمعت ما يمكن أن يحدث للمرء في هذه الصّحراء،
قد يكون الموت بالسكّين أرحم له».

ترجّته جيسिका: «وهل ما أطلبه كثيرًا؟».

تمتم تشيجو: «أنت تحاولين خداعي».

قالت جيسिका: «لا أريد رؤية ابني يموت، هل في هذا خدعة؟».

تراجع تشيجو إلى الخلف، ودفع مقبض الباب بمرفقه، ثم
أمسك پول، وجرّه من مقعده ودفعه حتّى صار نصف جسده
خارج الباب، ووضع السكّين على عنقه قائلاً: «ماذا ستفعل أيّها
الجرو إذا قطعت قيودك؟».

قالت جيسिका: «سيفرّ من هنا على الفور ويتّجه إلى تلك
الصخور».

سأل تشيجو: «أهذا ما ستفعله أيّها الجرو؟».

بدا صوت پول نكدًا كما ينبغي وهو يقول: «أجل».

تحركت السكّين إلى أسفل، وقطعت قيود ساقيه. شعر پول
بيد الرجل تدفعه على ظهره لتلقيه على الرمال، فتظاهر بالتعثر
على هيكل الباب واستخدمه ركيّزَةً، واستدار كأنما يمنع نفسه من
السقوط، ثم ضرب بقدمه اليسرى بمنتهى القوّة.

أصاب إصبع القدم الموضع بدقّة بفضل سنوات تدريبه
الطويلة، كأن كل ما تلقّاه من تدريب تركّز في هذه اللحظة.
تعاونت كل عضلات جسده تقريبًا لتوجيه الضربة. أصاب طرف
إصبع قدمه الجزء اللين من بطن تشيجو، أسفل عظمة القص

مباشرة، ثم اندفع إلى أعلى بقوة رهيبة من فوق الكبد وعبر الحجاب الحاجز ساحقًا بطين الرجل الأيمن.

صرخ الرجل صرخة واحدة متحشجة، وتهاوى إلى الخلف بين المقاعد. أمّا پول، غير القادر على استخدام يديه، واصل سقوطه إلى الرمال، وهبط فوقها متدحرجًا لامتنصاص الصدمة، ثم نهض واقفًا على قدميه بحركة واحدة، ووثب مندفعًا إلى الكابينة، وعثر على السكين وأمسكها بين أسنانه ليساعد أمّه على قطع قيودها، وما إن قطعها أخذت منه السكين وحرّرت يديه.

قالت: «كنت سأتعامل معه وسأجعله يفك قيودي، لم يكن ثمة داع لهذه المخاطرة الحمقاء».

قال: «رأيت فرصة سانحة، فاقتنصتها».

سمعت نبرة تحكّم صارم في صوته، فغيّرت الموضوع: «شعار عائلة بُوي منقوش على سقف هذه الكابينة».

نظر پول إلى أعلى ورأى الرمز المتمعج.

قالت: «لنخرج ونفحص هذه الطائفة. توجد صُرة تحت مقعد الطيَّار، رأيتهما عندما دخلنا».

- «أهي قُبلة؟».

- «لا أظن. في الأمر شيء غريب».

وثب پول إلى الخارج على الرمال، وتبعته جيسيكا. ثم استدارت، ومدّت يدها أسفل المقعد لتأخذ الصُرة الغريبة، فرأت قدمي تشيجو في وجهها، وشعرت بأن الصُرة مبللة وهي تلتقطها، قبل أن تدرك أنها دماء الطيَّار.

خطر لها: هذا إهدار للسوائل، ثم أدركت أنها فكرة أراكسية.

نظر پول حولهما، ورأى المنحدر الصخري يبرز من سطح

الصَّحراء كجزيرة تبرز من البحر، ومن خلفه الحواجز الصخرية التي نحتتها الرياح. التفت إلى الوراء في اللحظة التي أخرجت فيها أمُّه الصُّرة من الثوبتر، ورآها تحدّق عبر الكثبان الرملية باتجاه الجدار الحامي. نظر ليرى ما لفت انتباهها، ورأى ثوبتر أخرى تنقض عليهما، وأدرك أن الوقت لن يسمح بإخراج الجثتين من الثوبتر والهروب بها.

صاحت چيسيكّا: «اركض يا پول. إنهم الهراكنة!».

أَرَاكْسُ يُعَلِّمُ ثَقَافَةَ السَّكِينِ، ثَقَافَةَ قَطْعِ كُلِّ مَا هُوَ
غَيْرُ مُكْتَمَلٍ ثُمَّ قَوْلُ: «الآن صار مكتملاً، لأن أمره
انتهى هنا».

من كتاب «أحاديث المؤدّب المجمعّة» للأميرة إيرولان.

في نهاية الممر الذي يركض فيه، توقّف رجلٌ يرتدي زِيَّ
الهراكنة بفتّة وحدّق إلى يُوِي، ثم بنظرة واحدة سريعة استوعب
المشهد برمّته: جُثّة ميپس، وجسد الدوق الممدّد على الأرض،
ووقوف يُوِي هناك. كان الرجل يحمل بندقيّة ليزر في يُمناه،
وتحيط به هالة من الوحشية والخشونة والاتّزان جعلت القشعريرة
تسري في جسد يُوِي.

فكّر يُوِي: هذا من السّاردوكار، ومن مظهره يبدو أنه برتبة
باشار. على الأرجح هو من حرس الإمبراطور الخاص الذي
أرسله إلى هنا لمراقبة الأمور. لا يهم نوع الزّي الذي يرتديه
السّاردوكار، فلا شيء قادر على إخفاء حقيقتهم.

قال الرجل: «أنت يُوِي»، ونظر حازماً إلى طوق كَلِيّة سوك
الذي يعقّص به الطيب شعره، وإلى وشم الألماسة على جبينه،
ثم التقت عيناه عيني يُوِي.

قال الطبيب: «أجل، أنا يُوِي».

قال الرجل: «اطمئن يا يُوِي، اقتحمنا المنزل على الفور حين
عطّلت دروع الطاقة. كل شيء تحت السيطرة الآن. أهذا الدوق؟».

- «هذا هو الدوق».

- «أهو ميت؟».

- «فاقد الوعي فحسب. أقترح تقييده».

- «هل تخلصت من الآخرين؟»، قالها وألقى نظرة خلفه حيث يتمدد جسد ميپس.

غمغم يُوي: «للأسف».

قال السَّاردوكار ساخرًا: «الأسف!»، ثم تقدَّم وألقى نظرة قريبة إلى ليتو.

- «هذا إذا الدوق الأحمر العظيم».

فكَّر يُوي: هذا كفيل بمحو أيِّ شكوك بشأن هويَّة الرجل. وحده الإمبراطور ينعت آل آتريديز بالدوقات الحمر.

مدَّ السَّاردوكار يده، وانتزع شارة الصقر الأحمر من صدر بذلة ليتو، وقال: «تذكار صغير. أين خاتم الدوقية؟».

قال يُوي: «لا يضعه في إصبعه».

صاح السَّاردوكار بحدَّة: «أرى هذا!».

شدَّ يُوي جسده، وابتلع ريقه. إذا حاصروني بالأسئلة، واحضروا كاشفة حقيقة، سيعرفون مكان الخاتم، وسيعرفون بأمر الثوبتر التي أعدتها.. وسيبوء كل تخطيطي بالفشل.

قال يُوي: «أحيانًا يرسل الدوق الخاتم مع رسول تأكيدًا على أنه أصدر الأوامر بنفسه».

تمتم السَّاردوكار: «لا بُدَّ من أن ثقته برُسله كبيرة».

غامر يُوي بقول: «هل ستقيده؟».

- «كم سيظل غائبًا عن الوعي؟».

- «ساعتين تقريبًا. لم أكن دقيقًا في جرعته كما فعلت مع جرعة المرأة والصبي».

لكز السَّارِدوكار الدوق بقدمه وقال: «هذا لم يكن يُخشى جانبه حتى وهو مستيقظ. متى ستفيق المرأة والصبي؟».

- «في غضون عشر دقائق».

- «بهذه السرعة؟».

- «قيل لي إن البارون سيصل خلف رجاله مباشرة».

- «أجل، ويجب عليك الانتظار في الخارج يا يُوي»، ثم رماه بنظرة حادة وأردف: «الآن!».

ألقي يُوي نظرة إلى ليتو وقال: «ماذا عن...».

- «سيُسلم إلى البارون وهو مُكْتَفٍ بإحكام كشواءٍ سيدخل الفرن»، قالها السَّارِدوكار ورمق من جديد وشم الألماسة على جبهة يُوي، ثم أردف: «رجالنا يعرفونك: ستكون في مأمن في أروقة المنزل. لم يعد لدينا وقت للدردشة أيُّها الخائن، فأنا أسمع اقتراب الآخرين».

فكَّر يُوي: الخائن. ثم خفض بصره ومرَّ من جوار السَّارِدوكار، عالمًا أن هذا ما سيتذكَّره التاريخ به: يُوي الخائن.

مرَّ يُوي بمزيدٍ من الجثث وهو في طريقه إلى المدخل الأمامي، وراح يختلس النظر إليها خاشياً أن يرى بينها پول أو جيسيكَا، لكن كل الصرعى كانوا من الحرس المنزلي أو ممَّن يرتدون زيَّ الهراكنة.

انتبه حرس الهراكنة وحدَّجوه بنظراتهم وهو يخرج من المدخل الأمامي إلى الليل المُضاء بنارٍ موقدة. كانوا قد أضرموا النار في أشجار النخيل التي تؤم جانب الطريق لينيروا المنزل. تصاعد دخان أسود من بين ألسنة اللهب البرتقالية من المواد السريعة الاشتعال التي استخدموها لإضرار النخيل.

قال أحدهم: «هذا هو الخائن».

قال آخر: «سيرغب البارون في رؤيتك قريباً».

فَكَرُّ يُوِي: لا بُدَّ لي من الذهاب إلى الثوبتر وترك خاتم الدوقية حيث يستطيع پول العثور عليه. ثم اعتراه خوفٌ مفاجئ: إن شكَّ أيدهو في أمري أو نفذ صبره، إن لم ينتظر ويذهب إلى حيث طلبت منه الذهاب بالضبط، فلن ينجو پول وجيسيكا من تلك المذبحة، ولن أنال ولو نعمة خلاص ممَّا اقترفته يداي.

أشار حارس هاركونني بذراعه وقال: «انتظر هناك، بعيداً عن الطريق».

بغتةً، أدرك يُوي أنه صار منبوذاً في هذا المكان الخرب. يحتقره الجميع، ولا تطوله شفقة. يجب ألا يفشل أيدهو في مهمته! اصطدم به حارسٌ آخر وصاح: «قلنا ابتعد عن الطريق يا هذا!».

فَكَرُّ يُوِي: حتَّى بعدما استفادوا مني يحتقرونني! ثم شدَّ قامته حين دُفع جانباً، مستعداً بعضاً من كرامته.

زمجر ضابط من الحرس: «انتظر قدوم البارون!».

أوما يُوي، وسار على نحوٍ يبدو طبيعياً بطول واجهة المنزل، ثم انحرف عند الركن وتوارى في الظلال بعيداً عن الأنظار وعن وهج النخلات المحترقة. أسرع يُوي خُطى مترددةً تفضح توتره قاصداً الفناء الخلفي وراء مشتل النباتات حيث تقبع الثوبتر التي وُضعت كي تحمل پول وأُمّه.

كان هناك حارس واقف عند باب المنزل الخلفي، مركّزاً اهتمامه على القاعة المضاءة والرجال الذي يتحرّكون في صخب في الداخل، يفتشون الحجرة تلو الأخرى.

يا للثقة التي يتحرَّكون بها!

احتجب يُوي بالظلال، وشقَّ طريقه حول الثوبتر، وفتح الباب الذي على الجانب الآخر من الحارس برفق. مدَّ يده أسفل المقعد الأمامي إلى عُدَّة الفرمن التي خبأها، ورفع غطاء أحد الجيوب ودسَّ خاتم الدوقية فيه. لمست يده الورقة المصنوعة من الاسپايس، تلك الرسالة التي كتبها، فوضع الخاتم في الورقة ثم أخرج يده وأعاد غلق الحقيبة.

بهدوء، أغلق يُوي باب الثوبتر، وشقَّ طريقه عائداً إلى زاوية المنزل، وأكمل سيره في اتِّجاه النخلات المحترقة.
فكَّر يُوي: الآن أتممت مهمَّتي.

ثم خرج من وسط الظلام إلى ضوء النخلات التي تأكلها النيران. أحكم ردائه حول جسده، وحدَّق إلى ألسنة اللهب وهو يُفكِّر: قريباً سأعرف. قريباً سأرى البارون وسأعرف. أما البارون، فهو على موعدٍ مع ضرسٍ صغير.

ثمَّة أسطورة تقول إن في اللحظة التي فارق فيها الدوق ليتو آتريديز الحياة، قطع شهابٌ السماء من فوق قصر أسلافه على كوكب كلادان.

من مقدِّمة كتاب «سيرة المؤدِّب للأطفال» للأميرة إيrolان وقف البارون فلاديمير هاركونن يرمق ليل أراكس المضاء بالنيران من نافذة سفينته الفضائية الراسية على الأرض التي يستخدمها مركز قيادة. انصب اهتمامه على الجدار الحامي البعيد، حيث كان سلاحه السريُّ يؤدِّي عمله.
قذائف المدفعية.

كانت المدافع تقصف الكهوف التي تراجع إليها مقاتلو الدوق
وأتخذوها خنادق لصمودهم الأخير. كان القصف بطيئاً مدروساً،
يُسقط عليهم وابلاً من الصخور وأطنان غبار في انفجارات
وامضة خاطفة ويغلق عليهم المداخل كي يموتوا جوعاً وعطشاً،
كحيواناتٍ انهارت عليها جحورها.

شعر البارون بدوي القصف البعيد، يحمله إليه معدن هيكلي
السفينة كأنه قرع طبول. برووم... برووم... ثم: برووووووم!
من كان سيخطر في باله إحياء المدفعية في عصر دروع
الطاقة؟ مرّت الخاطرة في عقله كأنها ضحكة مكتومة. لكن
فرار رجال الدوق إلى تلك الكهوف كان متوقعاً. أوه، كم سيقدّر
الإمبراطور ذكائي في الحفاظ على حياة أفراد قوّاتنا المشتركة.
ضبط إحدى مضادات الجاذبية الصغيرة التي تحمي جسده
البدين من سحب الجاذبية، وتلاعبت ابتسامة على ثغره ساحبةً
معها الثنيات الرخوة على فكه.

من المؤسف إهدار مقاتلين بارعين كمقاتلي الدوق، هكذا فكّر
ساخرًا من نفسه، واتّسعت ابتسامته أكثر، ثم أوماً مستدركاً:
لا بُدّ للشفقة من التحلّي بالقسوة! من تعريفات الفشل أن
يسهل الاستغناء عن المرء، أن تسهل التضحية به. الكون برمّته
يجلس فاتحاً ذراعيه في انتظار من في مقدوره اتّخاذ القرارات
الصحيحة، أما الأرانبي المتردّدة فيجب استهدافها وإجبارها على
الفرار إلى جحورها، وإلا كيف يمكنك السيطرة عليها وتربيتها؟
تخيّل البارون مقاتليه كما لو كانوا خلية نحل تطارد الأرانبي
وتدحرها، وفكّر: يطنّ الوجود بموسيقى تشنّف الأذان عندما
يعمل في خدمتك ما يكفي من النحل.

فُتِحَ بابٌ خلفه، فنظر البارون إلى الانعكاس في النافذة المعتمة ليرى القادم قبل أن يستدير. دخل بايتر دي فريس إلى الحجرة يتبعه عمان كودو، قائد حرس البارون الشخصي. خلف الباب المفتوح لمح البارون حركة رجاله، وشاهد وجوههم الممتعة، وخوف الحملان الذي يعتلي ملامحهم في حضرته. استدار البارون.

لمس بايتر ناصية رأسه بإصبعه في محاكاة ساخرة للتحية الرسمية، وقال: «أخبار جيدة يا مولاي. لقد أحضر الساردوكار الدوق».

دمدم الدوق: «بالتأكيد».

وتفرّس في قناع الشر الكئيب البادي وجه بايتر المخنث، وفي عينيه الزرقاوين الضيقتين المحاطتين بهالات سوداء.

وفكّر: يجب أن أتخلص منه قريباً، لقد تجاوز بقاءه فائدته وصار يشكل خطراً حقيقياً عليّ. ولكن يجب أن يكرهه سگان أراكس أولاً، وبعدها سيرحبون بحبيبي فيد راوثا كمخلص لهم. نقل البارون اهتمامه إلى قائد حرسه، عمان كودو، الرجل صاحب الفكّ الحديدي، والذقن المربّع الذي يشبه مقدّمة حذاء. الرجل الذي يستطيع وضع ثقته به، لأنه مطلع على عيوبه ونقائصه.

سأل البارون: «في البداية، أين الخائن الذي سلّمني الدوق على طبقٍ من فضّة؟ يجب أن أعطي الخائن مكافأته».

استدار بايتر على عقب ساقٍ واحدة، وأشار إلى الحارس الواقف في الخارج.

تحرك ظل أسود في الخارج، ثم دخل يُوي إلى الغرفة بخطوات بطيئة متصلبة. كان شاربه يتدلى على شفثيه الأرجوانيتين، ولا تبدو الحياة إلا في عينيه المعجوزتين. بإشارة من بايتر، توقف يُوي بعد ثلاث خطوات أخذها في الغرفة، ووقف مكانه يحدّق إلى البارون عبر المساحة الفاصلة بينهما.

- «الدكتور يُوي».

- «سيدي هاركونن».

- «سمعت أنك سلّمت الدوق إلينا».

- «أتممت جزئي من الصفقة يا سيدي».

نظر البارون إلى بايتر.

فأوما بايتر.

عاد البارون ينظر إلى يُوي: «تقول إنك التزمت بجزئك من الصفقة، هه؟ وأنا...»، ثم بصق كلماته التالية: «ماذا كان علي أن أفعل في المقابل؟».

- «أنت تتذكّر جيّداً يا سيدي هاركونن».

ثم استطاع يُوي التفكير الآن وسط الصّمت الذي حلّ على ذهنه بعد توقّف دقّ السّاعات المستمر فيه. لقد فضحت كلمات البارون ما يحاول إخفاءه. لقد ماتت وانا بالفعل ورحلت إلى حيث لم يعد في مقدورهم تعذيبها، وإلاّ لاستمرّوا في استخدامها ورقة ضغط على الطبيب الضعيف. توحى طريقة كلام البارون بأنه فقد ما كان يستخدمه ضدّه، توحى بأنه خسر ورقته الراجعة. سأل البارون: «حقّاً؟».

- «لقد وعدت بتحرير وانا من عذابها».

أوماً البارون قائلاً: «أوه، أجل. الآن أتذكّر. كان هذا وعدى. هكذا استطعت كسر شوكة التهيئة العقلية الإمبراطورية. لم تتحمّل رؤية زوجتك ساحرة البني جيسيرت تُسام سوء العذاب في مضخمات الألم التي ابتكرها پايتِر. حسناً، البارون فلاديمير هاركونن دائماً ما يفي بوعوده، لقد أخبرتك بأنني سأحرّرها من عذابها وبأنني سألمّ شملكما. ليكون ذلك». ثم أشار بيده إلى پايتِر.

اتّقدت عينا پايتِر الزرقاوان وصارت نظرتَه زجاجية، وهجم بغتة في رشاقة القلطل. التمع السكّين في يده كأنه مقلب وهو ينغرس في لحم ظهر يُوي.

تصلّب جسد الرجل العجوز دون أن ينزل عينيه عن البارون. بصق البارون قائلاً: «انضم إليها إذا!». وقف يُوي مترنحاً، وتحركت شفّته بإحكام دقيق، وخرج صوته منهما بإيقاع موزون على نحوٍ غريب:

«تظن... أنك... هز... هزمتي. تظن... أنني... لم... أكن... أعلم... ماذا... جلبت... على... حبيبتي... وأنا».

ثم هوى جسده أرضاً، بلا انحناء أو تراخ، كما تسقط الأشجار. كرّر البارون: «انضم إليها إذا»، ولكن كلماته بدت كصدى صوتٍ ضعيف.

استطاع يُوي أن يُوجسه ويملاً قلبه خوفاً. أدار البارون اهتمامه سريعاً إلى پايتِر، ورأى الرجل يمسح النصل بخرقة قماش، ورأى نظرة رضا دسمة في العينين الزرقاوين. فكّر البارون: هذه إذا الطريقة التي يقتل بها بيده. من المفيد معرفة ذلك.

سأل البارون: «هل سلّمنا الدوق فعلاً؟».

قال بايتر: «بالتأكيد يا سيدي».

- «أحضره إذا!».

نظر بايتر إلى قائد الحرس، فاستدار لتنفيذ الأمر.

نظر البارون إلى جثمان يُوي. قد يظن المرء من الطريقة التي سقط بها أن جسد الرجل مصنوع من خشب البلوط لا العظام.

قال البارون: «لا يمكنني الوثوق بخائن، حتى لو كان من صناعي».

ثم ألقى نظرة إلى النافذة التي يكتنفها الظلام. عرف البارون أن الخيمة السوداء التي تغطي كل شيء في الخارج صارت تنتمي إليه الآن. لقد توقّف القصف المدفعي لكهوف الجدار الحامي، وصارت الجحور شراكاً مغلقة على من فيها. بفتة، لم يكن بوسع عقل البارون تخيل شيء أجمل من ذلك الفراغ الأسود المطلق، رُبّما باستثناء البياض على السّواد، البياض الناصع إذا طلى السّواد، بياض بلون البورسلين.

لكن قلبه لا يزال مرتاباً.

ما الذي قصده هذا الطبيب المُسنّ المأفون؟ بالطبع رُبّما كان يعلم ما سيصيبه في النهاية، لكن غريب ذلك الجزء الذي قال، الذي يتعلّق بظنّي أنه قد هُزم:

«تظن أنك هزمتي».

ماذا قصد؟

دخل الدوق ليتو آتريديز عبر الباب، ذراعاه مكبلتان بالسلاسل والأصفاد، ووجهه الحاد الشبيه بوجه الصقر معفّر بالتراب. كانت سُترته ممزّقة من الصدر حيث انتزع أحدهم شارته، وتدلّى أسمالاً من خصره حيث نُزع حزام درع الطاقة دون فك أربطته أولاً. كانت عينا الدوق مزججتين، وتطل منهما نظرة مجنونة.

قال البارون: «أهلاً»، ثم تردّد وأخذ نفساً عميقاً. أدرك أنه تحدّث بصوت عالٍ جداً، ما أفقد تلك اللحظة -التي طالما تخيلها- شيئاً من مذاقها.

فلتحل اللعنة على هذا الطبيب إلى الأبد!

قال پايترو: «أظن أن الدوق الطيّب مخدّر. هذه هي الطريقة التي أوقعه بها يُوي كي يسلمه إلينا»، ثم التفت إلى الدوق وسأله: «ألسنت مخدّراً يا عزيزي الدوق؟».

أتاه الصّوت من مكانٍ بعيد جداً. كان ليتو يشعر بالسلاسل، وبالوجع الكامن في عضلاته، وبشفتيه المشقّقتين، وبوجنتيه الملتهبتين، وبمذاق العطش الجاف الخشن في فمه... لكن الأصوات بدت باهتة كأنها مكتومة ببطّانية قطنية. وعبر تلك البطّانية، لم ير إلاّ ظلالاً وأشكالاً ضبابية.

سأل البارون: «ماذا عن المرأة والصبيّ يا پايترو؟ هل من جديد بشأنهما؟».

مرّر پايترو لسانه على شفتيه.

زمجر البارون: «لقد وصلتك أخبار عنهما! ماذا سمعت؟».

رمى پايترو قائد الحرس بنظرة سريعة، وعاد ينظر إلى البارون: «أرسلنا رجلين لتنفيذ المهمّة يا سيّدي، ثم... آه... إحم... عثرنا عليهما».

- «حسناً، هل كان تقريرهما مُرضياً؟».

- «لقد ماتا يا سيّدي».

- «بالتأكيد، أعلم هذا! ما أريد معرفته هو...».

- «كانا ميّتين حين عثرنا عليهما».

احتقن وجه البارون بالغضب، وقال: «وماذا عن المرأة والصبي؟».

- «لا أثر لهما يا مولاي، لكن كانت هناك دودة. لقد جاءت في أثناء تمشييط المكان وتقصّي ما حدث. ربّما كانت حادثة كما كنا نأمل. يحتمل أن...».

- «نحن لا نتعامل بالاحتمالات هنا يا بايتر. ماذا عن الثوبتر المفقودة؟ ألا يوحي لك هذا بشيء يا منتاتي الأريب؟».

- «واضح أن أحد رجال الدوق استخدمها للهرب يا مولاي. قتل طيارنا وهرب بها».

- «أيّ من رجال الدوق؟».

- «لقد كانت عملية قتل نظيفة وصامتة يا سيدي. قد يكون حوَّاط، أو ذلك المدعو هاليك، وربّما آيداهو، أو أحد كبار الضباط».

تمتم البارون: «كلها احتمالات»، وألقى نظرة إلى الدوق المخدّر المترنّح.

قال بايتر: «لا تقلق يا سيّدي، الوضع تحت السيطرة».

- «كلّا، إنه ليس كذلك! أين عالم البيئات الكوكبية؟ أين ذلك الأحقق المدعو كاينز؟».

- «وصلتنا أخبار عن مكانه، وأرسلنا لإحضاره يا مولاي».

غمغم البارون: «لا تعجبني الطريقة التي يعاوننا بها هذا المندوب الإمبراطوري».

كانت الكلمات تأتي من بعيد، عبر البطّانية القطنية، لكن بعضها انطبع على عقل ليتو. لا أثر للمرأة والصبيّ. پول وجيسيكا هريا، ولا يزال مصير حوَّاط وهاليك وآيداهو مجهولاً. ما زال هناك أمل.

قال البارون بلهجة أمرة: «لا شيء في إصبعه. أين خاتم الدوقية؟».

قال قائد الحرس: «ضابط الساردوكار يقول إنه لم يكن يضعه عندما أُسر».

قال البارون: «قتلت الطبيب قبل الأوان يا بايترا، وهذه غلطة. كان عليك تحذيري قبلها. اندفاعك لم يكن في مصلحتنا»، ثم عبس وتولّى متممًا: «احتمالات».

ظَلَّت الفكرة عالقة في ذهن ليتو: بول وجيسيكا هربا! ومعها ألحَّت ذكرى أخرى، صفقة ما، بالكاد يتذكَّرها.

الضُّرس!

الآن يتذكَّر شيء من الأمر: قرصٌ يحتوي على غازٍ سام على شكل ضرس صناعي.

شخصٌ ما أخبره أن يتذكَّر الضُّرس. الضرس الآن في فمه. يستطيع أن يشعر به ويتحسَّس شكله بلسانه. كل ما عليه هو أن يعضُّ عليه بقوة.

ليس بعد!

أخبره ذلك الشخص أن ينتظر حتَّى يكون البارون قريبًا منه. من أخبره بذلك؟ لم يكن يتذكَّر.

سأل البارون: «إلى متى سيظل في هذه الحالة؟».

- «رُبَّما لساعة أخرى يا مولاي».

تمتم البارون: «رُبَّما»، ثم التفت مجددًا إلى النافذة التي يكتنفها الليل بعباءته السوداء، وأردف: «أنا جائع».

فكَّر ليتو: هذه الكتلة الضبابية الهلامية الواقفة هناك هي البارون. ظَلَّت الكتلة تتراقص جيئةً وذهابًا، متمائلةً مع حركة

الغرفة، كما راحت الغرفة نفسها تتسع وتتقلص، تضيء وتعتَم، ثم انطوت إلى سوادٍ وتلاشت.

صار الوقت ظلمات بعضها فوق بعض في وعي الدوق، وراح ينجرف صعوداً عبرها. لا بُدَّ لي من الانتظار.

كانت هناك طاولة. استطاع ليتو رؤية الطاولة بوضوح كبير، كما رأى رجلاً جسيماً بدينًا على الجانب الآخر منها، أمامه بقايا وجبة طعام. أحسَّ ليتو بأنه جالس في المقعد المواجه للرجل البدين، وشعر بثقل سلاسله وأصفاده، وبالأربطة التي تقيّد جسده الخدر في الكرسي. كان يعلم أن بعض الوقت قد مرَّ عليه وهو في هذا الوضع، لكنه لم يستطع حساب مقداره.

- «أظن أنه بدأ يفيق أيُّها البارون».

ذلك الصّوت الحريري الناعم. إنه بايتر.

- «أرى هذا يا بايتر».

تلك الدممة العميقة. إنه البارون.

شعر ليتو بأن الموجودات من حوله تزداد وضوحًا. اكتسب الكرسي الذي يجلس عليه صلابة، وصارت قيوده أشد وأحكم. والآن بات يرى البارون بوضوح تام. راقب ليتو حركات يد الرجل: لمساته القهرية لحافة الطُّبق ومقبض الملعقة، وإصبعه التي تتحسّس الدهون على عظام فكّه.

ظلَّ ليتو يراقب حركات يد الرجل، مأخوذًا بها.

قال البارون: «أعرف أنك تسمعني يا دوق ليتو. نريد أن نعرف منك أين نجد حظيّتك والصبيّ الذي أنجبته منها».

لم تخف نبذة الإهانة على ليتو، لكن كلمات البارون غمرته بالاطمئنان. الأمر صحيح إذًا: بول وچيسيكاً ليسا في حوزتهم.

هدر البارون: «هذه ليست لعبة أطفال! لا بُدَّ أنك تعلم هذا»، ثم مال على ليتو متأملاً ملامح وجهه. كان البارون منزعجاً لأنه غير قادر على معالجة الأمر على انفراد، بينهما هما الاثنين فقط. إنها لسابقة سيئة أن يرى أشخاص آخرون أحد النبلاء في مثل هذه الموقف العسير.

شعر ليتو بقوة تعود إليه. والآن، برزت ذكرى الضرس المزيّف في عقله كأنها برج كنيسة في أرض فضاء. لقد تذكّر هوية واضح هذا السلاح المميت في فمه، هذه الكبسولة التي تأخذ شكل العصب في ذلك الضرس، هذا الغاز السام.

إنه يُوي!

في عقل ليتو علقت ذكرى ضبابية لجثة هامدة تُجرّ من أمامه في هذه الغرفة، وعلم أنها جثة يُوي.

سأله البارون: «هل تسمع هذه الضوضاء يا دوق ليتو؟».

شُحذ انتباه ليتو للصوت الشبيه بنقيق الضفادع، أنين حلقي صادر عن شخص يُعذّب.

قال البارون: «أمسكنا أحد رجالك متخفياً في ملابس الفرمن. اكتشفنا تنكره بسهولة، من عينيه كما تعلم. إنه مصرّ على أنه زُرع بين الفرمن ليتجنّس عليهم. لقد عشت مدّة على هذا الكوكب يا قريبي العزيز، وأعرف جيّداً أنه ليس بوسع المرء التجنّس على حثالة الصّحراء هؤلاء. لذا أخبرني، هل اشتريت مساعدتهم بالمال؟ هل أرسلت امرأتك وابنتك إليهم؟».

شعر ليتو بانقباض في صدره: لو كان يُوي قد أرسلهم إلى حافة الصّحراء، فلن يتوقّف البحث حتى يُعثر عليهما.

قال البارون: «هيا، هيا. ليس لدينا الليل بطوله، وما أسهل التعذيب. أرجوك لا تضطربنا إلى ذلك يا دوقي العزيز». ثم رفع البارون عينيه إلى بايتر الذي كان يقف وراء كتف ليتو، وأردف: «بايتر ليس معه كل أدواته هنا، لكنني واثق بأن في مقدوره الارتجال». - «أحيانًا يكون الارتجال أفضل أيُّها البارون».

سمع ليتو الصَّوت في أذنه. يا لفحيح الأفاعي الناعم هذا! قال البارون: «كان لديك خطة للطوارئ. أكرِّر: أين أرسلت امرأتك والصبي؟»، ثم نظر إلى يد ليتو وأردف: «وخاتمك مفقود. هل أعطيته للصبي؟».

ثم رفع عينيه محدِّقًا إلى عيني ليتو. ثم قال: «حسنًا، لا تريد الإجابة. ستضطربني إلى فعل أمور لا أريد أن أفعلها. سيستخدم بايتر أساليب بسيطة ومباشرة. أوافقه في أنها أحيانًا تكون الأفضل، ولكن ليس من اللائق تعريضك إلى مثل هذه الأمور».

قال بايتر: «أفكر في صبِّ بعض الشَّحم السَّاخن على ظهره، أو على جفنيه، أو على مواضع أخرى من الجسد. إنها وسيلة فعَّالة، بالذات عندما لا يعرف الشخص على أيِّ موضع سينزل الشحم. إنها وسيلة رائعة، وتترك نَمطًا جميلًا من البثور الصديديَّة المتقيِّحة على الجلد، أليس كذلك أيُّها البارون؟».

قال البارون بنبرةٍ لاذعةٍ: «اختيار أنيق». يا لتلك الأصابع التي لا تكف عن التلمُّس! هكذا فُكِّر ليتو وهو يراقب اليدين البدينتين كأيدي الأطفال، والجواهر النفيسة التي تزيِّن الأصابع المكتنزة، والطريقة القهرية التي تتحسَّس بها الأشياء.

تساءل الدوق وأصوات العذاب الآتية عبر الباب تمزّق أعصابه:
تُرى من أمسكوا؟ أيمن أن يكون أيدهم؟
قال البارون: «صدّقني يا ابن العم العزيز، لا أريد للأمور أن
تصل إلى هذا».

قال پايتِر: «فكّر في أعصابك التي ستبعث رسائل استغاثة
طلباً لمساعدة لن تأتي. الأمر أقرب إلى الفن كما ترى».

تذمّر البارون: «وأنت فنّان بارع، الآن أرجو أن تُسمعنا سكاتك».

فجأة تذكّر ليتو اهتماماً قاله جيرني هاليك ذات مرّة، عندما
رأى صورة للبارون: «ثم وقفت على رمل البحر، فرأيت وحشاً
طالعا من البحر له رؤوس عدّة... وعلى رؤوسه مكتوب كافر⁽¹⁾».

قال پايتِر: «نحن نضيّع الوقت يا بارون».

- «ربّما».

ثم أوماً البارون وقال: «أنت تعلم أنك ستخبرنا في النهاية
بمكانيهما يا عزيزي ليتو. عند درجة معيّنة من الألم ستتهار
مقاومتك».

فكّر ليتو: هو محقّ غالباً، لولا وجود الضرس... ولولا حقيقة
أنني لا أعلم مكانهما.

التقط البارون قطعة لحم وألقاها في فمه، وراح يلوّكها ببطء،
ثم بلعها وفكّر: علينا أن نجرب طريقة أخرى.

قال البارون: «تأمل هذا السبيّ الذي يأبى الخضوع. تأمله
جيداً يا پايتِر».

(1) سفر الرؤيا، الإصحاح الثالث عشر، آية 1 (بنصّرف).

وفكّر البارون: أجل! تأمل هذا الرجل الذي يظنُّ أنه لا يمكن شراؤه. هذا الأسير الذي قُسمت روحه إلى ملايين الأسهم، وبيعت شيئاً فشيئاً على مدار كل ثانية من حياته! إذا رفعته وهزّزته الآن، فسيخشخش من الداخل، إذ لم يبق فيه شيء! إنه فارغ! نخر! أي فرق سيحدثه موته الآن؟

توقّف الصّوت الشبيه بنقيق الضفادع في الخلفية.

رأى البارون قائد حرسه عمان كودو يظهر عند مدخل الباب ويهزُّ رأسه. لم يُدل الأسير بالمعلومات المطلوبة. إخفاق آخر. حان وقت إنهاء المماطلة مع هذا الدوق الأحمق. هذا الغبي المأفون الرخو لا يدرك حجم الجحيم التي سيصلى نارها، النار التي لا تفصله عنها سوى ملايين قذرات قليلة.

هدأت الخاطرة البارون، وتغلّبت على إحجامه عن تعريض شخص نبيل إلى العذاب. تخيّل نفسه فجأة جراحاً يجري عمليات تشريح لا حصر لها بمقصّه، نازعاً الأقنعة عن الحمقى، كاشفاً الجحيم القابع تحتها.

أرانب، كلهم أرانب!

وكم ترتعد الأرانب حين ترى مفترساً!

حدّق ليتو إلى البارون من جانب الطاولة الآخر، متسائلاً ماذا ينتظر. سينهي الضرر كل شيء سريعاً. لقد عاش حياة حافلة، معظمها جيّد. تذكّر ليتو طائفة ورقيّة تحلّق في سماء كلادان الزرقاء، وپول يضحك جذلاً لرؤياها. ثم تذكّر شروق الشمس هنا على أراكس، وألوان منحدرات الجدار الحامي التي تتعمّها غشاوة الغبار.

تمتم البارون: «خسارة». ثم دفع نفسه بعيداً عن الطاولة، ووقف بخمّة بفضل مضادات الجاذبية، ثم تردّد للحظة حين

شاهد تغييراً يطرأ على الدوق. رآه يسحب نفساً عميقاً، ويتصلَّب فَنَّهُ، وتبرز عضلاته وهو يعضُّ على نواجذه.

وفكَّر البارون: كم يخشاني!

مصعوقاً بالخوف من أن يفلت البارون منه، عضَّ ليتو بقوة على كبسولة الضُّرس، وشعر بها تنكسر، ثم فتح فمه ونفث البخار اللاذع الذي ذاق مرارته على لسانه. بدأ البارون يبهت ويتلاشى.. كأنه سراب. سمع ليتو شهقة بالقرب من أُذنه صادرة عن بايتر، صاحب الصَّوت الناعم.

نلت منه أيضاً!

- «بايتر! ماذا يحدث؟».

مكتبة

t.me/t_pdf

كان الصَّوت الجهوري بعيداً جداً.

تسارعت الذكريات في عقل ليتو، حاملةً طابع تمتمات الشمطاوات الهُتم السابق. ثم انضبط كل شيء من حوله -الحجرة، والطاولة، والبارون، والعينان الزرقاوان المذعورتان- في فوضى مُشوَّشة.

ها هو الرجل ذو الذقن الشبيه بمقدِّمة الحذاء يسقط كأنه دمية، وها هي أنف الرجل الدمية تنكسر وتميل إلى اليسار كأنها قضيب بندوق علق إلى الأبد في بداية حركته. سمع ليتو تحطُّم الأواني الفخَّارية كأنها دويٌّ بعيدٌ في أُذنيه. صار عقله سلَّةً عملاقة تلتقط كل شيءٍ في الوجود: كل صيحة، كل همسة، كل.. صمت.

بقيت معه فكرة واحدة، رآها ليتو مجسَّدة بلا هيئة على ضوء أشعةٍ سوداء: الظروف تشكِّل المرء، والمرء يشكِّل الظروف. أنت حصاد ما تزرع. ملأت الفكرة نفسه بشعور من الاكتمال عجز عن تفسيره.

ثم ساد الصمت.

وقف البارون مسندًا ظهره إلى باب منفذ الهروب الذي استخدمه للفرار وأغلقه بقوة من خلفه على غرفة ملأى بالقتلى. شعر بالحرس يحيطون به، وسأل نفسه: هل تنفّسته؟ هل أصابني هذا الغاز أيًا كان كُنْهه؟

ثم عاد له سمعه، وصوابه. سمع شخصًا يصيح مصدرًا أوامر: «اجلبوا أقنعة الغاز.. أبقوا الباب مغلقًا.. شغلوا مراوح التهوية». ففكر البارون: خَرَّ الآخرون صرعى على الفور، لكنني ما زلت صامدًا، ما زلت حيًا أتنفّس. بحق الجحيم! كم كان الأمر وشيكا! استطاع الآن تحليل ما حدث. كان درعه يعمل وقتها، صحيح أنه كان مضبوطًا على أقل مستوى طاقة، لكنه كان كافيًا لإبطاء عملية التبادل الغازي الجزيئي على حدود حاجز الطاقة. كما أنه كان يدفع نفسه لحظتها بعيدًا عن الطاولة، أضف إلى هذا شهقة بايتر التي جعلت الحارس يركض نحوه لينزود عنه ملقيًا نفسه إلى التهلكة.

المصادفة وشهقة رجلٍ محتضر هما ما أنقذا حياته.

لم يشعر البارون بامتنان لبايتر. هذا الأحمق هو من أودى بنفسه للهلاك. وقائد الحرس الغبي ذاك! ألم يقل إنه فتّش الجميع جيّدًا قبل إحضارهم أمام البارون! كيف تسنّى للدوق أن...؟ هكذا بلا أدنى تحذير، ولا حتّى من كشّاف السُّموم الموضوع على الطاولة، إلى أن فات الأوان. كيف؟

فكر البارون وقد بدأ يستعيد رباطة جأشه: حسنًا، لا يهم هذا الآن، فأولى مهام قائد الحرس الجديد ستكون إيجاد أجوبة عن

صار أكثر انتباهًا إلى الحركة المحمومة في نهاية الرواق الممتد من باب حجرة الموت الآخر. دفع البارون نفسه بعيدًا عن بابه الخاص، وتأمل أتباعه الخانعين الملتفين حوله، صامتين محدقين منتظرين ردّة فعله .

هل سيفضب البارون؟

أدرك البارون أنه لم تمض سوى ثوانٍ معدودة منذ أن فرّ من غرفة الموت المريعة تلك .

بعض الحرس كانوا يوجّهون أسلحتهم نحو الباب، فيما وقف البعض الآخر في تحفّزٍ شرس في وجه الرواق الخالي الممتد نحو مصدر الضوضاء عند الزاوية المنعطف الذي إلى يمينهم . جاء رجلٌ يهرول من ذلك المنعطف، بقناع غاز متدلّ بأربطة من رقبته، وعيناه على كشّافات السُّموم التي تمتدّ بطول سقف الرواق فوق رؤوسهم . كان أشقر الشعر، بوجه مفلطح وعينين خضراوين، وخطوط نضرة تتشعب خارجة من شفّتيه الغليظتين . بدا كأنه مخلوق مائي خارج بيئته .

حملق البارون إلى الرجل المقرب، وتذكّر اسمه: نيفود، آياكين نيفود . حارس برتبة أنباشي . كان نيفود مدمنًا على السِّموتا، وهو مزيج من مخدّر وموسيقى يؤثّر في أعماق مستويات الوعي . تلك معلومة مفيدة .

توقّف الرجل أمام البارون وقدم إليه التحية الرسمية: «الرواق آمن يا مولاي . كنت واقفًا أراقب بالخارج وأدركت أنه غاز سام . فتحات التهوية في غرفتك تسحب الهواء من هذه الممرّات»، ثم رنا ببصره إلى كشّاف السُّموم الذي يعلو رأس البارون وأردف: «لم

يتسرب شيء من الغاز، وقد طهرنا الغرفة الآن. أوامرك؟».

مَيَّز البارون صوت الرجل، إنه من سمعه يعطي الأوامر. هذا الأنباشي كفاء، هكذا فُكِّر.

سأله البارون: «هل مات جميع من في الداخل؟».

- «أجل يا سيدي».

فُكِّر البارون: حسنًا، علينا التأقلم مع هذه المستجدات.

قال: «في البداية، أحب أن أهنئك يا نيفود، فقد اخترتك لتكون قائد حرسني الشخصي الجديد، وأرجو أن تضع الدرس الذي يجب تعلمه من مصير سلفك نصب عينيك».

راقب البارون ملامح حارسه وهو يستوعب ما تعنيه ترفيته، فقد أدرك نيفود أنه لن يعوز السموتا بعد الآن.

أوماً نيفود قائلاً: «مولاي يعرف أنني سأكرّس نفسي بالكامل لسلامته».

- «أجل، حسنًا، والآن إلى العمل. أظن أن الدوق يضع شيئاً في فمه. أريدك أن تعرف كنه هذا الشيء، وكيف استخدمه، ومن ساعده في وضعه في مكانه. ستأخذ التدابير اللازمة كافة كي...». ثم بتر عبارته عندما قطعت ضوضاء في الممر من خلفه حبل أفكاره. كان الحرس الواقفون عند باب المصعد الصاعد من طوابق الفرقاطة السفلية يحاولون منع عقيد بإشار طويل القائمة خرج لتوه من المرور.

لم يتعرّف البارون على وجه العقيد الباشار. كان نحيفًا، فمه كأنه شقّ في جلدٍ مدبوغ، وعيناه بقعتا حبر.

زأر الرجل وهو يدفع الحراس جانبًا: «أبعدوا أيديكم عني يا آكلي الجيف!».

فَكَرَّ البارون: آاه، إنه واحد من السَّاردوكار.

تقدَّم العقيد الباشار في خطوات واسعة نحو البارون الذي ضاقت عيناه خوفاً. يملؤه ضُبَّاط السَّاردوكار بالقلق ويقبضون قلبه، فجميعهم يبدون كأنهم أقارب الدوق (الدوق الراحل)، فضلاً عن تبجُّحهم وجراتهم مع البارون!

وقف العقيد الباشار على بُعد نصف خطوة من البارون، واضعاً يديه في خصره، فيما راح الحرس يحومون من خلفه في حالة من القلق.

لاحظ البارون غياب التحيَّة، كما لاحظ الازدراء في سلوك السَّاردوكار، فازداد قلقه. لم يأت إلى الكوكب سوى فيلق واحد منهم (أي عشرة ألوية) لدعم فيالق الهراكنة، لكن البارون لم يخدع نفسه، فهذا الفيلق قادر تماماً على الانقلاب على جيش الهراكنة بالكامل والتغلب عليه.

زمجر السَّاردوكار: «قُل لرجالك إنه لا يُسمح لهم بمنعي من مقابلتك يا بارون. لقد أتاك رجالي بالدوق الآتريديزي قبل أن يتسنَّى لي مناقشة مصيره معك. سنناقش هذا الأمر الآن».

فَكَرَّ البارون: يجب ألا أفقد ماء وجهي أمام رجالي.

- «وبالتالي؟»، نطق البارون الكلمة ببرودة محسوبة، شاعراً بالفخر من نفسه.

قال العقيد الباشار: «كلَّفني الإمبراطور بالتأكُّد من أن يموت قريبه النبيل بشكل لائق، ودون عذاب».

قال البارون كاذباً: «هكذا أمرني أيضاً، هل ظننت أنني سأعصي أمره؟».

قال السَّاردوكار: «عليَّ إبلاغ الإمبراطور بما رأيته بأَمِّ عيني».

ردَّ البارون بحدة: «لقي الدوق حتفه بالفعل»، وأشار بيده كي ينصرف الرجل.

ظلَّ العقيد الباشار واقفاً برسوخ في مكانه مواجهًا البارون، لم يهتزَّ له جفن ولم تتحرك فيه عضلة توحى بالاكتراث لكونه أمرًا بالانصراف.

فكر البارون: «حقاً! هذا تمار!

قال البارون: «مات بيده، إن كان لا بُدَّ أن تعرف. أخذ سُمًّا».

قال العقيد الباشار: «سأعابن الجثة الآن».

رفع البارون بصره إلى السقف في سخطٍ مصطنع، فيما تسابقت الأفكار في عقله: اللعنة! هذا السَّاردوكار ثاقب النظر سيفحص الغرفة قبل تغيير أيِّ شيء!

زمجر السَّاردوكار: «الآن! سأراها بأُمِّ عيني».

أدرك البارون أن لا سبيل إلى منعه. سيرى السَّاردوكار كل شيء، وسيعرف أن الدوق قتل رجلاً من الهراكنة، وأن البارون هرب بأعجوبة. الأدلة موجودة في بقايا العشاء على الطاولة، وفي الدوق الميت على المقعد المقابل محاطاً بالردي الذي تسبَّب فيه.

لا سبيل إلى منعه على الإطلاق.

زمجر السَّاردوكار: «لن أسمح بالتأجيل».

قال البارون: «لا أحد يؤجِّلُك»، وحدَّق إلى عيني السَّاردوكار السوداوين بلون السَّبع. «أنا لا أخفي شيئاً عن إمبراطوري»، ثم أوماً إلى نيفود قائلاً: «ليرى العقيد الباشار كل شيء، في الحال. اصطحبه إلى الغرفة عبر الباب الذي كنت تحرسه يا نيفود».

قال نيفود: «اتبعني يا سيدي».

ببطء، وبفطرسية وقحة، دار الساردداوكار حول البارون، ثم شقَّ طريقه ماراً من بين الحرس.

فكَّر البارون: إنه لا يُطاق. الآن سيعرف الإمبراطور أيَّ هفوة ارتكبت، وسيعدها علامة ضعف.

أزعجته معرفته أن الإمبراطور وساردوكاره متشابهان في ازدرائهما للضعف. عضَّ البارون شفته السفلى مواسياً نفسه بأن الإمبراطور على الأقل لم يعلم بأمر الفارة التي شَنَّها آل آترديدز على جيدي پرايم، وبتمديرهم مخازن الاسپايس هناك.

اللغة على ذلك الدوق الداعر!

راقب البارون ظهري الرجلين المبتعدين: الساردوكار المتغطرس، ونيفود الكفاء القصير القوي البنية.

فكَّر البارون: علينا التأقلم. سأضطر إلى تسليط رابان الباطش على هذا الكوكب اللعين مرّة أخرى، بلا قيد أو رادع. سأضطر إلى التضحية بفردٍ تجري في عروقه دماء الهراكنة لتهيئة أراكس لقبول فيد راوئا حاكماً. اللغة على ذلك المدعو پايتِر الذي تسبَّب في مقتله قبل أن أقضي حاجتي منه!

تنهَّد البارون.

يجب أن أرسل إلى كوكب تليلاكس على الفور للحصول على مِنّات جديد. لا شك أن البديل المُعدَّ لي جاهزٌ لديهم الآن.

سعل أحد الحراس بجانبه.

التفت البارون نحو الرجل وقال: «أنا جائع».

- «أمرك يا مولاي».

دمدم البارون: «وأريد شيئاً يسليّني بينما تعملون على تنظيف تلك الغرفة وفحصها».

خفض الحارس عينيه وقال: «ما التسلية التي يرغب فيها مولاي؟».

قال البارون: «سأكون في حجرة نومي. أحضر لي ذاك الغلام الذي ابتعناه من جامونت، ذا العينين الجميلتين، وتأكد من تخديره جيّدًا، فلست في مزاج للمصارعة».

- «أمرك يا سيدي».

استدار البارون وبدأ يتحرّك نحو حجّرتَه بخطواتٍ واثبة تكاد تطفو بفعل مضادّات الجاذبية، وفكّر: أجل، الغلام ذو العينين الجميلتين، الغلام الذي يشبه بول أتريدز الشاب بشدّة.

آه يا بحار كلادان،
آه يا رعية الدوق ليتو..
ها قد سقطت قلعة ليتو،
سقطت إلى الأبد.

من كتاب «أغاني المؤدّب» للأميرة إيrolان.

شعر پول أن ماضيه كله، وكل خبرة مرّ بها قبل هذه الليلة،
صارت رمالاً راكدةً في قاع ساعة رملية. كان يجلس بالقرب من
أمّه ضامًا ركبتيه داخل خيمة صغيرة من القماش والبلاستيك:
خيمة تقطير. لقد وجدوا الخيمة -مثل ملابس الفرمن التي
يرتديانها الآن- في الحقيبة التي تركها أحدهم لهما في الثوبتر.
لم يكن ينتاب عقل پول أدنى شك في هويّة الشخص الذي وضع
عُدّة الفرمن حيث وجداها، الشخص الذي وجّه مسار الثوبتر
التي حملتهما إلى هنا أسيرين بناءً على اقتراحه.
إنه يُوي!

لقد سلّمهما الطبيب الخائن إلى يد دانكن آيداهو مباشرةً.
حدّق پول -عبر الجزء الشفّاف في خيمة التقطير- إلى
الصخور السابحة في ضياء القمر التي تطوّق البقعة التي خبّأها
آيداهو فيها.

فكّر پول: أختبئ كالأطفال وقد صرت الدوق. شعر بمرارة
الفكرة، لكنه لم يستطع إنكار حكمة ما فعلوه.

شيء ما أصاب وعيه هذه الليلة، فقد استطاع أن يرى بوضوح
تام كل ظرف وكل حدث جرى من حوله. شعر بأنه غير قادر على
كبح تدفّق المعلومات الداخلي في ذهنه، أو التحكم في الدقّة

الباردة التي تضاف بها كل معلومة جديدة إلى مجموع معارفه، أو في معالجة البيانات المتمركزة في وعيه. هذه قدرات منتهات، بل ما هو أكثر.

فكّر پول في لحظة الغضب العاجز الذي مرّت به حين انقضّت الثوبتر الغربية خارجة دثار الليل، مائلةً كصقّر عملاق فوق الصّحراء والرياح تعوي في أجنتها. التغيّر الذي طرأ على عقل پول أصابه وقتها. دارت الثوبتر في الهواء ثم انزلت على الرمال مقترية من الشخصين الراكضين: هو وأُمّه. تذكر پول كيف شملتهما رائحة الكبريت المحترق الناتجة عن احتكاك مزلاجي الثوبتر بسطح الرمال.

في تلك اللحظة استدارت أُمّه متوقّعة أن ترى مرتزقة الهراكنة وفي أيديهم بنادق الليزر، لكنها بدلاً من ذلك رأت دانكن آيداهو يميل بجسده خارج باب الثوبتر المفتوح ويصيح: «أسرعاً! أرى علامة دودة جنوباً».

لكن پول كان قد تعرّف على هويّة قائد الثوبتر قبل أن يستدير، من تفاصيل دقيقة لاحظها في طريقة تحليقها وهبوطها المندفع. تلك التفاصيل المتناهية في الصغر - التي لم تلاحظها أُمّه نفسها - كشفت لهول هوية الجالس خلف مقود الثوبتر قبل أن يراه.

تململت جيسيكا في جلستها المقابلة لهول داخل خيمة التقطير، وقالت: «لا يوجد إلا تفسير واحد. لا بُدَّ أن الهراكنة كانوا متحفّظين على زوجة يُوي. الرجل لم يكن يطيقهم! لا يمكن أن أكون مخطئة في هذا الشأن، وأنت قرأت رسالته. ولكن لماذا أنقذنا من هذه المذبحة؟».

فَكَرَّ بُولُ: *إنها لم تفهم الأمر إلا الآن، وبالكاد، صدمته الفكرة، إذ كان قد أدرك ما حدث بالكامل في اللحظة التي قرأ فيها الورقة المصاحبة لخاتم الدوقية التي وجداها في الحقيبة.*

كتب يُوي يقول: «لا تحاولا أن تسامحاني، لا أريد مسامحتكما، فلديَّ ما يكفي من هموم. لقد ارتكبت ما ارتكبت بلا ضغينة أو أمل في تفهم الآخرين. إنه تحدِّي البرهان * الخاص بي، اختباري الأخير. مُرفق طيِّه خاتم الدوقية الآتريديزي دليلاً على صدق ما أكتب. عندما تقرأن هذه الرسالة، سيكون الدوق ليتو ميتاً. عزاؤكما الوحيد هو أنه لم يمت وحده، بل مات معه ذلك الذي نكرهه فوق الجميع.»

لم تُخاطب الرسالة شخصاً باسمه، أو تُذيل بتوقيع، لكن لم يكن يمكن إخطاء هذا الخطُّ المؤلف: خطُّ يُوي.

بتذكُّره الرسالة، استعاد بُول ألم تلك اللحظة: كان ألماً حاداً وغريباً بدا أنه يحدث خارج يقظته العقلية الجديدة. لقد قرأ خبر موت أبيه، واستبين الصدق في الكلمات، لكنها لم تكن أكثر من مجرد معلومة أخرى يُسجلها ذهنه لاستخدامها وقت الحاجة.

فَكَرَّ بُولُ: لقد أحببت أبي، وكان واثقاً بذلك تمام الثقة.

يُفترض أن أبكيه، يُفترض أن أشعر بشيء.

لكنه لم يشعر بشيء سوى: إنها معلومة مهمّة.

مجرد معلومة مهمّة ضمن المعلومات الأخرى.

كان عقله مشغولاً طوال الوقت بالاستقراء، وبإضافة الانطباعات الحسّية، وبمعالجة البيانات.

تذكَّر بُول كلمات هاليك: «يقاتل المرء عند الضرورة، مهما كان مزاجه! المزاج يكون لأمر الماشية أو لممارسة الحب أو للعزف على الباليست، لا للقتال!».

وفكّر پول: رُبّما هذا هو بيت القصيد. سأحزن على أبي لاحقًا، عندما يسمح الوقت بذلك.

لكنه لم يشعر بأيّ لينٍ أو أناةٍ في الجمود الذي يسيطر على كيانه، بل على العكس شعر بأن وعيه الجديد ما زال في مهده، وبأنه سينمو. تغلغل الشعور بالغاية الرهيبة التي اختبرها لأول مرّة في محنته مع الأمّ الموقّرة موهيم في أوصاله، وبدأت يده اليمنى -اليد التي تتذكّر الألم- تنبض وتوخزه.

وتساءل: أهذا ما يعنيه أن يكون المرء الكويزاتس هاديراك؟ قالت جيسيكّا: «لوهلة ظننت أن حوَّاط خذلنا مجدّدًا، وأن يُوي رُبّما لم يكن طبيبًا من كلّية سوك».

قال پول: «لقد كان كما عرفناه بالضبط، بل وأكثر»، وفكّر: لِمَ تستوعب الأمور بهذا البطء؟ ثم أردف: «لو لم ينجح أيّدا هو في الوصول إلى كاينز، لكننا...».

قاطعته قائلة: «إنه ليس أملنا الوحيد».

قال: «لم يكن هذا ما أرمي إليه».

سمعت صلابة الفولاذ في صوته، ونبرته الحازمة، فحدّقت إليه عبر الظلام الرمادي في خيمة التقطير. بدا پول كصورة ظلّية على خلفية الصخور الفضيّة العاكسة لضياء القمر التي تراها عبر الجزء الشفّاف من الخيمة.

قالت: «لا بُدَّ أن آخرين من رجال أبيك قد هربوا. علينا أن نعيد تجميعهم، وإيجاد...».

قاطعتها قائلاً: «سنعتمد على أنفسنا. الأولوية الآن هي الوصول إلى أسلحتنا الذريّة قبل أن يعثر عليها الهراكنة».

قالت: «من المستبعد العثور عليها بعد الطريقة التي أخفيت بها».

- «لا يجب ترك الأمر للمصادفة».

فكرت جيسिका: إنه يفكر في التهديد بتدمير الكوكب بما يحويه من أسلحة باستخدام أسلحتنا الذرية. لكنه سيعيش حياته هارباً إن فعل ذلك، لا يأمل إلا الإبقاء على هويته المنشقة مخفية.

جذبت كلمات أمه طرف خيط أفكار جديد في عقل پول، وانتابه شعور جسيم بالمسؤولية جدير بدوق تجاه الرجال الذين قتلوا الليلة. فكر پول: الناس هم عماد أي عائلة نبيلة، ثم تذكر كلمات حواط: «ما الحزن إلا في فراق الأصدقاء، أما الأماكن فمجرد أماكن».

قالت جيسिका: «إنهم يستمعون بالساردوكار. علينا الانتظار إلى أن ينسحب الساردوكار».

قال پول: «يظنون أننا محاصران بين الصحراء من جهة والساردوكار من جهة. إنهم يعتزمون عدم نجاة أحد من آل أتريديز: هذه إبادة تامة. لا تعولي على هروب أي من رجالنا».

- «لا يمكنهم الاستمرار في حملتهم إلى الأبد مخاطرهم بفضح نورط الإمبراطور».

- «أحقاً؟».

- «لا شك في أن بعض رجالنا سيهربون».

- «أحقاً؟».

أشاحت جيسिका بوجهها وقد اعترأها خوف من القوة المريرة البادية في صوت ابنها، وميّزت فيها تقيمه الصارم لكل

الاحتمالات. شعرت بأن عقله وثب وثبة تجاوز بها عقلها، وأنه صار يرى أبعد منها في بعض النواحي. لقد ساعدت في إذكاء نيران هذا العقل، لكنه الآن يخيفها. حصرت جيسكا تفكيرها في الملاذ الآمن الضائع الذي كانت تجده في الدوق، فحرقت الدموع عينيها.

وفكرت: على هذا جُبلت الدنيا يا ليتو: يوم حب ويوم كرب. ثم أراحت يدها على بطنها، وركزت تفكيرها على الجنين الكائن فيها. أحمل في أحشائي الابنة الآتريديزية التي أُمِرتُ بإنجابها، لكن الأم الموقرة كانت مخطئة: لم تكن الابنة لتتقذ حبيبي ليتو. هذه الطفلة مجرد روح تمُدُّ يداً إلى المستقبل في خضم المنون. لقد حملت بها بدافع الفريزة وليس من باب الطاعة.

قال بول: «جربني الاتصال بالشبكة ثانياً».

فكرت: عقله لا ينفك عن العمل بغض النظر عن محاولاتنا لكبح جماحه.

أمسكت جيسكا جهاز الاستقبال الصغير الذي تركه آيداهو لهما، وأدارت مفتاحه. أنار ضوء أخضر على واجهة الجهاز، وانبعث تشويش استاتيكي من السماعة. خفضت الصوت، وأدارت المؤشّر بحثاً عن الترددات. علا صوتٌ يتحدث بلغة المعمار الآتريديزية في الخيمة.

- «... تراجعوا وأعيدوا تنظيم الصفوف عند السفح. أفاد فيدور بعدم وجود ناجين في قرطاج وبأن بنك النقابة نُهب». فكرت جيسكا: قرطاج! إنها أحد معاقل الهراكنة.

قال الصوت: «إنهم من الساردوكار. انتبهوا لجنود الساردوكار المتكرّين في الزي الآتريديزي. إنهم....».

ارتفعت ضجيج صاخب من السَّماعة، ثم ساد الصَّمَت.

قال بول: «جَرِّي التردُّدات الأخرى».

سألته جيسيكَا: «هل تدرك معنى هذا؟».

- «توقَّعت الأمر. يريدون أن تلوِّمنا نقابة الفضاء على تدمير
بنكهم، وإذا انقلبت النقابة ضدَّنا، نكون قد حُوصِرنا على أَرَاكس.
جَرِّي التردُّدات الأخرى».

تأمَّلت كلماته: توقَّعت الأمر. ماذا أصابه يا تُرى؟ ببطء، عادت
جيسيكَا إلى الجهاز وراحت تحرِّك مؤشر التردُّدات فالتقطا
شذراتٍ من أحداث العنف الجارية من الأصوات القليلة التي
تصرخ بلغة المعارك الآتريديزية. «... تراجعوا...»، «... حاولوا
إعادة تنظيم الصفوف عند...»، «... محاصرون في الكهف...».
لم يكن من الصعب تمييز نبذة الابتهاج بالنصر في رطانة
الهاكنة المتدفِّقة من التردُّدات الأخرى: أوامر صارمة محدَّدة،
وتقارير عن المعارك. لم تسمع جيسيكَا ما يكفي لتحليل اللغة
وفك شيفرتها، لكن النبذة كانت واضحة كضوء الشمس.
الهاكنة انتصروا.

أمسك بول الحقيبة الملقاة إلى جواره وهزَّها، فسمع قرقرة
الماء في جرَّتي الماء اللتريتين. أخذ نفسًا عميقًا، ونظر عبر
الجزء الشفَّاف من الخيمة إلى الجرف الصخري الجاثم أمام
خلفية النجوم. تحسَّست يده السُّرَّة العاصرة المشدودة التي تغلق
المدخل وقال: «أوشك الفجر على البزوغ. بإمكاننا انتظار أيِّداهو
طوال النهار، ولكن ليس لليلة أخرى. في الصَّحراء، يجب أن
يسافر المرء ليلاً، وأن يستريح في الظل خلال النهار».

تذكَّرت جيسيكَا ما اكتسبته من المعرفة المتناقلة هنا: من دون
بدلة التقطير، يحتاج الشخص الجالس في الظل في الصَّحراء

إلى خمسة لترات من الماء يوميًا ليمارس حياته الطبيعية . شعرت بلمس جلد البذلة الناعم على جسدها، وفكرت في حقيقة اعتماد حياتيهما على هذه الملابس.

قالت: «لو تركنا هذا المكان، لن يجدنا أيدهو أبدًا».

قال: «ثمة أساليب تعذيب قادرة على جعل أي رجل يتحدث. إن لم يعد أيدهو بحلول الفجر، علينا أن نأخذ في حسابنا احتمال وقوعه في الأسر. إلى متى سيصمد في رأيك؟».

لم يحتج السؤال إلى جواب، لذا التزمت الصمت.

فكّ بول حزام الحقيقة، وأخرج منها دليلًا صغيرًا مرفق به علامة تبويب مضيئة وعدسة مكبرة. وعلى صفحاته، تألفت كلمات خضراء وبرتقالية مضيئة: «الجراث التريّة، خيمة التقطير، أقراص الطاقة، أنابيب القسطرة، منشاق الرمال، المناظير، حقيبة لوازم خيمة التقطير، مسدّس باراداي، خارطة التضاريس، سدّادات المرشحات، البوصلة الباراوية، خطاطيف الصّانعة، المطارق، عُدة الفرمن، عمود النار...».

أشياء كثيرة يتطلّبها البقاء على قيد الحياة في الصّحراء.

ثم وضع الدليل جانبًا على أرضية الخيمة.

سألته جيسيكا: «إلى أين سنذهب؟».

قال بول: «تحدّث أبي عن قوّة الصّحراء، التي من دونها لن يستطيع الهراكنة فرض سيطرتهم على الكوكب. إنهم لم يحكموا هذا الكوكب في السابق، ولن يحكموه أبدًا، حتّى لو استعانوا بعشرة آلاف فيلق من السّاردوكار».

- «بول، أنت لا تظن أن....».

قاطعها قائلاً: «الأدلة بين أيدينا هنا في هذه الخيمة. الحقيقة ومحتوياتها، بذلات التقطير، بل والخيمة نفسها. نعلم أن النقابة تطلب سعرًا باهظًا مقابل أقمار التحكم في الطقس، نعلم أن...». قاطعته سائلة: «ما علاقة أقمار التحكم في الطقس بالأمر؟ لا يمكنهم أن...»، ثم بترت عبارتها.

شعر پول بفراط نشاط عقله وهو يقرأ ردّة فعلها، ويحسب أدق تفاصيلها، ثم قال: «الآن فهمت. الأقمار الصناعية تراقب تضاريس الكوكب، وفي أعماق الصحراء يعيش من لا يتحمل المراقبة المستمرة».

- «هل تقصد أن النقابة نفسها تتحكم في هذا الكوكب؟»
كان فهمها بطيئًا جدًا.

قال: «كلّا! بل الضمير! إنهم يدفعون الرشى للنقابة مقابل الحفاظ على خصوصيتهم، ويدفعون تلك الرشى بعملة الاسبايس المتاحة مجانًا لأي شخص يمتلك قوّة الصحراء. هذا ليس مجرد تخمين ثانوي، بل عملية حسابية قاطعة. يمكنك الاعتماد على ما أقول».

قالت جيسيكّا: «لم تصبح منّا بعد يا پول، لا يمكنك الجزم أن...».

قاطعها قائلاً: «ولن أصبح منّا أبدًا. أنا شيء مختلف... أنا مسخ».

- «پول! كيف تجرؤ على قول مثل...».

قاطعها صائحًا: «دعيني وشأني!».

ثم أشاح بوجهه بعيدًا، محملقًا في الليل الفضّي الأديم في الخارج.

وسأل نفسه: لِمَ يجافيني الحزن هكذا؟ كان يشعر بأن كل خلية في جسده تتوق إلى راحة البُكاء، لكنه عرف أنه حُرِمَ منه إلى الأبد.

لم تسمع جيسيكا مثل هذا الضيق في صوت ابنها من قبل. أرادت أن تريّت على كتفه وتطوّقه بذراعيها، أن تهوّن عليه وتقدّم إليه يد المساعدة، لكنها شعرت بأنها لا تملك من أمره شيئاً، وأن هذه مسألة عليه أن يحلها بنفسه.

لفتت انتباهها علامة التبويب المضيئة في دليل الفرمن الملقى على أرضية الخيمة بينهما، فالتقطته، وألقت نظرة إلى غلافه، وبدأت تقرأ: «دليل الصّحراء الرحبة، الأرض المملأى بأشكال الحياة. هنا آيات* وبراهين* الحياة. آمن بها ولن تحرقك اللات أبداً». فكّرت جيسيكا وهي تسترجع دراساتها القديمة عن «الأسرار العظيمة»: يبدو أشبه بكتاب الأزهر*. تُرى، هل زارت واحدة من البني جيسيرت المتلاعبات بالمعتقدات كوكب أراكس في الماضي؟

أخرج پول البوصلة الباراوية من الحقيبة، ثم أعادها وقال: «تأملّي كل هذه الآلات الفرمنية ذات الاستعمالات الخاصّة. كلها تدلّ على مستوى من التطوُّر لا نظير له، لا يسعك معه سوى الاعتراف بأن الحضارة التي صنعتها لها جذور عميقة لم تكن في حسابان أحد».

بتردّد، وباستمرار قلقها من نبيرة القسوة في صوته، عادت جيسيكا تتصفّح الكتاب، وتأمّلت رسمة تُظهر إحدى الكوكبات النجمية البادية في سماء أراكس: كوكبة «الفأر المؤدّب»، ولاحظت كيف أن الذيل يشير إلى الشمال.

عبر ظلام الخيمة، رصد پول حركات أمّه في الضوء الخافت المنبعث من علامة التبويب المضيئة، وفكّر: حان وقت تنفيذ رغبة أبي. يجدر بي إبلاغها برسالته الآن وهي تملك الوقت للحداد، فالحزن سيكون أمامنا عقبة لاحقًا. قال پول: «أمّي».

- «نعم».

سمعت التغيّر في نبرة صوته، وتقلّصت أحشاؤها من نبرته الجديدة. لم يسبق لها أن سمعت مثل هذا الجمود القاسي. قال لها: «لقد مات أبي».

فتشت في نفسها عن مهارة الربط بين الحقائق (على طريقة البني جيسيرت في تقييم البيانات)، ثم هبط عليها بفتة شعورٍ مريع بالفقد.

هزّت جيسيكاً رأسها، عاجزة عن الكلام.

قال پول: «كلّفتني أبي أن أبلغك برسالة في حال أصابه أيُّ مكروه. كان يخشى أن تصدّقني أنه لم يكن يثق بك». فكّرت: تلك الشبهة الباطلة التي أحاطت بي.

- «أرادك أن تعرفني أنه لم يشك فيك قط»، قالها پول ثم أضاف شارحاً ما كان من خداع: «أرادك أن تعرفني أنه لطالما وثق بك تمام الثقة، وأنه لطالما أحبّك وتعلّق بك. قال إنه قد يشك في نفسه قبل أن يشك فيك، وأنه لم يندم إلّا على أنه لم يتزوّج بك، ولم يجعلك دوقته بصفة رسمية».

مسحت جيسيكاً الدموع التي سالت على وجنتيها، وفكّرت: يا له من إهدار سفيه لماء الجسد! لكنها علمت أن ما هذه الخاطرة إلّا محاولة للتملّص من براثن المرارة باستدعاء الغضب. وفكّرت:

آه يا ليتو، آه يا حبيبي ليتو. يا للأشياء المريعة التي نرتكبها
في حق من نحب! ثم بحركة عنيفة، أطفأت ضوء علامة تبويب
الدليل الصغيرة.

وراح جسدها يرتجف من البكاء.
سمع پول نشيج أمّه وتألّمها، وشعر بالفراغ الهائل في صدره.
لِمَ لا أبكي؟ لِمَ؟

رأى پول في عجزه عن البكاء عيباً فظيماً فيه.
فكّرت جيسيكا مذكرة نفسها بكلمات الإنجيل الكاثوليكي
البرتقالي: «للكسب وقت ولل فقد وقت. للوصول وقت ولل قطف وقت.
للحرب وقت ولل سلم وقت».

واصل عقل پول اتّقاده المحموم المجرّد من المشاعر. رأى
پول السبل المتشعبة أمامهم على هذا الكوكب المُعادي، ودون
أن يأخذ في اعتباره أن ما يراه ربّما يكون محض أحلام يقظة،
ركّز وعيه المستبصر الجديد، وأدرك أن الرؤى التي تراوده هي
إحاطة مسبقة بالاحتمالات المستقبلية الأكثر ترجيحاً، لكن مع
شيء إضافي، شيء يكتنفه غموض: كأن عقله انغمس في نهر
الزمن، وراح يجمع نفحات من رياح المستقبل.

ثم بفتة، كما لو أنه وجد مفتاحاً ضرورياً، ارتقى پول إلى
مستوى أعلى من الوعي، وشعر بنفسه يتشبّث بهذا المستوى
الجديد، متمسكاً بحافّة متداعية يختلس منها النظر. بدا الأمر
كما لو أنه داخل كرة تتشعب منها الطرق في الاتجاهات شتى،
ولكن هذا لم يكن إلّا تشبيهاً لتقريب شعوره إلى الأذهان.

تذكّر پول أنه رأى ذات يوم منديلاً يتمايل بلا هدي في مهبّ
الريح، والآن شعر بالمستقبل كأنه مسار يلتوي على سطح ما

متموِّج وغير ثابت، كذلك المنديل الذي كانت الريح تتلاعب به.
رأى بشرًا بأعدادٍ غفيرة.

وشعر ببرودة وحرارة الاحتمالات غير المحسوبة تجمّده وتلفحه.
عرّف أسماء وأماكن، واختبر مشاعر لا حصر لها، وراجع
بيانات من شقوق مظلمة مجهولة إن تُعد لا تُحصى. كان أمامه
مُتَّسِعٌ من الوقت للاستكشاف وللاختبار وللتذوّق، ولكن لم يكن
أمامه مُتَّسِعٌ لتشكيل الدرب.

كان عالقًا في خضم طيف واسع من الاحتمالات: من الماضي
السحيق الموغل في القدم إلى المستقبل البعيد المترامي
الأطراف، من أكثر الأمور احتمالًا إلى أقلّها احتمالًا. شاهد موته
بأساليب لا حصر لها، ورأى كواكب جديدة، وحضارات جديدة.

وبشرًا!

بشرًا!

رأهم بحشودٍ غفيرة كمداد البحر، ومع ذلك صنّفهم عقله
وسجّلهم في لوح محفوظ.

لم يستثن منهم أحدًا، ولا حتّى ملاحى النقابة.

وفكّر: النقابة قد تكون فرصة لنا. سيتقبّلون غرابتي
وسينظرون إليها على أنها أمرٌ مألوف وذو قيمة عالية، وبذلك
سأضمن إمدادًا مضمونًا لا ينقطع من الاسپايس، الذي صار
ضروريًا لي الآن.

أفزعته فكرة أن يتحوّر ليصير ملاحًا نقابيًا، ويقضي عمره
في إرشاد سُفن الفضاء بعقله، متلمّسًا الطريق بين احتمالات
المستقبل. على أيّ حال، ليس هذا إلّا دربًا واحدًا من دروب كثيرة
متاحة. لكنه حين رأى هذا المستقبل المحتمل الذي يصير فيه

أحد ملاحِي النقابة، أدرك پول غرابته الخاصة.

بصيرتِي مختلفة عن بصيرة ملاحِي النقابة. إنني أبصر
أراضي أخرى لا يبصرونها: إنني أرى المسارات المتاحة.
بُثت فيه الفكرة الطمأنينة والانزعاج على حدٍّ سواء، فأماكن
كثيرة في تلك الأراضي الأخرى تفوص أو تلتوي بعيداً عن نظره.
تلاشى الإحساس سريعاً كما جاء، وأدرك أن التجربة برمتها
لم تستغرق أكثر من نبضة قلب واحدة.

ومع ذلك كانت كفيلة بقلب وعيه، وتركه متقدماً بطريقة مرعبة.
حدّق پول إلى ما حوله. ما زال الليل يسربل الخيمة في مخبئها
وسط الصخور. ما زال بكاء أمّه مسموعاً. ما زال افتقاره إلى
الحزن ملموساً. ما زال ذلك الجزء الغائر المنفصل من عقله
يواصل عمله بوتيرة ثابتة: يحلّل البيانات، ويحسبها، وقيّمها،
ويسلمه الأجوبة كما يفعل عقل المِنتات.

علم أنه صار يملك ثروة من البيانات لم تتح إلا لحفنة من
العقول من قبل، لكن هذه المعرفة الجديدة لم تجعل الخواء الذي
يسكن روحه أقل احتمالاً. شعر بأن شيئاً فيه سيتحطّم لا محالة،
كأن آلية عمل قنبلة موقوتة بدأت تتكتك بداخله، مواصلة عملها
دون مراعاة أو اعتبار لرغبته، تسجّل كل اختلاف، وكل شاردة
وواردة من حوله: التغيّر الطفيف في الرطوبة، الانخفاض الجزئي
في درجة الحرارة، حركة حشرة على سقف خيمة التقطير، انبلاج
الفجر عبر رقعة السماء الموشية بالنجوم التي يراها عبر الجزء
الشفّاف من خيمة التقطير.

كان الخواء لا يُحتمل، ولم يُحدث علمه ببدء العد التنازلي
بداخله فارقاً يُذكر. استطاع أن ينظر إلى ماضيه ويشهد بداياته:

التدريب الذي تلقَّاه، وشحذ مواهبه، وضغوط دراسة فروع المعرفة المعقَّدة، بل وحتى اطلاعه على الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي في مرحلة حرجة من حياته. وفوق كل هذا، كمّية الاسبايس الهائلة التي تعرّض لها. كما استطاع أن يتطلّع إلى المستقبل -وهو الاتجاه الأكثر ترويعاً- ويرى إلى أين سيقود كل هذا.

فكّر پول: أنا وحش! أنا مسخ!

ثم راح يكرّر: «لا لا لا لا لا».

واكتشف أنه يضرب أرضية الخيمة بقبضتيه (سجّل الجزء العنيد فيه هذا السلوك باعتباره مُدخلًا عاطفيًا مثيرًا للاهتمام، وضمّمه إلى تحليله).

كانت أمّه إلى جواره، فأمسكت يديه محدّقةً إليه بوجهٍ رماديّ شاحب: «پول، ما بك؟».

صاح: «أنت!».

قالت: «أنا هنا يا پول. هوّن عليك».

سألها: «ماذا فعلتِ بي؟».

فجأة انقشعت الفشاوة، وفهمت بوضوح المعنى العميق المضمّر في سؤاله، فقالت: «أنجبتك».

أدركت بغريزتها وبحصيلتها المعرفية أن هذه هي الإجابة المثلى التي ستفلح في تهدئته. شعر پول بيديها تضمّان يديه، وركّز على ملامح وجهها المعتمة (وبعقله المتّقد الذي لا يهدأ، رأى تفاصيل معيّنة في بنية وجهها بطريقة جديدة، وأضافها إلى المعلومات الأخرى، وتوصّل إلى نتيجة نهائية).

قال لها: «أهلتيني».

سمعت صلابة الحديد في صوته، فأطاعته: «هل ستخبرني بما بك يا پول؟».

سألها: «هل كنت تعلمين بما سأتحول إليه عندما درّبتني؟».

فكّرت جيسिका: لم يعد في صوته أثر طفولة، ثم قالت: «تمنّيت ما تتمناه أيُّ أم، تمنّيت أن تكون... متفوّقا، مختلفا».

- «مختلفا؟».

سمعت ما في صوته من مرارة، فقالت: «بول، أنا...».

قاطعها قائلاً: «لم تريدي ابناً بل أردت الكوزاتس هاديراك».

أردت إنجاب طفل ذكر للبني جيسيرت».

نفرت من مرير كلامه، وقالت: «ولكن يا بول...».

- «هل استشرت أبي في هذا الأمر؟».

قالت جيسिका برقة نابعة من جدّة حزنها: «أيّما كانت ماهيتك يا بول، فقد ورثت من أبيك قدر ما ورثته مني».

قال: «لكنني لم أرث منه التدريب الذي تلقّيته، ولا الأشياء التي.. أيقظت.. النائم؟».

- «النائم؟».

أشار إلى رأسه وقال: «إنه هنا»، ثم إلى صدره: «وهنا. إنه لا يهدأ ولا يتوقّف، لا يكل ولا يمل، لا يكل ولا...».

صرخت فيه: «بول!».

بعد أن سمعت الهستيريا في صوته.

قال لها: «أصغي إليّ، لقد أردت مني أن أحكي للأُم الموقرة عن أحلامي، الآن أنصتي أنتِ بالنيابة عنها. لقد رأيت حلم يقظة لتوي، أتعرفين السبب؟».

قالت: «هدئي من روعك، إن كان هناك...».

- «الاسپايس هو السبب. إنه في كل شيء هنا: في الهواء، وفي التربة، وفي الطعام... الاسپايس المُعمّر. إنه أشبه بالعقار الذي تتعاطاه عرّافات الحقيقة. إنه سُمّ زعاف!».

تصلبت جيسيكا في جلستها.

خفض پول صوته وكرّر: «إنه سُمَّ غير ملحوظ، شديد الخُبث، لا شفاء منه. إنه لن يقتلك ما لم تتوقَّفي عن تناوله. لا يمكننا الرحيل عن أراكس إلا لو أخذنا قطعة من أراكس معنا».

كان لصوته «حضور» مرعب لم يسمح بأيِّ جدالٍ معه.

قال پول: «أنا نتاجك أنتِ والاسپايس. الاسپايس يغيّر أيَّ شخصٍ يتعرّض لكميَّات كبيرة منه كهذه، ولكن بفضلك أنتِ، استطعت أنا إخراج هذا التغيير إلى نطاق وعي. لم يكن بإمكانني تركه في غياهب اللا وعي حيث أستطيع تجاهله وتناسي وسوسته، فأنا أراه رُؤى العين».

- «پول، أنت...».

كرّر پول مقاطعاً: «أقول لك أراه!».

سمعت جيسيكا نبرة الجنون في صوته، ولم تعرف كيف تتصرّف. لكنه تحدّث مجدّداً، وسمعت في صوته عودة تحكمه الحديدي في نفسه: «نحن عالقان هنا».

وافقته الرأي: نحن عالقان هنا.

وتقبّلت الحقيقة البادية في كلماته. لن ينجح شيء في تحريرهما بالكامل من قبضة أراكس: لا خدعة ولا حيلة ولا إلحاح من البني جيسيرت. الاسپايس مادةٌ تسبّب الإدمان الشديد، لقد علم جسدها هذه الحقيقة قبل أن يعيها عقلها بوقتٍ طويل.

فكرت جيسيكا: سنعيش ونموت هنا إذاً، على هذا الكوكب الجحيمي. المكان مهياً لنا، فقط إذا استطعنا تجنّب الهراكنة. ولن يشك أحدٌ في مسعاي: فلستُ إلا حاضنة تحافظ على سلالة مهمة لخطّة البني جيسيرت.

قال پول: «يجب أن أخبرك عن حلم اليقظة»، (كان صوته يكتسي بالغضب الآن): «وللتأكد من أنك تصدّقين ما أقول، سأقول لك في البداية أنني أعلم أنك ستنجبين ابنة، أختي، هنا على أراكس».

وضعت جيسيكاً يديها على أرض الخيمة، وتراجعت إلى الخلف لاصقةً ظهرها بنسيجها المنحني لمحاولة إلانة قبضة خوفٍ اعتصرت قلبها. كانت متأكدة من أن حملها لم يظهر عليها بعد، وأن تدريب البني جيسيرت وحده هو الذي سمح لها بقراءة إشارات جسدها الأولية الخافتة، ومكّنها من معرفة أمر الجنين الذي لم تزد سنّه على بضعة أسابيع.

همست جيسيكاً معتصمةً بشعار البني جيسيرت: «فقط لنخدم، ما وجدنا في الحياة إلا لنخدم».

قال پول: «سيكون لنا موطن بين الفرمن، حيث أعدت مبشّراتكم الحاميات ملاذًا آمنًا لنا».

قالت جيسيكاً لنفسها: لقد مهّدت طريقًا لنا في الصّحراء، لكن أنى له أن يعرف بأمر المبشّرات الحاميات؟

وجدت صعوبة متزايدة في قمع رعبها من الغرابة التي تستحوذ على پول.

تأمل پول ظلّها الداكن، ورأى بوعيه الجديد خوفها وكل ردود أفعالها كأن ضوءًا ساطعًا مسلطًا عليها، وبدأ يطفئ عليه شعورًا بالشفقة تجاهها والتعاطف معها.

ثم قال: «أعجز عن وصف الأمور التي يمكن أن تحدث هنا لك، بل أعجز حتّى عن وصفها لنفسي، على الرغم من أنني رأيتهَا. يبدو أنني لا أملك سيطرةً على قدرة تبصّر المستقبل هذه. إنها تحدث من تلقاء نفسها. أستطيع رؤية المستقبل القريب

-الذي يبعد نحو السنة- كأنه طريقٌ واسع، كأنه الجادة الوسطى على كладان. بعض الأماكن لا أراها.. أماكن مظلمة.. كأنها تتواري خلف تلة»، (ومن جديد تذكر المنديل المتطاير في مهبّ الريح)، «... وتوجد تفرعات...».

ثم سكت عن الكلام عندما ملأته ذكرى تلك الرؤية. لا حلم متبصر ولا خبرة حياته هيأته للحظة الوعي الشامل تلك التي تمرّقت فيها الحُجب والأستار كاشفة عن الزّمن المجرّد خلفها. بتذكره التجربة، أقرّ پول بغايته الرهيبة: الضغوط التي ستفرضها حياته ستمتدّد كأنها فقاعة منتفخة، وسيتراجع الزمن أمامها.

وجدت جيسيكاً زرّاً التحكّم في إضاءة الخيمة، وضغطته. بددت الإضاءة الخضراء الخافتة ظلام الخيمة، وبددت معها مخاوفها. نظرت جيسيكاً إلى وجه پول، وإلى عينيه، ولاحظت نظرتيها الداخلية التي تفتّش في أعماقه، ثم أدركت أين رأت مثل هذه النظرة من قبل: رأتها في الصور التي تؤثّق الكوارث، في وجوه الأطفال الذين عاصروا المجاعات أو تعرّضوا لإصابات بالغة. كانت عيناه حُفرتين بلا قرار، أمّا فمه فمزموم في خطّ مستقيم، ووجنتاه ممتعتان.

وفكّرت: إنها نظرة من سمع النّبأ الرهيب، نظرة شخصٍ أُجبر على معرفة ميعاد موته.

إنه بالفعل لم يعد طفلاً.

بدأ مغزى كلماته يسيطر على ذهنها، دافعاً كل الأفكار الأخرى. پول قادر على أن يرى طريقاً للهرب.

سألته: «توجد طريقة للهروب من الهراكنة، أليس كذلك؟».

ردّد ساخراً: «الهراكنة! انسي أمر هؤلاء البشر المنحرفين». ثم حملق إلى أمّه متأملاً خطوط وجهها في الضوء الأخضر. كانت تفضح انفعالها

قالت: «يجب ألا تُسمّي الناس بشراً بلا...».

قال: «لا تثقي تماماً بقدرتك على رسم الحد الفاصل بين الاثنين. نحن نحمل تاريخنا معنا. ويا أمّاه، ثمة أمر لا تعرفينه ويجدر بك معرفته: نحن من نسل الهراكنة».

فعل عقلها شيئاً مربعاً: أظلم تماماً كما لو كان بحاجة إلى إغلاق كل حواسها. لكن صوت پول استمر بتلك الوتيرة العنيفة، صاحباً إيّاها معه.

- «عندما تجدين مرآة لاحقاً، تأملي وجهك.. ولم الانتظار؟ تأملي وجهي الآن. الآثار واضحة ما لم تتعامي عنها. انظري إلى عظام يديّ. وإن لم يقنعك أيّ من هذا، ثقي بكلامي. لقد سرت في دروب المستقبل، وألقيت نظرة إلى السجّلات، وجُبت أماكن كثيرة، ولديّ كل المعلومات. نحن من نسل الهراكنة».

قالت متلعثمة: «قد... ربّما نكون من فرع منشق من العائلة. هذا كل شيء، أليس كذلك؟ قرابة بعيدة حدث أن...».

قاطعها قائلاً: «أنت ابنة البارون ذاته»، وراقبها وهي ترفع يديها إلى فمها جازعاً، ثم أردف: «تذوّق البارون من المتع الكثير في شبابه، وسمح لنفسه ذات مرّة أن يقع في حبال الغواية. لكن المرأة التي أغوته فعلت ذلك لخدمة مشروع البني جيسيرت الجيني، كانت واحدة منكن».

صفعتها الطريقة التي لفظ بها كلمة «منكن»، لكنها حثّت عقلها على التفكير، ولم تستطع إنكار كلماته. خيوط كثيرة فارغة

المعنى في ماضيها تضافرت الآن وترابطت. الابنة التي أرادتها طائفة البني جيسيرت لم يكن الفرض منها إنهاء الصراع القديم بين آل آترديدز وآل هاركونن، وإنما لزرع عامل وراثي معين في سلالتيهما.

لكن أي عامل وراثي؟ حاولت إيجاد إجابة.

وكما لو كان يقرأ عقلها، قال پول: «ظننَّ أنهم يمهدن لقدومي، لكنني لست كما توقَّعن، وقد جئت قبل أواني. وهنَّ لا يعرفن ذلك». غطت جيسيكاً فمها بيديها.

بحقَّ الأمِّ العظيمة! إنه الكويزاتس هاديراك حقاً!

شعرت بأنها عارية أمامه، وأدركت بعدها أنه يراها بعينين لا يخفى عنهما إلا القليل، وعرفت أن هذا هو مصدر خوفها منه. قال: «تفكرين في أنني الكويزاتس هاديراك. انسي هذا الكلام، فأنا شيء آخر غير متوقَّع».

فكَّرت جيسيكاً: يجب أن أرسل الخبر إلى إحدى المدارس، فقد يُظهر سجل النكاح حقيقة ما حدث، وكيف حدث.

قال لها: «لن يعرفوا بأمرى إلا بعد فوات الأوان».

حاولت تشتيت انتباهه، فخفضت يديها وقالت: «هل سنجد لنا مأوى بين الفرمن؟».

قال پول: «عند الفرمن مقولة ينسبونها إلى شَيِّ هولود، شبيخة الخلود، تقول: كن مستعداً لتقدير ما تلتقيه».

ثم فكَّر: أجل يا أمَّاه، بين الفرمن سيكون مأواكِ. سيكون لكِ عينين زرقاوين، وستتموَّجسأة إلى جوار أنفك الجميل من جراء استخدام أنبوب الترشيح الموصول ببذلة التقطير، وستلدين أختي: القديسة عالية حاملة السكين.

قالت جيسىكا: «إن لم تكن الكويزاتس هاديراك، فماذا...». قاطعها قائلاً: «لن تفهمي أبداً. لن تؤمني حتى ترين الأمر جهرة». وفكر: أنا بذرة.

وأدرك فجأة مدى خصوبة الأرض التي سقط فيها، ومع هذا الإدراك ملأت كيانه الغاية الرهيبة، زاحفة إلى الخواء القابع بداخله، مهددة بأن تخنقه بالعبرات.

لقد رأى تفرعين رئيسيين في مسار المستقبل الممتد أمامه: في أحدهما واجه باروناً عجوزاً شريراً وقال له: «مرحباً يا جدّي»، لكن التفكير في هذا المسار وما يقبع فيه أصابه بالسقم.

أمّا المسار الآخر فكان ضبابياً غامضاً، لا يظهر منه إلا قممًا من العنف. رأى في هذا المسار حرباً دينية، ونازاً تمتد عبر الكون، وراية آل آترديدز الخضراء تخفق فوق جحافل من المتعصّبين المنتشرين بخمر الاسپايس. رأى بين الحشود حفنة قليلة من رجال أبيه، منهم جبرني هاليك، كلهم يحملون شعار الصقر المنقوش على الضريح الذي يضم رفات جمجمة والده. غمغم پول: «لن أمشي في هذا الطريق، فهذا ما تريده ساحرات مدارسكن العجائز».

قالت أمّه: «أنا لا أفهمك يا پول».

التزم پول الصمت، وراح يفكر كالبذرة التي هي حقيقته، يفكر مستخدماً الوعي الجمعي للجنس البشري الذي عرفه في البداية باسم الغاية الرهيبة، ووجد أنه لم يعد قادراً على كره البني جيسيرت ولا الإمبراطور ولا حتى الهراكنة، فكلّ منهم يجري مدفوعاً بغريزة الجنس البشري لتجديد ما ضُفّ وتبعثر من صفاته الوراثية، إلى تهجين وخلط وحقن دمائه القديمة في آبار

جينييه جديدة. ولكن الجنس البشري لا يعرف سوى طريقة واحدة مؤكدة للنجاح في هذا المسمى: الطريقة القديمة، الطريقة المجرّبة والأكيدة التي تهلك كل شيء في طريقها: الجهاد* .

فكرّ پول: قطعاً لن أقدم على هذا الطريق.

لكنه رأى بعين عقله مجدداً ضريح جمجمة والده، والمعترك العنيف الذي تخفق فوقه الراية الخضراء والسوداء.

تحنّحت جيسيكا وقد شعرت بالقلق من صمته.

- «إذا... سيوفّر لنا الفرص ملاذاً آمناً؟».

رفع پول عينيه، محدّقاً عبر الخيمة الفارقة في ضوء أخضر إلى خطوط وجهها النبيل الأرستقراطي، وأوماً قائلاً: «أجل، هذا أحد المسارات. أجل، سيلقّبونني... المؤدّب، الذي يهدي السبيل». أجل.. هذا ما سينعتونني به».

ثم أغلق عينيه مفكراً: الآن يا أبي بإمكانني الحزن عليك.

وبدأت الدموع تنهمر على وجنتيه.

الكتاب الثاني
المؤدَّب

عندما سمع أبي، الإمبراطور الهادي شاه، خبر وفاة الدوق ليتو، وكيف لقي حتفه، انتابته نوبة غضب عارم لم يسبق لنا أن شهدنا مثلها. لام أمي، ولام الاتفاق اللعين الذي أرغمه على وضع امرأة من البني جيسيرت على العرش إلى جواره. لام النقابة والبارون المعجوز الشرير. لام كل من صادفه، بمن فيهم أنا، وقال إنني ساحرة مثل الأخريات. وعندما حاولت مواساته بقول إن ما حدث قد تم وفقاً لغريزة البقاء القديمة وقانون حماية النفس الذي أطاعه أقدم وأقوى الحكام، سخر مني وسألني إن كنت أراه طرطوراً. عندها فهمت أن كل هذا الغضب اعتراه لم يكن بسبب اهتمامه بمصير الدوق الميت، وإنما بسبب ما تغنيه هذه الوفاة لجميع أفراد العائلة المالكة. عندما أعود بذاكرتي إلى الماضي، يخيل لي أن أبي أيضاً ربّما كان يتمتع ببعض القدرات التبصّرية، ومن المؤكد أن سلالته وسلالة المؤدّب تنحدران من سلفٍ مشترك.

من كتاب «في بيت أبي» للأميرة إيrolان.

همس پول: «الآن سيقا تل الأخ أخاه».

كان قد استيقظ من نومه قبل حلول الليل بقليل، وجلس معتدلاً في الخيمة المعتمدة المحكمة الغلق. وبينما هو يتحدث، سمع الململة الخافتة الصادرة عن أمّه النائمة قبالتة في الخيمة. ألقي پول نظرة إلى جهاز الاستشعار الموضوع على الأرض، متأملاً مؤشّر الأرقام على ضوء الأنابيب الفسفورية.

قالت أمُّه: «سيحلُّ الليل قريباً، لِمَ لا ترفعُ أَسْتار الخيمة؟».

أدرك پول عندها أن تنفُّسها لم يكن منتظماً لبعض الوقت، وأنها ظلَّت صامتة في الظلام حتى تأكَّدت من استيقاظه.

قال لها: «رفع الأستار لن يحدث فارقاً، فقد هبَّت عاصفة وغطَّت الخيمة بالرمال. ساحضر طريقاً نخرج منه بعد قليل».

- «لا أثر لدانكن بعد؟».

- «بلى».

تحسَّس پول خاتم الدوقية الذي يضعه في إبهامه بشروء، وارتجف جسده بغضبٍ مفاجئ من هذا الكوكب الذي ساعد في قتل والده.

قالت چيسिका: «سمعت بداية هبوب العاصفة».

ساعدته كلماتها المتساهلة على استعادة بعض من هدوئه. كان قد ركَّز انتباهه على العاصفة عندما رآها تبدأ عبر الجزء الشفَّاف من خيمة التقطير: رأى حبيبات الرمال الخشنة التي تعبر الحوض، ثم ماج الهواء بفيض منها. وقتها رفع بصره إلى قمَّة صخرٍ مستدقَّة، وراقبها وهي تُنحَت ويتغيَّر شكلها بفعل العصف العنيف، إلى أن صارت وتدّاً قصيراً بلون الجبن الشيدر. تدفَّقت الرمال إلى الحوض الذي يتواريان فيه وصبغت السماء بلون الكاري، ثم حجبت كل ضوء عندما غطَّت الخيمة.

أنَّت دعامات الخيمة وصرَّت وهي تتحمَّل الثقل الذي وُضع عليها، ثم ساد الصَّمْتُ بعدها ولم يقطعه سوى صفير منفاخ الهواء الرملي الخافت وهو يضخُّ الهواء من سطح الخيمة الخارجي إلى داخلها.

قالت چيسिका: «جرَّب جهاز الاستقبال مرَّةً أخرى».

قال: «لا فائدة».

أمسك بأنبوب المياه المعلق بمشبك عند رقبتك، وشفط جرعة ماء دافئ وهو يفكر أنه بدأ الآن الحياة الأكسجية الحقّة: الاعتماد على الماء المستعاد من تنفّسه وإفرازات جسده. كان الماء بلا مذاق أو رائحة، لكنه رطب حلقه. سمعت جيسिका يول يشرب، وأحسّت ببذلة التقطير الملتصقة بجسدها، لكنها رفضت الاعتراف بعطشها، إذ كان الاعتراف به يتطلّب إدراك ضرورات الحياة الرهيبة التي يفرضها أراكس، حيث يتعيّن عليهما الحرص الشديد على عدم فقد أدنى قدر من الرطوبة، وإدّخار القطرات الزهيدة في جيوب تجميع خيمة التقطير، والتحصّر على نفس ضاع في الهواء الطلق.

العودة إلى النوم أهون كثيرًا.

لكن هذا النوم النهاري لم يسلم من الأحلام، وقد ارتجفت لمجرّد تذكّر هذا الحلم الذي رأت فيه نفسها تضع يديها تحت رمال تتدفّق فوق اسم مكتوب على الأرض: الدوق ليتو آتريديز. كانت الرمال تمحو الاسم، فحاولت استعادته، لكن الرمال ما انفكت عن مسح الحرف الأوّل قبل أن تنهي رسم الحرف الأخير. وقد أبت الرمال أن تتوقّف.

تحوّل حلمها إلى بكاء سخيّف الصّوت ظلّ يرتفع ويرتفع، وأدرك جزء من عقلها أن الصّوت هو صوتها عندما كانت بعد طفلة صغيرة، مجرّد رضيعة. ورأت امرأة ملامحها غير واضحة في ذاكرتها ترحل مبتعدة.

فكرت جيسिका: إنها أمّي التي لم أعرف. امرأة البني جيسيرت التي أنجبني وأعطيتني للأخوية لأن هذا ما أمرت به. هل كانت

سعيدة بالتخلص من ابنة الهراكنة؟

قال پول: «الاسپايس هو نقطة ضعفهم التي يجب توجيه ضربتنا إليها»

سألت جيسيكاً نفسها: كيف يفكر في شئ هجوم في وقت كهذا؟

قالت: «الكوكب برمته مملوء بالاسپايس، كيف ستحرمهم منه؟».

سمعت حركته في المكان، وصوت الحقيبة تُجرُّ عبر أرضية الخيمة.

قال لها: «في كلادان حكمنا بالقوة البحرية والقوة الجوية، أما هنا فالقوة تكمن في الصحراء. الفرمن هم المفتاح».

كان صوته يأتي من اتجاه السُرة العاصرة التي تغلق مدخل الخيمة بإحكام.

مَيَّزَ سمع جيسيكاً المُدرب على نهج البني جيسيرت في نبرته مرارة تجاهها لم تُسوَّ بعد.

وفكرت: منذ نعومة أظافره تعلَّم أن يكره الهراكنة، والآن اكتشف أنه واحد منهم... بسببي. كم يجهل حقيقتي! لقد كنت امرأة الدوق الوحيدة، وقد اعتنقت حياته وقيمه إلى درجة عصيان أوامر طائفتي.

وجد پول مصباح الخيمة في متناول يده، فشغله ليملاً المساحة المقببة بوهج أخضر. انحنى پول إلى جوار سُرة الخيمة، وعدَّل قلنسوة الرأس استعداداً للخروج إلى الصحراء: أحكم غطاء جبينه، ووضع مرشَّح الفم وسدَّادة الأنف، فلم يظهر

من وجهه سوى عينيه الداكنتين. نظر نحوها مرة ثم استدار.
وقال: «أُمّني نفسك للخروج إلى العراء». كان صوته مكتومًا
من وراء المرشّح.

وضعت جيسيكَا المرشّح في فمها، وبدأت تضبط قلنسوتها
وهي تراقب پول الذي يفك سُرّة المدخل.
أحدث احتكاك حبيبات الرمال صريرًا وهو يفضّ السُرّة،
وسرعان ما اندفعت الرمال في عزيف خشن إلى داخل الخيمة
قبل أن يتمكّن من شلّ حركتها مستخدمًا أداة تكثيف بالضغط.
انفتحت فجوة في الجدار الرملي بفضل الجهاز الذي صلّد
حبيبات الرمال، وراحت الفجوة تتسع تدريجيًا. في النهاية انسلّ
پول خارجًا منها وتتبعته جيسيكَا بأذنيها منصته إلى وقع خطواته
على الرمال بالخارج.

وتساءلت: ماذا سنواجه في الخارج؟ إن الهراكنة والساردوکار
لخطران نتوقّع وجودهما، ولكن ماذا عن الأخطار التي نجهلها؟
فكرت جيسيكَا في أداة التكثيف والمعدّات الغريبة الأخرى
التي في الحقبة، ورأت في هذه الأدوات علامات على وجود
مخاطر غامضة. شعرت بنسيم الصّحراء الساخن يلمس الجزء
المكشوف من وجنتيها فوق المرشّح.

قال پول بصوتٍ منخفضٍ وحذر: «ناولينِي الحقبة».
تحركت لتنفيذ طلبه، وسمعت قرقرة الماء في الجرّتين
اللتريّتين وهي تجر الحقبة على الأرض. نظرت إلى أعلى، فلاح
لها وجه پول على خلفية من النجوم.
- «هنا»، قالها ومدّ يده صاحبًا الحقبة إلى الخارج.

الآن لم تعد ترى سوى دائرة من النجوم التي بدت كأنها فوّهات
أسلحة لامعة موجّهة إليها. قطع وابلٌ من الشهب البقعة التي
تراها من السماء. بدت لها الشهب كأنها تحذير، كأنها الخطوط
على جلد النمر، كأنها شواهد قبورٍ مضيئة تجمّد لها الدم في
عروقها. شعرت بثقل المكافأة المرصودة مقابل رأسيهما.

قال پول: «أسرعي، أريد طيّ الخيمة».

سقطت حفنة من الرمال من السطح على يدها اليسرى،
فسألت نفسها: كم تستطيع قبضة اليد أن تقبض من رمال؟
سألها پول: «أحتاجين إلى مساعدة؟».

- «لا».

بلعت جيسيكا ريقًا جافًا، وانزلقت عبر الحفرة شاعرة
باحتكاك الرمال المضغوطة المتصلدة بكفّيها. مدّ پول يده إليها،
وسحبها من ذراعها. وقفت إلى جواره فوق رقعة رمال ناعمة
وسط الصحراء الموشاة بالنجوم ونظرت حولها. تكاد الرمال
تملأ الحوض الذي يقفان فيه، ولم تترك سوى شريط داكن من
الصخور المحيطة. سبرت جيسيكا أغوار الظلام البعيد بحواسّها
المدرّبة جيّدًا.

أصوات حيوانات...

وطيور...

وانهيار رملي في جحرٍ غير مستقر، وضوضاء كائنات خافتة
تحيا فيه...

وصوت الخيمة التي يطويها پول ويخرجها من الحفرة.

لم يبدّد ضوء النجوم من عتمة الليل سوى ما يكفي لكي تدب
حياة مخيفة في الظلال. حملت جيسيكا في بقع الظلام من حولها.

وفكرت: الظلام ذكرى عمياء، فيه تنصت إلى مختلف الأصوات،
لعواء من طاردوا أسلافك في ماضٍ قديم جدًا لا تتذكره سوى
أكثر خلاياك بدائية. في الظلام الأذن ترى، والأنف يرى.

جاء پول ليقف إلى جوارها وقال: «أخبرني دانكن بأنه في
حال وقوعه في الأسر سيحاول الصمود أطول مدة ممكنة. يجب
أن نغادر الآن»، ثم حمل الحقيبة على ظهره، وسار إلى حافة
الحوض الضحضاحة، وتسَلَّق إلى القمة المطلَّة على الصَّحراء
المفتوحة.

تبعته جيسيكًا تلقائيًا، ولاحظت كيف صارت تدور في فلك
ابنها.

وفكرت: حزني أثقل من رمال البحار. هذا العالم سلبني كل
شيء وأفرغني من كل شعور، ما عدا الفريزة الأقدم: توريث
الحياة. أعيش الآن من أجل دوقي الصغير، والابنة التي لم تر
الضياء بعد.

شعرت بقدميها تغوصان في الرمال وهي تتسلَّق حافة الحوض
صاعدةً إلى جوار پول.

كان ينظر شمالًا عبر سلسلة من الصخور، ويتفحص جرفًا
بعيدًا.

على خلفية النجوم، أخذت الصخور البعيدة شكل سفينة حربية
بحرية قديمة، ترتفع مقدِّمتها على موجة خفيَّة، وتملؤها أبراج
هوائيات مقوَّسة، وتميل مداخنها إلى الوراء، ويبرز من مؤخرتها
نتوء على شكل الحرف اليوناني π.

فجأة، تألَّق وهجٌ برتقالي أعلى الصورة الظليَّة، وارتقى خطُّ
أرجواني لامع في السماء ثم هبط باتجاه الوهج.

قطع خطَّ أرجواني آخر السماء.

تسمَّرا في مكانيهما يحدِّقان مشدوهين. بدا المشهد كأنها معركة بحرية قديمة، كأنه ذكرى اشتباك بنيران المدفعية. همس پول: «أعمدة النار».

ارتفعت حلقة من نقاط حمراء متوهَّجة فوق الصخور البعيدة، وانهاالت عليها أشعة بنفسجية مارقة من السماء. - «شعلات تمويه حراري ومدافع ليزر».

كان قمر أراكس يرتفع داميًا من أثر الغبار فوق الأفق إلى يسارهما، فلاحظا على ضوءه غبارًا يتراكم في البعد، متلوِّيًا كشريط فوق الصَّحراء.

قال پول: «لا بُدَّ أنها ثوبترات الهراكنة تبحث عنا. إنهم يمَشُّون الصَّحراء كأنهم يريدون التأكُّد من القضاء على كل شيء حي، كما يسعى المرء للقضاء على عُشِّ تسكنه الحشرات». قالت جيسكا: «أو عُشِّ يسكنه آتريدزيون».

قال پول: «علينا البحث عن مكان يصلح للاختباء. سننَّجه جنوبًا وسنسير بمحاذاة الصخور، فلو عثروا علينا في مساحة مفتوحة...»، ثم بتر عبارته واستدار، وعدَّل من وضع الحقيبة على كتفيه، ثم قال: «إنهم يقتلون كل ما يتحرَّك».

خطا پول خطوة واحدة فوق الحافة، ثم سمع هسيس طائرة تنزلق، ورأى أورنيثوبترات معتمة تحلُّق فوقهما في جنح الليل.

أخبرني أبي ذات مرّة أن احترام الحقيقة يكاد يكون
العماد الذي تقوم عليه كل القيم الأخلاقية. قال
لي: «لا يمكن لشيء أن ينبثق من العدم». هذا تفكير
عميق إن كنت تعني إلى أي مدى قد تكون «الحقيقة»
غير مستقرة.

من كتاب «محاوَرَات مع المؤدّب» للأميرة إيرولان.

قال ظفير حواط: «لطالما تفاخرت بقدرتي على رؤية الأمور
على حقيقتها. هذه لعنة أيّ منّات. عدم القدرة على التوقّف عن
تحليل البيانات».

بدا وجهه المنّات العجوز المفضّن هادئاً في العتمة التي
تسبق الفجر، وكانت شفّاته المبقّعتان بشراب السافو مزمومتين
في خطّ مستقيم تتشعّب منه تجاعيد صغيرة.

جلس رجل يرتدي جلباباً القرفصاء بهدوء فوق الرمال على
الجانب الآخر من الحواط، وبدا أنه لم يتأثر بكلامه.

كان الرجلان رابضين تحت نتوء صخري يشرف على حوض
واسع ضحل، وضوء الفجر ينتشر في الأفق خلف وفوق الجروف
المتصدّعة على امتداد الحوض، صابغاً كل الموجودات بلونٍ
وردي. كان الجو بارداً تحت النتوء من أثر الليل، والهواء به لفحة
جافّة تخترق العظام. لقد هبّت ريحٌ دافئة قبل الفجر بقليل،
لكنها صارت باردة بعدها. سمع حواط من خلفه صوت اصطكاك
أسنان الجنود القلائل المتبقّين من قوّاته.

كان الرجل الرابض جوار حواط من الفرمن، وقد جاءهم
متحرّكاً بخفّة فوق الرمال، عابراً الحوض مع أوّل ضوء فجر

كاذب، بحركات متماهية مع الكتبان الرملية تكاد لا تُلاحظ. مدَّ الفرمني إصبعاً إلى الرمال بينهما، ورسم شكلاً عليها. بدا الشكل كأنه صحنٌ يخرج منه سهمٌ. ثم قال: «دوريات الهراكنة تملأ المكان»، ورفع إصبعه مشيراً إلى أعلى، إلى المنحدرت التي نزل منها حوَّاط ورجاله.

أوماً حوَّاط.

دورياتهم تملأ المكان بالفعل.

لكنه ظلَّ يجهل ما يريده هذا الفرمني، وقد أزعجه ذلك، فمن المفترض أن يمنحه تدريبه المنتاتي القدرة على رؤية دوافع الآخرين.

كانت هذه أسوأ ليلة مرَّ بها حوَّاط في حياته. كان في تسيمبو، الحامية العسكرية التي تشكّل حائط الصدِّ الأمامي للعاصمة السابقة قرطاج عندما بدأت أنباء الهجوم تصل. في البداية فكَّر: إنها مجرد غارة. الهراكنة يختبروننا.

لكن الأنباء لم تتوقَّف، وتعاقت التقارير الواحد تلو الآخر.

هبوط فيلقين قرب قرطاج.

خمسة فيالق -خمسون لواءً!- تهاجم مقرَّ الدوق الرئيس في أراكين.

هبوط فيلق آخر في أرسنت.

ظهور مجموعتين قتاليتين عند الصخرة المتشققة.

ثم أمست التقارير أكثر تفصيلاً: شوهد بين الأعداء ساردوكار إمبراطوريون، عددهم يقدر بنحو فيلقين. بدا من الواضح أن الفزاة يعرفون بالضبط حجم القوَّات المسلَّحة التي يجب إرسالها إلى كل منطقة. بالضبط! لقد أدت استخباراتهم عملها ببراعة.

أَجَّجَت الصدمة غضبه إلى درجة كادت تعطل قدراته المنتاتية
عن أداء عملها بسلاسة. صدم حجم الهجوم عقله كأنه ضربه
على الرأس.

الآن، مختبئاً أسفل نتوء بارز من صخور الصَّحراء، أوماً حواط
برأسه وضمَّ غلالته الممزَّقة على جسده كأنه يحمي نفسه من
الظلال الباردة.

يا لحجم الهجوم!

لطالما توقَّع أن يستأجر أعداءهم مركبات فضائية خفيفة من
النقابة ويستخدموها في غارات لاختراق دفاعاتهم، فقد كانت هذا
هي المناورات المعتادة في هذا النوع من الحروب بين العائلات
الحاكمة. تهبط المركبات الخفيفة وتقلع من أراكس بشكل دوري
في عمليات نقل الاسپايس لصالح آل آترديز، لذا أخذ حواط
احتياطاته من شَنِّ غارات عشوائية باستخدام مركبات اسپايس
خفيفة زائفة. أمَّا في حالة شَنِّ هجومٍ كامل فلم يتوقَّعوا أكثر من
عشرة ألوية.

لكن وفقاً لآخر إحصاء، أكثر من ألفي مركبة هبطت على
أراكس، وهي ليست مجرد مركبات خفيفة، بل فرقاقات كاملة،
ومركبات استطلاع، وساحقات، وبارجات فضائية، وحاملات
جنود، وحاويات تفريغ.. تحمل جميعها أكثر من مئة كتيبة من
الرجال، أي عشرة فيالق!

عائدات الاسپايس المستخرج من أراكس لمدة خمسين عاماً
بالكاد تكفي لتغطية نفقات مثل هذه الحملة العسكرية.
بالكاد.

فَكَرَ حَوَّاطٌ: لَقَدْ أَسَاءْتُ تَقْدِيرَ مَا كَانَ الْبَارُونَ عَلَى اسْتِعْدَادِ
لِإِنْفَاقِهِ عَلَى مَهَاجِمَتِنَا، وَخَذَلْتُ دَوْقِي.

هَذَا فَضْلاً عَنْ مَسْأَلَةِ الْخَائِنِ.

فَكَرَ حَوَّاطٌ: سَأَعِيشُ حَتَّى أَمُرَ بِخَنْقِهَا! كَانَ عَلَيَّ قَتْلُ سَاحِرَةِ
الْبَنِيِّ جَيْسِيرَتِ تِلْكَ عِنْدَمَا سُنَحْتُ لِي الْفُرْصَةُ. لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ
أَدْنَى شَكٍّ فِي هَوِيَةِ الْخَائِنِ: إِنَّهَا اللَّيْذِي جَيْسِيكََا. كُلُّ الْوَقَائِعِ
تَتَطَبَّقُ عَلَيْهَا.

قَالَ الرَّجُلُ الْفَرْمَنِي: «رَجُلُكَ جِيرَنِي هَالِيكَ وَمَجْمُوعَةٌ مِنْ
رِجَالِهِ بِأَمَانٍ مَعَ أَصْدِقَائِنَا الْمَهْرِيِّينَ».

- «حَسَنًا».

هَذَا يَعْنِي أَنَّ جِيرَنِي سَيَفْادِرُ هَذَا الْكُوكَبَ الْجَحِيمِي. لَمْ يُبَادَ
عَنْ بُكْرَةِ أَبِينَا إِذَا.

اسْتَدَارَ حَوَّاطٌ وَأَلْقَى نَظْرَةً إِلَى رِجَالِهِ. لَقَدْ بَدَأَ اللَّيْلَةُ بِثَلَاثِمِئَةٍ
مِنْ خَيْرَةِ رِجَالِهِ، وَالْآنَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ سِوَى عَشْرِينَ، نِصْفُهُمْ جَرَحَى.
كَانَ بَعْضُهُمْ نَائِثًا، وَبَعْضُهُمْ وَاقِفًا، وَبَعْضُهُمْ مُسْتَدًّا إِلَى الصَّخُورِ،
وَبَعْضُهُمْ مَتَمِدًّا عَلَى الرَّمَالِ أَسْفَلَ الصَّخْرَةِ. آخِرُ ثَوْبَتَرِ تَبَقَّتْ
لَهُمْ، تِلْكَ الَّتِي كَانُوا يَسْتَخْدِمُونَهَا مَرْكَبَةً أَرْضِيَّةً لِنَقْلِ جِرْحَاهُمْ،
لَفْظَتْ أَنْفَاسُهَا الْآخِرَةَ قَبِيلَ الْفَجْرِ بِقَلِيلٍ، فَمَزَّقُوهَا بِبِنَادِقِ اللَّيْزِ
شَرًّا مُمَزَّقًا وَأَخْفَوْا الْقَطْعَ، ثُمَّ شَقُّوا طَرِيقَهُمْ إِلَى هَذَا الْمَخْبَأِ عِنْدَ
حَافَةِ الْحَوْضِ.

لَمْ يَمْلِكْ حَوَّاطٌ سِوَى فِكْرَةٍ عَامَةٍ عَنْ مَوْقِعِهِمْ، الَّذِي قَدَّرَهُ
بِنَحْوِ مِئَتِي كِيلُومِتَرٍ جَنُوبَ شَرْقِ مَدِينَةِ أَرَاكِينَ. كَمَا قَدَّرَ أَنَّ فِي
مَكَانٍ مَا جَنُوبَ مَوْقِعِهِمْ، تَقَعُ دُرُوبُ التَّنَقُّلِ الرَّئِيسَةِ الَّتِي تَسْتَخْدِمُهَا
مَجْتَمَعَاتُ السِّيَيْتِشَاتِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْجِدَارِ الْحَامِي.

خلع الضرمني المقابل لحَوَاطٍ عنه قلفسوته وأماط لثامه كاشفًا
عن شعرٍ ولحية مسفوعين، بلون الرمال. كان شعره ممشَّطًا
إلى الخلف في خطوط مستقيمة، وجبهته عاليةً ضيقة، وعيناه
زرقاوين بالكامل من أثر الاسپايس، ولا سبيل لسبر غوريهما. أمَّا
شعر شاربه ولحيته فذاكن متلبَّد على أحد جانبي الفم من ضغط
الأنبوب الملتوي الخارج من سدَّادة الأنف.

نزع الرجل السدَّادة وأعاد ضبطهما، ثم حكَّ ندبة بجانب أنفه.
ثم قال: «إذا قرَّرتَ عبور هذا الحوض الليلة، لا تستخدموا دروع
الطاقة، فثمة صدع في الجدار...»، واستدار على عقبيه مشيرًا
نحو الجنوب وأردف: «... هناك، وبحر الرمال يمتدُّ من هنا حتَّى
نطاق العرق العظيم. دروع الطاقة ستجذب ال...»، وتردَّد قبل أن
يقول: «... الديدان. إنها لا تأتي إلى هنا غالبًا، لكن تفعيل الدروع
الطاقة يجذب واحدة دائمًا».

فكَّر حَوَاط: قال «ديدان». كان سيقول شيئًا آخر. ماذا يا تُرى؟
وماذا يريد منا؟
تنهَّد حَوَاط.

لم يتذكَّر أن سبق له الشعور بمثل هذا التعب والإرهاق
العضلي، الذي لم تفلح أقراص الطاقة في تخفيفه.
تبًّا لأولئك السَّاردوكار الملاعين!

بمرارةٍ جالدةٍ للذات، واجه حَوَاط حقيقة وجود جنود
الإمبراطور المتعصِّبين هنا على أَرَاكس، وما تمثَّله من خيانة
الإمبراطورية. أخبرته قدراته المنتاتية في تقييم البيانات بمدى
ضآلة فرصته في تقديم دليل على هذه الخيانة أمام مجلس
اللاندراد الأعلى، حيث يمكن تحقيق العدالة.

سأل الرجل الفرمني: «هل ترغب في إيصالك إلى المهريين؟»
- «أهذا ممكن؟»

- «الطريق طويل».

«الفرمن لا يحبون الرفض»، هكذا أخبره أيدهو ذات مرة.

قال حوَّاط: «لم تخبرني بعد إن كان بإمكان قومك مساعدة جرحانا أم لا».

- «إنهم جرحى».

الإجابة اللعينة ذاتها في كل مرة!

احتدَّ حوَّاط قائلاً: «نعلم أنهم جرحى، هذه ليست...».

قاطعه الفرمني محدّراً: «اهدأ يا صديقي. ما قول جرحاكم؟ هل بينهم من يرى حاجة قبيلتك إلى الماء؟».

قال حوَّاط: «لم نتكلَّم بشأن الماء، نحن...».

قال الفرمني: «أتفهّم تردّدك، إنهم أهلك وعشيرتك. أمعكم ماء؟»
- «ليس بالقدر الكافي».

أشار الفرمني إلى غلالة حوَّاط الممزّقة، وجلده البادي من أسفلها: «لقد هوجمت في عقر داركم، غير مرتدين بذلات التقطير. يجدر بك اتّخاذ قرار بشأن الماء يا صديقي».
- «هل يمكننا استئجار خدماتكم؟».

هزّ الفرمني كتفيه وقال: «لا تملكون الماء لذلك»، ثم ألقي نظرة إلى مجموعة الرجال خلف حوَّاط وسأله: «كم عدد الجرحى الذين بإمكانك التضحية بهم؟».

التزم حوَّاط الصّمت محدّثاً إلى الرجل. بصفته منّتاً، فطن حوَّاط أن حديثهما لم يكن مضبوطاً على نفس الموجة. لم تفلح اللغة المنطوقة في إقامة حوارٍ بينهما بالطريقة المعتادة.

قال: «أنا ظفير حوَّاط، وأنا مُخوَّل بالتحدُّث بالنيابة عن دوقي. سألتزم بتعهُّدِ الآن مقابل مساعدتك لنا. كل ما أطلبه منكم هو مساعدة محدودة، تتمثَّل في الحفاظ على سلامة قوَّاتي مدَّة كافية تمكَّننا من قتل الخائنة التي تظنُّ أنها بعيدة عن طائلة الانتقام».

- «تريد أن نساعدك في مسألة ثأر؟».

- «الثأر سأخذه بنفسِي. ما أريده هو التحرُّر من المسؤولية تجاه جرحاي كي أتمكَّن من التنقُّل بحريَّة لتنفيذ مساعي».

قطب الفرمني جبينه وسأل: «أيُّ مسؤولية تحمل تجاه جرحاك؟ كل امرئ يتحمَّل مسؤولية نفسه. الماء هو نقطة النقاش يا ظفير حوَّاط. هل تريدني أن أتخذ القرار بالنيابة عنك؟».

قالها الرجل ووضع يده على السلاح المخفي أسفل رداءه.

توتَّر حوَّاط، وتساءل: أهِي علامة على خيانة؟

سأله الرجل: «مَمَّ تخشى؟».

سحقاً لهؤلاء القوم وصراحتهم المريكة! قال حوَّاط بحذر:

«ثمة مكافأة مرصودة مقابل رأسي».

- «آه!»، لفظها الفرمن مبعداً يده عن السلاح قائلاً: «تظنُّ أن

الفساد البيزنطي مستشر بيننا. أنت لا تعرفنا. لا يملك الهراكنة

ماءً يكفي لشراء أصغر طفل فينا».

فكَّر حوَّاط: لكنهم يملكون ما يكفي لتمنحهم النقابة حقَّ مرور

أكثر من ألفي سفينة مقاتلة. كان لا يزال مصدوماً من المبلغ

الفادح الذي دفعه الهراكنة.

قال حوَّاط: «كلانا يقاتل الهراكنة، ألا يجدر بنا تشارك حلول

وأساليب مواجهة تحديات المعركة؟».

قال الفرمني: «نحن نتشارك الآن. لقد رأيتك وأنت تقاثل الهراكنة. أنت مقاتل بارع. لكم مرّت عليّ من أوقات كنت سأمتن فيها لوجود ذراعك إلى جوار ذراعي».

قال حوّاط: «أخبرني بالمكان، وستجدني إلى جوارك».

قال الفرمني: «من عساه أن يعرف قوّات الهراكنة في كل مكان. لكنك ما زلت لم تتخذ قرار الماء أو تعرضه على جرحاكم».

قال حوّاط لنفسه: يجب أن أكون حذرًا. ثمّة شيء غير مفهوم هنا.

قال: «هلاً شرحت لي طريقتكم، الطريقة الأراكسية؟».

تمتم الفرمني: «تفكّر تفكير الغرياء»، وبدأ في نبرته شيء من السخرية. أشار إلى الشمال الغربي نحو قمّة الجرف وقال: «رأيناكم وأنتم تعبرون الرمال الليلة الماضية»، ثم أنزل ذراعه وأردف: «أسريت بقوّاتك على الجانب الزلق من الكثبان الرملية، وهذا تصرّف خاطئ. كما أنكم لا ترتدون بذلات التقطير، وليس معكم ماء. لن تصمدوا طويلاً».

قال حوّاط: «عادات أراكس لا تُكتسب بسهولة».

- «هذه حقيقة. لكننا قتلنا الهراكنة».

سأله حوّاط: «وماذا فعلتم بجرحاكم؟».

سأله الفرمني: «ألا يعلم المرء إن كان يستحق الإنقاذ أما لا؟ جرحاكم يعرفون أنكم تفتقرون إلى الماء»، ثم أمال رأسه ناظرًا إلى حوّاط بطرف عينه: «هذا هو الوقت المناسب لاتخاذ قرار الماء. يجب أن ينظر كلٌّ من الجرحى وغير الجرحى بعين الاعتبار إلى مستقبل القبيلة».

فَكَرَ حَوَّاطٌ: مُسْتَقْبِلُ الْقَبِيلَةِ . قَبِيلَةُ آلِ آتْرِيدِيز . كَلَامُهُ يَحْمِلُ
بَعْضَ الْمُنْطَقِ . ثُمَّ أَجْبَرَ نَفْسَهُ عَلَى طَرَحِ السَّؤَالِ الَّذِي كَانَ
يَتَحَاشَاهُ .

- «هل لديك أخبار عن الدوق أو ابنه؟» .

ارْتَفَعَتْ عَيْنَانِ زَرْقَاوَانٍ لَا سَبِيلَ إِلَى سَبْرِ غُورِيَهْمَا تَحْدَقَانِ إِلَى
عَيْنِي حَوَّاطٍ .

- «أخبار؟» .

صَاحَ حَوَّاطٌ: «أَعْنِي مُصِيرَهُمَا!» .

قَالَ الْفَرْمَنِي: «مُصِيرُ الْجَمِيعِ وَاحِدٌ . يُقَالُ أَنَّ دُوقَكَ لَقِيَ
حَتْفَهُ ، أَمَّا ابْنُهُ ، لِسَانُ الْغَيْبِ ، فَأَمْرُهُ بَيْنَ يَدَيِ لَيْبَتٍ ، وَلَيْبَتٌ لَمْ
يَقْلُ شَيْئًا بَعْدَ» .

فَكَرَ حَوَّاطٌ: تَوَقَّعْتُ الْإِجَابَةَ قَبْلَ أَنْ أُسْأَلَ .

ثُمَّ اسْتَدَارَ مُلْقِيًا نَظْرَةً إِلَى رَجَالِهِ . كَانُوا جَمِيعًا مُسْتَيْقِظِينَ الْآنَ
يَنْصَتُونَ إِلَى الْمَحَادَثَةِ مُحَدِّقِينَ عَبْرَ الرَّمَالِ وَقَدْ بَدَتْ عِلَامَاتُ
الْإِدْرَاكِ عَلَى وُجُوهِهِمْ: كَانُوا يَدْرِكُونَ أَنَّهُ لَا عَوْدَةَ لَهُمْ إِلَى كِلَادَانِ ،
وَأَنَّ أَرَاكُسَ قَدْ ضَاعَ مِنْهُمْ إِلَى الْأَبَدِ .

عَادَ حَوَّاطٌ يَنْظُرُ إِلَى الرَّجُلِ الْفَرْمَنِيِّ ، وَسَأَلَهُ: «هل لديك
أخبار عن دانكن آيداهو؟» .

قَالَ الْفَرْمَنِي: «كَانَ فِي الْقَصْرِ عِنْدَمَا سَقَطَتِ الدَّرُوعُ . هَذَا مَا
سَمِعْتُ .. لَا أَكْثَرَ» .

فَكَرَ حَوَّاطٌ: لَقَدْ عَطَّلَتِ الدَّرُوعُ وَأَدْخَلَتِ الْهَرَائِكَةَ . الْحَذَرُ وَحْدَهُ
مَا أَنْجَانِي ، أَنَا الَّذِي مَا جَلَسْتُ إِلَّا وَظَهَرِي لِلْبَابِ . كَيْفَ سَوَّلَتْ لَهَا
نَفْسُهَا الْإِقْدَامَ عَلَى هَذِهِ الْفَعْلَةِ الشَّنْعَاءِ ، بِمَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ انْقِلَابٍ

على ابنها؟ ولكن من يعرف كيف تفكر ساحرات البني جيسيرت،
إن أمكن تسمية ما يدور في عقولهن تفكيراً؟

حاول حواط ابتلاع ريقه، لكن جفاف حلقه منعه: «متى
ستصلكم أخبار عن الصبي؟».

قال الفرمني: «لا نعرف إلا قليلاً عما حدث في أراكين»، ثم
هز كتفيه وأردف: «من يدري؟».

- «أليكم طرائق لاستقصاء أمره؟».

ردّ الفرمني قائلاً: «ربّما»، ثم حكّ الندبة المجاورة لأنفه وقال:
«أخبرني يا ظفير حواط، أتعلم ما تلك الأسلحة الثقيلة التي
استخدمها الهراكنة؟».

فكر حواط بمراره: يقصد قذائف المدفعية. من كان يتوقع
أنهم سيستخدمون المدفعية في عصر دروع الطاقة؟

ثم قال: «أنت تشير إلى المدفعية التي استخدموها لمحاصرة
قوّاتنا في الكهوف. لديّ، آه.. معرفة نظرية بهذا النوع من
الأسلحة الانفجارية».

قال الفرمني: «أيّ رجل ينسحب محتمياً بكهفٍ له مدخل واحد
يستحق الموت».

- «لِمَ تسأل عن تلك الأسلحة؟».

- «إنها مشيئة لبيت».

تساءل حواط: أهذا ما يسعى إلى معرفته منا؟ ثم قال: «هل
أتيت إلى هنا للحصول على معلومات حول المدافع الكبيرة؟».

- «يشاء لبيت رؤية أحد تلك الأسلحة بنفسه».

قال حواط ساخراً: «ما عليك إلا الذهاب وأسر أحدها».

قال الفرمني: «أجل، أسرنا واحدًا بالفعل، وأخفيناه حيث يستطيع ستيلجار دراسته من أجل لييت، وحيث يستطيع لييت رؤيته بنفسه إن شاء. لكنني أشك في أنه سيريد ذلك، فالسلاح ليس جيّدًا. تصميمه رديء، لا يناسب أراكس».

سأل حوّاط: «تقول أسرتم مدفعًا؟».

قال الفرمني: «بعد معركة قوية لم نفقد فيها إلاّ رجلين، وفي المقابل أرقنا ماء ما يزيد على مئة رجلٍ منهم».

فكّر حوّاط: المدافع كانت تحت حراسة الساردوكار، واحد على كل مدفع. هذا المجنوب الصحراوي يتحدث بغفوية عن خسارة رجلين فقط ضدّ سرّيّة من الساردوكار!

قال الفرمني: «لولا أولئك الذين يقاتلون إلى جوار الهراكنة لم نكن لنفقد الرجلين، فبعضهم مقاتلون دوا».

تقدّم أحد رجال حوّاط وهو يعرج، ونظر إلى الفرمني الجالس القرفصاء، وسأله: «هل تتحدّث عن الساردوكار؟».

قال حوّاط: «أجل يتحدّث عن الساردوكار».

قال الفرمني متعجبًا: «ساردوكار!»، وبدأ في صوته مرح: «آه! هؤلاء هم إذاً كانت ليلة بديعة بالفعل. ساردوكار تقول، أتعلم من من أيّ فيلق؟».

قال حوّاط: «لا نعلم».

قال الفرمني مستغرقًا في تأمّله: «ساردوكار. لكنهم يرتدون ملابس الهراكنة. أليس هذا غريبًا؟».

قال حوّاط: «الإمبراطور لا يرغب في انكشاف أمر أنه يقاتل إحدى العائلات النبيلة».

- «لكنك واثق بأنهم ساردوكار».

سأل حوَّاط بمرارة: «ومن أكون؟».

ردَّ الرجل كمن يقرُّ واقعًا: «أنت ظفير حوَّاط. على أيِّ حال، كنا سنعرف حقيقتهم الحقيقة عاجلاً أم آجلاً، فقد أرسلنا ثلاثة أسرى منهم ليستجوبهم رجال لبيت».

تكلَّم مساعد حوَّاط ببطء، وعدم التصديق يفوح من كل كلمة ينطقها: «تقول إنكم أسرتم بعض الساردوكار؟».

قال الفرمني: «ثلاثة فقط، لقد قاتلوا بضراوة».

فكَّر حوَّاط بحسرة مريرة: ليت الوقت أتيح لنا لتوطيد الأواصر مع هؤلاء الفرمن. بحقِّ الأمِّ العظيمة، أيُّ مقاتلين كنَّا سنملك لو تمكَّننا من تدريبهم وتسليحهم!

قال الفرمني: «لعلَّك تماطل بسبب قلقك على لسان الغيب، لكنه إن كان لسان الغيب حقًّا، فلا أذى يمكن أن يصيبه. لا تفرط في التفكير في أمرٍ لم يُثبت بعد».

قال حوَّاط: «أنا خادم... لسان الغيب. لقد نذرت حياتي لرعايته، وسلامته هي شغلي الشاغل».

- «نذرت نفسك لمائه؟».

نظر حوَّاط إلى مساعده، الذي كان لا يزال يُحدِّق إلى الفرمني غير مصدِّق، ثم أعاد اهتمامه إلى الرجل المقرِّص، وقال: «أجل، لمائه».

- «أترغب في العودة إلى أراكين، إلى مكان مائه؟».

- «إلى... أجل، إلى مكان مائه».

- «لِمَ لم تذكر من البداية أن المسألة مسألة ماء؟»، قالها الفرمني ونهض، وأحكم وضع السدَّادة في أنفه.

أشار حوَّاط برأسه إلى مساعده ليعود إلى مكانه بين الآخرين. أطاع الرجل الأمر بهزّة كتفين منهكة، وسمع حوَّاط حديثًا هامسًا يدور بين الرجال.

قال الفرمني: «طريق الماء موصول دائمًا».

أطلق أحد الرجال سُبَّة من خلف حوَّاط، وصاح مساعده به: «ظفيرا لفظ آركي أنفاسه».

ضمَّ الفرمني قبضته جوار أُذنه، وقال: «رباط الماء! إنها علامة!»، ثم حدَّق إلى حوَّاط، قبل أن يردف: «لدينا مكان قريب لقبول الماء. هل أستدعي رجالي؟».

عاد المساعد إلى جوار حوَّاط وقال: «ظفير، بعض الرجال تركوا زوجاتهم في أراكين، وهم... أنت تعلم الوضع في أوقات كهذه».

كان الفرمني ما زال ضامًا قبضته إلى جوار أُذنه، وسأله: «أتوافق على رباط الماء يا ظفير حوَّاط؟».

تسارعت الأفكار في عقل حوَّاط. لقد أدرك الآن فحوى كلام الفرمني، لكنه كان يخشى ردّة فعل الرجال المتعبين المحتشدين أسفل الصخرة المعلقة.

قال حوَّاط: «فليكن رباط الماء».

قال الفرمني: «لإيلاف قبيلتنا»، وخفض قبضته.

وكما لو أنها كانت إشارة، هبط أربعة رجال من الصخرة التي تعلو رؤوسهم، واندفعوا نحو الرجل الميت ودحرجوه في رداء فضفاض، ثم حملوه وبدؤوا يركضون به على امتداد جدار الجرف مُيمِّمين شطر اليمين والرمال تثور من تحت أقدامهم الراكضة. انتهى الأمر قبل أن يستوعب رجال حوَّاط المجهدون بدأه،

وريشما استجمعوا أفكارهم، كان رهط الرجال قد غابوا وراء منحى الجرف بالجثمان الذي يلفونه في رداء كالشوال. صاح أحد رجال حوَّاط: «إلى أين يأخذون آركي؟ إنه...». قال حوَّاط: «سيأخذونه إلى.. مكان دفنه».

نعر الرجل: «الفرمِن لا يدفنون موتاهم! لا تحاول خداعنا يا ظفير، فنحن نعلم جيِّداً ما يفعلون. آركي واحد من...». قال الفرمني: «الجنة هي المثوى لرجلٍ مات في خدمة لسان الغيب، لا ريب في هذا. إن كنتم تخدمون لسان الغيب كما تقولون، فلم ترفعون عقيرتكم بالنواح؟ ستعيش ذكرى من مات في سبيله أبداً الدهر، ما دامت ذاكرة البشرية حيَّة».

لكن رجال حوَّاط بدؤوا يقتربون من الرجل، وعلى وجوههم نظرات غاضبة. التقط أحدهم بندقية ليذر وصوبها نحوه. زار حوَّاط: «قفوا حيث أنتم! ولا حركة!»، مقاوماً الإرهاق الشديد المستحوذ على عضلاته، ثم: «هؤلاء القوم يحترمون موتانا. تختلف العادات، لكن المعنى واحد».

زمجر الرجل الذي يحمل بندقية الليزر: «سيذبيون جسد آركي للحصول على مائه».

سأله الفرمني: «أيتصرَّف رجالك هكذا لأنهم يريدون حضور المراسم؟».

فكَّر حوَّاط: إنه غير مدرك المشكلة من الأساس. كانت سداجة الفرمن تبعث على الخوف.

قال حوَّاط: «إنهم قلقون على مصير رفيقهم».

قال الفرمني: «سنعامل رفيقكم بنفس الاحترام الذي نعامل به موتانا. هذا رباط الماء، ونحن نعرف الطقوس جيِّداً. جسد المرء ملكه، أمّا ماؤه فملك قبيلته».

تكلّم حوّاط سريعاً مع تقدّم حامل بندقية الليزر خطوة أخرى:
«هل ستساعدون جرحانا الآن؟».

قال الفرمني: «الرباط مقدّس لا تشكيك فيه. سنساعدكم
كما تساعد أيّ قبيلة أفرادها. سنبدأ بتوفير بذلات تقطير لكم
جميعاً، ثم سنرى باقي احتياجاتكم».
تردّد حامل بندقية الليزر.

قال مساعد حوّاط: «هل نستري مساعدتهم ب... ماء آركي؟».
قال حوّاط: «ليس شراءً. لقد انضمما إلى هؤلاء القوم».
تمتم أحد الرجال: «المعدات تختلف».
فبدأ حوّاط يشعر بالارتياح.

- «وهل سيساعدونا في الوصول إلى أراكين؟».

قال الفرمني: «سوف نقتل الهراكنة»، قبل أن يتسم مضيقاً:
«والسّاردوكار كذلك»، ثم تراجع خطوة وكوّر كفيّه حول أذنيه
وأرجع رأسه إلى الوراء منصّتاً، ثم أنزل يديه وقال: «هناك طائفة
تقترب، اختبئوا أسفل الصخرة وابقوا بلا حراك».
بإشارة من حوّاط، أطياع رجاله الأمر.

أمسك الفرمني بيد حوّاط ودفعه مع الآخرين وهو يقول:
«سنقاتل في وقت القتال». ثم دسّ يده أسفل ردائه، وأخرج قفصاً
صغيراً، والتقط منه مخلوقاً.

رأى حوّاط خفّاشاً صغيراً، وحين أدار الخفّاش رأسه، شاهد
حوّاط اللّجة الزرقاء التي تشمل عينيه.

ربّت الفرمني على الخفّاش لتهديته، ودندن له، ثم انحنى فوق
رأس الحيوان سامحاً لقطرة من لعابه بأن تسقط من لسانه إلى
فمّ الخفّاش المقلوب. فرد الخفّاش جناحيه، لكنه ظلّ في كفّ

الفرمّني المفتوحة. أمسك الرجل بأنبوب صغير، وقرّبه من رأس الخفّاش، ووشوش مزقزقاً في الأنبوب، ثم رفع المخلوق عاليًا ورماه في الهواء.

حلّق الخفّاش فوق الجرف ثم غاب عن الأنظار.

طوى الفرّمني القفص ودسّه في جليابه، ثم أحنى رأسه مصفياً مرّةً أخرى، وقال: «إنهم يمشّطون المرتفعات، تُرى عمّن يبحثون هناك؟».

قال حوّاط: «إنهم يعرفون أننا تراجعنا إلى هذا الاتجاه».

قال الفرّمني: «لا ينبغي للمرء افتراض أنه وحده المُطارِد. راقب الجانب الآخر من الحوض، وسترى شيئاً».

مرّ بعض الوقت.

تملّل بعض رجال حوّاط، وبدؤوا يتهامسون.

همس الفرّمني بحدّة: «التزموا الصّمت كما الفرائس المذعورة».

لاحظ حوّاط حركة بالقرب من الجرف المقابل، رفرفة مطموسة لجناحين صفراوين فوق رمال صفراء.

قال الفرّمني: «صديقي الصغير بلّغ الرسالة. إنه رسولٌ ماهر، في الليل أو في النهار. سأحزن إن فقدته».

تلاشت الحركة عبر الحوض، ولم يبق شيءٌ ظاهر على مساحة الرمال الممتدّة إلى أربعة أو خمسة كيلومترات إلّا ضغط حرارة النهار المتزايدة، وتموّجات الهواء الساخن المتصاعدة.

همس الفرّمني: «التزموا الصّمت التّام الآن».

ظهر رتل رجال يمشي الهوينى من أحد الصدوع في الجرف المقابل لهم، واتّجه صوبهم مباشرةً عبر الحوض. بدت هيئاتهم

كهيئات الفرمن في عيني حواط، لكنه تعجّب من طريقة سيرهم الخرقاء. عدّ ستّة رجال يسرون بتناقل فوق الكتبان.

تعالّت رفرفة جناحي ثوبتر من مكانٍ ما إلى يمين جماعة حواط، ثم برزت الثوبتر من أعلى جدار الجرف فوقهم. كانت ثوبتراً آتريديزية تلطّحها ألوان راية الهراكنة الحربية. انقضّت الثوبتر على رتل الرجال الذين يعبرون الحوض. توقّفت المجموعة على قمّة أحد الكتبان، ولوّحت.

حامت الثوبتر فوقهم في دائرة ضيّقة، ثم هبطت أمام جماعة الفرمن مثيرة الغبار. اندفع خمسة رجال خارجين من الثوبتر، ولاحظ حواط حول أجسادهم وميض الدروع الطارد للغبار، وفي حركاتهم كفاءة الساردوكار.

همس الفرمني الواقف إلى جوار حواط: «ويحي! إنهم يستخدمون دروعهم السخفية»، وألقى نظرة إلى الصدع في جدار الحوض الجنوبي.

همس حواط: «إنهم ساردوكار».

- «جيد».

اقترب الساردوكار من جماعة الفرمن في تشكيل محكم يأخذ شكل نصف دائرة مشهرين أسلحتهم، وعكست نصالهم بريق أشعة الشمس. ظلّ الفرمن واقفين في أماكنهم متقاربين، لا يبدو عليهم القلق.

فجأة، انبثق رجالٌ من الفرمن من قلب الرمال المحيطة بالمجموعتين. كانوا في كل مكان، حول الأورنيثوبتر، ثم داخلها، وحيث التحمت المجموعتان على قمّة الكتيب، ارتفعت سحابة من الغبار حاجبةً الموقعة العنيفة.

لكن سرعان ما انقشع غبار الوغي، ووحدهم الفرمن بقوا واقفين.

قال الفرمني الواقف إلى جوار حواط: «من حسن الحظ أنهم لم يتركوا في الثوبتر إلا ثلاثة رجال، لا أظن أننا أتلطنا المركبة ونحن نستولي عليها».

همس أحد الرجال من خلف حواط: «أولئك كانوا ساردوكارًا!».
سأل الفرمني: «هل لاحظت ضراوتهم في القتال؟».
أخذ حواط نفسًا عميقًا، فشَمَّ رائحة الغبار المحترق من حوله، وشعر بالحرارة والجفاف، ثم قال بصوت يحاكي الجفاف المحيط به: «أجل، قاتلوا بضراوة فعلًا».

أقلعت الثوبتر الأسيرة خافقة بأجنحتها في ترنح، ومالت في اتجاه الجنوب ثم ارتفعت في صعودٍ حادٍ طاويةً أجنحتها.
فكَّر حواط: *إذا هؤلاء الفرمن يعرفون قيادة الثوبترات*.
من الكتيب البعيد، لَوَّح الفرمن بقطعة قماش خضراء مرةً، ثم أخرى.

صاح الفرمني الواقف إلى جوار حواط: «هيا استعدوا! فالمزيد قادمون. كنت أتمنى ترحيلنا دون إزعاج آخر».

فكَّر حواط: *يرى الساردوكار مجرد مصدر إزعاج!*
من الغرب، رأى ثوبترين أخريين تنقضَّان من ارتفاع كبير على رُقعة الرمال التي خلت فجأة من الفرمن. لم يبق على ساحة المعركة إلا بقع زرقاء متناثرة: جثث الساردوكار في ثياب الهراكنة.
جاءت ثوبتر أخرى من فوق الجرف الذي يعلو حواط، فأخذ نفسًا عميقًا حادًا حين رآها. كانت حاملة جنود كبيرة تطير ببطء

على ارتفاع منخفض فاردةً أجنحتها كُرْحُ عملاقٍ عائدٍ إلى عُشِّه
من ثقل حملتها الكبيرة.

من بعيد، انطلق شعاع ليزر أرجواني من مدفع واحدة من
الثوبرتين المنقّصتين، وأصاب الرمال بقوةً مثيرةً دفقةً من الغبار.
زمجر الفرمني بصوتٍ أجشٍ من تحت أسنانه: «الجبناء!».
اتّجهت حاملة الجنود نحو بقعة الجثث الزرقاء، فاردةً أجنحتها
على أقصى امتدادٍ لها، وبدأت تعبُّ الهواء عبًا في هبوطٍ سريع.
جذب انتباه حوَّاط انعكاس وميض الشمس على جسم معدني
باتّجاه الجنوب، ورأى ثوبتر تنقضُّ من السماء طاويةً أجنحتها إلى
جانبيها، وتتوهَّج نفاثاتها بنارٍ ذهبية على خلفية السماء الرمادية
الداكنة وهي تندفع كالسهم نحو حاملة الجنود التي لم تكن تشغل
طاقة درعها انقضاءً لشر نيران مدافع الليزر الصديقة من حولها.
غاصت الثوبتر في الهواء مندفعَةً نحو حاملة الجنود واصطدمت بها.
اهتزَّ الحوض بدوي الانفجار، وتساقطت الصخور من أعالي
الجروف في كل مكان. انفجرت نافورة رمال إلى عنان السماء من
البقعة التي كانت حاملة الجنود تحتلّها مع الثوبرتين المرافقتين
لها، واشتعلت النيران في كل شيء.

فكّر حوَّاط: لقد ضحّى الفرمني الذي أقلع بالثوبتر الأسيرة
بنفسه متعمّدًا ليدمر حاملة الجنود! بحق الأم العظيمة! ما معدن
هؤلاء الفرمن؟

قال الفرمني المجاور لحوَّاط: «ثمنٌ معقول. لا بُدَّ أن ثلاثمئة
رجلٍ كانوا على متن حاملة الجنود تلك. الآن، يجب أن نضمن
الحصول على مائهم وأن نخطط للاستيلاء على مركبة جوّية
أخرى». ثم بدأ يخرج من مخبئهم أسفل الصخرة.

فجأةً، هبط سيلٌ من رجالٍ في زيٍّ أزرق من أعلى الجرف
أمامه متمنطقين بمضادات الجاذبية، فأدرك حوَّاط على الفور
من وجوههم الجامدة التي يحتلُّها تعطُّشٌ مسعور للقتال أنهم من
السَّارداوكار، ورأى أنهم لا يرتدون دروعاً، وأن كلاً منهم يحمل
سكِّيناً في يد، وصاعقاً في اليد الأخرى.
أصابَت سكِّينٌ موجَّهة بدقَّة حلق الفرمني المرافق لحوَّاط،
فسقط أرضاً متشخَّطاً في دمائه بوجه ملتو من الألم. أما حوَّاط
فلم يسهفه الوقت إلَّا ليستلَّ سكِّينه، قبل أن تُسقطه فذيقة صاعق
في ظلامٍ دامسٍ.

مكتبة
t.me/t_pdf

كان المؤدّب بالفعل قادرًا على تبصّر المستقبل، ولكن عليك أن تعي حدود هذه القدرة. لتخيّل الأمر، فكّر في حاسة الإبصار. أنت تملك عينين، ومع ذلك لا يمكنك الرؤية بلا ضوء. إن وقفت في وادٍ، فستعجز عن رؤية ما وراء ذلك الوادي. بالمثل، لم يكن المؤدّب يملك دومًا خيار النظر عبر أراضي المستقبل الغامضة من عدمه. لقد أنبأنا بأن المستقبل بالكامل قد يتغيّر بناءً على قرار تتبّئي واحد مُلبس، لُفظت فيه كلمة واحدة في غير محلّها. كما أنبأنا بأن «دروب الزمن واسعة ومتشعبة، لكنك حين تهّم بالمرور فيها، يصبح الزمن بابًا ضيقًا». لطالما قاوم المؤدّب إغراء اختيار مسار آمن وواضح، محذّرًا دومًا من أن «المسار الآمن مآله الركود».

من كتاب «صحوة أراكس» للأميرة إيrolان.

حين عبرت الأورنيثوبترات السماء من فوقهما في جنح الليل، قبض پول ذراع أمّه وصاح فيها: «اثبتي مكانك!». بعدها شاهد المركبة التي تتصدّر السرب في ضوء القمر، ولاحظ الطريقة المتهوّرة التي طوت بها أجنحتها لكبح سرعتها استعدادًا للهبوط، فأدرك هوّة الأرعن الجالس خلف أجهزة التحكم، وقال متنفّسًا الصعداء: «إنه آيداهو».

استقرّت الطائرة ومرافقاتها على أرض الحوض كسرب من الطيور عاد إلى عُشه. وثب آيداهو من طائرته وركض نحوهم قبل

أن يهدأ الغبار المثار، وتبعه رجلان في ملابس الفرمن تعرّف پول على أحدهما: كاينز الطويل، ذي اللحية الصفراء.

صاح كاينز: «من هنا»، وانحرف يساراً.

خلف كاينز، ألقى آخرون من الفرمن أغطية قماشية على الأورنيثوبترات، فصارت المركبات كأنها صفٌّ من الكتبان الرملية الصغيرة.

انزلق أيدهو متوقفاً أمام پول، وأدّى التحية الرسمية.

- «مولاي، لدى الفرمن مخبأ مؤقت قريب نستطيع أن...».

قاطعه پول: «ماذا عمّا يجري هناك؟».

وأشار إلى المعركة الدائرة أعلى الجرف البعيد، إلى شعلات التمويه الحراري وأشعة مدافع الليزر الأرجوانية التي تجلد الصّحراء. شاعت ابتسامة نادرًا ما تُرى على وجه أيدهو المستدير الهادئ.

- «سيّدي... مولاي، تركت لهم مفاجأة صف...».

فجأة، التمع وميضٌ أبيض عبر الصّحراء وأنارها كشمسٍ ساطعة، طابعاً ظلالهم على صخور الحافة. بحركة واحدة خاطفة، أخذ أيدهو ذراع پول بيدٍ، وكتف جيسيكَا بالأخرى، ودفع كليهما من الحافة إلى قاع الحوض. تمدّد الثلاثة فوق الرمال في حين ما دوى الانفجار راعداً من فوقهم. تسبّبت موجة الصدمة في إسقاط أجزاء من صخور حافة الحوض التي قفزوا منها.

اعتدل أيدهو جالساً وراح ينفذ الرمال عن نفسه.

قالت جيسيكَا: «أسلحتنا الذرية! ظننت أن...».

قال پول: «زرعت لهم درع طاقة هناك، أليس كذلك؟».

قال آيداهو: «درعٌ كبير مضبوط على طاقته القصوى. لا بُدَّ أن شعاع ليزر أصابه ف...»، ثم هزَّ كتفيه.

قالت چيسىكا: «حدث اندماج دون ذرّي. هذا سلاح خطر».

- «ليس سلاحًا يا مولاتي، بل وسيلة دفاع. سيفكّر أولئك الحثالة ألف مرّة قبل استخدام أشعة الليزر مجددًا».

اعتلى الفرمن الحافّة من فوقهم، وصاح أحدهم بصوت خفيض: «علينا أن نتواري يا أصدقاء».

قام پول واقفًا على قدميه، بينما ساعد آيداهو چيسىكا.

قال آيداهو: «سيلفت هذا الانفجار الانظار يا مولاي».

فكّر پول: مولاي!

شعر بأن للكلمة وقعًا غريبًا حين وُجّهت إليه، فلطالما كانت اللفظة التي يُخاطب بها والده.

شعر بقدراته الاستبصارية تتحرّك فيه للحظات، ورأى نفسه يهيم مصابًا بعدوى الوعي الجمعي الهمجي الذي يقود البشرية نحو الفوضى التامّة. أرجفته الرؤيا، فترك آيداهو يقوده على طول حافّة الحوض نحو نتوء صخري. كان الفرمن يفتحون فجوة في الرمال باستخدام معدّات التكتيف.

سأله آيداهو: «هل لي أن أحمل حقيبتك يا مولاي؟».

قال پول: «ليست ثقيلة يا دانكن».

قال دانكن: «أنت لا ترتدي درعًا يا مولاي، أترغب في أخذ درعي؟»، ثم ألقى نظرة إلى الجرف البعيد، وأردف: «من المستبعد أن يستخدموا أسلحة الليزر بعد الآن».

- «احتفظ بدرعك يا دانكن، ذراعك اليمنى درعٌ كافٍ لي».

لاحظت چيسىكا تأثير الشاء على دانكن، وكيف اقترب بعدها من پول، وفكّرت: ابني في أيدي أمينة مع هؤلاء القوم.

رفع رجال الفرمن صخرة كاشفين عن نفق يقود إلى شبكة من السرايب الجوفية الطبيعية تحت أرض الصَّحراء، وجَهَّزوا غطاءً تمويه لإخفاء فتحة المدخل.

قال أحدهم: «من هنا»، وقادهم عبر دَرَجٍ صخري هابط إلى فم الظلام.

حجب الغطاء نور القمر من خلفهم، فأناز ضوءٌ أخضر خافت أمامهم كاشفًا لهم الدرجات والجدران الصخرية، ومنعطفًا إلى اليسار في نهايتها. أحاط به فرمن متلفعون بعباءاتهم، وراحوا يدفعونه أسفل الدَرَج. عرجوا عبر المنعطف، وأخذوا ممرًا هابطًا آخر قادهم إلى حجرة كهفية خشنة الجدران.

قابلهم كاينز بجُبَّةٍ قلنسوتها ملقاة على ظهره ويلتمع أسفلها -في الضوء الأخضر- عُقٌّ بذلة التقطير التي يرتديها. كان شعره ولحيته الطويلان مبعثرين، وبدت عيناه الزرقاوان اللتان لا أثر لبياض فيهما كدُجنة الليل أسفل حاجبيه الكثين.

سأل كاينز نفسه في اللحظة التي رآهم فيها: لماذا أمُدَّ يدُ العون إلى هؤلاء الناس؟ هذا أخطر عمل قمت به في حياتي، وقد يهلكني معهم.

ثم أمعن في النظر إلى پول، ورأى الصبي -الذي تدثر بدثار الرجولة مبكرًا- يخفي حزنه، ويقمع مشاعره إلا ما ظهر منها، محاولاً إثبات أنه جديرٌ بمنصب الدوقية الذي يتعيَّن عليه تولُّيه. في تلك اللحظة أدرك كاينز أن الدوقية لم تزل بوجود هذا الشاب، وأن هذا ليس أمرًا يمكن الاستهانة به.

أدارت جيسكا بصرها في الكهف، مسجِّلة زواياه وأركانه في عقلها على طريقة البني جيسيرت: هذا معمل حديث مبني على الطراز القديم.

قال پول: «هذه إحدى محطّات التجارب البيئية الإمبراطورية التي أراد أبي استخدامها قواعدَ استطلاع للقوّات».

فكّر كاينز: أبوه أراد استخدامها!

ثم تساءل مجدّداً في قرارة نفسه: هل من الحمق مساعدة هؤلاء الهاربين؟ لِمَ أفعل ذلك؟ ما أسهل النيل منهم الآن لكسب ثقة الهراكنة.

حذا پول حذو أمه، وتفقّد أرجاء الغرفة الكهفية. رأى طاولة عمل في أحد الأركان، وعابن الجدران الصخرية الخشنة. على الطاولة، نُصِّدت مجموعة من الأدوات: مؤشّرات مضيئة، وشبكات تسخين سلكيّة تخرج منها أقماع وأنايب اختبار زجاجية. كانت رائحة الأوزون تفوح من المكان.

تحرك بعض رجال الفرمن إلى ركنٍ منزوٍ في الغرفة، فتعالت من حيث ذهبوا أصواتٌ جديدة: سعال آلاتٍ قديمة، وصرير أحزمة تدور، وهدير محرّكات متعدّدة.

رنا پول إلى طرف الغرفة، وشاهد أقفاصاً فيها حيوانات صغيرة مكدّسة على الحائط.

قال كاينز: «أصبتَ في تعرفّك على طبيعة المكان. ما الغرض من هذا المكان برأيك يا پول أتريدز؟».

قال پول: «جعل هذا الكوكب ملائماً لحياة البشر».

فكّر كاينز: ربّما لهذا السبب أساعدهم.

هدأ طنين الآلات فجأة وحلّ صمتٌ ثقيل كالفرّاغ لم يقطعه إلا زقزقة حيوانٍ رفيعة صادرة من الأقفاص، ثم سرعان ما سكّت بعدها كما لو أنه شعر بإحراج.

أعاد بول انتباهه إلى الأقفاص، ولاحظ أنها تحوي خفافيش
بنيّة الأجنحة، وأن شبكة تغذية آلية تمرّ عبر الأقفاص من الجدار
الجانبى.

ظهر فرمّنى من ركن الحجرة المستتر، وتحدّث إلى كاينز:
«لييت، مولّد مجال الطاقة لا يعمل. لا أستطيع إخفاءنا عن أجهزة
الاستشعار القريبة».

سأله كاينز: «هل تستطيع إصلاحه؟».

- «ليس بسرعة. تعرف أن قطع الغيار...»، ثم بتر الرجل
عبارته وهزّ كتفيه.

قال كاينز: «أعرف. سنفعلها بلا آلات إذا. اجلب مضخة يدوية
لضخ الهواء من السطح».

- «في الحال»، قالها الرجل وأسرع مبتعداً.

عاد كاينز إلى بول وقال: «أحسنّت الإجابة».

ميّزت جيسىكا النبرة العميقة المطمئنة في صوت الرجل.
هذا صوت ملوكى اعتاد إعطاء الأوامر. كما أنها لم تغفل عن
مخاطبة الرجل له باسم لييت. لييت هي هويّته الفرمنية إذا،
الوجه الآخر لعالم البيئات الكوكبية الوادع.

قالت جيسىكا: «نحن في أشدّ الامتنان لمساعدتك لنا يا
دكتور كاينز».

غمغم كاينز: «مهم، سنرى»، ثم أشار إلى أحد رجاله: «أحضر
القهوة المخلوطة بالاسپايس إلى مكّتي يا شامير».

قال الرجل: «في الحال يا لييت».

أشار كاينز إلى مدخلٍ مقبّب محفور في جدار الحجرة الجانبى
وقال: «إذا تفضّلتم».

أومأت چيسىكا إيماءةً نبيلةً قبل أن تتقدّم، ورأت پول يشير بيده إلى أيّدهو كي يبقى حيث هو للحراسة.

كان عمق الممرّ خطوتين، ويقود عبر بابٍ ثقيل إلى غرفة مكتب مربعة تنيرها كرات إنارة ذهبية طاافية في الهواء. تحسّست چيسىكا الباب بيدها وهي تدخل إلى المكتب، ودهشت من كونه مصنوعاً من البولاد.

خطا پول ثلاث خطوات في الغرفة، وأسقط حقيبته على الأرض. سمع الباب يُغلق من خلفه، فأدار بصره متفحّصاً المكان: كان عرض الغرفة ثمانية أمتار، وجدرانها صخورٌ طبيعية بلون الكاري، وتتراص فيها خزانات ملفّات معدنية إلى يمينهم، وتحتل مركزها طاولة مكتب منخفضة ذات سطح زجاجي بلون الحليب تتخلّله فقاعات صفراء، تحيط بها أربعة مقاعد معلّقة بمضادّات الجاذبية.

دار كاينز حول پول، وسحب مقعداً لچيسىكا. جلست چيسىكا وقد لاحظت الطريقة التي يفحص بها ابنها الغرفة. ظلّ پول واقفاً هنيهة أخرى، وكشف له تيّار هواء بسيط يمرّ في الغرفة أن وراء خزانات الملفّات يقبع مخرجٌ سرّي.

سأله كاينز: «هلاً تجلس يا پول آترديدز؟».

فكّر پول: كم هو حريص على ألاّ يخاطبني بلقبى، لكنه قبل بالجلوس، وظلّ صامتاً إلى أن جلس كاينز.

قال كاينز: «شعرت بأن أراكس يمكن أن يتحوّل إلى جنّة. لكن كما ترى، الإمبراطورية لا ترسل إلى الكوكب إلاّ أشاوسها المدريين الباحثين عن الاسپايس».

رفع پول إبهامه الذي يضع فيه خاتم الدوقية، وقال: «أترى هذا الخاتم؟».

- «أجل».

- «أتعي مدلوله؟».

التفتت جيسिका بحدّة إلى ابنها.

قال كاينز: «جثمان أبيك يرقد في أطلال أراكين، وهذا يعني أنك نظريًا صرت الدوق».

قال پول: «بل يعني أنني أحد جنود الإمبراطورية، وهذا يجعلني -نظريًا- من الأشاوس».

اكفهر وجه كاينز وقال: «تقول هذا والسَّاردوكار الإمبراطوريون يطئون جثة أبيك؟».

قال پول: «السَّاردوكار شيء ومصدر سلطتي القانونية شيء آخر».

قال كاينز: «لأراكس طريقته الخاصة في تحديد من يتقلّد زمام السُّلطة هنا».

التفتت جيسिका نازرة إليه، وفكّرت: في هذا الرجل صلابة لم يَلينها أحد، ونحن الآن في حاجة إلى تلك الصلابة. پول يرتكب عملاً خطيراً.

قال پول: «مجيء السَّاردوكار إلى أراكس لهو دليل على مدى خوف إمبراطورنا المحبوب من أبي. الآن، أنا من سأعطي الإمبراطور الپاديشاه أسباباً للخوف من...».

قاطعه كاينز بحزم: «يا فتى! ثمة أمور لا يمكن لك أن...».

قاطعه پول: «من الآن ستخاطبني بمولاي أو بسيدي».

فكّرت جيسिका: هـذا/ديك!

حدّق كاينز إلى پول، ولاحظت جيسيكا بريق الإعجاب في وجه عالم البيئات الكوكبية، مع لمحة من الهزل.
قال كاينز: «مولاي».

قال پول: «أنا مصدر إحراج للإمبراطور، بل مصدر إحراج لكل من يريد تقسيم غنائم أراكس، وما دُمت على قيد الحياة، سأظل مصدر إحراج، وشوكة في حلق الجميع تخنقهم حتّى الموت!».
قال كاينز: «مجرّد كلام».

حدّجه پول بعدّة، ثم قال بعد برهة: «لديكم أسطورة هنا عن لسان الغيب، الصّوت الآتي من عالم آخر، ذلك الذي سيقود الفرّمن إلى الجنّة. رجالك يعتقدون...».
قاطعه كاينز قائلاً: «محض خرافات!».
وافقه پول: «قد تكون، وقد لا تكون. للخرافات أحياناً جذورٌ غريبة وفروعٌ أغرب».

قال كاينز: «من الواضح أنك تفكّر في خطّة... يا مولاي».
- «هل يمكن أن يقدّم لي الفرّمن دليلاً دامغاً على أن السّاردوكار هنا، وأنهم متكّرون في ملابس الهراكنة هنا؟».
- «أغلب الظن».

قال پول: «سيعيد الإمبراطور تسليم مقاليد الحكم إلى أحد الهراكنة. ربّما حتّى سيختار رابان الوحش. فليكن، سندعه يفعل ذلك، وعندما يتورّط بما لا يدع مجالاً للشكّ لإدانتته، سنهدّده برفع دعوى تفصيلية بكل ما ارتكب من جرائم أمام اللاندسراد، وسنتركه يفكّر في مسألة مثوله أمام المجلس الأعلى، و...».
صاحت جيسيكا: «پول!».

قال كاينز: «هَب أن مجلس اللاندسراد الأعلى قبل دعواك،

لن يؤدي ذلك إلا إلى نتيجة حتمية واحدة: حرب شاملة بين الإمبراطورية والعائلات النبيلة».

قالت جيسيكا: «فوضى».

قال پول: «لكنني سأعرض الدعوى على الإمبراطور قبل تقديمها، وأعطيه بدلاً عن الفوضى».

قالت جيسيكا بنبرة جافة: «أتعني ابتزازه؟».

قال پول: «هذا إحدى أدوات فن الحكم كما قلت بنفسك»، فاستشعرت جيسيكا المرارة البادية في صوته، ثم أردف: «ليس للإمبراطور أبناء ذكور، بل إناث فقط».

سألته جيسيكا: «قل لي إنك لا تطمح إلى العرش؟».

قال پول: «لن يخاطر الإمبراطور بتمزيق وتفكيك الإمبراطورية في حرب شاملة. ستدمر كواكب برمتها، وتعم الفوضى، وهو لن يخاطر بذلك».

قال كاينز: «إن ما تقترحه لهو مقامرة يائسة ومحفوفة بالمخاطر».

سأل پول: «ما أكبر مخاوف نبلاء مجلس اللانديسراد؟ إنه ما يحدث هنا والآن على أراكس. أن يحصد الساردوكار أرواحهم الواحد تلو الآخر. لهذا السبب أنشئ مجلس اللانديسراد من الأساس. إنه الرباط الذي يشد وثاق المعاهدة الكبرى. لا شيء غير اتحادهم يمكنهم من مضاهاة الجيوش الإمبراطورية».

- «لكنهم...».

قاطع پول: «هذا أكثر ما يخشونه، وأراكس سيكون صيحة الاستنفار التي ستجمعهم على قلب رجل واحد. سيرى كل منهم نفسه في أبي، معزولاً عن القطيع، ثم قتيلاً مشحطاً بدمائه في النهاية».

وَجَّهَ كَايْنَزُ كَلَامَهُ إِلَى جَيْسِيكََا: «هَلْ سَتَفْلَحُ خَطُّهُ هَذِهِ
بِرَأْيِكَ؟».

رَدَّتْ جَيْسِيكََا: «لَسْتُ مُنْتَائًا».

- «لَكِنَّكَ مِنَ الْبَنِيِّ جَيْسِيرَتِ».

حَدَّجَتْهُ بِنْظَرَةً ثَاقِبَةً وَقَالَتْ: «فِي خَطِّهِ نَقَاطٌ جَيِّدٌ وَنَقَاطٌ
سَيِّئٌ، مِثْلُهَا مِثْلُ أَيِّ خَطَّةٍ مَبْدِئِيَّةٍ. يَعْتَمِدُ نَجَاحُ الْخَطِّطِ عَلَى
التَّفْهِيمِ بِقَدْرِ مَا يَعْتَمِدُ عَلَى الْفِكْرَةِ».

قَالَ بُولُ مُقْتَبَسًا: «الْقَانُونُ هُوَ أَسْمَى الْعُلُومِ». هَذِهِ الْعِبَارَةُ
مَكْتُوبَةٌ فَوْقَ بَوَّابَةِ الْبِلَاطِ الْإِمْبَرَاطُورِ، اقْتَرَحَ أَنْ نَرِيهِ الْمَعْنَى
الْحَقِيقِيَّ لِلْقَانُونِ».

قَالَ كَايْنَزُ: «لَسْتُ مُتَأكِّدًا مِنْ أَنَّيَ أُسْتَطِيعُ الثِّقَةَ بِالشَّخْصِ
الَّذِي وَضَعَ هَذِهِ الْخَطَّةَ، فَلَأَرَاكَسَ خَطُّهُ الْخَاصَّةَ الَّتِي نَحَاولُ...».

قَاطَعَهُ بُولُ قَائِلًا: «مِنْ مَوْقِعِي عَلَى الْعَرْشِ، يُمْكِنُنِي تَحْوِيلُ
أَرَاكَسَ إِلَى جَنَّةٍ بِإِشَارَةٍ مِنْ يَدِي. هَذَا هُوَ الثَّمَنُ الَّذِي أُعْرِضُهُ
عَلَيْكَ مُقَابِلَ دَعْمِكَ».

تَصَلَّبَ كَايْنَزُ قَائِلًا: «وَلَائِي لَيْسَ لِلْبَيْعِ يَا مُوَلَايَ».

حَدَّقَ بُولُ إِلَيْهِ مِنْ مَكَانِهِ عِنْدَ طَرَفِ الْمَكْتَبِ الْمُقَابِلِ. التَقَّتْ
نَظْرَتُهُ النَّظْرَةَ الْبَارِدَةَ الْمُطْلَّةَ مِنَ الْعَيْنَيْنِ التَّامَّتِي الزَّرْقَةِ، وَتَأَمَّلَ
الْوَجْهَ الْمَلْتَحِي وَالْمَلَامَحَ الْأَمْرَةَ. ارْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةٌ جَافَةٌ عَلَى ثَغْرِ
بُولٍ، وَقَالَ: «أَحْسَنْتَ قَوْلًا. أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ».

حَدَّجَ كَايْنَزُ بُولَ بِنْظَرَةٍ مِمَّاثِلَةٍ، ثُمَّ قَالَ فِي النِّهَايَةِ: «لَمْ يَقْرَ
أَحَدُ الْهَرَائِكَةِ بِخَطِّهِ قَطُّ. رُبَّمَا أَنْتَ لَسْتَ مِثْلَهُمْ يَا أَتْرِيدِيزِي».

قَالَ بُولُ: «قَدْ يَكُونُ هَذَا لِقُصُورٍ فِي تَعْلِيمِهِمْ. تَقُولُ إِنَّكَ لَسْتَ

للبيع، لكن أظن أنني أملك الثمن الذي ستقبل به. إنني أعرض عليك ولائي مقابل ولائك... ولائي الكامل».

فكرت جيسिका: صدق وأمانة آل آترديدز يجريان في عروق ابني. إنه يتمتع بذلك الشرف العظيم الشبه الساذج الذي يميزهم، ويا له من قوة جبارة حقًا.

رأت جيسिका أن كلمات پول هزت كاينز. قال كاينز: «هذا هراء، أنت مجرد صبيّ و...».

قال پول: «أنا الدوق لا سليل آل آترديدز، الذي لم يسبق لواحد منهم أن خالف ميثاقًا كهذا».

ابتلع كاينز ريقه.

قال پول: «عندما أقول ولائي الكامل، فأنا أعني ما أقول، دون قيد أو شرط. أعني أنني على استعداد للتضحية بحياتي من أجلكم».

قال كاينز: «مولاي!»، انتزعت الكلمة منه انتزاعًا، لكن جيسिका رأت أنه لم يكن الآن يخاطب صبيًا في الخامسة عشرة، بل رجلًا، شخصًا أرفع مقامًا. كان كاينز يعني الكلمة بكل ما تحمله من معنى.

فكرت جيسिका: إنه يبدو مستعدًا للتضحية بحياته في سبيل پول في هذه اللحظة. كيف يكسب آل آترديدز ولاء الرجال بهذه السرعة والسهولة؟

قال كاينز: «أعرف أنك تعني ما تقول، ولكن الهراكنة...». فجأة، فُتح الباب الذي خلف پول بقوة، فاستدار الفتى سريعًا ورأى قتالًا عنيفًا يدور في الممر خارجة. صياح، ومقارعة سيوف، ووجوه غبرة.

وثب پول وچيسيكاً إلى الباب، ورأيا آيداهو يسدُّ الممرَّ وعيناه الداميتان باديتان عبر غشاوة درع الطاقة، فيما تنهال عليه أيدٍ مغلبية بسيفٍ كالشهاب، وتحاول عبثاً اختراق درعه بأسننتها. انطلقت قذيفة برتقالية من صاعق صدّها الدرع. راح نصلاً آيداهو ينكّلان بخصومه يمنةً ويساراً، يشقّان ويقطّعان، ودماءً حمراء تتقاطر منهما.

انضم كايנز إلى پول وأُمّه، وألقى ثلاثتهم أنفسهم على الباب لإغلاقه.

لمح پول آيداهو مرّةً أخيرة وهو يصدُّ حشدًا من ذوي البرّات الهاركوننية، وقد صارت ضرباته مترنّحة، واصطبغ شعره الملبّد كشعر الماعز بحمرة الموت. ثم انفلق الباب، وأحكم كايנز تأمينه بالمزلاج.

قال كايנز: «يبدو أنني قد اتخذت قرارٍ».

قال پول: «تتبع أحدهم محرّكات آلاتكم قبل إيقافها»، ثم سحب أُمّه بعيداً عن الباب، ورأى نظرة اليأس في عينيها. قال كايנز: «كان يجب أن أشكّ في وجود مشكلة حين تأخّرت القهوة».

قال پول: «لديك مخرج طوارئ سرّي هنا، هل سنستخدمه؟». أخذ كايנز نفساً عميقاً وقال: «ينبغي لهذا الباب أن يصمد عشرين دقيقة على الأقل أمام أيّ شيءٍ، ما عدا بنادق الليزر». قال پول: «لن يخاطروا باستخدام بنادق الليزر خشية أن يكون لدينا دروع طاقة هنا».

همست چيسيكاً: «هؤلاء كانوا ساردوكاراً في زيّ الهراكنة».

الآن، بدأت ضربات منتظمة تضرب الباب.

أشار كاينز إلى الخزانات المصطفة بمحاذاة الحائط الذي إلى يمينه، وقال: «من هنا»، ثم اتجه إلى الخزانة الأولى، وفتح أحد أدراجها، وأدار مقبضاً بداخله. انفتح جدار الخزانات برمته كاشفاً عن نفقٍ مظلم خلفه. قال كاينز: «هذا الباب أيضاً من البولاد». قالت چيسىكا: «أنتم مستعدون جيداً».

قال كاينز: «لقد رزحنا تحت نير الهراكنة الهراكنة لثمانين عاماً»، ثم اقتادهما إلى فمّ الظلام، وأغلق الباب. وسط العتمة المفاجئة، رأت چيسىكا سهماً مضيئاً يتوهج على الأرض أمامها.

جاء صوت كاينز من خلفهما: «هنا سنفترق. هذه الجدار متين، وسيصمد نحو الساعة. اتبعا تلك الأسهم المضيئة على الأرض -التي ستخمد من تلقاء ذاتها فور مروركما- وستقودكما عبر متاهة من الممرات إلى مخرج آخر خبأت عنده طائرة ثوبتر. ستجتاح الصحراء الليلة عاصفة عاتية. أملكما الوحيد هو بلوغ تلك العاصفة، والغوص فيها، ومن ثم ركوبها. هكذا يفر قومي بالثوبترات التي يستولون عليها. إن امتطيتما العاصفة ستجوان». سأله پول: «وماذا عنك؟».

- «سأحاول الهروب من طريق آخر، وإن أسرت لا مشكلة، فأنا ما زلت عالم البيئات الكوكبية التابع للإمبراطور. سأدعي أنني كنت أسيراً لكما».

فكر پول: ها نحن نهرب كالجبناء. لكنها الطريقة الوحيدة كي أعيش لأنتقم لأبي، ثم استدار ليووجه الباب. سمعت چيسىكا حركته، وقالت: «دانكن مات يا پول. لقد رأيت جرحه بنفسك. لا يمكنك مساعدته الآن».

قال پول: «سأثأر لهم جميعاً يوماً ما».

قال كاينز: «لن تفعل إن لم تُسرع الآن».

شعر پول بيد الرجل تربت على كتفه.

سأله پول: «أين سنلتقي يا كاينز؟».

- «سأرسل جماعة من الفرمن للبحث عنكما، فمسار العاصفة

معروف لنا. أسرع الآن، عسى أن تمنحك الأم العظيمة السرعة والحظ».

ثم سمعاه يهرول مبتعداً في الظلام.

بحثت چيسىكا عن يد پول، وجذبتة إليها برفق وقالت: «يجب

ألا نفترق».

- «أجل».

تبعها پول ومراً فوق السهم الأول، ورأياه ينطفئ فور ملاستهما

له. أضاء سهم آخر مرشداً الطريق أمامهما، فعبراه، ورأياه يغبو

من تلقاء نفسه، ثم أضاء آخر أمامهما.

كانا يركضان الآن.

فكرت چيسىكا: خطط ضمن خطط ضمن خطط. هل صرنا

جزءاً من خطة شخص آخر الآن؟

قادتاهما الأسهم عبر منعطفات، وفتحات جانبية استشعروها

بالكاد في الإضاءة الخافتة. انحدر بهما المسار بعض الوقت، ثم

بدأ يصعد، واستمر في صعوده. في النهاية وصلا إلى درجات

منحوتة، ثم أخذنا منعطفاً، ليجدا نفسيهما أمام حائط مضيء

يسد الطريق، في منتصفه مقبض داكن.

أمسك پول بالمقبض وحركه.

انفتح الحائط إلى الخارج، وأغشى أعينهما ضوء باهر، قبل

أن يكشف لهما عن كهف محفور في الصخر تقبع بمنتصفه

أورنيثوبتر منتظرة. لاح حائط رمادي مسطح من خلف الطائرة عليه لافتة تشير إلى أنه باب.

سألت جيسिका: «أين ذهب كاينز؟».

قال پول: «فعل ما كان سيفعله أي زعيم حرب عصابات جيد، فصلنا إلى مجموعتين ورتب الأمر بطريقة لا تسمح له بكشف موقعنا إذا وقع في الأسر، لأنه يجهله حقًا».

سحبها پول معه إلى داخل الغرفة، ولاحظ كيف أن خطواتهما تشير غبارًا سميكًا يغطي الأرضية.

قال لها: «لم يأت أحدٌ إلى هنا منذ وقتٍ طويل».

قالت: «بدا واثقًا بأن الفرمن سيعثرون علينا».

- «وأنا أشاركه ذات الثقة».

أقلت پول يدها، واتجه إلى باب الأورنيثوبتر وفتحه، وأمن مكانًا لحقيبته في الخلف.

ثم قال: «هذه الطائرة محجوبة عن أجهزة الاستشعار. لوحة العدادات بها زر للتحكم عن بُعد في الباب، وآخر للتحكم في الإضاءة. ثمانون عامًا تحت حكم الهراكنة علمتهم الكثير».

استدت جيسिका إلى باب الطائرة الآخر، ملتقطًا أنفاسها.

ثم قالت: «سينشر الهراكنة قوّاتهم لتمشيط المنطقة. إنهم ليسوا أغبياء»، ثم استجمعت حاسة الاتجاه لديها، وأشارت إلى اليمين: «العاصفة التي رأيناها في هذا الاتجاه».

أومأ پول، وقاوم شعورٌ مفاجئ بالإحجام والنفور اعتراه. كان يدرك السبب الكامن وراء الشعور، لكن المعرفة لم تنفعه بشيء. في لحظةٍ ما من هذه الليلة كان قد عبر المفترق الذي تتشعب منه القرارات، وغاص في أعماق المجهول. كان يعلم النطاق

الزمني الذي هما فيه، لكن اللحظة الآنية كانت مكاناً مبهمًا يلفه الغموض. بدا الأمر كأنه رأى نفسه من بعيد يغيب عن النظر أسفل وادٍ، ومن بين الطرق التي لا حصر لها التي تخرج متشعبة من هذا الوادي، قد يصل بعضها به إلى برِّ الأمان، لكنه قد يضل في كثيرٍ منها.

قالت جيسيكا: «كلّما طال انتظارنا، سيكونون أكثر استعداداً».

قال لها: «اركبي واربطي حزامك».

انضمَّ إليها پول داخل الأورنيثوبتر وهو ما زال يصارع فكرة أن هذه اللحظة منطقة عمياء، لم يرها في أيِّ رؤيا استبصارية، وأدرك مصدومًا أنه صار يعوّل أكثر فأكثر على ذاكرته الاستبصارية، وأن هذا أضعف قدرته على التعامل مع هذا الظرف الطارئ.

«الاعتماد على عينيك يضعف حواسك الأخرى». هذا قول مأثور لدى البني جيسيرت. طبّق پول القول على نفسه، وأقسم ألا يقع في هذا الشرك مرّةً أخرى. هذا إن نجا.

ربط پول حزام المقعد، وتأكد من أن حزام أمّه مربوط جيّدًا، ثم فحص عدّادات المركبة. كانت الأجنحة مفرودة في حالة استرخاء كامل، ونسيجها المعدني الرقيق ممدودًا.

جذب پول القضيب الضام، ورأى الأجنحة تتكمش استعدادًا للإقلاع بالنفّاثات بالطريقة التي علّمه إيّاها جيرني هاليك. دار مفتاح التشغيل بسلاسة، فدبّت الحياة في عدّادات لوحة التحكم مع عمل المحرّكات، ودارت التوربينات مصدرة هسيسًا خافتًا. سألتها: «مستعدة؟».

- «أجل».

ضغط زرّ التحكم في الإضاءة عن بعد.

فلفَّهما الظلام.

صارت يدها ظليَّين يتحرَّكان على خلفية العدَّادات المضئية، وضغط زر تشغيل آلية باب الحجرة عن بُعد. تعالى صرير معدني حاد من أمامهما، وانهاش شلال الرمال المتراكمة خلف الباب إلى داخل الحجرة قبل أن يعم الصَّمْت. لمس نسيمٌ غابر وجنتي پول، فأغلق باب الثوبتر وشعر بالضغط المفاجئ الذي وقع على أذنيه. ظهرت رقعة واسعة من النجوم غير الواضحة وسط الغبار، محاطة بإطار من الظلام يشكِّل أضلعه الباب الجداري. حدَّد ضوء النجوم معالم جرفٍ صخري بعيد، وبدت أسفله التموجات الرملية غير واضحة.

أدار پول محوّل التشغيل المضئيء على اللوحة. فرفرت الأجنحة بقوة إلى أعلى وأسفل دافعةً الثوبتر خارج عُشِّها، ثم تدفَّق الوقود المحترق من النفَّاثات وطُويت الأجنحة في وضع الإقلاع.

وضعت جيسكا يديها على أدوات التحكم الخاصة بمساعد الطيَّار برفق، مستشعرةً الثقة التي يتحكَّم فيها ابنها في المركبة. شعرت بالخوف والبهجة في آنٍ واحد، وفكَّرت: تدريب پول هو أملنا الوحيد الآن. لا أمل لنا سوى شبابه وحيويَّته.

ضخَّ پول مزيداً من الوقود في المحرَّكات النفَّاثة. مالت الثوبتر على جانبها ففاصا في مقعديهما، وارتفع جدارٌ داكن أمامهما حاجباً بعض النجوم. أطلال پول أجنحة المركبة، وغداها بمزيد من الطاقة، وبعد خفقات متتالية من رفرفة الأجنحة ارتفعا فوق الصخور، وشاهدا أسفلهما النتوءات والزوايا السابحة في ضوء النجوم الفضِّي. إلى يمينهما، كشف القمر الثاني عن نفسه فوق

خط الأفق من وراء سحابة غبار حمراء، محدّدًا مسار العاصفة. عزفت يدا پول بمهارة على أدوات التحكّم. انمكشت الأجنحة بتحزيز إلى أن صارت كأجنحة خنفساء قصيرة، وضغطت قوّة التسارع جسديهما بقوة عندما مالت الطائرة بزاوية حادّة. قالت جيسيكّا: «شعلات تمويه حراري أمامنا».

- «أراها».

قالها ودفع ذراع الطاقة إلى الأمام. وثبت الثوبتر كالحَيوان المذعور، واندفعت مرتفعةً باتجاه الجنوب الغربي نحو العاصفة ومنحنى حافة الصّحراء العظيم. على مسافة قريبة، رأى پول ظلالاً متناثرة تدل على المكان الذي ينتهي عنده خط الصخور، حيث تفوص شبكة السراييب تحت الكُثبان الرملية. خلف الصخور، امتدّ بحرٌ من الظلال الهلالية في ضوء القمر: كُثبان يُموج بعضها في بعض، عاريةٌ من كل أثر. وفوق خطّ الأفق، ارتفعت العاصفة الهائلة إلى عنان السماء، كجدار هائل يحجب النجوم.

رجّ شيءٌ ما بدنَ الثوبتر.

شهقت جيسيكّا جزعة: «قذيفة منفجرة! إنهم يستخدمون نوعاً ما من المقذوفات».

رأت جيسيكّا الابتسامة الوحشية التي تلاعبت على ثغر پو وهو يقول: «يبدو أنهم يتجنّبون استخدام مدافع الليزر».

- «لكننا لا نملك درع طاقة!»

- «وهل يعرفون ذلك؟»

ارتجّ بدن الثوبتر مجدّدًا.

ثنى پول جزعه لينظر خلفه، وقال: «بينهم واحد فقط سريع بما يكفي لمواكبتنا».

ثم أعاد انتباهه إلى مساره، ورأى العاصفة تتنامى في الأفق، وتلوح أمامهما كأنها جدارٌ صلد ملموس.

همس پول: «علينا تسليح الفرمن بالقاذفات والصواريخ وكل الأسلحة القديمة الأخرى».

قالت جيسكا: «العاصفة يا پول، أليس من الأفضل أن تستدير؟».

- «ماذا عن المركبة التي تلاحقنا؟».

- «إنها ترتفع مبتعدة».

- «الآن إذًا!».

قالها پول وطوى الأجنحة، ومال بزاوية حادة إلى اليسار متجهًا صوب جدار العاصفة الذي بدا -على نحوٍ مضلل- أنه يموج ببطء، وشعر بقوة التسارع تجذب لحم وجنتيه.

انزلقا عبر سحابة بطيئة من الغبار ازدادت كثافةً وثقلًا بالتدريج مع توغلها فيها، إلى أن حجبت عنهما الصحراء والقمر، وصارت الطائفة قطعة من الظلام البهيم لا يكسره إلا الضوء الأخضر المنبعث من لوحة العدادات.

تذكرت جيسكا كل التحذيرات المتعلقة بمثل هذه العواصف في ومضات خاطفة: كيف أنها قادرة على قطع المعدن كأنه زبد، وتجريد العظام من اللحم، ونخر العظام إلى رميم.

أحسّت بعصف الرياح المحملة بالغبار. أمالت الرياح الثوبتر التي يجاهد پول كي يتحكم فيها، ورأته يقطع الطاقة عن المحركات، ثم شعرت بالمركبة تتحدر نزولاً. ارتجف المعدن من حولهما وأنّ مصدرًا هسيًا عاليًا.

صاحت جيسيكاً: «الرمال!».

ورأته يهزُّ رأسه نفيًا في ضوء لوحة التحكُّم: «لا توجد رمال كثيرة على هذا الارتفاع».

لكنها شعرت بأنهما يغوصان أكثر في قلب العاصفة.

فرد پول الأجنحة على أقصى امتداد لها، وسمع صريرها تحت تأثير الضغط، وأبقى عينيه مثبتتين على العدادات. استمرَّ يخلُق بالثوبتر بغرزته الفطرية، مجاهدًا للحفاظ على ارتفاعها. خفت صوت اندفاعهما عبر الرياح، وبدأت الثوبتر في الانحراف يسارًا. ركَّز پول انتباهه على الكرة المضيفة في عداد منحنى الاتجاه، وجاهد مستعيدًا مركبته إلى مستوى التحليق. راود جيسيكاً شعورٌ غامضٌ بأنهما ثابتان في مكانيهما، وأن الموجودات في الخارج هي التي تتحرَّك. صفرة غابرة غامضة تتدفَّق على النوافذ، وصريرٌ خشن ذكرها بالقوى العاتية المحيطة بهما. وفكَّرت: تلك الرياح سرعتها سبعمئة أو ثمانمئة كيلومتر في الساعة. شعرت بالأدرينالين يتدفَّق في عروقها، قالت لنفسها: يجب ألا أخاف، متممةً بكلمات تعويذة البني جيسيرت: *الخوف قاتل*. ببطء، انتصرت سنوات تدريبها الطويلة على الخوف. وعادت إليها السكينة.

همس پول: «الوضع خرج عن السيطرة. لن نستطيع الانخفاض أو الهبوط، ولا أظن أنني قادر على اعتلاء العاصفة. سنضطر إلى ركوبها إلى النهاية».

انقشعت السكينة سريعًا كما شملتها، وشعرت جيسيكاً بأسنانها تصطكُ خوفًا، فعضَّت على نواجذها. ثم سمعت صوت پول، منخفضًا ومنضبطًا، يتلو التعويذة:

«الخوف قاتل. الخوف مِيتةٌ صُغرى تُهلك قبل الأوان. سأواجه
خوفي. سأسمح له بتجاوزي والمرور من خلالي. وحين يمرُّ،
سأرني بعين البصيرة لأرى مسلكه. وحيث مضى الخوف لن يبقى
شيء، لن يبقى سواي».

قل لي ماذا تحتقر، أقل لك من أنت!
من كتاب «دليل المؤدّب» للأميرة إيrolان.

قال قائد الحرس آياكين نيفود: «قُضي الأمر يا مولاي البارون.
المرأة والصبي قطعاً ماتا».

اعتدل البارون فلاديمير هاركونن جالساً في الفراش المعلق
بمضادات الجاذبية في جناحه الخاص. كانت فرقاطة الفضاء
التي هبط بها على أراكس ممتدة خلف هذا الجناح وتحيط
به كبيضة متعددة القشور. لكن هنا في حجرته الخاصة، كان
هيكل السفينة المعدني القاسي مخفياً وراء الستائر والحشوات
القماشية والقطع الفنية النادرة.

كرّر قائد الحرس: «الأمر مؤكد. لقد ماتا».

نقل البارون جسده الضخم في الفراش المعلق بمضادات
الجاذبية، مركزاً اهتمامه على مشكاة عبر الغرفة موضوع عليها
تمثال من حجر الإبالين لصبي يقفز. طار النوم من عينيه، فعدّل
من وضع مضادات الجاذبية المبطنة بحشوة أسفل ثنيات عنقه
المترهّل، وعلى الضوء الخافت المنبعث من كرة الإنارة الوحيدة
في غرفة نومه نظر إلى المدخل حيث يقف نيفود، يمنعه من
الدخول درع الطاقة الخماسي.

كرّر الرجل: «المرأة والصبي قطعاً ماتا أيها البارون».

لاحظ البارون النظرة البليدة في عيني نيفود من أثر تعاطي
السّموتا. بدا واضحاً أن الرجل كان منتشياً بالمخدّر عندما تلقى
هذا التقرير، وأنه تناول الترياق لتوّه قبل أن يسرع إلى هنا.

قال نيفود: «جاءني تقريرٌ كامل».

فكَّر البارون: دعه يتعَرَّق خوفًا قليلًا. على المرء أن يحافظ دائماً على أداتي فن الحكم، السُّلطة والخوف، مشحونتين وجاهزتين.

دمدم البارون: «هل رأيت جثَّيهما؟».

بدا التردُّد على نيفود.

- «حسنًا».

- «مولاي... لقد شوهدا يفوصان في عاصفة رملية. سرعة الرياح في تلك العواصف تصل إلى ثمانمئة كيلومتر. لا شيء ينجو من تلك العواصف يا مولاي، لا شيء على الإطلاق! إحدى طائراتنا دُمِّرت في أثناء المطاردة».

حدَّق البارون إلى نيفود، ولاحظ الرعشة البادية في عضلات فمه، وحركة ذقنه وهو يبتلع ريقه.

كرَّر البارون سؤاله: «هل رأيت الجثَّ؟».

- «مولاي...».

قاطعه البارون هادراً: «لأي غرض أتيتني متبخترًا في درعك إذا؟ كي تزفَّ إليَّ خبرًا مؤكَّدًا في حين أنه ليس كذلك؟ أظننت أنني سأثني عليك لغبائك، أم ربَّما سأمنحك ترقيةً أخرى؟».

شحب وجه نيفود حتَّى صار في بياض العظام.

فكَّر البارون: ما أجبنه من دجاجة. أنا محاط بأمثال هذا النافه الحقيير. إذا نشرت الرمال أمام هذا الكائن وقلت له إنها حبوب، فسوف ينقرها.

سأل البارون: «إذا قادنا ذلك المدعو آيداهو إلى مكانيهما؟».

- «أجل يا مولاي!».

فكّر البارون: انظر كيف يلفظ إجاباته بلا تفكير، ثم قال:
«كانا يحاولان الفرار إلى الفرمن، أليس كذلك؟».

- «أجل يا مولاي».

- «هل ذكر.. هذا التقرير شيئاً آخر؟».

- «عالم البيئات الكوكبية كاينز متورط في الأمر يا مولاي.
انضم آيداهو إلى هذا المدعو كاينز في ظروف غامضة.. بل
يمكن أن أصفها بالمريبة».

- «و؟».

- «لقد.. آه.. فرأى معاً إلى مكان في الصحراء من الواضح أن
الصبي وأمه كانا يختبئان فيه. في خضم المطاردة، أطيح انفجار
ناتج عن تماس شعاع ليزر مع درع طاقة بعدة مجموعات من
قواتنا».

- «كم رجلاً فقدنا».

- «آه.. لست متأكدًا بعد يا مولاي».

فكّر البارون: إنه يكذب. لا بُدَّ أن الخسارة فادحة.

قال البارون: «وهذا الخادم الإمبراطوري المدعو كاينز، كان
يلعب على الطرفين، أليس كذلك؟».

- «أراهن بسمعتي على هذا مولاي».

سُمعته!

سأل البارون: «اقتلوه».

- «ولكن يا مولاي! كاينز عالم البيئة الإمبراطوري، وهو تابع
لجلالته...».

- «رتّبوا مقتله كي يبدو كأنه حادث إذا».

- «مولاي، اشترك السَّارِدوكار مع قَوَّاتنا في مداهمة وكر الفرمن. كايئز في حوزتهم الآن».
- «انتزعه من قبضتهم إذا. قل إنني أريد استجوابه».
- «وإذا اعترضوا؟».
- «لن يعترضوا إذا تصرَّفت مع الأمر بحكمة».
- ابتلع نيفود ريقه وقال: «حسنًا يا مولاي».
- دمدم البارون: «هذا الرجل يجب أن يموت. لقد حاول مساعدة أعدائي».
- تململ نيفود في وقفته كاللقلق.
- «ماذا أيضًا؟».
- «مولاي، لدى السَّارِدوكار أسيرٌ آخر قد يهْمُك أمره. لقد أمسكوا بكبير المقاتلين التَّابع للدوق».
- «حوَّاط؟ ظفير حوَّاط؟».
- «لقد رأيت الأسير بنفسي يا مولاي. إنه حوَّاط بالفعل».
- «لم أحسب أن هذا ممكنًا».
- «قالوا إن قذيفة صاعق أفقدته وعيه في الصَّحراء، حيث لم يستطع استخدام درعه. لم يصب بأذى تقريبًا يا مولاي. إذا تمكَّنا من وضع أيدينا عليه، فسنستلِّي كثيرًا».
- زمجر البارون قائلاً: «أنت تتحدَّث عن مِنّات. المرء لا يفرط في مِنّات. هل تكَلَّم؟ ما تعليقه على هزيمته؟ هل يدرك أبعاد ال... بالتأكيد لا».
- «ما قاله يا مولاي يكشف أنه يظنُّ أن الليدي جيسيكَا هي الخائنة».

- «آه! آه!..»

غاص البارون في جلسته مفكراً قليلاً، ثم قال: «هل أنت متأكد من أن غضبه منصبٌ على الليدي چيسيكاف؟»

- «قالها في حضوري يا مولاي».

- «دعه يظن أنها نجت إذا».

- «ولكن يا مولاي...».

- «لا أريد جدالاً! أريد أن يُعامل حوَّاط برفق، وألاً يعرف شيئاً عن الدكتور يُوي الراحل، الخائن الحقيقي. أخبروه بأن الدكتور يُوي مات وهو يدافع عن دوقه، فهذه حقيقةٌ بشكلٍ أو بآخر. وفي المقابل، سنغذي شكوكه في الليدي چيسيكاف».

- «مولاي، أنا لا...».

- «التحكم في أيِّ منتجات وتوجيهه يا نيفود يكون عن طريق تضليله بالمعلومات. المعلومات الزائفة تؤدي إلى استنتاجات زائفة».

- «صحيح كلامك يا مولاي، ولكن...».

- «أهو جائع؟ أو ظمآن؟».

- «مولاي، حوَّاط ما زال في قبضة السَّاردوكار».

- «آه، صحيح! لكن السَّاردوكار سيكونون حريصين مثلي تماماً على انتزاع المعلومات من حوَّاط. لقد لاحظت شيئاً عن حلفائنا يا نيفود. إنهم لا يتمتعون بالدهاء... السياسي. أظن أن هذا الأمر متعمَّد ومدرّوس. الإمبراطور يريدهم هكذا. أجل، أظن هذا. ذكّر قائد السَّاردوكار بشهرتي في الحصول على المعلومات من الأسرى الممانعين».

بدا الاستياء على نيفود وهو يقول: «أمرك يا مولاي».

- «أخبر قائد السَّاردوكار أنني أرغب في استجواب كلِّ من

حوّاط وكاينز في الوقت نفسه، لتقليب أحدهما على الآخر. أظنه سيفهم هذا جيّدًا».

- «أمرك يا مولاي».

- «وما إن نضع أيدينا عليهما...»، قالها البارون وأوماً في رضا.

- «مولاي، سيطلب السّاردوكار وضع مراقب معك في أثناء... الاستجواب».

- «سنخلق أيّ حجة لإبعاد المراقبين غير المرغوب فيهم يا نيفود».

- «فهمتكَ يا مولاي. وعندها سيتعرّض كاينز لحادثة».

- «كلّ من كاينز وحوّاط سيتعرّض لحادثة يا نيفود، ولكن حادثة كاينز وحدها هي التي ستكون حقيقية، فأنا لا أريد إلّا حوّاط. آه، أجل!».

رمش نيفود وابتلع ريقه وبدأ كأنه على وشك أن يطرح سؤالاً، لكنه ظلّ صامتاً.

قال البارون: «قدّموا الطعام والشراب إلى حوّاط، وعاملوه برفقٍ ولين. وفي شرابه دسّوا السّمّ الكامن الذي ابتكره پايتريدي فريس، واحرص على حقن الترياق في طعامه باستمرار بدايةً من هذه اللحظة، ما لم أعطك أمراً بخلاف ذلك».

- «الترياق، بالتأكيد»، ثم هزّ نيفود رأسه وأردف: «ولكن...».

- «لا تكن غيبياً يا نيفود. كاد الدوق يقتلني بتلك الكبسولة السّامة، وقد سلبني الغاز الذي زفره في حضوري أهمّ منّات لديّ. أحتاج إلى بديل».

- «حوّاط؟».

- «أجل، حوّاط».

- «ولكن...».

- «أعرف ما ستقول، إن حَوَّاط مخلص تمامًا لآل آتريديز. هذا صحيح، لكنهم ماتوا جميعًا. سنتودَّدُ إليه، وسنقنعه بأنه ليس مسؤولاً عن وفاة الدوق، وبأن الأمر برُمَّته من فعل ساحرة البني چيسيرت تلك. سننفض في أذنيه أن سيِّده كان ضعيفًا وسمح لعواطفه بأن تعمي عقله. المِنتات يُعجبون بالقدرة على التفكير دون عواطف يا نيفود. سنظفر بظفير حَوَّاط العظيم».

- «أجل يا سيِّدي، سنظفر به».

- «للأسف، حظي حَوَّاط بسيِّد فقير الموارد، شخص لا يستطيع رفع مِنتاته إلى أعلى مستويات المنطق، إلى ذرى التفكير السامية التي يستحقُّها كل مِنتات. سيرى حَوَّاط شيئًا من الحقيقة في هذا، فالدوق لم يستطع تحمُّل مصاريف جواسيس أكفاء لتزويد مِنتاته بالمعلومات المطلوبة». أنهى البارون كلامه وحدَّق إلى نيفود، ثم أردف: «لا داعي لأن نخدع أنفسنا يا نيفود، فالحقيقة سلاح قوي. نحن نعلم كيف هزمنا آل آتريديز، وحَوَّاط أيضًا يعلم. فعلناها بالثروة».

- «أجل يا مولاي، بالثروة».

قال البارون: «سنستقطب حَوَّاط، وسنخفيه عن أعين السَّاردوكار. وسنبقي ورقة الترياق المضاد للسُّم في أيدينا على سبيل الاحتياط. لا سبيل أمام الجسم للتخلُّص من السُّم الكامن. يجب ألا يرتاب حَوَّاط في الأمر يا نيفود. الترياق لن ينكشف لأيِّ كشاف سموم. يستطيع حَوَّاط فحص طعامه كما شاء ولن يكتشف أدنى أثرٍ للسُّم».

التمعت عينا نيفود بالفهم.

قال البارون: «غياب الشيء يمكن أن يكون مهميًا كوجوده. كغياب الهواء، أليس كذلك؟ أو الماء؟ أو أي شيء آخر لا يمكن الاستغناء عنه»، ثم أومأ مردفًا: «أتفهمني يا نيفود؟».

ابتلع نيفود ريقه وقال: «أجل يا سيدي».

- «اذهب ونفذ إذا. اعثر على قائد الساردوكار وحرك الأمور».

- «على الفور يا مولاي»، قالها نيفود وانحنى، ثم استدار على عقبه وسارع بالمغادرة.

فكر البارون: حوَّاط في صفوف في! يا للروعة! سيقبل الساردوكار بتسليمه لي. إن كانوا يرتابون في شيء، فهو رغبتني في تدمير المنتات، وسوف أؤكد لهم هذا الشك! هؤلاء الحمقى! هذا أحد أعظم المنتات في التاريخ، منتات دُرِّب على القتل، وسوف يلقونه إليّ كأنه دُمِّية سخيفة لا ضير في تحطيمها، لكنني سأريهم كيف يمكن الاستفادة من مثل هذه الدُمِّية.

مدَّ البارون يده تحت الستارة المجاورة لسريره المعلق، وضمضت زُرًّا لاستدعاء ابن أخيه الأكبر، رابان، ثم أراح ظهره مبتسمًا.

كما أن كل آل آتريديز لقوا حتفهم!

قائد الحرس الأحمق محقٌّ بالطبع. قطعًا لا شيء ينجو من العواصف الرملية على أرَّاكس. لا أورنيثوبتر، ولا ركابها. لقد ماتت المرأة والصبيُّ. الرُّشى التي دُفعت للأشخاص في الأماكن الصحيحة، والنفقات الهائلة التي تطلَّبتها تلك الحملة العسكرية الجبَّارة على هذا الكوكب، والتقارير الماكرة التي صيغت خصيصًا للإلقاء على مسمع الإمبراطور وإسعاده.. كل هذا التخطيط الدقيق أتت ثماره أخيرًا.

السُّلْطَة والخوف.. السُّلْطَة والخوف!

سرح البارون في المستقبل الممتد أمامه. يومًا ما سيصبح أحد الهراكنة إمبراطورًا. ليس هو، ولا ولدًا من صلبه، وإنما فردًا آخر من نسل الهراكنة. ليس رابان الذي استدعاه لتوّه، بل شقيقه الأصغر فيد راوثا. كان الفتى يتمنّع بحِدَّة ذهن تثير إعجاب البارون.. كان يتمنّع بشراسة.

فكّر البارون: إنه غلام رائع. بعد عام أو اثنين، لنقل عندما يبلغ السَّابعة عشرة من عمره، سأعرف على وجه اليقين إن كان هو الأداة التي يحتاج إليها الهراكنة للجلوس على العرش أم لا. - «مولاي البارون».

كان الواقف خلف مجال طاقة باب غرفة نوم البارون رجلٌ قصير البنية، غليظ الوجه والبدن، ورث صفات الهراكنة الذكورية من قِصر المسافة بين العينين وعَرَض المنكبين. كان يتمنّع ببعض الصلابة أسفل دھونه، لكن كان يتّضح من هيئته أنه سيأتي يومٌ عليه سيضطّر فيه إلى الاستعانة بحزام مضادات جاذبية لحمل وزنه الزائد.

فكّر البارون: ما ابن أخي إلا دَبَابَة بشرية، عضلات بلا عقل. إنه ليس مِنْتَأًا.. ليس بايتريدي فريس.. لكنه رُبَّما أنسب شخص للمهمّة المطروحة. إن أعطيته مطلق الحرّية، سيسحق كل شيء في طريقه. أوه، كم سيكون مكروها هنا على أَرَاكس.

قال البارون: «عزيزي رابان»، ثم أزال مجال طاقة الباب، لكنه أبقى على درع جسده بكامل طاقته، عالمًا أن وميضه سيكون واضحًا في ضوء كرة الإنارة المجاورة لفراشه.

قال رابان: «هل استدعيتني؟»، وخطا إلى داخل الحجرة ملقيًا نظرة عبر اضطراب الهواء الناتج عن درع الطاقة، وبحث عن أحد المقاعد المضادة للجاذبية فلم يجد.

قال البارون: «اقترب كي أراك بوضوح».

خطا رابان خطوة أخرى مفكراً في هذا العجوز اللعين الذي
تعتمد إزالة كل المقاعد ليَجبر الزائر على الوقوف.

قال البارون: «مات آل آترديز عن بُكرة أبيهم. هذا هو السبب
الذي استدعيتك إلى أراكس من أجله. لقد عاد الكوكب لك».
طرفت عينا رابان: «لكنني ظننت أنك ستدفع ببايتر دي فريس
إلى...».

- «بايتر كذلك مات».

- «بايتر؟».

- «أجل بايتر».

أعاد البارون تشغيل مجال طاقة الباب، وضبطه بحيث يحجب
اختراق كل أنواع الموجات.

سأله رابان: «أخيراً سئمت منه، أليس كذلك؟».

بدا صوته خافتاً وبلا حياة بسبب خلو الغرفة من الموجات.
دمدم البارون: «سأقول لك شيئاً لن أكرّره مرةً أخرى. أنت
تلّمح إلى أنني تخلّصت من بايتر كما يتخلّص المرء من شخص
تافه عديم القيمة... هكذا»، وفرقع بإصبعيه، ثم أردف: «أنا لست
غيباً إلى هذه الدرجة يا ابن أخي، وإذا لمّحت مرةً أخرى - بكلمةٍ
أو بفعلٍ - أنني بهذا الغباء فلن أتهاون معك».

ضاقّت عينا رابان وبدا الخوف فيهما. كان يعلم الحدود
التي لن يتجاوزها البارون في توقيع العقاب على فرد من أفراد
العائلة، والتي نادراً ما تصل إلى الإعدام، إلّا إذا كان على المحك
أرباح هائلة، أو لو أُسْتُفِزَ إلى أقصى درجة. لكن هذا لا ينفي أن
العقوبات العائلية قد تكون مؤلمة.

قال البارون: «اعذرني يا سيدي البارون»، وخفض عينيه لا لإظهار خضوعه فحسب، بل لإخفاء غضبه كذلك.

قال البارون: «خنوعك لا يخدعني يا رابان».

أبقى رابان عينيه خفيضتين، وابتلع ريقه.

قال البارون: «أردت أن أوضح لك نقطة معينة. إياك والتخلص من شخص دون تفكير، بالطريقة التي قد تتخلص بها إقطاعية كاملة من شخص اعتباراً مراعاةً لأصول المحاكمة العادلة. لا تفعل ذلك إلا للضرورة القصوى، واعلم هدفك جيداً أولاً».

بدا الغضب في صوت رابان وهو يقول: «لكنك قضيت على الخائن يُوي! رأيت جثته تُحمل إلى الخارج عندما وصلت الليلة الماضية».

أنهى رابان عبارته وحدّق إلى عمّه وقد اعتراه خوفٌ مفاجئ من وقع كلماته.

لكن البارون قال مبتسماً: «أنا أتعامل بحرص شديد مع الأسلحة الخطيرة. الدكتور يُوي كان خائناً، وقد سلّمني الدوق على طبق من ذهب»، ثم ازداد صوت البارون قوّة وهو يكمل: «لقد استطعت تحريض طبيب من كلية سوك! فرد من دوائرها الداخلية! أسمعني يا فتى! لكن هذا النوع من الأسلحة أخطر من أن يُترك. لم أقض عليه اعتباراً».

- «هل علم الإمبراطور أنك استطعت تحريض أحد أطباء سوك؟».

فكّر البارون: هذا سؤال ثاقب. هل أسأت الحكم على ابن

أخي؟

قال البارون: «لم يعلم بعد، لكن لا شك أن جنوده السَّارِدوكار سيخبرونه. لكن قبل حدوث ذلك، سأرفع إليه تقريرِي الخاص عبر قنوات شركة تشوم الإدارية، وسأشرح له أن الحظ حالفني في العثور على طبيبٍ ادَّعى الخضوع للتهبئة العقلية. طبيب مزيف، أتفهمني؟ وبما أن الجميع موقنون من استحالة اختراق تهبئة كُلية سوك، سيلقى كلامي قبُولاً».

غمغم رابان: «آها، فهمت».

فكَّر البارون: أمل أن تكون قد فهمت بالفعل. أمل أن تكون قد فهمت أهمية إبقاء هذا الأمر سِرّاً. لم أفعَل ذلك؛ لِمَ أتفاخر أمام ابن أخي الأحقق هذا. ابن أخي الذي يجب استخدامه والتخلص منه؟ شعر البارون بالغضب من نفسه، وشعر بخيانتها له.

قال رابان: «يجب إبقاء الأمر سِرّاً، أفهم ذلك».

تتهَدَّ البارون: «سأعطيك تعليمات مختلفة بشأن أراكس هذه المرة يا ابن أخي. في آخر مرة حكمت فيها هذا الكوكب، كنت أكبح جماحك بشدَّة. هذه المرة، ليس لدي إلا مطلباً واحداً».

- «وما هو يا سيدي؟».

- «الإيرادات».

- «الإيرادات؟».

- «هل تملك أدنى فكرة يا رابان كم أنفقنا لجلب قوَّة عسكرية بهذا الحجم لإخضاع آل أتريديز؟ هل تملك ولو فكرة مبدئية عن مقدار رسوم التي تفرضها النقابة على النقل العسكري؟».

- «إنها باهظة، أليس كذلك؟».

- «أجل، باهظة!».

أشار البارون بذراع سميكة إلى رابان وقال: «لو اعتصرت كل قرش يمكن الحصول عليه من أراكس في ستين عامًا، بالكاد ستغطي تكاليفنا!».

ففر فاه رابان، ثم أغلقه دون أن يتكلم.

قال البارون ساخرًا: «وتقول باهظة! كان احتكار النقابة اللعين للسفر الفضائي سيفلسنا بالكامل لو لم أكن قد خطّطت لنفقات هذه الحملة منذ مدة طويلة. يجب أن تعلم يا رابان أننا تحملنا وحدنا العبء برمّته، تحمّلنا حتّى تكاليف نقل الساردادوكار».

وتساءل البارون للمرّة الألف إن كان سيأتي يومٌ يمكن فيه الاستغناء عن خدمات النقابة. إنهم كالطفيليات التي تستنزف كل ما يمكن استنزافه من دماء عائلها، دون أن تسمح بموته، حتّى تصبح بلا حول ولا قوّة في قبضتهم حيث يمكنهم إجبارك على الدفع والدفع والدفع.

ودائمًا ما ارتبطت مطالبهم الباهظة بالحملات العسكرية، التي اعتاد عملاء النقابة المدهانون وصفها بسماجة بأنها «بدل المخاطر». ومقابل كل عميل تنجح في زرعه ليكون جاسوسًا لك في هيكل البنك النقابي، يزرعون اثنين في نظامك الإداري. شيء لا يُطاق!

قال رابان: «الإيراد إذاً هو كل ما يهملك».

خفض البارون ذراعه، وضَمَّ يده في قبضة قائلاً: «يجب أن تعصر».

- «وأستطيع أن أفعل ما يحلو لي ما دمت أعصر».

- «كل ما يحلو لك».

قال رابان: «تلك المدافع التي جلبتها معك، هل أستطيع...».

- «أنا بصدد سحبها».

- «ولكنك قلت...».

- «لن تحتاج إلى مثل هذه الألعاب. لقد كانت ابتكاراً صُنع لغرض محدّد، وهي الآن عديمة الفائدة. كما أننا بحاجة إلى تفكيكها لاستخدام معدنها. إنها لا تخرق دروع الطاقة يا رابان، لقد استخدمناها عنصرَ مفاجأة فقط. كان من المتوقَّع أن يتراجع رجال الدوق إلى الكهوف الجرفية على هذا الكوكب اللعين، وكل ما فعلته مدافعنا أنها أغلقتها عليهم».

- «الفرمن لا يستخدمون الدروع».

- «يمكنك الاحتفاظ ببعض مدافع الليزر إن كنت ترغب في ذلك».

- «أجل يا سيّدي. ولي حريّة التصرّف؟».

- «ما دمت تعصر».

ارتسمت ابتسامة شامتة على وجه رابان وهو يقول: «أفهمك تماماً يا سيّدي».

تذمّر البارون: «أنت لا تفهم شيئاً تمام الفهم، لنكن واضحين في هذا من البداية. ما يجب أن تفهمه هو كيفية تنفيذ أوامري. هل خطر ببالك يا ابن أخي أن ما لا يقل عن خمسة ملايين شخص يعيشون على هذا الكوكب؟».

- «وهل نسي سيّدي أنني كنت وصيّته السيريدار على هذا الكوكب من قبل؟ وليعذرني سيّدي في ما سأقول، هذا الإحصاء التقديري قد يكون منخفضاً. من الصعب إحصاء سكان ينتشرون في الأحواض والوهاد كما هو الحال هنا. وعندما تضع في الاعتبار الفرمن قاطني ال...».

- «لا يستحقّ الفرمن وضعهم في الاعتبار!».

- «سامحني يا سيدي، ولكن السَّاردوكار يعتقدون خلاف ذلك».
تردَّد البارون لحظةً محدِّقًا إلى ابن أخيه، ثم سأله: «أتعرف شيئًا لا أعرفه؟».

- «كان سيدي قد أخذ إلى النوم عند وصولي الليلة الماضية. لذا، سمحت لنفسني بالتواصل مع بعض ضبَّاطي... آه، السابقين، الذي كانوا يعملون مرشدين للسَّاردوكار. أفاد ضبَّاطي أن فرقة من الفرمن نصبت كمينًا لإحدى قوَّات السَّاردوكار في مكان ما جنوب شرق موقعنا هذا، وقضت عليهم».
- «قضوا على قوَّة من السَّاردوكار؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

- «أجل يا سيدي».

- «مستحيل!».

هزَّ رابان كتفيه.

قال البارون بسخرية: «فرمن يهزمون ساردوكارًا!».
قال رابان: «إنني أقول ما بلغني فحسب. يُقال أن جماعة الفرمن هذه قد أسرت مِنتات الدوق المُهاب، ظفير حوَّاط».
- «آاه».

نطقها البارون وأوماً مبتسمًا.

قال رابان: «أميل إلى تصديق التقرير، فليس لديك فكرة عن حجم المشكلة التي كان الفرمن يمثلونها لنا».
- «رُبَّما، لكن من رآهم ضبَّاطك لم يكونوا فرمنيين. لا بُدَّ أنهم من جنود آل آترديدز الذين درَّبهم حوَّاط وقد تنكَّروا في ملابس الفرمن. هذا هو التفسير الوحيد الممكن».

هزَّ رابان كتفيه مجددًا، ثم قال: «يرى السَّاردوكار أنهم من

الفرمن. لقد وضع السَّاردوكار بالفعل خطة لمحو الفرمن عن وجه الكوكب».

- «جميل!»

- «ولكن...».

- «هذا سيشفل السَّاردوكار بعض الوقت، وقريباً سنضع أيدينا على حوَّاط. أنا واثق بذلك! أشعر به! آه، يا لهذا اليوم من يوم عظيم! السَّاردوكار يطاردون بعض الجرذان الصحراوية العديمة القيمة، بينما نحصل نحن على الجائزة الحقيقية!».

- «مولاي...»، قالها رابان وتردَّد لحظة عابثاً، ثم قال: «لطانما شعرت بأننا نستهيئ بالفرمن، سواء من ناحية العدد أو ال...».

- «تجاهلهم يا بني! إنهم مجرد رعا. ما يهمُّنا هو البلدات والمدن والقرى المكتظة بالسكان. أعداد كبيرة من الناس تعيش هناك، أليس كذلك؟».

- «أعداد غفيرة يا مولاي».

- «إنهم يقلقوني يا رابان».

- «يقلقونك؟».

- «تسعون بالمئة لا قلق منهم، لكن هناك دائماً قلة مندسة. العائلات الصغيرة وغيرها، أصحاب الطموح الذين قد يحاولون الإقدام على عمل خطر. إن تمكَّن أحدهم من مفادرة أراكس بقصَّة غير لطيفة عمَّا حدث هنا، سأكون مستاءً تماماً. أديك فكرة عن مدى الاستياء الذي سأشعر به وقتها؟».

ابتلع رابان ريقه.

قال البارون: «عليك أن تتخذ تدابير فورية. احتجز رهينة من كل عائلة صغيرة. أيُّ شخصٍ يعيش خارج أراكس يجب أن يعرف أن ما جرى هنا كان معركة عرقية كأيِّ معركة تحدث بين عائلتين

نبيلتين. لا دخل للساردوكار بالأمر على الإطلاق، أتفهمني؟ وبالنسبة إلى الدوق، يجب أن يعلم الجميع أنني عرضت عليه حياة المنفى المعتادة، لكنه توفّي في حادثٍ مؤسف قبل أن يتمكن من قبول العرض، الذي كان على وشك قبوله. هذا هو ما حدث، وأي إشاعة عن وجود السّاردوكار هنا وضلوعهم بالأمر يجب أن تُقابل بالاستهزاء والسخرية».

قال رابان: «كما يرغب الإمبراطور».

- «أجل، كما يرغب الإمبراطور».

- «ماذا عن المهرّبين؟».

- «لا أحد يصدّق المهرّبين يا رابان. يُغضُّ الطرف عن أعمالهم، لكن لا أحد يصدّقهم. على أيّ حال، سيكون عليك توزيع بعض الرُّشى في تلك الأوساط، واتّخاذ إجراءات أخرى أنا واثق بأنك تستطيع التفكير فيها».

- «أمرك يا مولاي».

- «حسنًا يا رابان، شيئان أريدهما منك هي أراّكس: الإيرادات وقبضة حديدية لا ترحم. انظر إلى هؤلاء الحمقى على حقيقتهم: مجرّد عبيد يفارون من أسيادهم وينتظرون الفرصة للتمرد عليهم. لا تُرهم أدنى شفقة أو رحمة».

سأل رابان: «هل يستطيع المرء إبادة كوكب برمّته؟».

- «إبادة؟»، قالها البارون وقد كشفت التفاتة رأسه السريعة عن دهشته، وأردف: «من ذكر أيّ شيءٍ عن الإبادة؟».

- «ظننت أنك ستجلب ثروة بشرية جديدة و...».

- «قلت اعصر يا ابن أخي، لا تبعد. لا تهلك السكّان، وإنّما

أكرههم على الخضوع المطلق. كن كالضواري يا بني»، وابتسم فبدت غمَّازتاه، وشاع تعبيرٌ طفولي في الوجه السمين: «الوحش الضاري لا يتوقَّف أبدًا. لا تظهر رحمة، ولا تتوقَّف. ما الرحمة إلَّا وهمٌ، وحشٌ خياليٌّ تستطيع هزيمته ما دام في بطنك جوع وفي حلقك ظمًا. إيَّاك أن تشبع أو أن ترتوي»، قالها البارون ورَبَّت على انبعاثاته البارزة أسفل مضادات الجاذبية وأردف: «مثلي».

- «فهمت يا سيدي».

قالها رابان وأدار بصره يمنة ويسارًا.

- «كل شيء واضح لك إذا يا ابن أخي؟».

- «باستثناء شيء واحد فقط يا عمي: عالم البيئات الكوكبية،

كاينز».

- «آه، كاينز، أجل».

- «إنه رجل الإمبراطور يا مولاي، وبإمكانه التحرك بحرية

كيفما شاء. كما أنه مقرب جدًا من الفرمن، وتزوج بواحدة منهم».

- «سيموت كاينز بحلول ليلة غد».

- «قتل موظف إمبراطوري عملٌ خطرٌ يا عمي».

سأله البارون: «وكيف تظن أنني وصلت إلى ما أنا فيه بهذه

السرعة؟». كان صوته منخفضًا، ومشحونًا بمعانٍ يُفضَّل ألا تُلفظ.

«علاوة على ذلك، لا داعي أبدًا للخوف من أن يفادر كاينز أراكس،

فلا تنس أنه مدمنٌ على الاسپايس».

- «بالتأكيد!».

قال البارون: «من يعرفون حقيقة إدمانهم لن يرتكبوا فعلًا

يعرّض مصالحهم للخطر، وكاينز قطعًا من العارفين».

قال رابان: «لقد نسيت».

حدَّق أحدهما إلى الآخر في صمت.

في النهاية قال البارون: «بالمناسبة، سوف تضع مخزوني من الاسپايس على رأس أولوياتك. لديَّ مخزون شخصي احتياطي كبير، ولكن تلك الفارة الانتحارية التي شَنَّها رجال الدوق دمَّرت معظم ما كنا نخزِّنه للبيع».

أوماً رابان: «أمرك يا مولاي».

أشرق وجه البارون وقال: «صباح غدٍ، ستجمع ما تبقى من تنظيمات هنا وستقف أمامهم قائلاً: لقد كلَّفني إمبراطورنا الپاديشاه العظيم السامي باستعادة ملكيَّة هذا الكوكب وإنهاء جميع النزاعات».

- «فهمت يا مولاي».

- «هذه المرَّة أنا واثق بأنك فهمت. سنناقش الأمور بتفاصيل أكثر غداً. أما الآن فاتركني كي أكمل نومي».

أبطل البارون مجال طاقة الباب، وراقب ابن أخيه وهو يغيب عن النظر.

وفكَّر: دَبَّابة بشرية، عضلات بلا عقل. سيكونون كالعصف المأكول عندما ينتهي منهم. عندها، سأرسل فيد راوٲا لرفع العبء عنهم، وسيهتفون ويهْللون لمنقذهم. الحبيب فيد راوٲا، الحميد فيد راوٲا، الرحيم فيد راوٲا الذي سينقذهم من الوحش. فيد راوٲا، رجلٌ أولى أن يُتَّبَع ويستحق الموت من أجله. عندما يحين الوقت، سيكون الفتى قد تعلَّم كيف يجمع ويضطهد دون عاقبة. أنا واثق بأنه الشخص الذي نحتاج إليه. سوف يتعلَّم. كما أنه صاحب جسدٍ جميل. حقًا كم هو غلامٌ جميل.

في سنِّ الخامسة عشرة، كان قد تعلَّم فضيلة الصَّمت.
من كتاب «تاريخ المؤدِّب للأطفال» للأميرة إيrolان.

في أثناء ما كان پول يجاهد للتحكُّم في عصا قيادة الثوبتر، أدرك أن عقله يصنّف قوى العاصفة المتشابكة بلا هوادة، ووعيه -الذي يفوق وعي المِنتات- يحسب كل شاردة وواردة. شعر باللفح الغباري، وبالتلاطم، وبالاضطرابات الجويّة المختلطة، وبدوَّامات عرضية بين الفينة والأخرى.

كانت قمرة القيادة من الداخل أشبه بصندوقٍ ثائر تضيئه أشعة خضراء منبعث من لوحة العدَّادات. كان العصف الغباري الأصفر في الخارج غائماً وبلا ملامح، لكن إحساس پول الداخلي بدأ يخترق حجابهِ ويرى عبره.

وفكَّر: يجب أن أعثر على الدَّوامة الصحيحة.

كان يشعر بتضاؤل في قوَّة العاصفة منذ مدَّة ليست بالقصيرة، لكنها ما زالت ترجرجهم بعنف. انتظر پول حدوث اضطرابٍ جويٍّ آخر ليركبه.

بدأت الدَّوامة الهوائية على هيئة موجة عظيمة مفاجئة رجَّت السفينة بالكامل. واجه پول كامل خوفه وانحدر بالثوبتر يساراً. رأت جيسكا المناورة على شاشة مؤشر الارتفاع الكروية. وصرخت: «پول!».

أمالتهما الدَّوامة، ودارت بهما، وقلبتهما رأساً على عقب، ثم رفعت الثوبتر كأنه رقاقة قذفتها عينٌ حمئة دافعةً إيَّاهما إلى أعلى قبل أن تلفظها. ظلَّت الثوبتر تتخبَّط -كهباءٍ مجنَّحةٍ- في قلب الإعصار الغباري الذي ينيره القمر الثاني.

نظر پول إلى أسفل، ورأى عمود الهواء الغباري الساخن الذي قاءهما، وشاهد العاصفة المحتضرة تذوي كأنها مجرى نهر جفّ في الصّحراء: مجرّد غيمة رمادية تصفر شيئاً فشيئاً في أثناء ركوبهما تيّار الهواء الصّاعد.

همست چيسيكا: «خرجنا منها».

أدار پول مركبتهما بعيداً عن الغبار بانحدار منتظم، وراح يمسح سماء الليل ببصره.

ثم قال: «هرينا منهم».

شعرت چيسيكا بدقات قلبها القويّة. أرغمت نفسها على الهدوء وهي تتأمّل العاصفة المتضائلة. أخبرها إحساسها بالوقت أنهما حلّقا ما يقرب من أربع ساعات داخل هذا العصف المتفاقم من قوى الطبيعة، لكن جزءاً من عقلها شعر بأنهما قضيا حياة كاملة فيه. شعرت چيسيكا بأنها ولدت من جديد.

وفكّرت: بدا الأمر كأنه تجسيدٌ لكلمات التعويذة. لقد واجهنا العاصفة ولم نقاوم، وقد تجاوزتنا ومّرت من حولنا ثم مضت، لكننا بقينا.

قال پول: «صوت رفرفة الأجنحة لا يعجبني، لا بُدَّ أن ضرراً أصابها».

شعر بالاضطراب الشائع في بدن الثوبتر من خلال يديه المتقلّبتين على أجهزة التحكم. كانا قد خرجا من العاصفة، لكنهما لم يزلا بعد خارج مجال رؤيته الاستبصارية الكاملة. ومع ذلك فقد هربا، وشعر پول بنفسه مرتعداً من اقتراب وحي جديد. انتابته القشعريرة.

كان الشعور مغناطيسياً ومرعباً، ووجد نفسه مأخوذاً بمعرفة

ما تسبَّب في حدوث هذا الإدراك المُرجف. شعر بأن جزءاً من الأمر كان بسبب تشبُّع الطعام والشراب على أراكس بالاسپايس، لكنه شعر بأن جزءاً آخر قد يعود إلى تعويذة درء الخوف، كما لو أن لكلماتها قوَّة خاصة.

- «لن أخاف...».

السَّبب والمسبَّب: إنه ما زال حيّاً على الرغم من تلك القوى المهلكة، ويشعر بأنه على وشك الانغماس في حالة من الوعي الذاتي لم تكن لتتحقّق دون سحر كلمات التعويذة. تردّد اقتباس من الإنجيل الكاثوليكي البرتغالي في جنبات عقله: «أيّ حواس نفتقر إليها تُعجزنا عن رؤية وسماع عوالم أخرى مُحيطَة بنا؟». قالت چيسیکا: «الصخور في كل مكان».

هزّ پول رأسه لتصفية ذهنه، وركّز انتباهه على التحكُّم في الثوبتر. نظر إلى حيث أشارت أمه، ورأى تكويناتٍ صخرية سوداء بارزة من وسط الرمال أمامهما وإلى يمينهما. شعر بهواء يسفح كاحليه، وغبار يتدفّق إلى قمرة القيادة. ثمّة ثقب في هيكل الثوبتر، ضررٌ آخر أحدثته العاصفة.

قالت چيسیکا: «من الأفضل أن تهبط بنا على الرمال، فقد لا تتحمّل الأجنحة التوقّف المفاجئ».

أشار برأسه نحو بقعة تبرز فيها من بين الكثبان قمم صخرية نحتتها الرياح الرملية، وقال: «سأهبط بالقرب من تلك الصخور. تأكّدي من أن حزام الأمان محكم».

أطاعته وهي تفكّر: معنا ماء وبذلات تقطير. إذا تمكّنا من العثور على طعام، فقد نستطيع البقاء على قيد الحياة مدّة طويلة في هذه الصّحراء. الفرمن يعيشون هنا. نستطيع فعل ما يفعلونه.

قال پول: «ما إن نتوقَّف، اركضي نحو تلك الصخور، وسأتولَّى أنا أمر الحقيقة».

همَّت بقول: «أركض نحو...»، ثم صمتت وأومأت بفهم: «الديدان».

صَحَّح لها: «صديقاتنا الديدان، فسوف تهاجم هذه الثوبتر وتلتهمها، ولن يبقى دليل على مكان هبوطنا».

فَكَّرت جيسيكا: يا لانضباط تفكيره!
انزلت الثوبتر هابطة إلى أسفل شيئاً فشيئاً.

بدأ يشعران بسرعة حركة الطائرة مع اقترابها من سطح الأرض. مرفت الكتبان سريعاً من تحتها فبدت كظلال ضبابية، وبرزت الصخور من وسط الرمال كالجزر. احتكَّ بدن الثوبتر بقمة كثيب فترنَّحت بنعومه، ثم تخطَّت وادياً رملياً، ولمست قَمَّة كثيب آخر.

فَكَّرت جيسيكا معجبةً بكفاءته: إنه يستخدم الرمال لإبطاء سرعتنا.

صاح پول: «تمسَّكي جيِّداً!».

وجذب ذراع كبح الأجنحة برفق في البداية، ثم بقوة أكبر فأكبر، وشعر بها تعبُ الهواء، وتكمش سريعاً بالتدرُّج. صفَّرت الرياح بحدَّة مع مرورها عبر نسيج الأجنحة المعدني المتراكب، ثم بغتةً، ودون سابق إنذار سوى ترنُّح طفيف، التوى الجناح الأيسر الذي أضعفته العاصفة إلى أعلى وانثى نحو الداخل مرتطمًا بجانب الثوبتر. انزلت الثوبتر فوق قَمَّة أحد الكتبان وانحرفت إلى اليسار، ثم تدحرجت هابطةً على الجانب الآخر ودُفنت مقدِّمتها في الكثيب التالي وسط سيل من الرمال

المندفعة. استقرَّت الثوبتر على جانب الجناح المكسور، بينما ارتفع الجناح الأيمن مشيراً إلى السماء.

نزع پول حزام الأمان، وقذف جسده إلى أعلى عابراً أمّه، وجذب الباب بقوة فاتحاً إيّاه. انسكبت الرمال حولهما في المقصورة، جالبة معها رائحة جافّة تشبه رائحة احتكاك حجري صوّان. التقط الحقيقة من المقعد الخلفي، وتأكد من أن أمّه تحرّرت من حزامها. تسلّقت چيسكا جانب المقعد الأيمن وخرجت من هيكل الثوبتر المعدني، وتبعها پول ساحباً الحقيقة خلفه من حمّالتها.

قال آمراً: «اركضي!».

وأشار إلى جانب الكتيب وما خلفه، حيث رأيا ما يشبه برجاً من الصخر نحتته الرياح الرملية.

وثبت چيسكا من فوق الثوبتر واندفعت راکضة على جانب الكتيب المنحدر وهي تسمع لهاث پول من خلفها. وصلا إلى حافة الرمال التي تتحدر بعد ذلك إلى أسفل باتجاه الصخور.

قال پول: «تحرّكي بطول حافة الكتيب، سيكون ذلك أسرع».

شقّاً طريقهما بصعوبة نحو الصخور، تعيقهما الرمال وتثقل أقدامهما.

بدأ صوت آخر يترامى إلى مسمعيهما: همسٌ مكتومٌ.. فحيحٌ.. سعيٌّ جوفيّ خشن.

قال پول: «إنها دودة».

علا الصّوت.

قال پول لاهتاً: «أسرعي!».

على مسافة لا تزيد على عشرة أمتار، ظهرت أمامهما أوّل رقعة صخور حصباء، كشاطئ نجاة مرتفع وسط الرمال، حين سمعا صوت سحق وتمزّق معدني من خلفهما.

نقل پول الحقيبة إلى ذراعه اليمنى، قابضاً إيَّاهَا من حمَّالَتِهَا، فراحَت ترتطم بجانبه وهو يركض. أخذ ذراع أُمِّه باليد الأخرى، وتسلَّقَا الصخرة المرتفعة، وواصلَا ركضهما فوق سطح مغطَّى بالحصى، وعَبَّرَا أخدودٍ صاعدٍ ملئًا نحتته الرياح، وهما يلهثان ملتقطين أنفاسًا جافَّةً في حلقيهما.

لهثت جيسيكا: «لم أعد قادرة على مواصلة الركض».

توقَّفَ پول، ودفعها إلى تجويف صخريٍّ ضيق، واستدار ونظر إلى الصَّحراء أسفلهُ. ركض تَلُّ متحرِّكٍ بمحاذاة جزيرتهم الصخرية خالقًا تموجات في ضوء القمر، صانعًا أمواجًا رملية، وشاقًّا جحرًا طويلًا محدبًا يكاد يكون على مستوى نظر پول من مسافة نحو الكيلومتر. التوى مسار الدودة مخترقًا الكثبان مسويًّا إيَّاهَا بالأرض، وشكَّلَ حلقة غير مكتملة تقاطعت مع الرقعة التي تركا فيها الأورنيثوبتر المحطَّمة.

وحيث مرَّت الدودة، لم يعد للطائرة أثرٌ.

انحرف الجحر الجبلي المتحرِّك صوب الصَّحراء، عائداً أدراجه في ذات مساره، مفتشًا.

همس پول: «إنها أكبر من سفن النقابة! قيل لي أن الديدان تنمو إلى أحجام ضخمة في عمق الصَّحراء، لكنني لم أتخيَّل أنها بهذه الضخامة».

قالت جيسيكا ملتقطَةً أنفاسها: «ولا أنا».

مرةً أخرى، انحرف المخلوق بعيدًا عن الصخور، وأسرع في مسارٍ مستقيم نحو الأفق. أنصتا إلى صوت ابتعاده حتَّى خفت وطفئت عليه أصوات حركة الرمال الناعمة من حولهما.

أخذ پول نفسًا عميقًا، ورفع ناظريه نحو الجرف السَّابح

في ضوء القمر، وقال مقتبسًا من كتاب العبر* : «سافروا ليلاً واستريحوا في الظل نهاراً»، ثم نظر إلى أمّه وقال: «ما زال أمامنا سويغات من الليل. أيا مكانك المواصله؟».

- «أمهلني لحظة».

خطا پول فوق الرقعة الحصباء، ووضع الحقيبة على ظهره وضبط طول حمّالتيها، ووقف لحظات ممسكًا البوصلة الباراوية بيده.

ثم قال: «متى ما تكوني جاهزة».

خرجت چيسيكا من التجويف الصخري، شاعرةً بأنها استعادت قوّتها، وسألت: «أيّ اتجاه سنسلك؟»

أشار پول: «إلى حيث يقودنا هذا الجرف».

- «إلى عمق الصّحراء».

همس پول: «صحراء الفرمن».

ثم سكت وقد هرّه المشهد الذي يتذكّره من رؤية الاستبصارية التي رآها على كلالدان. لقد شاهد هذه الصّحراء من قبل، لكن تفاصيلها كانت مختلفة قليلاً في رؤياه، كأنها صورة بصرية اختفت في غياهب وعيه وتشرّبتها ذاكرته، وحين استعادتها الآن لم تفلح في مطابقتها بإتقان مع المشهد الحقيقي. بدا كأن الرؤيا اختلفت، وأقبلت عليه من زاوية مختلفة، فيما ظلّ هو ثابتاً لم يتحرّك.

تذكّر پول: كان آيداهو معنا في الرؤيا... لكن آيداهو ميّت الآن.

سألته چيسيكا وقد أساءت فهم تردّده: «هل ترى الطريق الذي يجب أن نسلكه؟».

قال: «كلًا، لكننا سنتحرّك على أيّ حال».

أحكم وضع الحقيبة على كتفيه، وضرب الأرض بقدميه صاعداً عبر أخدودٍ حفرته الرمال. وصل بهما الأخدود إلى رقعة أرضٍ صخرية يضيئها القمر، فيها حوافٌ بارزةٌ كأنها مساطب تصعد في اتجاه الجنوب.

اتّجه پول إلى المسطبة الأولى، وتسَلَّقها، فتبعته جيسكا.

لاحظت كيف صار مسارهما محكوماً بما يطرأ أمامهما من عقبات: الجيوب الرملية بين الصخور التي تبطئ حركتهما، وسنون الجرف الحادّة التي نحتتها الرياح التي تجرح كفوفهما، والعوائق التي ترغمهما على اتّخاذ قرار: هل يعبران فوقها أم يدوران من حولها؟ فرضت التضاريس إيقاعها الخاص. لم يتبادلا الحديث إلا عند الضرورة، وبأصواتٍ غليظة مبحوحة من المجهود.

- «احترسي هنا، الرمال تجعل هذه الحافّة زلقة».

- «حذار من أن تصدم رأسك في هذا النتوء».

- «ابقي أسفل ذلك الجرف، فالقمر خلفنا وسيكشف حركتنا

لأيّ شخص في الخارج».

توقّف پول عند تجويفٍ صخري، وأسند ظهره بالحقيبة إلى حافّة ضيّقة.

اتّكأت جيسكا بجانبه، ممتّئةً للحظة الراحة. سمعت پول يشدُّ أنبوب بذلته، فحذت حذوه ورشفت من ماء جسدها المُعاد تدويره. كانت تشوبه ملوحة، فتذكّرت المياه على كладان: تذكّرت النافورة الطويلة التي تبلغ عنان السماء، وما تحويه من ماء وفير يبدو لك كأنه لن ينفد أبداً فلا يشغل بالك.. فقط تستمتع بشكله، أو بالأضواء المنعكسة عليه، أو بصوته حين تقف بالقرب منه.

فَكَّرَتْ جِيسِيكا: ما أَشَدُّ حاجتي إلى التَّوقُّفِ، إلى الرَّاحة، إلى
الرَّاحة الحَقَّة!

خطر لها أن مفهوم الرحمة يعني القدرة على التوقف، ولو
للحظة. لا رحمة حيث لا يُوجد توقف.

دفع پول نفسه بعيداً عن حافة الصخرة، واستدار، وتسلق فوق
سطح مائل، فتَهَدَّت جِيسِيكا وتبعته.

انزلقا هابطين إلى مسطبة عريضة تقود إلى سطح صخري
شديد التحدُّر. ومجدِّداً، أُجبرا على اتِّباع الإيقاع غير المنتظم
الذي يفرضه التقدُّم عبر هذه الأرض الوعرة.

شعرت جِيسِيكا أن الليل صار قواماً مختلطاً من أجسام
مختلفة الأحجام لا تتفك أيديهما عن تحسُّسها وأقدامهما عن
سحقها: جلاميد، وحصى، وقشور صخرية، ورمالٌ خشنة، ورمالٌ
ناعمة، وحبيبات دقيقة، وغبارٌ، ومسحوق مطحون كالديقيق.

سدَّ المسحوق مرشَّحي أنفيهما وكان لا بُدَّ من نفخه باستمرار،
ولم يكف الحصى والرمل الخشن عن الانزلاق على الأسطح
الصلبة مهدِّداً بزلُّ قدم من لا ينتبه له، فيما راحت شظايا
الصخور تجرح الأيدي.

أمَّا جيوب الرمال المنتشرة في كل مكان فكانت تعيق وتكبِّل
حركة أقدامهما.

توقَّف پول فجأة على أحد المساطب الصخرية، وأسند أمَّه
التي تعثَّرت فيه.

أشار إلى اليسار، فنظرت جِيسِيكا على امتداد ذراعه ورأت
أنهما يقفان على قَمَّة منحدر، وأسفلهما بمسافة مثني مترٍ
امتدَّت الصَّحراء كمحيطٍ ساكن يتلألأ موجه الرملِي الهامد في

ضوء القمر الفضّي، وتجري عبره ظلالٌ متعرّجة في منحنيات لا حصر لها تنتهي عند جرفٍ آخر بعيد تكتنفه غشاوة غبار رمادية. قالت جيسيكَا: «صحراء مفتوحة».

قال پول: «غبراء واسعة يصعب عبورها»، وخرج صوته مكتومًا عبر سدّادة المرشّح التي على وجهه. أدارت جيسيكَا رأسها يمينًا ويسارًا، فلم تر شيئًا أسفلها سوى الرمال.

حدّق پول إلى أمام مباشرة عبر الكثبان الرملية المفتوحة، مراقبًا حركة الظلال مع مرور القمر. ثم قال: «العرض نحو ثلاثة أو أربعة كيلومترات». سألت: «ديدان؟» - «بلا شك».

أثقلها الإجهاد، وأضعفت آلام عضلاتها حواسّها، فسألته: «هل نرتاح ونأكل أولًا؟».

خلع پول الحقيبة من فوق كتفه، وجلس أرضًا واتّكأ عليها. استندت جيسيكَا بيدها على كتفه، وغاصت جالسةً على صخرة مجاورة، ثم شعرت به يستدير وهي ترتاح في جلستها، وسمعتة يعبث في محتويات الحقيبة. قال لها: «هاك».

كان ملمس يده جافًا على راحة يدها وهو يدسّ فيها قرصين من أقراص الطاقة.

ابتلعتهما جيسيكَا على مضض برشفة من أنبوب بذلتها.

قال پول: «اشربي كل الماء في بذلتك، فالبداهة تقول إن أفضل مكان لحفظ الماء هو جسدك، فهو يحافظ على مستوى نشاطك مرتفعًا ويجعلك أقوى. ثقي ببذلتك».

أطاعته جيسيكاً، وشرّيت كل ما في جيوب تجميع بذلتها،
وشعرت بعودة النشاط إليها. ثم فكرت في الهدوء الذي يسود
هذا المكان المقفر، وكيف يسكن آلام لحظة تعبهما هذه،
وتذكّرت ذات مرة أنها سمعت المحارب المطرب جيرني هاليك
يقول: «كسرة خبزٍ جافّة مع هدوء وراحة بال خيرٌ من بيتٍ مملوء
بالذبائح والمشكلات».

كرّرت جيسيكاً الكلمات على مسمعي پول.
قال لها: «هكذا كان جيرني».

لاحظت نبرة الحزن في صوته، والطريقة التي تحدّث بها كأنه
يتحدّث عن شخص ميّت، وفكّرت: قد يكون جيرني المسكين
ميّتاً بالفعل. كانت قوَّات عائلة آتريديز إمّا موتى وإمّا أسرى وإمّا
ضائعون مثلهما في هذا الخواء الجاف الذي لا زرع فيه ولا ماء.
قال پول: «كان جيرني -دائماً- بارعاً في الاقتباس. أكاد أسمعه
يقول الآن: "وسوف أجفّف الأنهار، وأبيع الأرض إلى الأشرار،
وسأخرب الأرض وما فيها بأيدي الغرياء"⁽¹⁾».

أغلقت جيسيكاً عينيها، وشعرت بأنها على وشك البكاء من
نبرة الرثاء الحزينة في صوت ابنها.

ولم تمض لحظات حتّى قال پول: «كيف... تشعرين؟».
أدركت أن سؤاله موجّه لحملها، فقالت: «شهورٌ كثيرة تفصلنا
عن ولادة أختك. ما زلتُ... لاثقة جسدياً».
وفكّرت: ما أشدّ الطابع الرسمي الذي تحدّث به إلى فلذة
كبدي! ثم -ولأنه من نهج البني جيسيرت تفتيش النفس بحثاً

(1) سفر حزقيال، الإصحاح الثلاثون، الآية 12 (بتصرّف).

عن تفسير لمثل هذا التصرف الغريب- فشئت سريرتها وعرفت سبب ردّها عليها بهذه الصيغة الرسمية: /إنني أخاف ابني. أخاف غرابته. أخاف ممّا قد يبصره في مستقبلنا، ممّا قد بطلمني عليه.

أرّخى پول غطاء البذلة على عينيه، منصتاً إلى صرير الحشرات في الليل. كانت رثاء مشحونتين بصمته. شعر بحكّة في أنفه ففركه ونزع منه سدّادة المرشّح، فتنبّه لرائحة القرفة الغنية.

قال: «يوجد مزاج اسبابس في مكان قريب».

لمست ريح خفيفة وجنتي پول برقّة الريش، وهزهزت ثيابا ثوبه، لكن هذه الريح لم تحمل معها نذير هبوب عاصفة. لقد بدأ يتلمّس الفرق بين أنواع الرياح آنفاً.

قال پول: «سيبزع الفجر عن قريب».

أومات جيسكا.

قال: «ثمّة طريقة لعبور تلك الرمال المفتوحة بأمان، الفرمن يفعلونها».

- «ماذا عن الديدان؟».

قال پول: «لو زرعنا المطراق الموجود في عدّتنا الفرمنية في هذه الصخور قبل أن نتحرّك، سيجذب انتباه الدودة ويشغلها عنّا بعض الوقت».

حملت جيسكا إلى الصّحراء السابحة في ضوء القمر الممتدّة بينهما وبين الجرف الآخر، وغمغمت: «هل سيؤمن لنا وقتاً يكفي لقطع أربعة كيلومترات؟».

- «ربّما. وإن قطعنا المسافة دون أن يصدر عنّا غير الأصوات الطبيعية التي لا تجذب الديدان فـ...».

ثم بتر عبارته وتأمَّل الصَّحراء المفتوحة، مفتشاً في ذاكرته الاستبصارية، محققاً في التلميحات الغامضة الواردة في دليل عُدَّة الفرمن -الذي أتى مع حقيبة هروبهما- عن المطارق وخطاطيف الصَّانعة، واستغرب أن كل ما شعر به عند التفكير في الديدان هو الذُّعر غير المُبرَّر. كان يعلم -بشكل ضبابي كما لو كان الأمر يقبع على حافة وعيه- أن الديدان يجب أن يُنظر إليها باحترام لا أن يُخشى جانبها. فقط لو... لو...
هزَّ رأسه محبطاً.

قالت جيسिका: «يجب أن تكون الأصوات الصادرة عنا بلا إيقاع».

- «ماذا؟ آه، صحيح. لو كسرنا إيقاع خطواتنا ستزاح الرمال نفسها من تحت أقدامنا على فترات. لا تستطيع الديدان استقصاء كل صوتٍ ضئيل في الصحراء. لكن علينا أخذ قسطٍ كافٍ من الراحة قبل تجربة الأمر».

رنا ببصره صوب الجدار الصخري الآخر، ورأى مرور الوقت في حركة الظلال العمودية التي يلقيها ضوء القمر هناك: «سيبزع الفجر بعد ساعة».

سألته: «أين سنمضي النهار؟».

التفت پول يساراً وأشار: «الجرف يلتوي عائداً نحو الشمال هناك. يمكنك تمييز أن هذا هو وجهه المقابل للريح من الطريقة التي نحتت بها الرياح. ستكون هناك صدوع.. صدوع عميقة».

سألته: «أمن الأفضل أن نبدأ الآن؟».

وقف پول وساعدها على الوقوف قائلاً: «هل ارتحت بما يكفي للهبوط؟ أريد الاقتراب قدر الإمكان من سطح الصَّحراء قبل أن نُخيم».

- «أجل»، وأشارت برأسها إليه كي يقود الطريق.

تردّد پول قليلاً، ثم التقط حقيبته، ووضعها على كتفيه، واستدار وبدأ السير على امتداد الجرف.

فكّرت جيسكا: فقط لو كان معنا مضادات جاذبية، لصار الهبوط وثباً أيسر كثيراً. لكن رُبّما تكون مضادات الجاذبية شيئاً آخر يجب تجنّبه في الصّحراء المفتوحة، رُبّما تجذب الديدان كما تفعل الدروع.

وصلا إلى سلسلة من الرفوف الصخرية تهبط متتالية إلى أسفل، ورأيا خلفها على ضوء القمر صدعاً تبرز منه مسطبة تفضي إلى تجويف المدخل.

تقدّم پول الطريق هبوطاً، متحرّكاً بحذر ولكن بسرعة لأن ضوء القمر كان أخذاً في الخفوت وبدا من الواضح أنه لن يستمر طويلاً. هبطا إلى محيطٍ من الظلال الأعماق والأعمق، وأحاطت بهما أشكال مبهمّة من الصخور ترتقي إلى السماء المزدانة بالنجوم. ضاق الصدع تدريجياً حتّى صار عرضه عشرة أمتار فحسب عند حافة منحدرٍ رملي رمادي باهت يمتدّ هبوطاً مختفياً في الظلام. همست جيسكا: «هل بإمكاننا هبوطه؟».

- «أظن ذلك».

اختبر سطح الأرض بقدم واحدة.

ثم قال: «بإمكاننا الانزلاق هبوطاً. سأذهب أولاً، وانتظري حتّى تسمعي صوت توقفي».

- «كن حذراً».

خطا پول فوق المنحدر وتزحلق منزلقاً على سطحه الناعم إلى أن بلغ أرضاً تكدّست عليها الرمال في استواء تقريباً. كان المكان خبيثاً متوارية عميقاً بين الجدران الصخرية.

أتاه صوت انزلاق رملي من خلفه، وبينما كان يحاول تبیین تفاصيل أعلى المنحدر في الظلام، كاد اندفاع الرمال المنهالة أن يسقطه، قبل أن تهدأ وتيرته ويغمّ الصمت.
صاح: «أُمّاه».

لم يأتِه ردًا.

- «أُمّاه».

ألقي پول الحقيبة من فوق ظهره، ودفع بنفسه على المنحدر، زاحفًا نابشًا مثيرًا الرمال كالمجنون، وهو يلهث: «أُمّي! أُمّي! أين أنت؟».

جرفه شلال رملي آخر سقط من علٍ ودقته إلى الوركين، فراح يتلوّى بجسده حتّى انتزع نفسه منه.

تسارعت الأفكار في ذهنه: لقد علقت في أثناء انزلاقها على المنحدر الرملي ودفنتها الرمال. يجب أن أحافظ على هدوئي كي أعالج هذا المأزق بحكمة. لن تختنق على الفور، ستضع نفسها في حالة سُبات بيندوي لتقلّل استهلاكها للأكسجين، فهي تعرف أنني سأنبش الرمال بحثًا عنها.

هدأ پول من روعه وأبطأ ضربات قلبه الوحشية مستخدمًا نهج البني جيسيرت الذي تعلّمه من أمّه، وصفّى ذهنه ومسحه حتّى صار كصفحة بيضاء يمكن للحظات القليلة الماضية أن تكتب نفسها عليه. كل حركة وكل التواء حدثت في أثناء الانزلاق ظلت تتردّد في جنبات ذاكرته ببطء يتناقض مع حقيقة أن العملية برمتها لم تستغرق في الواقع سوى أجزاء من الثانية.

تسلّق پول المنحدر بزاوية مائلة، متلمّسًا طريقه بحذر، إلى أن عثر على صخور جدار الصدع البارزة. بدأ يحفر، محرّكًا الرمال

بحرص كي لا يتسبَّب في انزلاقٍ رملي آخر. عثرت يداه على قطعة قماش، فتتبَّعها حتَّى وجد ذراعًا، ثم تتبَّع الذراع برفق إلى أن كشف عن وجهها.

همس: «هل تسمعينني؟».

لم يتلقَ ردًّا.

حفر بسرعة أكبر محرِّرًا كتفيها. كان جسدها مرتخيًا بين يديه، لكنه لاحظ نبضات قلبها البطيئة.

فتمتم في سرِّه: إنها في حالة سُبات بيندوي.

أزاح الرمال حتَّى خصرها، وألقى ذراعيها فوق كتفيه وسحبها إلى أسفل المنحدر ببطء في البداية، ثم بدأ يجرُّها بأسرع ما يمكن حين شعر بقلقلة الرمال في الأعلى. راح يجذبها أسرع فأسرع، لاهئًا من المجهود، مكافئًا للحفاظ على توازنه. سقط بقوة على قعر الصدع الصلب، ثم طوَّحها على كتفه وانطلق راکضًا بها وهو يترنَّح مع انهيار المنحدر الرملي برمته بفحيحٍ صاخب تردَّد صداه مضخَّمًا داخل الجدران الصخرية.

توقَّف پول عند نهاية الصدع المطلَّة على كثبان الصحراء القابعة في الأسفل على مسافة ثلاثين مترًا تقريبًا. برفق، أراحها على الرمال، ونطق بالكلمة المطلوبة لإخراجها من حالة الجمود التخشُّبي.

بدأت تستيقظ تدريجيًا، وصارت أنفاسها أعمق فأعمق.

ثم همست: «كنت متأكَّدة من أنك ستعثر عليَّ».

نظر پول خلفه إلى أعلى الصدع وقال: «رُبَّما كان من الأرحم لو لم أجدك».

- «پول!»

قال: «فقدت الحقيبة. إنها الآن تحت مئة طن من الرمال على الأقل».

- «وبها كل شيء؟».

- «الماء الاحتياطي، وخيمة التقطير، وكل الأغراض المهمة»، ثم تحسّس جيبه وأردف: «ما زالت البوصلة البارافية معي»، ثم تلمّس الوشاح المربوط حول خصره وأضاف: «وكذلك السكين والنظارة المعظمة. بإمكاننا إلقاء نظرة جيّدة إلى المكان الذي سنموت فيه».

في تلك اللحظة، أشرقت الشمس فوق الأفق من مكانٍ ما شرقاً وراء نهاية الصدع، وومضت ألوانٌ مختلفة على الرمال في الصّحراء المفتوحة، ومن أماكن خفيّة بين الصخور صدحت جماعات من الطيور بتغريدٍ طروب.

لكن جيسيكا لم تحوّل عينيها عن اليأس البادي في وجه پول، ثم شحنت صوتها بنبرة موبّخة وقالت: «أهذا ما تعلمته؟».

سألها: «ألا تهمين؟ كل ما نحتاج إليه للبقاء على قيد الحياة في هذا المكان مدفون تحت تلك الرمال».

قالت: «سنجده كما وجدتي»، والآن كانت نبرتها رقيقةً وعقلانيةً.

جلس پول القرفصاء على كعبيه.

ثم رفع بصره أعلى الصدع متأملاً المنحدر الجديد، ملاحظاً خلخلة رماله وعدم تماسكها.

- «لو استطعنا تثبيت مساحة صغيرة من ذلك المنحدر، والحفاظ على فوّهة فجوة مفتوحة في الرمال، فرّئما تمكّنا من صنع بئر تقود إلى مكان الحقيبة. الماء قد يساعد في هذا،

لكننا لا نملك كمًا كافيًا من الماء كي...»، ثم بتر عبارته وقال:
«الرغوة!».

التزمت جيسيكًا صمًا تامًا خشية أن تقطع حبل أفكار عقله
الفائق.

رنا پول إلى الكتبان الممتدة في الخارج، متشممًا بأنفه وباحثًا
بعينيه، محدّدًا الاتجاه الصحيح، ثم ركّز بصره على رقعة الرمل
الداكنة أسفلهما.

قال: «الاسپايس. إنه مادّة قلوّية في الأساس، وأنا معي
البوصلة الباراوية، وبطّاريتها حمضية».

اعتدلت جيسيكًا في جلستها مستندة إلى الصخور.
لم يعرها پول انتباهًا، وقفز واقفًا وبدأ يسير عبر درب الرمال
الصلب الهابط من نهاية الصدع إلى أرضية الصّحراء.
راقبت طريقة مشيه، وكيف يكسر إيقاع خطواته: خطوة..
فوقوف، خطوتان.. فانزلاقة.. وقوف...

لم يكن لخطواته إيقاع واضح يمكن أن يخبر دودة هائمة أن
شيئًا غير ظواهر الصّحراء يتحرّك.

وصل پول إلى رقعة الاسپايس، واغترف غرفة منها في طيّّة
من ثوبه، وعاد بها إلى الكهف الصدعي. سكب پول الاسپايس
فوق الرمال أمام جيسيكًا، وجلس القرفصاء وبدأ بتفكيك البوصلة
الباراوية مستخدمًا طرف سكّينه. خلع غطاء البوصلة، ثم فضّ
وشاحه وفرشه على الأرض، ووضع أجزاء البوصلة عليه، والتقط
البطّارية من بينها. أزال القرص وآلية المؤشّر، فما تبقى من الآلة
غير قطعة مقعّرة فارغة.

قالت جيسيكًا: «ستحتاج إلى ماء».

أمسك پول بأنبوب الماء القريب من عنقه، وشفط منه ملء فمه، وبصقه في الحاوية المقعرة.

فكرت جيسيك: سيكون هذا هدرًا للماء لو فشل الأمر. لكن ذلك لن يهم حينها على أي حال.

مستخدمًا سكينه، قطع پول شقًا في البطارية، وسكب محتوياتها البلورية في الماء، ففارت وأرغت قليلًا، ثم هدأت. لمحت عينها جيسيك حركة فوقهما، فنظرت إلى أعلى ورأت صقورًا جاثمة على امتداد حافة الصدع، تنظر إلى الماء المكشوف أسفلها.

وفكرت: بحق الأُم العظيمة! إنها قادرة على استشعار وجود الماء من تلك المسافة!

أعاد پول تركيب غطاء البوصلة الباراوية دون تركيب زر إعادة الضبط، ما ترك ثقبًا صغيرًا يؤدي إلى الماء في الداخل. ممسكًا بالآلة المعدلة في يد، وبحفنة من الاسپايس في اليد الأخرى، صعد پول أعلى الصدع، ووقف يتفحص وضع المنحدر الرملي. برفق، نفخت الرياح رداءه الذي لم يكن الوشاح يمسكه. خاض پول في رمال المنحدر، متسلقًا بعضه، مزيجًا الرمال بقدميه ومثيرًا هبات غبار.

ثم توقف، وبأطراف أصابعه ذرّ فتات الاسپايس في البوصلة الباراوية، ورجّها.

تصاعدت رغوة خضراء من الثقب الذي كان يحتله زر إعادة الضبط. سكبها پول فوق المنحدر الرملي صانعًا جيبًا دائريًا، وبدأ في ركل الرمال من داخله وهو لا يتفك عن تثبيت حافة الحفرة بمزيدٍ من الرغوة.

صعدت جيسيكا إلى موقع قريب منه، وصاحت: «أحتاج إلى مساعدة».

قال لها: «تعالى واحفري، علينا أن نحفر بعمق ثلاثة أمتار. الوقت يداهمنا»، وبينما كان يتحدث، توقفت الرغبة عن التدفق من الأداة.

قال پول: «أسرعي، لا أعرف إلى متى ستصمد هذه الرغبة في تثبيت الرمال».

تسلقت جيسيكا زاحفة إلى جوار پول، في أثناء ما كان يضع ذرة اسبائس أخرى في الثقب ويرج حاوية البوصلة. ومن جديد، تدفقت الرغبة خارجة منها.

وبينما راح پول يصب الرغبة صانعاً حاجزاً، أخذت جيسيكا تحفر بكلتا يديها، ملقية الرمال على المنحدر، ثم سألت لاهثة: «لأي عمق؟».

قال: «ثلاثة أمتار تقريباً. لكنني لم أضمن الموقع إلا بالتقريب، قد نضطر إلى توسيع الحفرة».

ثم تحرك جانباً خطوة، منزلقاً في الرمال الناعمة. «احفري بزاوية إلى الخلف، لا تجعلي الحفرة مستقيمة».

أطاعته جيسيكا.

ببطء، ازداد عمق الحفرة، وبلغت مستوى أرض الحوض، ومع ذلك لم يعثر على أثر للحقبة.

سأل پول نفسه: هل أخطأت الحساب؟ أنا من أصبت بالذعر في البداية وتسببت في هذا الخطأ. هل شوش ذلك على قدرتي؟ ثم نظر إلى البوصلة الهاروية: لم يتبق إلا أقل من خمسين ملليجراماً من المزيج الحمضي.

وقفت جيسيكاً معتدلة داخل الحفرة، ومسحت إحدى وجنتيها بيدٍ مغطاة بالرغوة، والتقت عيناها بعيني پول.
قال پول: «الحافّة الخارجية. احفري برفق الآن». ثم أضاف
ذرّة اسبائيس أخرى في الحاوية، وأسقط الرغوة الفائرة حول يدي
جيسيكاً، فيما راحت هي تحفر عمودياً في سطح الحفرة العلوي
المائل. في المسار الثاني، لمست يديها جسمًا صلبًا، ثم بدأت
ببطء تسحب حمالة طويلة بإبزيم بلاستيكي من الحفرة.
قال پول بصوتٍ يكاد يكون همسًا: «لا تحرّكيها أكثر من ذلك،
لقد نفذت الرغوة منا».

أمسكت جيسيكاً الحمالة بيدها، ورفعت بصرها إليه.

ألقي پول البوصلة الفارغة إلى أرضية الحوض، وقال:
«أعطيني يدك الأخرى، واستمعي إليّ جيّدًا. سأسحبك جانبًا إلى
أسفل المنحدر. لا تفلتي الحمالة من يدك. لن تنهال رمال كثيرة
من الأعلى، لقد استقرّ المنحدر. كل ما سأحاول فعله هو إبقاء
الرمال بعيدًا عن رأسك، وعندما تمتلئ الحفرة بالرمال، سأحفر
وأخرجك، وسنجد الحقيبة معًا».

قالت: «فهمت».

- «مستعدة؟» -

- «مستعدة». قالتها وأحكمت أصابعها حول الحمالة.

بجذبة واحدة، أخرج پول نصف جسدها من الحفرة، وحافظ
على رأسها عاليًا فيما انهار حاجز الرغوة، وانهارت الرمال إلى
أسفل حتّى استقرّت. بقيت جيسيكاً مدفونة إلى الخصر، وبقيت
ذراعها اليسرى بكتفها تحت الرمال، فيما حمت طيّة من ثوب
پول ذقنها. آلمتها كتفها من الضغط الواقع عليها.

قالت: «ما زلت ممسكة بالحمالة».

ببطء، أزاح پول الرمال من حولها حتى وجد الحمالة. ثم قال: «سنجذبها معاً، بهدوء وروية كي لا نقطعها».

انهال مزيدٌ من الرمال وهما يجذبان الحقيبة إلى الخارج، وعندما ظهرت الحمالة على السطح، توقّف پول، وحرّر جسد أمّه من الرمال، ثم جذب كلاهما الحقيبة أسفل المنحدر، متعاونين لإخراجها من محبسها.

بعدها بدقائق قليلة، كانا يقفان في قعر الصدع ممسكين بالحقيبة بينهما.

نظر پول إلى وجه أمّه الملطّخ بالرغوة، وإلى ثوبها المعجون بالرمال حيث جفّت الرغوة. بدت كأنها هدفٌ صوّبت عليه كرات رمالٍ مُبلّلة.

قال لها: «تبدّين في حالة مزريّة».

قالت له: «لست في منتهى الأناقة أنت أيضاً».

ثم راحا يضحكان، قبل أن يتمالكا نفسيهما.

قال پول: «لم يكن ينبغي لذلك أن يحدث، لم أكن حريصاً».

هزّت جيسيكا كتفيها، وشعرت بالرمال الملتصقة بثوبها تتساقط.

قال لها: «سأنصب الخيمة. من الأفضل أن تخلعي هذا الثوب وتفضيه جيّداً»، ثم استدار آخذاً الحقيبة معه.

أومأت جيسيكا وقد ألجمها الإرهاق الذي ألمّ بها فجأةً عن الرد.

قال پول: «توجد ثقوب أوتاد في الصخر. أحدهم خيم هنا من قبل».

خطر لها وهي تفرك ثوبها: ولمَ لا؟ هذه بقعة مناسبة للتخيم، فهي تقبع عميقاً بين الصخور، وقبالة جرفٍ آخر يبعد أربعة كيلومترات تقريباً. كما أنها مرتفعة عن الصَّحراء بما يكفي لتفادي الديدان، وفي الوقت نفسه قريبة بما يكفي منها ما يسهل الذود بها قبل العبور.

استدارت چيسيكاً ورأت أن پول نصب الخيمة التي تماهت قُبَّتُها المنتفخة المضلَّعة مع صخور جدار الصدع المحيطة. مرَّ پول من جوارها، ملتقطاً نظَّارته المعظَّمة، ثم ضبط ضفطها الداخلي بلقَّة سريعة، وركَّز عدستها الزيتيَّتين على الجرف الآخر، الذي اصطبغ بصفرة ذهبية في ضوء النهار عبر الرمال الممتدَّة.

راقبته چيسيكاً وهو يتفحَّص المشهد الأبوكاليفسي المروِّع، وعيناه تسبران غور الأخاديد وأنهار الرمال. قال: «توجد نباتات نامية هناك».

التقطت چيسيكاً النظَّارة الاحتياطية في الحقيبة الملقاة جوار الخيمة، ووقفت بجانب پول.

قال: «هناك»، ممسكاً النظَّارة بيدٍ، ومشيراً بالأخرى. نظرت إلى حيث أشار.

ثم قالت: «هذا سجوار. صَبَّار هزيل».

قال پول: «قد يكون هناك أشخاص بالجوار».

قالت محدِّرة: «قد يكون بقايا متخلِّفة من إحدى محطَّات التجارب النباتية».

قال: «هذه بقعة نائية جدًّا جنوب الصَّحراء». ثم خفض منظاره، وحكَّ جلده أسفل سدَّادة المرشَّح مستشعراً مدى جفاف

وتشقق شفثيه ومذاق العطش المترَّب في فمه، وأردف: «المكان يبدو كأماكن عيش الفرمن».

سألته: «وهل نحن على يقين من أن الفرمن سيكونون ودودين؟».

- «وعدنا كايئز بأنهم سيساعدوننا».

فكَّرت چيسیکا: لكن في صدور في أهل هذه الصَّحراء يأس، وقد استشعرت بعضًا منه اليوم. اليائسون قد يقتلوننا للحصول على مياهنا.

أغلقت چيسیکا عينيها، واستحضرت في ذهنها مشهدًا من كلالدان وأسقطته على هذه الأرض القاحلة. تذكَّرت رحلة قضتها مع الدوق ليتو قبل ولادة پول، حلَّقًا فيها بالطائرة فوق الأدغال الجنوبية، وأوراق الأعشاب البرية المتمايلة، وحقول الأرز في الدلتا. من منظورها السماوي شاهدًا طوابير متحرِّكة تقطع المساحات الخضراء تبدو كأنها طوابير نمل: جماعات من الرجال تسير بحمولاتها المعلقة على أنيارٍ طافية مزوَّدة بمضادات الجاذبية. وفي البحر، شاهدًا مراكب الداو الشراعية التي تبدو أشرعتها كبتلاتٍ بيضاء. كل هذا راح.

فتحت چيسیکا عينيها على سكون الصَّحراء، وعلى سخونة النهار المتزايدة. كانت شياطين الحرارة الجحيمية قد بدأت تسخين الهواء وجعله يتراقص فوق الرمال المفتوحة، وبدا الجدار الصخري الآخر المقابل لهما كجسم نراه عبر زجاج رديء.

نشر انسكابٌ رملي ستارته القصيرة على مدخل الصدع المفتوح على الصحراء، وصدر صفيِّرٌ عن الرمال وهي تتجرف بفعل نسيم الصباح وبفعل خفقات أجنحة الصقور التي بدأت تحلِّق مفادرة حافَّة الجرف. توقَّف سقوط الرمال، لكن چيسیکا

ظَلَّتْ تسمع الصفير في أذنيها. ازدادت حدَّة الصَّوت تدريجيًّا، الصَّوت الذي ما إن يسمعه المرء مرَّة في حياته، لا ينساه أبدًا. همس پول: «إنها دودة».

جاءت الدودة من جهة اليمين، بحضورٍ مهيب لا يمكن تجاهله ولا يكثرث لشيءٍ: رابية تتحرَّك أسفل الرمال مخترقَةً الكثبان الرملية القابعة في مجال بصرهما. ارتفعت مقدِّمة الرابية، مثيرة الغبار كالموجة التي تتشكَّل عند قوس السفينة وهي تشقُّ الماء. ثم رحلت، ميمِّمةً إلى اليسار. تضاءل الصَّوت، ثم خمد.

همس پول: «رأيت فرقاطات فضائية أصغر حجمًا». أومأت چيسيكا، وواصلت تحديقها إلى الصَّحراء. تركت الدودة فجوةً محيرةً خلفها حيث مرَّت، وامتدَّت أمامهما إلى ما لا نهاية مخلفةً شعورًا بالمرارة، مختفيةً عند خط الأفق حيث تلتقي السماء بالأرض.

قالت چيسيكا: «بعد أن نستريح، يجب أن نواصل دروسك». كبت پول غضبًا مفاجئًا تأجَّج داخله وقال: «أمِّي، ألا تظنين أنه بإمكاننا الاستغناء عن...».

قالت: «اليوم تملَّك بالذعر. أنت تعرف عقلك وقدراته البيندوعصبية ربُّما أفضل مني، ولكن ما زال أمامك الكثير لتتعلمه عن جهاز پرانا العضلي الهيكلي. يتصرَّف الجسم من تلقاء نفسه أحيانًا يا پول، وبإمكانني تعليمك كيف تسيطر عليه. يجب أن تتعلَّم السيطرة على كل عضلة وعلى كل نسيج في جسدك. تحتاج إلى مراجعة درس اليدين. سنبدأ بعضلات الأصابع، وأوتار الكف، وحساسية الأنامل»، ثم استدارت مبتعدة. «هيا، إلى الخيمة الآن».

ثنى بول أصابع يده اليسرى، وراقبها وهي تزحف عبر الصمام العاصر، عالمًا أنه لن يستطيع إثاءها عمًا عقدت عزمها عليه، وأنه لا بُدَّ له من الانصياع.

وفكر: أيا كان ما فعل بي، فقد كنت طرفًا فيه.

مراجعة درس اليمين!

نظر بول إلى يده، وراعاها مدى ضآلتها إذا ما هورنت بمخلوقات في حجم تلك الدودة.

جئنا من كلادان، وهو كوكبٌ كالجنة في نظر البشر.
على كلادان، لم نكن في حاجة إلى تشييد جنة
حقيقية ملموسة ولا جنة خيالية للعقل، إذ كنا نراها
رؤى العين في كل شيء حولنا. والثمن الذي دفعناه
نظيرها هو الثمن الذي طالما دفعه البشر لتحقيق
الجنة في الحياة الدنيا: صرنا رخا، وفقدنا
خشونتنا.

من كتاب «المؤدب: محادثات» للأميرة إيrolان.

قال الرجل: «أنت إذا جيرني هاليك العظيم».

وقف هاليك محدقًا عبر غرفة المكتب الكهفية المستديرة
إلى وجه المهرب الجالس خلف مكتب معدني. كان الرجل يرتدي
الثوب الفرمني التقليدي، وفي عينيه مسحة من الزرقنة تشي بأن
حميته الغذائية لم تكن مقتصرة على الطعام الأراكسي، وأنها
تشمل أطعمه من خارج الكوكب. كانت غرفة المكتب تحاكي مراكز
القيادة الرئيسة في الفرقاطات الفضائية، تتأثر فيها الشاشات
وأجهزة الاتصال على امتداد جدار مقوَّس بزاوية 30 درجة، وإلى
جوارها صفوف مفاتيح إطلاق الأسلحة عن بُعد، وسطح المكتب
نفسه مصمَّم ليشغل الجزء المنحني المتبقي من الجدار.

قال المهرب: «أنا ستابان توك، ابن أسمر توك».

قال هاليك: «أنت إذا من أدين له بالشكر على المساعدة التي
تلقيناها».

قال المهرب: «آها، العرفان بالجميل. اجلس».

من الحائط جوار الشاشات، خرج مقعد وثير كمقاعد سفن
الفضاء، ففاص هاليك فيه وهو يتنهد شاعرًا بالإرهاق المتكالب

عليه. رأى انعكاس صورته على سطح داكن مجاور للمهرب، وراعه ما رأى فيه من خطوط انھاك بادية في كتلة وجهه الدميمة. ومع عبوسه ملامحه، التوت نُدبة الإنكفاين على طول فكه.

تولّى هاليك عن انعكاس صورته، وحدّق إلى تُويك، ملاحظًا التشابه العائلي البادي في ملامح وجهه: حاجبا أبيه الكثّين المتدلّيين، وأنفه ووجنتيه المسطّحتين المقدودتين من صخر. قال هاليك: «أخبرني رجالي أن أبيك قُتل على يد الهراكنة».

قال تُويك: «على يد الهراكنة، أو على يد خائنٍ من قومك». تغلّب الغضب على بعض من إجهاد هاليك، فاعتدل متحفّزًا وقال: «هل بإمكانك تسمية الخائن؟».

- «لسنا متأكّدين».

- «كان ظفير حوَّاط يشتبه في الليدي چيسिका».

- «آها، ساحرة البني چيسيرت. ربّما. لكن حوَّاط الآن أسير الهراكنة».

- «سمعت بذلك»، ثم أخذ نفسًا عميقًا وأردف: «يبدو أن أماننا مزيدًا من القتال».

قال تُويك: «لن نفعل شيئًا يجذب الأنظار إلينا».

شدّ هاليك قامته: «ولكن...».

قاطعه تُويك: «نحن نرُحّب بمكوئك أنت ورجالك الذين أنقذناهم بيننا وتحت حمايتنا. تقول إنك ممتنٌّ لنا. حسنًا جدًا، اعمل على سداد دينك إذا. بإمكاننا الاستفادة دومًا بالرجال الصالحين، لكننا سندمّرهم على الفور إذا تحرّكتم بأدنى بادرة عداء ضد الهراكنة».

- «لكنهم قتلوا والدك يا رجل!».

- «رُبَّما . وإن كان الأمر كذلك، فسأعطيك إجابة والدي لأولئك الذين يتصرفون دون تفكير: الحجر ثقيل والرمل ثقيل، لكن غضب الجاهل أثقل من الاثنين».

قال هاليك هازئاً: «ألا تنوي فعل شيء حيال الأمر إذا؟».

- «لم أقل ذلك. كل ما أقوله إنني سأصون عقدنا مع النقابة، والنقابة تلزمنا بأن نلعب اللعبة بحذر. لتدمير الخصم طرائق أخرى».

- «آها».

- «آها بالفعل. إن كنت عازماً على مطاردة السَّاحرة، فافعل ما يحلو لك. لكنني أحذرك من أن أوان ذلك رُبَّما يكون قد فات. كما أننا نشك في مسألة كونها الشخص الذي تريده على أي حال».

- «حوَّاط قليلاً ما يُخطئ».

- «لقد ترك نفسه يقع في أيدي الهراكنة».

- «أتظنُّ أنه الخائن؟».

هزَّ تويك كتفيه قائلاً: «هذا مجرد افتراض، ففي ظنِّنا أن السَّاحرة ماتت. على الأقل هذا ما يعتقده الهراكنة».

- «يبدو أنك تعلم الكثير عن الهراكنة».

- «محض تلميحات وإشارات، مجرد شائعات وحدث».

قال هاليك: «نحن أربعة وسبعون رجلاً، إن كنت جاداً في مسألة تجنيدنا معك، فلا بُدَّ أنك تصدِّق أن دوقنا قضى نحبه».

- «جثَّته شوهدت بالفعل».

- «ماذا عن الصبي؟ السيّد الصغير پول؟»، قالها هاليك وحاول

ابتلاع ريقه، لكن غصّة في حلقه منعه.

- «وفقًا لآخر أنباء وردتنا، فقد اختفى هو وأُمُّه في قلب عاصفة صحراوية. في الغالب لن يُعثر حتَّى على عظامهما».

- «السَّاحرة ماتت إذاً. كلهم ماتوا».

أوماً تُوبك قائلاً: «كما سمعنا أن رابان الوحش سيُجلس مجدِّداً على عرش الحكم هنا، على كوكب كَثِيب».

- «الكونت رابان، كونت كوكب لانكفيل؟».

- «أجل».

تأثَّى هاليك لحظة لإخماد الغضب العارم الذي تأجَّج بداخله مهدِّداً بالسيطرة عليه، ثم قال بأنفاسٍ لاهثة: «لديَّ حساب شخصي مع رابان يجب تسويته، فهو من قتل أفراد عائلتي...»، وحكَّ النُدْبَةَ على فكِّه مُردِّفاً: «وأصابني بهذه».

قال توبك: «لا يخاطر المرء بكل شيء لتسوية حسابٍ قبل الأوان»، ثم قطب جبينه وهو يراقب اختلاج عضلات فكِّ هاليك، والإحجام المفاجئ الذي ظهر في عيني الرجل الغائرتين.

أخذ هاليك نفساً عميقاً وقال: «أعرف.. أعرف».

- «بإمكانك أنت ورجالك تأمين تذكرة خروجكما من أراكس بالعمل لحسابنا، فثمة أماكن كثيرة يمكن أن...».

- «إنني أُحلُّ رجالي من أيِّ وثاقٍ يربطهم بي. لهم مطلق الحرية للاختيار بأنفسهم. أمَّا أنا فسأبقى، ما دام رابان هنا».

- «بتفكيرك هذا، لست متأكداً من رغبتنا في بقائك».

حدَّق هاليك إلى المهرَّب وقال: «أتشكُّ في وفائي بكلمتي؟».

- «كلَّا وحاشا...».

- «لقد أنقذتني من الهراكنة. تعهَّدي بالولاء للدوق ليتو كان لسببٍ مماثل. سأبقى على أراكس، إما معك.. وإما مع الفرمن».

قال تويك: «النطق بالفكرة من عدمه لا يؤثر في حقيقة أن لها وجودًا، وفيها قوّة. قد تجد الخط الفاصل بين الحياة والموت مع الفرمن رفيعًا وحادًا جدًا».

أغلق هاليك عينيه للحظات، شاعرًا باستحواذ التعب عليه، وغمغم: «آين الرب الذي سار بنا في أرض القفار والوهاد؟»⁽¹⁾. قال تويك: «تروى وسيأتي اليوم الذي تحصل في على انتقامك. العجلة من الشيطان. برّد أحزانك، فلدينا ما يلهيك عنا. ثلاثة أشياء تريح القلب: الماء والخضرة والوجه الحسن».

فتح هاليك عينيه وقال: «أريد أن تسيل دماء رابان هاركونن عند قدمي»، ثم حدّق إلى تويك: «أتظن أن هذا اليوم سيأتي؟» - «لا أملك مساعدتك في مواجهة الغد يا جيرني هاليك، كل ما في وسعي هو مساعدتك اليوم».

- «إذا سأقبل بهذه المساعدة، وسأنتظر مجيء اليوم الذي تخبرني فيه أن أثار لوالدك وللآخرين الذين...».

قال تويك: «اسمعني جيّدًا أيّها المناضل»، ثم انحنى فوق مكتبه حتّى صارت كتفاه في محاذاة أذنيه، وبدا التصميم في عينيه، وصار وجهه فجأة أشبه بالصخر الذي نحتته الريح: «أنا من سأسترجع ماء أبي بنفسني، بنصل سكّيني».

حدّجه هاليك بنظره مماثلة. في تلك اللحظة، شعر بأن المهرّب يذكرّه بالدوق ليتو: قائدٌ شجاع، راسخ المنزلة، واثقٌ بمساره. كان يشبه الدوق قبل مجيئه إلى أراكس.

1- سفر إرميا، الإصحاح الثّاني، آية 6 (بتصرّف).

سأله هاليك: «أتريد نصلي بجوار نصلك؟».

أرجع تويك ظهره إلى الخلف، واسترخى في مقعده، متأملًا هاليك بصمت.

ألح هاليك: «أتراني مناضلاً؟».

قال تويك: «أنت الوحيد الذي هرب من ضُباط الدوق. كان عدوك متفوقًا، لكنك نجحت في مجاراته، وهزمتَه بالطريقة التي هزمنا بها أراكس».

- «ماذا؟».

- «نحن نعيش في كبدٍ هنا يا جيرني هاليك. أراكس عدوُّنا».

- «أتقصد أن علينا التعامل مع الأعداء كل على حدة؟».

- «هذا هو بيت القصيد».

- «أهذا هو منهج الفرمن في البقاء؟».

- «ربما».

- «قلت إنني قد لا أحتمل قسوة وشظف حياة الفرمن. إنهم

يعيشون في عمق الصَّحراء، أهذه هو السبب؟».

- «من يعرف أين يعيش الفرمن؟ كل ما نعرفه هو أن الهضبة

الوسطى أرضٌ غير مطروقة. لكنني أريد التحدُّث أكثر عن...».

قاطعه هاليك: «قيل لي إن النقابة نادرًا ما تسمح بمرور

مركبات نقل الاسپايس الخفيفة فوق الصَّحراء. لكن الشائعات

تقول إنه يمكن مشاهدة رُقيعات خضراء هنا وهناك، إن كنت

تعرف أين تبحث».

قال تويك ساخرًا: «شائعات! أتفاضل الآن بيني وبين الفرمن؟

نتمتّع بقدرٍ من الأمن، ولدينا سييتشنا المنحوت في الصخر،

ولدينا أحواضنا الخاصة المخفية. نحن نعيش حياة البشر

المتحضرين. ما الفرمن إلا عصابات متفرقة شعناء نستغلها في جمع الاسبايس».

- «لكنهم قادرون على قتل الهراكنة».

- «وهل تريد معرفة نتيجة أفعالهم؟ إنهم يطاردون ويقتلون كالحیوانات، یسقطونهم صرعى ببنادق الليزر، لأنهم لا یملكون دروعاً. إنهم يتعرضون لإبادة. لماذا؟ لأنهم تجرؤوا على قتل الهراكنة».

سأله هاليك: «وهل الذين قتلهم الفرمن هراكنة؟».

- «ماذا تقصد بذلك؟».

- «ألم تسمع باحتمالية وجود ساردوكار بين صفوف الهراكنة؟».

- «مزيد من الشائعات».

- «لكن ما يجري الآن مذابح جماعية، وليس هذا من طبع

الهراكنة. المذابح تبديد وإسراف».

قال تويك: «لا أصدق إلا ما أراه بأأم عيني». اتخذ قرارك أيها المناضل. أنا أم الفرمن. أعدك بتوفير الملاذ وفرصة لإراقة الدم الذي يريد كلانا إراقاته. ثق بهذا. لن يقدم لك الفرمن سوى حياة المطايرد».

تردد هاليك في قراره، شاعراً بالحكمة والتعاطف في كلام تويك، لكن قلماً اعتراه لسبب ما لم يستطع تفسيره.

قال تويك: «ثق بقدراتك. أليست قرارات هي التي أخرجت قوّاتك سالمة من المعركة؟ قرر إذا».

قال هاليك: «موت الدوق وابنه حقيقة مؤكدة، أليس كذلك؟».

- «هذا ما يعتقد الهراكنة، وفي مثل هذه الأمور، أميل إلى الوثوق برأي الهراكنة»، ثم ارتسمت ابتسامة كالحة على وجهه

تُويك، وأردف: «لكنها الثقة الوحيدة التي أمنحها لهم».

كرَّر هاليك: «لا بُدَّ من أنها الحقيقة إذا». ثم مَدَّ يده اليمنى مفتوحة، وإبهامه مطوياً على راحة يده في الإشارة المتعارف عليها: «أعطيك سيفي».

- «وأنا قبلته».

- «أتريدني أن أقنع رجالي بالانضمام إليك؟».

- «وهل ستركهم يختارون بأنفسهم؟».

- «لقد تبعوني حتَّى هذه اللحظة، لكن معظمهم وُلدوا على كلابدان، ولم يجدوا أراكس كما كانوا يتوقَّعون. لقد خسروا كل شيء هنا باستثناء أرواحهم، لذا أفضِّل أن يتَّخذوا قرارهم بأنفسهم الآن».

قال تُويك: «ليس هذا وقتاً مناسباً للتردُّد، لقد تبعوك إلى هذا الحد».

- «أنت في حاجةٍ إليهم، أليس كذلك؟».

- «يمكننا الاستفادة دوماً بالمقاتلين ذوي الخبرة، بالذات في هذه الأوقات».

- «لقد قبلت بسيفي. أتريدني أن أقنعهم؟».

- «أظن أنهم سيتبعونك يا جبرني هاليك».

- «لنأمل ذلك».

- «بالتأكيد».

- «بإمكاني اتِّخاذ قراري بنفسي في هذا الأمر؟».

- «القرار قرارك».

نهض هاليك من المقعد الوثير، ولاحظ قدر ما استهلكه مجهودٌ بسيطٌ كهذا ممَّا تبقى من مخزون طاقته، وقال: «في

الوقت الحالي، سأُتفقد أماكن سكنهم وأبني ما ينقصهم من احتياجات».

قال تويك: «أذهب إلى ضابط الإمدادات، اسمه دريسق. أخبره بأنني أمرت أن تتلقوا كل وسائل الراحة. سأنضم إليكم بنفسني لاحقًا، لكن عليّ متابعة سير بعض شحنات الاسپايس أولًا».

قال هاليك: «الفرص متاحة للجميع».

قال تويك: «أجل، الجميع. أوقات الاضطرابات فرصة نادرة تزدهر فيها أعمالنا».

أومأ هاليك، ثم سمع هسيسًا خافتًا وشعر بدفقة هواء مع انفتاح كوة باب في الجدار المجاور، فاستدار، وحنى رأسه وهو يعبر من خلاله مفادراً حجرة المكتب.

وجد نفسه في قاعة الانتظار التي اقتاده إليها مساعدو تويك هو ورجاله في السابق. كانت طويلة وضيقة بعض الشيء، ومنحوتة من صخور البيئة الطبيعية، ويشير سطحها الأملس على استخدام قواطع الليزر الحارقة في تنعيم جدرانها. أما السقف فكان عاليًا إلى درجة تسمح باستكمال منحني الصخر الطبيعي الداعم، والسماح بمرور تيارات الهواء الداخلية لتوزيع الحرارة. وعلى الجدران، اصطففت رفوف أسلحةٍ وخزانات.

لاحظ هاليك -بشيءٍ من الفخر- أن من لا يزالون قادرين على الوقوف من رجاله كانوا واقفين، ولم يعطوا لأنفسهم حق الاسترخاء في التعب والهزيمة، فيما راح يتحرك بينهم فريق مسعفي المهرب ويعتنون بالجرحى. كانت محفّات الجرحى مجمّعة في منطقة واحدة إلى اليسار، وكل جريح برفقة زميلٍ له.

فَكَرَّ هَالِيكَ: يَقُولُ مِيثَاقُ الشَّرَفِ الْآتِرِيدِيْزِي: «يَشُدُّ بَعْضُنَا بَعْضًا»، وَهُوَ عَقِيدَةٌ رَاسِخَةٌ فِيهِمْ كَالنَّوَاةِ الصَّلْبَةِ.

تَقْدَمُ أَحَدُ الضَّبَّاطِ حَامِلًا بِالْيَسْتِ هَالِيكَ ذَاتِ الْأَوْتَارِ التَّسْعَةِ خَارِجَ حَقِيبَتِهَا، وَأَدَّى لَهُ التَّحِيَّةَ الْعَسْكَرِيَّةَ، ثُمَّ قَالَ: «سَيِّدِي، يَقُولُ الْمُسَعْفُونَ إِنَّهُ لَا أَمَلٌ فِي إِنْقَازِ مَاتَايَ، فَلَيْسَ لَدَيْهِمْ بَنُوكَ أَعْضَاءُ أَوْ عِظَامٌ هُنَا. كُلُّ مَا يَمْلِكُونَهُ هُوَ الْأَدَوَاتُ الْمَتَاحَةُ فِي الْمُسْتَشْفَى الْمِيدَانِيِّ. مَاتَايَ لَنْ يَنْجُو، هَذَا مَا يَقُولُونَهُ، وَهُوَ لَدَيْهِ رَجَاءٌ».

- «مَا هُوَ؟»

مَدَّ الضَّبَّاطُ يَدَهُ بِالْبَالِيْسْتِ وَقَالَ: «يَرِيدُ مَاتَايَ سَمَاعَ أَغْنِيَةِ تَهَوُّنٍ عَلَيْهِ لِحَظَاتِهِ الْأَخِيرَةِ يَا سَيِّدِي. يَقُولُ إِنَّكَ تَعْرِفُ الْأَغْنِيَةَ الْمَطْلُوبَةَ، إِذْ طَلِبَهَا مِنْكَ مَرَارًا مِنْ قَبْلُ»، ثُمَّ ابْتَلَعَ الضَّبَّاطُ رِيْقَهُ وَأَرْدَفَ: «إِنَّهَا أَغْنِيَةُ "امْرَأَتِي" يَا سَيِّدِي. إِنْ كُنْتُ...».

قَاطَعَهُ هَالِيكَ قَائِلًا: «أَعْرِفُ طَلْبَهُ»، وَأَخَذَ الْبَالِيْسْتِ، وَالتَّقَطَ الرِّيشَةُ الْمُتَعَدِّدَةُ السَّنُونِ مِنْ مَكَانِهَا عِنْدَ لَوْحَةِ الْأَصَابِعِ، وَضَرَبَ وَتَرًا عَلَى الْآلَةِ فَوَجَدَ أَنَّ أَحَدَهُمْ ضَبِطَهَا بِالْفِعْلِ. شَعَرَ بِعَيْنَيْهِ تَحْرِقَانَهُ، لَكِنَّهُ نَفَضَ عَنْهُ التَّفَكِيرَ فِي الْأَلَمِ وَهُوَ يَمْشِي بَيْنَ صَفُوفِ الرِّجَالِ، عَازِفًا اللَّحْنَ، مُجْبِرًا نَفْسَهُ عَلَى الْإِبْتِسَامِ.

كَانَ الْكَثِيرُ مِنْ رِجَالِهِ وَوَاحِدٌ مِنْ مُسَعْفِي الْمَهْرَبِ مُنْحَنِينَ فَوْقَ إِحْدَى الْمَحْفَّاتِ. شَرَعَ أَحَدُ الرِّجَالِ فِي الْغِنَاءِ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ مَعَ اقْتِرَابِ هَالِيكَ، مَلْتَقِطًا اللَّحْنَ بِسَهُولَةٍ تَدُلُّ عَلَى طَوْلِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ:

«تَقِفْ امْرَأَتِي فِي نَافِذَتِهَا،

خَطُوطُهَا الْمُنْحَنِيةُ تَكْسِرُ حِدَّةَ الزَّجَاجِ الْمَرِيعِ.

تَرْفَعُ ذِرَاعَيْهَا، وَتُثْنِيهِمَا، وَتَطْوِيهِمَا نَزُولًا

فِي أَشْعَةِ الشَّمْسِ الْغَارِيَةِ، الْحُمْرَاءُ الذَّهَبِيَّةُ.

هَلُمَّا إِلَيَّ..
يا ذراعي معشوقتي الدافئتين
أنتما ملكي..
يا ذراعي معشوقتي الدافئتين».

سكت المغنّي عن الغناء، ومدّ ذراعه المضمّدة وأغلق جفني
الرجل المُسجى على المحفّة.
ضرب هاليك وترًا شجيًّا أخيرًا على الباليست، وفكّر: الآن
صرنا ثلاثة وسبعين.

مكتبة
t.me/t_pdf

يصعب على كثير من الناس فهم طبيعة الحياة الأسرية التي يعيشها أطفال العائلة المالكة في حضانة القصر الإمبراطوري، لكنني سأحاول إيجازها لك في كبسولة. لم يكن لأبي سوى صديق واحد حقيقي هو الكونت هاسيمير فنرينج، المولود خُصيًا، وأحد أخطر القتلة في الإمبراطورية. ذات يوم، أحضر الكونت -وهو رجلٌ أنيقٌ، قبيحٌ، ضئيل الحجم- جاريةً جديدةً إلى والدي ليتخذها حظيَّةً، فأرسلتني أُمِّي للتجسُّس على الأمر. كنا جميعًا نتجسس على أبي لحماية أنفسنا. بالطبع لم يكن مسموحًا للجاريات الحظيَّات -بموجب الاتفاقية المبرمة بين البني جيسيرت والنقابة- إنجاب خليفة لأبي، لكن ذلك لم يمنع تكرار الدسائس الدنيئة التي تقضُّ المضاجع، حتَّى صرنا -أنا وأُمِّي وأخواتي- بارعات في مراوغة شراك الموت الخبيثة. قد يبدو قولي بغيضًا، لكنني لست واثقة بأن والدي كان بريئًا من كل هذه المحاولات. العائلات المالكة ليست كباقي العائلات. وهكذا، ذهبت فرأيت الجارية الحظيَّة الجديدة تقف هناك، بشعرها الأحمر كشعر والدي، وقوامها الممشوق، وجمالها الباهر. كان لعضلاتها تناسق عضلات الراقصات، وبدا واضحًا أنها تدرِّب على فنون الإغراء العصبي. أطلال أبي النظر إليها وهي تقف عارية أمامه، وفي النهاية قال: «إنها

أجمل من اللازم، سنحتفظ بها للتهادي». لن تتخيل
الوجوم الذي خيم على جميع من في حضانة القصر
الإمبراطوري بعد هذا التعفُّف الذي أبداه والدي، إذ
كان بُعد النظر وضبط النفس من أخطر التهديدات
التي تواجهنا نحن معشر البني جيسيرت.
من كتاب «في بيت أبي» للأميرة إيrolan.

وقف پول خارج خيمة التقطير في وقت متأخر من بعد الظهر.
كان الصدع الذي نصب فيه مخيمهم مستتراً في عمق الظلال.
حدّق پول عبر الرمال المفتوحة إلى الجرف البعيد، متسائلاً إن
كان عليه إيقاظ والدته النائمة في الخيمة.

امتدّت الكثبان على مرمى البصر أمام مأويهما، طيَّات تلو
طيَّات من الرمال. وعلى الجانب المقابل للشمس الغاربة، ألقت
الكثبان ظلالاً ثقيلة شديدة السواد تكاد تكون قطعاً من الليل.
صحراء منبسطة مترامية الأطراف.

بحثت عيناه عن أيّ تضاريس بارزة في المشهد، لكن لم يكن
هناك تضريس واحد يكسر حدة الهواء المثقل بالحرارة أو ذلك
الأفق المفتوح. لا أثر لنبتةٍ أو لغصن مزهر يهتز بلطف ليدل على
مرور النسيم. لا شيء سوى الكثبان، وذلك الجرف البعيد الجاثم
تحت سماء جرداء فضّية زرقاء مصقولة.

تساءل پول: ماذا لو لم تكن إحدى محطات التجارب المهجورة
عند الجرف؟ ماذا لو لم يكن هناك فرمٍ كذلك، وأن النباتات
التي رأيناها تصادف وجودها فحسب؟

داخل الخيمة، استيقظت جيسكا وانقلبت على ظهرها مسترقةً إلى پول النظر عبر الجزء الشفاف من الخيمة. كان يقف معطيًا ظهره لها، فذكرها شيءٌ في وقفته بأبيه، وشعرت ببئر الحزن داخلها تفيض، فأشاحت بوجهها.

ثم ما لبثت أن ضببت بذلة التقطير على جسدها، وأنعشت نفسها برشفة ماء من جيب الخيمة وانزلقت خارجة، ثم وقفت تتمطى موقظةً عضلاتها النائمة.

قال پول دون أن يستدير: «أجد نفسي مستمتعًا بالهدوء هنا». ففكرت جيسكا: يا لقدرة العقل على التكيف مع البيئة التي يجد نفسه فيها! ثم تذكرت قول البني جيسيرت المأثور: «تحت تأثير الضغط، قد ينحرف العقل صوب أي من الاتجاهين: الضلال أو الرشد، التفكير الإيجابي أو السلبي. ففكرن في الأمر على أنه طيف واسع، يقبع اللاوعي في طرفه السلبي والوعي الفائق في طرفه الإيجابي. الطرف الذي سيميل إليه العقل تحت الضغط سيحدد التدريب الذي تلقاه الشخص». قال پول: «الحياة هنا قد تطيب لنا».

حاولت أن ترى الصَّحراء بعينه، وأن تستوعب الظروف القاسية التي يألفها أهل هذا الكوكب، ووجدت نفسها تتساءل عن السيناريوهات المستقبلية التي تراءت لهول لمحات خاطفة منها، وفكرت: يمكن للمرء العيش بمفرده هنا، بلا خوف أن يتسلل شخصٌ لاغتياله، بلا خوف من المطاردة.

تقدّمت خطوة عن پول، ورفعت نظارتها المعظمة إلى عينيها ضابطةً عدستها الزيتيَّتين، وأمعنّت في النظر إلى الجرف

المقابل لهم. أجل، يُوجد سجوار في الأخاديد الجافة، ونباتات شوكية أخرى، وحصيرة من العشب القصير يبدو لونه أخضر مصفرًا في الظلال.

قال پول: «سأزيل المخيم».

أومات جيسيكَا، وسارت إلى مدخل الصدع حيث تستطيع إلقاء نظرة واسعة إلى الصَّحراء، ورفعت نظَّارتها المعظَّمة إلى اليسار. رأت غورًا ملحيًا يسطع باللون الأبيض، وتحدَّد أطرافه صفرةً داكنةً: سهلٌ أبيض قابع هناك في العراء حيث اللون الأبيض يعني الموت. لكن هذا الغور دليل على وجود شيءٍ آخر: الماء. في وقت ما كان الماء يتدفَّق عبر ذلك البياض السَّاطع. خفضت جيسيكَا نظَّارتها المعظَّمة، وعدَّلت بُرُنسها، وأنصت للحظات إلى صوت تحرُّكات پول.

انخفضت الشمس أكثر في الأفق، فطالت الظلال عبر الغور الملحي، وانتشرت خطوط ألوان جامحة في سماء الغروب. ثم ساحت الألوان، وبدأت رؤوس أصابع الظلمة التي تكوَّنت منها تتحسَّس الرمال، فانتشرت ظلالٌ بلون الفحم، قبل أن يخلع الليل فروته الثقيلة على الصَّحراء حاجبًا إيَّها عن الأنظار.

وظهرت النجوم!

رفعت جيسيكَا بصرها إلى النجوم، وأحسَّت بحركة پول وهو يقترب منها. تركَّز ليل الصَّحراء في السماء، كأنه يريد الارتقاء نحو النجوم. انحسرت وطأة حرارة النهار، وشعرت جيسيكَا بنسمة هواء عابرة تداعب وجهها.

قال پول: «سيظهر القمر الأوَّل بعد قليل. الحقيبة جاهزة، وقد

زرعت المطراق في الأرض».

فَكَّرتَ جيسىكا: قد نضىع إلى الأبد فى هذا الجحىم، ولن يعرف أحد.

أثارت الرىح اللىلة حبىبات رمال سفعت وجهها حاملةً معها رائحة القرفة، وامتلاً اللىل بوابلٍ من الروائح.

قال پول: «شمى هذا».

قالت: «أشمها حتى عبر سداة مرشح الأنف. هذه الرمال تحوى ثروة، لكن هل ستبتاع لنا الماء؟»، ثم أشارت إلى ما وراء الحوض وأردفت: «لا أرى أضواء صناعية هناك».

قال لها: «قد يكون الفرمن مختبئين فى سييتشٍ خلف تلك الصخور».

بزغت حافة فضية من خط الأفق إلى يمينهما: قمر اللىل الأول، ثم دخل إلى مجال الرؤية، وبدا شكل اليد المرسوم على وجهه للناظرىن. تأملت جيسىكا الرمال الفضية البىضاء التى كشف عنها الضوء.

قال پول: «زرعت المطراق فى أعماق جزء فى الصدع. بمجرد ما أشعل فتيله، سىكون أمامنا ما يقرب من ثلاثىن دقيقة».

- «ثلاثون دقيقة لماذا؟».

- «قبل أن يبدأ استدعاء الدودة».

- «أها، أنا مستعدة للتحرك».

انسلَّ مبتعداً عنها، وسمعت صوت خطواته تصعد أعلى الصدع الذى وفر لهما المأوى.

وفكَّرت: هذه اللىلة أشبه بالنفق، ممر سىعبر بنا إلى الغد، إن كان لدينا غد. ثم هزت رأسها واستطردت فى تفكيرها: لِمَ

تكتنفي هذه الكآبة؟ لقد تدريت على أن أقوى من ذلك .

عاد پول والنقط الحقيبة، وتقدم الطريق نزولاً نحو أول كثيب، ثم توقف عنده مصغياً إلى صوت اقتراب أمه من خلفه . سمع صوت تقدمها الناعم، وهسيس بعثرة الرمال الواهن بين قدميها: شيفرة الصحراء السرية التي توضح قواعد السلامة الخاصة بها. قال پول: «يجب ألا يكون لسيرنا إيقاع»، ثم استدعى في ذهنه ذكريتين عن رجال يسيرون فوق الرمال: ذكرى استبصارية وأخرى حقيقية .

قال: «راقبي كيف أفعلاها، فهكذا يسير الفرمن في الصحراء» . خطا پول على جانب الكثيب المواجه للرياح، متبعا منحناه، مجرجرا قدميه في خطوات غير منتظمة. راقبت جيسيكا تقدمه قرابة عشر خطوات، ثم تبعته، مقلدة حركته. بعدها فهمت منطق الأمر: يجب أن تبدو الأصوات الصادرة عنهما كأصوات حركة الرمال الطبيعية، كأصوات الرياح. لكن عضلاتها تذبذبت وبدأت تن من هذا الإيقاع المكسور غير الطبيعي: خطوة.. سحبة.. سحبة.. خطوة.. خطوة.. انتظار.. سحبة.. خطوة...

امتد الزمن من حولهما، وبدا أن الجرف الذي أمامهما لا يقترب، وأن الجرف الذي خلفهما ما زال شاهقاً .

طق! طق! طق!

تعالى صوت القرع من الجرف الذي خلفهما .

همس پول: «هذا صوت المطراق» .

استمر صوت الدق، ووجدنا صعوبة في تجنب إيقاعه في خطواتهما .

طق.. طق.. طق.. طق..

تحركا كأنهما في وعاءٍ مقمرٍ يخترقه هذا الرطم الأجوف،
يهبطان ويصعدان كثباناً تتساب رمالها: خطوة.. فسحبة..
فانتظار.. فخطوة... يقطعان رمالاً حصواتها في حجم البازلّاء
تنزلق تحت أقدامهما: سحبة.. فانتظار.. فخطوة..
وطوال الوقت ظلّت أذانهما منتبهة، تبحث عن صوت عزيزٍ
معين.

وعندما جاء الصّوت، بدأ خافتاً جداً إلى درجة أن حفيف
جرجرة أقدامهما غطّى عليه. لكنه ارتفع بالتدريج، رويداً رويداً،
قادمًا من الغرب.

واصل المطراق طريقه: طق.. طق.. طق.. طق..

ساد صوت العزيف المقترب الديجور الجاثم خلفهما. أدارا
رأسيهما وهما يسيران، فرأيا التلّ المتحرّك الذي يحدّد مسار
الدودة.

همس پول: «واصلني السير، ولا تلتفتي خلفك».

أتى دوي انفجارٍ ضارٍ من الصخور المظلمة التي غادراها. كان
الصّوت صوت انهيارٍ صخريٍ من جبل شاهق.
كرّر پول: «واصلني السير».

بلغا نقطة بدا فيها كلا الجدارين الصخريين -الذي أمامهما
والذي خلفهما- على نفس البُعد.

ومن خلفهما، واصل صوت السياط المسعورة التي تمزّق
الصخور هيمنته على الليل.

تابعاً السير دون توقُّف، حتَّى بلغت ألياف عضلاتهما حدًّا من الألم بدا كأنه لن ينتهي أبداً، لكن پول لاحظ أن الجرف الذي أمامهما ازداد حجماً.

سارت جيسيكاً في تركيز وعُزلة يفصلانها عمّا حولها، مدركة أن إلحاح إرادتها وحده هو الذي يحثُّها على مواصلة المشي. أوجعها جفاف فمها، لكن الأصوات التي خلفها سلبتها كل أمل في التوقف لارتشاف جرعة ماء من جيوب بذلة التقطير.

طق... طق...

من الجرف البعيد، زمزمت نوبة جنون صاحبة أخرى، وأغرقت معها المطراق.

فساد الصَّمْت!

همس پول: «أسرعي».

أومأت جيسيكاً، عالمة أنه لم ير إيماءتها في الظلام، لكنها احتاجت إلى فعل ذلك لتخبر نفسها أنه من الضروري أن تطالب عضلاتها (التي بذلت بالفعل كل طاقتها) ببذل مزيدٍ من المجهود. تبأ لتلك الحركة غير الطبيعية!

لاح الجرف أمامهما كجدارٍ آمن يكاد يلامس النجوم، ورأى پول مسطحاً رملياً مستويًا عند سفحه. خطا پول فوق الرمال، متعثراً من التعب، ثم استدرك عثرته ضارباً الأرض بقوةٍ بقدمه في ردّة فعلٍ لا إرادية.

جلجل دويٌّ رنانٌ اهتزّت له الرمال من حولهما.

ترنّح پول جانباً.

يوم! يوم!

همست چيسيكاً: «هذا رملٌ طبلبي!».

استعاد پول توازنه، وألقى نظرة خاطفة إلى الرمال من حولهما، ورأى أن الجرف الصخري ما زال يبعد نحو مئتي متر. من خلفهما، سمعا عزيماً كعزيف الريح، كصوت فيضانٍ جارف في يابسةٍ لا ماء فيها.

صرخت چيسيكاً: «اركض! اركض يا پول!».

وانطلقا راكضين.

قرعت الرمال كالطبول أسفل أقدامهما، ثم خرجا من هذه البقعة ودخلا أرضاً حصباء.

لبعض الوقت، كان في الركض راحةً للعضلات التي آلمها السير العديم الإيقاع الذي لم تألفه. للركض إيقاع يفهمه الجسد. لكن الرمال والحصى أثقلا أقدامهما، وراح عزيف الدودة يقترب قاصفاً كالعاصفة من حولهما.

تعثرت چيسيكاً ووقعت على ركبتيها، لا يسيطر على تفكيرها غير التعب والصَّوت والرعب.

شدّها پول وساعدها على الوقوف.

واستأنفا ركضهما، يدًا بيد.

برز أمامهما وتدٌّ رفيع من وسط الرمال، فتجاوزاه، ثم رأيا آخر.

فشل عقل چيسيكاً في استيعاب وجود الوتدين حتّى تجاوزاهما.

برز وتدٌّ ثالث نحتت سطحه الرياح من شقٍّ في الصخر.

ثم آخر.

وصلنا إلى الصخور!

شعرت بصلاية الصخور تحت قدميها، واكتسبت خطوتها قوةً جديدةً من السطح الراسخ التي تطأها.

ترأى لهما صدعٌ رأسيٌّ عميقٌ الظلال في الجرف أمامهما، فانطلقا نحوه، وحشرا نفسيهما في شقِّ الضيق.

فجأة، توقَّف صوت اقتراب الدودة من خلفهما.

استدار كلاهما وأطلَّ برأسه على الصَّحراء. على بعد خمسين مترًا تقريبًا عند سفح الشاطئ الصخري حيث تنتهي الكثبان، انبجس جسمٌ ملتوٍ رمادي مفضَّض من الصَّحراء، مهيلًا أنهارًا من الرمال والغبار في كل مكانٍ حوله. ثم ازداد ارتفاعًا، وكشف عن فمٍ عملاق يسعى.. فتحة دائرية سوداء تلتمع حوافها في ضوء القمر.

تلوَّى الفم كالأفعى باتجاه الشَّق الضيق الذي يحتمي به پول وجيسيكا، فأزكمت رائحة القرفة أنفيهما. انعكس ضوء القمر على الأسنان العاجية.

تلمَّظ الفم الهائل جيئةً وذهابًا.

كتم پول أنفاسه.

وربضت جيسيكا محدقةً في دھول.

تطلَّب الأمر منها استجماع كل ما تدرَّبت عليه من تركيز الوعي لتسكين الذعر البدائي الذي استولى عليها، وإخضاع الخوف الفريزي الجمعي الذي كاد يشلُّ تفكيرها.

غمرت پول نشوة مفاجئة، فقد شعر قبل لحظات بأنه عبر حاجزًا زمنيًا، ودخل إلى منطقة مجهولة من الغيب كان الظلام فيها جدارًا ملموسًا من فرط دمسه، وعجزت فيها عينه الداخلية

عن رؤية أيّ شيء. بدا كأنه أخذ خطوة ما سقطت به في بئر عميقة بلا قرار، أو إلى غور سحيق صار فيه المستقبل محجوباً عن النظر. لقد تغيّرت تضاريس الغد وتحوّلت جذرياً.

ولكن بدلاً من أن تخيفه هذه العتمة الزمنية، شحذت حواسه الأخرى وأجبرتها على الدخول في حالة من التسارع المضطرب، ووجد عقله يسجل كل تفصيلة، وكل شاردة وواردة متاحة من هذا المخلوق الذي ارتفع من الرمال بحثاً عنه. كان قطر فتحة فمه نحو ثمانين متراً، وبامتداد حافته، التمعت أسنانٌ عاجية في الظلام لها ذات شكل السكاكين العاجية الملتوية. ومن الفم فاح بخر أنفاسٍ برائحة القرفة، مع بقايا صنان عضوي وحمضي خفيفة.

حجبت الدودة ضوء القمر وهي تزحف على الصخور التي تعلوهما، فتساقط وأبلٌ من الحجارة الصغيرة والرمال إلى مكان اختبائهما الضيق.

دفع پول أمه إلى الخلف أكثر.
غمزته رائحة القرفة القوية.

سأل پول نفسه: ما علاقة الدودة بالاسپايس؟ وتذكر كيف فلت تلميحًا من لييت كاينز عن وجود علاقة بين الديدان والاسپايس.

برررووووووم!

[illegible]

انسحبت الدودة عائدة إلى الرمال، وظلّت راقدة لحظات هناك، تومض أسنانها في ضوء القمر.

طلق! طلق! طلق!

فَكَرَ بُولُ: نابضٌ آخر!

تعالى الصَّوْتُ مجدِّداً من جهة اليمين.

سرت رعدة في جسد الدودة، وتراجعت منسحبة إلى مسافة أعمق داخل الرمال، ولم يبق ظاهراً منها سوى حواف الفم الخارجية المحدودة كفوهة نفق تجثم فوق الكثبان.

تخلخلت الرمال بصوت احتكاكٍ خشن.

غاص المخلوق أكثر، منسحباً، عائداً أدراجه، ثم صار تلاً رملياً ناتئاً تلوَّى مبتعداً، كسنام متحرِّكٍ يشقُّ طريقه بين الكثبان. خرج بُولُ من الشقِّ، وراقب الموجة الرملية تتحسر عائدةً عبر الصَّحراء، مليئةً استدعاء المطراق الجديد.

تبعته جيسيكاً مصفيةً: طق.. طق.. طق.. طق.. طق.. طق..

ثم سرعان ما توقَّف الصَّوْتُ.

أمسك بُولُ أنبوب بذلة التقطير، ورشف من الماء المُعاد تدويره.

حاولت جيسيكاً التركيز على حركة ابنها، لكن عقلها كان خاوياً من الإرهاق الذي أعقب الرعب. همست قائلة: «هل رحلت حقاً؟».

قال بُولُ: «أحدهم استدعاها. لا بُدَّ أنهم الفرمن».

شعرت بأنها تتعافى، فقالت: «كانت بالغة الضخامة!».

- «لكنها ليست في ضخامة تلك التي التهمت الثوبتر».

- «هل أنت متأكد أنهم من الفرمن؟».

- «أجل، لقد استخدموا مطراقاً».

- «ولماذا يساعدوننا؟».

- «رُبَّمَا لَمْ يَكُونُوا يَسَاعِدُونَنَا، رُبَّمَا كَانُوا يَسْتَدْعُونَ دَوْدَ فحسب» .

- «لَمْ؟» .

شعر بالجواب على طرف لسانه، لكنه أبى أن يخرج. انتابته رؤيا عن شيء متعلق بالقضيبين المعقوفين القابعين داخل جرابيهما في حقيبتيهما: «خُطَّافَا الصَّانعة» .
سألت جيسيكَا: «لِمَ يَسْتَدْعُونَ الدِّيدَان؟» .

اعتري عقله بعض الخوف، فأجبر نفسه عن الالتفات بعيداً عن أمّه، ورفع بصره نحو الجرف وأشار قائلاً: «حريّ بنا أن نجد طريقاً إلى أعلى قبل حلول النهار. تلك الأوتاد التي مررنا بها، يوجد المزيد منها» .

مدّت بصرها ناظرةً إلى حيث أشار، فرأت الأوتاد، العلامات المخدوشة بالرياح، تحدّد ظلّ حافة صخرية ضيقة تلتوي داخل أحد صدوع الجرف الذي يعلوهما .

قال پول: «لقد تركوا علامات تحدّد المسار الذي يمكن تسلّق الجرف منه» .

تلكّأت جيسيكَا لحظات، ملتقطَةً أنفاسها، مستعيذة قوّتها، ثم تبعته .

أخذَا يتسلّقان متّبعين الأوتاد المرشدة، حتّى ضاقت الحافة وصارت حدّاً رفيعاً مشرقاً على صدع مظلم .

أمال پول رأسه ناظراً داخل المكان المظلم. كان يشعر بموطئ قدميه غير المستقر على الحافة النحيلة، لكنه أجبر نفسه على التروّي توخيّاً للحذر. لم ير سوى الظلام داخل الصدع الممتدّ

إلى أعلى الجرف منفتحًا على النجوم. بحثت أذناه عن أي صوت غريب، لكنها لم تسمع غير الأصوات المتوقعة المألوفة: انسكاب حفنة من الرمال غير المستقرة، أزيز حشرة، خطوات مخلوق صغير راكض. اختبر الظلام الجاثم داخل الصدع بقدم واحدة، فعثر على صخرة تحت سطح من الحصى. تخطى الزاوية بخطى بطيئة، وأشار إلى أمه كي تتبعه، ممسكًا بطرف فضفاض من ثوبها ليساعدها على العبور.

رفعا بصريهما نحو فرجة النجوم التي توطرها حافتا نتوءين صخريين، وعلى ضوئها، شاهد پول أمه كشبح رمادي غائم متحرك، فهمس قائلاً: «يا ليتنا نملك رفاهية المخاطرة بإشعال بصيص ضوء».

قالت له: «لدينا حواسٌ أخرى غير الإبصار». مدَّ پول قدمًا متحسّسةً إلى الأمام، ثم نقل وزنه إليها، وجسَّ الأرض بقدمه الأخرى، فاصطدمت بعائقي أمامها. رفع قدمه، فوجد درجة سلم، فصعدھا. ثم مدَّ يده خلفه، وشعر بذراع أمه، وجذبها من ثوبها كي تتبعه. درجة أخرى.

همس پول: «أظن أنها تقود إلى القمة». فكّرت جيسिका: تلك الدرجات مسطّحة ومتساوية، لا بُدَّ أنها من صنع بشر!

تتبّعت جيسिका حركة پول في العتمة، متحسّسة الدرجات. ضاق الجداران الصخريان حتى كادت كتفاهما تحتكأ بهما. انتهى الدرج بممرٍ ضيقٍ كالشق طوله نحو عشرين مترًا، وأرضه مستوية، أفضى بهما إلى حوضٍ ضحل يضيئه القمر.

خطا پول فوق حافة الحوض، وهمس قائلاً: «يا له من مكانٍ جميل».

من موقعها خلفه بخطوة، حدّقت جيسिका إلى المشهد في اتفاق صامت.

فعلى الرغم من تعبها، والحكة التي تسببها لها أنابيب القسطرة وسدادتا الأنف، وبذلة التقطير التي تحتجز جسدها، وعلى الرغم من خوفها ورغبتها الملحة في بعض الراحة، أخذ جمال هذا الحوض بلبّها، وملأ حواسها، وأجبرها على التوقف والإعجاب ببهائه.

همس پول: «إنه أشبه بعالمٍ خيالي!».

أومات جيسिका.

أمامها، امتدّت نباتات صحراوية كثيفة عبر مساحة واسعة: شجيرات، وصبار، وشتلات صغيرة خضراء الأوراق، كلها تهتزُّ مع النسيم الرقيق في ضوء القمر.

قال پول: «لا بُدَّ أنها إحدى بؤر الفرمن».

وافقته قائلة: «هذه النباتات تحتاج إلى رعاية كي تعيش»، ثم أزال غطاء الأنبوب المتّصل بجيوب التجميع في بذلتها، ورشفت منه. انساب ماءٌ دافئٌ لاذعٌ مبللاً حلقها، ولاحظت كيف أنعشها. احتكَّ غطاء الأنبوب بحبيبات رمالٍ متجمّعة حول حافته وهي تعيده إلى مكانه.

لفتت حركة آتية من جهة اليمين عند قاع الحوض انتباه پول. أمعن في النظر عبر غطاء الشجيرات والأعشاب الكثيف، محدّقاً إلى سطح رملي مستو يسبح في ضوء القمر، مسكون بحركة مخلوقات صغيرة نطّاطة وثّابة.

همس قائلاً: «فُثْران!».

كانت المخلوقات الصغيرة تتوالب متنقلة في الظلال وخروجاً منها.

مرَّ جسمٌ في سرعةٍ وصمتٍ أمام أعينهما جاثماً على الفُثْران، ثم تعالى صوت صرير رفيع، تبعته رفرفة أجنحة، وحلَّق شبح طائر رمادي بعيداً وهو يحمل شيئاً داكناً في مخالفته. ففكرت جيسيكاً: كنا بحاجة إلى هذه التذكيرة.

واصل پول تحديقه عبر الحوض. أخذ شهيقاً عميقاً، وشمَّ رائحة مريمية خفيفة ولاذعة تتصاعد مع نسيم الليل، وفكر في الطير الجارح على أنه جزء من ناموس الصَّحراء. لقد جلبت هجمته الخاطفة على الحوض صمتاً مطبقاً إلى درجة يكاد يُسمع فيه انسكاب ضوء القمر الأزرق اللبني، وتدفُّقه عبر صَبَّار السجوار الحارس والنباتات الشوكية. كان للضوء هنا أزيزٌ منخفض متاغم أكثر من أيِّ موسيقى أخرى في الكون.

قال: «حريٌّ بنا أن نجد بقعةً مناسبةً لنصب الخيمة، وغداً سنحاول العثور على الفرمان الذين...».

- «معظم الدخلاء هنا يندمون عند عثورهم على الفرمان».

كان الصوت المباغت الذي مرَّق خصوصية اللحظة ذكورياً غليظاً، وأتى من مكان ما فوقهما إلى اليمين.

- «رجاءً ألا تركضاً أيُّها الدخيلين»، هكذا قال الصَّوت حين همَّ پول بالتراجع إلى الممرِّ الضيق، «فلن يؤدي الركض إلا إلى إهدار ماء جسديكما».

فكرت جيسيكاً مذعورة: يريدون الحصول على ماء جسدينا!

تغلّبت عضلاتها على كل التعب، فتحنّفت تماماً دون أن يفتضح ذلك للرائي. حدّدت چيسيكا موقع الصّوت بدقّة، وفكّرت: يا له من منسلٍّ بارع! لم أشعر باقترابه قط. وأدركت أن صاحب الصّوت لم يسمع لنفسه إلا بإصدار الأصوات الصغيرة، أصوات الصّحراء الطبيعية. صاح صوتٌ آخر من حافة الحوض إلى يسارهم.

- «أسرع يا ستيل، تحصّل على مائهما كي نمضي في طريقنا، فلم يتبقّ إلا القليل على بزوغ الفجر».

استاء پول -الذي كان أبطأ استجابةً في حالات الطوارئ من أمّه- لأنه تجمّد وحاول الانسحاب، لأنه سمح للحظة هلع عابرة أن تغشي قدراته، لذا أجبر نفسه بعدها مباشرةً على اتّباع تعليماتها: الاسترخاء، ثم التظاهر بالاسترخاء، ثم الاستتار العضلي الكامل استعداداً للانطلاق في أيّ اتجاه.

ومع ذلك، شعر بالخوف يعتصر قلبه وعرف سببه. هذه اللحظة مُعمّاة، لم يرها في أيّ مستقبلٍ. ها هما قد وقعا في قبضة جماعة شرسة من الفرمن لا تريد إلا الماء الذي يجري في بدني شخصين أعزّلين لا درع يحميهما.

هذا التحوُّر والتكثُّف الذي أصاب ديانة الفرمن إذاً هو مصدر ما صرنا نعرفه باسم «أعمدة الكون»، المذهب الذي يسير الكهنة المفوضون بالكراسة* بيننا ناشرين تعاليمه وبراهينه ونبوءاته، مقدِّمين لنا الذوبان الأراكسي الصوفي الذي يتمثَّل جماله العميق في الموسيقى المحرَّكة للمشاعر المستمدَّة من القوالب والتقاليد القديمة بعد دمغها بطابع الصَّحوة الجديدة. من منا لم يسمع ويتأثَّر بكلمات «ترنيمة الشيخ»؟:

أجرجر قدميَّ في صحراءٍ
يموج سرابها كالجمع الغفير.

تجوَّلت في آفاق الكولاب،
شرهاً للمجد، توافاً إلى المخاطر.
وشاهدتُ الزَّمن،

في بحثه الجائع عني،
يُسوي الجبال بالأرض.

ثم رأيتُ العصافير تقترب سريعاً،
كأنها - في جراتها - ذئابٌ منقضة،
وتحطُّ على شجرة شبابي.

سمعت صياح السُّرب في أغصاني،
ولم أسلم من برائته ومناكيره!

من كتاب «صحوة أراكس» للأميرة إيrolان.

زحف الرجل على قَمَّةِ الكَثيبِ، كأنه ذرَّةُ غبار عالقةٌ في وهج شمس الظهيرة. كان يرتدي جُبَّةَ صحراوية مُمَرَّقة، تكشف أسماها البالية عن جلده العاري للقيظ الشديد. كانت القلنسوة قد انتزعت من العباءة، لكن الرجل صنع عمامة من قطعة قماشٍ مَمَرَّقة، ومن أسفلها بدت خصلات شعره الصفراء كالرمال، في نفس لون لحيته الشعثاء وحاجبيه الكثَّين. أسفل لُجَّتِي عينيه الزرقاوين بالكامل، انتشرت بقايا بقعة داكنة على خديه، وانحضر خطٌّ غائر في شاربِه ولحيته يحدِّد المكان الذي يمرُّ منه أنبوب بذلة التقطير في الطريق من أنفه إلى جيوب التجميع.

توقَّف الرجل في منتصف قَمَّةِ الكَثيبِ، وفرد ذراعيه على الجانب المنحدر. تجلَّطت الدماء على ظهره وذراعيه وساقيه، والتصقت كتلٌ من الرمال الصفراء الرمادية بجروحه. ببطء، وضع يديه تحته واستند عليها، ودفع نفسه إلى أعلى ليقف على قدميه، وظلَّ في مكانه يترنَّح. حتَّى في هذا الفعل العشوائي تقريباً، بدا أثر الانضباط والدقَّة اللذين كانا يميَّزان حركته في السَّابق.

قال الرجل: «أنا لبيت كاينز»، موجَّهاً كلامه للأفق الفارغ. كان صوته مجرَّد مُحاكاة هزلية أجشَّة للقوَّة التي كان عليها في السَّابق. ثم همس: «أنا عالم البيئات الكوكبية التابع لجلالة الإمبراطور، الخبير البيئي المنوط بكوكب أَرَّاكس، القيِّم على هذه الأرض».

ثم تعثَّر، وسقط متدحرجاً على جانبه فوق سطح الكَثيب الخشن المواجه للريح، وتشبَّثت يداه بضعف بالرمال. وفكَّر: أنا القيِّم على هذه الأرض.

أدرك أنه يهذي، وأن عليه أن يدفن نفسه في الرمال حتَّى يصل إلى الطبقة السفلية الأبرد نسبياً، ويطغى نفسه بها. لكنه

كان يشمُّ في مكان ما تحت هذه الرمال الرائحة الزنخة المُسكَّرة قليلاً المنبعثة من أحد جيوب تجمُّع مادَّة الاسپايس الأوليَّة، وهو -بلا شك- يدرك الخطر الكامن خلف هذا الأمر أكثر من أيِّ فرمِني آخر. إن كان يشمُّ رائحة مادَّة الاسپايس الأوليَّة، فهذا يعني أن الغازات الجوفية المحتجزة عميقاً تحت الرمال أوشتكت على الانفجار. عليه أن يبتعد عن هذه البقعة.

تحرَّكت يده بضعف تاركةً آثارها على سطح الكتيب.

جالت في ذهنه خاطرة واضحة ومحدَّدة: الزراعة هي أساس الحضارة. تكمن الثروة الحقيقية لأَيِّ كوكب في أرضه، وفي درجة اهتمام أهله بذلك الرافد الحضاري الأساسي.

وفكَّر كم هو غريب أن العقل عندما يركِّز على مسارٍ واحد مدَّة طويلة، يعجز أن يحيد عن هذا المسار. لقد تركه جنود الهراكنة في هذه البقعة بلا ماء أو بذلة تقطير، ظناً منهم أن دودة ستلتهمه، إن لم تجفِّفه الصَّحراء أوَّلاً. لقد رأوا أنه من الممتع تركه ليموت ببطء على يد كوكبه الأثير اللامبالي.

فكَّر كاينز: لطالما وجد الهراكنة صعوبة في قتل الفرمن، فنحن لا نموت بسهولة. كان من المفترض أن أكون ميتاً الآن. سأموت قريباً، لكنني لا أستطيع منع نفسي عن التفكير كعالم بيئة.

«أهم وظيفة لعلم البيئة هي فهم عواقب الأمور».

أفزعته الصَّوت لأنه ميَّز صاحبه، وكان يعرف أنه ميت. كان الصَّوت صوت أبيه، الذي كان عالم البيئة الكوكبي هنا من قبله. لكن أباه لقي حتفه منذ زمنٍ طويل في انهيارٍ كهفي في حوض الجصّ.

قال أبوه: «أوقعت نفسك في مأزقٍ يا بُني. كان عليك أن تعلم عواقب محاولة مساعدة ابن ذلك الدوق».

فَكَرَّ كَايْنَز: أنا اهذي.

بدا الصَّوت كأنه يأتي من يمينه. التفت كايْنَز لينظر في ذلك الاتجاه كاشطاً وجهه في الرمال، لكنه لم يرسوِ امتداد حبة الكثيب المترافضة مع شياطين الحرارة في وهج الشمس.

قال أبوه: «كلما ازداد عدد الكائنات الحيَّة في النظام البيئي، ازدادت البيئات الملائمة للحياة فيه». كان الصَّوت الآن يأتي من يساره، ومن خلفه.

سأل كايْنَز نفسه: لِمَ لا يثبت؟ ألا يريدني أن أراه؟

قال أبوه: «تحسَّن الحياة من قدرة البيئة على توفير مقومات الحياة، فالحياة تجعل العناصر الغذائية اللازمة متاحة بسهولة أكبر. إنها تضخُّ مزيداً من الطاقة في المنظومة من خلال التفاعلات الكيميائية الهائلة المتبادلة بين مختلف الكائنات الحيَّة».

سأل كايْنَز نفسه من جديد: لِمَ يواصل العزف على نفس النغمة؟

أنا أعرف هذه المعلومات من قبل أن أبلغ العاشرة من عمري.

بدأت الصقور الصحراوية آكلة الجيف -مثل معظم الكائنات البريَّة في هذه الأرض- تحلُّق في دوائر فوق رأسه. رأى كايْنَز ظلاً يمرُّ بالقرب من يده، فلوى عُنقه بشدَّة للنظر إلى أعلى. كانت الطيور رقفاً ضبابية على خلفية السماء الزرقاء الفضيَّة، نقاط سخام تحوم فوق رأسه.

قال أبوه: «نحن خبراء عموميون ولسنا اختصاصيين. لا يستطيع المرء رسم خطوطٍ فاصلةٍ حين يتعلَّق الأمر بدراسة مشكلات على نطاق كوكبي. علم البيئات الكوكبية علمٌ مطوَّاعٌ ومرنٌ».

تعجّب كايّنز: بم يحاول إخباري؟ هل فشلت في رؤية بعض
العواقب؟

ترك وجنته ترتخي على الرمال الساخنة، واشتم رائحة
الصخور المحترقة أسفل غازات عناصر الاسپايس الأولى. وفي
ركنٍ منطقي من ذهنه، تكوّنت فكرة: تلك الطيور التي تحلّق فوق
أكلات جيف. ربّما سيراهما بعض أفراد قبيلتي ويأتون للتحريّ.
قال أبوه: «البشر من أهم أدوات عالم البيئات الكوكبية الناجح.
عليك أن تزرع المعرفة البيئية بين الناس. لهذا السبب أنشأت
هذا النوع الجديد من التدوين البيئي».

فكّر كايّنز: إنه يكرّر أشياء قالها لي عندما كنت طفلاً.

بدأ يشعر بالبرد، لكن الركن الذي احتفظ بمنطقه في عقله
أخبره: الشمس في كبد السماء، وأنت لا ترتدي بذلة تقطير
وجسمك ساخن. إنها تجفّف الرطوبة من جسدك.

تشبّثت أصابعه بضعف في الرمال.

لم يتركوا لي حتّى بذلة تقطير.

قال أبوه: «الهواء المُشَبَّع بالرطوبة يساعد في منع البخار
السريع من أجسام الكائنات الحيّة».

تعجّب كايّنز: لم يواصل تكرار البديهيّات؟

حاول تخيل هواء مُشَبَّع بالرطوبة، وعُشْب يغطي هذا الكثيب،
وماءٌ مجمّع تحته، وقناة* طويلة تمتدّ إلى الأفق، غير تلك التي
في الرسومات التوضيحية. مسطّحات مائية. ماءٌ للريّ. تذكّر
كايّنز أن ريّ هكتارٍ واحد من الأرض يتطلّب خمسة آلاف متر
مكعب من المياه في الموسم الزراعي الواحد.

قال أبوه: «هدفنا الأول على أراكس هو تكوين مروج عشبية. سنبدأ بالأعشاب المتطفرة التي تكيفت للعيش في بيئة جدداء، وعندما نتمكن من احتجاز الرطوبة في مسطحات عشبية واسعة، سننتقل لإنماء غابات على الأراضي المرتفعة، ثم سننشئ بضعة مسطحات مائية -صغيرة في البداية- بمحاذاة مسارات الرياح السائدة، مع توزيع مصائد الرياح ومكثفات الرطوبة على خطوط متباعدة في مسارات الرياح لاستعادة ما تسرقه من رطوبة. يجب أن نخلق رياحاً محلية حقيقية، رياحاً رطبة، لكننا لن نستغني أبداً عن مصائد الرياح».

فكر كاينز: دوماً يعطيني محاضرات. لِمَ لا يكف عن الثثرة؟
الا يرى أنني احتضر؟

قال أبوه: «أنت أيضاً ستموت إن لم تبعد عن موقع الفقاعة التي تتكوّن الآن تحتك في جوف الأرض. أنت تعلم أنها في الأسفل، وبإمكانك أن تشم رائحة غازات كتلة الاسپايس الأولى، كما تعلم أن متعضّيات الصّناعة الصغيرة الحيّة بدأت تفقد بعضاً من مائها في الكتلة».

أثار التفكير في وجود هذا الماء تحته جنونه، وتخيل عقله الآن، محتجزاً في طبقات الصخور المسامية بفعل يرقات الصّناعة الصغيرة الجلدية الملمس نصف النباتية نصف الحيوانية. ثم تخيل ذلك الفتق الرقيق الذي يصبُ فيضاً من الماء البارد الشفاف النقي المنعش إلى..
كتلة الاسپايس الأولى!

استنشق كاينز الهواء، فاشتّم الرائحة الزنخة المُسكّرة. كان الهواء مُشبّعاً بها أكثر من ذي قبل.

دفع كايـنـز نفسه واعتدل متَّكِّئًا على ركبتيه، وسمع صرخة طائر، وخفقان جناحين متسرَّعين.

فكَّر كايـنـز: هذا القطاع من الصحراء غني بالاسپايس. لا بُدَّ من وجود فرمٍ في الجوار حتَّى في شمس الظهيرة، وبالتأكيد سيرون الطيور وسيأتون للتقصِّي.

قال أبوه: «التنقُّل عبر التضاريس البيئية المختلفة ضرورة للحياة الحيوانية، والشعوب البدوية تخضع للضرورة نفسها. تتكيَّف مسارات التنقُّل مع الاحتياجات الماديَّة إلى الماء والغذاء والمعادن. يجب أن نتحكم في هذه الحركة، وأن ننسقها لتحقيق أغراضنا».

تمتم كايـنـز: «اخرس أيُّها العجوز!».

قال أبوه: «ما يتعيَّن علينا تنفيذه على أراكس لم يسبق لأحد محاولة تنفيذه نطاق كوكب برمته. يجب أن نستخدم الإنسان قوَّة بيئية بناءة، وأن ندخل أشكال حياة متكيفة جديدة لتطويع البيئة وتغيير شكل الكوكب: نبتة هنا، وحيوانًا هناك، وبشرًا هنا وهناك.. عندها ستبدل دورة الماء، وسنشيد نوعًا جديدًا من النظم البيئية».

قال كايـنـز بصوتٍ أجش: «اخرس!».

قال أبوه: «كانت مسارات التنقُّل هي الدليل الأوَّل الذي أرشدنا لوجود علاقة بين الديدان والاسپايس».

فكَّر كايـنـز بنفحة من الأمل: دورة! من المؤكَّد أن صانعة ستأتي عندما تتفجر هذه الفقاعة. لكنني لا أملك أيَّ خطاطيف، كيف لي أن أمتطي صانعة ضخمة بلا خطَّافين؟

شعر بالإحباط يستنزف ما تبقى فيه من قوَّة. الماء قريب جدًّا، على عمق مئة مترٍ أو نحو ذلك أسفله. لا شك في أن

دودة ستأتي، لكن لا طريقة لإجبارها على البقاء على السطح واستخدامها.

طرح كاينز نفسه إلى الأمام فوق الرمال، عائداً إلى التجويف الضحل الذي خلفته حركته في الرمال.

قال أبوه: «تغلغلَت البيئة الأُرَاكسية في الأنماط التطورية لأشكال الحياة المحليّة. كم هو غريب أن قلة قليلة من الناس هم الذين رفعوا أنظارهم عن الاسبابس مدّة كافية ليتدبّروا التوازن شبه المثالي بين النيتروجين والأكسجين وثنائي أكسيد الكربون الذي يُجرى الحفاظ عليه هنا في غياب مساحات كبيرة لازمة من الغطاء النباتي. إن المجال الحيوي لهذا الكوكب مفتوح أمام قوم ينظرون ويعقلون: صحيح أنه منظومة لا ترحم، لكنه منظومة مُحَكَّمة مع ذلك. أعني هذا أنه خال من الثغرات؟ كلاً، لكن حين تنشأ ثغرة، يأتي شيءٌ ويملؤها. يتألّف العلم من حقائق لا تُدرك بدايتها إلا بعد تفسيرها. كنت متأكّداً من وجود يرقّات الصّانعة الصغيرة في أعماق الرمال قبل أن أراها بوقتٍ طويل».

همس كاينز: «أرجوك كُفّ عن محاضرتي يا أبي».

هبط صقراً فوق الرمال قرب يده الممدودة، ورآه كاينز يطوي جناحيه، ويميل برأسه ناظراً إليه. استجمع قوّته وزجره بصوت أجش، فتوانب الطائر متراجعاً خطوتين إلى الخلف، لكنه ظلّ يحدّق إليه.

قال أبوه: «عمّ الفساد أراضٍ كثيرة بما كسبت أيدي الناس، فلطالما كان البشر وأعمالهم مرضاً يصيب كواكبهم. لكن الطبيعة دائماً ما تتجّع في التعامل من المرض، فإما أن تزيله وإما أن تحتوي عليه وتدمجه في المنظومة بطريقتها الخاصة».

خفض الصقر رأسه وفرد جناحيه، وعاد وضُمُّهما، ثم حوَّل
اهتمامه إلى يده الممدودة.

وجد كايْنز أنه لم يعد لم يعد يملك القوة الكافية للصياح
وزجره.

قال أبوه: «المنظومة التاريخية القائمة على النهب والسلب
المتبادل ستوقَّف هنا على أَرَاكس. لا يمكن للبشر الاستمرار إلى
الأبد في سلب ما يحتاجون إليه دون اعتبار لمن سيأتي بعدهم.
إن الموارد الطبيعية لأيِّ كوكب مدوَّنة في سجلِّه الاقتصادي
والسياسي. هذا السجل في متناولنا، ومساونا واضح».

فكَّر كايْنز: إنه لا يمل من إلقاء المحاضرات. دوَّمَا يُحاضر،
ويُحاضر، ويُحاضر.

وثب الصقر مقترباً بخطوة من يد كايْنز الممدودة، وحركَ
رأسه يُمْنَةً ويساراً فاحصاً اللحم المكشوف.

قال أبوه: «أَرَاكس كوكبٌ ينتج محصولاً واحداً فقط. وهذا
المحصول لا تنتفع به سوى الطبقة الحاكمة التي تعيش كما
عاشت الطبقات الحاكمة على مرَّ التاريخ. أسفل هذه الطبقة،
تحيا جموع من أنصاف البشر أنصاف العبيد على الفتات. ما
يهمُّنا هو تلك الجموع وذلك الفتات، فهما أثمن بكثير مما كان
يُظن في أيِّ عصرٍ مضى».

همس كايْنز: «أنا لا أصغي إليك يا أبي، انصرف».
ثم فكَّر: قطعاً يجب أن يكون بعض أفراد قبيلتي في الجوار،
ولا بُدَّ أنهم رأوا الطيور التي تحوم فوق رأسي وسيأتون للتحقُّق
من احتمالية وجود رطوبة على الأقل.

قال أبوه: «ستعرف جموع أراكس أننا نعمل على جعل الأرض تتدفق بالماء، أغلبهم -بالطبع- لن يكون لديهم إلا فكرة ضبابية شبه صوفية عن الطريقة التي نعتزم بها تحقيق الأمر، بل إن كثيرين سيعتقدون أننا سنجلب الماء من كوكب آخر. هؤلاء لا يدركون مشكلة وزن المياه الثقيل جدًا الذي يعجزنا عن مثل هذا الأمر. لكن دعهم يعتقدون ما يشاؤون، ما داموا يؤمنون بنا».

فكر كاينز: سأقوم بعد لحظات وأخبره برأيي الحقيقي فيه. ما أجزأه! يقف ويحاضرني في حين ما يفترض به أن يساعديني. قال أبوه: «يجب أن ترى الجموع الدين والقانون على أنهما كيان واحد لا ينفصل. يجب أن يُعدَّ العصيان خطيئة، ويتطلب عقوبة دينية. سيكون لهذا فائدة مزدوجة، تحقيق قدر أكبر من الطاعة وبثُّ شجاعة أكبر في النفوس. يجب ألا نعتمد كثيرًا على شجاعة الأفراد، بقدر ما نعتمد على شجاعة الشعب برمته».

فكر كاينز: أين ناسي وأنا في أمس الحاجة إليهم؟ ثم استجمع كل ما فيه من قوة، وحرَّك يده قيد إصبع أقرب إلى الصقر، الذي قفز متراجعًا إلى الخلف وسط رفاقه، ووقفوا جميعًا متأهبين للطيران.

قال أبوه: «سنضع جدولًا زمنيًا يحاكي الوقت التي تستغرقه الظاهرة الطبيعية. إن حياة الكوكب نسيجٌ واسع متشابك بإحكام. ستحدّد التغييرات النباتية والحيوانية في البداية عن طريق القوى الفيزيائية التي سنتلاعب بها. وعندما تترسّخ التغييرات التي استحدثناها في البيئة، ستصبح قوى مؤثرة مهيمنة في حد ذاتها، وسيكون علينا التعامل معها حينها أيضًا. لكن لا تنس أن كل ما نحتاج إليه هو التحكم في ثلاثة بالمئة فقط من المحيط

الحيوي، ثلاثة بالمئة فحسب ستكون كافية لتحويل المنظومة البيئية برمتها إلى نظام مكتفٍ ذاتيًا».

تعجب كايנز: لِمَ لا تساعدني؟ ها أنت تخذلني وأنا في أمس الحاجة إليك، كما كان الحال دائماً. أراد أن يدير رأسه لينظر إلى الاتجاه الذي يأتي منه صوت والده، ويحملك إلى المعجوز شزراً، لكن عضلاته رفضت الاستجابة لمطلبه.

رأى كايנز الصقر يتحرك، مقترباً من يده في خطوات حثيثة حذرة، فيما انتظر رفاقه في لا مُبالاة زائفة. توقّف الصقر على بُعد وثبة واحدة من يده.

شعر كايנز بفتة بصفاء ذهنٍ عميق، ورأى في أراكس فرصة قابلة للتحقق لم يرها والده من قبل. ملأت الاحتمالات على امتداد هذا المسار المختلف عقله.

قال أبوه: «ما من كارثة يمكن أن تحل بشعبك أسوأ من وقوعهم في يد بطلٍ منتظر».

فكر كايנز: إنه يقرأ أفكارِي لا بهم، فليقرأها كما شاء. لقد سبق أن أرسلت الرسائل إلى قري السييتشات التابعة لنا، وما من شيء بإمكانه إيقافها الآن. إذا كان ابن الدوق على قيد الحياة فسيجدونه ويحمونه كما أمرت. قد يتخلصون من المرأة، أمّه، لكنهم سينقذون الصبي.

وثب الصقر وثبة جعلته على مسافة تكفي لتمزيق يده بمنقاره. أمال الطائر رأسه متفحصاً اللحم المرتخي، ثم اعتدل فجأة، ورفع رأسه إلى أعلى، وبصرخة واحدة قفز في الهواء وحلّق مبتعداً، متبوعاً برفاقه.

فكر كايנز: لقد جاؤوا! الفرمن عشيرتي وجدوني.

ثم سمع دمدمة الرمال.

كل فرمني يعرف هذا الصَّوت جيِّدًا، وبإمكانه تمييزه على الفور عن أصوات الديدان أو الحيوانات الصعراوية الأخرى. في مكانٍ ما أسفلهُ في جوف الأرض، جمَّعت كتلة الاسفايس الأولى ماءً وفضلات عضوية كافية من الصَّانعات الصغيرة، وبلغت مرحلة حرجة من النمو المفرط. في عمق الرمال، تتكوَّن الآن فقَّاعة غازية هائلة من ثاني أكسيد الكريون، ستتصاعد إلى أعلى مُحدثَةً انفجارًا ضخماً، في مركزه دوَّامة غبارية ستبتلع أيَّ شيء موجود على السطح، وستستبدل به ما تكوَّن في أعماق الرمال. حامت الصقور في دوائر فوق رأسه، مغمَّقة في إحباط. إنها تعرف ما يحدث. كل مخلوقات الصَّحراء تعرف.

فكَّر كايْنز: وأنا مخلوق صعراوي. هل تراني يا أبي؟ أنا مخلوق صعراوي.

شعر بالفقَّاعة ترفعه، وشعر بها تنفجر وبالدوَّامة الغبارية تتلقَّفه، وتسحبه إلى أسفل نحو الظلام البارد. للحظة، كان الإحساس بالبرودة والرطوبة مريحاً، ثم -في أثناء ما كان كوكبه يقتله- خطر ببال كايْنز أن والده وكل العلماء الآخرين كانوا على خطأ، وأن أكثر مبادئ الكون ثباتاً هي عشوائية التجربة والخطأ. حتَّى الصقور تدرك تلك الحقائق.

مكتبة
t.me/t_pdf

كيف يتسنى لنا اختبار صغّة النبوءات والاستبصارات في ظلّ الأسئلة الحائرة؟ خذ عندك الآتي: كم ممّا يَصْدُقُ من نبوءات يعود إلى معرفة حقيقية مسبقة بأنباء المستقبل (أو إلى «دالة الموجة» كما كان المؤدّب يصف رؤاه الاستبصارية)، وكم منها يعود إلى تدخّل النبي في تشكيل المستقبل كي يتطابق مع كلمات نبوءته؟ ماذا عن الارتباط اللصيق بالواقع المتأصّل في فعل التنبؤ؟ هل يرى النبي المستقبل بالفعل، أم أنه يرى موطنَ ضعف، يرى شرخاً أو شقاً بإمكانه تحطيمه بكلماته أو قراراته، كما يشكّل قاطع الألماس البارع جوهريته بضربة من سكّينه؟ من كتاب «تأملات خاصة حول المؤدّب» للأميرة إيrolان.

صاح الرجل في ظلام الليل: «أحصل على مائهما»، فقاوم پول خوفه، وألقى نظرة خاطفة إلى أمّه. رأت عيناه المدرّبتان جيّداً تأهّبها للقتال وتحفّز عضلاتها. قال الصّوت الآتي من فوقهما: «سيكون من المؤسف القضاء عليكما».

فكّرت چيسیکا: هذا من تحدّث إلينا أوّلاً. إنهما اثنان على الأقل، واحد إلى يميننا والآخر إلى يسارنا. - «سيجنورو روبوسا سوكارس هين مينج لا بشافاس دوي مي كامافس نا بسلاس ليلي بال روباس!».

هكذا صاح الرجل الذي عن يمينهم عبر الحوض. في أذن پول، لم تكن الكلمات إلّا رطانة، لكن علوم البني

جيسيرت التي تلقتها جيسيكاً مكنتها من التعرف على لغة الكلام. إنها التشكوبسا، إحدى اللغات القديمة المستخدمة في الصيد، وقد قال بها الرجل الذي فوقهم إنهم قد يكونا الغريبين اللذين يبحثون عنهما.

في الصمت المفاجئ الذي أعقب الصوت المنادي، أطل وجه القمر الثاني بلونه الأزرق العاجي الباهت، ساطعاً محملاً من وراء الصخور إلى الجهة الأخرى من الحوض.

جاءت أصوات تسلق مختلفة من وسط الصخور، من أعلى ومن الجانبين. تبعثها حركة هيئات شبحية في ضوء القمر، وفي النهاية خرج أشخاص كثر من بين الظلال.

فكر بول مصدوماً: إنهم فريق كامل!

تقدم رجل يرتدي بُرنساً مرقشاً ووقف أمام جيسيكاً. كانت كمامته ملقاة إلى جانب فمه كي يستطيع التحدث بوضوح، فبدت لحيته الكثيفة في ضوء القمر الجانبي. أمّا وجهه وعيناه فكانا محتجبين خلف غطاء رأسه المتدلي.

سأل الرجل: «ماذا لدينا هنا، إنس أم جن؟».

سمعت جيسيكاً نبرة مزاح صادقة في صوته، فسمحت لنفسها التفكير ببعض الأمل. هذا صوت قائد، وهو الصوت الذي خرج من جوف الليل وصددهما بتطفله في البداية.

قال الرجل: «إنس لا جدال».

شعرت جيسيكاً بسكينٍ مخفأة في طيئة من ثوب الرجل دون أن تراها عينيها، فاعترتها لحظة ندمٍ مريرة لكونهما لا يملكان دروعاً. سأل الرجل: «ألكما لسانان ينطقان؟».

وضعت جيسيكاً كل الغطرسة الملكية التي في جعبتها في سلوكها

وصوتها. كان ردُّها سريعاً، لكنها لم تسمع ما يكفي من هذا الرجل لتطمئن من أنها أنشأت سجلاً بثقافته ونقاط ضعفه في ذهنها. سألته بصوتٍ آمر: «وما هوية من خرجوا علينا كالمجرمين تحت ستار الليل؟».

التفت صاحب الرأس المغطى بغطاء البرنس بحدّة وقد بدى توتره، ثم استرخى ببطء مبيّناً لها الكثير. هذا الرجل يجيد التحكم في أعصابه.

تحركَ پول مبتعداً عن والدته بعض الشيء كي يصبحا هدفين منفصلين، وليمنح كليهما مساحةً أوسع للتحرّك.

استدار صاحب الرأس المغطى إلى پول ملاحظاً حركته، فبدأ جانب وجهه في ضوء القمر. رأت جيسيكا الأنف الحاد، وعيناً واحدة داكنة لامعة، لُجّة من الحبر المدلهم لا بياض فيها، وشارباً بُنيّاً كثّاً مفتولاً إلى أعلى.

قال الرجل: «شبلٌ واعد. إن كنتما هاربيين من الهراكنة، فقد نرحّب بكما بيننا. ما رأيك يا فتى؟».

برقت الاحتمالات في عقل پول: أهذه خُدعة؟ أم حقيقة؟ يلزم اتّخاذ قرارٍ فوري.

سأله پول: «ولماذا سترحبّون بهاريين بينكم؟». قال الرجل الطويل: «صبيٌّ يتحدّث ويفكّر كالرجال. حسناً، إجابةً عن سؤالك، يا أيُّها الولي* الصغير، فأنا ممّن لا يدفعون الضيء*، ضريبة الماء، إلى الهراكنة. هذا هو السبب في أنني قد أرحب بالهاربين».

فكّر پول: إنه يعرف من نحن، في صوته إضمار. قال الرجل الطويل: «أنا ستيلجار الضرمّني. هل سيحلل هذا

عقدة لسانك يا فتى؟».

فكّر پول: إنه الصّوت نفسه. وتذكّر الاجتماع الذي زاره هذا الرجل مطالبًا بجثة صديق له قتله الهراكنة.

قال پول: «إنني أعرفك يا ستيلجار. أتيت إلى اجتماع أبي مطالبًا بماء صديقك، ورحلت بصحبة أحد رجال أبي، دانكن آيداهو، كتبادلٍ للأصدقاء».

قال ستيلجار: «وقد هجرنا آيداهو وعاد إلى دوقه».

سمعت جيسيكَا مسحة الازدراء في صوته، فهيأت نفسها للهجوم في أي لحظة.

صاح صوتٌ من الصخور فوقهم: «نحن نضيّع الوقت هكذا يا ستيل».

أعلن ستيلجار: «هذا ابن الدوق، وهو قطعًا الشخص الذي أخبرنا لييت البحث عنه».

- «لكنه... مجرد طفلٍ يا ستيل».

قال ستيلجار: «لكن الدوق كان رجلاً، وهذا الفتى أجاد استخدام المطراق، وكان عبوره شجاعاً في طريق شَيِّ هولود». لاحظت جيسيكَا أنه يستثيها من أفكاره. هل أصدر حكمه ضدها آنفاً.

احتجّ الصّوت الذي يعلوهم قائلاً: «لا نملك الوقت لاختبار معدنه».

قال ستيلجار: «لكنه قد يكون لسان الغيب».

فكرت جيسيكَا: إنه يبحث عن بشارة!

قال الصّوت من فوقهم: «ماذا عن المرأة؟».

تأهّبت جيسيكَا مجدداً. هذا الصّوت يحمل موتاً في نبرته.

قال ستيلجار: «أجل، المرأة، وماؤها».

قال الصَّوت الآتي من الصخور: «أنت تعرف القانون، من لا يستطيع التعايش مع الصَّحراء...».

قاطعه ستيلجار: «صمتاً. الأزمان تتغيّر».

سأل الصَّوت الآتي من الصخور: «هل أمر لييت بهذا؟».

قال ستيلجار: «لقد سمعت صوت السريى لاجو بنفسك يا جيميس، فمالك تلاحقني هكذا؟».

فكرت جيسيك: سييلاجو فتحت الكلمة أمامها أبواباً واسعة للفهم: هذه لغة العلم* والفقہ*، وكلمة سييلاجو تعني حيواناً ثديياً صغيراً طائراً، خَفَاشاً بالأحرى. صوت السِّيلاجو: هذا يعني أنهم استقبلوا وترجموا رسائل مشفرة في أصوات الخفافيش عن طريق مَكُودَات، ووجدوها تأمرهم بالبحث عن پول وعنها.

قال الصَّوت الذي يعلوهم: «لم أقصد إلا تذكيرك بواجباتك يا صديقي ستيلجار».

قال ستيلجار: «واجبي هو الحفاظ على قوَّة القبيلة. إنه واجبي الوحيد، ولست بحاجة إلى من يذكرني به. هذا الطفل يثير اهتمامي. إنه مكتنز لحمًا، ونشأ في وفرة من الماء، وعاش بعيداً عن شمسنا الأم، وليست عيناه كأعين العباد*. ومع ذلك لا يتحدث ولا يتصرَّف مثل الضعاف من أهل الوهاد، ولم يكن أبوه مثلهم أيضاً، فما علَّة ذلك؟».

قال الصَّوت القادم من الصخور: «لا يجدر بنا الاستمرار في الجدل هنا طوال الليل، فإن مرَّت دورية...».

قال ستيلجار: «لن أكرّر عليك أن تصمت مرَّةً أخرى يا جيميس».

التزم الرجل الذي يعلوهم الصَّمت، لكن جيسिका سمعته يتحرَّك، ويقفز عابراً مضيقاً صخرياً، شاقاً طريقه هبوطاً إلى قاع الحوض إلى يسارهم.

قال ستيلجار: «أشار صوت السيلاجو إلى أن إنقاذكما سيعود علينا بالنفع. أتوسَّم الخير في هذا الفتى القوي الراشد كالرجال. إنه يافع ويمكنه التعلم. ولكن ماذا عنك أنت يا امرأة؟». ثم حملق إلى جيسिका.

فكرت جيسिका: لقد انتهيت من تسجيل صوته ونمطه في ذهني الآن. يمكنني التحكُّم فيه بكلمة واحدة، لكنه رجلٌ قوي، وسينفمنا أكثر بكثير وهو حرُّ الحركة غير مسلوب الإرادة، وذو بأسٍ وشوكة. سنرى.

قالت جيسिका: «أنا أُمُّ هذا الصبيِّ، وجانبٌ من قوَّته التي تثير إعجابك هي نتاج تدريبي له».

قال ستيلجار: «يمكن أن تتمتع النساء بقوَّة غير محدودة، وبالتأكيد تمتلك الأمَّهات الموقَّرات تلك القوَّة. هل أنت أُمُّ موقَّرة؟».

تعامت جيسिका مؤقتاً عن تداعيات السؤال، وأجابت بصدق: «كلا».

- «هل تدرِّبتِ على أساليب الصَّحراء؟».

- «كلا، لكن كثيرين يعدُّون تدريبي ذا قيمة».

قال ستيلجار: «نحن من نحكم على قيمة الشيء بأنفسنا».

قالت: «لكل إنسان الحق في إصدار أحكامه الخاصة».

قال ستيلجار: «جيد أنك تتفهَّمين السبب. ليس بإمكاننا التلكُّؤ هنا لاختبارك يا امرأة، اتفهَّمين هذا؟ ولا نريد أن يطاردنا

شبحك. سأخذ الصبيّ ذا شيم الرجال في كنفي وتحت جناحي، وسيحظى بملاذ آمن في قبيلتي. أما أنت يا امرأة... تفهمين أنه لا ضغينة شخصية في الأمر، أليس كذلك؟ إنه القانون المتّبع، الاستصلاح*، تقديم الصالح العام. أليس هذا بكافٍ لك؟».

أخذ پول نصف خطوة إلى الأمام، وقال: «ما هذا الكلام؟». ألقى ستيلجار نظرة سريعة إلى پول، لكنه أبقى اهتمامه منصباً على جيسिका، وقال: «ما لم يتلقَ المرء تدريباً مكثّفاً منذ الطفولة للعيش هنا، فقد يلحق الدمار بقبيلة برمتها. هذا هو القانون، لا يمكننا أن نحمل عبء عديمي الفاء...».

بدأت جيسिका حركتها بإغطاء خادعة وبدت كأنها ستسقط أرضاً. كان هذا فعلاً متوقّفاً من شخص غريب ضعيف، وعادةً ما تُبطئ الأفعال المتوقّعة ردود فعل الخصم. يتطلّب العقل لحظات لاستيعاب ما يطرأ على المألوف ويحوّله إلى غير مألوف. تحرّكت جيسिका عندما رأت كتفه اليمنى تتخفض ليخرج السلاح المخفي بين طيّات ثوبه، وارتكزت في وضعها الجديد. ثم استدارت، وشقّت ذراعها الهواء سريعاً كالسوط، وانخرط الثوبان في دوامة، ثم انتهى الوضع بالصخور خلفها والرجل بلا حيلة أمامها.

عندما همّت أمّه بالتحرّك، تراجع پول خطوتين إلى الخلف. ومع هجومها، ركض محتمياً بالظلال. اعترض طريقه رجلٌ ملتح نصف جاثم، واندفع نحوه حاملاً سلاحاً في يده. باغت پول الرجل بضربة مباشرة تحت عظمة القص، ثم قفز جانباً وعالجه بضربة أسفل عنقه، وسلبه سلاحه وهو يسقط أرضاً.

اختفى پول وسط الظلال، وتسلقّ الصخور سريعاً والسلاح في وشاح خصره. لقد ميّز السلاح على الرغم من شكله غير

المألوف: إنه سلاح يطلق مقذوفات، وهذا أفصح عن أشياء كثيرة تخص هذا المكان. إنه دليل آخر على أن الدروع لا تُستخدم هنا. سينصب اهتمامهم على ما يدور بين أمي وهذا المدعو ستيلجار، وهي قادرة على التكفل به. يجب أن اعتصم بموقع آمن مرتفع بمنحني أفضلية، حيث أستطيع تهديدهم ومنحها فرصة للهرب. جاءت من الحوض أصوات تكأت زنبركات حادة متتالية، وانهاال وابل من المقذوفات على الصخور من حوله، وثقبت إحداها ثوبه. انحسر پول في فرجة بين الصخور، ووجد نفسه في صدع عمودي ضيق، فشق طريقه صعوداً ببطء وصمت قدر استطاعته، مرتكزاً بظهره إلى أحد جانبيه، ومستنداً بقدميه على الآخر. بلغه صدى صيحة ستيلجار: «تراجعوا يا حمقى! ستهشم عنقي إن اقترتتم!».

قال صوت قادم من الحوض: «لقد هرب الصبي يا ستيل، ماذا سنفد...».

- «بالطبع هرب يا ذا العقل الخامد... آاه! رفقا يا امرأة!».
 قالت جيسكا: «قل لهم أن يتوقفوا عن مطاردة ابني».
 - «لقد توقفوا بالفعل يا امرأة. لقد هرب كما أردت له. بحق الآلهة الجوفية! لم لم تقولي إنك امرأة خوارقية ومقاتلة؟».
 قالت جيسكا: «أصدر أمراً لرجالك بالتراجع، أخبرهم بأن يهبطوا إلى الحوض ويقفوا حيث أراهم. من الأفضل لك أن تثق بأنني على علم بعددكم».
 وفكرت: هذه لحظة حساسة، ولكن إن كان هذا الرجل ذكياً كما أظن، فلدينا فرصة.

شق پول طريقه صعوداً شيئاً فشيئاً، ثم وجد حافة ضيقة

يمكن أن يرتاح عليها ويراقب منها الحوض أسفله . ترامى إليه صوت ستيلجار .

- «وإذا رفضت؟ كيف ست... آاااا دعيني يا امرأة! لم نعد ننوي إيذاءك. بحق الآلهة العظيمة! إن كنتِ قادرة على فعل هذا بأقوانا، فأنت تساوين عشرة أضعاف ماء جسدك».

خطر لجيسيكَا: حان الآن وقت اختبار العقل. ثم قالت: «تحدثت عن لسان الغيب».

قال ستيلجار: «رُبَّما تكونان من حكمت عنهما الأسطورة، لكنني لن أومن بهذا حتَّى تثبت صحتَّها بالاختبار. كل ما أعرفه الآن أنكما جئتما إلى هنا بصحبة ذلك الدوق الأحمر الذي... آاااا يا امرأة! لا يهمني إن قتلتي! لقد كان شريفاً وشجاعاً، لكن من الغباء أن يضع نفسه في قبضة الهراكنة!».

ساد الصمت.

ثم قالت جيسيكَا بعدها: «لم يكن لديه خيار، لكننا لن نتجادل في ذلك. الآن، أوْمرُ رجلك المختبئ وراء تلك الشَّجيرة أن يكفَّ عن محاولة تصويب سلاحة إليَّ، وإلا سأخلِّص الكون منك، ثم سأقضي عليه».

زأر ستيلجار: «أنت يا هذا! نفَّذ ما قالت!».

- «لكن يا ستيل...».

- «نفَّذ ما قالت يا وجه الدودة! يا براز العظاءة! يا مأفون الرمال! افعلها وإلا سأساعدُها في تقطيع أوصالك! ألا ترى قيمة هذه المرأة؟».

خرج الرجل من مخبئه الجزئي وراء الشَّجيرة، خافضاً سلاحه.

قال ستيلجار: «لقد أطيع».

قالت جيسيكَا: «الآن، اشرح لرجالك بوضوح ماذا تريده مني،

فلا أريد لأيّ شابٍ متهور أن يرتكب خطأً أحمق».

قال ستيلجار: «عندما ننسل إلى القرى والبلدات نضطر إلى إخفاء هويتنا والاختلاط بأهل الوهاد والأخاديد، ولا نحمل معنا أسلحةً، لأن السكاكين العاجية مقدّسة. أما أنت يا امرأة، فتمتّعين بالقدرة الخوارقية في القتال. كنا نسمع بها فحسب، والكثيرون شكّوا فيها، لكن لا يمكن للمرء أن يُشكّك في ما رأى بأُمّ عينيه. لقد تغلّبت على فرمِنِّي مُسلّح، وهذا سلاح يعجز أيّ تفتيش عن كشف أمره».

أثارت كلمات ستيلجار اضطراباً بين الرجال في الحوض.

- «وإذا وافقت على تعليمكم هذه... الطريقة الخوارقية؟».

- «ستحظين بحمايتي أنت وابنك».

- «وكيف نثق بأنك ستصدق وعدك معنا؟».

فقد صوت ستيلجار شيئاً من منطقهِ الحاذق، وبدت مسحة من المرارة الحادة وهو يقول: «هنا يا امرأة لا نتعامل بأوراقٍ وعقود. لا نتفوّه بوعودٍ في الليل ونتقضّها عند الفجر. كلمة الرجل هنا عقد. ويصفتي قائداً لقومي، فهم ملتزمون باحترام كلمتي. علمينا تلك الطريقة الخوارقية وسيكون لك ملاذاً آمناً بيننا ما شئت، وسيختلط ماؤك بمائنا».

سألته جيسيكاً: «هل تتحدّث باسم كل الفرمن؟».

- «ليس بعد، لكن قد يحدث هذا بمرور الوقت. وحده أخي لبيت يتحدّث باسم كل الفرمن. أما هنا فأنا أعدك بالسريّة فحسب. لن يذكر قومي شيئاً عنكما إلى أيّ سييتش آخر. لقد عاد الهراكنة إلى كوكب كثيب مدجّجين بالسلاح والقوآت، ومات دوقك، وقيل إنكما لقيتما حتفكما في عاصفة هائلة. الصياد لا

يسمى خلف طريدة مينة».

فكرت جيسिका: كلماته مطمئنة، لكن هؤلاء القوم لديهم شبكة اتصالات قوية وبإمكان أحدهم إرسال رسالة بسهولة.

قالت: «أظن أن جائزة رُصدت مقابل الإبلاغ عنا».

ظل ستيلجار صامتًا، لكنها أحسّت بتسارع الأفكار في رأسه وشعرت بخلجات عضلاته تحت يديها.

بعد هنيهة قال: «سأكررها عليك ثانية: لقد أعطيتك وعدًا وعرضت عليك رباط القبيلة. قومي يعرفون قيمتك لنا الآن. ماذا سيعرض علينا الهراكنة في المقابل؟ حرّيتنا؟ هه! كلا. أنت التقوى* التي ستمنحنا كل ما لا يفلح الاسپايس المكّدس في خزائن الهراكنة في شرائه».

قالت جيسिका: «سأعلمكم إذاً طريقتي في القتال»، وشعرت بما حملته كلماتها من طابع طقسي ثقيل دون وعيٍ منها.

- «الآن، هلاً أطلقت سراحِي؟».

قالت جيسिका: «ليكن»، وأطلقت سراحه من قبضتها، ثم أخذت خطوة جانبًا لتكون على مرأى جميع من يقف عند حافة الحوض، وفكرت: هذا هو الاختبار المشهود*، لكن پول يجب أن يعلم حقيقة أنهم حتى لو مُت في سبيل معرفته.

في أثناء الانتظار الصامت، اشربأب عُثق پول قليلًا ليرى الموقع الذي تقف فيه أمّه بشكل أفضل. مع تحرّكه، سمع أنفاسًا ثقيلة آتية من أعلى الشق العمودي، لكنها سرعان ما انكمت، وشعر بوجود ظل باهت يحدّد حوافه ضوء النجوم.

جاء صوت ستيلجار من أعلى الحوض هادرًا: «يا من في الأعلى! لا داعي لمطاردة الصبيّ، فسيهبط وحده بعد قليل».

جاء صوت صبيّ صغير أو فتاة من الظلام فوق پول: «لكن يا

ستيل، لا يمكن أن يكون بعيداً عن...».

- «قلت اتركه وشأنه يا تشاني! يا بنت السحلية!».

همست الفتاة لآعنة من الظلام فوقه، ثم قالت في صوت خفيض: «يدعوني أنا ببنت السحلية!». ثم انسحب الظل خارجاً من مجال رؤيته.

أعاد پول انتباهه إلى الحوض، متبّعاً ظلّ ستيلجار المتحرك جوار أمّه.

نادى ستيلجار «هلمّوا جميعاً»، ثم التفت إلى جيسيكَا وسألها: «والآن حان دوري لأسألك كيف لنا التأكد من أنك ستفنين بجزئك من الاتفاق؟ فأنتم من عشتم حياة الأوراق والعقود فارغة المعنى وما إلى ذلك من...».

قالت جيسيكَا: «نحن معشر البني جيسيرت لا نخرق عهودنا، مثلكم تماماً».

ساد صمتٌ طويل، ثم تعالّى فحيح أصوات كثيرة تقول: «ساحرة من البني جيسيرت!».

التقط پول السلاح الذي استولى عليه من وشاحه، وصوّبه على شبح ستيلجار الداكن، لكن الرجل وأتباعه ظلّوا ساكنين، محدّقين إلى جيسيكَا.

قال أحدهم: «إنها الأسطورة».

قال ستيلجار: «هذا ما قالته ميپس الشادوات في تقريرها عنك. لكن هذا ادّعاء كبير، وعلينا اختبار صعبته. إن كنت المرأة البني جيسيرتية التي ذكرتها الأسطورة التي سيقودنا ابنها إلى الجنة...»، ثم بتر عبارته وهزّ كتفيه.

تهدّت جيسيكَا، وفكّرت: إذا فقد بذرت مبشّراتنا الحاميات

أساطير دينية وقائية في جميع أنحاء حضرة الجحيم هذه. حسنًا، كان هذا هو الغرض منها في الأساس، وسوف تساعدنا. قالت: «العزافة التي أبلغتكم بهذه الأسطورة، أخبرتكم أنها محكومة بضوابط معينة، ضوابط الكرامة* والإعجاز* التي ستظهر على يد من تحدث عنه النبوة. هذا الأمر أعرفه. أتريد أن آتيكم بآية لتطمئن قلوبكم؟».

اتسع منحراه في ضوء القمر، وقال: «ليس بوسعنا التلؤؤ أكثر من ذلك لأداء الطقوس».

تذكرت جيسكا خريطة كان كاينز أراها إيّاها في أثناء إعداد خطط الهروب في حالات الطوارئ. يبدو أن دهرًا قد مضى على ذلك! كان على الخريطة موقع يُدعى «سييتش تابر»، وإلى جواره ملحوظة تقول: «ستيلجار».

قالت: «رُبّما سنفعلها عندما نصل إلى سييتش تابر إذا».

ارتج ستيلجار لإمامها بما لم تحط به علمًا، ففكرت جيسكا: أم لو يعلم الحيل التي نستخدمها! لا بُدّ أن تلك المباشرة البني جيسيرتية الحامية كانت بارعة. هؤلاء الفرمن أعدوا جيّدًا للإيمان بنا.

تحرك ستيلجار بعصبية: «يجب أن نرحل الآن».

أومات جيسكا، لإعلامه بأنهم سيفادرون بإذنٍ منها.

رفع ستيلجار بصره ناظرًا مباشرةً إلى الحافة الصخرية حيث يختبئ پول: «أنت يا هتي، بإمكانك النزول الآن»، ثم أدار انتباهه نحو جيسكا، وخاطبها بنبرة اعتذارية: «أصدر ابنك جلبة صاخبة وهو يتسلق الجرف. أمامه الكثير ليتعلّمه لئلا يعرّض

حياتنا للخطر، لكنه ما زال صغير السن».

قالت جيسिका: «لا شك في أن لدى كلينا الكثير ليعلمه للآخر. أما الآن، فمن الأفضل أن تراعي صاحبك المتكوم هناك، فقد كان ابني المثير للجلبة قاسياً بعض الشيء وهو يسلبه سلاحه». التفت ستيلجار سريعاً، فتطاير غطاء رأسه: «أين؟».

أشارت جيسिका: «خلف تلك الشجيرات».

لمس ستيلجار اثنين من رجاله وقال: «تفقداه»، وحملق إلى رجاله وعددهم. «جيميس مفقود». ثم التفت إلى جيسिका وقال: «حتى ابنك يعرف الطريقة الخوارقية في القتال».

قالت جيسिका: «وستلاحظ أن ابني لم يتحرك من مكانه كما طلبت منه».

عاد الرجلان اللذان أرسلهما ستيلجار وهما يسندان ثالثاً يتعثر ويلهث بينهما. رماهما ستيلجار بنظرة خاطفة، ثم أعاد انتباهه إلى جيسिका: «لا يأخذ ابنك أوامره إلا منك، أليس كذلك؟ جيد. إنه حسن السلوك والانضباط».

صاحت جيسिका: «بإمكانك النزول الآن يا پول».

نهض پول واقفاً، وطلع في ضوء القمر من فوق الشق الذي كان يختبئ فيه وهو يعيد سلاح الفرمني إلى وشاحه. وعندما استدار، ظهر شخص آخر من بين الصخور وواجهه.

في ضوء القمر وانعكاسه على الحجر الرمادي، رأى پول شخصاً ضئيل الجسد في ثياب فرمنية، يحملق إليه وجهه المحتجب خلف ظلال القلنسوة، ومن طيبة في ثوبه، يصوب إليه فوهة أحد أسلحة المقدوفات.

- «أنا تشاني، ابنة لبيت».

كان الصَّوت مرَّحًا، وبه مسحة من الضحك.

قالت الفتاة: «ما كنت سأسمح لك بإيذاء رفاقي».

ابتلع پول ريقه. استدارت الفتاة في مسار الضوء الساقط من القمر، فتبدَّى له وجهها الملائكي الأخاذ، وعيناها الشبيهتان بحفرتين حالكتي السواد. أصاب پول الذهول وجمد في مكانه من رؤية ذاك الوجه المألوف الملامح الذي رآه مرَّات لا حصر لها في أولى رؤاه الاستبصارية، وتذكَّر الجرأة الفاضية الذي وصف به هذا الوجه الخارج من عالم الأحلام قائلاً للأُم الموقرة جايس هيلين موهيم: «سوف ألتقيها».

ها هو الوجه أمامه الآن، لكن في لقاء لم يحلم به قط.

قالت الفتاة: «كنت صاخبًا كشِّي هولود في غضبتها، وسلكت أصعب الطرق صعودًا إلى هنا. اتبعني، سأريك طريقًا أسهل للنزول». خرج پول متعثرًا من الصدع، وسار مسترشدًا بحفيف ثوبها عبر تضاريس متداعية هابطة. كانت تتحرَّك كالغزال، وتتواثب راقصة فوق الصخور. شعر پول بسخونة الدماء تورَّد وجهه، وشعر بالامتنان للظلام المحيط به.

تلك الفتاة كانت أشبه بلمسة من القدر. شعر بأن محمولًا على موجة تتعش روحه، وترفع مع حركتها المتهادية كل معنوياته. بعد قليل كانا يقفان وسط باقي الفرمن في قاع الحوض.

التفتت جيسيكا إلى پول مبتسمة ابتسامة كالحة، لكنها وجَّهت كلامها إلى ستيلجار: «أظن أن هذا درس جيّد للطرفين. أتمنى ألا تحمل أنت وقومك ضغينة تجاهنا لما أبدينا من عنف. ما حدث كان... ضروريًا. كنتم على وشك... ارتكاب خطأ».

قال ستيلجار: «إنقاذ المرء من الوقوع في الخطأ هبة من

الجنة»، ثم لمس شفثيه بيده اليسرى، وأخذ السلاح من خصر
بول باليد الأخرى وألقاه إلى أحد رفاقه. «سيكون لك مسدس
مولى* خاص بك يا فتى، عندما تستحقه».
همّ بول بالكلام لكنه تردّد متذكراً تعاليم أمّه: «البدائيات أوقات
حساسة جداً».

قالت چيسیکا: «ابني لديه ما يحتاج إليه من أسلحة»، وحدّقت
إلى ستيلجار، مجبرةً إيّاه على تذكر كيف استولى بول على
المسدس.

رمى ستيلجار چيميس، الرجل الذي هزمه بول وأخضعه. كان
يصف منزوياً، منكس الرأس، وأنفاسه ثقيلة. قال ستيلجار: «أنت
امرأة صعبة المراس». ثم رفع يده إلى أحد أتباعه، وفرقع بإصبعيه.
- «كوشتي بكاء تي».

فكرت چيسیکا: لغة التشاكوبسا مجدّداً.

دسّ الرجل قطعتي قماش مرّعتين في يد ستيلجار، فمرّهما
ستيلجار بين أصابعه، ثم لفّ واحدة حول عُنق چيسیکا تحت
قلنوستها، ولفّ الأخرى حول عُنق بول بالطريقة نفسها.
وقال: «الآن صرتما ترتديان منديل البكاء*». إن افترقنا،
سيعرف الآخرون أنكما تنتميان لسبيتش ستيلجار. أما الأسلحة
فسنحدّث عنها لاحقاً».

ثم بدأ يسير بين أفراد جماعته، متفحّصاً إيّاهم، وأعطى عدّة
الفرمّن التي مع بول إلى أحد رجاله كي يحملها.
فكرت چيسیکا إذ ميّزت المصطلح الديني: بكاء. من يذرف
الدموع بغزارة على غيرهِ. شعرت كيف أن رمزية المنديل تُوحّد
هذه الجماعة، فسألت نفسها: ولم يوحّدهم البكاء؟

كان ستيلجار قد وصل إلى الفتاة التي أخرجت بول، وقال:

«تشانى، خذي الصبيَّ الراشد تحت جناحك. إنَّأي به بعيدًا عن المتاعب».

مست تشانى ذراع پول، وقالت: «تعال أيُّها الصبيُّ الراشد». دارى پول الغضب في صوته، وقال: «اسمي پول، لذا ف...». قاطعه ستيلجار قائلاً: «سنعطيك اسمًا يا أيُّها الرجل الصغير، في وقت المحنة*، بعد اختبار العقل*».

ترجمت چيسىكا كلماته في عقلها: يقصد اختبار الحكمة. صاحت فجأة وقد غلبت رغبتها في إعلاء شأن پول على كل الاعتبارات الأخرى: «لقد اجتاز ابني اختبار الجوم جبارًا!». من السكون التام الذي تلى عبارتها، أدركت چيسىكا أنها ألقت حجرًا في قلوبهم.

قال ستيلجار: «ثمة الكثير ممَّا يجهله أحدنا عن الآخر، لكننا تلكأنا هنا أكثر ممَّا ينبغي. يجب ألا تطلع شمس النهار علينا ونحن في العراء»، ثم انتقل إلى الرجل الذي صرعه پول، وقال: «چيميس، أستطيع السير؟».

أجابه الرجل مزمجرًا: «لقد أخذني على حين غرة. كانت حادثة عارضة ليس إلا. بإمكانى السير».

قال ستيلجار: «لا أريد حوادث أخرى، سأحمِّلك مسؤولية سلامة الفتى مع تشانى يا چيميس. هذان الاثنان في حمايتي». حدقت چيسىكا إلى الرجل المدعو چيميس. كان هو صاحب الصَّوت الذي تجادل مع ستيلجار من فوق الصخور. كان هو الصَّوت الذي يحمل الموت في نبرته. وها هو ستيلجار يرتضى تكرار أوامره على مسمعه.

ألقى ستيلجار نظرةً فاحصةً إلى المجموعة، وأشار لرجلين بالتقدم: «لاروس وفاروق، ستخفيان آثار أقدامنا. احرصا ألا نترك أثراً خلفنا. أريد عناية فائقة، فمعنا اثنان غير مُدربين». ثم استدار، ورفع يده مشيراً عبر الحوض: «تحركوا في طابور، مع حماية على الجانبين. يجب أن نبلغ "كهف التلال" قبل الفجر». سارت چيسيكا إلى جوار ستيلجار، تعدُّ الرؤوس. أربعون فرماني، وهي وبول، هذا يجعل العدد اثنين وأربعين. فكرت چيسيكا: يتحركون كفصيلة عسكرية، حتى الفتاة تشاني. أخذ بول مكاناً في الطابور خلف تشاني، متخلصاً من شعوره بالإحراج لكون فتاة أمسكت به وقد احتلت ذهنه الذكرى التي استدعتها صيحة أمّه: «لقد اجتاز ابني اختبار الجوم جباراً»، وشعر بوخزٍ في يده من ذكرى الألم.

همست تشاني: «انتبه لخطواتك. لا تحتك بالشجيرات لئلا تترك أثراً يدل على مرورنا من هنا». ابتلع بول ريقه وأوماً.

أصغت چيسيكا إلى أصوات الجماعة، فسمعت صوت خطواتها وخطوات بول، ودهشت من الطريقة التي يتحرك بها الفرمان. أربعون شخصاً يعبرون الحوض ولا يصدر عنهم إلا أصوات البيئة الطبيعية، فيما تخفق ثيابهم في الظلال كقوارب شراعية شبحية. وجهتهم هي سييتش تابر، السييتش التابع لستيلجار.

قلّبت الكلمة في عقلها: سييتش. إنها كلمة تشاكوبسية، لم تتغير -في لغة الصيد القديمة- من قرونٍ لا حصر لها. سييتش:

الملاذ وقت الخطر. بدأت تستوعب الدلالات العميقة للكلمة ولُّغة بعد التوتُّر الذي ساد لقاءهم.

قال ستيلجار: «نتحرَّك بوتيرة جيِّدة. سنصل إلى كهف التلال قبل الفجر بمشيئة شَيِّ هولود».

أومأت جيسيكَا، وحاولت توفير طاقتها، شاعرةً بذلك الإنهاك الرهيب الذي تسيطر عليه بقوة إرادتها... وبشيء آخر: الشعور بالابتهاج الذي يملِّكها الآن، هكذا اعترفت لنفسها. انصب تركيز ذهنها على ما تمثِّله هذه الجماعة من قيمة، وأدركت ما يكشفه لها هذا المسير المنضبط عن ثقافة الفرمن.

وخطر لها: كل فرد، المجتمع بالكامل، مهياً للحياة العسكرية ومدرب على طاعة أوامرهما، وهذا شيء لا يقدر بثمن بالنسبة إلى دوقٍ منبوذ!

مكتبة

t.me/t_pdf

للزمن صفة لا يُضاهيهم فيها أحد، أسماها القدماء
«توتير القوس»، وهي المهلة التي يختار المرء فرضها
على نفسه بين الرغبة والإشباع، بين اشتهاء الشيء
ومدّ اليد لأخذه.

من كتاب «حكمة المؤدّب» للأميرة إيrolان.

اقتربوا من كهف التلال مع بزوغ الفجر، متحرّكين عبر صدع
شديد الضيق في جدار الحوض اضطرهم إلى السير بجانبهم
للمرور منه. في ضوء الفجر الخافت، رأت جيسيكاً ستيلاجار
يرسل بعض رجاله للحراسة، وراقبتهم للحظات وهم يتسلّقون
أعلى الجرف.

رفع پول رأسه إلى أعلى وهو يسير، فرأى مقطعاً عرضياً
للكوكب موشياً بالنجوم حيث ينتهي الشقُّ الضيق ويفرّ فاه
باتجاه السماء الزرقاء الرمادية.

جذبتّه تشاني من طرف ثوبه لتستعجله: «أسرع، لقد تبَيَّن
الضوء».

همس پول: «الرجال الذين تسلّقوا الجرف، إلى أين هم
ذاهبون؟».

قالت: «إنهم دورية النهار الأولى. أسرع الآن!».
فكّر پول: يعيّنون حراسة في الخارج. هذا تصرّف حكيم.
لكن كان من الأنسب لو قصدنا وجهتنا في مجموعات منفصلة،
ففي هذا تقليلٌ لاحتمال فقد الفصيلة بكاملها إذ وقع هجوم.
استوقفت پول الفكرة، إذ أدرك أنه يفكّر بطريقة حرب العصابات،
وتذكّر خوف والده من أن يصبح آل آتريديز عصابة هاربة، تعتمد
أساليب حرب العصابات.

همست تشاني: «أسرع!».

أسرع پول خطاه، مصغيًا إلى حفيف الثياب من خلفه، وتذكّر آية السراط* من الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي الذي أعطاه إياه يُوي.

أخذ پول يقلب الآية في عقله: «الجنة عن يميني، والجحيم عن شمالي، وملك الموت من خلفي».

سلكوا منعطفًا اتسع بعده الممر. وقف ستيلجار جانبًا بوجههم للدخول عبر مدخل منخفض زواياه قائمة.

همس قائلاً: «أسرعوا! سنكون كالأرانب الحبيسة في قفص لو رأتنا دورية مارة هنا».

انحنى پول ليمر من الفجوة، وتبع تشاني إلى كهف ينيره ضوء رمادي باهت صادر من مكان ما في الأمام. قالت له: «بإمكانك الوقوف معتدلاً».

فرد پول قامته، ووقف يتفحص الكهف: كان عميقًا واسعًا ذا سقف مُقَبَّب منخفض بالكاد يعلو عن متناول اليد. انتشر أفراد الفصيلة في الظلال، ورأى پول أمّه تقف في جانب تتأمل مرافقيهم، ملاحظًا كيف لم تندمج وسط الفرمن وبدت مختلفة عنهم على الرغم من تطابق الثياب. كان في مشيتها قوّة وشموخ يميّزانهما عمّا حولها.

قالت تشاني: «اعثر على مكان للراحة لا يعيق حركة الآخرين أيّها الطفل الراشد. هاك طعامك»، ودسّت في يده كسرتين ملفوفتين بورقة تفوح منهما رائحة الاسپايس.

أتى ستيلجار من خلف جيسيكا، معطيًا مجموعة واقفة إلى اليسار أوامرهم: «ضعوا الغطاء العازل في مكانه، وتأكدوا من عدم

تسريبه الرطوبة»، ثم التفت قائلاً إلى فرمني آخر: «لميل، اجلب كرات الإنارة»، ثم أخذ بذراع جيسيكَا وهو يقول: «أريد أن أريك شيئاً أَيْتَهَا المرأة الخوارقية»، وقادها حول منحني صخري باتجاه مصدر الضوء.

وجدت جيسيكَا نفسها تنظر عبر مدخل واسع آخر للكهف، فتحة مرتفعة في جدار الجرف تطل على حوض آخر عرضه نحو عشرة أو اثني عشر كيلومتراً. كان الحوض محمياً بجدران صخرية عالية، وتتأثر فيه أجسام متفرقة هناك وهناك.

وبينما كانت تتأمل الحوض المصطبغ بصبغة رمادية في ضوء الفجر، أشرقت الشمس من فوق الجرف البعيد وأضاءت تضاريس صخرية ورملية بلون البسكويت. لاحظت جيسيكَا حركة شمس أَرَاكس السريعة، التي بدت كأنها هي تقفز من فوق الأفق. فَكَّرَتْ جيسيكَا: أشعر بهذا لأننا نودُّ إمساك الشمس عن الشروق، فالليل هنا آمن من النهار. ثم اعتراها اشتياقٌ شديد إلى رؤية قوس قزح في هذا المكان القفر الذي لن يرى أمطاراً أبداً، وفكَّرت: عليّ أن أكتُم مثل هذا الحنين، فهو ضعف، والضعف صار رفاهيةً لم يعد بوسعي تحمُّل تبعاتها.

جذب ستيلجار ذراعها، وأشار عبر الحوض.

- «هناك! أترينهم؟ هؤلاء هم الدروز* بحق».

نظرت إلى حيث أشار، ولاحظت حركة أناسٍ ينتشرون بامتداد قاع الحوض في ضوء النهار وحتَّى الظلال التي يلقيها الجرف المقابل. على الرغم من بُعد المسافة، كانت حركتهم واضحة في الهواء الصافي. أخرجت نظَّارتها المعظَّمة من أسفل ثوبها، وركَّزت عدستها الزيتيَّتين على الأشخاص البعيدين. كانت المناديل التي

يلفونها حول أعناقهم تتطاير مع الهواء كفراشات متعددة الألوان. قال ستيلجار: «هذا موطننا. سنصل إلى هناك الليلة»، ثم نظر عبر الحوض وهو يفتل شاربه إلى أعلى: «سهر قومي طوال الليل في العراء يعملون، هذا يعني أنه لا توجد دوريات في الجوار. سأرسل إليهم إشارة لاحقاً كي يتهيؤوا لقدومنا».

قالت جيسكا: «يُظهر قومك انضباطاً جيداً». ثم خفضت نظارتها المعظمة، ورأت أن ستيلجار يتأملهم.

قال ستيلجار: «إنهم يطيعون قانون حماية القبيلة. إنها الطريقة التي ارتضيناها لاختيار القائد بيننا. القائد هو الأقوى، وهو من يوفر الماء والحماية». ثم حوّل اهتمامه إلى وجهها.

بادلته التحديق، ولاحظت عينية العديمتي البياض، والهالات السوداء حول محجريه، ولحيته وشاربه اللذين يحفهما الغبار، والخط الفائر المنحني الذي يرسمه الأنبوب الواصل من منخرينه إلى بذلة التقطير.

سألته: «هل عرضت زعامتك للخطر عندما تغلبت عليك يا ستيلجار؟».

قال لها: «لم تدعيني للنزال بشكل رسمي».

قالت: «من المهم أن يحتفظ القائد باحترام رجاله».

قال ستيلجار: «ولا واحد من قمل الرمال هؤلاء تُعجزني هزيمته. بتغلبك عليّ، فقد تغلبت علينا جميعاً، والآن هم يأملون أن يتعلموا منك الطريقة الخوارقية، وبعضهم ينتابه الفضول لمعرفة إن كنت ستدعيني للقتال».

وازنت جيسكا الأمور في عقلها، وسألته: «أتقصد التغلب عليك في نزال رسمي؟».

أوماً قائلاً: «لكنني لا أنصحك بفعل ذلك لأنهم لن يتبعوك، فأنت لست من نبت الرمال، وقد لاحظوا ذلك في رحلتنا الليلية». قالت: «إنهم قومٌ عمليون».

ألقى نظرة إلى الحوض وقال: «هذا صحيح. نحن ندرك احتياجاتنا جيّداً. لكن قلّة من بيننا يفكّرون بهذا العمق ونحن بهذا القرب من موطننا. لقد أطلقنا المكوث في العراء، نجهّز ونورّد حصتنا من الاسپايس إلى التجّار الأحرار لتوصيلها إلى رجال النقابة الملاحين، عسى أن تُسوّد وجوههم إلى الأبد». كانت چيسیکا تستدير مبتعدة عنه، لكن كلامه أوقفها، فعادت ونظرت إلى وجهه وسألته: «النقابة؟ وما شأن النقابة بالاسپايس الذي يخصّكم؟».

قال ستيلجار: «إنها أوامر لييت. نعرف الحكمة من الأمر، لكن مرارتها تزعجنا. نحن نرشو النقابة بكمّيات هائلة من الاسپايس للحفاظ على سمائنا خالية من الأقمار الصناعية، حتّى لا يتجسّس أحد على ما نفعله بسطح أراكس».

وزنت كلماتها قبل أن تلفظها، متذكّرة أن پول أشار إلى أن هذا هو السّبب في خلو سماء أراكس من الأقمار الصناعية: «وما الذي تفعلونه بسطح الكوكب وتريدون حجبّه عن الأنظار؟».

- «نغيّره. ببطء، لكن بثقة. نجعله صالحاً لحياة البشر. لن يشهد جيلنا هذا التغيّر، ولا أبناؤنا، ولا أحفادنا، ولا أحفاد أحفادنا، لكنه سيحدث»، ثم رنا بعينين لا يُسبر غورهما إلى الحوض الواسع، وقال حالماً: «مسطّحات مائية، ونباتات خضراء طويلة، وأناس يسيرون بلا بذلات تقطير».

فكّرت چيسیکا: هذا إذاً هو حلم لييت كاينز.

قالت جيسिका: «الرُّشَى أمرٌ خطِرٌ، فمن طبيعتها الازدياد مع الوقت».

قال: «إنها تزداد بالفعل، ولكن في التَّأَنِّي السلامة».

استدارت جيسिका، وتأمَّلت الحوض الممتد أمامها، محاولةً تخيُّله كما يراه ستيلجار في مُخَيَّلَتِهِ، لكنها لم تر إلاَّ صخوراً بعيدةً رماديةً صفراءَ بلون الخردل، وحركة غائمة مفاجئة في السماء فوق الجروف.

قال ستيلجار: «آها».

ظنَّت في البداية أنها مركبة دورية، ثم أدركت أنه سراب، بدت معه التضاريس الطبيعية كأنها تحوم فوق رمال الصَّحراء، وفي البُعد رأت نباتات خضراء متموجةً، وفي منتصف المسافة دودة طويلة تجري على السطح، وعلى ظهرها شيءٌ يبدو كأنه ثياب فرمزية خفَّاقة. ثم تلاشى السراب.

قال ستيلجار: «سيكون من الأفضل لو ارتحلنا ركوباً، لكننا لا نسمح بدخول الصَّانعة إلى هذا الحوض. لذا سيتعيَّن علينا استئناف مسيرتنا على الأقدام الليلة».

فكَّرت جيسिका: الصَّانعة! إنها الكلمة المقابلة للدودة في لغتهم.

فكَّرت في أهمِّية كلماته، وتصريحه بأنهم لا يستطيعون السماح لدودة بأن تدخل هذا الحوض، وأدركت طبيعة ما رآته في السراب: رجال من الفرمن يمتطون ظهر دودة عملاقة. تطلَّب الأمر منها مجهوداً كبيراً كي لا تبدو عليها آثار الصدمة من تلك المعلومة.

قال ستيلجار: «ينبغي لنا العودة والانضمام إلى الآخرين، وإلاَّ سيشتك قومي في أنني أغازلُك، فبعضهم يشمر بالغيرة بالفعل لأن

يديّ ذاقت جسدك ونحن نتصارع ليلة أمس في حوض تيونو». صاحت جيسيكا: «كيف تجرؤا!».

قال ستيلجار بصوت معتدل: «لم أقصد إهانة. نحن لا نأخذ النساء هنا ضد رغبتهم، أمّا أنت...»، وهزّ كتفيه: «فلسيت في حاجة إلى الاحتماء بعُرف كهذا».

قالت: «أريدك أن تتذكّر دومًا أنني كنت امرأة دوق»، ولكن صوتها كان أهدأ ممّا سبق.

قال لها: «كما تشائين. حان وقت إحكام غلق هذه الفتحة ليتمكّن الناس من إرخاء إحكام بذلات التقطير. قومي بحاجة إلى نيل قسطٍ من الراحة اليوم، ففدًا لن تدعهم أسرهم ينعمون براحة».

ساد الصمت بينهما.

رنت جيسيكا إلى الخارج حيث ينتشر ضوء النهار. إنها متيقّنة ممّا سمعت من تلميح صوت ستيلجار: عرضه الصامت بأن يمنحها ما هو أكثر من الحماية. هل هو في حاجة إلى زوجة؟ أدركت أنها لا تمانع أن تقبل بهذه المنزلة إلى جواره، ففي هذا حلٌّ لإنهاء النزاع على زعامة القبيلة: اقتران الأنثى بالذكر على نحوٍ لائق.

ولكن ماذا عن پول؟ من يدري ما طبيعة قواعد الأبوة السائدة هنا؟ وماذا عن الطفلة التي لم تولد بعد التي حملتها منذ أسابيع القليلة؟ ماذا عن ابنة الدوق الميت؟ أجبرت نفسها على مواجهة دلالة تلك الطفلة التي تنمو بداخلها، لتفهم الدوافع التي جعلتها تسمح بوقوع هذا الحمل. كانت تعرف حقيقة الأمر: لقد استسلمت للدافع العميق المشترك بين جميع المخلوقات الفانية،

دافع السعي إلى الخلود عن طريق الذرية. لقد استحوذ عليها دافع الخصوبة الفريزي الكامن في الكائنات الحيّة.

ألقت جيسيكاً نظرة سريعة على ستيلجار، فرأت أنه كان يتأملها منتظراً. سألت نفسها: ما مصير ابنة تُولد هنا لامرأة متزوجة من مثل هذا الرجل؟ هل سيحاول تقييد الطرق التي على كل بنت من بنات البني جيسيرت أن تسلكها؟

تنحج ستيلجار كاشفاً لها أنه فهم بعض الأسئلة التي تدور في عقلها: «ما يهمّ الزعيم هو الأمور التي تجعله زعيماً في المقام الأول، أي تلبية احتياجات قومه. إذا علمتني قواك، فربّما يأتي اليوم الذي يضطر فيه أحدنا إلى تحدّي الآخر. لذا أفضل أن نتوصّل إلى بديل».

سألته: «وهل توجد بدائل؟».

- «أن تكوني السيّادينا الجديدة، فأُمنّا الموقرة قد بلغت من العمر عتياً».

أُمهم الموقرة!

وقبل أن تتمكّن من الاستفسار منه عن الأمر، قال: «أنا لا أعرض نفسي عليك زوجاً. لا أقصد الإساءة لك بكلامي، فأنت جميلة وجذّابة. لكنك لو صرتِ واحدة من نسائي، فقد يقود هذا إلى أن يعتقد بعض شُبّان قومي أنني مهتم أكثر من اللازم بمتع الجسد، وأقل من اللازم باحتياجات القبيلة. إنهم في هذه اللحظة هم يصفون إلينا ويراقبوننا».

فكّرت جيسيكاً: إنه رجل يوازن قراراته، ويفكر في توابع أفعاله.

قال لها: «بين قومي شُبَّان بلغوا سنَّ التمرُّد، ويجب توجيههم برفق خلال هذه المرحلة. يجب ألا أترك لهم أسباباً قوية تدفعهم إلى مُباراتي، كي لا أضطر إلى جندلة بعضهم أو قتله. ليس هذا المسار الصحيح أمام القائد إن كان باستطاعته تجنبه بشرف. القائد هو أحد الأشياء التي تميّز الغنَّ من السمين، وتضُرّق الغوغاء عن الشعب. إنه من يتولّى مسؤولية الحافظ على عدد المتفرّدين في قومه، الذين إن قلَّ عددهم، ينتكس الشعب مرتدّاً إلى غوغاء». لم يكن يوجّه كلامه إليها فحسب، بل إلى من يتنصّتون سرّاً أيضاً، وقد أجبرها تصرّفه وكلماته التي تتسم بوعي عميق على إعادة تقييمه.

فكّرت جيسिका: إنه ذو مكانة وحُظوة. من أين تعلّم مثل هذا التوازن الداخلي؟

قال ستيلجار: «إن القانون الذي يحكم طريقتنا في اختيار القائد لقانون عادل. لكن هذا لا يعني أن العدالة هي الشيء الذي يحتاج الناس إليه دائماً. ما نحتاج إليه الآن حقّاً هو وقت للإنبات والازدهار، وقت لفرض سطوتنا على المزيد من الأراضي».

تساءلت جيسिका: من أسلاف هذا الرجل؟ من أين أتى هذا النسل؟ ثم قالت: «لم أقدرُك حق قدرك يا ستيلجار».

قال: «هذا ما ظننت».

قالت: «يبدو أن كلينا لم يقدرُ الآخر حق قدره».

قال: «أريد لهذا أن ينتهي. أنا طامعٌ في صداقتك، وفي ثقتك. أريد أن ينمو في صدرينا احترامٌ متبادل لا يقتضي حميمية العلاقة الجسدية».

قال: «في أعرافنا، قد لا تتقلد السيّادينا منصب قيادة رسمي، لكنها تتمتع بمقام شريف مقدّس. إنها من تُلَقَّن العلم، وتحافظ على إبقاء الرب قوياً هنا»، وأشار إلى صدره.

فكّرت جيسيكا: لا بُدَّ لي من التحقيق في لغز الأُم الموقّرة هنا، ثم قالت: «لقد تحدّثت سابقاً عن أُمكم الموقّرة، وأنا قد سبق أن سمعت كلاماً عن أسطورةٍ ما ونبوءة».

قال: «قيل إن امرأة من البني جيسيرت وولدها سيحملان مفتاح مستقبلنا».

- «وهل تعتقد أنني تلك المرأة؟».

راقبت ملامح وجهه وفكّرت: تموت أعواد القصب الصغيرة بسهولة، فالبدائيات أوقات محفوفة بمخاطرٍ عظيمة.

قال: «لا نعلم».

أومأت مفكّرة: إنه رجلٌ شريف. إنه يريد أن آتبه بعلامة معيّنة، لكنه لن يوجّه القدر بإخباري بتلك العلامة.

أدارت جيسيكا رأسها، وحدّقت أسفل الحوض إلى الظلال الذهبية، إلى الظلال الأرجوانية، إلى تموجات الهواء المحمّل بذرات الغبار عند حافة كهفهم. ملأ عقلها فجأة حذر شبيه بحذر القطط. كانت تعلم أساليب المُبشّرات الحاميات في الخداع والتظاهر بالتقوى، وتعرف طرائق تطويع كلمات الأساطير والمخاوف والآمال لخدمة لاحتياجاتها الطارئة، لكنها استشعرت

حدوث تغييرات جسيمة هنا، كأن شخصاً أتى وعاش وسط هؤلاء
الفرمن واستغلَّ البصمة التي تركتها المُبشَّرات الحاميات عليهم.
تنحج ستيلجار.

استشعرت نفاذ صبره، عالمة أن النهار يمرُّ وأن الرجال ينتظرون
لإحكام غلق هذه الفتحة. هذه اللحظة تتطلَّب منها جرأة، وأدركت
جيسيكما ما نحتاج إليه: شيء من علوم دار الحكمان*، مدرسة
الترجمة الفكرية التي قد تمنحها الـ...
فجأة همست لنفسها: «أدب*».

شعرت جيسيكما كما لو أن عقلها انقلب في رأسها، فاستكانت
للشعور مع تسارع نبضها. لم تمنحها كل تدريبات البني جيسيرت
التي تلقَّتها مثل هذا الشعور بالإذعان. لا شك في أن ما شعرت به
هو الأدب، تلك الذكرى المُلحَّة التي تفرض نفسها على الشخص رغماً
عنه. أسلمت نفسها لها راضيةً، سامحةً للكلمات بأن تتدفَّق منها.
قالت: «بِنِ قِرطِيبا، أو هكذا تقول الكلمات المقدَّسة: عند
حافَّة الأرض حيث ينتهي عندها الغبار...»، ثم أخرجت ذراعها
من أسفل ثوبها، فرأت عيني ستيلجار تتسعان دهولاً، وسمعت
حفيف ثياب كثيرة في الخلفية. تابعت مرتلةً: «... أرى فرمينياً
يحمل بين يديه كتاب الأمثال، ويقرأ على اللات، الشمس التي
تحدِّها وأخضعها. يقرأ على السَّادة، القضاة السماويين، قائلاً:

«أعدائي كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية

حَاوَلْتُ الوقوف في طريق عاصفة.

ألم تر ماذا فعل ربنا بهم؟

إذا أرسل عليهم وباءً لا يذر

جزاءً لما كانوا يتآمرون ضدَّنا.

تَشَنَّتْ شملهم كطُيورٍ رَوَّعها الصيَّادُ

وارتد مكرهم في نحورهم

وصارت مكائدهم فُتاتًا مسمومًا

تلفظه كل الأفواه».

سرت رعدة في جسدها، فخفضت ذراعها.

من عمق الكهف الظليل، أجابتها أصواتٌ هامسة كثيرة: «أولئك حُبِطت أعمالهم».

قالت: «نار الرب تطلُّع على أفئدتكم». وفكَّرت: الآن صرنا على المسار الصحيح.

جاء الرد: «نار الرب مُوقدة».

أومأت، ثم قالت: «أعداؤكم سيسقطون».

أجابوها: «بلا كيف! *».

في الصَّمت المفاجئ الذي تلا ذلك، انحنى ستيلجار لها قائلاً: «أيتها السيَّادينا، بمشيئة شَيِّ هولود وعونها، ستنجحين في اجتياز الرحلة الداخلية وتصبحين أُمًّا موقَّرة».

فكَّرت چيسیکا: اجتياز الرحلة الداخلية! تعبير غريب لوصف الأمر. لكن باقي كلامه يتواءم بالقدر الكافي مع ما تلوته عليهم من خداع. ثم شعرت بمرارة ساخرة لما فعلته. نادرًا ما تخفق مبشَّراتنا الحاميات. لقد هيَّئن لنا ملاذًا في هذا القفر. الدعاء والصلاة* شَيِّدا لنا مخبأً آمنًا هنا، والآن، عليَّ أن اتقمَّص دور عُلَيَّا، حظيَّة الرب، وأن أكون السيَّادينا لقوم مارقين تأثَّروا بما نبَّهه البني چيسيرت من خرافات إلى درجة أنهم صاروا يطلقون على كبيرة كاهناتهم لقب الأُم الموقَّرة.

وقف پول إلى جوار تشاني في ظلال الكهفة العميقة، لا يزال في فمه مذاق الطعام الذي أعطته له: لحم الطير والحبوب المغموسة في عسل الاسپايس المغلقة بورقة. بتذوقه، أدرك أنه لم يسبق له تناول هذا الكمّ المركّز من مادة الاسپايس، واعتراه خوفٌ لذلك. كان يعلم ما ستفعله به تلك المادة: يعلم التأثير الذي سيحدثه الاسپايس بعقله وكيف سيدفعه إلى حالة الوعي الاستبصاري السابقة.

همست تشاني: «بلا كيف».

نظر إليها، ولاحظ الرهبة والخشوع اللذين تلقى بهما الفرمن كلمات أمّه. وحده ذلك المدعو چيميس بدا كأنه يقف بمعزل عن الحفل، نائياً بنفسه على المشاركة، عاقداً ذراعيه على صدره.

همست تشاني: «دوي ياخا هين مينج، دوي بورنا هين مينج. لديّ عينان، لديّ قدمان».

وحدّقت إلى پول بنظرة تعجّب.

أخذ پول نفساً عميقاً، محاولاً تهدئة العاصفة المضطربة داخله. اندمجت كلمات أمّه مع ما تفعله مادّة الاسپايس داخله، وشعر بصوتها يرتفع ويهبط في روحه كظلال نارٍ موقدة. طوال كلامها، استشعر السخرية في صوتها، فهو يعرفها تمام المعرفة، لكن لا شيء الآن يمكن أن يوقف الشيء الذي بدأ بلقمة طعام سائغة.

الغاية الرهيبة!

استشعر پول الشيء مجدّداً، الوعي الجمعي للجنس البشري الذي لا يستطيع الهروب منه. أتاه الوضوح الحاد، وغمره تدفق البيانات، ولفّته برودة إدراكه العاتي. جلس أرضاً، مرتكزاً بظهره

على صخرة، مستسلمًا للشعور. انساب وعيه عبر هذا الطور غير المحدود بزمانٍ أو مكان، حيث استطاع رؤية الزمن ككتابٍ مفتوح، واستشعار المسارات المتاحة، والتعرض لرياح المستقبل، ورياح الماضي. ومن ثمَّ اندمجت الرؤية الأحادية للماضي، والرؤية الأحادية للحاضر، والرؤية الأحادية للمستقبل، في رؤية ثلاثية أتاحت له مراقبة الزمان وهو يتحوّل إلى مكان.

شعر بخطورة إيذاء نفسه، فاضطر إلى التشبُّث بوعيه بالحاضر، شاعرًا بانحراف التجربة عن مسارها، وباللحظة المتدفّقة، وبالتحوّل المستمر لما هو حاضر إلى ماضٍ تام سرمدى.

بتشبُّثه بالحاضر، شعر پول للمرّة الأولى بأن الثبات الهائل لحركة الزمن في كل مكان يتعقّد ويتقلقل بسبب ما يطرا من تيّاراتٍ متقلّبة وأمواج وعواصف وعواصف مضادة، كما ترتطم الأمواج بجرفٍ صخري. أعطاه هذا الشعور فهمًا جديدًا لقدراته الاستبصارية، واستطاع أن يرى مصدر تلك المنطقة الزمنية العمياء، وموطن الخلل فيها، فاجتاحه إحساسٌ فوري بالخوف. أدرك پول أن بصيرته أشبه بعمود إنارة كاشف تحكمه القيود والمحدّدات نفسها التي تحكم ما ينيّره: إنها مصدر الدقة ومُعامل الخطأ في الوقت نفسه، يشوبها شيءٌ يشبه مبدأ عدم اليقين لهايزنبرج: الطاقة التي تكشف له ما يراه، تغيّر ما يراه.

وما رآه في هذا الكهف كان محورًا زمنيًا، مفترقًا تغلي فيه احتمالات كثيرة، حيث يمكن لأبسط الأفعال -كفمزة عينٍ، أو كلمة طائشة، أو حبة رملٍ في غير مكانها- أن تغيّر مجريات الأحداث في الكون المعروف. رأى أن حصيلة العنف القادم

تخضع لمتغيرات كثيرة، وأن أقل حركة يمكن أن تُحدث تغييرات هائلة في نمط مجريات الأمور.

جعله هول الرؤيا يرغب في أن يثبت في حالة جمود، ولكن هذا فعلٌ في حد ذاته، وسيكون له تبعاته.

تشعبت العواقب خارجة من هذا الكهف في تفرعات لا حصر لها، ورأى على امتداد أغلب هذه المسارات جُثته، يتدفق الدم من طعنة سكين نافذة فيها.

كان أبي، الإمبراطور الپاديشاه، في الثانية والسبعين من عمره، ومع ذلك يبدو كمن لا يزيد على 35 عامًا في السَّنة التي علم فيها بوفاة الدوق ليتو وأعاد أراكس إلى قبضة الهراكنة. نادرًا ما ظهر أبي أمام الناس وهو يرتدي زيًا آخر غير زيِّ السَّاردوکار وخوذة البورسيچ السوداء التي يزيناها شعار الأسد الإمبراطوري الذهبي. كان الزيُّ تذكيرًا صريحًا بمكمن قوّته، لكن أبي لم يكن بهذه الصراحة الفجّة في كل الأوقات. فحين يريد، كان يشع بالسحر والإخلاص. لكنني كثيرًا ما أتساءل في الآونة الأخيرة إن كان سلوكه وقتها يظهر ما يبطن بالفعل. أعتقد الآن أنه كان رجلًا يكافح باستمرار للهروب من قضبان قفص غير مرئي. يجب أن تتذكّر أنه كان إمبراطورًا، وأبًا رئيسًا لسلالة حاكمة تعود إلى عصور سحيقة موعلة في القدم. لكننا حرمناه من ابن شرعي. أليست هذه بأنكر هزيمة يمكن إلحاقها بحاكم على الإطلاق؟ لقد أطاعت أمي مشرفاتها الموقّرات، فيما عصت الليدي چيسيكا أمرهن. تُرى أيتهما كانت الأقوى؟ التاريخ قد أجاب بالفعل.

من كتاب «في بيت أبي» للأميرة إيrolan.

استيقظت چيسيكا في ظلام الكهف، شاعرةً بحركة الفرمن من حولها، وشمّت الرائحة اللاذعة المنبعثة من بذلات التقطير. أخبرها شعورها بالوقت بأن الليل سيحل قريبًا في الخارج، لكن

الكهف كان لا يزال غارقًا في الظلام، ومحميًا من جفاف الصَّحراء بأغطية بلاستيكية تحبس رطوبة أجسامهم داخل هذا الحيز. أدركت أنها نامت نومًا عميقًا بسبب إرهاقها الشديد، وكان في هذا دليلٌ على ثقتها اللا واعية بأمنها الشخصي واطمئنانها على نفسها وسط جماعة ستيلجار. اعتدلت في الفراش المعلق المصنوع من ردهاها، وأنزلت قدميها على الأرضية الصخرية، ثم دسَّتهما في فردتي بياذة الصَّحراء.

وفكَّرت: عليّ أن أتذكّر ربط لسان البياذة المنزلق بالطريقة التي تساعد عملية الضخ في البذلة. عليّ أن أتذكّر الكثير من الأمور. كان مذاق الوجبة الصباحية التي تناولتها ما زال في فمها: مضغ لحم الطير بالحبوب المغموسة في غسل الاسپايس المغلّفة بورقة، فتبيّن لها أن حال اليوم مقلوبٌ هنا: الليل معاشًا والنهار لباسًا.

الليل ستّار، الليل آمن.

فكّنت ردهاها من أوتاد الفراش المُعلّق المدقوقة في الكوة الصخرية، وتحسّست القماش في الظلام حتّى وجدت فتحة الرأس، وارقدته.

وتساءلت: كيف عساي أن أبعث رسالة إلى أخوات البني جيسيرت؟ كان لا بُدّ من إخبارهن بوضعيهما، عن وضع الشاردين في الملاذ الأراكسي.

كانت كرات الإنارة مُضاءة في أرجاء الكهف العميقة. رأت جيسيكًا أشخاصًا يتحرّكون هناك، من ضمنهم پول الذي كان قد ارتدى ثيابه بالفعل وألقى قلنسوته على ظهره كاشفًا عن ملامحه الأتريديزية النسرية.

تذكّرت جيسيكّا كيف تصرّف بغرابة قبل إخلادهم إلى النوم كأنه انجذب. بدا كأنه شخصٌ عاد من الموت لم يدرك حقيقة عودته بعد. كانت عيناه نصف مغمضتين، فيهما نظرة واجمة كابية، جعلتها تفكّر في تحذيراته من إدمان الطعام المُشَبَّع بالاسپايس.

وتساءلت: هل له آثارٌ جانبية؟ لقد قال إن له علاقة ما بقدراته الاستبصارية، لكنه يلتزم صمتًا مريبًا حيال ما يراه.

خرج ستيلجار من بين الظلال إلى يمينها، متّجهًا إلى المجموعة الواقفة تحت كرات الإنارة. لاحظت الطريقة التي يمرّر بها أصابعه في لحيته، ونظرة القطط المتربّصة في عينيه. سرى خوفٌ مفاجئ في أوصال جيسيكّا عندما تنبّهت إلى التوتّر البادي على مجموعة الأفراد المجتمعين حول پول: حركاتهم القلقة، ووضعيّات وقوفهم الطقسية.

قال ستيلجار هادرًا: «إنهما تحت حمايتي!».

ميّزت جيسيكّا الرجل الذي يواجهه ستيلجار: إنه جيميس! ثم لاحظت الغضب البادي على جيميس، وتشنُّج عضلات كتفيه. وفكّرت: هذا جيميس، الرجل الذي صرعه پول!

قال جيميس: «أنت تعرف القانون يا ستيلجار».

قال ستيلجار: «ومن يعرفه أفضل منّي؟»، وسمعت جيسيكّا في صوته نبرة الاسترضاء ومحاولته لتلطيف الأجواء.

زمجر جيميس: «أختار النزال».

اندفعت جيسيكّا مسرعةً عبر الكهف، وأمسكت ذراع ستيلجار، وسألته: «ما الأمر؟».

قال ستيلجار: «قانون الأمتال. يطالب جيميس بحقه في اختبار صحّة الأسطورة وانطباقها عليكما».

قال جيميس: «عليها أن تختار نصيرًا يقاتل بالنيابة عنها، وإن فاز نصيرها، إذاً فهو الحق. لكن الأسطورة تقول...»، توقّف لحظة ورمى الجمع المحتشد بنظرة، ثم أردف: «... إنها لن تحتاج إلى نصير من الفرمن، وهذا يعني أنها ستجلب نصيرها معها». فكرت جيسيكاً: إنه يتحدث عن نزالٍ فردي مع بول! ثم أفلتت ذراع ستيلجار، وتقدّمت خطوة، وقالت: «أنا نصيرة نفسي، والمعنى بسيط بما يكفي لـ...».

قاطعها جيميس: «لن نُعلمينا عاداتنا! ليس قبل أن تقدّمي دليلاً أكبر ممّا رأيت. ربّما أخبرك ستيلجار صباح أمس بما يجب أن تقوله، ربّما ملأ عقلك بمعسول الكلام ولقّنك ما ردّدته علينا من بعده كالبيغاء، أملاً منك في اختراق صفوفنا بالباطل». فكرت جيسيكاً: بإمكانني التغلب عليه، لكن هذا قد يتعارض مع تفسيرهم للأسطورة. ودهشت مجدّداً من الطريقة التي حُرّف بها عمل المُبشرات الحاميات على هذا الكوكب.

نظر ستيلجار إلى جيسيكاً، وتكلّم بصوتٍ خفيض، ولكن بنبرة قصد لها أن تصل إلى أطراف الحشد: «جيميس من النوع الذي يحمل ضغينة يا سيّادينا، ابنك تغلب عليه و...».

قاطعه جيميس هادراً: «كانت مجردّ حادثة! كما مارست الساحرة سحرها في حوض تيونو، وسأثبت هذا الآن!».

أكمل ستيلجار: «... أنا نفسي تغلّبت على جيميس، وهو يسعى بهذا التحديّ* رد الضربة لي كذلك. في نفس جيميس عُنفٌ كامن يمنعه من أن يكون قائداً جيّداً، إنه في غفلة* من أمره. يقول بلسانه ما ليس في قلبه. لسانه يلهج بالقوانين، لكن في قلبه صرفة*. كلاً، لن يكون قائداً جيّداً أبداً، ولم أبق عليه هذه

المدة الطويلة إلا لأنه مفيدٌ في قتال، ولكن حين يَتملِّك منه هذا الغضب المسعور، يصبح خطرًا على مجتمعه».

هدر جيميس في غيظ: «ستيلجارررر!».

فهمت چيسیکا ما كان ستيلجار يفعلہ، إنه يحاول إثارة غضبة جيميس، لإبعاد التحدي عن پول.

وقف ستيلجار في مواجهة جيميس، ومن جديد سمعت چيسیکا نبرة التهدة في صوته المدمدم: «جيميس، إنه صبيٌّ بعد، وهو...». قاطعه جيميس: «لقد وصفته بالرجل، وأُمُّه تقول إنه اجتاز محنة الجوم جبار. جسده مكتنز لحمًا ومتخم بالمياه. الرجل الذي حمل حقيبتهما قال إن جرَّتيهما اللتريتين ما زال فيهما ماء، متخيل! ونحن نرتشف ما في جيوب التجميع من أوَّل قطرة».

ألقي ستيلجار نظرة إلى چيسیکا وسأل: «هل هذا صحيح؟ أفي حقيبتكما ماء؟».

- «أجل».

- «ماء كثير؟».

- «جرَّتان لتريتان».

- «وماذا كنتما تتويان فعله بهذه الثروة؟».

فكرت چيسیکا: ثروة؟ وهزَّت رأسها، شاعرة ببرودة صوته.

قالت: «حيث وُلدت، تنهمر المياه من السماء وتجري فوق الأرض في أنهارٍ واسعة. في موطننا محيطات واسعة لا يرى المرء شاطئها الآخر. لم أدرَّب على انضباط الماء مثلکم، فلم يسبق لي أن اضطررت إلى التفكير في الأمر بهذه الطريقة».

صدرت شهقة جماعية من المحيطين بهما:

«ماءٌ ينهمر من السماء... ويجري على الأرض».

- «هل تعلمين أن بيننا من فقدوا بعض الماء عن طريق الخطأ من جيوب التجميع الخاصة بهم، وأن هؤلاء سيكونون في مأزق قبل أن نصل إلى تابر هذه الليلة؟».

هزّت جيسيكا رأسها قائلة: «وكيف لي أن أعرف؟ إن كانوا في حاجةٍ إلى الماء الذي في حقبتنا، أعطوهم منه».

- «أهذا هو مُرادك من هذه الثروة؟».

- «مُرادي إنقاذ الأرواح».

- «إذا سنقبل بركتك يا سيّادينا».

قال جيميس مزمجرًا: «لن تشترينا بهذا الماء، كما لن نتجح في تحريضك ضدك ستيلجار. أرى كيف تحاول استفزازي كي أدعوك للنزال قبل أن أثبت كلامي».

واجه ستيلجار جيميس وقال: «هل أنت مصمّم على نزال هذا الطفل يا جيميس؟». كان صوته خفيضًا، وسامًا.

- «يجب أن تختار لها نصيرًا».

- «حتّى وهي في حمايتي؟».

قال جيميس: «أطالب بقانون الأمتال. هذا حقّي».

أوما ستيلجار: «حسنًا، اعلم إذا أنه إن لم يقتلك الصبيّ، فستواجه سكّيني بعدها. وهذه المرّة لن أكبح نصلي كما فعلت من قبل».

قالت جيسيكا: «لا يمكنك السماح بذلك. بول مجرد...».

قال ستيلجار: «لا تتدخّلي يا سيّادينا. أعرف أن بإمكانك التغلّب عليّ، وبالتالي، التغلّب على أيّ شخص بيننا، لكنك لن تتمكّني من التغلّب علينا جميعًا. لا مناص من هذا، إنه قانون الأمتال».

صمتت جيسيكاً في عجزٍ، محدّقةً إليه في إضاءة كرات
الإنارة الخضراء، ولاحظت الصرامة الشيطانية التي سيطرت
على تعابير وجهه. ثم نقلت انتباهها إلى جيميس، فرأت سيماء
الحقد والبغضاء في حاجبيه، وفكّرت:

كان عليّ أن ألاحظ ذلك من قبل. إنه من النوع الصّامت الذي
يضمّر في قلبه، ويأكل الحقد هدأة نفسه. كان يجب أن أكون
مستعدّة.

قالت: «إذا أذيت ابني، ستواجهني بعدها. أنا أتحدّاك للنزال
الآن. سأقطعك إرباً حتّى تصير...».

- «أمّاه»، قالها پول وتقدّم إلى الأمام، لامساً كمّ ثوبها: «ربّما
لو شرحت لجيميس كيف...».

قال جيميس في سخرية: «شرحت!».

صمت پول محدّقاً إلى الرجل. لم يكن يخشاه، فقد كانت
حركات جيميس تبدو خرقاء، وقد صرعه بسهولة تامّة في
مواجهتهما الليلية في الصّحراء. لكن پول كان لا يزال يشعر
بمحور الاحتمالات الذي يفلي في هذا الكهف، لا يزال يتذكّر رؤاه
الاستبصارية ورؤيته نفسه متشخّطاً في دمائه بطعنة سكّين. في
تلك الرؤيا، كانت احتمالات نجاته من هذا المصير ضئيلة جداً.

قال ستيلجار: «سيّادينا، يجب أن تتراجعى الآن إلى...».

قال جيميس: «كفّ عن مناداتها بلقب سيّادينا! فهذا لم يُثبت
بعد. لا تقل إنها تعرف آيات الصلاة، فما الأمر الجلل في ذلك؟
كل طفل بيننا يعرفها».

فكّرت جيسيكاً: ها قد تحدّث بما يكفي كي أملك مفتاحه.
بإمكاني الآن شلّ حركته بكلمة واحدة. ثم تردّدت. لكنني لن

أستطيع إيقافهم جميعًا.

قالت جيسिका بنبرة متهدّجة بها بعض الأنين وتنتهي برعشة:
«ستقاتلني بعدها».

حدّق جيميس إليها واجمًا، والجزع بادٍ في ملامحه.

قالت جيسिका بذات النبرة: «سأذيقك غلواء العذاب وألوانه،
تذكّر هذا وأنت تقاتل. ستشعر من الألم ما يجعل الجوم جبار
لهو أطفالٍ بالمقارنة. ستتلوّى طوال....».

شهق جيميس: «إنها تحاول سحري بتعويذة!»، ثم وضع قبضته
اليمنى إلى جوار أذنه، وقال: «أطالب بالزامها الصّمت!».

قال ستيلجار: «ليكن هذا»، ثم رمق جيسिका بنظرةٍ محدّرةٍ
وأردف: «إذا تفوّهتِ بشيءٍ مجدّدًا يا سيّادينا، سنتيقّن من أنك
تستعملين السحر، وستكونين أنتِ الخاسرة»، وأشار إليها برأسه
كي تتراجع.

شعرت جيسिका بأيدٍ تجذبها إلى الخلف وتساعدنها على
التراجع، ولم تشعر فيها بقسوة. رأت الحشد ينفصل عن پول،
وتشاني ذات الوجه الملائكي الأخاذ تهمس بشيءٍ في أذنه وهي
تشير برأسها نحو جيميس.

تشكّلت حلقة من أفراد الفصيلة، وجُلبت كرات إنارة أخرى،
وحوّلوا ضوءها جميعًا إلى الأصفر.

خطا جيميس إلى داخل الحلقة، وخلع عنه ثوبه وألقاه إلى
أحد الأشخاص في الحشد، ووقف في بذلة تقطيرٍ رمادية
ملساء مرقّعة ملأى بالطّيّات والثّياب. حنى رأسه مُقرّبًا فمه من
كتفه، وشرب من أنبوب الماء، ثم شدّ قامته، ونزع البذلة عن
جسده، وسلّمها بعناية إلى الحشد. وقف منتظرًا، لا يرتدي إلاّ

مئزراً وشريطين قماشيين ملفوفين بإحكام حول قدميه، والسكّين العاجية تلتصق في يده اليمنى.

رأت جيسिका تشاني، الفتاة الطفلة، تساعد پول، وتدسُّ مقبض سكّين عاجية في يده، ورأته يقلبها في يده، مختبراً اتزانها ووزنها. ثم تذكرت أن پول تدرب على فنون الهرانا والبيندو، الأعصاب والأنسجة العضلية، وأنه تعلّم القتال في مدرسة ضروس على يد رجال مثل دانكن آيداهو وجيرني هاليك، أساطير حيّة خالدة الذكر. كما أن الفتى على دراية بأساليب البني جيسيرت الماكرة، ويبدو مرناً وواثقاً بنفسه.

ثم فكرت: لكنه لم يتعدّ الخامسة عشرة، ولا يملك درعاً. يجب أن أوقف هذا بطريقة ما. لا بُدّ من طريقة كي... ثم رفعت عينها، ووجدت ستيلجار يراقبها.

قال لها: «ليس بإمكانك إيقاف الأمر. إياك والتحدّث».

وضعت جيسिका يدها على فمها، وفكرت: لقد زرعت الخوف في عقل جيميس. ربّما سيبطئه هذا قليلاً. آه لو كان بإمكانني الدعاء، الدعاء بحق.

وقف پول على حدود الحلبة، في سراويل القتال القصيرة التي يرتديها تحت بذلة التقطير، حافي القدمين فوق الصخور المفطاة برمال خشنة، ممسكاً بالسكّين العاجية في يده اليمنى. كان آيداهو قد نصحه مراراً: «عندما تكون في شك من أمر السطح الذي تقف عليه، فخيرارك الأفضل الحفاء». كما راحت تعليمات تشاني ترن في عقله: «ينمطف جيميس بسكّينه يميناً بعد كل مراوغة، إنها عادة فيه شاهدناها جميعاً. سيستهدف عينيك بضربات خاطفة، مستغلاً لحظة إغماضك لهما كي يجرحك. إنه

يقاتل بكلتا يديه، فاحترس من تبدله للسكين من يدٍ لأخرى». أما أكثر ما استحوذ على پول في تلك اللحظة كان آليات الدفاع الفريزية، والتدريب الذي غرز فيه يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة، على أرضية حجرة التدريب.

تردّدت كلمات جيرني هاليك في رأسه: «المقاتل الجيد هو الذي يفكر في سنّ السكين ونصله وواقى اليد في الوقت ذاته: فبجانب الطعن، يمكن للسن أن يقطع. وبجانب القطع، يمكن للنصل أن يطعن. وبجانب الصّد، يمكن للواقى احتجاز نصل خصمك».

ألقي پول نظرة إلى سكينه العاجية. لم يكن بها واقى، بل مجرد حلقة دائرية رفيعة حوافها بارزة قليلاً لحماية اليد. وحتى مع ذلك، لم يكن پول يعرف معامل صلابة هذا النصل ضدّ الكسر، بل لا يعرف إن كان من الممكن كسره من الأساس. بدأ جيميس يتحرّك إلى اليمين بمحاذاة حافة الحلقة المقابلة لبول.

ربض پول، مدركاً أنه لا يرتدي درعاً، وأنه تدرب على القتال محاطاً بمجال طاقة الدرع خفي. تدرب على أن تكون حركاته الدفاعية سريعة جداً، وعلى أن يكون هجومه بطيئاً ومضبوط التوقيت تماماً بحيث يخترق مجال درع الخصم. وعلى الرغم من تحذير معلّميه المستمرّ بعدم الاعتماد على صدّ الدرع التلقائي للضربات الهجومية السريعة، كان يعلم أن إحساسه بوجود الدرع لهو طبيعة ثانية له.

صاح جيميس بعبارة التحذير الطقسية: «عسى أن تنكسر سكينك وتتهشّم!».

ففكر پول: السكين قابلة للكسر إذا .

ثم ذكر نفسه بأن جيميس أيضًا لا يرتدي درعًا، لكن الرجل لم يتعوّد استخدامه، وبالتالي لا تعيقه القيود التي تكبل حركة المقاتلين المدرّعين.

حدّق پول إلى جيميس عبر الحلقة. كان جسده مشدودًا كحبلٍ مجدول على هيكلٍ عظميٍّ يابس، ونصل سكينه العاجية يلمع بلونٍ أصفر حليبي في ضوء كرات الإنارة. سرى الخوف في أوصال پول. شعر فجأة تحت الضوء الأصفر الباهت بأنه وحيدٌ وعارٍ داخل هذه الحلقة البشرية. لقد غدّته رؤاه الاستبصارية بخبرات لا حصر لها، وأعطته لمحات عن أقوى نيّارات المستقبل، وتسلسل القرارات الذي سيقود إليها. لكن ما يحدث الآن واقع، حاضر مجسّد، والموت فيه معلقٌ بعددٍ لا حصر له من الأخطاء الصغيرة.

أدرك پول أن أيّ فعلٍ هنا مهما صغر قد يغيّر كفة المستقبل. سعال أحد المراقبين قد يشتّت انتباهه. تغيّر طفيف في إضاءة إحدى كرات الإنارة قد يلقي بظلٍّ خادع. اعترف پول لنفسه: أنا خائف.

حام پول بحذر في مواجهة جيميس، وهو يتلو في سرّه تعويذة البني جيسيرت لدرء الخوف: «الخوف قاتل...»، ولمّا انتهى شعر ببردٍ يفصله من الداخل، وأحسّ بعضلاته تتحرّر من تشنّجها، وتصير متّزنة ومستعدّة.

زمجر جيميس: «سأغمس سكينني في دماغك»، وانقضّ قبل أن ينهي كلمته الأخيرة.

رأت جيسيكَا غدره، فكتمت صيحة كادت تفلت منها.

طعن الرجل الهواء الفارغ حيث وجّه ضربته، أمّا پول فراوغ وصار خلف جيميس، وسنحت أمامه فرصة لتوجيه ضربته إلى ظهره المكشوف.

صرخت جيسيكاً في عقلها: الآن يا پول! الآن!

كانت حركة پول انسيابية ومضبوطة بدقّة متمهّلة، لكن بطاها منح جيميس فرصة ليتلوّى مرواعاً، ويتراجع في التفافه نحو اليمين. تقهقر پول وربض أرضاً قائلاً: «عليك أولاً أن تدرك دمائي».

لاحظت جيسيكاً أسلوب ابنها القتالي الموقوت المعتمد على الدروع، وأدركت أنه سلاح ذو حدين. كانت استجابات الصبي الدفاعية رشيقة، شحذها التدريب إلى ذروة لم يرها هؤلاء القوم من قبل. لكن التدريب كان قد أصقل أسلوبه الهجومي كذلك، وهيأه وفقاً لمقتضيات اختراق مجال دروع الطاقة، التي تصدّ الضربات السريعة، ولا تسمح إلا بمرور الهجمة الماكرة البطيئة. لذا يتطلّب اختراق مجال درع الطاقة تحكماً ومهارة ومكرًا من المهاجم.

سألت جيسيكاً نفسها: ينبغي لبول أن يعني هذا!

هجم جيميس مرّة أخرى، وعيناه تتقدان بلون الحبر، وجسده شبحيّ أصفر تحت كرات الإنارة من فرط السرعة. انسل پول مرواعاً مجدّداً، وعاد بهجوم شديد البطء. وتكرّر الأمر مرّة أخرى.

وأخرى.

في كل مرّة، كانت ضربة پول المضادة تأتي متأخرةً بثانية، ولاحظت جيسيكاً شيئاً تمنّت ألا يلاحظه جيميس. كانت ردود أفعال پول الدفاعية سريعة جداً، لكنه في كل مرّة يقصد ذات الزاوية الدقيقة التي كان سيقصدها إن كان الدرع يساعد في صدّ جزءٍ من ضربة جيميس.

سأل ستيلجار: «هل يتلاعب ابنك بهذا المسكين الأبله؟»، ثم أشار إليها أن تصمت قبل أن تتمكن من الرد. «معذرة، عليك أن تلتزمي الصمت».

الآن، راح كلُّ منهما يحوم حول الآخر فوق الأرض الصخرية: جيميس مشهراً سكينه وممياً نصلها إلى أعلى قليلاً، وبول رابضاً وسكينه منخفضة في يده.

وثب جيميس مجدداً، وهذه المرة انحرف بجذعه إلى اليمين، صوب البقعة التي كان بول يراوغ إليها.

لكن بدلاً من أن يتظاهر بالتراجع والابتعاد، صدَّ بول يد الرجل الممسكة بالسكين بطرف نصله. ثم اختفى، وانحرف مراوفاً إلى اليسار، شاعراً بالامتنان لتحذير تشاني.

تراجع جيميس إلى مركز الدائرة، وراح يمسّد يده الممسكة بالسكين. سألت بعض قطرات الدم من الجرح للحظات، ثم توقفت. صارت عينا جيميس فجوتين سوداوين زرقاوين من اتساعهما، وراحت تحملقان إلى بول بحذر جديد في ضوء الكرات المضيئة الباهت.

غمغم ستيلجار: «هذا مؤلم».

ربض بول في وضع التأهب، وصاح كما تعلّم أن يفعل بعد أن يجرح خصمه ويسيل أولى قطرات دمائه: «هل تتسحب؟». صرخ جيميس: «هاه!».

تعالّت همهمة غاضبة من الحشد.

صاح ستيلجار: «سكوتا الفتى لا يعرف القانون»، ثم وجّه حديثه إلى بول: «لا انسحاب في نزال التحدي. إنه قتال حتى الموت».

رأت جيسिका پول يبتلع ريقه بصعوبة، وفكّرت: لم يسبق له أن قتل رجلاً بهذه الطريقة، بإراقة دماائه الحارة في عراقٍ بالسكّين. أيمكنه فعلها؟

دار پول ببطء إلى اليمين، مدفوعاً بحركة جيميس.

عادت معرفته الاستبصارية بالمتغيّرات الزمنية التي تغلي في هذا الكهف تؤرّقه. أخبره إدراكه الجديد أن في هذا النزال قرارات سريعة كثيرة مضغوطة، وهو الأمر الذي يصعب من رؤية أيّ مسار واضح أمامه.

تتراكم المتغيّرات بعضها فوق بعض هنا، هذا هو السبب في أنه يرى هذا الكهف كمحور ضبابي في طريقه. إنه أشبه بصخرة عملاقة في طريق فيضان تخلق دوّاماتٍ تلو الأخرى في التيار من حولها.

غمغم ستيلجار: «انته من الأمر يا فتى. لا تتلاعب به».

انسلّ پول بخفّة إلى مركز الحلبة، معتمداً على تفوّقه في السرعة.

تراجع جيميس بعد أن اجتاحه إدراكٌ قوي أن خصمه في حلبة التحديّ ليس مجرد أجنبيّ رخو، أو فريسة سهلة لسكّين الفرمن العاجية.

لاحظت جيسिका ظلّ اليأس يخيم على وجه الرجل، وفكّرت: الآن هو في أخطر حالته. إنه يائس ويمكنه فعل أيّ شيء. لقد أدرك أن خصمه ليس مثل صبية قومه، بل آلة مقاتلة ولدت وتدرّبت على القتال منذ الصغر. الآن سيزدهر برعم الخوف الذي زرعه في نفسه.

شعرت في نفسها بشيء من الشفقة على جيميس، لكن تلك الشفقة خفتت مع إدراكها بالخطر المباشر المحيق بابنها. أخبرت نفسها: بإمكان جيميس فعل أي شيء. أي شيء غير متوقع، وتساءلت بعدها إن كان پول قد لمح هذا المستقبل في رؤاه، إن كان يعيش تجربة اختبارها سابقاً. لكنها لاحظت الطريقة التي يتحرك بها ابنها، وحبّات العرق المتفصّدة من جبينه وكتفيه، والحذر الشديد البادي في عضلاته المتحفّزة. وللمرة الأولى لمست عامل عدم اليقين المتجذّر في موهبة پول التي لا تفهم كنهها بعد. أخذ پول زمام القتال الآن، وراح يحوم حول جيميس دون أن يهاجم. كان يشمُّ رائحة الخوف المسيطر على غريمه، وفي ذهنه تردّدت كلمات دانكن آيداهو: «حين تجد خصمك يخشاك، اترك زمام الأمر في يد الخوف، وامنحه وقتاً لينمو في صدره. دع الخوف يتحوّل إلى ذعر، فالمذعور يحارب نفسه. وفي النهاية سيهاجم في لحظة يأس. هذه أخطر لحظة، لكن المقاتل المذعور عادةً ما يرتكب خطأ قاتلاً، وأنت تُدرب هنا على اكتشاف تلك الأخطاء واستغلالها لصالحك».

بدأ الحشد في الكهف يتمم. فكّرت جيسيكا: يظنون أن پول يتلاعب بجيميس، يعتقدون أنه يتصرّف بقسوة لا داعي لها.

لكنها شعرت أيضاً بالحماسة المستترة المسيطرة على الحشد، وتمتّعهم بالمشهد، كما رأت الخوف الضاغط المتنامي داخل جيميس، وحين أتت اللحظة التي فاق فيها الضغط احتماله، رأتها جيسيكا واضحة، كما كانت واضحة لجيميس ولپول.

وثب جيميس عاليًا مسددًا ضربةً بيُمناه، لكن يده كانت فارغة،
إذ انتقلت السكّين العاجية إلى يُسراه في حيلة ماهرة.

شهقت جيسيكا في جزع

لكن تشاني كانت قد حذرت پول: «جيميس يقاتل بكلتا يديه»،
وقد استوعب عقل پول هذه الحيلة سريعًا بفضل التدريب
المتعَمَّق الذي تلقَّاه، فلطالما كرَّر جيرني هاليك على مسمعيه:
«رُكِّز انتباهك على السكّين، لا على اليد الممسكة بها. السكّين
أخطر من اليد، ويمكن أن تنتقل إلى أيّ من اليدين».

كما أن پول رأى الخطأ الذي ارتكبه جيميس: لقد اختلَّ توازنه
في أثناء هبوطه، ممَّا استغرقه وقتًا أطول للتعافي من قفزته
التي قصد بها إرباك پول وإخفاء خدعة نقل السكّين إلى اليد
الأخرى.

بخلاف الضوء الأصفر الخافت المنبعث من كرات الإنارة،
وأعين الحشد القائمة كالخبر، كان الأمر في نظر پول كأني حصّة
مِرانٍ أخرى في حجرة التدريب. لا تؤخذ الدروع في الحساب
حين تستطيع استغلال حركة جسم الخصم ضده. نقل پول سكّينه
بحركة خاطفة إلى يده الأخرى، وانحرف جانبًا دافعًا النصل إلى
أعلى، في البقعة التي هبط صدر جيميس إليها، ثم تراجع خطوة
ليشاهد انهيار الرجل.

سقط جيميس أرضًا كالصخرة، وارتطم وجهه بالأرض، وشهق
شهقةً، ثم أدار وجهه إلى پول، قبل أن تسقط جثته هامدةً فوق
الأرض. حدّقت عيناه الميّتان إلى الفراغ كخرزتين من زجاجٍ
داكن.

كان آيداهو قد أخبر پول ذات مرّة: «القتل بسنّ النصل يفتقر إلى الفن، لكن لا تدع ذلك يحجّم يدك حين تسنح الفرصة لفعله». اندفع الحشد مائتين الحلقة، دافعين پول جانباً، فاخفت جثة جيميس في احتشادهم المسعور، ثم سارعت مجموعة منهم إلى أعماق الكهف حاملين جسماً ملفوفاً بثوب. لم يبق للجثة أثر على الأرضية الصخرية.

اخترقت جيسيكَا الحشد قاصدةً ابنها. شعرت بأنها تسبح في يَمٍّ من الأجساد والثياب الكريهة الرائحة، وسط حشد مريب في صمته.

وفكرت: حانت اللحظة العسيرة. لقد قتل رجلاً يتفوّق عليه عقلياً وعضلياً تفوّقاً واضحاً، وبالتالي يجب ألا يكبر لينعم بهذا النصر.

دفعت بنفسها متخطّيةً آخر فردٍ في الحشد، ودخلت حيّزاً دائرياً صغيراً لتجد فرمينين ملتحيين يساعدان پول في ارتداء بذلة التقطير.

حدّقت جيسيكَا إلى ابنها. كانت عينا پول لامعتين ويتنفّس بقوة، تاركاً نفسه للرجلين يخدمانه بدلاً من مساعدتهما.

غمغم أحد الرجال: «لقد نازل جيميس ولم يُصب بخدش». كانت تشاّني واقفةً في جانبٍ وعيناها مثبتتان على پول. رأت جيسيكَا الإثارة والإعجاب في ملامح الوجه الملائكي.

فكرت جيسيكَا: يجب أن يتمّ الأمر الآن وبسرعة. ثم وضعت كل ما في جعبتها من ازدراء في نبرتها وأسلوبها وهي تقول: «حسنًا إذا، ما شعورك الآن بعد أن صرت قاتلاً؟».

أجفل پول كمن تلقى صفة: التقت عيناه بنظرة أمه القاسية، فاحتقن وجهه بالدماء، وألقى نظرة لا إرادية إلى البقعة التي سقط فيها جيميس.

عاد ستيلجار من أعماق الكهف حيث حمل جثمان جيميس، واخترق الحشد ليقف إلى جوار چيسیکا، ووجّه كلامه إلى پول بنبرة مريرة منضبطة: «حين تأتي اللحظة التي ستتحدّاني فيها للنزال وتخلع على نفسك بُردتي *، إياك أن تحسب أنك ستلاعب بي كما تلاعبت بجيميس».

أحسّت چيسیکا بوقع كلماتها وكلمات ستيلجار على پول، والأذى الذي أحدثته في نفس الصبي. لقد حقّق الخطأ الذي ارتكبه هؤلاء القوم غرضاً مفيداً الآن، وأتى ثماراً نافعة. فتشت في وجوه من حولهما كما كان يفعل پول، ورأت ما رآه. رأت نظرة الإعجاب والخوف في معظم الأعين، وفي بعضها رأت البُغض والازدراء. ثم نظرت إلى ستيلجار، فرأت تسليمه بجبرية القدر، وأدركت الزاوية التي ينظر منها إلى هذا القتال.

نظر پول إلى أمه وقال: «أنت تعرفين كيف كان الأمر». سمعت نبرة الندم وعودة التعقّل إلى صوته، ثم ألقت نظرة عامّة إلى الحشد، وقالت: «لم يسبق لبول أن قتل رجلاً بنصلٍ عارٍ».

واجهها ستيلجار وعلى وجهه سيماء عدم التصديق. قال پول: «لم أكن أتلاعب به»، ثم تقدّم نحو أمه مسوياً ثوبه، وألقى نظرة إلى بقعة الدماء الداكنة التي بدأت تجف على أرضية الكهف، وتابع: «لم أكن أريد قتله».

لاحظت چيسیکا التصديق بهبط ببطء على ستيلجار، والارتياح الذي بدى على وجهه وهو يعبث بلحيته بيده البارزة العروق، وسمعت غمغات الفهم تنتشر بين الحشد.

قال ستيلجار: «لهذا عرضت عليه الانسحاب، فهمت. تقاليدنا مختلفة، لكنك ستري الحكمة فيها. لقد ظننت أننا أدخلنا عقرباً وسطنا»، وتردّد قليلاً، ثم أضاف: «لن أدعوك بالفتى بعد الآن». صاح صائحٌ من الحشد: «يحتاج إلى اسم يا ستيل».

أوماً ستيلجار عابئاً بلحيته، وقال: «أرى فيك صلابة، كصلابة قاعدة العمود»، ثم سكت ثانية، قبل أن يضيف: «ستُعرف بيننا باسم أصول*، قاعدة العمود. هذا اسمك السّري، اسمك القَبلي. نحن معشر سيبيتش تابّر لنا أن نناديك به، أما الأغيار فلا يحق لهم هذا.. يا أصول».

سرت همهمات بين الحشد: «اختيارٌ جيّد... اسم قوي... سيجلب لنا الحظ». شعرت جيسيكا بقبولهم له، وعلمت أنها مشمولة في هذا القبول مع نصيرها، وأنها صارت السيّادينا بالفعل.

قال ستيلجار: «الآن، عليك أن تختار اسم الرجولة الذي سنناديك به علناً».

نظر پول إلى أمّه، ثم عاد ببصره إلى ستيلجار. كانت ذاكرته الاستبصارية قد سجّلت أجزاءً ومقاطع من هذه اللحظة، لكنها حين وقعت لمس فيها اختلافات واضحة، كأنها قوّة تدفعه رغماً عنه عبر باب الحاضر الضيق.

تذكّر پول حركات القفز والوثب التي رآها في حوض تيونو، ثم سأل: «ماذا تطلقون على ذلك الفأر الصحراوي الصغير، الفأر النطّاط؟»، وقلّد الحركة بيده.

سرت ضحكات مكتومة بين الحشد.

قال ستيلجار: «نسمّيه المؤدّب».

شهقت جيسىكا. هذا الاسم الذي قال لها إن الفرمن سيقبّونه به حين أخبرها بأن الفرمن سيقبلونهما بينهم. شعرت جيسىكا بخوفٍ مفاجئٍ من ابنها، وعليه.

ابتلع پول غصّة في حلقه، شاعرًا أنه يؤدي دورًا سبق أن لعبه في عقله مرّات لا حصر لها، ومع ذلك، تشوبه اختلافات. رأى نفسه جالسًا على قمّة شاهقة تُصيب العقل بالدوار، بعد أن اختبر الكثير وامتلئ مخزونًا معرفيًا عميقًا، لكن كل ما حوله هاربة مظلمة بلا قرار.

ومرّة أخرى تذكّر رؤيا جحافل المتعصّبين الذين يرفعون راية آل آترديز الخضراء والسوداء، وينهبون ويسلبون ويحرقون بامتداد الكون باسم نبيّهم المؤدّب. قال پول في سرّه: يجب ألا يحدث ذلك. سأله ستيلجار: «أهذا هو الاسم الذي تريد تُعرف به، المؤدّب؟».

همس پول: «أنا من نسل آل آترديز»، ثم ارتفع صوته: «ليس من الصواب أن أتخلّى بالكامل عن الاسم الذي منحه لي أبي. هل لي أن أعرف بينكم باسم پول المؤدّب؟».

قال ستيلجار: «لك هذا. من الآن فصاعدًا، أنت پول المؤدّب». فكّر پول: لم يحدث ذلك في أيّ رؤيا رأيته. لقد فعلت شيئًا مختلفًا.

لكنه شعر بأن الهاوية ما زالت محيطة به من كل اتّجاه. التفت الرجال أحدهم إلى الآخر، وسرت المهمة مجددًا بين الحشد: «الحكمة والقوّة... هذا كل ما تمنّيته... إنها النبوءة بلا

شك... لسان الغيب... لسان الغيب».

قال ستيلجار: «سأخبرك بشيءٍ عن اسمك الجديد. هذا الخيار يرضينا ويسعدنا، فالمؤدّب حكيم وخبير بأساليب العيش في الصحراء. المؤدّب يصنع مياهه بنفسه. المؤدّب يتجنّب الشمس ويرتحل في الليل البارد. المؤدّب خصيب ويتكاثر في الأرض. المؤدّب لقب يعني "مهدّب الأطفال"، وهذه قاعدة متينة لتبني حياتك عليها يا پول المؤدّب، يا من تعرف بيننا باسم أصول. مرحباً بك».

مس ستيلجار جبهة پول براحة يده، ثم سحبها وعانق پول مغمفماً: «أصول».

ولمّا تركه، عانقه شخصٌ آخر من الحشد، مردّداً اسمه القبلي. وهكذا راح پول ينتقل من عناق إلى عناق بين أفراد الجماعة، مصغياً إلى أصواتٍ كثيرةٍ مختلفة النبرات تردّد: «أصول... أصول... أصول». كان يعرف بعضهم بالاسم بالفعل. ثم أتت تشاني وضغطت وجنتها على وجنته وهي تحتضنه وتنطق باسمه.

في النهاية وجد پول نفسه واقفاً أمام ستيلجار مجدّداً، وقال الأخير: «أنت الآن من الإخوان البدويين*، أي أخ لنا». ثم اكتسى وجهه بالجدية وهو يقول بصوتٍ آمر: «والآن يا پول المؤدّب، أشدّد أربطة بذلة التقطير»، ثم رمى تشاني بنظرة، وقال: «تشاني! سدّاداتنا أنف پول المؤدّب لا تلائمان أنفه البتّة! لقد أمرتك بالاعتناء به!».

قالت: «أفتقر إلى الأدوات يا ستيل. تُوجد سدّادات جيميس بالتأكيد، لكن...».

- «يكفي من هذا الكلام!».

- «إذا سأشاركه بواحدة من عندي، بإمكانني تدبير أمري بواحدة فقط، إلى أن...».

قال ستيلجار: «كلّا، أعلم بوجود سدّادات احتياطية بيننا، أين هي؟ هل نحن يدٌ واحدة أم عصابة من الهمج؟».

امتدّت أيدٍ كثيرة بقطع ليفية صلبة، فانتقى ستيلجار أربعاً منها، وناولها لتشاني.

- «اضبطي هذه لتناسب أصول وسيّادينا».

ارتفع صوت من مؤخّرة الحشد: «ماذا عن الماء يا ستيل؟ ماذا عن جرّتي الماء اللترتّين في حقيبتهما؟».

قال ستيلجار: «أعرف حاجتك يا فاروق»، ثم نظر إلى جيسيكّا، فأومأت.

قال ستيلجار: «ابزل إحداهما لمن يعوزون الماء. يا أمين الماء، أين أمين الماء؟ ها أنت ذا يا شيموم، احرص على أخذ ما تحتاجون إليه فقط، ولا تزد. هذه الماء صدّاقٌ ممنوح للسّيّادينا، وسيُردُّ إليها في السييتش وفقاً لسعر صرف الماء في العراء، بعد خصم أجرة حامل المياه».

سألت جيسيكّا: «وما قيمة السداد المستحقّة وفقاً لسعر الماء في العراء؟».

قال ستيلجار: «عشرة إلى واحد».

- «ولكن...».

قال ستيلجار: «إنها قيمة عادلة، سترين ذلك بنفسك».

أشار حفيف الثياب في مؤخّرة الحشد إلى حركة الرجال الذين ذهبوا لجلب الماء.

رفع ستيلجار يده فساد الصّمت، ثم قال: «أمّا عن جيميس، فسنتقيم له مراسم تشييع جنازية كاملة. لقد كان جيميس رفيقًا لنا وأخًا من الإخوان البدويين. لن نرحل دون تقديم الاحترام الواجب لمن برهن على صفة قدرنا بالتحدي الذي خاضه. ستقام الشعائر عند غروب الشمس، عندما يلبسه الظلام برده».

بسماعه هذه الكلمات، شعر پول بأنه يفوص مجددًا في أعماق الهاوية، وإلى غياهب البقعة الزمنية العمياء. لم يكن هناك ماضٍ يتوافق مع ذلك المستقبل الذي يراه في ذهنه، لكنه... ما زال يستشرف راية آل آتريديز الخضراء والسوداء تخفق في مكانٍ ما أمامه، وما زال يرى سيوف الجهاد الدامية، وجحافل المتعصّبين.

قال پول لنفسه: ذلك المآل لن يكون. لن أسمح له بأن يكون.

مكتبة
t.me/t_pdf

خلق الرَّبُّ أَرَاكُس لتدريب المؤمنين.

من كتاب «حكمة المؤدّب» للأميرة إيرولان.

في سكون الكهف، سمعت جيسيكَا أصوات احتكاك الرمال بالصخور مع حركة الناس، وصيحات طيورٍ بعيدة، قال ستيلجار إنها الإشارات المتبادلة بين خفرائه المراقبين.

كانت الأغطية البلاستيكية الكبيرة قد أُزيلت من فتحة الكهف، واستطاعت جيسيكَا رؤية زحف ظلال المساء على حواف الصخور التي أمامها، وعلى الحوض الممتد خلفها. شعرت بضوء النهار يفادرهم. شعرت بذلك من الحرارة الجافة، كما شعرت به من حركة الظلال. كانت جيسيكَا متأكّدة من أن حواسّها المدرّبة جيّداً سرعان ما ستمنحها القدرة التي يتمتّع بها هؤلاء الفرمن: الشعور بأدنى تغيّر في رطوبة الهواء.

انظر إليهم كيف سارعوا إلى شدّ أربطة بذلات التقطير التي يرتدونها عند فتح مدخل الكهف! ومن مكانٍ عميق في الكهف، بدأ أحدهم يترنّم:

«إيما تراها أوكولوا!»

آي كورنجا أوكولوا!».

ترجمت جيسيكَا بصمت: هذا رماد! وهذه جذور!

لقد بدأت مراسم تشييع جيميس.

رنت نحو شمس أَرَاكُس الغارية في الخارج، ودرجات الألوان المتراكبة في السماء. كان الليل قد بدأ يرخي سدوله على الكتبان الرملية والصخور البعيدة، ومع ذلك لم تخفّ حدة الحرارة.

أجبرتها الحرارة على التفكير في الماء، وفي حقيقة أن هؤلاء القوم

يمكن تدريبهم على ألا يشعروا بالعطش إلا في أوقاتٍ معينة فقط.
العطش.

تذكّرت الأمواج المتكسّرة في ضوء القمر على صخور كلابان،
وما تبسط من رغوة بيضاء عليها كأنها ثياب، وتذكّرت الرياح
المحمّلة بالرطوبة. الآن النسيم الذي يداعب ثوبها يسفّع ما هو
مكشوف من جلد وجنتيها وجبينها. سبّبت لها سدّادتا الأنف
الجديدتان حكة، كما أزعجها ذلك الأنبوب الذي يصل بين وجهها
والبذلة لاستعادة الرطوبة من أنفاسها.
والبذلة نفسها خانقة كحجرة بخار.

تذكّرت قول ستيلجار: «ستصبح بذلتك مريحة أكثر حين
تتكيفين مع انخفاض محتوى الماء في جسدك».
كانت تعرف أنه محقّ، لكن المعرفة لم تنجح في جعل هذه
اللحظة أقل إزعاجًا. أثقل ذهنها هوسهم اللا واعي بالماء هنا.
كلّا، هكذا صحّحت لنفسها: بل هوسهم اللا واعي بالرطوبة، وكان
هذا أمرًا أنكى وأدهى.

سمعت صوت خطوات تقترب، فالتفتت لترى پول آتياً من عمق
المفارة، متبوعاً بتشاني ملائكية الوجه.
فكّرت چيسكا: ثمة أمر آخر، يجب عليّ تحذير پول من
نسائهم، فلا يليق أن تصير واحدة من تلك النساء الصحراويات
زوجة لدوق. حظيّة، لا بأس، أمّا زوجة فلا.

ثم تعجّبت من نفسها، وفكّرت متسائلة: هل أصابتني عدوى
تفكير الدوق؟ ملاحظة إلى أي مدى نجح في تطبيعها بطبعه.
ليس بإمكانني التفكير ولو مرّة في المسائل الزوجية الملكية دون
مقارنتها بوضعي الاستسراري واتّخاذة لي حظيّة. لكنني... كنت

أكثر من مجرد حظية.

- «أُمّاه».

وقف پول أمامها، وتشاني إلى جواره.

- «أتعلمين ماذا يفعلون في الخلف يا أُمّاه؟».

نظرت جيسिका إلى عينيهِ الداكنتين المطلّتين من وراء قلنسوته،

وقالت: «أظن ذلك».

- «تشاني أطلعني على الأمر لأنه يُفترض بي الاطلاع على ما

يحدث وإعطاء... موافقتي على وزن الماء».

نظرت جيسिका إلى تشاني.

قالت تشاني بصوتٍ يعلب عليه الخَنَف بسبب سدّادتي الأنف:

«إنهم يستعيدون ماء جيميس. هذا هو العُرف. الجسد ملك

صاحبه، أُمّا ماؤه فملك القبيلة. إلا في حالة النزال».

قال پول: «يقولون إن ماءه ملكي».

تعجّبت جيسिका من السبب الذي جعلها تتأهّب وتتحفّز فجأةً.

قالت تشاني: «ماء الخاسر في النزال ملكٌ للفائز، وهذا لأن

النزال يُجرى في العراء دون ارتداء بذلات تقطير. من حقّ الفائز

تعويض ما خسره من ماء في أثناء القتال».

غمغم پول: «لا أريد ماءه»، وشعر كأنه صار جزءاً من صور

كثيرة تتحرّك معاً بطريقة متزامنة متقطّعة تترك عينه الداخلية.

لم يكن واثقاً بما سيفعله، ولكنه كان متيقّناً من شيءٍ واحد

فحسب: لم يكن يريد الماء المقطّر المستعاد من جسد جيميس.

قالت تشاني: «ولكنه... ماء!».

دهشت جيسिका من الطريقة التي لفظت بها كلمة «ماء»، وكيف

تضمّنت لفظة واحدة بسيطة معانٍ كثيرة. تذكّرت جيسिका أحد أقوال البني جيسيرت الماثورة: «البقاء هو القدرة على السباحة في مياهٍ غريبة»، ثم فكّرت: علينا أن نكتشف التيارات والأنماط في هذه المياه الغريبة، إذا أردنا البقاء.

قالت جيسिका: «ستقبل الماء».

ولاحظت نبرة صوتها. لقد استخدمت نفس النبرة مرّةً واحدةً مع ليتو، عندما أخبرت دوقها الفقيد أن يقبل مبلغًا كبيرًا معروضًا عليه مقابل أن يدعم مشروعاً مشتبهاً فيه، لأن المال كان سيحافظ على نفوذ آل آترديز.

وعلى أراكس، الماء يعني المال. إنها ترى ذلك بوضوح الآن. ظلّ پول صامتًا، وعلم أنه سينفد أمرها، ليس لأنها أمرته، وإنما لأن نبرة صوتها أجبرته على إعادة تقييم الموقف. رفضه الماء سيُعدُّ خرقًا لعادات الفرمن العرفية.

ثم تذكّر پول كلمات الآية 467 من سفر الكلمة في الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي الذي أهداه إليه يُوي: «ومن الماء كل شيء حي». حدّقت جيسिका إليه مدهوشةً: أين تعلّم هذا الاقتباس؟ ثم سألت نفسها: إنه لم يدرس علم الأسرار.

قالت تشاني: «تقول الجوديشار مانتني: مكتوبٌ في الشاهنامة أن الماء كان أوّل المخلوقات».

ارتجفت جيسिका فجأةً دون سببٍ واضح (وهو ما أزعجها أكثر من الرجفة نفسها)، ثم أشاحت بوجهها لإخفاء ارتباكها، فلمحت آخر خيوط الشمس الغاربة. انسكب فيضٌ عنيفٌ من الألوان على السماء في أثناء ما كانت الشمس تغوص خلف الأفق.

- «حان الوقت!».

رَنَّ صوت ستيلجار في الكهف: «أعدمنا سلاح جيميس. لقد أُسْتُدْعِيَ جيميس، استدعته شَيَّ هولود، التي تقدَّر منازل القمرين اللذين يتضاءلان يوميًا حتَّى يصيرا في النهاية كعرجونين قديمين»، ثم خفض ستيلجار صوته وأردف: «هكذا كان أمر جيميس».

حلَّ الصَّمْتُ كغطاءٍ ثَقِيلٍ على الكهف.

رأت جيسيكَا حركة ستيلجار الضبابية وهيئته الشبحية في أعماق الكهف المظلمة، ثم عادت تنظر إلى الحوض، مستشعرة البرودة.

قال ستيلجار: «فليتقدَّم أصدقاء جيميس».

تحرك رجلان من خلف جيسيكَا، وأسدلا ستارة على مدخل الكهف. أُنيرت كرة إنارة واحدة فوق الرؤوس في عمق الكهف، وفي وهجها الأصفر رأت جيسيكَا لفيًا من الرجال يتقدَّم، وسمعت حفيف ثيابهم.

ابتعدت تشاني خطوة عن پول، كما لو أن الضوء جذبها. انحنى جيسيكَا على أُذُنِ پول، وتحدَّثت بشيفرة العائلة السريَّة: «احذُ حذوهم، وافعل كما يفعلون، ما هذا إلَّا طقس اعتيادي لتهدئة روح جيميس».

فكَّر پول: سيكون أكثر من ذلك، شاعرًا بانتزاع مُوجع في وعيه كما لو كان يحاول الإمساك بشيء متحرِّك وتثبَّت حركته. تراجعت تشاني إلى جوار جيسيكَا، وأخذت بيدها.

- «تعالِي يا سيَّادينا. علينا الجلوس في مكانٍ منفصل».

راقبهما پول تبعدان عبر الظلال، تاركتان إيَّاه وحده، واعتراه إحساسٌ بالهجران.

اقترب منه الرجلان اللذان أسدلا الستارة.

- «تعال يا أصول».

تركهما يقودانه إلى الأمام، ويزجان به وسط دائرة من الأشخاص تتشكل حول ستيلجار الواقف تحت كرة الإنارة إلى جوار كتلة من الأغراض المكدسة على الأرضية الصخرية مغطاة بثوب تبرز منه أجسام مستديرة وأخرى مُرّعة الشكل.

جثت المجموعة بإشارة من ستيلجار، فأصدر احتكاك ثيابهم بالأرض حفيفاً. جثا پول معهم وراقب ستيلجار، ملاحظاً كيف ألقّت كرة الإنارة الطافية فوق الرؤوس ظلالاً على عينيهِ الفائرتين وزادت من بريق المنديل القماشي الملفوف حول عُنقه. نقل پول انتباهه إلى الكومة المغطاة بالثوب عند قدمي ستيلجار، ولاحظ مقبض آلة باليسيت بارزاً من القماش.

قال ستيلجار مُرتلاً: «ستفادر الروح ماء الجسد مع طلوع القمر الأوّل، إن هذا لفي النصوص. عندما نرى القمر الأوّل يرتفع هذه الليلة، من سيستدعي؟»
رددت المجموعة: «جيميس».

دار ستيلجار على عقبه دورة كاملة، مقلّباً بصره في حلقة الوجوه، ثم قال: «كنت صديقاً لجيميس. عندما انقضّت علينا الطائرة كالصقر في مخبأ فجوة الجبل، جيميس هو الذي جذبني إلى بقعة آمنة».

ثم انحنى فوق الكومة التي أمامه، ورفع الثوب: «بصفتي صديقاً لجيميس سأخذ هذا الثوب، كما يُخوّل لي حقّ القائد». وألقى بالثوب على كتفه واعتدل.

عندها تبدّت محتويات الكومة أمام عيني پول: بذلة تقطير

رمادية لامعة، وجرة لتربة مهترئة، ومنديل مفروود عليه كتاب صغير، ومقبض سكين عاجية بلا نصل، وغمد فارغ، وحقيبة مطوية، وبوصلة پاراوية، ومكودات، ومطراق، وكومة من الخطاطيف المعدنية بحجم قبضة اليد، وما بدا كأنها تشكيلة من الأحجار الصغيرة مطوَّة في قطعة قماش، وكتلة من الريش... وآلة باليست مكشوفة إلى جوار الحقيبة المطوية.

فكر پول: إذا جيميس كان يعزف على الباليست. ذكرته الآلة بجيرني هاليك، وبكل ما فقد. كان پول يعرف بذاكرته المستقبلية عن الماضي أن بعض المسارات المحتملة ستقوده إلى لقاء هاليك، لكن فرص لم الشمل كانت ضئيلة وضبابية ومُحيرة. أصابه عامل عدم اليقين في رؤاه بالدهشة. هل يعني هذا أنني سأفعل شيئاً، أو قد أفعل شيئاً، سيقضي على جيرني، أو سيعيده إلى الحياة، أو...

ابتلع پول غصّة، وهزّ رأسه.

عاد ستيلجار وانحنى فوق الكومة.

وقال وهو يأخذ الأحجار الصغيرة والكتاب ويدسهما في طيّات

ثوبه: «لامرأة جيميس وللحرس».

رددت المجموعة: «حقّ القائد».

قال ستيلجار وهو يلتقط قرصاً معدنيّاً مسطحاً أخضر:

«إحدى أدوات تحضير القهوة الخاصّة بجيميس، التي ستنتقل إلى

أصول في احتفالٍ لائق عندما نعود إلى السييتش».

رددت المجموعة: «حقّ القائد».

وأخيراً، أخذ مقبض السكين العاجية ونهض ممسكاً به.

وقال: «لأجل السهل الجنائزي».

رددت المجموعة: «لأجل السهل الجنائزي».

من مكانها المقابل لبول في الدائرة، أومأت جيسكا وقد أدركت المصدر العتيق لهذه الطقوس، وفكرت: الفرق بين الجهل والمعرفة، بين الهمجية والتحضُّر، يبدأ من الكرامة التي نعامل بها موتانا. ثم نظرت إلى بول وتساءلت: هل سيفهم ذلك؟ هل سيعرف كيف يحسن التصرف؟

قال ستيلجار: «نحن أصدقاء جيميس لا نرفع عقيرتنا بالعويل على موتانا كقطيع من ذئاب الجارفارج».

قام رجل ذو لحية رمادية كان جالساً إلى يسار بول وقال: «كنت صديقاً لجيميس»، واتَّجه إلى الكومة، ومدَّ يده وأخذ المكوّلات، وقال: «عندما انخفض مستوى مياهنا عن الحد الأدنى في حصار "الطائران"، شارك جيميس ماءه معنا». ثم عاد إلى مكانه في الحلقة. تساءل بول: أمن المفترض أن أصرِّح بأنني كنت صديقاً لجيميس؟ أينظرون مني أن أمدَّ يدي وأخذ شيئاً من تلك الكومة؟ رأى الوجوه تتَّجه نحوه، ثم تشيح بعيداً. إنهم ينتظرون مني ذلك فعلاً!

نهض الرجل الجالس قبالة بول، واتَّجه إلى الكومة وأخذ البوصلة الباراوية، وقال: «كنت صديقاً لجيميس. عندما كشفت الدورية أمرنا عند عُروة الجرف وأُصبت بجرح، جعل جيميس من نفسه طُعماً وشتت انتباههم، حتَّى يتسنى إنقاذ الجرحى». وعاد إلى مكانه في الحلقة.

اتَّجهت الأنظار مجدداً إلى بول ورأى فيها الترقُّب، فخفض عينيه. لكزه كوعٌ في جنبه وهمس صوت: «هل ستجلب علينا الهلاك؟».

تساءل بول: كيف أصرِّح بأنني كنت صديقه؟

نهض شخصٌ آخر يجلس مقابلاً لپول في الدائرة، وعندما دخل الوجه المحتجب خلف القلنسوة إلى حيّز الضوء، رأى أنها أمّه. التقطت أمّه المنديل من الكومة وقالت: «كنت صديقةً لجيميس. عندما رأت روح الأرواح التي تسكنه حاجة الجمع إلى التثبّت من الحقيقة، انسحبت تلك الروح وحافظت على حياة ابني». ثم عادت إلى مكانها.

تذكر پول نبذة الازدراء في صوت أمّه عندما واجهته بعد النزال: «ما شعورك الآن بعد أن صرت قاتلاً؟».

مرةً أخرى، رأى الوجوه تتّجه نحوه، وأحسّ بما يعتمل من غضبٍ وخوف في نفوس المجموعة. ومض في ذهن پول مقطعاً من كتابٍ مرثي عن «ممارسات الموتى» كانت أمّه قد صوّرت له، فأدرك ما ينبغي له فعله.

ببطء، نهض پول.

صدرت تهيدة ارتياح من الدائرة.

شعر پول بتضاؤل نفسه وهو يتقدّم إلى مركز الدائرة، كما لو أنه فقد جزءاً من ذاته وراح ويبحث عنه هنا. انحنى فوق كومة المتعلّقات، ورفع الباليسيت. لمس أحد الأغرض في الكومة وترأ فصدر عنه رنيناً ناعماً.

همس پول: «كنت صديقاً لجيميس».

شعر بالدموع تحرق عينيه، وتجبره على رفع صوته: «جيميس علّمني... أنك... عندما تقتل شخصاً... تدفع الثمن. أتمنى لو أنني عرفت جيميس بشكل أفضل».

وبعينين مغمضتين، تلمّس طريقه عائداً إلى مكانه في الدائرة، وغاص أرضاً.

همس صوت: «لقد ذرف دموعاً».

وتناقل الأمر حول الحلقة: «أصول منح من رطوبة جسده للميت!».

أحس بأصابع تلمس وجنتيه المبللتين، وسمع همساتٍ مذهولة. عندما سمعت چيسكا الأصوات المبهورة، شعرت بوطئة ما يمرُّون به، وأدركت الموانع الشديدة التي لا بُدَّ أنهم يفرضونها على ذرف الدموع. ركزت على فحوى الكلمات: «لقد منح من رطوبة جسده للميت!». إنهم يُعدُّون الدموع هديةً مُقدَّمةً إلى عالم الأرواح، ولا ريب أنها شيءٌ مقدَّس.

لا شيء رآته أو اختبرته على هذا الكوكب هزًّا وأشعرها بأهمية الماء القصوى مثل هذا الأمر. لا باعة الماء، ولا بشرة أهل الكوكب الجافَّة، ولا بذلات التقطير، ولا انضباط الماء. الماء هنا مادةٌ أغلى من أيِّ مادةٍ أخرى: إنها الحياة ذاتها، لهذا تحيطها الرمزية والطقوس في كل مكان.

الماء.

همس أحدهم: «لمست وجنته، وشعرت بلمس الهدية». في البداية، شعر پول بالخوف من الأصابع التي تتلمَّس وجهه، فقبض بقوة على مقبض الباليست، شاعرًا بالأوتار تؤلم راحة يده. ثم رأى وجوه أصحاب الأيدي المتلمَّسة، وشاهد أعينهم المتَّسعة المشدوِّة.

في النهاية، انسحبت الأيدي، واستؤنفت مراسم الجنازة، ولكن بعد أن أُخليت مساحة حول پول: خلوة منحه إيَّاها أفراد المجموعة دلَّت على توقيرهم له.

اختُتِمت المراسم بترنيم جماعي خفيض:

«بدرُ التمام يدعوك للخلود
استبشر فستراك شَيّ هولود
الليل قانئة والسماء غبراء
رثاءً لحتفك المُضرج بالدماء
نبتهل لقمر: الرّب المستدير
أن يؤمنا الحظ وفي أثرنا يسير
سنعثر على ما نسعى إليه
في الأرض الصلبة التي تؤويه».

بقي كيسٌ منتفخ عند قدمي ستيلاجار، فجثا أرضاً، ووضع
كفيه فوقه. اقترب شخص منه، وجثا إلى جواره، فتعرّف پول على
وجه تشاني المحتجب وراء ظلّ قلنسوتها.

قالت تشاني: «كان چيميس يحمل ثلاثة وثلاثين لترًا وسبعة
دراهم سائلة وثلاثة وثلاثين جزءًا من الدرهم من ماء القبيلة.
أبارك ماءه الآن بحضور السيّادينا. إكريا كاراي، ها هو الماء..
فيليسين فولاسي، إلى پول المؤدّب! كيضي آ كاڤي، لا يزيد ولا
ينقص.. ناكالاس! ناكيلاس! وزنه مُقامٌ بالقسط، أوكاران! بدقّات
قلب، جان جان جان، صديقنا... چيميس».

ثم في صمتٍ مفاجئ وعميق، استدارت تشاني، ورمقت پول،
وفي النهاية قالت: «حيثما أكون لهبًا ستكون أنت الجمر. حيثما
أكون ندىً ستكون أنت الماء».

ردّد الحشد في خشوع: «بلا كيف».

قالت تشاني: «هذا النصيب يذهب إلى پول المؤدّب، عسى أن
يحرسه لصالح القبيلة، ويحفظه من التفريط والإفراط. عسى أن

يكون كريماً به في وقت الحاجة. عسى أن يورثه من بعده، لصالح القبيلة».

ردّد الحشد: «بلا كيف».

فكر پول: يجب أن أقبل هذا الماء. ثم نهض ببطء، وشق طريقه نحو تشاني. تراجع ستيلجار خطوة إلى الوراء ليفسح له مكاناً، وأخذ الباليست برفق من يده. قالت تشاني: «اركع».

فركع پول.

أرشدت يديه إلى كيس الماء، وأمسكتهما على السطح اللين، وقالت: «على هذا الماء تأمنك القبيلة. لقد غادره جيميس، فخذها في سلام». ثم نهضت وجذبت پول معها. أعاد ستيلجار الباليست له، ومدّ راحة يده بكومة صغيرة من الحلقات المعدنية. نظر پول إليها، ولاحظ أحجامها المختلفة، وانعكاس ضوء كرة الإنارة عليها.

التقطت تشاني الحلقة الأكبر، ورفعتها على إصبعها قائلة: «ثلاثون لترًا». ثم راحت تلتقط الحلقات الواحدة تلو الأخرى، وتعرض كلاً منها على پول وهي تعدّ: «لتران، لتر، سبع حلقات مائبة قيمة كل منها درهم سائل واحد، حلقة واحدة قيمتها ثلاثة وثلاثون جزءاً من الدرهم. المجموع: ثلاثة وثلاثون لترًا وسبعة دراهم سائلة وثلاثة وثلاثون جزءاً من الدرهم».

رفعت تشاني عملات الماء على إصبعها ليراها پول.

سأله ستيلجار: «هل تقبلها؟».

ابتلع پول ريقه وأوماً: «أجل».

قالت تشاني: «سأريك لاحقًا كيف تعقدها في منديل كي لا يصدر عنها صليل يكشف مكانك حين تكون في حاجة إلى الصَّمْت». ومدَّت يدها.

سألها پول: «هَلَّا... تحتفظين بها من أجلي؟».

نظرت تشاني إلى ستيلجار نظرة تردّد حائرة.

فابتسم وقال: «پول المؤدّب، الذي يُعرف بيننا باسم أصول، لا يألّف عاداتنا بعد يا تشاني. احتفظي بعملاته المائِية دون التزام منه بوعده، حتّى يحين الوقت الذي تعلّمينه فيه طريقة حملها». أومأت تشاني، ونزعت شريطًا قماشياً من تحت ثوبها، وربطت به الحلقات بعقدٍ محبوكة يصعب حلُّها، وتردّدت هنيهة، ثم دسّتها في الوشاح المربوط أسفل ثوبها.

فكّر پول: في كلامه شيء لم أفهمه، ثم استشعر المرح المازح الذي شاع حوله، فربط عقله ما حدث بذكرى استبصارية رأها: تقديم عملات الماء إلى امرأة لهو طقس من طقوس الخطوبة. قال ستيلجار: «يا أمناء الماء».

نهضت المجموعة في حفيفٍ من الثياب، وتقدّم رجلان منها وحملّا كيس الماء. أنزل ستيلجار كرة الإنارة، وتقدّم بها الطريق متّجّهاً إلى أعماق الكهف.

دُفع پول وسط الزحام خلف تشاني، ملاحظًا الوهج الغائم الشبيه بالزبد على الجدران الصخرية، ورقصة الظلال، وشعر بالروح المعنوية المرتفعة بين أفراد الجماعة التي تسودها أجواء ترقّب.

قمعت جيسيكّا -التي اجتذبتها الأيدي المتلهّفة إلى مؤخّرة الحشد وطوّفتها الأجساد المتدافعة- لحظة ذعرٍ اعترتها. لقد

تعرفت على شذور من الطقوس، وميّزت في ما قيل شظايا كلمات من لغتي التشاكوبسا والبوتاني جيب، وكانت على علم بالعنف الوحشي الذي يمكن أن ينفجر من مثل هذه اللحظات التي تبدو بسيطة.

فكرت جيسيك: جان جان جان، تعني هيا هيا هيا.

كانت الطقوس أشبه بلعبة أطفال فقدت كل قواعدها ومحاذيرها في أيدي الكبار.

توقّف ستيلجار عند جدار صخريّ أصفر اللون، وضغط نتوءاً فيه فانفتح الحائط من أمامه بصمت كاشفاً عن صدع طويل غير منظم. قادهم ستيلجر ماراً عبر تعريشة شبكية داكنة لها فتحات كثيرة تشبه خلايا النحل. شعر پول بنفخة هواء بارد على وجهه حين اجتازها.

أدار پول نظرة متسائلة إلى تشاني، وجذب ذراعها قائلاً: «الهواء رطب».

همست: «صه!».

لكن رجلاً من ورائهما قال: «المصيدة اقتصت رطوبة كثيرة الليلة. جيميس يخبرنا بأنه راض».

عبرت جيسيك من الباب السريّ، وسمعته يُفلق من خلفها. رأت كيف يتباطأ الفرمن وهم يمرّون من التعريشة الشبكية الكثيرة الفتحات، وشعرت برطوبة الهواء عندما وصلت إليها. خطر لجيسيك: مصيدة رياح! إنهم يُخفون مصيدة رياح في مكان ما في الأعلى على السطح لتوجيه الهواء إلى منطقة أكثر برودة كهذه وتكثيف الرطوبة منه.

مرُّوا عبر بابٍ صخريٍّ آخر تعلوه تعريشةٌ شبكيةٌ مماثلة، وانطلق الباب خلفهم. حمل تيار الهواء الذي هبَّ على ظهري جيسिका وپول إحساسًا واضحًا بالرطوبة.

رأى پول كرة الإنارة التي في يد ستيلجار في مقدِّمة المسيرة تنخفض إلى ما دون مستوى الرؤوس، ثم شعر بدرجاتٍ منحوتة تحت قدميه تهبط بميل إلى اليسار، ثم عاد الضوء وانعكس من فوق الرؤوس المقلنسة، ورأى پول الحركة الدائرية لأشخاصٍ يهبطون درجًا حلزونيًا.

أحسَّت جيسिका بتوتُّرٍ متزايد في الأشخاص المحيطين بها. كان يلفُّهم صمْتُ ثَقِيلٌ عاصِر راح يقرض جذور أعصابها بالحاحه. انتهى الدَّرَج، ومن بعده اجتازت الجماعة بابًا آخر منخفضًا أفضى إلى مغارة كبيرة مفتوحة ذات سَقْفٍ مُقَوَّسٍ عالٍ ابتلعت ضوء كرة الإنارة الوحيدة.

شعر پول بيد تشاني على ذراعه، وسمع صوت قطرات ماء خافتة تتساقط في الهواء البارد، وشعر بسكونٍ تام يغشي الفرمن في هذا الحضور المائي المهيِّب.

وخطر له: رأيت هذا المكان في أحلامي.

كانت الخاطرة مطمئنة ومحببة في الوقت نفسه، ففي نقطة ما مستقبلية على امتداد هذا المسار، تشقُّ جحافل المتعصِّبين طريقها الدموي عبر أرجاء الكون هاتفةً باسمه، وتصبح راية آل آتريديز الخضراء والسوداء رمزًا للذعر. ستخوض فيالقه المسعورة المعارك صارخةً بصرخة الحرب: «المؤدَّب!».

فكَّر پول: ذلك المآل لن يكون. لن أسمع له بأن يكون.

لكنه شعر بوعي الجنس البشري الجمعي داخله يدفعه دفعًا نحو غايته الرهيبة، وكان يعلم أن هذا الطغيان الآتي لن يصرفه

شيء هين. إنه يكتسب ثقلًا وزخمًا. حتَّى لو مات الآن، سيواصل الفيضان الكاسح تدفُّقه عبر أمِّه وعبر أخته التي لم تولد بعد. أدار پول بصره في ما حوله، فرأى أفراد الجماعة انتشروا في صفٍّ، ودفعوه أمامًا إلى حاجز منخفض منحوت من صخر المفارة. وراء الحاجز، رأى پول -في وهج كُرة ستيلجار المنيرة- مسطحًا مائيًا داكنًا ساكنًا يمتدُّ بعيدًا عبر ظلال عميقة سوداء، وينتهي عند جدارٍ بعيدٍ يراه بالكاد، ربَّما على بعد مئة متر.

شعرت جيسिका بأن الجلد الجاف المشدود على خديها وجبينها بدأ يرتخي في وجود الرطوبة. كانت بركة المياه عميقة؛ استطاعت أن تشعر بعمقها، وقاومت رغبتها في غمس يديها فيها. سمعت صوت طرلشة ماء من يسارها. نظرت إلى نهاية صفِّ الفرمن المبهم، ورأت ستيلجار وپول وإلى جوارهما أمماء الماء يفرغون حملتهم في البركة عبر فوَّهة مقياس تدفُّق. كان المقياس فتحةً رماديةً مستديرةً فوق حافة البركة. رأت جيسिका مؤشِّر المقياس المضيء يتحرَّك مع تدفُّق الماء عبره، ثم توقَّف عند قياس «ثلاثة وثلاثون لترًا وسبعة دراهم سائلة وثلاثة وثلاثون جزءًا من الدرهم».

فكرت جيسिका: دقَّة متناهية في قياس الماء. لاحظت جفاف جدران حوض القياس بعد عبور المياه. لقد تدفَّق الماء عبر تلك الجدران دون أن يترك أثرًا، ومن خلال هذه الحقيقة البسيطة، أدركت جيسिका سمةً جوهريةً في طبيعة تكنولوجيا الفرمن: إنهم يسعون وراء الكمال.

شقَّت جيسिका طريقها إلى الحاجز بسهولة بين الأجساد، إذ

أفسحوا لها الطريق بعفوية من باب الكياسة، ووقفت إلى جوار ستيلجار. لاحظت نظرة الشرود النفسي البادية في عيني پول، لكن لغز بركة الماء الكبيرة هذه كان يطفئ على تفكيرها. نظر إليها ستيلجار، وقال: «بيننا من هم في أشد الحاجة إلى الماء، لكنهم عندما يأتون إلى هنا لا يلمسون هذه المياه. أتعرفين ذلك؟».

قالت: «بإمكانني تصديقه».

نظر إلى البركة: «لدينا أكثر من ثلاثمئة وثمانين مليون لتر ماء هنا، مُخبَّأة ومحفوظة، وبمعزل عن الصَّانعات الصغيرات بين هذه الجدران».

قالت: «كنزٌ دفين».

رفع ستيلجار الكرة لينظر في عينيها وقال: «إنها أعظم من أي كنز. لدينا الآلاف من هذه المخابئ. قِلَّةٌ مِنَّا فقط تعرف أماكنها جميعاً». ثم أمال رأسه، فألقت الكرة وهجاً ظلياً أصفر على وجهه ولحيته وقال: «أسمعين هذا؟».

ألقوا جميعاً السَّمع.

ملأ صوت الماء المُكثَّف المتقاطر من مصيدة الرياح المفارة بحضوره. لاحظت جيسيكا أن الجماعة برمتها غارقة في نشوة إنصات. وحده پول بدا شاردًا ومنفصلاً عمَّا يحدث.

في أذني پول، بدا الصَّوت كأنه تكتكة ساعة تتحرَّك عقاربها بسرعة. شعر بتدفُّق الزمن عبره، وبلحظات تمضي لن تستعاد أبدًا. شعر بحاجة إلى اتِّخاذ قرار، لكنه كان عاجزًا عن الحركة. همس ستيلجار: «حسبنا كل شيء بدقَّة بالغة. نحن نعلم

بالضبط الكم الذي نحتاج إليه، بهامش خطأ لا يتعدى عشرة ملايين لتر. وعندما نبلغ الكم المطلوب، سنغيّر سطح أراكس». تعالى من الحشد همس خافت: «بلا كيف».

قال ستيلجار وقد ازداد صوته قوّة: «سنثبّت حركة الكثبان الرملية بالعشب المزروع، وسنشبع التربة بالماء عن طريق جذور الأشجار والغطاء النباتي المنخفض».

ردّد الحشد: «بلا كيف».

قال ستيلجار: «كل عام الجليد القطبي ينحسر».

ترنّم الحشد: «بلا كيف».

- «سنجعل من أراكس موطنًا صالحًا للعيش. سنستخدم العدسات لإذابة جليد القطبين، وعندها ستتكوّن بحيرات في المناطق معتدلة الحرارة، وسنترك أعماق الصحراء للصناعة والاسبائس».

- «بلا كيف».

- «لن يظلم إنسانٌ بعدها أبدًا. سيتوافر الماء في الآبار والبرك والتّرع، وسيجري عبر القنوات لتغذية نباتاتنا. سيكون الماء متاحًا للجميع، وفي متناول كل إنسان».

- «بلا كيف».

أحسّت جيسكا في الكلمات بطابع الطقوس الدينية، ولاحظت ردّة فعلها الغريزية المنبهة، ففكّرت: إنهم واثقون بالمستقبل، وأمامهم هدف شامخ يسمعون لتحقيقه. هذا حلم عالم البيئات الكوكبية، وهؤلاء القوم البسطاء، هؤلاء البدويّون، سكارى به.

انتقلت بتفكيرها إلى لبيت كاينز، عالم البيئات الكوكبية

الإمبراطوري، الرجل الذي اندمج في الثقافة المحلية، وتعجبت
لأمره. هذا الحُلم قادر على امتلاك أفئدة البشر، وقد شعرت
ببداية عالم البيئة في إنمائه في النفوس. إنه حُلم من النوع الذي
يموت الرجال عن طيب خاطر في سبيل تحقيقه. كان هذا
أحد المكونات الأساسية الأخرى التي شعرت بأن ابنها في
حاجة إليها: قومٌ لديهم هدف. سيكون من السهل بثُّ الحماسة
والتعصب في مثل هؤلاء القوم، واستخدامهم كسلاح لاستعادة
عرش بول المفتصب.

قال ستيلجار: «سنرحل الآن وننتظر طلوع القمر الأول، وعندما
نطمئن بأن جيميس بدأ رحلته بسلام، سنعود إلى الديار».
تبعه أفراد الجماعة على مضض، متهامسين بامتعاضهم من
مفادرة المكان، وعادوا أدراجهم بامتداد حاجز الماء، ثم صعدوا
الدرج.

شعر بول -الذي كان يسير خلف تشاني- بأنه فوّت لحظة مهمّة،
بأنه فوّت قراراً جوهرياً وبات الآن حبيس أسطوره الخاصة. كان
متأكّداً من أنه رأى هذا المكان من قبل، ومرّ بهذه الأحداث
في جزءٍ من حلم استبصاري رآه على كوكب كلادان البعيد، لكن
تفاصيل الأحداث التي تحدث الآن لم يسبق له رؤيتها. انتابته
دهشة جديدة من محدودية موهبته. الأمر يبدو كأنه يركب موجة
زمنية، أحياناً يكون في قاعها، وأحياناً على قمّتها، وفي كل مكانٍ
من حوله ترتفع الأمواج الأخرى وتتخفض، وتخفي وتكشف ما
تحمله على سطحها بالتناوب.

وخلال كل هذا التلاطم، ما زال الجهاد الوحشي يلوح في

الأفق، بعُنفه ومذابحه، كأنه نتوء صخري يبرز فوق الأمواج. عبرت الجماعة الباب الأخير الذي يفضي إلى الكهف الرئيس. ثم أحكم إغلاق الباب، وأطفئت الأنوار، ونُزعت الأغطية من فتحتي الكهف لتكشف عن الليل والنجوم التي تغطي الصحراء. اتجهت جيسिका إلى حافة الكهف الجافة، ورفعت بصرها إلى النجوم التي بدت لها قريبة وواضحة. ثم شعرت بحركة الأشخاص من حولها، وسمعت صوت ضبط أوتار آلة باليست في مكان ما خلفها، وصوت پول يتحنن مدندنا. كان في نبرته كآبة لم تسترح لها.

جاء صوت تشاني من ظلمة الكهف العميقة: «حدثني عن الماء على كوكبك الأم يا پول المؤدب».

فردّ پول: «في وقتٍ آخر يا تشاني. أعدك بذلك».

يا للحزن الذي يكتنف صوته.

قالت تشاني: «إنها آلة باليست جيدة».

قال پول: «جيدة جدًا. أظنّين أن جيميس سيمانع استخدامي لها؟».

فكرت جيسिका: إنه يتكلم عن الميت بصيغة المضارع، وأزعجتها دلالات ذلك.

قال أحد الرجال: «كان أكثر ما يُحب الموسيقى».

ناشدته تشاني: «إذا غن لي أغنية من أغنياتكم».

فكرت جيسिका: صوت تلك الفتاة الطفلة يحمل من الدلال الأنثوي الكثير. يجب عليّ تحذير پول من نسائهم... وسريعًا.

قال پول: «هذه الأغنية لصديق لي، أتوقّع أنه ميت الآن. اسمه جيرني، وكان يسمّي هذه الأغنية: صلاة المساء».

ساد الهدوء بين أفراد الجماعة، وأصغوا إلى صوت پول الذي ارتفع بنبرة فتية عذبة مغنياً على أنغام أوتار الباليست الرنّانة:
«غابت الشمس الذهبية الساطعة مع الفسق الأول،
وحلّ الليل الذي فيه تتوهج الجمرات.

ما لي من رفيق بقي
إلا حواس مهتاجة، وعبير مسك كريحه».

شعرت چيسيكا بوقع الكلمات الثقيل في صدرها، بموسيقى الألفاظ الوثنية المشحونة بأصوات جعلتها تتنبه لنفسها فجأة، وتشعر بجسدها واحتياجاته. واصلت چيسيكا الاستماع في هدوء عصبى.
«وفي وهج مجمرة البخور، يلقي الليل مرثية،

من أجلنا!
أيُّ أفراح تجري..
لامعة في عينيك.
أيُّ عشقٍ مطرّز بالورود..
يجذب قلوبنا.
أيُّ عشقٍ مطرّز بالورود..
يشبع رغباتنا».

أصغت چيسيكا إلى السكون الذي ساد الهواء بعد آخر شطر، وتساءلت متعجبة: لِمَ اختار هذه الأغنية بالذات؟ الدوافع الفطرية تكون على صواب في بعض الأحيان. لماذا يفعل هذا؟
جلس پول صامتاً في الظلام، وفكرة واحدة تسيطر على عقله وتصرخ فيه: أُمِّي هي عدوّي. إنها لا تعني ذلك، لكنها عدوّي. هي من ستجلب الجهاد. هي من ولدتني، هي من درّبتني. إنها عدوّي.

يعمل مفهوم التقدّم كآلية وقائية تحمينا من أهوال المستقبل.

من كتاب «أحاديث المؤدّب المجمعّة» للأميرة إيrolان.

في عيد ميلاده السّابع عشر، قتل فيد راوثا هاركونن ضحيته رقم مئة من المصارعين العبيد في المباريات العائلية. كان الكونت هنرينج والليدي زوجته -مبعوثا البلاط الإمبراطوري- من ضمن المتفرّجين الزائرين الذين أتوا إلى كوكب جيدي پرايم -موطن الهراكنة- لحضور الحدث، وقد دُعيا للجلوس مع أفراد الأسرة المقرّبين في المقصورة الذهبية أعلى الحلبة المثلثة.

واحتفاءً بذكرى ميلاد ولي عهد البارونية، ولتذكير باقي الهراكنة والرّعية أيضاً بأن فيد راوثا هو من وقع عليه الاختيار ليكون وارث العرش، كان اليوم عطلة رسمية على جيدي پرايم. أصدر البارون مرسوماً بأن تكون المدة من ظهيرة اليوم إلى ظهيرة غدٍ راحة من العمل، وقد بُذلت جهودٌ كبيرة لخلق أجواء ابتهاج وهمية في شوارع مدينة هاركو عاصمة الحكم: تطايرت اللافتات خفاقة فوق المباني، ورُسّيت الجدران على امتداد طريق المحكمة بطلاءٍ جديد.

ولكن بعيداً عن الطريق الرئيس، لاحظ الكونت هنرينج والليدي زوجته أكوام القمامة، والجدران البنية الخشنة المنعكسة في البرك الموحلة الداكنة المتناثرة في الشوارع، وهروع الناس وهم يركضون للاختفاء عن الأنظار.

أمّا في حصن البارون ذي الجدران الزرقاء كان كل شيءٍ مثاليّ بطريقةٍ موجسة، لكن الكونت والليدي زوجته شاهدا الثمن المدفوع

نظير هذا: الحرس منتشرين في كل مكان، حاملين أسلحة تتألق بذلك البريق الذي يكشف للعين المدربة أنها تُستخدم بانتظام. انتشرت نقاط التفتيش داخل الحصن لمراقبة حركة المرور من منطقة إلى أخرى. أمّا الخدم أنفسهم فكشفت طريقة سيرهم ومناكبهم العريضة وأعينهم التي تراقب الجميع ويلا كلل أنهم عسكريون.

همهم الكونت في أدن الليدي زوجته بلُغتهما السرية: «التوتر شديد، بدأ البارون يدرك الثمن الفعلي الذي دفعه للخلاص من الدوق ليتو».

قالت: «يومًا ما، ذكّرني أن أقص عليك أسطورة العنقاء».

كانا في قاعة استقبال الحصن، في انتظار الذهاب مدرّجات المباريات العائلية. لم تكن القاعة كبيرة -رُبّما أربعين مترًا طولًا ونصف ذلك عرضًا- لكنها زُيّنت بأعمدة زائفة على الجانبين ينتهي كل منها بطرفٍ مستدق، وكان سقفها مقوّسًا بشكل طفيف، ما أعطى إيهامًا بأنها أكبر حجمًا عمّا هي في الواقع.

قال الكونت: «آها، ها هو البارون قادم».

أتى البارون من نهاية القاعة متحرّكًا بذلك السريان المتهادي الغريب الذي يفرضه توجيه وزنه الثقيل المحمول بمضادات الجاذبية. كان لحم خدّيه المتهدّل يترجرج إلى أعلى وأسفل، ومضادات الجاذبية تهتز وتتحرك تحت رداءه البرتقالي، والخواتم تومض في أصابعه، وجواهر الأوفياير تومض على رداءه.

كان فيد راوثا يسير إلى جوار البارون، بشعرٍ داكن مصفّف في جدائل مجعّدة بدت خليعة بشكل يتنافر مع عيّنه المتجهّمتين، مرتدّيا غلالة جلدية سوداء ضيّقة وسراويل مريحة تنتهي بانتفاخ، ومنتعلًا في قدميه الصغيرتين خُفّين نعليهما ناعمين.

لاحظت الليدي فترينج مشية الشاب المتزنة وحركة عضلاته
الواثقة أسفل الغلالة، وفكرت: هذا شخص لن يترك نفسه يسمن.
وقف البارون أمامهما، وأمسك ذراع فيد راوثا بقبضة غيورة،
وقال: «ابن أخي، ولي العهد، فيد راوثا هاركونن»، ثم أدار وجهه
الطفولي الممتلئ نحو فيد راوثا وقال: «الكونت والليدي وفترينج
الليدان حدثتك عنهما».

حتى فيد راوثا رأسه وفقاً لأصول المجاملة، محملاً إلى
الليدي فترينج. كانت ذهبية الشعر ممشوقة القوام، ينساب على
جسدها المثالي فستانٌ بُني فاتح جداً، لم يتطلب غير رشاقة
جسدها زخرفاً. بادلت عيناها الخضراوان الرماديتان النظرة.
كانت تتمتع بهدوء البني چيسيرت الوقور، وهو ما أشعر الشاب
بانزعاج خافت.

قال الكونت: «اممممم»، ممعناً في النظر إلى فيد راوثا:
«إلى هذا.. هممم.. إلى هذا الشاب تحديداً.. آه... هممم...
يا عزيزي؟»، وألقى الكونت نظرة إلى البارون: «يا باروني العزيز،
قلت إنك تحدثت عنا إلى هذا الشاب تحديداً؟ ماذا قلت له؟».
قال البارون: «حكيت لابن أخي عن الاحترام الكبير الذي يكنه
إمبراطورنا لك يا كونت فترينج». وفكر: انتبه له جيداً يا فيد! إنه
ذئبٌ في ثوب حمل، قاتل بأخلاق أرنب، وهذا هو النوع الأكثر خطورة.
قال الكونت: «بالطبع!»، وابتسم لزوجته.

شعر فيد راوثا بإهانة مستترة في أفعال وأقوال الرجل. كانت
تلميحاته خفية تعرف متى تتوقف قبل أن تبلغ حد التصريح.
ركّز الشاب انتباهه على الكونت: كان رجلاً ضئيل الجسم هزيل
المظهر، ذا وجهٍ مدهنٍ كحيوان ابن عرس، تحتل عينا داكنتان

شديداً الاتّساع. كان أشيب الفودين، غريب الحركات، صعب المتابعة: يحرك يده أو يميل برأسه في اتّجاه، ثم يتكلّم في الاتّجاه الآخر.

قال الكونت موجّهاً كلامه إلى كتف البارون: «اممممممم، لا يقابل المرء مثل، اممممممم، هذه الدقّة إلّا نادراً. أهنتك.. آها.. على.. هممم.. كمال الصفات الذي يتمتّع به.. آاااه.. ولي عهدك. مقارنةً بابن أخيك الآخر الأكبر سنّاً، إن جاز لي القول».

قال البارون: «هذا لطف منك»، وانحنى احتراماً، لكن فيد راوثا لاحظ في عيني عمه أنه لم يحب هذه المجاملة.

قال الكونت: «تهكّمك.. مممم.. يشير إلى أنك.. همممم... تفكّر تفكيراً عميقاً».

فكّر فيد راوثا: ها هو يفعلها ثانيةً. ما يقوله يبدو مهيناً، لكن دون أن تستطيع الإمساك بشيءٍ عليه.

شعر فيد راوثا بأن رأسه يغوص في طبق عصيدة وهو يستمع إلى الرجل.../ممممم، وهممممم! فأعاد انتباهه إلى الليدي فنرينج. قالت: «لقد أخذنا كثيراً من وقت هذا الشاب. على حسب علمي سيشارك في قتال اليوم».

فكّر فيد راوثا: بحق الحور* المقصورات في خيام حريم* الإمبراطور، كم هي جميلة! ثم قال: «سأقتل اليوم على شرفك يا سيّدي. سأهدي الفوز إليك في الحلبة، إن أذنت لي».

بادلته النظرة بهدوء، لكن صوتها بدا كلسعة سوطٍ وهي تقول: «لا أمنحك الإذن».

قال البارون: «فيدا»، وفكّر: يا للأزعز الأحمق! هل يريد لهذا الكونت الفتاك أن يتحدّاه في نزالٍ رسمي؟

لكن الكونت ابتسم مهمهماً فحسب: «هممممممم».

قال البارون: «عليك الاستعداد لنزول الحلبة بالفعل يا فيد. يجب أن ترتاح وألاً تعرّض نفسك لأيّ مخاطرٍ حمقاء».

انحنى فيد راوثةً بوجهٍ مكفهرٍ من الاستياء وقال: «كل شيء سيسير وفقاً لرغبتك يا عمّي»، ثم أوماً إلى الكونت فنرينج قائلاً: «سيّدي»، وإلى الليدي وقال: «سيدتي»، ثم استدار مغادراً القاعة بخطواتٍ واسعة، دون أن يكلف نفسه عناء النظر إلى زمرة أفراد العائلات الصغيرة الواقفين قرب الباب المزدوج.

تهدّ البارون: «ما زال صغيراً».

قال الكونت: «اممممم.. بلا ريب.. هممممم».

فكرت الليدي فنرينج: أيعقل أن يكون هذا هو الشاب الذي قصده الأم الموقرة؟ هل هذه هي السلالة التي يجب أن نحافظ عليها؟

قال البارون: «أمامنا أكثر من ساعة قبل الذهاب إلى الحلبة، ربّما بإمكاننا تبادل حديثاً القصير الآن يا كونت فنرينج»، ثم أمال رأسه الضخم إلى اليمين وأردف: «لقد حدثت تطوّرات كثيرة يتعيّن علينا مناقشتها».

وفكر البارون: لنرى الآن كيف سيتمكّن ساعي الإمبراطور هذا من نقل فحوى الرسالة التي يحملها بلا أن يكون فظاً إلى درجة التلقّف بها صراحةً.

قال الكونت لزوجته: «اممممممم، همممممم، هل تسمحين.. ممممم.. لنا.. آاه.. يا عزيزتي؟».

قالت: «كل يوم، بل أحياناً كل ساعة، أنت في حال.. مممم». ثم ابتسمت بعذوبة للبارون قبل أن تستدير مبتعدةً. هففت أطراف

- تُؤثرتها وهي تسير بخُطى ملكيةٍ وظهرٍ مستقيم نحو الباب
المزدوجة في نهاية القاعة.
- لاحظ البارون كيف توقفت المحادثات الدائرة بين أفراد
العائلات الصغيرة مع اقترابها منهم، وكيف تتبعتها الأعين. بني
جيسيرت! لو تخلصنا منهم جميعاً لصار الكون مكاناً أفضل!
قال البارون: «بين عمودين من تلك الأعمدة إلى يسارنا مخروط
صمت. نستطيع التحدث دون أن نخشى أن يسمعنا أحد». ثم تقدّم
الطريق بمشيته المتمايلة إلى المجال العازل للصوت، وشعر بأن
ضوضاء الحصن صارت بعيدة وخافتة ما إن دخل حيّزه.
- صعد الكونت بجانب البارون، واستدارا مواجهًا الحائط كي
تتعدّر قراءة شفاههم.
- قال الكونت: «لسنا راضين عن الطريقة التي أمرت بها
السَّاردوكار بمفادرة أراكس».
- خطر للبارون: كلامٌ مباشر وصريح!
- قال البارون: «لوبيقي السَّاردوكار مدّة أطول لخاطرنا باكتشاف
البعض أمر مساعدة الإمبراطور لي».
- «لكن ابن أخيك رابان لا يبدو أنه يضغط بقوة كافية لحل
مشكلة الفرمن».
- سأل البارون: «وماذا يرغب الإمبراطور؟ لم يبق على ظهر
أراكس سوى حفنة من الفرمن. الصَّحراء الجنوبية غير صالحة
للسكنى، ودورياتنا تمشّط القطاعات الشمالية بانتظام».
- «ومن قال إن الصَّحراء الجنوبية غير صالحة للسكنى؟».
- «عالم البيئات الكوكبية التابع لكم يا عزيزي الكونت».
- «لكن الدكتور كاينز مات».

- «آه، صحيح. كم هذا مؤسف».

قال الكونت: «أتانا خبرٌ من طائفة حلقت فوق المناطق الجنوبية بوجود أدلة على حياة نباتية هناك».

- «هل وافقت النقابة على المراقبة من الفضاء؟».

- «أنت أدري من الجميع بأنه لا يمكن للإمبراطور فرض مراقبة قانونية على أراكس أيها البارون».

- «وأنا لا أستطيع تحمّل نفقاتها. من قام بهذه الرحلة الجوية؟».

- «آآ.. أحد المهرّبين».

قال البارون: «من أخبرك كذبك أيها الكونت. ليس بوسع المهرّبين التحليق فوق المناطق الجنوبية مثلهم مثل رجال رابان، بسبب العواصف، والاضطرابات الكهربائية الرملية، وكل الأمور التي تعرفها. تقتلع الرياح علامات الإرشاد الجوّي بسرعة تفوق قدرتنا على استبدالها».

قال الكونت: «سنناقش أنواع الاضطرابات الكهربائية في وقتٍ آخر».

آهآآ، هكذا فكّر البارون، ثم سأله: «هل وجدتم خطأ في روايتي إذا؟».

قال الكونت: «حين تتخيّل وجود أخطاء، يتعدّر الدفاع عن النفس»..

فكّر البارون: إنه يحاول تمهيد إثارة غضبي. ثم أخذ نفسين عميقين لتهدئة نفسه. استطاع أن يشم رائحة عرقه، وشعر فجأة بحكة مزعجة سببها له نطاق مضادات الجاذبية تحت رداءه.

قال البارون: «لا يحق للإمبراطور أن يستاء من وفاة الحظيَّة والصبيِّ. لقد فرَّاً إلى الصَّحراء وباغتتهما عاصفة».

وافقه الكونت: «أجل، وقعت الكثير من الحوادث الملائمة».

قال البارون: «لا تعجبني نبرتك أيُّها الكونت».

قال الكونت: «غضبك شيء، واستخدامك للعنف شيء آخر. دعني أحوِّرك من أنه في حال وقوع حادث مؤسف لي هنا، ستعلم كل العائلات النبيلة بما فعلته على أراكس، فلطالما اشتبهوا في كيفية قيامك بأعمالك».

قال البارون: «العمل الوحيد الذي أتذكُّره هو نقل فيالق عدَّة من السَّاردوكار إلى أراكس».

- «أتظنُّ أنه بإمكانك تهديد الإمبراطور بذلك إلى الأبد؟».

- «لم يخطر هذا التفكير ببالي على الإطلاق!».

ابتسم الكونت: «ما أسهل إيجاد بعض قادة السَّاردوكار المستعدين للاعتراف بأنهم تصرَّفوا من تلقاء أنفسهم بلا أوامر لأنهم أرادوا معركة مع حثالة الفرمن».

قال البارون: «سيشك كثيرون في صحة اعتراف كهذا». لكن التهديد أجفله، وتساءل: هل السَّاردوكار بهذا الولاء حقاً؟

قال الكونت: «يرغب الإمبراطور في مراجعة دفاترك المالية».

- «في أيِّ وقت يشاء».

- «ليس.. آه.. لديك أيُّ اعتراض؟».

قال: «مطلقاً، أنا مستعد لأن تخضع إدارتي في شركة تشوم إلى أشدِّ تدقيق». وفكَّر: دعه يوجِّه إليَّ اتِّهاماً كاذباً كي أكتشفه. عندها سَأقف في شموخ ونعرة بروميثيوسية قائلاً: «اشهدوا أنني قد ظلمت». بعدها، دعه يجرِّب توجيه أيِّ اتِّهامٍ آخر إليَّ، حتَّى لو

كان صحيحًا، ولن تصدّق العائلات النبيلة الكبرى زعمًا آخر من مُتهم سبق أن ثبت خطأه.

غمغم الكونت: «لا شك في أن دفاترك ستخرج سليمة من أشدّ تدقيق».

سأل البارون: «لماذا يهتم الإمبراطور بإبادة الفرمن إلى هذا الحدّ؟».

قال الكونت: «تريد تغيير الموضوع، أليس كذلك؟»، ثم هزّ كتفيه وأردف: «حسنًا، السّاردوكار هم الذين يريدون القضاء على الفرمن لا الإمبراطور. كانوا في حاجة إلى ممارسة القتل، وهم يكرهون ترك مهمّة دون إتمامها».

تساءل البارون: «يظنّ أنه يخيفني بتذكيري أنه مدعوم من قتلّة متعطّشين للدماء؟»

قال البارون: «لطالما كان القتل بحساب ذراعًا تعضّد الأعمال، لكن ثمة خط يجب ألا نتجاوزه، وينبغي لنا ترك البعض على قيد الحياة للعمل في استخراج الاسپايس».

فلتت من الكونت ضحكة قصيرة عاوية: «أتظنّ أنه بإمكانك تسخير الفرمن؟».

قال البارون: «لم يكن عددهم يكفي لذلك في أيّ وقت مضى، لكن أعمال القتل الممنهج بثّت القلق في باقي السكّان. لقد وصلت حدًا جعلني أفكّر في حلّ آخر للمعضلة الأكسية يا عزيزي فترينج، وعليّ أن أعترف أن الفضل يعود إلى الإمبراطور في إلهامي به».

- «آاااا»-

- «كما ترى يا عزيزي الكونت، أخذت إلهامي من سالوسا سوكانداس، كوكب السجن الإمبراطوري».

- حدّجه الكونت بنظرة حادّة الشراسة: «وما علاقة أراكس بسالوسا سوكانداس؟».
- شعر البارون بالاحتدام المتّقد في عيني فنرينج، فقال: «لا توجد علاقة بعد».
- «بعد؟».
- «عليك الاعتراف بأن تحويل أراكس إلى سجن سيكون وسيلة فعّالة في تأسيس قوّة عاملة لا يُستهان بها».
- «أتوقّع زيادة في عدد السجناء؟».
- اعترف البارون: «وقعت بعض القلاقل والاضطرابات، وكان علي أن أضغط بشدّة يا فنرينج. أنت تعلم الثمن الباهظ الذي دفعته للنقابة اللعينة لنقل قوّتنا المشتركة إلى أراكس، ولا بدّ من استرداد هذا المال بطريقة أو بأخرى».
- «أنصحك ألاّ تحوّل أراكس إلى سجن دون إذن الإمبراطور أيّها بارون».
- قال البارون: «قطعاً لا»، وتعجّب من البرودة المفاجئة التي حلّت على صوت فنرينج.
- قال الكونت: «ثمّة موضوع آخر، نما إلى علمنا أن منتجات الدوق ليتو، ظفير حوَّاط، لم يمت، وأنه صار يعمل تحت إمرتك».
- قال البارون: «لم تطاوعني نفسي على إهداره».
- «لقد كذبت على قائد السّاردوكار عندما قلت له إن حوَّاط مات».
- «مجرّد كذبة بيضاء يا عزيزي الكونت. لم أتحمّل خوض جدال طويل مع الرجل».
- «هل كان حوَّاط الخائن الحقيقي؟».

- «بحق الجحيم، لا الخائن هو الطبيب الفاسد»، قالها البارون ومسح عرقًا تجمّع على رقبتَه ثم أردف: «عليك أن تفهمني يا هنرينج، كنت بلا مِنّات. أنت تعلم هذا. لم يسبق لي العمل دون مِنّات. كان الأمر مريبًا جدًّا».

- «وكيف تمكّنت من حمل حوَّاط على تغيير ولائه؟».

ابتسم البارون ابتسامةً مصطنعةً وقال: «لقد مات دوقه. لا داعي لخشية حوَّاط يا عزيزي الكونت، فقد حقنًا سُمًّا كامنًا في جسد المِنّات، ونضع له الترياق في الطعام باستمرار. من دون الترياق، سيستفحل السُّمُّ وينتشر، وسيموت في غضون أيّام قليلة».

مكتبة

t.me/t_pdf

قال الكونت: «أحرمه من الترياق».

- «لكنه أداة مفيدة!».

- «ويعرف أمورًا كثيرة يجب ألا يعرفها شخص ويظلُّ حيًّا».

- «قلت إن الإمبراطور لا يخشى انكشاف أمره».

- «لا تمارس معي تلك الألاعيب أيُّها البارون!».

قال البارون: «عندما يأتيني أمر رسمي مختوم بختم الإمبراطور سأطيعه، لكنني لن أرضخ لنزواتك».

- «أتظنُّها نزوة؟».

- «وماذا تكون غير هذا؟ لا تنس أن الإمبراطور مدين لي يا

هنرينج، فأنا من خلّصه من الدوق المزعج».

- «بمساعدة بعض السَّاردوكار».

- «أيُّ عائلةٍ نبيلةٍ أخرى كانت ستقبل بتكرُّ جنود الإمبراطور

في زِيَّها الرسمي لإخفاء ضلوعه في الأمر؟».

- «لقد طرح الإمبراطور السؤال ذاته على نفسه أيُّها البارون، ولكن بصيغة استفهام تقريرية».

أمعن البارون في النظر إلى وجه فترينج، ولاحظ التشنُّج في عضلات فكه، وتحكمه الدقيق في نفسه، ثم قال: «آها، حسناً. أمل ألا يكون الإمبراطور يعتقد أنه يستطيع التحركُ ضدِّي في الخفاء». - «إنه يأمل ألا يضطر إلى ذلك».

- «كيف يصدِّق الإمبراطور أنني أهدِّده!»، قالها البارون سامحاً لنبرة الغضب والحزن بالتسلل إلى صوته، وفكَّر: ليتَه يفعلها ويظلمني! سأستطيع وقتها اعتلاء العرش وأنا أضرب على صدري من فداحة الظلم الذي تعرَّضت له.

بدت نبرة الكونت جافَّة وشاردة وهو يقول: «الإمبراطور يصدِّق ما تخبره به حواسُّه».

- «هل يجرؤُ الإمبراطور على اتِّهامي بالخيانة أمام عموم مجلس اللاندرسراد؟»، قالها البارون وحبس أنفاسه على أمل حدوث ذلك.

- «الإمبراطور لا يرغب في أن يجرؤُ على شيء».

أدار البارون جسده بمضادات الجاذبية لإخفاء تعبير وجهه، وفكَّر: قد يحدث ذلك في عهدي! حلم اعتلاء عرش الإمبراطور! يا ليتَه يظلمني! عندها، بالرُّشى وبالإكراه، سأحشد نبلاء العائلات الكبرى حولي. سيهرعون للاحتماء برايتي والانضواء تحت لوائي كما يهرع الرعاع بحثاً عن مأوى، فما من شيءٍ يخشونه أكثر من أن يفتك بهم السَّاردوكار الإمبراطوريون كل على حدة، ويجتثونهم العائلة تلو الأخرى.

قال الكونت: «يأمل الإمبراطور بصدق ألا يضطر إلى اتِّهامك بالخيانة أبداً».

وجد البارون صعوبة في إخفاء نبرة التهكُّم في صوته وإبداء ألمه فيه فحسب، لكنه نجح في النهاية وقال: «لطالما كنت من أخلص الرعية وأشدُّهم ولاءً. هذه الكلمات تؤلم بدرجة تفوق قدرتي على التعبير».

قال الكونت: «اممممم».

ظلَّ البارون معطيًا ظهره للكونت، وراح يومئ برأسه، ثم قال: «حان وقت الذهاب إلى الحلبة».

قال الكونت: «بالتأكيد».

خرج الرجلان من مخروط الصَّمْت، وسارا جنبًا إلى جنب متَّجهين صوب زمرة العائلات الصغيرة الواقفة في نهاية القاعة. من مكانٍ ما في القلعة بدأ جرسٌ يقرع ببطء، معلناً أن عشرين دقيقة بقيت على التجمُّع في الحلبة.

قال الكونت مشيرًا برأسه إلى زمرة الأشخاص الذين يقتربان منهم: «نبلاء العائلات الصغيرة ينتظرون منك أن تقودهم».

فكر البارون: معانٍ مزدوجة.. معانٍ مزدوجة.

ثم رفع بصره نحو التيميتين الجديدتين المعلَّقتين على جانبي باب القاعة: رأس الثور الأسود واللوحة الزيتية التي تصوِّر الدوق التليد آتريديز، والد الدوق ليتو الراحل. امتلأ صدر البارون بشعور شؤم غريب منهما، ووجد نفسه يتساءل عن الأفكار التي بثَّها تيممة الأب الشجاع ورأس الثور الذي قتله في نفس الدوق ليتو طوال المدَّة التي كانتا معلَّقتين فيها في قاعات كلادان، ثم أراكس من بعده.

- «لل بشرية.. آم.. علم... امممم.. واحد»، هكذا قال الكونت وهما يتقدَّمان موكب الأتباع من القاعة وإلى غرفة انتظار ضيقة ذات نوافذ عالية وأرضية يزيّنها بلاطٌ أبيض وأرجواني.

سأل البارون: «أَيُّ علم هذا؟».

قال الكونت: «امممممم.. علم ال... آآآ.. الاستياء».

بوجوهٍ خانعةٍ وردود فعل الحملان، ضحك نبلاء العائلات الصغيرة من خلفهما بنبرة استحسانٍ، لكن الصَّوت تحوَّل إلى نِشاز حين اختلط بصوت المحركات الصَّاخب المفاجئ الذي ترامى إلى مسامعهم عندما فتح الغلمان البوَّابة الخارجية كاشفين عن صفٍّ من السيَّارات تخفق عليها أعلامٌ مثلثة في الهواء. رفع البارون صوته ليتغلَّب على الضوضاء المفاجئة: «أمل ألاَّ تستاء من أداء ابن أخي اليوم في الحلقة يا كونت فنرينج».

قال الكونت: «لا.. آآآ.. يملؤني.. امممم.. سوى شعور.. همممم.. بالترقُّب. على المرء أن يضع في حسبانهِ دومًا الجهة التي سمع منها البلاغ الشفوي».

تبيَّس جسد البارون من المفاجأة وتعثَّر في أولى درجات السُّلم الهابط من بوابة الخروج. بلاغ شفوي! هذا يعني تقريرًا عن جريمة ارتكبت ضد الإمبراطورية!

لكن الكونت فهَّمه ليَجعل ما قال يبدو كأنه مزحة، وربَّت على ذراع البارون.

طوال الطريق إلى الحلبة، جلس البارون متَّكئًا على وسائد سيَّارته المدرَّعة، يلقي نظراتٍ خفيةٍ إلى الكونت الجالس بجانبه، ويتساءل عن سبب إلقاء ساعي الإمبراطور هذه المزحة تحديدًا أمام نبلاء العائلات الصغيرة. كان من الواضح أن فنرينج نادرًا ما يفعل شيئًا كيفما اتَّفَق، أو يلقي الكلام على عواهنه، أو يستخدم كلمتين حين تكون واحدة كافية لأداء الغرض، أو أن تحمل عباراته معنًى واحدًا فقط.

وعندما وصلا إلى المقصورة الذهبية المطلّة على الحلبة المثلثة واتّخذا مقعديهما فيها -وسط صراخ الأبواق الحماسية وصخب الجمهور الذي يملأ المدرّجات من فوقهما وحولهما بأعلامه الخفّاقه- تفتّق ذهن البارون عن الإجابة.

مال الكونت إلى أذن البارون، وقال: «عزيزي البارون، أنت تعلم أن الإمبراطور لم يعط موافقةً رسميةً بعد على ولي العهد الذي اخترته، أليس كذلك؟».

شعر البارون بغتةً أن الصدمة جعلته أسير مخروط صمتٍ خاص به. حلق مبهورًا إلى وجه فنرينج، وبالكاد رأى زوجة الكونت وهي تمرّ عبر الحرس للانضمام إليهما في المقصورة الذهبية. قال الكونت: «هذا هو السبب الحقيقي وراء مجيئي اليوم. يرغب الإمبراطور في أن أقدم إليه تقريرًا عمّا إذا كنت قد اخترت خليفةً جديرًا، ولا شيء يكشف عن معدن الشخص الحقيقي مثل حلبة المصارعة، أليس كذلك؟».

قال البارون جازًا على أسنانه: «لقد وعدني الإمبراطور بحرية اختيار وراثي!».

قال فنرينج: «سنرى»، ثم التفت للترحيب بزوجته، التي جلست، وابتسمت للبارون، ثم نقلت انتباهها إلى الحلبة الرملية أسفلهم، حيث ظهر فيد راوثا في زيّ جلديّ ضيّق، في يُمناه قفّازٌ أسود وسكّينٌ طويلة، وفي يُسراه قفّازٌ أبيض وسكّينٌ قصيرة.

قالت الليدي فنرينج: «الأبيض للسّم، والأسود للنقاء. تقليد غريب ومثير للفضول، أليس كذلك يا حبيبي؟».

همهم الكونت: «أممم».

ارتفعت هتافات التشجيع من المنصات العائلية، فتوقف فيد راوثا لتقبلها رافعاً بصره وماسحاً الوجوه المألوفة: الأقارب وأولاد العم وأنصاف الأشقاء، والحظيات والآوتفرين والأنساب البرانيون. كانت هناك أفواه كثيرة تهتف له وسط خليط مضطرب من الملابس واللافتات الزاهية الألوان.

أدرك فيد راوثا وقتها أن صفوف الوجوه المحتشدة ستنتظر إلى دمائه المسفوكة بذات الحماسة التي ستنتظر بها إلى دماء العبد المصارع. ما من شك في نتيجة المعركة بالطبع، فما يُقدَّم على هذه الحلبة ليس سوى عرض يحمل إيهاماً صورياً بالخطر، لا خطراً حقيقياً، ومع ذلك...

رفع فيد راوثا نصليه إلى قرص الشمس، مُحِيَّياً أركان الحلبة الثلاثة بالطريقة القديمة. بعدها أغمد السكين القصيرة الممسك بها في يمينه المتقفزة بالأبيض (رمز السُّم)، ثم النصل الطويل التي في يسراه المتقفزة بالأسود: النصل النقي الذي لم يكن نقياً الآن، سلاحه السري الذي سيحوّل معركة اليوم إلى انتصار شخصي خالص: النصل الأسود المسموم!

لم يأخذ ضبط درعه سوى لحظات، توقف بعدها هنيهة شاعراً بالدرع يشدُّ جلد جبينه، مؤكّداً حمايته كما ينبغي. كان لهذه اللحظات مذاقٌ مشوّق حريف، لذا أطالها فيد راوثا كأي رجل استعراض واثق بنفسه، وراح يومئ برأسه إلى مدرّبيه وأعوانه من مُشتتّي انتباه، متفقّداً معدّاتهم بنظرة فاحصة: الأصفاد في أماكنها بأشواكها الحادة اللامعة، وكذلك الأسياخ والخطاطيف بشرائطها الزرقاء.

أشار فيد راوثا بيده إلى العازفين.

بدأ اللحن العسكري البطيء يدوي بمهابة عريقة، وقاد فيد راوثا فرقته عبر الحلبة لتقديم فروض الاحترام والطاعة أسفل مقصورة عمه. ثم التقط مفتاح المراسم الاحتفالية حين ألقى له به. حينها توقفت الموسيقى.

في الصمت الذي خيم فجأة، تراجع فيد راوثا خطوتين إلى الخلف ورفع المفتاح وصاح: «أهدي هذه الحقيقة إلى...»، ثم توقف عالماً أن عمه سيفكر: ها هو الغلام الأحمق سيقدّم إهداء إلى الليدي فنرينج ويفتعل مشكلة!

لكن فيد راوثا صاح: «إلى عمي ونصيري، البارون فلاديمير هاركونن».

وسرّ حين رأى تهيدة عمه.

استأنفت الفرقة العزف بإيقاع متسارع، وقاد فيد راوثا رجاله بالخطوة السريعة عبر الحلبة إلى باب الطوارئ الذي يسمح فقط بمرور من يضعون شريط هوية خاص. كان فيد راوثا يفخر بنفسه لأنه لم يستخدم باب الطوارئ من قبل للفرار من القتال، وأنه قلماً استعان بمشتتي الانتباه. لكن وجودهم اليوم مطمئن، فالخطط الخاصة تتطوي أحياناً على مخاطر خاصة. مرة أخرى، خيم الصمت على الحلبة.

استدار فيد راوثا مواجهاً الباب الأحمر الكبير الذي سيخرج المصارع من خلاله. المصارع الخاص.

خطر لفيد راوثا أن الخطوة التي وضعها ظافر حواط كانت بسيطة ومباشرة على نحو جدير بالإعجاب. لن يكون العبد مخدراً، وهذا هو مصدر الخطر. وإنما زُرعت كلمة في عقل الرجل اللاواعي كي تشل حركته عند اللزوم.

قلَّب فيد راوثا الكلمة المهلكة في ذهنه، ولفظها دون صوت «حثة!» . في نظر الجمهور، سيبدو الأمر كأن عبداً غير مخدَّر زُجَّ به خلسةً إلى الحلبة لقتل ولي عهد البارونية، وستشير كل الأدلة -التي رُتبت بعناية- إلى القهرمان، القيِّم على العبيد . أصدرت محرَّكات الباب الأحمر صريراً منخفضاً مع تجهيزها لفتحه .

صبَّ فيد راوثا كل تركيزه على الباب . اللحظة الأولى هي الحاسمة دائماً، فمظهر المصارع عند خروجه يخبر العين المدربة بالكثير ممَّا تحتاج إلى معرفته . من المفترض أن جميع المصارعين يتعاطون جرعة عالية من عقار الإلاكة قسراً ليخرجوا مستعدين للقتل، لكن عليك أن تراقب الطريقة التي يحملون السكِّين بها، وإلى أيِّ اتِّجاهٍ ينتكسون في الدفاع، وإذا ما كانوا مدرِّكين لوجود الجمهور في المدرِّجات أم لا . حتَّى الطريقة التي يميلُّ بها العبد رأسه يمكن أن تعطيك دليلاً مهمًّا عن أساليبه في التصدِّي والهجوم الخادع .

انفتح الباب الأحمر بقوة .

ومنه خرج رجلٌ فارغ القامة مفتول العضلات برأس حليق وعينين داكنتين غائرتين . كان جلده بلون الجزر كما هو مُفترض نتيجةً لتعاطي عقار الإلاكة، لكن فيد راوثا كان يعلم أن اللون مجردٌ طلاء . كان العبد يرتدي زياً أخضر ضيقاً ويتمنطق بحزام أحمر لدرع نصفي . كان سهم الحزام يشير إلى اليسار ليدلَّ على أن جانب العبد الأيسر هو الجانب المحمي، وكان العبد يقف وقفة المقاتلين المتمرِّسين حاملاً سكِّينه كما يُحمل السيف، بميل طفيف إلى الخارج . ببطء، تقدَّم الرجل إلى مركز الحلبة، مُصدِّراً

جانبه المحمي إلى فيد راوثا وإلى مجموعة مرافقيه الواقفة عند باب الطوارئ الإشعاعي.

قال أحد رجال فيد راوثا حاملين الأسياخ: «لا تعجبني مظهر هذا الرجل، هل أنت واثق بأنه مخدّر يا سيّدي؟».

قال فيد راوثا: «لونه يشير إلى ذلك».

قال معاون آخر: «لكنه يقف وقفة المقاتلين».

تقدّم فيد راوثا خطوتين فوق الرمال، متفحصاً هذا العبد.

سأل أحد مشتتي الانتباه: «ماذا فعل بذراعه؟».

انتقل انتباه فيد راوثا إلى الجرح الدامي على ذراع الرجل اليسرى، وتتبع الذراع ببصره نزولاً إلى يده التي كان يشير بها إلى الشعار المبلّل المرسوم بالدم على فخذ زيّه الأخضر الأيسر، ورأى رمز صقرٍ رُسم كيفما اتفق.

صقرا

رفع فيد راوثا بصره إلى العينين الداكنتين الغائرتين، ورأى أنهما تنظران إليه شزراً وفيهما يقظة غير معتادة.

هذا ليس مصارعاً عادياً! هذا أحد رجال الدوق ليتو الذين أسرناهم على أراكس! هكذا فكّر فيد راوثا. سرت رعدة في جسده، وتساءل إن كان حواط دبر خطّة أخرى لهذه الحيلة: مكرٌ محبوبٌ في مكرٍ محبوبٍ في مكرٍ، ولا أحد سيتلقّى اللوم غير القيّم على العبيد!

مال كبير معاوني فيد راوثا إلى أذنه وقال: «لا تعجبني نظرة هذا المصارع يا سيّدي. دعني أغرز يده التي يحمل بها السكّين بشوكة أو اثنتين لأختبره أولاً».

قال فيد راوثا: «سأعزز فيه الشوكات بنفسي». ثم أخذ زوجين من القضبان الخطافية الطويلة من المعاون، ورفعها في يده، مختبراً توازنهما. في العادة تكون أطراف هذه الأشواك مغموسة في المخدر، لكنها لم تكن كذلك هذه المرة، ومن الممكن أن يلقي كبير المعاونين حتفه بسبب هذا، لكن الأمر برمته كان جزءاً من الخطّة.

حوّاط قال: «ستخرج من الحلبة بطلاً مظفّراً، قتلت مصارعك رجالاً لرجل على الرغم من الخيانة الفادرة. سيُنَفَّذ في مسؤول العبيد حكم الإعدام، وسيحلّ رجلك محلّه».

تقدّم فيد راوثا بضع خطوات أخرى نحو مركز الحلبة، مُطِلاً اللحظة، متدبّراً العبد. كان يعلم أن الخبراء بين الجمهور الجالس في المدرجات فوقه أدركوا أن في الأمر خطباً. كان لون بشرة المصارع يشير إلى أنه مُخدر، إلّا أنه ثابت لا يرتجف. لا بُدّ أن الهواة يتهامسون الآن في ما بينهم: «انظروا إلى وقفته. من المفترض أن يكون مهتاجاً، أن يهاجم أو يتراجع. انظروا كيف يستجمع قوّته، ويقف منتظراً، ليس من المفترض أن ينتظر هكذا».

شعر فيد راوثا بجذوة الحماسة تتقدّ فيه، وفكّر: لا يهمني إن كانت الخيانة في تفكير حوّاط، بإمكانني التعامل مع هذا العبد. السُّم موضوع على نصل سكينتي الطويلة هذه المرة، لا القصيرة. حتّى حوّاط لا يعلم ذلك.

- «هاي! يا سليل الهراكنة. هل أنت مستعد للموت؟».

سيطر سكونٌ مميت على الساحة. العبيد لا يبادرون بالتحدي! الآن، رأى فيد راوثا عيني المصارع بوضوح، وشاهد فيهما

شراسة اليأس الباردة. لاحظ وقفة الرجل المُستخفّة المستعدّة في الوقت ذاته، وعضلاته المتأهّبة للانتصار. الكلام المتداول بين العبيد أوصل رسالة حوَّاط إلى هذا المصارع: «ستتاح لك فرصة حقيقية لقتل ولي العهد». هذا الجزء من الخطّة إذا تم كما خطّطا له.

ارتسمت ابتسامة حازمة على فم فيد راوثا، ورفع الشوكتين، معانيًا نجاح خطته في الطريقة التي يقف بها المصارع. تحدّاه المصارع: «هاي هاي!»، وتراجع خطوتين إلى الخلف. فكّر فيد راوثا: لم يعد أحدٌ في المدرّجات غير مدرك للأمر الآن.

كان من المفترض أن يشلّ الهلع الناجم عن المخدّر هذا العبد جزئيًا. كان من المفترض أن تفضح كل حركة صادرة عنه يقينه بأنه بلا أمل، بأنه خاسر لا محالة. كان من المفترض أن يكون رأسه مملوءًا بقصص السُموم التي يختار ولي العهد وضعها على النصل في يده ذات القفّاز الأبيض. ولي العهد الذي لا يسمح لخصومه بميتة سريعة، والذي يتفنّن في استعراض سمومه النادرة، ويقف وسط الحلبة يشرح آثارها البادية على الضحية المتلوّية ألما. نعم، الخوف ظاهر على هذا العبد، لكنه ليس هلعًا.

رفع فيد راوثا شوكتيه عاليًا، وأوماً في شبه تحية. وهنا انقضّ المصارع.

كانت حركاته الهجومية وردود أفعاله الدفاعية أفضل من أيّ شيءٍ رآه فيد راوثا، وكادت ضربة جانبية مضبوطة الميقات أن تقطع أوتار ساق ولي عهد البارونية اليسرى.

راوغ فيد راوثا مبتعداً بخطواتٍ راقصة، بعد أن غرز قضيباً شائكاً في ساعد العبد الأيمن. اندفن الخطّافان بالكامل في اللحم في موضعٍ لا يستطيع الرجل إخراجهما منه دون تمزيق أوتاره.

ارتفعت شهقة جماعية من المدرّجات.

ملاً الصّوت صدر فيد راوثا حُبوراً.

أدرك الآن شعور عمّه الجالس إلى جوار الكونت فنرينج وزوجته، المراقبين من البلاط الملكي. لا يجوز التدخّل في القتال بأيّ حال، إذ لا بُدّ من الالتزام بالأعراف أمام الشهود. لن يرى البارون ما يجري في الحلبة إلّا بطريقة واحدة، بأنه تهديدٌ شخصي مباشر له.

تراجع العبد، ممسكاً السكّين بين أسنانه، وربطاً القضيب الشائك في ذراعه بالشريط الأزرق المتدلّي منه، ثم صاح: «لا أشعر بإبرتك!». ثم عاد وتقدّم إلى الأمام، شاهراً سكّينه، مُصدّراً لخصمه جانبه الأيسر، ماثلاً بجسده إلى الخلف ليستفيد بأكبر قدر من حماية الدرع النصفى.

لم يفضل الجالسون في المدرّجات عن هذا التصرّف. اندلعت صيحات حادة من المقصورات العائلية، ونادى معاونو فيد راوثا سائلين إن كان في حاجة إليهم.

لكنه أشار إليهم بالتراجع إلى باب الطوارئ.

فكّر فيد راوثا: سأقدّم لهم عرضاً لم يروا مثله من قبل. لن تكون قتلته سهلة يمكنهم الاسترخاء والاستمتاع بأسلوبها، بل ستكون شيئاً صادمًا ثقيل الوطاء يلقي الرعب في نفوسهم.

وعندما سأصير البارون سيتذكرون هذا اليوم، ولن يستطيع أحد
 ألا يخشاني بسبب هذا اليوم.

تراجع فيد راوثا أمام تقدُّم المصارع الذي يشبه السلطعون
 في حركته. انسحقت الرمال تحت قدمي فيد راوثا، وسمع لهاث
 العبد، وشم رائحة عرقه ورائحة الدم الخافضة في الهواء.

واصل ولي العهد تراجعهُ بثبات، وانحرف إلى اليمين مشهوراً
 شوكته الثانية. تراقص العبد في حركة جانبية، وبدا للحظة أن
 فيد راوثا يتعثّر، فدوت صرخة من المدرجات.

انقضَّ العبد مرّةً أخرى.

فكر راوثا وهو يقفز مراوئياً: بحق الآلهة، يا له من مقاتل!
 لم تتقدّه سوى سرعة الشباب، وترك الشوكة الثانية مغروزة في
 عضلة كتف العبد اليمنى.

ضجَّ الجمهور بالهتاف.

فكّر فيد راوثا: إنهم يهتفون لي الآن. سمع الإثارة المحتمدة
 في الأصوات كما توقَّع حوَّاط بالضبط. لم يسبق للجمهور أن
 هتف لمقاتل من العائلة بهذه الحماسة. فكّر فيد بشيء من
 الأسى في أمرٍ قاله له حوَّاط: «من الأسهل أن يخاف المرء من
 عدوِّ يحترمه».

برشاقة، تراجع فيد راوثا إلى منتصف الحلبة ليراه الجميع
 بوضوح. سحب نصله الطويل، وربض أرضاً منتظراً تقدُّم العبد.

وقف الرجل برهة ليربط الشوكة الثانية بإحكام على ذراعه،
 وأسرع في سعيه.

فكّر فيد راوثا: فلتشهد العائلة ما أفعله. إنني عدوُّ لهم،
 ليفكروا في دائماً كما يرونني الآن.

ثم سحب نصله القصير.

قال المصارع: «أنا لا أهابك يا خنزير الهراكنة. تعذيبك لن يفلح في إيلاام رجلٍ ميت بالفعل. سأطعن نفسي بنصلي قبل أن يمسنني أحد معاونيك، لكنك ستكون مقتولاً إلى جوارى قبلها».

ابتسم فيد راوثا ورفع نصله الطويل، النصل المسموم، وقال: «ذُق هذا»، وراوغ مخادعاً بالنصل القصير في يده الأخرى.

نقل العبد سكّينه إلى يده الأخرى، وراوغ بمهارة متفادياً حركات خصمه الدفاعية والهجومية، متصدّياً لنصل ولي العهد القصير، النصل القابع في اليد بيضاء القفّاز الذي ينصُّ العرف أن يكون النصل المسموم.

قال المصارع لاهتأ: «ستموت يا سليل الهراكنة».

تصارع الرجلان على الرمال جنباً في جنب، وحيث التقى درع فيد راوثا بدرع العبد النصفي تألّق وميضٌ أزرق. امتلأ الهواء من حولهما بالأوزون بسبب مجال الطاقة.

صرَّ العبد على أسنانه قائلاً: «مُت بسُمِّك!».

وبدأ يدفع اليد ذات القفّاز الأبيض إلى الداخل، موجّهاً النصل الذي يظن أنه المسموم إلى صدر غريمه.

فكّر فيد راوثا: ليشهدوا هذا! ونزل بالنصل الطويل على العبد، وشعر به يصطدم بالقضيب الشائك المربوط في ذراع العبد.

مرّت لحظة شعر فيها فيد راوثا باليأس، فلم يكن يتوقّع أن القضيبين الشائكين سيعطيان العبد أفضلية، لكنهما منحاه درعاً إضافية. ما أقوى هذا المصارع! ها هو النصل القصير يدفع نحو صدره بلا هوادة، وهنا أدرك فيد راوثا أن المرء يمكن أن يموت بنصلٍ غير مسموم.

لفظ فيد راوثا لاهثًا: «حثة!».

أطاعت عضلات المصارع الكلمة المنطوقة واكتنفها استرخاءً لحظي. كان هذا كافيًا لفيد راوثا، الذي ابتعد عنه مسافة تكفي لمدّ النصل الطويل، وفُتح جرح أحمر به على صدر العبد. كان ألم السُّم فوراً، وأجبر الرجل على فضّ اشتباكه بفيد، وترنّح متراجعاً إلى الخلف.

فكّر فيد راوثا: فلتشهد عائلتي العزيزة الأمر. فيتأملوا هذا العبد الذي حاول أن يدير نصل السُّكّين الذي ظن أنه مسموم ويستخدمه ضدي، وليتساءلوا كيف يمكن أن يأتي المصارع إلى هذه الساحة مستعداً لمحاولة اعتداء كهذي، وليعوا دائماً أنهم لن يعرفوا أبداً في أيّ يدٍ أحمل السُّم.

وقف فيد راوثا في سكون يراقب حركة العبد المتباطئة. كان الرجل يتحرّك بوعي متردّد، وعلى وجهه تعبيرٌ مقروء يسهل على كل مشاهد فهمه بوضوح. كان الموت مكتوباً على جبينه. أدرك العبد حقيقة ما لحق به، وكيف لحق به. السُّم كان على النصل الخطأ.

أنّ الرجل: «أنت!».

تراجع فيد راوثا ليفسح للموت مجاله المستحق. لم تبدأ مادة السُّم المسبّبة للشلل مفعولها الكامل بعد، لكن بطء الرجل دلّ على أنها تنتشر.

ترنّح العبد إلى الأمام كما لو كان معلقاً بخيط، مجرّجراً قدميه الخطوة تلو الأخرى. وفي ذهنه المُشوَّش، بدت كل خطوة كأنها عالمٌ قائمٌ بذاته. كان لا يزال ممسكاً بسكّينه، لكن طرفها كان يرتجف.

شهق قائلاً: «يومًا ما ... سينال ... منك ... أهدنا».

التوى فمه في عبوس حزين، وجثا في تهدل، ثم تصلب جسده وسقط متدحرجًا بعيدًا عن فيد راوثا، وانتهى بوجهه متمرغًا في الرمال.

تقدم فيد راوثا وسط الحلبة الساكنة، ودس إصبع قدمه تحت المصارع وقلبه على ظهره ليرى الجمهور بوضوح اعتمال السُم في جسده، وما يحدثه من التواء وتشنُّج في عضلاته. لكن حين انقلب جسد المصارع كشف عن مقبض سكينه البارز من صدره. على الرغم من إحباطه، أحس فيد راوثا بقدر من الإعجاب بالجهد الذي بذله هذا العبد للتغلب على الشلل وفعل هذا بنفسه. ومع الإعجاب انتابه شعورٌ بأن ما يراه هنا أمرٌ يبعث حتمًا على الخوف. هذا ما يجعل الجبارين مرعبين. وبينما كان غارقًا في فكرته، لاحظ فيد راوثا الصخب الذي عمّ الجمهور في المدرجات والمنصات من حوله. كانوا يهتفون في حماسةٍ مفرطة. استدار فيد راوثا، ورفع بصره إليهم.

كان الجميع يهتف، باستثناء البارون الذي جلس ساندًا ذقنه على يده بملامحه تشيع فيها أمارات التفكير العميق. وكذلك الكونت وزوجته، اللذان كانا يحملقان إليه بوجهين مبتسمين. التفت الكونت فنرينج إلى زوجته قائلاً: «اهمممم، إنه شاب.. اممممم.. واسع الحيلة، أليس كذلك.. مممما.. يا عزيزتي؟».

قالت: «استجاباته العصبية.. آاه.. سريعة جدًا».

نظر البارون إليها، وإلى الكونت، ثم عاد وركّز انتباهه على الحلبة مفكرًا: كيف استطاع أحدهم الاقتراب إلى هذا الحد من واحد منّا! ثم حل غضبٌ عارمٌ محل خوفه. سأم بشوي القيم

على العبيد على نارٍ هادئة الليلة.. وإذا كان هذا الكونت وزوجته ضالعين في الأمر فسوف...

من منظور فيد راوثا، بدا الحوار الدائر في مقصورة البارون كحلم بعيد تطفئ عليه الهتافات ودبيب الأقدام الذي يأتيه من كل اتجاه.
- «الرأس! الرأس! الرأس! الرأس».

اكفهر وجه البارون وهو يرى الطريقة التي التفت بها فيد راوثا نحوه. تحكّم البارون في غضبه بصعوبة، وعلى مضض، ولوّح بيده إلى الشاب الواقف في الحلبة إلى جوار جسد العبد المتمدّد. يستحقّ الفلام أن ينال رأس خصمه بعد أن فضح القيم على العبيد.

رأى فيد راوثا إشارة الموافقة، ففكّر: يظنّون أنهم يكرّمونني. دعهم يرون ما أعتقد أنا!

رأى معاونيه يقتربون حاملين منشارًا لينالوا هذا الشرف، فأشار لهم بالتراجع، وكرّر الحركة حين رأى تردّدهم، وفكّر: يظنّون أنهم يكرّمونني بإهدائي الرأس! ثم انحنى وعقد يدي المصارع على مقبض السكّين البارز من صدره، ثم انتزع السكّين ووضعها في اليدين المرتخيتين.

فعل ذلك في لحظة خاطفة، ثم نهض وأشار إلى معاونيه قائلاً: «ادفنوا هذا العبد وجسده سليم وسكّينه بين يديه. لقد استحقّ هذا الشرف».

في المقصورة الذهبية، مال الكونت فنرينج على البارون وقال: «لفتة طيّبة تدلّ على براعة حقيقية. يتمنّع ابن أخيك بالفتنة، فضلاً عن الشجاعة».

غمغم البارون: «لقد أهان الجمهور برفضه قبول الرأس».

قالت الليدي فنرينج: «كلّا، على الإطلاق»، ثم استدارت ناظرةً إلى المدرّجات المحيطة بهم.

لاحظ البارون جيدها الطويل المغري غَضَّ العضلات الشبيه بجيود الفلمان.

قالت: «لقد أعجبهم ما فعله ابن أخيك».

لاحظ البارون تأثير إشارة فيد راوثا على الجالسين في المقاعد الأبعد، وراقب نظرات الجمهور وهي تتبّع معاونين الذين حملوا جثّة المصارع الصريع دون المساس بها، وأدرك أنها فسّرت رد فعلهم بشكل صحيح.

اندلعت حماسة الجمهور، وراح يلكز بعضهم بعضاً، وهم يصرخون ويضربون الأرض بأقدامهم.

قال البارون في ضجر: «سأضطر إلى إصدار أمر بإقامة مهرجان مفتوح، فلا يمكن أن يعود الناس إلى بيوتهم في هذه الحالة من دون تفريغ طاقتهم. يجب أن يروا أنني أشاركهم ابتهاجهم». أشار بيده إلى حارسه، فخفض أحد الخدم الواقفين فوقهم راية الهراكنة البرتقالية مرّة، واثنين، وثلاث، في إشارة إلى إقامة مهرجان.

قطع فيد راوثا الحلبة ووقف أسفل المقصورة الذهبية، نصلاه في غمدهما، وذراعا مرتحيان على جانبيه. رفع صوته ليطنى على جنون الحشد الذي لا يهدأ صائحاً: «مهرجان يا عمّي؟».

بدأ الصخب يهدأ لمّا سمع الناس المحادثة، ومكثوا منتظرين. قال البارون: «على شرفك يا فيد!». ومرّة أخرى أشار للخادم كي يخفض الراية.

أُزيلت حواجز الطوارئ الإشعاعية من حول الحلبة، وبدأ بعض الشُّبَّان يثبُّون إليها، مندفعين نحو فيد راوثا.

سأل الكونت: «هل أمرت بإزالة حواجز الطوارئ أيُّها البارون؟».

قال البارون: «لن يُصاب الغلام بأذى، إنه بطل».

وصل الحشد المندفع إلى فيد راوثا، ورفعوه على أكتافهم، وبدؤوا يطوفون به في أنحاء الحلبة.

قال البارون: «بإمكانه السير بلا سلاح أو حماية عبر أفقر أحياء هاركو الليلة. سيقدِّمون له آخر ما لديهم من طعام وشراب طمعاً في مجالسته فحسب».

دفع البارون نفسه ناهضاً عن كرسيه، فاستقر وزنه على مضادات الجاذبية، ثم قال: «أرجو أن تعذراني، فثمَّة أمور عاجلة يجب أن أباشرها بنفسي. سيرافقكما الحرس إلى الحصن».

نهض الكونت وانحنى قائلاً: «بالتأكيد أيُّها البارون. نتطلَّع لحضور المهرجان، فلم.. همممم.. تسبق لي رؤية مهرجان هاركونتي».

قال البارون: «صحيح، المهرجان». ثم استدار، وأحاطه الحرس وهو يخطو عبر مخرج المقصورة الخاص.

انحنى أحد قادة حرس الكونت فترينج وقال: «أوامرك يا سيدي؟».

قال الكونت: «سننتظر.. آم.. إلى أن يهدأ الزحام قليلاً».

- «أمرك يا سيدي». قالها الرجل وانحنى متراجعاً ثلاث خطوات إلى الخلف.

واجه الكونت فترينج زوجته، وهمهم إليها مجدداً بلغتهما السريَّة: «بالتأكيد فهمت ما جرى؟».

- همهمت بذات اللغة: «كان الفتى على علم بأن المصارع لن يكون مخدراً. نعم مرّ بلحظة خوف، لكنه لم يتفاجأ».
- قال: «العرض برمته كان مدبراً».
- «بلا شك».
- «أشم رائحة حوَّاط في الأمر».
- قالت: «قطعاً».
- «طالبت البارون قبل قليل بالتخلُّص من حوَّاط».
- «كان ذلك تصرُّفاً خاطئاً يا عزيزي».
- «أدركت ذلك الآن».
- «قد يحظى الهراكنة ببارون جديد قريباً».
- «إن كانت هذه خطّة حوَّاط».
- قالت: «يجب التحقيق في هذا الأمر».
- «الشاب سيكون أسهل انقياداً وأكثر قابلية للسيطرة».
- قالت: «سيكون طوع بناننا.. بعد الليلة».
- «ألا تتوقَّعين مواجهة صعوبة في إغوائه، أيا صغيرتي مازجة السلالات؟».
- «كلّاً يا حبيبي. لقد رأيت بنفسك كيف كان ينظر إليّ».
- «أجل، وفهمت الآن لم يجدد بنا حياة هذه السلالة».
- «بالتأكيد، ومن الواضح أنه ينبغي لنا أن نسيطر عليه. سأزرع في أعماق أعماق نفسه عبارات الهرانا بيندو اللازمة لإخضاعه».
- قال: «سنغادر في أقرب وقت ممكن، بمجرد أن نطمئني من إتمام الأمر».
- هزّت كتفيها: «بلا ريب، فأنا لا أرغب في إنجاب طفل في هذا المكان الشنيع».
- قال: «يا للأمور التي نفعلها من أجل البشرية».

قالت: «أنت تؤدي الدور السهل».

قال: «لا تنسي مشاعر الغيرة العتيقة التي عليّ التغلب عليها، إنها غريزية كما تعلمين».

قالت وهي تداعب وجنته: «يا عزيزي المسكين. أنت تعلم أن هذه هي الطريقة الوحيدة لضمان الحفاظ على هذه السلالة».

قال بنبرة جافة: «أنا متفهمٌ تمامًا لما نفعله».

قالت: «لن نفشل».

ذكرها قائلاً: «الشعور بالذنب يبدأ كشعور بالفشل».

قالت: «لن يكون هناك شعورٌ بالذنب، بمجرد ربط عقل هذا المدعو فيد راوثة برباطٍ تنويمي، سيكون طفله في رحمي، ثم سنرحل».

قال: «وعمُّه هذا، هل رأيت مثل هذا المسخ المشوَّه من قبل؟».

قالت: «إنه شرس تمامًا. لكن ابن أخيه قد يكبر ويصبح أسوأ منه».

- «بسبب هذا العمِّ. أتعجب كيف كان سيكون هذا الصبي لو نشأ نشأة أخرى، لو ترعرع في ظلِّ أعراف آل آترديز مثلاً».

قالت: «للأسف».

- «ليت كان بإمكاننا إنقاذ الفتى الآتريديزي وهذا الفتى. سمعت أن پول فتى يباري الشمس، اجتمع فيه كمال الصفات وحُسن التدريب»، ثم هزَّ رأسه: «لكن يجب ألا نهدر أسفنا على سوء حظ النبلاء».

قالت: «ثمّة مقولة للبنّي جيسيرت تقول...».

قاطعها معترضاً: «لديكن مقولات لكل شيء!».

قالت: «ستحب هذه المقولة: لا تحسبنَّ الشخص ميئاً حتّى ترى جنته، وحتّى وقتها قد تكون مخطئاً».

يخبرنا المؤدّب في كتاب «وقتٌ للتأمل» أن اصطداماته الأولى بضرورات الحياة على أراكس كانت البداية الحقيقية لتعلّمه. عندها تعلّم كيف يقرأ الرمال للتنبؤ بالطقس، وتعلّم لغة الرياح التي تلسع بشرته كوخز الإبر، وعرف كيف تطنّ الأنف بخنف حين تسبّب لها الرمال حكة، وكيف يحافظ على رطوبة جسده الثمينة. وعندما اتّخذت عيناه زُرقة أعين العباد، تعلّم نهج تشاكويسا. من مقدّمة ستيلجار لكتاب «المؤدّب: الإنسان» للأميرة إيrolان.

في ضوء القمر الأوّل الآخذ في الانحسار، خرجت مجموعة ستيلجار من الحوض الصحراوي في طريق عودتها إلى السييتش بصحبة الشريدين. هرول ذوو الأردية مسرعين الخُطى ورائحة الديار تملأ أنوفهم. كان خيط الفجر الأبيض خلفهم قد تبيّن أشد ما تبيّن عند نقطة تشير في تقويمهم الأفقي إلى انتصاف فصل الخريف، وبداية شهر كابروك.

تكدّست أوراق النباتات الذابلة التي تجرفها الرياح عند سفح الجرف حيث اعتاد أطفال السييتش تجميعها، لكن لم يكن من الممكن تمييز صوت مرور الجماعة عن أصوات الليل الطبيعية (باستثناء تلك الهفوات العارضة التي كان يرتكبها پول وأُمّه). مسح پول عرقاً معجوناً بالغبار عن جبينه، وشعر بشخص يجذبه من ذراعه، وسمع صوت تشاني بهمس: «افعل ما قلته لك: أنزل طيّة قلنسوتك وغطّ بها جبهتك، ولا تكشف إلاّ عينيك! أنت تهدر الرطوبة هكذا».

جاءهما أمرٌ هامس من خلفهما يطالبهما بالصَّمت: «الصَّحراء تسمعكما!».

زقزق طائرٌ من الصخور أعلاهم.
توقَّفت الجماعة، وشعر پول بتوتُّرٍ مفاجئ.
ثم جاء صوتٌ خافت من بين الصخور، صوتٌ لا يعلو عن
صوت الفئران القافزة في الرمال.
زقزق الطائر مجددًا.

سرى اضطراب بين صفوف الجماعة، ومجددًا، جاءهم وقع
الخطوات الفأريَّة عبر الرمال، ثم زقزق الطائر مرَّةً أخرى.
استأنفت الجماعة تسلُّقها عبر أحد الشقوق في الصخور،
ولكن صمت الفرمن المطبق وحبسهم أنفاسهم ملأ پول بالحذر.
لاحظ استرقاقهم النظر إلى تشاني، التي بدت منزوية ومنطوية
على نفسها.

كانوا يسرون فوق أرض صخرية الآن، يُلْفهم حفيف ثيابهم
الخافت، وشعر پول بأنهم تحفُّفوا من انضباطهم إلى حدٍّ ما،
لكن الهدوء ظلَّ باديًا على تشاني والآخرين. كان يتبع تحرُّكات
واحد منهم يسير أمامه كظلٍّ شبحيٍّ عبر درجات صاعدة، تبعها
انعطافة، ثم مزيدٌ من الدرجات، وإلى داخل نفق، مرورًا ببايين
عازلين للرطوبة، حتَّى وصلوا إلى ممرٍّ جدرانُه ضيّقة وسقفُه
أصفر تضيئه كرات الإنارة.

رأى پول الفرمن في كل مكانٍ من حوله يلقون بقلنسواتهم
على ظهورهم، وينزعون سدَّادات أنوفهم، ويتنفَّسون بعمق. تنهَّد
أحدهم. نظر پول إلى تشاني، فوجد أنها غادرت جانبه. كان
مطوِّقًا بلفيفٍ من الأجساد المتدثِّرة، ودفعه أحدهم وهو يقول:

«معدرة يا أصول! فيا له من زحام! هكذا الأمر دائماً».

إلى يساره، استدار الوجه ذو اللحية لصحابه المدعو فاروق نحو پول، وفي ضوء كرات الإنارة الأصفر، بدا السواد حول محجري عينيه الغائرتين أشد قتامة، وبدت زُرقة عينيه أشد حُلَكة. قال فاروق: «اخلع قلنسوتك يا أصول، إنك في الديار». ثم ساعد پول في فكّ رباط القلنسوة، مخلياً مساحة من حوله بكوعيه.

نزع پول سدّادتي الأنف، وأزاح كمّامة الفم جانباً، فداهمه خليط روائح المكان: الأجساد غير النظيفة، وُصْنان تقطير الإفرازات البشرية. كان المكان معبّئاً بالروائح البشرية الكريهة، وفوق كل ذلك، أريج الاسپايس ومشتقّاته.

سأل پول: «ماذا ننتظر يا فاروق؟».

- «الأمّ الموقرة على ما أظن. لقد سمعت الرسالة بنفسك، مسكينة تشاني».

مسكينة تشاني؟ هكذا سأل پول نفسه. ثم أجال بصره في أرجاء المكان، متسائلاً عن مكانها، ومكان أمّه وسط كل هذا الزحام.

أخذ فاروق نفساً عميقاً، ثم قال: «روائح الوطن».

لاحظ پول أن الرجل مستمتعّ بنبانة هواء هذا المكان بالفعل، إذ لم يكن في نبرته أثر سخرية، ثم سمع سعال أمّه، وجاءه صوتها عبر أجسام أفراد الجماعة المتلاصقة: «لسييتشك روائح قويّة جداً يا ستيلجار، وأرى أنك تُدخل الاسپايس في صناعات كثيرة منها الورق، والبلاستيك، و... أليست هذه متفجّرات كيميائية؟».

- «أعرفت كل هذا من خلال الشّم؟». كان هذا صوت رجلٍ

آخر.

أدرك پول أنها تتحدث لمصلحته، وأنها تريد أن يتجاوز سريعاً هذه الهجمة الآسنة على أنفه ويتقبلها.

ثم استشعر حركة في مقدمة الجماعة، وسمع شهقة طويلة تسري عبر جماعة الفرمن، وسمع همساً خافت آتٍ من نهاية الصف يقول: «الأمر صحيحٌ إذاً. لييت مات».

فكّر پول: لييت، ثم فهم: تشاني، إنها ابنة لييت!

ربط عقل پول الخيوط بعضها ببعض. لييت هو الاسم الذي يُعرف به عالم البيئات الكوكبية بين الفرمن.

التفت پول خلفه إلى فاروق وسأله: «هل المقصود هو لييت المعروف أيضاً باسم كينز؟».

قال فاروق: «لا يوجد سوى لييت واحد».

عاد پول وحدّق إلى ظهر الفرمني الواقف أمامه، وفكّر: إذا لييت كاييز مات.

همس أحدهم: «كانت مكيدة هاركونية. دبّروا ميته كي تبدو كحادثة. ضاع في الصّحراء... وتحطّمت ثويتره...».

شعر پول بنوبة من الغضب تعتريه. الرجل الذي صادقهم، الرجل الذي ساعد في إنقاذهم من صيّادي الهراكنة، الرجل الذي أرسل جماعته من الفرمن للبحث عنهما في الصّحراء... ها هو قد صار ضحية أخرى من ضحايا الهراكنة.

سأل فاروق: «هل أصول متعطّشٌ بعد إلى الانتقام؟».

قبل أن يجيب پول، صدرت صيحة نداءٍ خافتة اندفع على إثرها أفراد الجماعة إلى غرفة أوسع دافعين پول معهم. وجد نفسه في مكان واسع أمام ستيلجار وامرأة غريبة ترتدي ثوباً فضفاضاً مسترسلاً زاهي اللونين الأخضر والبرتقالي. كانت

ذراعاها عاريتين إلى كتفيها، ورأى أنها لا ترتدي بذلة تقطير.
كانت بشرتها زيتونية فاتحة، وشعرها الأسود مشدوداً إلى الخلف
كاشفاً عن جبين عريض، مبرزاً عظام وجنتيها الحادة وأنفها
المعقوف ودُجنة عينيها الدامسة.

استدارت نحوه، فرأى پول قرطين ذهبيين يتدلّيان من أذنيها
علقت فيهما حلقات مائية عدة.

سألت المرأة: «هذا من صرع زوجي چيميس؟».

قال ستيلجار: «صمتاً يا حارة*، چيميس من جنى على نفسه
وطالب الاحتكام إلى تحدّي البرهان».

قالت: «إنه مجرد صبي!»، وهزّت رأسها بحدة من جانب
إلى آخر، فجلجلت الحلقات المائية: «يُثم طفلاي على يد طفلٍ
مثلهما؟ قطعاً كانت حادثة عارضة!».

سأل ستيلجار: «أصول، ما سنك؟».

قال پول: «خمس عشرة سنة بالتقويم القياسي الموحد».

أدار ستيلجار عينيه في أفراد الجماعة، وقال: «هل من بينكم
من يرغب في منازلتي؟».

أجابه الصمت.

نظر ستيلجار إلى المرأة وقال: «وأنا لا أجرؤ على تحدّيه إلى
أن أتعلّم أسلوبه الخوارقي في القتال».

بادلته التحديق وقالت: «لكن....».

قاطعها سائلاً: «هل رأيت المرأة الغريبة التي ذهبت مع
تشانى إلى الأمّ الموقرة؟ إنها سيّادينا من الآوتفرين، وهي أمّ هذا
الصبيّ. الأمّ وابنها راسخان في أساليب القتال الخوارقية».

همست المرأة: «لسان الغيب»، وحين عادت تنظر إلى پول،

بدت في عينيها رهبة وإجلال.

فَكَرَّ بُول: ها هو أثر الأسطورة مجدداً.

قال ستيلجار: «رُبَّما، لكن ذلك لم يُختبر بعد»، ثم أعاد انتباهه إلى بُول، وقال: «أصول، عاداتنا تلزمك بأن تتحمَّل مسؤولية امرأة جيميس وولديه. اليالي الذي يؤويه -أي مسكنه- صار يالك، وكذلك أدواته لتحضير القهوة. كما صارت امرأته لك».

تأمل بُول المرأة، وتساءل: لِمَ ليست حزينه على زوجها؟ لِمَ لا تبدي أي كراهية لي؟ لكنه انتبه فجأة أن الفرمن يحدِّقون إليه، منتظرين.

همس أحد الأشخاص: «أمامنا أعمال يجب إنجازها. قل بأي صفة ستقبلها».

قال ستيلجار: «أقبل حارة زوجة أم خادمة؟».

رفعت حارة ذراعها، ودارت على عقبيها ببطء: «ما زلت شابة يا أصول. يقولون إنني ما زلت أبدو يافعة مثلما كنت مع جيف، قبل أن يصصره جيميس».

فَكَرَّ بُول: جيميس قتل رجلاً آخر كي يحظى بها.

قال بُول: «أقبلها خادمة، هل لي أن أغيِّر رأيي في وقت لاحق؟».

قال ستيلجار: «أمامك عامٌ لتغيير قرارك، بعده تصير امرأة حرة تختار ما تريده، أو بإمكانك إعتاقها لتختار لنفسها في أي وقت. لكنها في جميع الأحوال صارت مسؤوليتك لمدة عام، وستظل على الدوام تشاركها جزءاً من مسؤولية ولدي جيميس».

قال بُول: «إذا أقبلها خادمة».

ضربت حارة الأرض بقدمها، وهزَّت كتفيها في غضب: «لكنني شابة!».

رمق ستيلجار پول وقال: «الحذر صفة تُحترم فيمن كُتبت عليه القيادة».

كرّرت حارّة: «لكنني شابة!».

أمرها ستيلجار: «صمًا يا حارّة، إن كان في الأمر خير فسيكون. اصطحبي أصول إلى مسكنه، وتأكّدي من توفير ملابس نظيفة له، ومكان ليرتاح فيه».

نفخت متذمّرة: «أف!».

رأى پول ما يكفي منها لتكوين رأي أوّلي عنها. كان يشعر بنضاد صبر أفراد الجماعة، ويعلم أن أمورًا كثيرة متعطّلة هنا بسبب هذه المرأة. تساءل عمّا إن كان يجوز له السؤال عن مكان والدته وتشاني، لكنه رأى من وقفة ستيلجار العصبية أن هذا سيكون خطأً.

واجه حارّة، وضخّ في صوته نبرة ترجيف ليزيد من خوفها ورهبتها، وقال: «أريني مسكني يا حارّة! سنناقش مسألة شبابك في وقت آخر».

تراجعت خطوتين إلى الخلف، ونظرت بخوف إلى ستيلجار، وقالت بصوتٍ مبحوح: «إنه يتكلّم بالصّوت الخوارقي».

قال پول: «ستيلجار، لقد ألقى والد تشاني التزامًا ثقیلاً على عاتقي، لذا إن كان بمقدوري فعل أيّ شيء...».

قال ستيلجار: «سيتمرّر هذا في المجلس. يمكنك التحدّث حينها». ثم أوماً بالانصراف، واستدار مبتعداً وتبعته المجموعة. أمسك پول ذراع حارّة، واستشعر مدى برودة بشرتها، وأحسّ برجفتها، فقال: «لن أذكّيك يا حارّة. هيّا، أريني مسكننا». وأرخی نبرة صوته ليمتصّ توتّرهما.

قالت: «ألن تطردني عندما يمرُّ العام؟ أعلم أنني لم أعد شابةً مثلما كنت».

قال: «سيظلُّ لك مكان إلى جوارِي ما دُمْتَ حيًّا»، ثم ترك ذراعها وأردف: «والآن هيَّا، أين مسكننا؟».

استدارت وقادته إلى عبر الممرِّ حتَّى بلغا نهايته، ثم انعطفت يمينًا إلى نفقٍ عريضٍ تضيئه كرات إنارة صفراء طافية على مسافات متساوية. كانت الأرضية الحجرية التي يسيران فوقها ناعمة ونظيفة من الرمال.

مدَّ پول خطاه مقتربًا منها، وتأمَّل جانب وجهها الحاد الملامح، ثم سألها: «ألا تشعرين نحوي بكراهية يا حارة؟».

- «ولم أكرهك؟».

أومأت محيبةً مجموعة من الأطفال كانوا يحدِّقون إليهما من فوق حافة ممرٍّ جانبيٍّ مرتفعة. لمح پول خلف الأطفال هيئات أشخاص بالغين تحجبهم جزئيًّا ستائر شفافة.

- «لأنني... صرعت جيميس».

- «قال ستيلجار إن الشعائر الجنائزية أُقيمت وأنت صديق لجيميس»، ثم رمقته بنظرة جانبية وأردفت: «قال ستيلجار أيضًا إنك ذرفت من رطوبتك للميت، أهذا صحيح؟».

- «نعم».

- «هذا يفوق ما كنت سأفعل، يفوق ما بإمكانني فعله».

- «ألسيت حزينه عليه؟».

- «حين يأتي وقت الحزن، سأحزن عليه».

مرًّا بفُرجة مقوَّسة، فنظر پول عبرها ورأى رجالاً ونساءً يعملون أمام ماكينات مثبتة على حوامل في حجرة كبيرة ومضيئة. كان

في إيقاعهم ما يوحى بالاستعجال.

سألها پول: «ماذا يفعلون في تلك الحجرة؟».

ألقت نظرة سريعة إلى الوراء، إذ كانا قد تجاوزا الفُرجة المقوّسة، وقالت: «هذه ورشة البلاستيك، إنهم يسارعون لإنهاء الحصّة المطلوبة قبل فرارنا. نحتاج إلى الكثير من مكثّفات الندى من أجل الاستزراع».

- «فراركم؟».

- «إلى أن يكفّ السفّاحون عن ملاحقتنا أو يُجبرون على الخروج من أرضنا».

كاد پول يتعثّر، شاعرًا بلحظة أسيرة في الزمن، متذكّرًا لمحة من صورة ذهنية استبصارية، لكنها لم تكن في مكانها الصحيح، كأنها جزء من مونتاج متلاحق. لم تكن شذرات ذكرياته الاستبصارية كما يتذكرها تمامًا.

قال: «السّاردوكار في إثرنا».

قالت: «لن يجدوا الكثير باستثناء سييتش خالٍ أو اثنين، وسيلاقون نصيبهم من الموت في الرمال».

سألها: «هل سيعثرون على هذا المكان؟».

- «على الأرجح».

أشار برأسه نحو الفُرجة المقوّسة التي كانت الآن بعيدة عنهما بمسافة كبيرة: «وبرغم هذا نضيّع الوقت في تصنيع... مكثّفات الندى؟».

مكتبة

t.me/t_pdf

- «لا بدّ للاستزراع أن يستمرّ».

سألها: «وماذا تكون مكثّفات الندى؟».

وجّهت إليه النظرة تملؤها الدهشة.

- «ألم يعلموكم أي شيء في... المكان الذي جئت منه؟».

- «بلى، لكن ليس عن مكثفات الندى».

قالت: «عجيباً»، وفي هذه الكلمة الواحدة انطوت محادثة كاملة.

- «حسناً، ما هي؟».

- «كيف تظن أن كل شجيرة وكل رقعة عُشب تعيش في الصحراء المفتوحة حين نتركها؟ كل منها زُرعت برفق في حفرة صغيرة خاصة. هذه الحُفر مملوءة بأجسام بيضاوية ملساء من الكروموبلاستيك، يحيلها الضوء إلى اللون الأبيض. يمكنك رؤيتها تتلألأ في الفجر إذا نظرت إلى الأرض من مكان مرتفع، فاللون الأبيض يعكس الضوء. ولكن مع مغيب أُمنا العجوز الشمس، يعود الكروموبلاستيك إلى شفافيته في الظلام، وتنخفض حرارته سريعاً جداً، فيكثف سطحه الرطوبية من الهواء. هذه الرطوبة تتسرب إلى نباتاتنا وتبقىها حيّة».

غمغم پول: «مكثفات الندى»، مفتوناً ببساطة هذه الفكرة العبقريّة.

قالت كأن عقلها لم يتجاوز بعد التفكير في سؤاله السّابق: «سأحزن على جيميس حين يأتي الوقت المناسب. كان جيميس رجلاً صالحاً، لكنه سريع الغضب. كان رب أسرة مسؤولاً، ومدهش في التعامل مع الولدين. لم يكن يفرّق بين ابن جيف، ولدي البكر، وابنه الذي من صلبه. كانا متساويين في نظره»، ثم رمقت پول بنظرة متسائلة وقالت: «هل سيكون الحال كذلك معك يا أصول؟».

- «لسنا في ذات الموقف».

- «ولكن ماذا لو...».

- «حارّة!».

جفلت حارّة من الصرامة الحادّة في صوته.

مرّا بحجرة أخرى ساطعة الإضاءة بدت لهما عبر فُرجة مقوَّسة أخرى إلى يسارهما. سألهما: «وماذا يُصنَّع هنا؟».

قالت: «يصلِّحون ماكينات النسيج، لكن يجب عليهم تفكيكها الليلة»، ثم أشارت إلى نفقٍ متفرِّع إلى يسارهما، وقالت: «في هذا الدهليز وما وراءه، توجد أماكن تجهيز المواد الغذائية وصيانة بذلات التقطير»، ثم رمقت پول وأردفت: «تبدو بذلتك جديدة، لكن إن كانت بحاجة إلى إصلاح، فأنا ماهرة في التعامل مع البذلات، فأنا أعمل في المصنع خلال الموسم».

بدأ يمرّان الآن بتجمُّعات بشرية، وبعدد أكبر من المنافذ والفتحات المتفرّعة من جانبي النفق. مرّ بهما رهطٌ من رجالٍ ونساءٍ يحملون على ظهورهم حقائب تصدر عنها قرقرة عالية، وتفوح منهم رائحة اسپایس قوية.

قالت حارّة: «لن يضعوا أيديهم على مائنا، أو على الاسپایس في مخازننا. لك أن تتأكّد من هذا».

نظر پول إلى الفجوات المفتوحة في جدران النفق، ورأى السجّاد الثقيل على الحواف المرتفعة، ولمح عُرفاً معلقاً على حوائطها أقمشة زاهية الألوان وتتكدّس فيها الوسائد. لفّ الصَّمْت قاطني تلك الفتحات بمرورهما بها، وراحوا يتتبعون پول بنظرات فضولية شرسة لا تستحي.

قالت حارّة: «الناس يستغريون تغلُّبك على جيميس، على الأرجح سيبتغيّ عليك إثبات جدارتك مرّة أخرى عندما نستقر في سييتش جديد».

قال: «لا أحب القتل».

قالت: «هذا ما يقوله ستيلجار»، لكن صوتهما كشف عن عدم تصديقهما.

من مكان ما أمامهما، تعالت أصوات جماعية تهتف في حماسة. بلغ پول وحارة فتحة جانبية أوسع من كل الفتحات الأخرى التي رآها پول، فأبطأ من وتيرته محدقاً إلى حجرة مزدحمة بأطفال جالسين القرفصاء على أرضية مغطاة بسجادٍ كستنائي.

أمام سبورة على الجدار البعيد، وقفت امرأة في ثوب أصفر يلتف حول جسدها ممسكةً بقلم ضوئي في يدها. كانت السبورة ملأى بأشكال كثيرة مختلفة: دوائر، وأوتاد، ومنحنيات، ومسارات ثعبانية، ومربعات، وأقواس كبيرة تقسمها خطوط متوازية.. وكانت المرأة تشير إلى الأشكال الواحد تلو الآخر محرّكةً القلم بسرعة، فيهتف الأطفال في إيقاع موحد مع حركة يدها.

أصغى پول إلى الأصوات التي راحت تتضاءل بالتدرّج من خلفه وهو يتعمّق أكثر في السيتيش مع حارة. كان الأطفال يصيحون: «شجرة، عشب، كتيب، رياح، جبل، تلة، نار، برق، صخرة، صخور، غبار، رمال، حرارة، مأوى، حرارة، بدر، شتاء، برد، فراغ، تعرية، صيف، مفارة، نهار، توتر سطحي، قمر، ليل، كابروك، مدّ رملي، منحدر، استزراع، غطاء صخري، لاصق....».

سألها پول: «أتعقدون دروساً في وقت كهذا؟».

شاع الأسى في وجهها، وطفى الحزن على صوتها وهي تقول: «لا يمكننا التهاون في ما علّمنا إيّاه لبيت لحظة. يجب ألا ننسى لبيت الذي رحل. هذا هو نهج تشاكوبسا».

عبرت إلى يسار النفق، وصعدت فوق الحافة، وفتحت ستائر

برتقالية غامقة وتحت جانباً: «يا ليك جاهز لاستضافتك يا أصول». تردد پول قبل أن ينضم إليها فوق الحافة. شعر بنفور مفاجئ من فكرة الاختلاء بتلك المرأة. أدرك أنه محاط بأساليب معيشة لن يفهمها إلا إذا سلّم جدلاً بمنظومة الأفكار والقيم التي بُنيت عليها. شعر بأن عالم الفرمن يحاول اصطياده وإيقاعه في شرك عاداته. وكان يعرف ما يكمن في تلك الشرك: الجهاد الوحشي، الحرب الدينية التي يجب أن يتجنبها بأي ثمن. قالت حارة: «هذا يا ليك، فلم التردد؟».

أوماً پول، وصعد إلى جوارها على الحافة. رفع الستائر التي أمامها، وشعر بألياف معدنية في القماش، ثم تبعها إلى مدخل قصير ومنه إلى غرفة مربعة أكبر عرضها نحو ستة أمتار، أرضيتها مفروشة بسجاد أزرق وثير، وتحجب جدرانها الصخرية أقمشة زرقاء وخضراء، وفي سقفها تطفو كرات إنارة ضبط ضوءها على اللون الأصفر على خلفية من أقمشة صفراء كذلك تكسو السقف.

كان الجو العام يشبه جو الخيام العتيقة.

وقفت حارة أمامه، ويدها اليسرى في وسطها، وعيناها تتأملان ملامح وجهه. «الطفلان عند إحدى الصديقات، سيقدّمان أنفسهما إليك لاحقاً».

أخفى پول توتره بالنظر إلى أرجاء الغرفة. رأى عن يمينه ستائر رقيقة تخفي -بشكل جزئي- غرفة أكبر بها وسائل مكدة حول الجدران. أحس بنسمة هواء خفيفة خارجة من أنبوب تهوية، ولاحظ أن الفتحة مخفية ببراعة خلف ستائر مزخرفة أمامه مباشرة.

سألته حارّة: «أتريد مساعدة في خلع بذلتك؟».

- «كلّا.. شكرًا لك».

- «هل أحضر لك طعامًا؟».

- «أجل».

- «تُوجد غرفة استعادة رطوبة وراء الغرفة الأخرى، تستطيع أن تستريح فيها دون بذلة تقطير».

قال پول: «قلتِ إننا سنضطر إلى مغادرة هذا السييتش، أليس من المفترض أن نحزم أمتعتنا أو ما شابه؟».

قالت: «سيتمُّ الأمر في وقته. السفّاحون لم يتوغّلوا بعد في منطقتنا».

ثم وقفت متردّدة، تحدّق إليه.

سألها: «ما الأمر؟».

قالت: «عيناك ليستا كأعين العباد. شكلهما غريب، ومع هذا لا تخلوان من جاذبية».

قال لها: «أحضري الطعام، فأنا جائع».

ابتسمت له ابتسامة امرأة خبيرة لم يسترح لها، وقالت: «أنا خادمتك»، وأسرعت مغادرة في حركة رشيقة، وانحنى لتمرّ عبر ستار ثقيل كشف عن ممرٍّ آخر قبل أن يعود إلى مكانه.

شاعرًا بالغضب من نفسه، أزاح پول الستارة الخفيفة التي إلى يمينه واندفع إلى الغرفة الأكبر. وقف لحظة في مكانه تكتفه الحيرة. تساءل عن مكان تشاني... تشاني التي فقدت لتوها والدها.

فكّر پول: إننا سواء في ذلك.

دوت صيحة عاوية من الممرّات الخارجية، جاءه صوتها مكتومًا

بسبب الستائر المتداخلة. تَكَرَّرَت الصيحة من مكانٍ أبعد قليلاً. ثم مرّةً أخرى. أدرك پول أن شخصاً يصبح معلناً الوقت، وانتبه عقله لحقيقة أنه لم ير أيّ ساعات في المكان.

بلغت أنفه رائحة خفيفة ناتجة عن حرق نبات حشيشة الشحم، وطففت على الرائحة الكريهة المنتشرة في أرجاء السييتش جميعها، فأدرك پول أنه اعتاد روائح المكان ونجح في صدّ هجومها على حواسّه. وتساءل من جديد عن حال أمّه، وعن الكيفية التي سيضمّمها بها مونتاج المشاهد المستقبلية المتلاحق في صورهِ، هي والابنة التي تحملها. تراقص إدراكه الزمني المتقلّب من حوله، فهزّ رأسه بقوة، مركزاً انتباهه على الأدلّة المحيطة به التي تشي بعمق واتّساع هذه الثقافة الفرمنية التي ابتلعتهما. بغرائبها الخفية غير الملحوظة.

لقد لاحظ شيئاً في هذه الكهوف وفي هذه الغرفة، شيئاً يشير إلى وجود اختلافات كبيرة عن أيّ شيءٍ صادفه في حياته حتّى الآن.

لا أثر لاستخدام كشّافات السُّموم هنا أو في أيّ مكانٍ آخر في المغارة، ومع ذلك كان يشمُّ رائحة السُّموم -القوي منها والشائع- ضمن روائح السييتش النتنة.

سمع حفيف إزاحة الستائر، فظنّ أن حارّة قد عادت بالطعام، واستدار لينظر إليها. لكنه رأى خلف الستائر المُزاحة ولدين صغيرين -في سنّي التاسعة والعاشرَة على الأرجح- يحدّقان إليه بأعينٍ طامعة شرهة، كليهما يتمنطق بحزام تتدلّى منه سكينٌ عاجية صغيرة تشبه الخنجل، ويضع يده على المقبض.

وهنا تذكّر پول القصص التي سمعها عن الفرمن، وكيف أن
أطفالهم يقاتلون بضراوة كال كبار.

يداه تتحرَّكان، وشفثاه تتحرَّكان،

والأفكار تفيض من كلماته،

وعيناه تلتهمان ما تبصرانه!

إنه بتفرَّده جزيرة.

مكتبة
t.me/t_pdf

وصف من كتاب «دليل المؤدّب» للأميرة إيrolان.

ألقت أنابيب الإضاءة الفوسفورية المعلّقة في السقف المرتفع ضوءاً خافتاً على المغارة المزدهمة بالناس، معطيةً جيسكا لمحة عن المساحة الفسيحة المحصورة بين الصخور التي بدت لها أكبر حجمًا من قاعة التجمّع الكبيرة في مدرسة البني جيسيرت التي ارتادتها. قدّرت جيسكا أن ما يربو عن خمسة آلاف شخص محتشدين الآن في المغارة تحت المسطبة الصخرية التي تقف عليها مع ستيلجار.

وما زال المزيد يأتون.

كان الهواء يضجُّ بهمهمات الناس.

قال ستيلجار: «لقد أرسلنا نستدعي ابنك من راحته يا سيّادينا، هل تريدان أن يشاركك في قرارك؟».

- «وهل في مقدوره تغيير قراري؟».

- «بالتأكيد، صحيح أن الهواء الذي تتحدّثين به يخرج من رئتيك، لكن...».

قاطمته قائلة: «لن أغيّر قراري».

لكن الشك انتابها، وتساءلت إن كان يجدر بها التحجّج ببول واستخدامه ذريعةً للتراجع عن هذا المسار الخطر. عليها التفكير في ابنتها التي لم تُولد بعد، فالخطر الذي يهدّد جسد الأم، سيهدّد كذلك جسد الابنة.

جاء رجالٌ يحملون سَجَّادًا ملفوفًا، يثْنُون من ثقله، وأثاروا الغبار في المكان عندما ألقوا حمولتهم فوق الحافّة. أمسك ستيلجار بذراعها، وقادها إلى تجويف صخري هلالِي وراء المسطبة يستخدمونه لتضخيم الموجات الصّوتية، وأشار إلى دكّة صخرية داخل التجويف قائلاً: «ستجلس أُمّنا الموقرة هنا، لكن بإمكانك أن ترناحي في المكان حتّى تأتي». قالت: «أفضل الوقوف».

راقبت الرجال وهم يفرشون السجّاد، ويغطّون الحافّة به، ونظرت إلى الحشد. كان على أرض المفارة الصخرية الآن ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص. وما زال المزيد يأتون.

كانت تعلم أن الصّحراء في الخارج كانت قد اصطبغت بحُمْرة الشمس الفاربية، إيدانًا بحلول الظلام، أمّا هنا، في المفارة، فكان الضوء مستمرًا كأنه شَفَقٌ أبدي لا ينقطع، وامتلات الأرض الواسعة بأناس جاؤوا ليشاهدوها تخاطر بحياتها. أفسح مجالٌ بين الحشد إلى يمينها، ورأت پول يقترب بصحبة صبيين صغيرين تحيط بهما هالة من الفرور والفتحية. كان كلاهما يضع يده على مقبض سكينه، وينظر بتجهم إلى الجدار البشري على الجانبين.

قال ستيلجار: «هذان ولدا جيميس اللذان صارا ولدي أصول الآن. إنهما يأخذان مهمّة حراسته على محمل الجد». وابتمس إلى جيسكا. لاحظت جيسكا المجهود الذي يبذله ستيلجار لتلطيف الأجواء والتخفيف من وطأة الموقف، وكانت ممّنة لذلك، لكنها لم تستطع صرف عقلها عن الخطر الذي يواجهها.

وفكرت: لا أملك خياراً سوى هذا. علينا أن نطرق الحديد وهو
ساخن إن أردنا تعزيز مكانتنا بين هؤلاء القوم.
تسلق پول المسطبة تاركاً الطفلين في الأسفل، وتوقف أمام
أمّه. ألقى نظرة سريعة إلى ستيلجار، قبل أن يعود ببصره إلى
جيسيكا: «ماذا يحدث؟ ظننت أنني استدعيت لحضور مجلس». رفع
ستيلجار يده مطالباً بالصمت، وأشار إلى يساره حيث فتح
طريقاً آخر بين الحشد جاءت تشاني عبره والحزن باد في ملامح
وجهها الملائكي. كانت قد خلعت بذلة التقطير وارتدت ثوباً
أزرق أنيقاً ملفوفاً حول جسدها يكشف عن ذراعيها الرقيقتين.
وبالقرب من كتف ذراعها اليسرى، ربطت منديلاً أخضر.
فكر پول: الأخضر رمز الحداد.

كانت هذه إحدى العادات التي فهمها بشكل غير مباشر من
كلام ابني جيميس، عندما أخبراه بأنهما لم يرتديا اللون الأخضر
لأنهما قبلًا به أباً وصياً لهما.

حين سألاه: «هل أنت لسان الغيب؟»، لمس پول في كلماتهما
الجهاد الآتي، وتجنب الردّ على سؤالهما بطرح سؤالٍ عليهما، وعرف
من الرد أن كالف -أكبر الاثنين- في العاشرة من عمره، وأنه ابن
جيف، أمّا أورلوب -الأصغر- ففي الثامنة، ومن صلب جيميس.

لقد كان يوماً غريباً، إذ وقف الاثنان يحرسانه ويبعدان عنه
الفضوليين كما طلب منهما، وأتاحا له الوقت ليرتب أفكاره
ويتدبر ذكرياته الاستبصارية، ليرسم خطة يمنع بها وقوع الجهاد.
لكنه راح يتساءل الآن وهو يقف إلى جوار أمّه على المسطبة
ناظراً إلى الحشد إن كان بمقدور أيّ خطة أن تمنع سيل الجحافل
المتعصبة الجارف الآتي.

اقتربت تشاني من المسطبة متبوعةً بأربع نساء يحملن امرأة أخرى على هودج.

تجاهلت چيسیکا اقتراب تشاني، وصَبَّتْ جُلَّ اهتمامها على المرأة الجالسة في الهودج. كانت حيزبونا، عجوزاً دَرَدِيسًا مجعّدة وذابلةً تلتحفُ برداءٍ أسود قلنسوته ملقاةً إلى الخلف كاشفةً عن عُنُقٍ نحيلٍ وشَعَثٍ أشيب مربوط في عقدةٍ محبوكة. أنزلت حاملات الهودج حملهن برفق على الحافة دون أن يصعدنّها، وساعدت تشاني المرأة العجوز على الوقوف على قدميها.

فكرت چيسیکا: هذه أمهم الموقرة.

اتكأت المرأة العجوز بشدة على تشاني وهي تتّجه صوب چيسیکا، وبدت كأنها مجموعة من العصي ملفوفة في رداءٍ أسود. توقّفت أمام چيسیکا وأطالت التحديق إليها، قبل أن تتكلّم بصوتٍ مبحوح: - «أنتِ هي إذا».

ثم أومأ الرأس العجوز مترنّحاً فوق الرقبة النحيلة: «قد كانت ميبس الشادوات محقّة في شفقتها عليك». ردّت چيسیکا في ازدراء: «لستُ في حاجةٍ إلى شفقةٍ أحدٍ». فحّت المرأة العجوز: «سنرى هذا». ثم استدارت بسرعة مذهشة وواجهت الحشد: «أخبرهم يا ستيلجار». فقال: «ألا بُدّ أنا؟».

قالت العجوز بصوتٍ غليظ خشن: «نحن شعب المصر* . منذ أن فر أسلافنا السنيون* من حوض نيل العروبة* اعتدنا الهروب والموت. وحتى اللحظة لم يحد شبابنا عن هذا الطريق كي لا يموت شعبنا».

أخذ ستيلجار نفساً عميقاً، وتقدّم خطوتين إلى الأمام.

شعرت چيسيكا بالصَّمْت يجثم على الكهف المزدهم؛ زهاء عشرين ألف شخص يقضون الآن في صمت تام، بلا حراك تقريباً. أشعرها ذلك بالضائقة فجأة، وملأها بالحذر.

قال ستيلجار: «الليلة يجب أن نغادر هذا السيتش الذي آوانا مدةً طويلةً ونرتحل جنوباً عبر الصَّحراء». دوى صوته عالياً فوق الوجوه والأعناق المشربّة، وردّد التجويف المضخم للأصوات الواقع خلف المسطبة صدها في أرجاء المغارة. ظلّ الحشد على صمته.

قال ستيلجار: «أخبرتني الأمّ الموقرة أنها لن تتحمّل هجرة* أخرى. صحيح أنه سبق لنا أن عشنا فتراتٍ دون أمّ موقرة، لكن لن يكون في صالح الناس البحث عن موطنٍ جديد في مثل هذه الشدّة».

هاج الحشد واضطرب، وسرى الهمس بين أفرادهِ. قال ستيلجار: «ولئلا يحدث هذا، وافقت السيّادينا الجديدة، چيسيكا الداهية الخوارقية، على الخضوع للطقس في هذا الوقت. ستحاول خوض العبور الداخلي كي لا نفقد القوّة التي نستمدّها من أمّنا الموقرة».

فكّرت چيسيكا: چيسيكا الداهية الخوارقية. رأت پول يرمقها بعينين مملوءتين بالأسئلة، لكن عجز فمه عن الكلام بسبب كل تلك الغرابة المحيطة بهما.

سألت چيسيكا نفسها: ماذا سيكون مآله لو لقيت حتفي في أثناء المحاولة؟ ومن جديد شعرت بالشك والهواجس تملأ عقلها.

قادت جيسيكَا الأمُّ الموقِّرة العجوز إلى الدكَّة الصخرية المنحوتة في عمق التجويف المضخَّم للصوت، ثم عادت لتقف إلى جوار ستيلجار.

قال ستيلجار: «ولئلا نخسر كل شيء، إذا أخفقت جيسيكَا الخوارقية في مسعاها، سنُكرِّس تشاني، ابنة لبيت، لخلافتها في منصب السيَّادينا الآن».

من عمق التجويف الصخري، خرج فحيح العجوز الخشن النَّافذ مضخَّمًا: «لقد عادت تشاني من هجرتها... لقد رأت تشاني المياه».

ردَّد الحشد في غمغمة راجفة موحَّدة: «لقد رأت المياه». فحَّت العجوز بصوتٍ مبحوح: «أعلن تكريس ابنة لبيت لمنصب السيَّادينا».

أجاب الحشد: «إنها مقبولة».

لم يكن پول منتبهاً للمراسم، وظلَّ تركيزه منصباً على ما قيل بشأن والدته.

إذا أخفقت؟

ثم التفت خلفه لينظر إلى من يلقَّبونها بالأمِّ الموقِّرة، وتأمَّل التجاعيد اليابسة التي تغزو وجهها الطَّاعن، وزُرقة عينيها العميقة التي لا قرار لها. كانت واهنة وتبدو كأن النسيم العابر قادر على الإطاحة بها، ولكن تحيطها في الوقت نفسه هالة تشعرك بأنها قد تقف في وجه عاصفة كوريوليسية دون أن تصاب بخدش. كانت محاطة بنفس هالة القوَّة التي تذكَّر رؤيتها تشعُّ من الأمِّ الموقِّرة جايس هيلين موهيم التي اختبرت صلابة معدنه بالألم على طريقة الجوم جِّبار.

قالت العجوز: «أنا، الأمُّ الموقرة رامالو، التي ينطقُ صوتها
بلسان الجموع الغفيرة، أقول لكن الآتي: تشاني جديرة بمنصب
السَيَّادينا».

ردَّد الحشد: «إنها جديرة».

أومأت العجوز ثم همست: «إني أهبها السماوات الفضية،
والصَّحراء الذهبية بصخورها اللامعة، والحقول الخضراء الآتية.
ولئلا تتسى تشاني أنها خادمة لنا جميعاً، فإني مكلفةٌ إيَّها بأداء
مهام مراسم "طقس البذر" الوضيعة. فلتكن مشيئة شَيِّ هولود».
ثم رفعت ذراعها العصوية السمراء، ثم خفضتها.

شعرت جيسيكا بأن المراسم تطوَّقها، وبأن تيارها يجرفها إلى
نقطة لا عودة لا مجال للتراجع بعدها، فألقت نظرة خاطفة على
وجه پول المملوء بالأسئلة، ثم أعدت نفسها للمحنة القادمة.
قالت تشاني وصوتها المراهق تشوبه رعشة تهدُّجٍ طفيفة:
«ليتقدَّم أمناء الماء».

شعرت جيسيكا بأنها صارت في بؤرة الخطر، واستشعرت
حضوره الثقيل في ترقُّب الحشد، وفي صمتهم الجاثم.
شقت مجموعة من الرجال طريقها في أزواج عبر مسارٍ
ثعبانيٍّ ملئٍ انفتح وسط الحشد، كل زوجين يحملان قرية جلدية
صغيرة في ضعف حجم رأس الإنسان تقريباً. تخضخض الماء
داخل القرب بصوتٍ واضح.

أفرغ قائدا المجموعة حملتهما على المسطبة عند قدمي
تشاني وتراجعا.

نظرت جيسيكا إلى القرية، ثم إلى رتل الرجال. كانت
قلنسواتهم ملقاة على ظهورهم، كاشفةً عن شعورٍ طويلة معقودة

في جدائل عند أسفل أعناقهم. كانت أعينهم السوداء الغائرة
 تبادلها التحديق دون أن ترمش.
 فاحت من القربة رائحة قرفة قوية، ووصلت إلى أنف جيسيكَا،
 فتساءلت متعجبةً: «سپايس؟»
 سألت تشاني: «أفي القربة ماء؟»
 أوما أمين الماء الواقف إلى اليسار، الرجل الذي تقطع أرنبه
 أنفه نُدبةً أرجوانية اللون، وقال: «فيها ماء يا سيّادينا، لكننا نعجز
 عن شربه».
 سألت تشاني: «أفيها بَذْر؟»
 قال الرجل: «فيها بَذْر».
 وضعت تشاني يديها على القربة المترجرجة وقالت: «مُبارك
 هذا الماء وبَذْره».
 بدا الطقس مألوفًا. نظرت جيسيكَا خلفها إلى الأمّ المُوقَّرة
 رامالو. كانت عينا العجوز مغمضتين وتجلس مُنحنية إلى الأمام
 كما لو كانت نائمة.
 قالت تشاني: «يا سيّادينا جيسيكَا».
 التفتت جيسيكَا ورأت الفتاة تحدّق إليها.
 سألتها تشاني: «هل ذُقتِ الماء المُبارك من قبل؟»
 وقبل أن تُجيب جيسيكَا، قالت تشاني: «لا يمكن أن تكوني قد
 ذُقتِ الماء المُبارك، فأنت أجنبية ولا تتمتعين بهذا الامتياز».
 سرت تنهيدة عبر الحشد، وخفخفة الثياب بصوت كالهمس أثار
 قشعريرة جيسيكَا وجعل الزغب الناعم على مؤخرة عُنُقها ينتصب.
 قالت تشاني: «الحصيلة كبيرة، والصّانعة دُمّرت»، وبدأت تفكُّ
 خرطومًا صغيرًا مثبتًا أعلى القربة المترجرجة.

بدأت جيسिका تشعر بنواقيس الخطر تدقُّ من حولها، فنظرت إلى پول، ورأت أنه مأخوذٌ بالطقس الغامض وعيناه لا تريان سوى تشاني.

تساءلت جيسिका: هل أبصر هذه اللحظة من الزمن؟ ثم وضعت يدها على بطنها، وفكَّرت في الابنة التي لم تولد بعد، وسألت نفسها: هل يحقُّ لي المخاطرة بحياتينا؟ رفعت تشاني الخرطوم الممتدَّ من القرية إلى جيسिका، وقالت: «هذا ماء الحياة، الماء الأعظم من كل ماء. ماء الكان، الماء الذي يحرِّر الروح. إن قُدِّر لك أن تكوني أُمًّا موقَّرة، فسيفتح الكون أمامك. لنترك الحكم لشَيِّ هولود الآن».

شعرت جيسिका أنها ممزَّقة بين واجبها تجاه طفلتها التي لم تُولد بعد وواجبها تجاه پول. كانت تعلم أن عليها أن تأخذ خرطوم تلك القرية وتشرب من محتوياتها من أجل پول، لكن حين انحنت مُقْرِبةً فمها من الخرطوم، أنبأتها حواسها بما تحويه من هلاك. كان الماء في القرية له رائحة مُرَّة تشبه إلى حدٍّ كبير رائحة سموم كثيرة تعرفها، ولكن تختلف عنها في الوقت نفسه. قالت تشاني: «عليك أن تشربي الآن».

ذكَرت جيسिका نفسها: لا مجال للتراجع. لكن لم يخطر ببالها شيء ممَّا تعلَّمته في تدريبات البني جيسيرت يمكن أن يساعدها على اجتياز تلك اللحظة.

سألت جيسिका نفسها: ما هذه المادَّة؟ خمر؟ مخدِّر؟ انحنت جيسिका وقربت فمها من الخرطوم، فشمت روائح القرفة المنبعثة منه، وتذكَّرت حالة السكر التي رأت عليها دانكن أيدهو. خمر ممزوج بالاسپايس؟ هكذا سألت نفسها، ثم التقطت

الخرطوم في فمها، وشفطت منه أصغر شفقة ممكنة. كان مذاقه غني بالاسپايس، وله لذعة خافتة على اللسان.

اعتصرت تشاني القربة الجلدية، وضخت جرعة كبيرة إلى فم جيسكا فابتلعها رغماً عنها قبل أن يتسنى لها لفظها، مكافحةً للحفاظ على هدوئها وكرامتها.

قالت تشاني: «الموت البطيء، لهو سبيلٌ أسوأ من الموت نفسه»، وحدقت إلى جيسكا، منتظرةً.

بديلها جيسكا التحديق، والخرطوم في فمها. تذوّقت محتويات القربة في أنفها، وفي سقف حلقها، وفي أشداقها، وفي عينيها. صار لها حلاوة لاذعة.

لذيذ.

اعتصرت تشاني القربة مرةً أخرى ضاحخةً السائل في فم جيسكا.

سائع.

تأملت جيسكا وجه تشاني، متفرسةً في ملامحها الملائكية، ورأت فيها بعض ملامح لبيت كاينز التي لم يثبتها الزمن بعد. أخبرت جيسكا نفسها: لقد أسقوني عقاراً مخدراً.

لكنه لم يكن يشبه أيّ عقار آخر اختبرته من قبل، على الرغم من أن تدريب البني جيسيرت يتضمّن تذوّق عقاقير كثيرة. كانت ملامح تشاني شديدة الوضوح، كما لو كانت مرسومة بالضوء.

العقار!

استقرّ صمتٌ مزلزل حول جيسكا. تقبّلت كل خلية في جسدها حقيقة أن شيئاً جسيماً يطرأ عليها. شعرت بأنها ذريعة

واعية، هبأة أصغر من أيّ جُسيمٍ دون ذري، لكنها قادرة على الحركة والشعور بما حولها. وفي لحظة تجلٍ مفاجئة تمزّقت فيها الحُجُب، أدركت جيسिका أنها صارت واعية بامتداد نفس حركي لذاتها لم تعلم به من قبل. كانت لا تزال ذُريرة، لكنها في الوقت نفسه لم تكن ذُريرة.

ظَلَّت واعية لوجود المغارة، وللناس. كانت تشعر بهم جميعاً: بول، وتشاني، وستيلجار، والأُم الموقرة.

الأُم الموقرة!

كانت تتردّد شائعات في مدرستها بأن البعض لم ينجين من طقس العبور لرتبة الأُم الموقرة، وأن العقار أهلكهن. صبّت جيسिका تركيزها على الأُم الموقرة رامالو، وقد صارت واعية أن كل هذا يحدث في لحظة مُجمّدة من الزمن، لا أحد يمرُّ بها غيرها.

سألت نفسها: لماذا توقّف الزمن؟ حدثت إلى الوجوة حولها بالتعبيرات المُجمّدة عليها، ورأت ذرة غبار ثابتة في الهواء فوق رأس تشاني.

تنتظر.

ثم جاءها الجواب كأنه انفجار في وعيها: لقد توقّف زمنها لإنقاذ حياتها.

رَكَزَت على امتداد ذاتها النفسي الحركي، وفشّشت في داخلها، فقابلتها على الفور نواةٌ خلوية، حفرة من السواد انتكصت مرتعدةً منها. فكّرت جيسिका: هذا هو المكان الذي نعجز عن رؤيته وسبر أغواره. هذا هو المكان الذي تحجم الأمّهات الموقرات عن ذكره. وحده الكويزاتس هاديراك بإمكانه النظر إلى هذا المكان.

أعاد لها هذا الإدراك قدرًا صغيرًا من ثقتها بنفسها، ومرة أخرى غامرت بالتركيز على امتدادها النفسي الحركي، وصارت ذاتًا مجهريةً هائمةً تفتش عن الخطر داخلها. وقد عثرت على الخطر في العقار الذي ابتلعتة.

كانت ذرّات المادّة التي ابتلعتها تتراقص في داخلها بسرعة هائلة لم ينجح معها الوقت المُجمّد في إيقافها. ذرّات متراقصة لا تهدأ ولا تتوقّف. بدأت تتعرّف على بعض المركّبات والروابط الذريّة المألوفة: ذرّة كربون هنا، جزيء جلوكوز حلزوني مضطرب هناك. ثم واجهتها سلسلة كاملة من الجزيئات، فتعرفت فيها على أحد البروتينات: مركّب بروتين ميثيلي.

آها!

كانت هذه تهيدة ذهنية بلا صوت، أطلقها وعيها حين فهمت طبيعة السّم.

بمجرّستها النفس حركية، تحرّكت جيسيكّا إليها، وغيّرت من موضع ذرّة أكسجين، وسمحت لذرّة كربون أخرى بتكوين رابطة مع الجزيء، ثم أعادت ربط رابطة أكسجين.. ثم هيدروجين.

انتشر التغيير بوتيرة متسارعة حين فتح العامل المحفّز الذي استحدثته الطريق أمام مزيدٍ من التفاعلات السطحية.

أرّخى الجمود الزمني قبضته عليها، وبدأت تستشعر حركة. لامس الخرطوم الخارج من القرية فمها برفق، والتقط منه قطرة رطوبة.

فكّرت جيسيكّا: تشاني تأخذ العامل المحفّز من جسدي لتغيير السّم في تلك القرية. لماذا؟

ساعدها شخصٌ على الجلوس، ورأت أنه جيء بالأم الموقرة
العجوز رامالو لتجلس إلى جوارها على المسطبة المفتاة
بالسجاد. لمست رقبتها يدٌ جافة.

نشأت دُزيرة نفس حركية أخرى في وعيها حاولت جيسيكا
نبذها، لكن الدُزيرة اقتربت... واقتربت.
ثم تلامسا!

حدث توافقٌ مُطلق، كأنها صارت شخصين في وقت واحد: لم
يكن تخاطراً، بل وعياً مشتركاً.
مع الأم الموقرة العجوز!

لكن جيسيكا رأت أن الأم الموقرة لم تكن تفكر في نفسها على
أنها عجوز، ثم تكشفت أمام عين الوعي المشترك صورة لفتاة
صغيرة رشيقة الروح رفيقة الدعابة.

وفي داخل الوعي المشترك قالت الفتاة الصغيرة: «أجل، هذه
أنا».

لم يكن في وسع جيسيكا إلا تقبل الكلام، لا الرد عليه.
قال الخيال الشبهي الداخلي: «ستحصلين على كل شيء قريباً
يا جيسيكا».

أخبرت جيسيكا نفسها: أنا أهلوس.
قال الخيال الشبهي الداخلي: «تعرفين أن هذا ليس صحيحاً.
أسرعي الآن، ولا تقاوميني، فليس لدينا الكثير من الوقت.
نحن...»، ثم سكتت هنيهة، قبل أن تقول: «كان عليك أن نخبرنا
بأنك حامل!».

عثرت جيسيكا على صوتها في إطار الوعي المشترك، فقالت:
«لماذا؟».

- «التغيير سيطول كليهما بحق الأم المقدسة، أي فعل شنيع ارتكبنا؟».

شعرت جيسيكاً بتغيرٍ قسري مفاجئ في الوعي المشترك، ورأت بعينها الداخلية انبثاق ذُريرةٍ ثالثة من العدم. كانت الذُريرة الجديدة تندفع وتدور بجنون هنا وهناك، وتشعُّ برُعب هائل. قال شبح الأم الموقرة العجوز الحاضر: «تحلي بالقوة، وكوني ممتنةً لأنك تحملين أنثى. لو كان الجنين ذكرًا لتسبب هذا في قتله. الآن.. بحرص ورفق.. المسي حضور ابنتك. كوني حضور ابنتك. امتصّي خوفها.. هذئيها.. استخدمي شجاعتك وقوّتك.. برفق الآن.. برفق...».

انجرفت الذُريرة الدوّارة الأخرى مقتريةً منها، فأجبرت جيسيكاً نفسها على لمسها. شعرت بالذعر يذبُّ في أوصالها. فقاومته بالطريقة الوحيدة التي تعرفها: «لن أخاف، الخوف قاتل...».

أنزلت عليها التعويذة شيئاً من السكينة. أمّا الذُريرة الأخرى فكمنت قبالتها في هدوء.

قالت جيسيكاً لنفسها: التواصل بالكلمات لن يفلح. ثم اختزلت نفسها إلى ردود الأفعال العاطفية الأساسية، وبثت فيها مشاعر الحب والطمأنينة والحضن الدافئ. انحسر الذعر.

من جديد أكّد حضور الأم الموقرة العجوز وجوده، وصار الوعي مشتركاً بين ثلاث كينونات: اثنتين نشطتين، وكيونة ثالثة ترقد في صمت تتشرب وتستوعب.

قالت الأمُّ الموقِّرة العجوز داخل الوعي: «الوقت يداهمني، لدي الكثير لأمنحك إِيَّاه، ولا أعرف إن كانت ابنتك ستتحمل تلقِّي كل هذا دون أن تفقد عقلها. لكن لا مناص. حاجة القبيلة فوق كل شيء».

- «ما...».

- «اصمتي وتلقِّي».

بدأت الخبرات تتكشف أمام جيسيكَا. كان الأمر أشبه بشرائط المحاضرات الإيحائية المصوَّرة في مدارس البني جيسيرت، التي تبثُّ داخل اللا وعي رسائل مُبطَّنة عن طريق مسلاط تحفيز لا شعوري.. ولكن أسرع، أسرع بكثير. ومع ذلك، كانت واضحة. عاشت جيسيكَا كل خبرة بالضبط كما حدثت: كان هناك عاشق، مكتمل الرجولة، ملتج، له أعين الفرمن. رأت جيسيكَا قوَّته ورقَّته، وأحاطت علماً بكلَّ خصاله في لحظة خاطفة، عبر ذاكرة الأمِّ الموقِّرة.

لم يكن الوقت يسمح بالتفكير في تأثير هذه الخبرات في الجنين الأنثى، لا وقت إلاَّ للتلقِّي والتسجيل. انهمرت الخبرات على جيسيكَا (ولادة، وحياة، وموت)، أمورٌ مهمَّة وأخرى غير مهمَّة. سيل منهمر من الخبرات في عرضٍ مُوحَّد.

تساءلت جيسيكَا: لِمَ قد يعلق شيء كسقوط رمالٍ عارض من قمة جرف في الذاكرة؟

استوعبت جيسيكَا ما يحدث، ولكن متأخراً جداً: العجوز تحتضر، وهي في احتضارها تصبُّ خبراتها في وعي جيسيكَا كما يُصبُّ الماء في الكوب. انحسرت الذُريرة الأخرى عائدة إلى حالة الوعي الجنيني الأنفة أمام ناظري جيسيكَا. وفي احتضارها

الإدراكي، أودعت الأمُّ الموقرةَ المعجوزَ شريطَ حياتها في ذاكرةِ جيسكا بتهيدةٍ أخيرةٍ لفظت معها في غير وضوح كلماتها الأخيرة.

قالت: «كنت أنتظرِكَ منذ وقتٍ طويل، ها هي حياتي».

وبالفعل كانت قد نَفَحَتْ حياتها كلها.. هي كبسولة.

بما في ذلك لحظة موتها نفسها.

أدركت جيسكا: أنا الآن أمُّ موقرة.

واستوعبت -بشكلٍ عام- أنها صارت أمًّا موقرةً حتَّى بمفهوم البني جيسيرت. لقد حوَّلها العقار السَّام. كانت تعلم أن الأمر لا يتمُّ بهذه الطريقة في مدارس البني جيسيرت. صحيح أن أحدًا لم يطلعها على أسرار الأمر، لكنها كانت تعلم.

المحصلة النهائية واحدة في الحالتين.

أحسَّت جيسكا بأن الذُريرةَ الابنة ما زالت تلمس وعيها الداخلي فتفخَّصتها، لكنها لم تستجب.

زحف شعورٌ مريع بالوحدة على جيسكا حين أدركت ما حدث لها. استشعرت أن وتيرة حياتها تتباطأ في حين ما تسارعت الحياة من حولها، ما جعل العلاقة التفاعلية الراقصة بينهما أوضح.

بدأ شعورها بأنها ذُريرةٌ واعية ينحسر بعض الشيء وخَفَّت حدَّته مع استرخاء جسدها بعد زوال خطر السُّمِّ، لكنها كانت لا تزال تشعر بوجود تلك الذُريرة الأخرى، فلمستها شاعرةً بالذنب من أنها سمحت لهذا بأن يحدث لها.

أنا السَّبب يا ابنتي الصغيرة العزيزة المسكينة التي لم تكتمل بعد. أنا من جلبتُكِ إلى هذا الكون وعَرَّضْتُ وعيك لطوارئهِ المختلفة دون تحصينكِ بأيِّ دفاعات.

خرجت من الدُرَيْرَة الأخرى دفقة حب وراحة بالغة الضالّة،
كأنها انعكاس لما صبّته فيها جيسيكَا آنفًا.
وقبل أن تتمكّن جيسيكَا من التجاوب، شعرت بحضور الأدب،
الذكرى المُلحّة التي تفرض نفسها رغماً عن الشخص. كان هناك
شيء يجب فعله. حاولت تحسّس الشيء في الظلام، لكنها شعرت
بالعقار المتغيّر يعيق إدراكها ويشوّش حواسّها.
فكّرت: بإمكانني تغيير ذلك. بإمكانني التخلص من تأثير العقار
وجعله غير ضار. لكنها شعرت بأن هذا سيكون خطأً. أنا في
منتصف طقس اندماج.

ثم أدركت ما يجب عليها فعله.
فتحت جيسيكَا عينيها، وأشارت إلى قرية الماء التي كانت
تشاني تحملها الآن فوق رأسها.
قالت جيسيكَا: «لقد بُورك الماء. امزجوا المياه، ودعوا التغيير
يصل إلى الجميع. ليتشارك الشّعب البركة».
وفكّرت: دعوا العامل المحفّز يقوم بعمله، دعوا الناس يشربون
منه ويزداد وعي بعضهم ببعض لوهلة. لقد صار العقار آمناً الآن،
بعد أن حوّله الأمّ الموقّرة وغيّرت خصائصه.
لكن الذكرى المُلحّة واصلت فرع عقلها بقوة. أدركت أن هناك
شيئاً آخر يجب أن تفعله، لكن الدواء جعل التركيز صعباً.
آها... الأمّ الموقّرة العجوز.

قالت جيسيكَا: «التقيت الأمّ الموقّرة رامالو. لقد رحلت، لكنها
باقية. فلنكرّم ذكرائها في الطقس».
تعجّبت جيسيكَا: من أين لي بهذه الكلمات؟
وأدركت أنها أتت من ذكرى أخرى، من الحياة التي مُنحت لها
وأصبحت جزءاً منها.

لكن شيئاً ما بشأن هذه المنحة بدا غير مكتمل.

تردّد صدى الذكرى الأخرى بداخلها: «دعهم ينغمسون في عريبتهم الجماعية، فمتعهم في الحياة قليلة. وأجل، أنا وأنت في حاجة إلى هذا الوقت القصير كي تلمّ إحدانا بالأخرى قبل أن أنسحب وأتسرّب من ذاكرتك. أشعر بأنني ارتبطت بأجزاء منك بالفعل. آها، إن عقلك لملوء بأشياء مثيرة للاهتمام.. أشياء كثيرة لم أكن أتخيّلها».

وهنا، فتحت ذاكرة العقل المُكبّسل فيها نفسها لجيسيكَا، وسمحت لها بإلقاء نظرة على رواق واسع تقف فيه أمّهات موقّرات أخريات بدا سلسالهن كأنه يمتدّ إلى ما لا نهاية. جفلت جيسيكَا وانتكصت، خائفةً من أن تضيع في محيط من الواحدية وتفقد ذاتها. لكن الممرّ ظلّ مفتوحاً، كاشفاً لجيسيكَا أن ثقافة الفرمن أقدم بكثير مما كانت تظن.

رأت أن الفرمن عاشوا في رغدٍ على كوكب بوريترين، حتّى لانوا وأصابهم رخاء كوكبهم بالوهن، وصاروا بعدها لقمة سائغة للفرزة الإمبراطوريين يحصدونهم ويزرعونهم في مستعمراتٍ بشرية على بيلا تيجيوس وسالوسا سوكانداس.

وبالمشاعر الفجع التي استشعرتها جيسيكَا في ذلك الشتات) من مكانٍ بعيد في نهاية الرواق، صرخ خيالٌ صوتي: «لقد حرمونا الحج*!».

على امتداد هذا الرواق الباطني، رأت جيسيكَا زرائب العبيد على بي لا تي جي وس، وعمليات الفرز والتخلّص من الضعفاء، وتوزيع الناس على كوكبي روساك وحارمونثب. تفتّحت أمامها مشاهد عنف وحشية كبتلالات زهرة مريعة، ورأت خيط الماضي

الذي تناقلته السِّيَّادينا تلو السِّيَّادينا: في البداية عن طريق التواتر الشفوي المضمَر في أناشيد الرمال، ثم بشكل منقَّح ومحسَّن من خلال أُمَّهاتهم الموقَّرات عندما اكتشفن العقار السَّام على رُوسَّاك. والآن تطوَّر الأمر على أَرَّاكس إلى قدرة غامضة، بعد اكتشاف ماء الحياة.

من نهاية الرواق الباطني، صاح صوتٌ آخر: «أبدأ لن نسامح! أبدأ لن ننسى!».

لكن اهتمام جيسيكا كان منصباً على ما تكشف لها بشأن حقيقة ماء الحياة، بعد أن رأت مصدره: إنه الماء الذي تنقيؤه دودة الرمال، أو الصَّانعة، عند احتضارها. وعندما رأت عملية قتلها في ذاكرتها الجديدة، كتمت شهقة كادت أن تفلت منها.

إنهم يفرقونها!

- «أُمَّاه، هل أنت بخير؟».

اقتحم صوت پول عليها خلوتها الذهنية، فجاهدت جيسيكا كي تنظر إليه عبر أستار وظلمات وعيها الداخلي، إدراكاً منها لواجبها تجاهه، ولكن باستياء وتبرُّم من وجوده.

أنا كشخصٍ خُدَّرت يداها وظلَّتْ بلا إحساس منذ اللحظة الأولى التي وعى فيها، ثم جاء يومٌ استعاد فيه القدرة على الإحساس بالإكراه.

علقت الفكرة بذهنها، وحوَّطت وعيها بالكامل.

بعدها صحت: «انظروا! ليس لي يدان!»، لكن الناس من حولي قالوا: «وماذا تكون الأيدي؟».

كرَّر پول سؤاله: «هل أنت بخير؟».

- «أجل».

أشار إلى القرية التي بين يدي تشاني وقال: «ألا بأس بأن أشرب من هذا الماء؟ يريدونني أن أشرب منه».

فهمت المعنى الخفي في كلماته، وأدركت أنه تبين وجود السُّمِّ في المادَّة الأصلية قبل تغيُّرها، وأنه كان قلقًا عليها. تراءى لجيسيكا حينها أن قدرات پول الاستبصارية ليست مطلقة. لقد كشف سؤاله لها الكثير.

قالت: «تستطيع الشرب منه، لقد تبدَّل». ونظرت خلفه فرأت ستيلجار يرمقها ويتفحَّصها بعيني قاتمتين كالخبر.

ثم قال: «الآن عرفنا أنك لست دجَّالة».

استشعرت المعنى الخفي في كلماته هو أيضًا، ولكن حالة التشويش الناتجة عن العقار كانت تطفئ على حواسها. كم كانت دافئة ومريحة. ما أكرم هؤلاء الفرمن الذين ضمُّوها إلى رحاب هذه الرفقة.

لاحظ پول أن العقار يستحوذ على أُمِّه.

راح يفتِّش في ذاكرته، في الماضي الثابت، وفي الاحتمالات المستقبلية المتغيرة. كان الأمر أشبه بالبحث في لحظات مجمَّدة في الزمن، مربكة لعدسة عينه الداخلية. كان من الصعب فهم الشظايا عند انتزاعها من سياق الزمن المتدفِّق.

بإمكانه جمع معلومات عن هذا العقار، وفهم ماذا يفعل بأُمِّه، ولكن المعلومات كانت تفتقر إلى الإيقاع الطبيعي، وتفتقر إلى النظام الذي يساعد على التدبُّر.

فجأة أدرك أن رؤية ماضي الحاضر سهلة المرام، أمَّا التحدِّي الحقيقي أمام الاستبصار فيمكن في رؤية ماضي المستقبل.

ففيه، تصرُّ الأحوال على ألا تبدو على حقيقتها.

قالت شاني: «اشرب»، وحرَّكت خرطوم القربة تحت أنفه.

اعتدل پول محدِّقًا إلى تشاني. شعر بإثارة كبيرة تملأ الهواء.

كان يعلم ما سيحدث إذا شرب هذا العقار الممزوج بالاسپايس،

بما فيه من خلاصة المادَّة التي أحدثت فيه التغير. سيعود إلى

رؤية الزمن مجردًا، إلى رؤيته يتحوَّل إلى مكان، وسيجلسه الزمن

فوق القمة الشاهقة إيَّاها، ويتحدَّاه أن يفهم.

من خلف تشاني، قال ستيلجار: «اشرب يا فتى، إنك تعطلُّ

مراسم الطقس».

أصغى پول إلى الحشد، وسمع نبرة الانجذاب في أصواتهم.

كانوا يقولون: «لسان الغيب، المؤدَّب!».

نظر إلى أمِّه فبدت له نائمةً بسلام في وضعية الجلوس،

وتتنفَّس بانتظام ويعمق. جاءت عبارة من ماضي مستقبله الموحش

المنعزل وقالت: «إنها تمام في ماء الحياة».

جذبه تشاني من كُمه.

أخذ پول الخرطوم في فمه، مستمعًا إلى صياح الناس.

اعتصرت تشاني القربة فأحسَّ بالسائل يتدفَّق في حلقه، وشعر

بدوارٍ من أبخرته. أخذت تشاني الخرطوم من فمه، وناولت القربة

إلى الأيدي التي امتدَّت إليها من أرضية الكهف. تركَّزت عيناه

على ذراعها، وعلى شريط الحداد الأخضر المربوط حولها.

مع اعتدالها، لاحظت تشاني اتِّجاء نظرتة، فقالت: «أجل،

بإمكاني أن أحزن عليه حتَّى في أثناء السعادة التي تجلبها علينا

المياه. هكذا تعلَّمنا منه»، ثم وضعت يدها في يده، وجذبه عبر

الحافّة: «نحن متشابهان في شيء يا أصول، لقد فقد كلانا أباه على يد الهراكنة».

تبعها پول، شاعرًا بأن رأسه قد انفصل عن جسده وأعيد تثبيته كيفما اتَّفَق، وبساقيه بعيدتين ومطاطيتين.

دخلا إلى ممرٍّ جانبيٍّ ضيّق، جدرانُه مضاءة بضوءٍ خافت منبعث من كرات إنارة متباعدة. شعر پول بأن العقار بدأ يؤثر فيه تأثيرًا فريدًا، ويُفَتِّح الزمن أمامه كما تتفتّح الزهرة. أحسَّ بحاجة إلى الاتِّكاء على تشاني وهما ينعطفان إلى نفقٍ مظلمٍ آخر.

أثار جسدها الناعم المتماسك الذي لمسه من فوق ثوبها الدماء في عروقه. اختلط الإحساس بتأثير العقار، ما أدَّى إلى طي المستقبل والماضي في الحاضر، تاركًا له هامشًا ضئيلاً من الرؤية الثلاثية الأبعاد للزمن.

همس لها: «إنني أعرفك يا تشاني، لقد سبق أن جلسنا على حافّة فوق الرمال بينما كنت أهدئ مخاوفك. لقد تعانقنا في ظلمة السييتش. لقد...». شعر بأنه يفقد تركيزه، فحاول هزَّ رأسه، فتعثّر.

أسندته تشاني، وقادته عبر ستائر قماشية سميكة إلى دفء مسكنٍ خاص غارق في إضاءة صفراء، تتناثر فيه الطاولات المنخفضة، والوسائد، وحشايا نوم تغطّيها مفارشٌ برتقالية. أدرك پول أنهما توقّفا، وأن تشاني تقف أمامه وفي عينيها نظرة تكشف ما يعمل في صدرها من رعب هادئ.

همست له: «يجب أن تخبرني».

قال لها: «أنت سيّهيّا، ربيع الصّحراء».

قالت: «عندما تتشارك القبيلة ماء الحياة، ننصهر معاً، كلنا، في بوتقة واحدة. نشاطر. إنني أشعر بالآخرين معي، لكنني... أخشى مشاطرتك».

- «لماذا؟».

حاول تركيز انتباهه عليها، لكن الماضي والمستقبل كانا يندمجان في الحاضر، ويطمسان صورتها. ورآها في طرق ومواقف وأماكن لا حصر لها.

قالت: «فيك شيءٌ يثير الخوف. عندما أخذتك بعيداً عن الآخرين، فعلت ذلك لأنني شعرت بما يريدونه. إن حضورك... يرهق الناس. إنك تجعلنا... نرى أشياء!».

أرغم نفسه على التحدث بوضوح: «ماذا ترين؟».

خففت بصرها إلى يديها، وقالت: «أرى طفلاً... بين ذراعيّ. إنه طفلنا، أنا وأنت»، ثم وضعت يدها على فمها وأردفت: «لماذا ألف كل سمة من سماتك؟».

أخبره عقله: /إنهم يتمتعون بشيءٍ من الموهبة الاستبصارية، لكنهم يكتُمونها لأنها ترعبهم.

ثم في لحظةٍ جلاءٍ عابرة، رأى تشاني ترتجف.

سألها: «ما الذي تريدني قوله؟».

همست وهي لا تزال ترتجف: «أصول».

قال لها: «ليس بإمكانك التراجع إلى المستقبل».

ثم اجتاحه تعاطفٌ عميق نحوها، فجذبها نحوه، وأمسك برأسها قائلاً: «تشاني، لا تخشي شيئاً».

بكت قائلة: «ساعدني يا أصول».

مكتبة

وبينما كانت تتحدث، شعر بأن العقار يُكمل عمله بداخله، ممزقًا الحُجُب، كاشفًا له الاضطراب البعيد الكئيب الذي يحتل مستقبله.

قالت تشاني: «لِمَ أنت صامت؟».

حمل نفسه على الثبات في مواجهة رؤى الوعي المفزعة، ورأى الزمن يمتد في بُعد العجيب، في حالة توازن دقيقة وفي الوقت نفسه يحوم في دوامة، محصورًا في نطاقه الضيق لكنه منتشر كأنه شبكة تجمع عوالم وقوى لا حصر لها، حبلاً مشدودًا يجب أن يسير عليه لكنه يتأرجح ويتميل تحت قدميه مهددًا بسقوطه. رأى في جهة الإمبراطورية، وأحد الهراكنة اسمه فيد راوثا ينقض عليه بنصل قاتل، والساردوكار يغادرون كوكبهم في سُعار ناشرين المذابح على أراكس، والنقابة تتواطئ وتحيك المؤامرات، والبني جيسيرت يواصلن برنامج التزاوج الانتقائي الذي بدأنه. كانوا جميعًا يحتشدون أمامه في الأفق كعاصفة رعديّة، عاصفة لا يصدّها عن سبيلها سوى الفرمن ومؤدّبهم: الفرمن، ذلك المارد النائم المتأهب لشنّ حربه الصليبية الوحشية عبر أرجاء الكون. وجد پول نفسه في المركز، عند المحور الذي يدور حوله هيك كل شيء، سائرًا على خيط السلام الرفيع، مع قدر من السعادة، وتشاني إلى جواره. ثم رأى هدنة من كل هذا ممتدة أمامه، فترة هدوء نسبي في سيبتش خفي، لحظة سلام بين فترات العنف.

قال لها: «لا يوجد مكان آخر للسلم».

غمغمت تشاني: «أصول، إنك تبكي! أصول، يا قوّتي، هل تذرف من رطوبتك على الموتى؟ ولكن على موتى من؟».

قال: «على أناس لم يموتوا بعد».

قالت: «إذًا دعهم يحظون بوقتهم في الحياة».

شعر -عبر ضبابية العقار التي تغلف وعيه- بصحّة كلامها، فضمّها إليه بقوة غاشمة، وقال: «سيهيا!».

وضعت كفّها على خدّه، وقالت: «لم أعد خائفة يا أصول. انظر إليّ. إنني أرى ما تراه وأنا بين ذراعيك».

سألها: «وماذا ترين؟».

- «أرانا نمارس الحب في وقتٍ هادئٍ يتخلّل عواصفٍ عاتيةٍ. أرى ما قدّر لنا أن نفعله».

تملّك منه العقار مجدّدًا، ففكّر: كم من مرّات منحتني فيها الراحة والنسيان! شعر من جديد بالسطوع الباهر نافذ البصيرة، والصورة واضحة التجسيم التي يرسمها للزمن، ورأى مستقبله يصبح ذكريات. رأى الإهانات الرقيقة المسموح بها في الحب الجسدي، وانصهار الذات في الذات، واللين والعنف. غمغم قائلاً: «أنت القويّة فينا يا تشاني. ابقِ معي».

قالت: «إلى الأبد»، وباسته من خدّه.

الكتاب الثالث

النَّبِيُّ

لم يكن لأبي علاقة وثيقة بأحدٍ، لا بامرأةٍ ولا برجلٍ ولا بطفلٍ. الشخص الوحيد الذي ربطته علاقة صداقة عابرة مع الإمبراطور الباديشاه كان الكونت هاسيمير فنرينج، رفيقه من أيام الطفولة. وقد لاح الدليل الأوّل على إخلاص الكونت لأبي في فعلٍ إيجابيّ: إزالة شكوك مجلس اللاندراد حوله بعد واقعة أراكس. قالت أمّي إن هذا كلّفه رُشى اسپايس تفوق قيمتها مليار سولاري، فضلاً عن هدايا أخرى كثيرة: جوارٍ، وتكريمات ملكية، ورتب شرفية. أمّا الدليل الجوهرى الثانى على إخلاص الكونت لأبي فتبدّى في فعلٍ سلبيّ: لقد رفض الكونت قتل رجلٍ معيّن على الرغم من أن ذلك كان في مقدوره، وعلى الرغم من أوامر أبي. عن تفاصيل هذا الأمر سأستفيض بعد قليل.

من كتاب «الكونت فنرينج: سيرة موجزة» للأميرة إيرولان.

قطع البارون فلاديمير هاركونن رواق جناحه الخاص في نوبة من الغضب، منسلّاً عبر بقع ضوء شمس الأصيل الساقطة من النوافذ العالية. كان جسده يتمايل ويتلوّى بحركات عنيفة في مضادّات الجاذبية التي تحمله.

اندفع عابراً مطبخه الخاص، والمكتبة، وغرفة الاستقبال الصغيرة، حتّى وصل إلى غرفة الخدم التي كان استرخاء المساء قد بدأ يحلّ على أفرادها.

كان قائد الحرس، آيكين نيفود، جالسًا القرفصاء على ديوان عند الحائط المقابل، تبدو على وجهه المسطح سيماء البلادة من جراء مخدّر السموتا، ومن حوله يصدح نحيب موسيقى السموتا الغريب، في حين ما جلس مُسامره إلى جواره، رهن إشارته. زأر البارون: «نيفود!».

تدافع الرجال متخبطين.

وقف نيفود، تعلو وجهه بلادة المخدّر مع مسحة من الشحوب تفضح خوفه، وتوقفت موسيقى السموتا.

قال نيفود: «سيّدي البارون». وحده المخدّر الذي حاش الارتجاف عن صوته.

- «منذ متى وأنت قائد حرسى يا نيفود؟».

ابتلع نيفود ريقه وقال: «منذ أحداث أراكس يا مولاي، عامان تقريبًا».

- «وهل حرصت على استباق المخاطر التي تهدّد حياتي خلال هذه المدة؟».

- «لا يصرفني عنها شيء يا سيّدي».

زأر البارون: «أين فيد راوثا إذا؟».

قال نيفود مرتعدًا: «سيّدي؟».

عاد صوته ناعمًا وهو يقول: «ألا تعتبر فيد راوثا خطرًا يهدّدني؟».

بلّل نيفود شفّتيه بطرف لسانه، وزالت عن عينيه بعض من بلادة المخدّر وهو يقول: «فيد راوثا في مهاجع العبيد يا سيّدي». ارتجف البارون وهو يحاول السيطرة على غضبه: «مع النساء مجدّدًا، أليس كذلك؟».

- «مولاي، قد يكون...».

- «صمتاً».

خطا البارون خطوة أخرى داخل الحجرة، ولاحظ كيف تراجع الرجال مفسحين مساحة حول نيفود ليفصلوا أنفسهم عن المغضوب عليه.

سأله البارون: «ألم أمرك بأن تعرف بالتحديد مكان ولي العهد طوال الوقت؟». ثم اقترب خطوة وقال: «ألم أمرك بأن تراقب كل كلمة يقولها، وتعرف لمن يقولها؟». ثم خطا خطوة أخرى وقال: «ألم أمرك بأن تبلغني كلما دخل مهاجع الجواري؟». ابتلع نيفود ريقه، وتفضّد العرق من جبينه.

سيطر البارون على صوته وقال بنبرة فاترة تكاد تخلو من أيّ انفعال: «ألم أمرك بهذه الأشياء؟». أوماً نيفود.

«وَألم أمرك بأن تفحص كل الفلمان العبيد الذين يُرسلون إليّ، وأن تفعل ذلك بنفسك... شخصياً؟». مرّة أخرى، أوماً نيفود.

سأله البارون: «إذاً، ربّما فانتك رؤية الشّية على فخذ الغلام الذي أرسل لي هذا المساء؟ ربّما...». - «عمّي».

استدار البارون بسرعة ورأى فيد راوثا واقفاً عند عتبة الباب. حضور ابن أخيه هنا والآن، والعجلة البادية على ملامحه التي لم ينجح في إخفائها، كشفّا له الكثير. لا شك أن لفيد راوثا شبكة تجسّس خاصّة تراقب أفعال وتحركات البارون.

قال البارون: «في جناحي جُثة أريدكم أن تتخلّصوا منها»، وأبقى يده على سلاح المقدوفات تحت رداءه، ممثلاً لكون درعه من أفضل الأنواع.

ألقى فيد راوثة نظرة إلى الحارسين الواقفين عند الحائط الأيمن، وأوماً لهما. خرج الاثنان في سرعة من الباب، وانطلقا عبر الردهة باتجاه جناح البارون.

فكر البارون: هذان إذاً من جواسيسه! هذا الوحش الصغير أمامه الكثير ليتعلمه عن المؤامرات!

قال البارون: «أفترض أنك تركت الأوضاع هادئة في مهاجع العبيد يا فيد».

- «كنت ألعب لعبة خوفو الاستراتيجية مع القيم على العبيد». قالها فيد راوثة، وفكر: ما المشكلة يا ترى؟ من الواضح أن الغلام الذي أرسلناه إلى عمي قد قُتل. لكنه كان مثاليًا لهذا الغرض. حتى حوَّاط ما كان ليختار أفضل منه. كان الغلام مثاليًا! قال البارون: «تلعب الشطرنج الهرمي، كم هذا جميل! وهل ربحت؟».

- «أنا... آه... أجل يا عمي». قالها فيد راوثة وهو يجاهد لإخفاء توتره.

فرقع البارون بإصبعيه وقال: «نيفود، هل ترغب في استعادة ثقتي بك؟».

قال نيفود مرتعشاً: «مولاي، ماذا اقترفت؟».

قال البارون: «لا يهم هذا الآن. لقد ربح فيد القيم على العبيد في شطرنج خوفو، أسمعت ذلك؟».

- «أجل... يا مولاي».

قال البارون: «أريدك أن تأخذ ثلاثة رجال وتذهب إلى القيم على العبيد. اخنقه وائتني بجثته عندما تنتهي لتأكد من أنك

نَفَذَتْ أَوْامِرِي كَمَا طَلَبْتُ. لَا يُمْكِنُ أَنْ نَقْبَلَ بِوُجُودِ لَاعِبِ شَطْرِنَجٍ
غَيْرِ مَاهِرٍ ضَمِنَ مَوْظَفِينَا».

شَحِبَ وَجْهُ فِيدِ رَاوِثًا، وَتَقَدَّمَ خُطْوَةً: «لَكِنْ يَا عَمِّي، أَنَا....».

لَوَّحَ الْبَارُونُ بِيَدِهِ وَقَالَ: «لَا حَقًّا يَا فِيدُ، لَا حَقًّا».

عَادَ الْحَارِسَانِ مِنْ جَنَاحِ الْبَارُونِ، وَمَرًّا مَتَرْنُحَيْنِ مِنْ أَمَامِ بَابِ
الْغُرْفَةِ وَجَثَّةِ الْفَلَامِ تَتَدَلَّى بَيْنَهُمَا مَرْتَخِيَّةُ الذَّرَاعَيْنِ. رَاقِبَهُمَا
الْبَارُونُ حَتَّى غَابَا عَنِ الْأَنْظَارِ.

خَطَا نَيْفُودُ مَقْتَرِبًا مِنَ الْبَارُونِ: «أَتُرِيدُنِي أَنْ أَقْتَلَ الْقِيَمَ عَلَى
الْعَبِيدِ الْآنَ يَا سَيِّدِي؟».

قَالَ الْبَارُونُ: «أَجَلُ، الْآنَ. وَعِنْدَمَا تَنْتَهِي، أَضِفْ هَذَيْنِ اللَّذَيْنِ
مَرًّا لَتَوْهُمَا عَلَى قَائِمَتِكَ. لَا تَعْجِبْنِي الطَّرِيقَةَ الَّتِي يَحْمِلَانِ بِهَا
تِلْكَ الْجَثَّةَ. عَلَى الْمَرَّةِ أَنْ يُوَدِّيَ هَذِهِ الْأُمُورَ بِإِتْقَانٍ. أُرِيدُ مَعَايِنَةَ
جَثَّتَيْهِمَا كَذَلِكَ».

قَالَ نَيْفُودُ: «سَيِّدِي، هَلْ هَذَا بِسَبَبِ شَيْءٍ اقْتَرَفَ....».

قَالَ فِيدُ رَاوِثًا: «أَفْعَلْ كَمَا أَمَرَكِ سَيِّدُكَ»، مَفْكَرًا: كُلُّ مَا يُمْكِنُنِي
تَمْنِيهِ الْآنَ هُوَ النِّجَاةُ بِجُلْدِي.

فَكَّرَ الْبَارُونُ: جَمِيلٌ! مَا زَالَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَقْلُلُ خَسَائِرَهُ. وَابْتَسَمَ
الْبَارُونُ فِي قَرَارِهِ نَفْسَهُ مَفْكَرًا: كَمَا يَعْرِفُ أَيْضًا مَا سِيرَضِينِي
وَمَا سَيَمْنَعُ انْصِبَابَ غَضَبْتِي عَلَيْهِ. إِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّي مُضْطَرٌّ إِلَى
الْحِفَازِ عَلَيْهِ، فَمَنْ غَيْرُهُ سَيَتَسَلَّمُ مَقَالِيدَ الْأُمُورِ الَّتِي سَيَأْتِي يَوْمٌ
وَسَاءُ غَادِرْهَا؟ لَيْسَ لَدَيَّ مَنْ يَصْلُحُ غَيْرُهُ. لَكِنْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ
يَتَعَلَّمَ! وَلَا بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أَحَافِظَ عَلَى سَلَامَتِي رِيثَمَا يَتَعَلَّمَ.

أَشَارَ نَيْفُودُ إِلَى رَجَالِهِ، وَقَادَهُمْ عَبْرَ الْبَابِ.

سَأَلَ الْبَارُونُ: «هَلَّا تَرَاغِبُنِي إِلَى جَنَاحِي يَا فِيدُ؟».

قَالَ فِيدُ: «أَنَا طَوَّعَ بَنَانُكَ»، ثُمَّ انْحَنَى مَفْكَرًا: لَقَدْ كَشَفْنِي.

قال البارون: «من بعدك»، وأشار إلى الباب.
لم يبدُ الخوف الذي يشعر به فيد راوثة إلا في لحظة تردُّ عابرة، وسأل نفسه: هل أخفقت تمامًا؟ هل سيطعنني في ظهري بنصلٍ مسموم ببطء، مخترقًا درعي؟ هل لديه وارث بديل؟
أمَّا البارون فكان يفكر وهو يسير خلف ابن أخيه: دعه يختبر لحظة الرعب هذه. سوف يخلفني، لكن في الوقت الذي اختاره أنا. لن أجعله يضيّع ما بنيته هباءً!

حاول فيد راوثة ألا يسرع الخطى. شعر بالقشعريرة تزحف على ظهره كأن جسده نفسه يتساءل متى ستأتي الضربة، وراحت عضلاته تتشنج وترتخي بالتناوب.

سأله البارون: «هل سمعت آخر الأخبار الآتية من أراكس؟»
- «كلًا يا عمي».

أرغم فيد راوثة نفسه على ألا ينظر خلفه وهو ينعطف في نهاية الرواق خارجًا من جناح الخدم.

قال البارون: «يُقال إن الفرمن لديهم نبي جديد أو زعيم ديني ما. يسمونه المؤدّب. هذا مضحك جدًّا في الحقيقة، فالكلمة تعني "الفأر" في لغتهم. أمرت رابان بأن يتركهم يمارسون ديانتهم بحرية، فستبقيهم مشغولين».

قال فيد راوثة: «هذا أمرٌ مثير للاهتمام جدًّا يا عمي». ثم انعطف إلى الممرّ الخاص الذي يقود إلى جناح عمّه وهو يتساءل: لماذا يتحدث عن الدين؟ أفي هذا تلميح خفي لي؟
قال البارون: «مثير صحيح، أليس كذلك؟».

وصلا إلى جناح البارون، ومرًّا بصالون الاستقبال، ومنه إلى غرفة النوم. استقبلتهم آثارٌ خفيفة تدلُّ على حدوث صراع هنا:

كرة إنارة في غير موضعها، وسادة سرير ملقاة على الأرض، بكرة مهدئة مفتوحة متدلية من عارضة السرير؟
قال البارون: «كانت خطئة ذكية»، مبقياً الدرع الذي يرتديه مضبوطاً على طاقته القصوى، ووقف يواجه ابن أخيه: «لكن ليس بالدرجة الكافية. قل لي يا فيد، لِمَ لم تطعنني بنفسك؟ لقد أتيت أمامك فرصاً كثيرة».

عثر فيد راوثا على أحد المقاعد المضادة للجاذبية، وجلس عليه بلا اكتراث دون أن يؤذن له.
وفكر: عليّ أن أتعلّى بالجرأة الآن.
ثم قال: «علّمتني ألا ألوث يدي».

قال البارون: «صحيح، فعليك أن تقف أمام الإمبراطور وتقول بصدق إنك لم تفعل الأمر، لأن السّاحرة الجالسة إلى جوار الإمبراطور ستصفي جيداً إلى كلماتك، وستتبين الحقّ أو الباطل فيها. أجل، حدّرتك من ذلك».

سأله فيد راوثا: «لِمَ لم تشتري إحدى نساء البني جيسيرت يا عمّي؟ فلو كان بجوارك كاشفة حقيقة...»
قاطعه البارون بحدّة: «أنت تعرف ذوقي!».
تفرّس فيد راوثا في ملامح عمّه وقال: «ولو، واحدة منهم ستكون ذات قيمة...».

زمجر البارون: «لا أثق بهن! وكفّ عن محاولة تغيير الموضوع!».
قال فيد راوثا مهادناً: «كما تشاء يا عمّي».
قال البارون: «أتذكّر إحدى مبارياتك في الحلبة منذ سنوات. في ذلك اليوم بدا أن العبد الذي تنازله كأنه أُعيدَ لقتلك. هل كان الأمر كذلك بالفعل؟».

- «كان هذا منذ وقت طويل يا عمي، على أي حال...».

قاطعه البارون قائلاً: «لا تحاول التهرّب من السؤال أرجوك»، وفضحت الشدة في نبرة صوته مقدار الغضب الذي يحاول كبّحه. نظر فيد راوثا إلى عمه وفكّر: إنه يعرف، وإلا ما كان سيسأل.

- «كانت تمثيلية يا عمي، ربّبتها لزعرعة ثقتك في قهرمانك».

قال البارون: «تفكير ذكي، وجريء أيضاً. هذا العبد المصارع كاد يفتك بك، أليس كذلك؟».

- «بلى».

- «لو كنت تتحلّى ببراعةٍ ودهاءٍ يتناسبان مع هذه الشجاعة، لأصبحت عظيم الشأن». قالها البارون وهزّ رأسه أسفاً، وكما شعر مرّاتٍ كثيرة منذ ذلك اليوم الرهيب على أراكس، وجد نفسه نادماً على فقدان منّاته بايتر. كم كان رجلاً دقيقاً وشيطاني التفكير، على الرغم من أن ذلك لم ينقذه. مجدّداً، هزّ البارون رأسه. للقدر طريقه الغامضة أحياناً.

أجال فيد راوثا بصره في حجرة النوم، متأملاً آثار الصراع، متعجباً كيف تغلّب عمه على العبد الذي أعدّوه بعناية شديدة. سأل البارون: «تساءل كيف تغلّبت عليه، أليس كذلك؟ أم يا فيد، دعني أحتفظ لنفسني ببعض الأسلحة لحمايتي في شيخوختي. من الأفضل أن نستغلّ هذا الوقت لعقد صفقة».

حدّق فيد راوثا إليه. صفقة! إنه ينوي إبقائي ولي عهده بلا ريب، وإلا فلمّ المساومة! المرء لا يساوم إلا مع من هم في منزلته أو يقاربونها!

قال فيد راوثا: «أي صفقة يا عمي؟»، وشعر بالفخر لأن صوته ظلّ هادئاً ومتزناً، لم يفضح شيئاً من الابتهاج الذي يملأ صدره.

لاحظ البارون كذلك تحكُّمه في نفسه، فأومأ قائلاً: «أنت قماشة جيِّدة يا فيد، وأنا لا أهدر القماشة الجيِّدة. ومع ذلك، فأنت مصمَّم على رفض معرفة قيمتك الحقيقية عندي. أنت عنيد، ولا تعرف أهميَّة الحفاظ على حياتي بصفتي شخصاً ذا نفع هائل لك. كانت هذه...»، ثم أشار إلى آثار الصراع في غرفة النوم: «حماقةً منك، وأنا لا أكافئ الحماقة».

فكر فيد: ادخل في صلب الموضوع أيُّها العجوز الأحمق.

قال البارون: «أنت تراني عجوزاً أحمق، وعلي أن أشيك عن هذا التفكير».

- «ذكرت شيئاً عن صفقة».

قال البارون: «آه من عجلة الشباب! حسناً، إليك خلاصة الموضوع: ستتوقَّف عن محاولات قتلي الحمقاء هذه، وفي المقابل سأنتحى عن الحكم حين تكون جاهزاً له. سأنتقاع لمنصب استشاري، وسأترك لك كرسي السُّلطة».

- «تتقاعد يا عمي؟».

قال البارون: «ما زلت تراني أحمق، وكلامي هذا أكَّد ظنونك، أليس كذلك؟ أظنُّ أنني أتوسَّل إليك! اخطُ بحذر يا فيد، فهذا العجوز الأحمق اكتشف الإبرة التي زرعته في فخذ الفلام العبد في المكان الذي سأتحسَّسه بيدي، أليس كذلك؟ ومع أقل ضغطة تشكُّ الإبرة المسمومة راحة يد العجوز الأحمق وتنفوس فيها آه يا فيد...».

هزَّ البارون رأسه مفكِّراً: كانت المكيدة ستحقق غرضها لو لم يحذرنني حواط. لكن لأدع الفتى يظن أنني اكتشفت المكيدة بنفسه. فبشكل أو بآخر الفضل يرجع لي بالفعل، فأنا من أنقذ

حَوَّاطٌ مِنْ حَطَامِ أَرَاكُسٍ. لَا بُدَّ لِهَذَا الْفَتَى مِنْ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ بِقَدَرِ
أكبر من الاحترام.

ظَلَّ فِيد رَاوْثَا صَامِتًا، يَصَارِعُ الْأَسْئَلَةَ الَّتِي تَتَنَازَعُ.

أَهُوَ صَادِقٌ فِي كَلَامِهِ؟ هَلْ يَنْوِي التَّقَاعِدَ حَقًّا؟ وَلِمَ لَا؟ أَنَا
مُتَاكِدٌ مِنْ أَنَّي سَأُخْلِفُهُ يَوْمًا مَا إِذَا حَسِبْتَ خَطَوَاتِي بِعَنَافَةٍ. إِنَّهُ
لَنْ يَعِيشَ إِلَى الْأَبَدِ. رُبَّمَا كَانَتْ مُحَاوَلَةُ التَّعْجِيلِ بِالْأَمْرِ حِمَاةً
مُنِّي فَعَلًا.

قَالَ فِيد رَاوْثَا: «تَحَدَّثْتُ عَنْ صَفْقَةٍ، لَكُنْكَ لَمْ تَذْكُرْ شَيْئًا عَنْ
ضَمَانِ الْإِلْتِزَامِ بِهَا».

قَالَ الْبَارُونُ: «تَعْنِي كَيْفَ لِأَحَدِنَا أَنْ يَثِقَ بِالْآخِرِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟
حَسَنًا، بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ يَا فِيد، سَأَعِيْنُ ظَفِيرَ حَوَّاطٍ رَقِيبًا عَلَيْكَ،
فَأَنَا أَثِقُ بِقُدْرَاتِ حَوَّاطِ الْمِنْتَانِيَةِ فِي تِلْكَ الْأُمُورِ. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ
إِلَيَّ، فَلَيْسَ أَمَامَكَ إِلَّا أَنْ تَثِقَ بِكَلَامِي. لَكُنِّي لَنْ أَعِيشَ إِلَى الْأَبَدِ
يَا فِيد، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَذَا عَلَيْكَ أَنْ تَبْدَأَ تَعِي أَنْ هُنَاكَ أَشْيَاءُ
أَعْرِفُهَا عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَلَّمَهَا مِنِّي».

سَأَلَهُ فِيد رَاوْثَا: «سَأَعْطِيكَ تَعْهُدِي، لَكِنْ مَاذَا سَأَخُذُ فِي
الْمُقَابِلِ؟».

قَالَ الْبَارُونُ: «سَأُدْعُكَ تَعِيشَ».

تَفَرَّسَ فِيد رَاوْثَا فِي مَلَامَحِ عَمِّهِ مَجْدَّدًا: سَيَعِيْنُ حَوَّاطٌ مُرَاقِبًا
عَلَيَّ! مَاذَا سَيَقُولُ لَوْ أَخْبَرْتَهُ بِأَنْ حَوَّاطٌ هُوَ مِنْ دَبْرِ تَمَثِيلِيَّةِ
الْمَصَارِعِ الَّتِي كَلَّفَتْهُ قَهْرْمَانُهُ؟ عَلَى الْأَرْجَحِ سَيُتَّهَمُنِي بِالْكَذِبِ
لِمُحَاوَلَةِ تَشْوِيهِ سَمْعَةِ حَوَّاطٍ. كَلَّا، لَقَدْ تَوَقَّعَ ظَفِيرُ حَوَّاطٍ - ذَلِكَ
الْمِنْتَانِيَةُ الدَّاهِيَةُ - هَذِهِ اللَّحْظَةَ.

سَأَلَهُ الْبَارُونُ: «هَا، مَا رَأَيْكَ؟».

- «وماذا بوسعني أن أقول؟ موافق طبعاً».

وفكر فيد راوثا: حوَّاط! أهو يلعب على الحبلين كي يوقع بيننا
العداوة ويحقق غرضاً في نفسه؟ هل انتقل إلى معسكر عمي
لأنني لم أستشره بشأن مسألة الفلام العبد؟
قال البارون: «لم تقل شيئاً بخصوص تعييني حوَّاط رقيباً
عليك».

بدا الغضب على فيد راوثا في توسُّع فتحتي منخاره. لسنوات
كثيرة ظلَّ اسم حوَّاط رمزاً للخطر عند آل هاركونن. والآن اكتسب
الاسم معنىً جديداً، لكنه ما زال خطراً.
قال فيد راوثا: «حوَّاط لعبة خطيرة».

- «لعبة! لا تكن غيبياً. أعرف ما في نفس حوَّاط وكيف أتحمَّكم
به. حوَّاط يملك مشاعر عميقة يا فيد. لا تخشى جانب إلا الرجل
عديم المشاعر. أمّا المشاعر العميقة... فآه، تلك بإمكانك ليها
واستغلالها وفقاً لاحتياجاتك».

- «لا أفهمك يا عمي».

- «أجل، أرى هذا».

لم يبد الاستياء على فيد راوثا إلا في رمشة جفنٍ عابرة.

قال البارون: «ولا تفهم حوَّاط أيضاً».

فكر فيد راوثا: وكذلك أنت!

سأله البارون: «على من يلقي حوَّاط باللائمة على ظروفه
الحالية؟ أنا؟ قطعاً، لكنه كان أداة آتريديزية وتفوّق عليَّ لسنوات
طويلة حتّى تدخلت يد الإمبراطور وقلبت الأوضاع. هذه هي رؤيته
للأمر. كرهه لي مجرد أمر ثانوي الآن. إنه يعتقد أن بإمكانه

التغلب عليّ في أيّ وقتٍ يريد، وباعتقاده ذلك، فهو رجل مهزوم. لأنني أوجّه اهتمامه إلى حيث أريد.. أي ضدّ الإمبراطورية». رسم الفهم خطوطاً عميقة على جبين فيد راوثا، وزمّ شفّتيه قبل أن يسأل: «ضد الإمبراطور؟».

فكّر البارون: دع ابن أخي العزيز يتذوّق حلاوة الفكرة. دعه يقول لنفسه: «الإمبراطور فيد راوثا هاركونن!». دعه يسأل نفسه كم يساوي هذا الحلم. بالتأكيد يساوي الحفاظ على حياة العمّ العجوز الذي بإمكانه تحقيقه له!

ببطء، بلّل فيد راوثا شفّتيه بطرف لسانه. أيعقل أن يكون ما يقوله هذا الأحقّ العجوز صحيحاً؟ في الأمر تفاصيل أخرى أكثر مما هو ظاهر للعيان.

قال فيد راوثا: «وما علاقة حوّاط بهذا الأمر؟».

- «هو يظنّ أنه يستخدمنا لينتقم من الإمبراطور».

- «وبعد أن يتحقّق ذلك؟».

- «إنه لا يفكّر أبعد من انتقامه. ما حوّاط إلّا رجلاً وُجِدَ

ليخدم، وهو لا يعرف هذه الطبيعة عن نفسه من الأساس».

وافقه فيد راوثا: «لقد تعلّمت الكثير من حوّاط»، وشعر بصدق

كلماته وهو ينطقها. «لكن كلّما تعلّمت أكثر، شعرت بأنه يجب

علينا التخلص منه، وسريعاً».

- «ألا تسترح إلى فكرة مراقبته لك؟».

- «حوّاط يراقب الجميع».

- «وقد ينجح في وضعك على العرش. حوّاط ماهر، وخطر،

وداهية. لكنني لن أمنع عنه الترياق بعد. السيف سلاح خطراً يا

فيد، لكننا نملك غمدَ هذا السيف. السُّمُّ الكامن فيه. وعندما

نحرمه الترياق، سيفمده الموت».

قال فيد راوثا: «الأمر أشبه بما يحدث في الحلبة. خداع تلو الخداع تلو الخداع. تراقب المصارع لترى إلى أيّ جهة سيميل، وكيف يتحرّك، وكيف يحمل سكّينه».

وأوماً لنفسه إذ رأى الرضا بادياً على عمّه من كلماته، لكنه فكّر: أجل! الأمر أشبه بالحلبة! لكن مع فارق أن العقل هو التّصل القاطع هنا!

قال البارون: «الآن فهمت حاجتك إليّ. ما زلت ذا نفعٍ لك يا فيد».

فكّر فيد راوثا: عمّي سيفٌ يجدر استخدامه حتّى يثلم ولا يعد في مقدوره يقطع، ثم قال: «أجل يا عمّي».

قال البارون: «والآن، سنذهب إلى مهاجع العبيد، أنا وأنت. وسأشاهدك وأنت تقتل كل النساء في جناح المتعة بيديك».

- «عمّي!».

- «ستحصل على غيرهن يا فيد. لكنني نبّهتك أن الخطأ المرتكب في حقّي لا يمرُّ مرور الكرام».

اسودَّ وجه فيد راوثا، وقال: «عمّي، أنت...».

قاطعه البارون: «ستقبل بعقابك وستتعلم منه».

التقت عينا فيد راوثا بعيني عمّه، ورأى نظرة الشماتة فيهما، ففكّر: ويجب أن أتذكّر تلك الليلة، وبتذكرها، يجب أن أتذكّر ليالي أخرى.

قال البارون: «لن ترفض».

سأل فيد راوثا في سرّه: وماذا ستفعل إذا رفضت أيّها العجوز؟ لكنه كان يعلم أنه قد تكون هناك عقوبة أخرى -أشد وأعنف رُبّما- لكسر شوكته.

قال البارون: «أعرفك جيّدًا يا فيد، لن ترفض».

فكّر فيد راووثا: حسنًا، لي عندك حاجة الآن. أدركت ذلك.
الصفقة تمّت. لكن سيأتي اليوم الذي لن أحتاج إليك فيه..
وعندها...

في أعماق اللاوعي البشري تكمن حاجة مُلحة
إلى أن يكون الكون منطقيًا وقابلًا للفهم. لكن الكون
الحقيقي أبعد ما يكون عن المنطق.
من كتاب «أقوال المؤدّب» للأميرة إيrolان.

قال حوّاط في سرّه: لقد جالست كثيرًا من نبلاء عائلات
الكبيرة، لكنني لم أرق قط شخصًا أخطر ولا أكثر إثارة للاشمئزاز
من هذا الخنزير.

دمدم البارون: «يمكنك التحدّث معي صراحةً يا حوّاط». و
انحنى إلى الورااء في كرسيه المعلق، وعيناه الغائرتان في ثنايا
جلده الممتلئة دهناً تحملقان إلى حوّاط.

نظر المِنْتَات العجوز عينية إلى الطاولة الكائنة بينه وبين
البارون فلاديمير هاركونن، ملاحظًا وفرة الحبيبات على سطحها.
حتّى هذا كان عاملاً يجب مراعاته عند تقييم البارون، مع الجدران
قاعة الاجتماعات الخاصّة الحمراء هذه، ورائحة الأعشاب الحلوة
الخفيفة العالقة في الهواء، التي تخفي تحتها عبير مسكٍ أثقل.
قال البارون: «لم يكن التحذير الذي جعلتني أرسله إلى رابان
نزوةً عابرةً».

ظلّ وجه حوّاط المُسنُّ المملوء بالتجاعيد جامدًا، ولم يكشف
عن شيءٍ من الازدراء الذي يشعر به نحوه، وقال: «أشك في أمورٍ
كثيرة يا سيّدي».

- «أجل. حسنًا، أودّ معرفة ما دخل أراكس في شكوكك
المتعلّقة بسالوسا سوكانداس، ولا تكتفي بأن تقول لي إن
الإمبراطور غاضب بسبب علاقةٍ ما بين أراكس وكوكبه السجني

الغامض. واعلم أنني لم أسارع بإرسال ذلك التحذير إلى رابان إلا لأن الساعي كان مضطراً إلى الصعود على متن سفينة الهايلاينر المغادرة، ولأنك قلت إن الرسالة لا تحتل تأجيلاً. جميل، لا بأس، لكنني أريد تفسيراً الآن».

فكر حواط: إنه ثرثار، ليس مثل ليتو الذي كان بإمكانه إخباري بشيءٍ بمجرد رفعة حاجب أو إشارة يد. ولا مثل الدوق القديم الذي كان يستطيع التعبير عن جملة كاملة بكلمة واحدة. أمّا هذا فأبله! وسيكون تدميره خدمة للبشرية.

قال البارون: «لن تخرج من هنا حتى أحظى بتفسيرٍ كامل مكمل».

قال حواط: «تحدث عن سالوسا سوكانداس بلا اكتراث».

قال البارون: «إنه مجرد مستعمرة عقابية. أوباش المجرة وأحط رعاها يرسلون إلى سالوسا سوكانداس. ما الذي نحتاج إلى معرفته غير هذا؟».

قال حواط: «الظروف القمعية على هذا الكوكب أقسى من أي مكان آخر في الكون. يُقال إن معدل الوفيات بين السجناء الجدد أعلى من ستين بالمئة. ويُقال إن الإمبراطور يمارس هناك أساليب الاضطهاد شتى. هل يسمع المرء كل هذا ولا يطرح أسئلة؟».

زمجر البارون: «الإمبراطور لا يسمح لنبل العائلات الكبيرة بتفتيش سجنه. لكنه في المقابل لم يطلب أن يتفقد زنازيني».

قال حواط: «لا تنس أن الفضول بشأن سالوسا سوكانداس... آه...»، ثم وضع إصبعاً نحياً على شفثيه وأكمل: «... محظور».

- «وليكن، الرجل غير فخور ببعض الأشياء التي يفعلها هناك».

ارتسمت على شفتي حوَّاط الداكنتين ابتسامةٌ خفيفةٌ تكاد لا تلاحظ، وتألَّأت عيناه في ضوء أنبوب الإنارة وهو يحدِّق إلى البارون: «ألم تتساءل أبدًا من أين يأتي الإمبراطور بساردوكاره؟». زَمَّ البارون شفَّتيه الغليظتين، فأكسب هذا وجهه ملامح طفلٍ عابس، وحمل صوته نبرةً مشاكسةً وهو يقول: «إنه يجنِّدهم بالطبع. أعني، عن طريق التجنيد الإلزامي الذي يفرضه، ثم ينتقي متطوِّعين من بين الجنود....».

انفجر حوَّاط مقاطعًا: «محضُ هُراء! القصص التي تسممها عن مآثر السَّارداوكار ليست شائعات. إنها روايات الشهود القلائل الذين نجوا من قتالهم».

قال البارون: «السَّارداوكار مقاتلون من الطراز الأوَّل، لا شك في هذا. لكنني أظن أن هَوَّاتي...».

زمجر حوَّاط: «حفنة من الهواة بالمقارنة! أظنُّ أنني لا أعرف لماذا انقلب الإمبراطور على آل آتريديز؟».

حدَّره البارون: «هذا ليس مجالاً مفتوحاً لتكهُّناتك». سأل حوَّاط نفسه: هل من المعقول أنه لا يعرف دوافع الإمبراطور وراء الأمر؟

قال حوَّاط: «كل المجالات يجب أن تكون مفتوحةً أمامي إن كنت تريدني أن أنجح في ما وظَّفتني لفعله. أنا مِنْتَات. لا أحد يحجب المعلومات أو البيانات الحسابية عن مِنْتَات». مرَّت دقيقة طويلة، ظلَّ فيها البارون محدِّقًا إليه، ثم قال: «أفرغ ما في جعبتك يا مِنْتَات».

- «الإمبراطور الهادي شاه انقلب ضد آل آتريديز لأن قائدي الدوق العسكريين، جيرني هاليك ودانكن آيداهو، درَّبا قوَّةً قتاليةً - قليلة

العدد- ووصلأ بها إلى مستوى يكاد يضاهي مستوى السَّاردوكار، بل إن بعضها تفوَّق عليهم. وكان الدوق في وضع يسمح له بزيادة حجم قوَّته لتصبح في مثل قوَّة جنود الإمبراطور».

تدبَّر البارون هذه المعلومات الجديدة، ثم قال: «وما علاقة أراكس بهذا؟».

- «إنه أرضٌ خصبة للمجندين المحتملين المتكيِّفين بالفعل على أقسى الظروف المعيشية».

هزَّ البارون رأسه في عدم تصديق: «لا تقل إنك تقصد الفرمن؟».

- «قطعاً أقصد الفرمن».

- «هاه! لماذا نحذِّر رابان إذا؟ ما من شك أنه لم يتبقَّ سوى حفنة من الفرمن بعد مذابح السَّاردوكار وبعد اضطهاد رابان». رمقه حوَّاط في صمت.

كرَّر البارون: «أقول لك إن من تبقى حفنة على الأكثر! رابان قتل ستَّة آلاف منهم في العام الماضي وحده».

واصل حوَّاط: «وفي العام الذي قبله قتل تسعة آلاف. والسَّاردوكار قبل أن يغادروا قتلوا ما لا يقل عن عشرين ألفاً». سألَه حوَّاط: «وكم بلغت خسائر قوَّات رابان في العامين الماضيين؟».

حكَّ البارون لُغده المتهدِّل، وقال: «حسنًا، إنه يجنُّ أعدادًا كبيرة، ووكلاؤُه يقدِّمون وعودًا باهظة كي...».

سألَه حوَّاط: «هل نقول ثلاثين ألفاً مثلاً؟».

قال البارون: «هذا مبالغٌ فيه بعض الشيء».

قال حوَّاط: «على العكس. أنا قادر على قراءة ما بين سطور تقارير رابان مثلك تمامًا. ولا شك في أنك فهمت تقاريري التي تأتينا من عملائنا».

قال البارون: «أراكس كوكبٌ شرس، خسائر العواصف وحدها قد...».

قاطعهُ حوَّاط: «كلانا يعرف رقم الخسائر الذي تتسبَّب فيه العواصف».

سأله البارون وقد احتقن وجهه بالدماء: «وماذا لو فقد ثلاثين ألفاً؟».

قال حوَّاط: «وفقًا لأرقامك، فقد قتل خمسة عشر ألفًا على مدار عامين، بينما خسر ضعف هذا الرقم. وتقول إن السَّاردوكار استأثروا بعشرين ألفًا آخرين، أو أكثر قليلًا. لقد أطلعت على بيانات حمولات السُّفن الفضائية التي أعادتهم من أراكس. إن كانوا قتلوا عشرين ألفًا، فقد فقدوا خمسة أضعاف هذا الرقم. لِمَ لا تواجه هذه الأرقام يا بارون وتحاول فهم ما تعنيه؟».

قال البارون بنبرةٍ موزونةٍ باردةٍ: «هذه وظيفتك يا منّات، ما معناها؟».

قال حوَّاط: «لقد أخبرتك بالعدد الذي أحصاه دانكن آيداهو في السييتش الذي زاره. الحقيقة واضحة كالشمس. إن كان لدى الفرمن مئتان وخمسون مجتمعًا فقط من مجتمعات السييتشات هذه، فإن عدد سكّانها سيبلغ نحو خمسة ملايين شخص. لكن تقديري يقول إن لديهم ما لا يقل عن ضعف عدد السييتشات هذا. إنهم ينتشرون في كل فجٍّ عميقٍ على سطح الكوكب».

قال البارون: «عشرة ملايين؟».

وارتعث لُغده من الذهول.

- «على الأقل».

زَمَّ البارون شفتيه الغليظتين، وحدّقت عيناه الخرزيتان إلى حوَّاط دون أن يطرّف لهما جفنٌ، وتساءل: أهذا تخمين منتاتي صحيح؟ كيف يمكن أن يكون كذلك ولم يشكَّ أحدٌ في الأمر؟ قال حوَّاط: «إننا لم نخفّض حتّى من معدّل نموّهم السكّاني. كل ما فعلناه أننا خلّصناهم من الأفراد الضعفاء، وتركنا أقوىاءهم ليزدادوا قوّة، تماماً كما يحدث على سالوسا سوكانداس».

زمجر البارون: «سالوسا سوكانداس! ما علاقة هذا بما يحدث على كوكب الإمبراطور السجني؟».

قال حوَّاط: «من ينجو من سالوسا سوكانداس يكون أخشن وأصلب من أغلب الرجال، وعندما تضيف إلى ذلك أفضل تدريب عسكري...».

- «كلام فارغ! فبناءً على حجّتك، بإمكانني تكوين جيشي من الفرمن بعد القهر الذي تعرّضوا له من ابن أخي».

قال حوَّاط بنبرة معتدلة: «ألا تقهر أنت جنودك؟».

- «حسنًا... أنا... لكن...».

قال حوَّاط: «القهر أمرٌ نسبي. أليس حال مقاتليك أفضل من حال غيرهم؟ ألا يرون حولهم بدائل أسوأ بكثير من كونهم جنوداً عند البارون؟».

خيّم الصّمت على البارون، وزاغت عيناه. أيعتدل أن يكون رابان قد منح الهراكنة سلاحهم الأقوى عن غير قصد؟

في النهاية قال: «وكيف تضمن ولاء مثل هؤلاء المجنّدين؟».

قال حواط: «بوضعهم في مجموعات صغيرة، لا يزيد عدد أفرادها على فصيلة عسكرية واحدة. بإخراجهم من ظروفهم القمعية وعزلهم مع كوادر تدريبية تفهم خلفيتهم، ويفضّل أن يكونوا من أشخاص قادمين من نفس الظروف القمعية. ثم زراعة أفكارٍ مضلّةٍ في عقولهم عن أن كوكبهم كان في الحقيقة ساحة تدريب سرّية الغرض منها تفريخ مقاتلين خارقين من نوعيتهم. وفي هذه الأثناء، سأريهم ما يمكن أن يكسبه أمثالهم من الخارقين: المعيشة الرغدة، والنساء الجميلات، والقصور الفخمة.. كل ما تشتهي أنفسهم».

بدأ البارون يومئ: «كما يعيش السّاردوكار في منازلهم». - «مع الوقت، سيبدأ المجنّدون تسويق وجود مكانٍ كسالوسا سوكانداس، لأنه أنتجهم، أنتج النخبة. يعيش جنود السّاردوكار الأقل رتبة حياةً تماثل في بذخها حياة نبلاء العائلات الكبيرة».

همس البارون: «يا لها من فكرة!».

قال حواط: «بدأت تشاركني شكوكي».

سأله البارون: «كيف بدأ هذا الأمر؟».

- «آه، ها قد بدأنا نسأل الأسئلة التي لا إجابة لها: ما منشأ آل كورينو؟ ترى هل كان سالوسا سوكانداس كوكبًا مأهولًا قبل أن يرسل الإمبراطور أولى دفعات سجنائه إلى هناك؟ حتّى الدوق ليتو، وهو قريب إمبراطوري من جهة الأمّ، لم يعرف قط. مثل هذه الأسئلة محظورة».

برقت عينا البارون بالتفكير: «أجل، إنه سرٌّ مخفي بعناية فائقة. إنهم يستخدمون كل وسيلة كي...».

قاطعه حواط بسؤال: «وما الذي يحتاج إلى إخفاء؟ أن

الإمبراطور الپاديشاه لديه كوكب سجن؟ الجميع يعلم هذا . إنه ...».

صاح البارون بغتةً: «الكونت فنرينج!».

بتر حوَّاط عبارته ونظر إلى البارون في عبوسٍ حائر، وسأله:

«ماذا عن الكونت فنرينج؟».

قال البارون: «منذ أعوام عدَّة في عيد ميلاد ابن أخي،

جاء الكونت فنرينج، هذا الطَّاووس الإمبراطوري المتبجَّح،

بصفته مبعوثًا رسميًا كي... آه... يتمم اتفاقية عمل بيني وبين

الإمبراطور».

- «ثم؟».

- «خلال إحدى محادثاتنا... أظن أنني قلت شيئًا عن تحويل

أراكس إلى كوكب سجن. فنرينج وقتها...».

سأله حوَّاط: «ماذا قال بالحرف؟».

- «كيف سأتذكَّر بالحرف؟ كان ذلك منذ مدَّة طويلة و...».

- «سيدي البارون، إن كنت ترغب في تحقيق أقصى استفادة

من خدماتي، فيجب أن تمدَّنني بمعلومات كافية. ألم تُسجِّل هذه

المحادثة؟».

اكفهرَّ وجه البارون غضبًا، وقال: «أنت وبايتر سواء! لا تعجبني

هذه ال...».

قال حوَّاط: «لم يعد بايتر معك يا سيدي، وبالمناسبة، ماذا

حدث لبايتر؟».

قال البارون: «رَفَعَ الكُلفة معي، وكثرت طلباته».

قال حوَّاط: «لقد أكَّدت لي أنك لا تهدر رجلًا نافعًا، فهل

ستهدر طاقتي بتهديداتك ومراوغاتك؟ كنا نتحدَّث عمَّا قلته

للكونت فنرينج».

ببطء، سيطر البارون على ملامحه، وفكّر: عندما يحين الوقت، سأتذكّر أسلوبه معي. أجل، سأتذكّر.

قال البارون: «أمهلني لحظة»، وعاد بذاكرته إلى اللقاء الذي تم في القاعة الكبيرة، وساعده تخيّل شكل مخروط الصّمت الذي وقف فيه على التذكّر. قال البارون: «قلت له شيئاً كالآتي: يعرف الإمبراطور أن القتل بحساب لطالما كان ذراعاً تعضد الأعمال. كنت أشير إلى خسائرنّا من القوى العاملة. ثم قلت شيئاً عن التفكير في حلٍّ آخر للمعضلة الأراكسية، وقلت إن كوكب السجن الإمبراطوري ألهمني للاحتذاء به».

صاح حوّاط: «بحق دماء السّاحرات! وماذا قال فترينج؟».

- «بدأ يستجوبني عنك».

غاص حوّاط في مقعده، وأغلق عينيه مفكّراً. ثم قال: «لهذا بدؤوا يبحثون في أمر أراكس. حسناً، ما حدث قد حدث»، ثم فتح عينيه وأردف: «لا بُدَّ أن جواسيسهم في جميع أنحاء أراكس الآن. لقد مضى عامان!».

- «لا يمكن أن يكون تلميحي البريء قد...».

- «لا شيء بريء في أعين الأباطرة! ماذا كانت تعليماتك لريان؟».

- «أمرته أن يعلم أراكس أن يخشانا».

هزّ حوّاط رأسه: «لم يعد أمامك سوى بديلين يا بارون. بإمكانك أن تقتل كل أهل الكوكب، أن تمحهم عن بكرة أبيهم، أو...».

- «وأهدر قوّة العمل بكاملها؟».

- «هل تفضّل أن يأتي الإمبراطور إلى هنا، مجرّجاً خلفه العائلات النبيلة التي ما زال بإمكانه تحريكها، ويجرّف كوكب جيدي برايم بالكامل، حتى يصبح كالبقطينة المجوّفة؟»
تدبّر البارون مننتاته، ثم قال: «لن يجرؤ!»
- حقاً؟

ارتعشت شفتا البارون، وسأل: «وما البديل الذي تقترحه؟»
- «تخلّ عن ابن أخيك العزيز، رابان»
- «أتخلّ...»، ثم بتر عبارته محدّقاً إلى حوّاط.
- «لا ترسل إليه المزيد من القوّات، ولا مساعدة من أيّ نوع. لا ترد على رسائله سوى بقول إنك سمعت بالطريقة المريعة التي تعامل بها مع الأمور على أراكس، وإنك تعتزم اتخاذ إجراءات تصحيحية في أقرب وقت ممكن. سأرتب لأن يعترض جواسيس الإمبراطور بعضاً من رسائلك»
- «لكن ماذا عن الاسپايس، والأرباح، و...»
- «طالبه بأرباحك البارونية، لكن كن حريصاً في طريقة طلبك. اطلب منه مبالغ مقطوعة ثابتة. بوسعنا أن...»
رفع البارون كفيه قائلاً: «لكن كيف أتأكّد من أن ابن أخي الماكر لا...»

- «ما زال لنا جواسيسنا على أراكس. أخبر رابان أنه إمّا يفي بتوريد حصص الاسپايس التي حدّدتها له وإمّا سيُسّبدل»
قال البارون: «أعرف ابن أخي جيّداً، سيجعله هذا يتمادى في اضطهاد السكّان».

صاح حوّاط: «بلا شك! ليس من مصلحتك أن يتوقّف ذلك الآن! كل ما تريده هو إثبات نظافة يديك، دع رابان يصنع لك

سالوسا سوكانداس آخر. لا توجد حاجة حتى لإرسال أيّ سجناء إليه، فلهذه كل ما يلبي حاجته من سكاّن. إن كان رابان يسوق شعبه بالحديد والنار بفرض تلبية حصص الاسبايس التي تطلبها منه، فلن يشكّ الإمبراطور في وجود دوافع أخرى. هذا سبب أكثر من كافٍ لوضع الكوكب على مخلاة التعذيب. أمّا أنت يا بارون فدورك ألاّ تكشف بقول أو بفعل عن وجود أسبابٍ أخرى لما يحدث».

لم يستطع البارون إخفاء نبرة الإعجاب في صوته وهو يقول: «آه يا حوّاط، يا لك من داهية! الآن، كيف سننتقل إلى أراكس للاستفادة ممّا يُعدّه رابان؟».

- «هذا أيسر ما في الأمر يا بارون. إن رفعت الحصّة السنوية عن العام السابق قليلاً، ستتأزّم الأمور سريعاً. سينخفض الإنتاج، وعندها يمكنك إقالة رابان وتولّي الحكم بنفسك، لتصحيح الفوضى».

قال البارون: «كلام معقول، لكنني سئمت من كل هذا. أنا أَعِدُّ شخصاً آخر ليتولّى حكم أراكس بدلاً مني».

تأمّل حوّاط الوجه السمين المستدير الجالس أمامه.

ثم ببطء بدأ الجندي الجاسوس العجوز يومئ برأسه، وقال: «فيد راوثا. هذا إذاً هو السبب الحقيقي وراء القمع الحالي. أنت أيضاً داهية أيّها البارون. ربّما يمكننا دمج الخطّتين معاً. أجل، يمكن إرسال فيد راوثا إلى أراكس بصفته منقذاً. لا شك في أنه سيكسب صفّ الناس».

ابتسم البارون، وتساءل من خلف ابتسامته: الآن، كيف يتناسب

كل هذا مع مكائد حوّاط الخاصة؟

نهض حوَّاط حين رأى البارون يشير إليه بالانصراف، وغادر
الغرفة حمراء الجدران. في أثناء سيره، لم يستطع إغفال
المجاهيل المزعجة التي تظهر في كل عملية حسابية ذهنية
متعلِّقة بأراكس. هذا الزعيم الديني الجديد الذي أرسل جيرني
هاليك من مخبئه بين المهرَّبين ملتمحاً إليه، هذا المدعو المؤدَّب.
قال لنفسه: رُبَّما لم يكن ينبغي لي إخبار البارون بأن يسمح
لهذا الدين بالازدهار حيثما وُجد، حتَّى بين سكَّان الوهاد
والأخاديد. لكن من المعروف أن الاضطهاد يجعل الدين يزدهر.
ثم فكَّر في تقارير هاليك عن تكتيكات الفرمن القتالية.
التكتيكات التي تحمل بصمة هاليك نفسه.. وأيداهو.. بل وحوَّاط.
وسأل نفسه: هل نجا آيداهو؟

لكنه كان سؤالاً بلا طائل. لم يكن قد سأل نفسه بعد عن
احتمالية نجاة پول. كان يعلم أن البارون مقتنع بأن كلَّ آل آتريديز
لقوا حتفهم. كما اعترف البارون بأن ساحرة البني جيسيرت
كانت سلاحه الضَّارب، وهذا بالتأكيد يعني أن الجميع فنوا، بمن
فيهم ابن المرأة.

فكَّر حوَّاط: أيُّ كراهيةٍ سامةٍ كانت تُضمِر لآل آتريديز؟ لا
بُدَّ أنها تشبه الكراهية التي أضمرها للبارون. لكن هل ستكون
ضربتي قاضية ومهلكة كضربتها؟

في قلب كل الأشياء يكمن نمط. هذا النمط جزء من كوننا، وهو يتسم بالتناسق والأناقة والجمال، تلك الصفات التي دائماً ما تراها مجسدة في ما يصوغه الفنان الحقيقي. بإمكانك استشفاف هذا النمط في تتابع الفصول، وفي انزلاق الرمال من أعلى قمة جبل، وفي تكتلات فروع شجيرة الكريوزوت الزيتية أو في الخطوط على أوراقها. نحن نحاول محاكاة كل هذه الأنماط في حياتنا ومجتمعاتنا، بحثاً عن الإيقاعات والرقصات والقوالب التي تريحنا. ولكن قد يكون في سعينا نحو الكمال المطلق خطراً مهلكاً، إذ من الواضح أن النمط الأسمى المنشود مجبول على الثبات. وفي ظل مثل هذا الكمال، تتحرك كل الأشياء نحو الموت.

من كتاب «أحاديث المؤدّب المجمعّة» للأميرة إيrolان.

تذكر بول المؤدّب وجبة غنيّة بخلاصة الاسبايس، فتشبّث بهذه الذكرى لأنها بدت نقطة ارتكاز يستطيع من خلالها إخبار نفسه بأن التجربة التي يمرُّ بها حالياً هي مجرد حلم.

قال لنفسه: أنا مسرح العمليات، أنا فريسة لرؤية منقوصة، أنا ضحية الوعي الجمعي البشري وغايته الرهيبة.

لكنه لم يسلم من خوفه من فكرة أنه قد سبق نفسه بطريقة ما، وفقد موقعه في الزمن، واختلط عليه الماضي والمستقبل والحاضر دون تمييز. كان يمرُّ بحالة من الإرهاق البصري، وعرف أنها نابعة من حاجته المستمرة إلى احتجاز رؤاه المستقبلية في

هيئة ذكريات، التي هي في جوهرها شيء من الماضي.

أخبر نفسه: تشاني أعدت لي تلك الوجبة.

ولكن تشاني كانت في أقاصي الصحراء الجنوبية، في الإقليم القاحل ذي الشمس الحامية، حيث تختبئ سرًا في أحد معاقل السييتشات الجديدة، آمنة مع ابنتها، ليتو الثاني.

أم أن هذا الأمر لم يحدث بعد؟

طمأن نفسه أن هذا حدث بالفعل، لأن أخته عالية، الطفلة الغريبة، ذهبت مع أمّه وتشاني في رحلة إلى الجنوب تبعد مسافة عشرين مطراقًا، في هودج الأم الموقرة على ظهر دودة صانعة برية.

نقض پول عن عقله فكرة امتطاء الديدان العملاقة، وسأل

نفسه: أم أن عالية لم تُولد بعد؟

تذكر پول: كنت في غزوة*. خرجنا في غارة لاستعادة ماء موتانا من مدينة أراكين. وقد عثرت هناك على رفات أبي في محرقة الجثث الجنائزية، ووضعت جمجمته على قمة تل صخري يطل على مضيق حرق.

أم أن هذا الأمر لم يحدث بعد؟

أخبر پول نفسه: جراحى حقيقية، وندوبي حقيقية، وضريح جمجمة والدي حقيقي.

تذكر پول -وهو ما زال في هذه الحالة الشبيهة بالحلم- أن حارة، زوجة جيمس، دخلت عليه عنوة ذات مرة لتقول له إن عراقًا نشب في رواق السييتش. كان هذا في السييتش المؤقت، قبل إرسال النساء والأطفال إلى أقصى الجنوب. وقفت حارة عند مدخل الغرفة الداخلية، وخصلات شعرها الأسود معقوصة إلى

الخلف بسلسلة من الحلقات المائية. أزاحت ستائر الغرفة بيدها وأخبرته أن تشاني قتلت لتوها شخصاً.

أخبر پول نفسه: أمّا هذا فحدث بالفعل. إنه واقع حقيقي لا واقع استبصاري مستقبلي عرضة للتغير.

تذكّر پول هروعه إلى الخارج ليجد تشاني واقفةً أسفل كرات الإنارة الصفراء الطافية في الممرّ، في رداءٍ أزرق لامع ملفوف حول جسدها، قلنسوته ملقاة على ظهرها، وملامحها الملائكية متورّدة من الجهد المبذول. كانت تعيد سكّينها العاجية إلى غمدها، فيما هرول مجموعة من الأشخاص مبتعدين عنها عبر الرواق مثقلين بحمل.

وتذكّر پول ما قاله لنفسه حينذاك: منظر الجثة المحمولة لا يخفى على أحد.

التفتت إليه تشاني، فصلصت حلقات الماء التي تعلّقها بحبلٍ حول عنقها على الملاء في السييتش.

سألها: «تشاني، ماذا حدث؟».

- «أجهزت على شخصٍ جاء لتحديك في نزالٍ يا أصول».

- «أقتلته؟».

- «أجل، لكن ربّما كان عليّ أن أتركه لحارة».

(وتذكّر پول الإعجاب الذي بدا على وجوه الناس حولهما من جراء هذه الكلمات. حتّى حارة ضحكت).

- «لكنه جاء ليتحدّاني أنا!».

- «لقد درّبتني على أساليب القتال الخوارقية بنفسك يا

أصول».

- «صحيح! لكن هذا لا يمنحك...».

- «لقد وُلِدَت في الصَّحراء يا أصول، وأعرف كيفية استخدام السكِّين العاجية».

كتم پول غضبه، وحاول مناقشتها بالمنطق.

- «هذا صحيح يا تشاني، ولكن....».

- «لم أعد طفلة تصطاد العقارب في السييتش على بصيص كرة إنارة يدوية يا أصول. ما فعلتُ هذا لالعة».

رمقها پول شزرًا مرتجًا عليه من الشراسة الغريبة البادية في كلامها العضوي.

قالت تشاني: «كان تافهًا لا يؤبه له، ما كنت لأقطع عليك تأملاتك للمبالاة بأمثاله»، ثم اقتربت منه، ناظرةً إليه بطرفي عينيها، خافضةً صوتها كي لا يسمعها غيره: «ويا حبيبي، عندما يُشاع بين الناس أن من سيتحدّاك قد يواجهني أنا، وأنّ منيةً مخزيةً ستدركه على يد امرأة المؤدّب، ستقلُّ أعدادهم».

قال پول لنفسه: أجل، من المؤكّد أن هذا قد حدث. هذا ماضٍ حقيقي. وقد انخفض بالفعل عدد المتحدّين الذين يذوقون نصل المؤدّب الجديد انخفاضًا ملحوظًا.

من مكانٍ ما في العالم المحسوس خارج نطاق الأحلام، صدرت حركة طفيفة، وصاح طائر ليلي.

طمأن پول نفسه: أنا أحلم. هذا بسبب الوجبة الغنية بالاسپايس.

ومع ذلك، وقر في صدره شعورٌ بالهجران والتخلّي. وتساءل إن كان من الممكن أن تكون روحه* قد انزلقت بطريقة ما إلى ذلك العالم الذي يعتقد الفرمن أن له وجودًا حقيقيًا: عالم المثال*، عالم المتشابهات، ذلك العالم الميتافيزيقي تُزال فيه جميع

القيود المادية. شعر بالخوف من فكرة وجود عالم كهذا، لأن إزالة جميع القيود تعني بالتبعية إزالة جميع الأطر المرجعية. في هذا العالم الأسطوري الأبعاد وهمي التضاريس، لن يتمكن من تحديد اتجاهه ليقول: «أنا هنا، إذا فأنا موجود».

لقد أخبرته أمه ذات يوم: «الناس مختلفون في نظرتهم إليك». قال پول لنفسه: يجب أن أستيظ من هذا الحلم، لأن هذا حدث بالفعل. هذه الكلمات الصادرة عن أمه، الليدي جيسكا التي صارت أمًا موقرةً للفرمن، عبرت من بوابة الواقع حقًا. كان پول يعلم أن جيسكا تخشى العلاقة الدينية بينه وبين الفرمن. لم يعجبها أن سگان السييتشات والأخايد يشيرون إلى شخصه مستخدمين الضمير «هو» المجرد. لذا خرجت تستقصي بين القبائل، وأرسلت جواسيسها السيادينات للتحقيق في الأمر، وجمعت ما توصلن إليه من إجابات، وأمعنت في التفكير فيها. استشهدت له بقول مأثور عند البني جيسيرت: «عندما يجتمع الدين والسياسة في نفس العربة، يعتقد الركاب أنه لا يوجد شيء يمكن أن يقف في طريقهم، لذا يندفعون في نزق وطيش، أسرع فأسرع، غير آبهين للعقبات، وينسون أن حافة الهاوية لا تظهر نفسها لمن أعماه الطيش إلا بعد فوات الأوان».

تذكر پول مجلسه في جناح أمه، في الغرفة الداخلية المحجوبة بستائر ثقيلة تغطي أقمشتها زخارف منسوجة مستوحاة من أساطير الفرمن. جلس هناك، يصفى إليها، ملاحظًا الطريقة التي لا تتفك بها عن المراقبة، حتى عندما تخفض عينيها. لقد ظهرت تجاعيد جديدة في وجهها البيضاء، على جانبي فمها،

لكن شعرها ما زال بلون البرونز المصقول. أمّا خضار عينيها
الواسعتين فقد اختفى تحت غيمة كثيفة من زرقة الاسپايس.
قال لها: «ديانة الفرمن بسيطة وعملية».

حذرته: «لا شيء في الديانات بسيط».

شعر پول -المؤرّق برؤى المستقبل الضبابي الذي ما زال
مخيّمًا في الأفق- بالفضب يجتاحه، ولم يسعه إلّا أن يقول:
«الدين يوحد صفوفنا. إنه عُروتنا الوثقى».

قالت محتدّة: «أنت تحيط نفسك بهذه الهالة عن عمد، ولا
تُكفّ عن الوعظ والتلقين».

قال: «هذا ما علّمتني إيّاه».

كانت ميّالة إلى النزاع والجدال في ذلك اليوم. كان يوم حفل
ختان ليتو الصغير، لذا تفهّم پول بعض أسباب انزعاجها. إنها
لم تقبل علاقته بتشاني قط، أو علاقة «زواج العيال» كما كانت
تسمّيها. لكن تشاني أنجبت ابنًا آتريديزيًا، ورفض قلب چيسیکا
أن يطاوعها على رفض الطفل كما رفضت أمّه من قبله.

في النهاية خارت چيسیکا تحت تأثير نظراته، وقالت: «تراني
أمّا غير طبيعية».

- «بالقطع لا».

- «أرى الطريقة التي تراقبني بها عندما أكون مع أختك. أنت
لا تفهم طبيعة أختك».

قال: «أعلم أن عالية مختلفة. كانت لا تزال في رحمك وجزءًا
منك عندما بدّلت خصائص ماء الحياة».

- «أنت لا تعرف أيّ شيء!».

مكتبة

t.me/t_pdf

فجأة وجد پول نفسه عاجزاً عن التعبير عن المعرفة المجتزأة من سياقها الزمني التي اكتسبها، فلم يقل إلا: «لا أراك أمّا غير طبيعية».

لاحظت معاناته، فقالت: «هناك أمر آخر يا بُني».

- «ماذا؟».

- «أنا أحب امرأتك تشاني، وراضيةٌ عن علاقتكما».

هذا حدث بالفعل، هكذا أخبر پول نفسه. ما دار بينهما ليس جزءاً من رؤية غير كاملة قد تتغير بتقلُّبات لحظة ولادة الزمن الآتي.

منحته الطمأنينة سيطرةً جديدةً على عالمه. بدأت شذرات الواقع الصلب تنفذ عبر غشاوة الحلم لتستقر في وعيه. أدرك فجأة أنه في حريق: مخيم صحراوي مؤقت. كانت تشاني قد نصبت خيمة التقطير على الرمل المسحوق مستفلةً نعومة مرقده. هذا يعني أن تشاني قريبة. تشاني روحه، تشاني سيَّهياته، تشاني الرقيقة كالربيع الصحراوي، تشاني الآتية من الأراضي المزروعة في أقاصي الجنوب.

ثم سرعان ما تذكر أنها غنَّت له أنشودة صحراوية حين جاء وقت النوم:

«وأنت يا توأم روحي

لا تحلم بالجنة الليلة،

إذ أقسم لك بشي هولود

أنك ستراها رؤى العين

إن أطعت حُبِّي».

ثم غنّت له أغنية التترّزه التي يتشاركها العشاق على الرمال،
والتي يشبه إيقاعها حركة غوص الأقدام في الكثبان الرملية:
«أخبرني عن عينيك
وسأخبرك عن قلبك.
أخبرني عن قدميك
وسأخبرك عن يديك.
أخبرني عن نومك،
وسأخبرك عن سيرك.
أخبرني عن رغباتك،
وسأخبرك عن احتياجاتك».

بعدها، سمع من خيمة مجاورة شخصًا يعزف على الباليست،
فتذكّر جبرني هاليك. جعله صوت الآلة المألوف يفكّر في جبرني
الذي شاهده وسط إحدى عصابات المهزّبين لكن دون أن يراه
الأخير، فلم يكن يستطيع أن يسمح لجبرني برؤيته أو أن يعرف
بوجوده لئلا يقود الهاركونة -عن غير قصد- إلى ابن الدوق الذي
ظنّوا أنهم قتلوه.

لكن أسلوب عازف الليل هذا، وضربات أصابعه المميّزة على
أوتار الباليست، فرضت حضور صاحبها على ذهن پول. كان هذا
نشات الوثّاب، قائد الفدائيين*، فرقة المفاوير الانتحارية التي
تحرص المؤدّب.

تذكّر پول: إننا في الصّحراء. في نطاق العرق الأوسط، بعيدًا
عن دوريات الهراكنة. أنا هنا لأسير على الرمال، وأستدرج دودة
صانعة، ومن ثمّ أمطيتها بالحيلة والدهاء، حتّى يتسنّى لي أن
أكون فرمنيا قحّا.

تحسّس پول مسّدس المولى المتدلّي من حزامه، وسكّينه العاجية، والصّمت المحيط به.

كان محاطًا بذلك الصّمت المميّز الذي يسبق الصباح، بعد أن عادت الطيور الليلية إلى أعشاشها، وقبل أن تستيقظ كائنات النهار فتنتبه لها عدوّتها، الشمس.

كان ستيلجار قد أخبره في وقتٍ سابق: «يجب أن تمتطي الرمال في ضوء النهار كي تراك شيّ هولود وتعلم أنك لا تعرف الخوف. لهذا قلبنا يومنا الطبيعي رأسًا على عقب، وأعددنا أنفسنا كي ننام الليلة».

نهض پول في صمت، شاعرًا بارتخاء بذلة التقطير حول جسده وبخيمة التقطير المظلّلة من حوله، وتحرك بهدوءٍ شديد، ومع ذلك سمعته تشاني.

قال ظلّها عبر ظلام الخيمة: «لم يطلع النهار كاملاً بعد يا حبيبي».

قال: «سيهيا»، بصوتٍ يلوح فيه شبح ضحكة. قالت: «تدعوني ربيعك الصحراوي، لكنني اليوم الشوكة التي ستخسك. أنا السيّادينا التي ستراقب وتتأكّد من اتّباع الطقوس». بدأ يحكم ربط بذلة التقطير حول جسده: «لقد تلوت عليّ يومًا كلماتٍ من كتاب العبر تقول: "المرأة حقلك، فاذهب إلى حقلك واحرثه"⁽¹⁾».

وافقته قائلة: «أنا أمُّ ابنك البكر». رآها عبر الظلمة الرمادية تحاكي أفعاله حركةً بحركة، وتحكم

(1) استلهم من القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 223: «نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ».

غلق بذلة التقطير على جسدها استعداداً للخروج إلى الصحراء. قالت: «يجب أن تنال كفايتك من الراحة». لاحظ أنها تتحدث بلسان حُبّها له، فوبّخها مداعباً: «السّيّادينا المراقبة لا تحذّر أو تنصح المرشّح المقبل على الاختبار». انزلقت مقتريةً منه، ولمست وجنته بكفّها وقالت: «اليوم، أنا مراقبة المرشّح وامراته في الوقت نفسه».

قال لها: «كان ينبغي لك ترك هذا الواجب لأخرى». قالت: «الانتظار أمرٌ أصعب. على الأقل سأكون بجانبك». طبع قبلة على كفّها، وأحكم وضع كاماة البذلة، ثم استدار وأزال غطاء الخيمة العازل. استشعرا في الهواء الذي دخل الخيمة برودةٌ لا تخلو من آثار نداوة الفجر الخفيفة، وحمل التيار معه رائحة كتلة الاسپايس الأولى التي اكتشفوها في الشمال الشرقي، والتي أنبأتهم بوجود دودة صانعة في مكان قريب.

زحف پول خارجاً من فتحة السُرة العاصرة، ثم نهض واقفاً على الرمال وتمطّى موقظاً عضلاته. انتشر في الأفق الشرقي وهجٌ لؤلؤيٌّ أخضر باهت، وبدت خيام قوّاته أشبه بكتبان زائفة صغيرة متناثرة حوله في الظلام. لمح حركة إلى يساره: هؤلاء حرسه، وقد علم أنهم رأوه.

كانوا يعرفون الخطر الذي سيواجهه اليوم، الخطر الذي سبق أن واجهه كل فرمّني، لذا منحوه لحظات العُزلة الأخيرة هذه كي يتمكن من إعداد نفسه.

قال لنفسه: لا بُدّ للأمر من أن يتمّ اليوم. فكّر في القوّة التي صار يملكها للتصدّي لحملة التقتيل والتطهير العرقي، في كبار السنّ الذين أرسلوا أبناءهم إليه ليدرّبهم على

طريقة القتال الخوارقية، في الشيوخ الذين يستمعون لرأيه في مجلس الشورى ويتبعون الخطط التي يرسمها، في الرجال الذين عادوا وأطروه بأفضل إطرء يمكن أن يُقال لفرمني: «خطتك نجحت يا مؤدّب».

ومع ذلك فإن أضال محاربي الفرمن حجمًا وأقلهم شأنًا يستطيع فعل شيءٍ لم يسبق لهول أن يفعله، وكان پول يعلم أن زعامته للقوم تتأثر سلبيًا بعلمهم باختلافه هذا عنهم. فهو لم يمتد بعد دودة صانعة.

صحيح أنه خرج مع آخرين في غارات رحلات تدريبية، لكنه لم يقم برحلته الخاصة. وإلى أن ينجح في تحقيق ذلك، سيظل عالمه مقيّدًا بقدرات الآخرين. لا يمكن لفرمني أصيل أن يقبل هذا الأمر على نفسه. وإلى أن يفعل هذا، ستظل الأراضي الجنوبية العظيمة -التي تبعد عن نطاق العرق عشرين مطراقًا تقريبًا- بعيدة المنال، إلا إذا طلب الارتحال في هودج كأنه أمّ موقرة أو أحد المرضى أو الجرحى.

عادت إليه ذكرى صراعه مع وعيه الداخلي ليلاً، ورأى تشابهاً غريباً في الأمرين: إذا امتطى دودة صانعة وأخضعها، فسيقوى حكمه. وإذا أخضع عينه الداخلية، فسيمنحه هذا قدرًا من السيطرة. ولكن في ما وراء الأمرين، تقع منطقة ملبّدة بالغيوم، يقع الاضطراب العظيم الذي يعصف بالكون كله.

أرّقته الاختلافات في الطرائق التي يدرك بها الكون، حيث تعادل نسبة الدقّة نسبة عدم الدقّة. كان يرى الحاضر الآتي بوضوح في وعيه، لكنه حين يولد ويقع تحت تأثير ضغوط الواقع،

يصبح له حياته الخاصة، وتظهر عليه اختلافات طفيفة. ما زالت الغاية الرهيبة ماثلة، وما زال الوعي الجمعي للجنس البشري قائماً، وفوق كل شيء ما زال الجهاد مخيماً، ويلوح في الأفق دموياً ووحشياً.

انضمت تشاني إليه خارج الخيمة، محتضنة مرفقيها، ناظرة إليه من طرفي عينيها كما فعلت عندما كانت تستشف حالتها المزاجية.

قالت: «حدثني ثانية عن الماء على كوكبك يا أصول».

أدرك أنها تحاول إلهاء وإزالة التوتر من عقله قبل الاختبار المميت. كان الضوء قد بدأ ينتشر، ولاحظ أن بعض فدائييه ينقضون خيامهم بالفعل.

قال: «أفضل أن تخبريني أنت عن السييتش الجديد وعن حال ابننا. أما زال ولدنا ليتو يلف راحة يده حول أمي؟».

قالت: «بل وحول عالية أيضاً. إنه يكبر سريعاً. سيكون رجلاً ضخماً».

سألها: «كيف الأحوال في الجنوب؟».

قالت: «عندما تمتطي الصّانعة ستذهب إلى هناك وسترى الحال بنفسك».

قال: «لكنني أود رؤيته أولاً من خلال عينيك».

قالت: «عزلة موحشة تامة».

لمس پول شال النيزوني البارز من أسفل غطاء رأس البذلة والمحيط بجبهتها: «لَمْ لا تحدّثيني عن السييتش؟».

- «حدثتك عنه بالفعل. إنه مكان مُوحش من دون رجالنا. مكان كله عمل. نكدح طوال الوقت في المصانع وغرف الاستزراع. ثمّة أسلحة يجب أن تُصنع، وأوتاد يجب أن تُفرس في الرمال كي نستطيع التنبؤ بالطقس، واسپايس يجب أن يُجمع لدفع الرُّشى، وكثبان يجب أن تُزرع كي تنمو الأعشاب عليها وتثبت في مكانها، وسجّاد وأقمشه يجب غزله، وخلايا وقود يجب شحنها، وأطفال يجب تدريبهم كي نحافظ على قوّة القبيلة من الفقد».

سألها: «ألا تُوجد في السييتش مسرّات؟».

- «الأطفال هم مسرّتنا. كما أننا نحافظ على أداء الطقوس، ولدينا طعامٌ كافٍ. أحياناً تأتي إحدانا إلى الشمال لتكون مع زوجها. الحياة يجب أن تستمر».

- «ماذا عن أختي عالية؟ هل تقبّلها الناس؟».

التفتت تشاني إليه في ضوء الفجر المتزايد، ورنّت بعينيها إليه: «لنناقش هذا الأمر في وقتٍ آخر يا حبيبي».

- «كلّا، لنناقشه الآن».

قالت: «عليك أن توفّر طاقانك للاختبار».

لاحظ أنه لمس وترّاً حسّاساً، إذا سمع نبذة الاستحياء في صوتها، فقال: «المجهول يجلب معه مخاوفه الخاصة».

أومأت لحظات، وفي النهاية قالت: «ما زال هناك... سوء فهم بسبب غرابة أطوار عالية. النساء خائفات لأن طفلة مثلها تجاوزت لتوها سنّ الرضاعة تتكلّم.. وتتكلّم عن أشياء لا يعلمها إلا الكبار. إنهن لا يفهمن... التحوّل الذي أصاب عالية وهي في الرحم، التحوّل الذي جعلها... مختلفة».

سألها: «هل حدثت مشكلات؟»، وفكّر: لقد شاهدتُ رؤى عن مشكلات حدثت بسبب عالية.

حدّقت تشاني إلى ضوء شروق الشمس المتزايد في خط الأفق، وقالت: «اتحدت بعض النسوة وناشدن الأمّ المؤقّرة بأن تلمد الشيطان الذي يتلبّس جسدها، واستشهدن بآية من النصوص المقدّسة: "لا تدع ساحرة تعيش بيننا". - «وبم ردّت أمّي عليهن؟».

- «تلت عليهن كلمات القانون، وجعلتهن يفادرن في خزي. قالت: "إن كانت عالية تثير المتاعب، فالخطأ خطأ السُلطة التي لم تتنبأ بوقوع المتاعب وتمنع وقوعها". حاولت أن تشرح لهن كيف أصاب التغيير عالية في الرحم. لكن النسوة غضبن بسبب الإحراج الذي تعرّضن له، وخرجن من عندها متأفّفات». فكّر بول: ستحدث مشكلات بسبب عالية.

هَبَّ هَوَاءٌ محمّل بحبيبات رمالٍ خشنة لامست الأجزاء المكشوفة من وجهه، حاملةً معها رائحة كتلة الاسپايس الأولى، فقال: «السيال*، مطر الرمال الذي يعلن قدوم الصباح»، ورفع بصره ورنا إلى تضاريس الصّحراء السابحة في ضوء رمادي، التضاريس التي لا تثير في نفسه أيّ حنين، وإلى الرمال التي لا تأبه سوى بنفسها. انشقت السماء عن صاعقة برقيّ جافّة أضاءت قطاعاً مظلماً باتجاه الجنوب، في إشارة إلى أن شحنة العاصفة الساكنة تراكمت هناك. ثم تبعها هزيم الرعد بعد مدّة.

قالت تشاني: «الصّوت الذي يُجمل الأرض». استمرّ خروج الرجال من خيمهم، وتوافد الحرس إليه من أطراف المخيم. كان كل شيء من حوله يتحرّك بسلاسة وفقاً لروتين قديم لا يحتاج إلى إصدار أوامر.

تذكّر ما أخبره به أبوه، ذات مرّة، منذ زمنٍ بعيد: «اجعل أوامرك قليلة قدر الإمكان، فما إن تصدر أوامر بشأن موضوع ما، ستضطرّ دومًا إلى إصدار أوامر بشأنه».

كان الفرمن يعرفون هذه القاعدة بالسليقة. بدأ أمين الماء يرّدّد ترنيمة الصباح، مضيّفًا إليها نداء بدء طقوس انضمام راكب رمال جديد إلى القبيلة. أنشد الرجل بصوتٍ حزينٍ ترّدّد نحيبه عبر الكثبان: «ما العالم إلّا جيفة. من ذا الذي يقدر على صرف ملك الموت؟ ما قدرته شَيّ هولود سيكون».

أصغى پول جيّدًا، وميّز أن هذه هي كلمات افتتاحية ترنيمة الموت الخاصة بفدائييه نفسها، الكلمات التي يرّدّها مغاوير الموت وهم يلقون بأنفسهم في خضم المعركة. سأل پول نفسه: هل سيُقام ضريحٌ صخريّ هنا اليوم لإحياء ذكرى وفاة روحٍ أخرى؟ هل سيتوقف الفرمن هنا في المستقبل، ويضع كل منهم حجرًا آخر وهو يستحضر روح المؤدّب الذي مات في هذا المكان؟

كان يعلم أن هذا أحد الاحتمالات القائمة اليوم، حقيقة ضمن مسارات المستقبل المتشعّبة من هذه النقطة الزمكانية. أرقّته الرؤية المنقوصة. كلّما قاوم غايته الرهيبة وبذل كل ما في وسعه كي لا يقع الجهاد الآتي، يزداد الاضطراب الذي يتخلّل قدرته الاستبصارية. مستقبله بالكامل يبدو كنهر يندفع نحو هاوية، نحو المحور العنيف الذي كل ما وراءه ضباب وغيوم.

قالت تشاني: «ستلجأ يقترّب. يجب أن أقف بعيدًا عنك الآن يا حبيبي. علي ممارسة دور السّيّادينا ومراقبة الطقس كي أدوّنّه

في سجلاتنا كما حدث»، ثم رفعت بصرها إليه، وللحظة خانها تحفظها، لكنها سرعان ما استعادت السيطرة على نفسها، ثم قالت: «حين ينتهي الأمر، سأعدُّ لك الفطور بيدي»، واستدارت مبتعدة.

تقدَّم ستيلجار نحوه فوق الرمال الناعمة كالدقيق، مثيرًا سُحُب غبارٍ صغيرة، وظلَّت عيناه الفائرتان في محجريهما مثبتتين على پول ترمقانه بنظرة ضارية. برز جزء من لحيته السوداء من أسفل قناع البذلة، أمَّا الخطوط العميقة على وجنتيه، فبدت كأنها صخور طبيعية نحتتها الرياح.

كان الرجل يحمل راية پول خفاقة على سارية، الراية الخضراء والسوداء المرفق بساريتها أنبوب ماء التي جابت شهرتها الأسطورية الآفاق بالفعل.

فكَّر پول، بشيء من الفخر: كل ما يصدر عني من قولٍ أو فعلٍ زهيد تلهج الألسن بذكره ويتحوَّل إلى أسطورة. سيتناقلون كيف ابتعدت عن تشاني، وكيف سأحيي ستيلجار، سيدُونون كل حركة أقوم بها اليوم. إن عشت أو مُت، ستبقى الأسطورة. يجب ألاَّ أموت، فلو حدث ذلك لن يبقى لهم إلاَّ الأسطورة، ولا شيء سيوقف الجهاد.

غرس ستيلجار السارية في الرمال إلى جوار پول، وأنزل يديه إلى جانبيه. ظلَّت العينان الزرقاوان بالكامل تحدِّجانه بتصميم، فخطر لپول كيف بدأت عيناه هو نفسه تصطبغان بمسحة من الزرقة بفعل الاسپايس.

قال ستيلجار بوقارٍ طقسي: «قد حرمونا الحج».

فردّ پول كما علّمته تشاني: «ومن في مقدوره حرم فرمني حق السير أو الركوب حيث يشاء».

قال ستيلجار: «أنا نائب*، ولن أقع أسيرًا حيًا أبدًا. أنا إحدى ركائز ثلاثي الموت الذي سيُدْمَر أعداءنا». ثم خيّم الصّمت عليهما.

ألقي پول نظرة خاطفة إلى الفرمنيين الآخرين المنتشرين على الرمال خلف ستيلجار، ولاحظ وقفهم الثابتة التي لا تشوبها حركة في أثناء لحظة الصلاة الشخصية هذه، وفكّر كيف أن الفرمن أناس تقوم حياتهم على القتل، شعب برمّته عاش طوال أيامه في حالة من الغضب والحزن، ولم يفكّر في أن يستبدل بهما شيئًا، باستثناء الحُلم الذي زرعه فيهم لبيت كاينز قبل موته. سأله ستيلجار: «أين الرب الذي قادنا عبر أرض القفار والحُفَر؟».

ردّد الفرمن: «هو دائمًا معنا». شدّ ستيلجار كتفيه، واقترب أكثر من پول وقال خافضًا صوته: «تذكّر ما قلته لك. أنجز الأمر ببساطة ومباشرة، ولا تستعرض. نحن نمتطي الصّانعة في سنّ الثانية عشرة، وأنت تجاوزت تلك السنّ بأكثر من ستّة أعوام، ولم تنشأ على حياتنا، فلا داعي لمحاولة إثارة إعجاب أحدٍ بشجاعتك. كلنا نعلم شجاعتك جيّدًا. كل ما عليك فعله هو استدعاء صانعة وامتطاؤها». قال پول: «سأتذكّر».

- «أحرص على ذلك. لن أسمح لك بالإساءة إلى تعليمي». أخرج پول قضيبًا بلاستيكيًا طوله نحو المتر من أسفل رداءه. كان القضيب مدبّبًا من أحد طرفيه، وفي طرفه الآخر مدقّة تعمل

بزنبرك: «أعددتُ هذا المطراق بنفسِي. إنه مطراقٌ جيّد. خذه».

شعر پول بنعمومة البلاستيك ودفعته وهو يأخذ المطراق منه.

قال ستيلجار: «شيشاكلي معه خُطّافاك، سيسلّمهما لك عندما تطلّ قدماك رمل الكتيب هناك»، وأشار باتجاه اليمين مستطرّداً:

«استدعِ صانعةً ضخمةً يا أصول. اهدنا الطريق».

لاحظ پول نبرة صوت ستيلجار: نصفها طقسي، ونصفها صادر عن صديقٍ قَلِق.

في تلك اللحظة، بدت الشمس كأنها قفزت فوق خطّ الأفق. اتّخذت السماء زُرقة رمادية فضّية تدلّ على أن اليوم سيكون لافح الحرارة شديد الجفاف، حتّى بمقاييس أراكس.

قال ستيلجار: «حان وقت النهار الحارق»، ثم أردف وقد اكتسى صوته بنبرة طقسية تامة: «اذهب يا أصول وامتنطِ الصّانعة، وطّف بالرمال كقائد للرجال».

أدّى پول التحيّة لرايته، ملاحظاً كيف صار العلم الأخضر والأسود مرتخيّاً، بعد أن ماتت رياح الفجر. استدار وواجه الكتيب الذي حدّده ستيلجار. كان مجرّد منحدرٍ رمليٍّ أصفر أرمد ذي قمّة متعرجة. كان معظم أفراد المجموعة قد بدؤوا التحرك بالفعل في الاتجاه المعاكس، متسلّقين الكتيب الآخر الذي آوى معسكرهم.

بقي شخصٌ واحد فقط في طريق پول: شيشاكلي، قائد فرقة الفدائيين. لم يكن يظهر من وجهه من بين قناع البذلة وغطاء الرأس سوى عينيه الناعستين المتهدّلتين الجفنين.

مع اقتراب پول منه، رفع شيشاكلي قضيبين رفيعين يشبهان السياط. كان طول الواحد منهما نحو المتر، وينتهي أحد طرفيه

بغطاء لامع من البولاد، وقد خُشَّن طرفه الآخر ليتيح لحامله إمساكه بإحكام.

قال شيشاكلي في صوتٍ أجش: «هذان خُطَّافاي الشخصيان، لم يخذلاني أبدًا».

أوماً پول، ملتزمًا الصَّمَت الضروري للطقس، وتجاوز الرجل صاعدًا منحدر الكثيب. عند القمَّة نظر خلفه ورأى أفراد المجموعة منتشرين على الرمال كأنهم سرب حشرات، وثيابهم تخفق مع الهواء. وقف وحيدًا الآن فوق الحافة الرملية، لا يحده سوى خط الأفق المنبسط، الثَّابِت بلا حراك. كان ستيلجار قد انتقى كثيبًا ملائمًا، أعلى ارتفاعًا من الكثبان المحيطة، ما يتيح مجال رؤية أفضل.

انحنى پول وغرس المطراق عميقًا في وجه الكثيب المواجه للريح، حيث ضُغِطت الرمال ممَّا سيَجعلها ترسل طرقاته إلى أبعد مدى ممكن. ثم تردد متذكِّرًا ما تعلَّمه، وراجع ضروريَّات الحياة والموت التي تواجهه.

حين سينزع القفل، سيبدأ المطراق استدعاءه. وعبر الرمال المفتوحة، ستسمع دودة عملاقة -صانعة- الصَّوت، وستأتي إلى مصدر الطرق ملبَّية النداء. كان پول يعلم أنه باستخدام الخُطَّافين الشبيهين بالسياط، بإمكانه امتطاء ظهر الصَّانعة الأسطواني الهائل. وإن حافظ على حافة إحدى الحلقات الأمامية المؤلَّفة لجسد الدودة مفتوحة بخطاف، سامحًا بدخول الرمال الخشنة إلى أنسجتها الداخلية الأكثر حساسية، فلن يتراجع المخلوق غائصًا تحت رمال الصَّحراء. بل إنها ستُدحرج جسدها العملاق لإبعاد الجزء المفتوح عن سطح الصَّحراء قدر الإمكان.

أخبر پول نفسه: أنا راكب رمال.

نظر إلى الخُطّافين القابعين في يده اليسرى، مفكّرًا في أن كل ما عليه فعله هو غرس هذين الخُطّافين أسفل إحدى طيّات جانب الصّانعة الهائل لجمل المخلوقة تدحرج وتدور، ويوجّهها حيثما يشاء. لقد شاهد الأمر من قبل، بل وساعده على تسلّق جانب إحدى الديدان في جولة تدريبية قصيرة. يمكن ركوب الدودة الأسيرة إلى أن تُستنزف طاقتها وتُتهك وتُتبع هامةً على سطح الصّحراء. عندها يجب استدعاء صانعة جديدة.

كان پول يعلم أنه بمجرد اجتياز هذا الاختبار، سيصبح مؤهلاً للقيام برحلة العشرين مطرافًا إلى الجنوب، ليستريح ويستعيد قواه. سيذهب إلى الجنوب حيث أخفيت النساء والعائلات بين جحور السيتيش والأراضي المزروعة الجديدة، بعيدًا عن المذابح الدائرة. رفع رأسه ونظر نحو الجنوب، مذكّرًا نفسه أن دودة الصّانعة المُستدعاة من صحراء العرق الشعواء كانت إحدى مجاهيل رؤاه، وإمكانية نجاة مُستدعيها من هذا الاختبار مجهولة كذلك.

لقد شرح له ستيلجار قائلاً: «عليك أن تقدّر حجم الصّانعة المقتربة بدقّة. عليك أن تقف قريبًا بما يكفي لامتطائها وهي تمرّ، ولكن ليس أقرب من اللازم كي لا تهلك في مرورها». بقرار مفاجئ، نزع پول قفل المطراق، فبدأت المدقّة عملها، وسرت طرقات الاستدعاء عبر الرمال بإيقاع منتظم: طق... طق... طق.

شدّ پول جسده، ومسح الأفق بعينه متذكّرًا كلمات ستيلجار: «راقب مسار الاقتراب بعناية. تذكر أن الدودة نادرًا ما تقترب من المطراق دون أن تُشاهد. لكن أنصت جيّدًا، فقد تسمعها قبل أن تراها».

وملأت عقله كلمات تشاّني المحذّرة، التي همستها في أُذنه
ليلاً حين غلبها خوفها عليه: «حين تتّخذ موضعك في طريق
الصّناعة، كن ساكناً تماماً. فكّر في أنك مجرد رقعة من الرمل.
تخفّ تحت ردائك، وتحوّل أنت نفسك إلى كتيب صغير».
ببطء، راح يمسح خطّ الأفق بعينيّه، مصغياً ومراقباً ظهور
العلامات التي تعلّمها.

من الجنوب الشرقي أتت هسهسةٌ بعيدة، همسةٌ رمال. وفي
النهاية رأى في البُعد الحدود الخارجية لمسار المخلوقة في ضوء
الفجر، وأدرك أنه لم يسبق له رؤية صانعة بهذه الضخامة، ولم
يسمع عن واحدة بهذا الحجم من قبل. بدا أن طولها يزيد على
نصف فرسخ، وكانت قمّة الموجة الرملية التي تدفعها أمامها
أشبه بجبلٍ يقترب.

حدّر بول نفسه: لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا في رؤيا
أو في الواقع، ثم عبر مسرعاً مسار الشيء ليتّخذ مكانه، غارقاً
حتّى الأذنين في الضرورات المُلحة التي تقتضيها هذه اللحظة.

«تحكموا في المحاكم وفي سك العملة، واتركوا الباقي للرعا»، هكذا نصحكم الإمبراطور الپاديشاه، ثم زاد لكم: «وإن كنت تبغون الربح، فعليكم بالحكم». هذه الكلمات تحمل بعض الصدق، لكنني أسأل نفسي: «من الرعا ومن الرعية؟».

رسالة المؤدب السرية لمجلس اللاندسراد،
من كتاب «صحوة أراكس» للأميرة إيrolان.

خطرت الفكرة على ذهن چيسیکا دون سابق إنذار: سيخضع پول لاختبار ركوب الرمال في أي لحظة الآن. إنهم يحاولون إخفاء هذه الحقيقة عني، لكنها واضحة. ألم تخرج تشاني في مأمورية غامضة ما؟

جلست چيسیکا في استراحتها، تقتنص لحظة هدوء عزيزة بين دروس الليلة. كانت الحجرة جيدة، لكنها لم تكن كبيرة كتلك التي كانت تتمتع بها في سييتش تابر قبل هروبهن من المذابح. ومع ذلك، كانت أرضية الغرفة مفروشة بسجاد سميك، ووسائد ناعمة، وطاولة قهوة دانية في متناول اليد، وستائر ومعلقات زاهية الألوان على الجدران، وكرات إنارة فوق رأسها تشع بضوء أصفر ناعم. كانت الغرفة تفوح بالرائحة الكريهة النفّاذة المميّزة لسييتشات الفرمن، التي ارتبطت في ذهنها بالإحساس بالأمان. إلا أنها أدركت أنها لن تتخلص أبداً من الشعور بأنها في مكان غريب عليها، الرّاجع إلى شظف العيش الذي يحاول كل هذا السجاد والستائر إخفاءه.

اخترق صوت رنين ونقر طبول وتصفيق خافت هدوء استراحتها. أدركت چيسیکا أنه احتفال بمولود جديد، غالباً

بمولود سبيّة، فميعادها كان قد اقترب. كما علمت أنها ستري المولود بعد قليل، الملاك أزرق العينين الذي سيجلبه إلى الأم الموقرة لتباركه. وعلمت أيضاً أن ابنتها عالية ستحضر الاحتفال وستبلغها بما دار فيه.

لم يكن موعد صلاة الافتراق الليلية قد حان بعد. لم يكن ليبدأ احتفالاً بالولادة مع اقتراب وقت طقس الرثاء على غارات الاستعباد التي شنت على كواكب پوريترين وبيلا تيجيوس وروساك وشارمونشب.

تهدت چيسیکا. كانت تعلم أنها تحاول صرف ذهنها عن التفكير في ابنها والمخاطر التي يواجهها: الحضر المفحّخة بأشواكها المسمومة، وغارات الهراكنة (على الرغم من أنها قد بدأت تنحسر مع تكبيد العدو خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، باستخدام الفرمن الأسلحة الجديدة التي درّبهم عليها پول). هذا فضلاً عن المخاطر الطبيعية في الصّحراء: الديدان العملاقة، والعطش، ووهداث الغبار.

فكرت في أن تطلب قهوة، ومع الفكرة تملّكها ذلك الشعور الدائم بالتناقض في أسلوب حياة الفرمن: مستوى المعيشة الجيد الذي يحظون به في هذه السييتشات الكهفية مقارنةً بالكادحين من سكّان الأخاديد، وما يتكبّدونه من عناء ومشقّة في الهجر عبر الصّحراء المكشوفة يفوقان كل ما يعانيه عبيد الهراكنة. انسلت يد سمرء من بين الستائر المجاورة لها، ووضعت كوباً على الطاولة وانسحبت. تصاعد من الكوب طيب رائحة القهوة بالمخلوطة بالاسپايس.

فكرت چيسیکا: هبة الاحتفال بالمولود.

أخذت القهوة ورشفت منها، وابتسمت سائلةً نفسها: في أي مجتمع آخر في كوننا يمكن لشخص في مثل مكانتي أن يقبل مشروباً مجهولاً ويرشف منه هنيئاً دون خوف؟ بإمكانني تغيير تركيب أي سُم الآن قبل أن يضرني بالطبع، لكن مانحة العطية لا تدرك ذلك.

جرعت الكوب بكامله، شاعرةً بالطاقة والحيوية التي بثتها فيها محتوياته اللذيذة الساخنة.

وتساءلت أي مجتمع آخر سيؤلي مثل هذا الاحترام الفطري لخصوصيتها وراحتها، بحيث تنسل المقدمة إلى خلوتها بالقدر الذي يسمح فقط بوضع الهدية أمامها دون أن تذكر شيئاً عن المانحة؟ الحب والاحترام هما ما أرسلها هذه الهدية، مع مسحة من الخوف أيضاً.

عنصر آخر من عناصر الواقعة فرض نفسه على وعيها: لقد أتت القهوة ما إن فكّرت فيها. كانت تعلم أنه لا شبهة تخاطر في الأمر. بل هو الطاو، وحدانية مجتمع السييتش، الناتجة عن الطعام الغني بالاسپايس الذي يتشاركونه. بالتأكيد لا أمل لهذا العدد الفقير من الناس في بلوغ سمت التنوير الذي منحه إيّاها بذرة الاسپايس، فهم لم يتدرّبوا أو يتهيّؤوا لمثل هذا الأمر. إن عقولهم تنكر ما لا يستطيعون فهمه أو استيعابه. ومع ذلك تجدهم يتصرّفون ويتفاعلون كأنهم كيانٌ واحد، لكن دون أن تخطر ببالهم إطلاقاً فكرة حدوث ذلك مصادفةً.

سألت چيسیکا نفسها: هل نجح پول في اجتياز اختبار الرمال؟ إنه راسخ القدم، لكن المكاره أحياناً لا تنال إلا من الأرسخ قدماً. ما أطول ساعات الانتظار.

فكّرت چيسيكاً: الوحشة تنهش صدري. الإنسان لا يطيق الانتظار إلا مدّة من الوقت، بعدها تفتّسه وحشة الانتظار. وحياة هؤلاء القوم ملأى بأنواع انتظار شتى.

فكّرت چيسيكاً: نحن هنا منذ أكثر من عامين، وأمامنا ضعف هذا الرقم على الأقل قبل أن نفكّر في انتزاع أراكس من قبضة الحاكم الهاركونزي، مدير الناحية*، رابان الوحش.

- «أيتها الأم الموقرة».

كان الصّوت الآتي من وراء ستارة بابها هو صوت حارّة، المرأة الأخرى ضمن آل بيت پول.

- «نعم يا حارّة».

انزاحت الستارة وانسلّت حارّة عبرها بخفّة. كانت تنتعل صندل السييتش، وتلفّ جسدها في رداء أحمر وأصفر يكشف ذراعيها حتّى الكتفين تقريباً. أمّا شعرها الأسود فكان ملتصقاً برأسها ومفروقاً من المنتصف ومسحوباً إلى الوراء كأنه جناحي حشرة، وكانت ملامحها الحادّة البارزة ملتوية في عبوس شديد. ومن خلف حارّة جاءت عالية: طفلة سنّها عامين تقريباً.

برؤية لابنتها، سرحت چيسيكاً -كعادتها دائماً- في الشبه الكبير بينها وبين وبول حين كان في هذه السنّ. نفس النظرة الرزينة المطّلة من العينين الواسعتين، ونفس الشعر الأسود، والفم الحازم. ولكن كان بينهما اختلافات طفيفة أيضاً. هذه الاختلافات هي التي جعلت معظم البالغين ينظرون إلى عالية بريبة وقلق. كان الطفلة -التي تجاوزت سنّ الرضاعة بقليل- تتصرّف بوقار ورُشد يفوقان سنّها بسنوات. صُدم الكبار عندما وجدوها تضحك على النكات اللفظية المعقّدة والدعابات الجنسية المتوارية، أو

وهم يصفون إلى اللغة الطفيفة في صوتها -الذي لا يزال غير واضح لخروجه من أعضاء نطق غضة لم يكتمل نموها بعد- ويجدون في كلماتها تلميحات مأكرة لا يمكن ردّها إلا لتجارب لا قبل لطفلة لم تبلغ العامين بها.

غاصت حارة في إحدى الوسائد بتهيدة غاضبة، وعبست في وجه الطفلة.

أشارت جيسيكاً إلى ابنتها: «عالية».

سارت الطفلة إلى إحدى الوسائد المجاورة لأُمّها، وغاصت فيها، وأمسكت بيد أُمّها. أعاد الاتصال الجسدي لهما ذلك الوعي المتبادل الذي تشاركاه قبل ولادة عالية. لك الأمر لم يكن تشارك أفكار، على الرغم من حدوث ومضات من ذلك أحياناً إن حدث وتلامستا في أثناء تغيير جيسيكاً لترتيب سُمّ الاسپايس في أحد المراسم. بل كان شيئاً أكبر، شيئاً أشبه بإدراك فوري لشراة حيّة أخرى، شعوراً حاداً وشجياً، توافقاً عصبياً يصهرهما ويجعلهما كياناً شعورياً واحداً.

نطقت جيسيكاً بالتحية الرسمية التي تليق بفرد من أفراد آل بيت ابنها: «صباح الخير* يا حارة. كيف حالك الليلة؟».

ردّت حارة بالتحية الرسمية نفسها: «صباح النور*، أنا بخير». لكن كلماتها كانت عديمة النبرة تقريباً. وتنهّدت مجدداً.

شعرت جيسيكاً بأن عالية مستمتعة بالموقف.

قالت عالية بصوتها الأثغ قليلاً: «غنيمة* أخي حانقة منّي».

ميّزت جيسيكاً المصطلح الذي استخدمته عالية للإشارة إلى حارة: غنيمة. في خفايا لغة الفرمن، تعني الكلمة «شيئاً اكتسبه المرء في معركة»، مع التشديد على أن هذا الشيء لم

يعد يستخدم لغرضه الأصلي، بل للزينة.. كاستخدام رأس حربة كثقال ستارة.

عبست حارة في وجه الطفلة: «لا تحاولي إهانتني أيتها الصغيرة، فأنا أعلم مكانتي جيدًا».

سألته جيسكا: «ماذا فعلت هذه المرأة يا عالية؟»
أجابت حارة: «اليوم لم ترفض اللعب مع الأطفال الآخرين فحسب، بل تطلعت أيضًا على...».

قاطعتها عالية: «اختبأت خلف الستائر وشاهدت مولد طفل سبية. إنه صبي بالمناسبة، وظل يبكي ويبكي بلا انقطاع. ما أوسع رثيته! وعندما طال بكأوه...».

أكملت حارة قائلة: «خرجت من مخبئها ولمسته، فتوقف عن البكاء. يعلم الجميع أن على الطفل الفرمني إنهاء كل بكائه عند ولادته -إن كان في السييتش- لأنه لن يُسمح له بالبكاء ثانية لئلا لا يفضح مكاننا في أثناء الهجر».

قالت عالية: «لقد بكى بما يكفي. كل ما أردته هو الشعور بشرارة حياته. وعندما شعر بي لم يعد راغبًا في البكاء».

قالت حارة: «تسببت فعلتك هذه في ازدياد كلام الناس».
سألته جيسكا: «هل ابن سبية بصحة جيدة؟». فقد رأت أن شيئًا يزعج حارة بشدة وتعجبت من كنهه.

قالت حارة: «سليم معافى كما تأمل أي أم. إنهن يعلمن أن عالية لم تؤذه، ولم يهتموا كثيرًا بلمسها له، إذ هدا على الفور وصار سعيدًا. أنا فقط...». بترت حارة عبارتها وهزت كتفها.

سألته جيسكا: «غرابة ابنتي هي ما يزعجك، أليس كذلك؟
طريقتها في الكلام التي تفوق سنّها بسنوات، وتفوّهها بأشياء

يستحيل أن تعلمها طفلة في مثل سنّها... أشياء من الماضي». سألته حارّة: «كيف لها أن تعرف شكل طفل عاش منذ زمن بعيد على بيلا تيجيوس؟».

صاحت عالية: «لكنه يشبهه بالفعل! ابن سبيّة يشبه ابن ميثا تمامًا قبل الافتراق».

قالت جيسيكا: «عالية! أنا أحذرك».

- «ولكن يا أمّي، لقد رأيت الأمر، وكان حقيقياً و...».

هزّت جيسيكا رأسها، إذ رأت علامات الانزعاج على وجه حارّة، وسألت نفسها: ماذا أنجبت؟ ابنة تعرف منذ مولدها كل ما أعرفه، بل وما هو أكثر. لقد انكشف لها كل شيء في أروقة الماضي، على يد الأمّهات الموقّرات اللاتي يعشن داخلي.

قالت حارّة: «ليست المشكلة ما تتفوّه به فحسب، بل ما تفعله أيضاً. جلستها وتحديقها إلى الصخور، دون أن يتحرّك فيها شيء سوى عضلة واحدة جوار أنفها، أو عضلة على ظهر إصبع من أصابعها، أو...».

قالت جيسيكا: «هذا من تدريبات البني جيسيرت كما تعرفين يا حارّة. أتتكرين على ابنتي ميراثها؟».

قالت حارّة: «تعرفين أنني لا آبه بهذه الأمور يا أمّنا الموقّرة. المشكلة في الناس، وفي ما يتناقلونه من همس. أستشعر الخطر في كلامهم. يقولون إن ابنتك شيطانة، وإن الأطفال الآخرين يرفضون اللعب معها، وإنها...».

- «كل ما هنالك أن القواسم المشتركة بينها وبين الأطفال الآخرين قليلة. ليست شيطانة، إنها...».

- «قطعاً ليست شيطانة!».

دهشت جيسكا من الحدة في نبرة حارة، ونظرت إلى عالية. بدت الطفلة سارحة في أفكارها وتشعُّ بهالة من ال... انتظار. أعادت جيسكا انتباهها إلى حارة.

قالت جيسكا: «أحترم كونك فرداً من آل بيت ابني»، واستشعرت انفعالاً في لمسة عالية، ثم أضافت: «يمكنك التحدث معي بصراحة عمّا يزعجك».

قالت حارة: «لن أظل أحد أفراد آل بيت ابنك مدة أطول. لقد انتظرت هذا الوقت الطويل من أجل ولدي، والتدريب الخاص الذي يتلقّيان به بصفتيهما ابنا أصول. هذا أقل ما يمكنني منحه لهما، بما أن الجميع يعرف أنني لا أشارك ابنك فراشه». من جديد، خفقت عالية بالانفعال إلى جوارها. كانت نصف نائمة، ودافئة.

قالت جيسكا: «ولو أنك كنت ستكونين رفيقةً صالحةً لابني». ولأن هذه الأفكار لازمتها طوال حياتها، أضافت إلى نفسها: رفيقة لا زوجة. انصبَّت أفكار جيسكا بعدها مباشرةً على جوهر المشكلة، على الغصة المريرة التي أصابت حلقتها من حديث الناس في السبيتش بأن مخادنة ابنها لتشاني صارت شيئاً دائماً، أشبه بزواج.

فكرت جيسكا: أنا أحب تشاني، لكنها ذكرت نفسها أن الحب قد يضطر إلى التخلي وإفساح المجال أمام الضرورات التي تفرضها الحياة الملكية، فللزيجات الملكية أسباب أخرى كثيرة غير الحب.

سألها حارة: «أتظنين أنني لا أعرف ما ترسمينه لابنك؟».

ردّت جيسكا: «ماذا تقصدين؟».

قالت حارّة: «أنت تخططين لتوحيد القبائل تحت لوائه».

- «وهل هذا سيئ؟».

- «أرى في هذا خطرٌ عليه، وعالية جزء من هذا الخطر».

انكمشت عالية مقتربةً من أمّها، وقد فتحت عينيها الآن وراحت تراقب حارّة.

قالت حارّة: «لقد رأيتهما معاً، وشاهدت الطريقة التي تتلامسان بها. لطالما اعتبرت عالية واحدة من أولادي لأنها أخت شخصٍ مثل أخي. لقد سهرت على رعايتها وحراستها منذ أن كانت رضيعاً، منذ يوم الغزوة حين فررنا إلى هنا، وقد رأيت من أمورها الكثير».

أومأت جيسكا، وهي تشعر بالقلق المتنامي داخل عالية المنكمشة فيها.

قالت حارّة: «تعلمين ما أقصد. منذ أيّامها الأولى وهي تستوعب ما نقوله لها. أيُّ طفل آخر عرف انضباط الماء في مثل هذه السنّ الصغيرة جداً؟ أيُّ طفلٍ آخر كانت أولى كلماته لمربيته: "أنا أحبك يا حارّة؟"».

حدّقت حارّة إلى عالية، ثم استطردت سائلة: «لِمَ تظنين أنني أقبل إهاناتها؟ لأنني أعلم أنه لا تقصد بها أذى».

رفعت عالية بصرها إلى أمّها.

واصلت حارّة: «أجل أيتها الأمّ الموقّرة، إنني أتمتّع بقدرات استدلال منطقي قويّة. كان من الممكن أن أكون إحدى السيّادينات، بعد أن رأيت ما رأيت».

هزّت جيسكا كتفيها وقالت: «حارّة، لا أعرف ماذا أقول». وتعجّبت من نفسها، لأن هذا كان صحيحاً حرفياً.

اعتدلت عالية في جلستها، وشدَّت كتفيها. شعرت جيسिका بأن
انتظارها انتهى، وحلَّ محلُّه شعورٌ مرَّكبٌ من التصميم والحزن.
قالت عالية: «لقد ارتكبنا خطأ، والآن نحتاج إلى حارَّة».
قالت حارَّة: «بدأ الأمر في طقس البذر، عندما غيَّرتِ ماء
الحياة يا أُمنا الموهَّرة، عندما كانت عالية جنيئاً لم يُولد بعد».
سألت جيسिका نفسها: ماذا قصدت بنحتاج إلى حارَّة؟
قالت عالية: «من غيرها بإمكانه التحدُّث إلى الناس وجعلهم
يفهمون أمري؟».

سألت جيسिका: «ماذا تريدن لها أن تفعل؟».
قالت عالية: «إنها تعرف ماذا ينبغي لها فعله».
قالت حارَّة: «سأخبرهم بالحقيقة»، وبدأ وجهها فجأةً عجوزاً
حزيناً، وعبست فانتشرت التجاعيد في بشرتها الزيتونية، وتلبَّست
ملامحها شعوذة السَّاحرات وهي تقول: «سأخبرهم بأن عالية
تتظاهر بأنها فتاة صغيرة، وأنها لم تكن فتاةً صغيرةً قط».
هزَّت عالية رأسها، وسالت الدموع على وجنتيها، وشعرت
جيسिका بموجة الحزن التي اجتاحت ابنتها كما لو كان الشعور
شعورها.

همست عالية: «أعرف أنني مسخ»، وكان التلخيص الناضج
الخارج من فم الطفلة بمنزلة تأكيد مريـر.
صاحت حارَّة: «لست مسخاً! من يجروُ على نعتك بالمسخ؟».
دهشت جيسिका مجدداً من نبرة الحماية الحادة في صوت
حارَّة، ثم أدركت أن عالية كانت محقَّة. إنهم في حاجة إلى حارَّة
بالفعل. ستفهم القبيلة حارَّة، ستفهم كلماتها ومشاعرها، لأنه
من الواضح أنها تحب عالياً كما لو كانت طفلتها.

كُرِّرت حارّة: «من قالها؟».

- «لا أحد».

استخدمت عالية طرف عباءة* جيسكا لمسح الدموع عن وجهها، ثم فردت الثوب حيث بلّته وجعّده. قالت حارّة بنبرة أمرّة: «إياك أن تقول لها إذا». - «حسنًا يا حارّة».

قالت حارّة: «الآن، أخبريني بتجربتك كي أنقلها للآخرين. أخبريني بم حدث لك». ابتلعت عالية ريقها، ونظرت إلى أمّها. أومأت لها جيسكا.

قالت عالية: «وجدتني استيقظت يومًا فجأة. كان الأمر أشبه بالاستيقاظ من النوم، إلّا أنني لا أتذكّر إخلادي إلى النوم. كنت في مكانٍ مظلم ودافئ، وكنت خائفة». تذكّرت جيسكا ذلك اليوم في المغارة الكبيرة وهي تنصت إلى صوت ابنتها طفيف اللثغة.

قالت عالية: «عندما تملّكني الخوف، حاولت الهرب، لكن لم يكن هناك مهرب. ثم رأيت شرارة... لكن الأمر لم يكن كالرؤية بالعين. فقط أدركت وجود الشرارة معي هناك، وشعرت بمشاعرها... هدأتني الشرارة، وطمأننتني، وأخبرتني بأن كل شيء سيكون على ما يُرام. تلك الشرارة كانت أمّي».

فركت حارّة عينيها، وابتسمت لعالية لتطمئنّها، إلّا أن نظرة وحشية كانت تتلاعب في عيني المرأة الفرمنية، نظرة فيها من الجِدّة بدت معها عيناها كأنهما تحاولان هما الأخريان الإنصات إلى كلمات عالية.

فكّرت جيسيكاً: ما الذي نعرفه عن طريقة تفكير مثل هذه المرأة، بالأخذ في الاعتبار تجاربها الفريدة وتدريبها وأسلافها؟ قالت عالية: «وما إن شعرت بالأمان والطمأنينة، انبثقت شرارة أخرى من العدم وصارت معنا... وحدث كل شيء في وقت واحد. كانت الشرارة الأخرى هي الأمُّ الموقرة العجوز السابقة، وكانت... تتبادل الخبرات والحيوات مع أمِّي... تتبادل كل شيء... وكنت أنا معهما، ورأيت كل شيء... كل شيء. ثم انتهى الأمر، وصرت أنا هما، وكل الأخريات، وذاتي كذلك... قضيت وقتاً طويلاً لأعثر على نفسي مرةً أخرى، إذ كُنَّ كثيرات».

قالت جيسيكاً: «كانت تجربة قاسية. لا ينبغي لأيّ كائن أن يستيقظ على وعي كهذا. العجيب في الأمر هو قدرتك على تقبُّل كل ما حدث لك».

قالت عالية: «لم يكن بيدي حيلة لم أعرف كيف أرفض أو أخفي وعيي... أو أطفئه... حدث كل شيء بسرعة... كل شيء...». غمغمت حارّة: «لم نكن نعلم. عندما أعطينا أمّك الماء لتغيّره، لم نكن نعلم أنك بداخلها».

قالت عالية: «لا تحزني يا حارّة. يجب ألاّ أشعر بالأسف على نفسي. فبعد كل شيء، انتهى الأمر نهاية سعيدة: صرت أمّاً موقرة. للقبيلة أمان موقرتان...».

ثم بترت عبارتها، وأمالت رأسها مصغيةً. ارتج على حارّة، وحدّقت إلى عالية، ثم نقلت انتباهها إلى وجه جيسيكاً.

سألت جيسيكاً: «ألم تتوقّعي الأمر؟».

قالت عالية: «صه».

جاءتهم أصوات ترانيم إيقاعية بعيدة عبر الستائر التي تفصلهم عن أروقة السييتش، وراحت تعلو شيئاً فشيئاً، حتى ميّزن كلماتها: «يا يا يوم! * يا يا يوم! موزين والله! * يا يا يوم! موزين والله!».

مرّ المنشدون من أمام المدخل الخارجي، وبلغت أصواتهم العالية المساكن الداخلية. ثم انحسر الصّوت ببطء كما جاء. عندما خفت الصّوت بدرجة كافية، بدأت جيسिका الطقوس، والحزن بادٍ في صوتها: «كان الشهر شهر رمضان الموافق شهر أبريل على بيلا تيجيوس».

قالت حارّة: «كانت عائلتي جالسة في مسبح فنائها، والهواء حولهم مُشبع بالرطوبة من رذاذ النافورة. كانت قُطُوف شجرة البرتقال * الفاقع لونه دانية، وإلى جوارهم سلّة فيها المشمش * والبقلاوة * وأكواب اللبّن *، وكل ما هو طيّب من الطعام. كان السلام يعمّ حدائقنا وقطعاننا. كان السلام يعمّ الأراضي كلها».

قالت جيسिका: «جفّت الدماء في العروق حين سُمع صراخ الأصدقاء»، وشعرت بالذكريات تغمرها وتندفق عبرها، نابعة من كل تلك الحيات الماضية الأخرى التي تتشاطرها.

قالت حارّة: «صاحت النساء: لا، لا، لا *».

قالت جيسिका: «جاء الغزاة عبر المُشتمل *، مندفعين نحونا بسكاكين تقطر منها مع الدماء أرواح رجالنا».

خيّم الصّمت على ثلاثتهن، مثلما خيّم على كل مسكن في السييتش. الصّمت الذي يتذكّر فيه ما حدث، ويجدّد أحزانهن. ثم ما لبست حارّة أن نطقت بكلمات الطقس الختامية بقسوة لم تسمعها جيسिका تُتطّق بها من قبل.

قالت حارّة: «أبدأ لن نسامح، أبدأ لن ننسى».

في الهدوء الوقور الذي أعقب كلماتها، سمعن تمتعات الناس،
وحفيف ثياب كثيرة. شعرت جيسيكاً بشخص يقف وراء الستائر
التي تحجب غرفتها.
- «يا أمنا الموقرة؟».

كان صوت امرأة، وقد عرفت جيسيكاً صاحبته: إنها ثرثارة*،
إحدى زوجات ستيلجار.
- «ما الأمر يا ثرثارة؟».
- «لدينا مشكلة يا أمنا الموقرة».

شعرت جيسيكاً بانقباض يعتصر قلبها، واجتاحها خوفٌ
مفاجئٌ على پول، فشهقت: «پول....».

أزاحت ثرثارة الستائر، وخطت إلى داخل الحجرة. لمحت
جيسيكاً جمهرة من الناس في الغرفة الخارجية قبل أن تعود
الستائر إلى مكانها. رفعت جيسيكاً بصرها إلى ثرثارة. كانت
امرأة سمراء ضئيلة الجسد ترتدي ثوباً أسود مملوء بنقوشٍ
حمراء. تركّزت عينا المرأة صافيتا الزرقاء على جيسيكاً، واتسعت
فتحتي أنفها الصغير كاشفةً عن ندوب السدادة.
سألته جيسيكاً: «ماذا حدث؟».

قالت ثرثارة: «أتنا أخبار من الرمال. أصول سيواجه الصّانعة
اليوم في الاختبار. يقول الفتية إنه محال أن يفشل، وإنه سيُمسي
راكب رمال الليلة. يتأهب الفتية للخروج في غزوة. سيفغزون
شمالاً ويلتقون بأصول هناك. يقولون إنهم سيرفعون صيحة
الحرب عندها، وإنهم سيرغمونه على تحدّي ستيلجار، ومن ثم
تولّي زعامة القبائل».

فكّرت جيسيكا: جمع الماء، وزرع الكثبان، وتغيير عالمهم ببطء ولكن بثبات لم تعد أمورًا كافية. الغزوات الصغيرة، الغزوات مُحَدَّدة الغرض لم تعد تكفيهم بعد التدريب الذي تلقَّوه على يد بول وعلى يدي. لقد شعروا بقوَّتهم، ويريدون القتال.

نقلت ثرثارة وزنها من قدم إلى أخرى، وتنحنحت.

واصلت جيسيكا تفكيرها: نحن نعلم ضرورة الانتظار الحذر، لكن الإحباط يتسرَّب إلى نخاعنا. ونعلم كذلك الضرر الذي يمكن أن يلحقه بنا الانتظار مددًا طويلة، فمع طول الانتظار تفتر الهمة، ويضيع الهدف.

قالت ثرثارة: «يقول الفتيان إن لم يعلن أصول تحدِّيهِ لستيلاجار، فهذا لأنه خائف».

ثم خفضت بصرها خجلًا.

تمتت جيسيكا: «هكذا إذا»، وفكّرت: توقَّعت ذلك، وكذا توقَّعه ستيلاجار.

تنحنحت ثرثارة مجددًا، ثم قالت: «حتَّى أخي شواب يقول ذلك. لن يتركوا لأصول خيارًا».

فكّرت جيسيكا: حانت لحظة الحسم إذا، وسيتعين على بول التعامل معها بنفسه. لا يجوز للأُم الموقرة الضلوع في مسألة الخلافة.

حرَّرت عالية يدها من يد أمها، وقالت: «سأذهب مع ثرثارة للاستماع إلى الفتيان، فلربَّما يُوجد مخرج من هذا المأزق».

بادلت جيسيكا ثرثارة النظر، لكنها وجَّهت كلامها إلى عالية: «اذهبي إذا، وأبغليني بما توصَّلت في أسرع وقت».

قالت ثرثارة: «لا نريد لهذا الأمر أن يحدث يا أمنا الموقرة».

وافقتها جيسिका قائلة: «أجل، لا نريده أن يحدث، فالقبيلة في حاجة إلى كامل قوّتها»، ثم رمقت حارّة وسألت: «هل ستذهبين معهما؟».

أجابت حارّة على الجزء غير المعلن من السؤال: «لن تسمح ثرثارة بأن يصيب عالية مكروه. إنها تعرف أننا سنكون قريباً ضرّتين، أنا وهي، نشارك نفس الرجل. لقد تكلمت أنا وثرثارة»، ورفعت بصرها إلى ثرثارة، ثم عادت تنظر إلى جيسिका: «وتوصلنا إلى تفاهم».

مدّت ثرثارة يدها إلى عالية، وقالت: «علينا أن نسرع، فالشبّان سيفادرون».

انسلّت الاثنتان عبر الستائر، يد الطفلة في يد المرأة الضئيلة الجسد، لكن بدا أن الطفلة هي من تقود الطريق.

قالت حارّة: «إذا قتل پول ستيلجار، فلن يكون ذلك في صالح القبيلة. لطالما كانت هذه طريقة الخلافة، لكن الأحوال تغيّرت الآن».

قالت جيسिका: «أحوالك أنت أيضاً تغيّرت».

قالت حارّة: «لا يمكن أن تظنّي أنني أشك في نتيجة المعركة، أصول فائز لا محالة».

قالت جيسिका: «هذا ما قصدت».

قالت: «تظنّين أن مشاعري الشخصية تؤثر في حكمي»، وهزّت رأسها، فصلصلت حلقات الماء المعلّقة عند رقبتها: «كم أنت مخطئة. ربّما تظنّين كذلك أنني نادمة لأن أصول لم يخترنني، وأنني أغار من تشاني؟».

قالت جيسिका: «المرء يقبل بالخيارات المتاحة أمامه».

قالت حارّة: «أنا أشفق على تشاني».

اعتذلت جيسिका وقالت محدّدة: «ماذا تعنين؟».

قالت حارّة: «أعرف رأيك في تشاني. أنت لا ترينها الزوجة المناسبة لابنك».

أعادت جيسिका ظهرها إلى الوراء، واسترخت مستندةً بظهرها إلى الوسائد، وهزّت كتفيها قائلة: «رُبّما».

قالت حارّة: «قد تكونين محقّةً. وإن كنت كذلك، فقد يفاجئك وجود حليف يوافقك الرأي: تشاني نفسها. إنها لا تريد إلاّ مصلحته، أيّا كانت».

ابتلعت جيسिका غصّة مفاجئة تكوّنت في حلقها: «تشاني عزيزة جدًا على قلبي، لا يمكن أن تكون....».

قالت حارّة: «سجّادك متّسخ جدًا»، ومسحت بعينيها أرضية الغرفة، متحاشيةً نظرة جيسिका: «أناس كُثُر يطؤون المكان بأقدامهم طوال الوقت. عليك أن تجعلي خادماذك ينظّفنه باستمرار».

لا مناص من تفاعل السياسة مع أي دين تقليدي، وهذا الصراع الدائم على السُّلطة يتغلغل في شتى جوانب تدريب وتثقيف وتأديب المجتمعات المتديّنة. وبسبب هذا الضغط، يواجه قادة مثل هذه المجتمعات ذلك السؤال المؤرّق: هل يستسلمون بالكامل أمام النزعة الانتهازية كُثمن للحفاظ على حكمهم، أم يخاطرون بالتضحية بأنفسهم في سبيل منظومة الأخلاق التقليدية؟

من كتاب «المؤدّب: القضايا الدينية» للأميرة إيرولان.

وقف پول فوق الرمال على حافة مسار الدودة الصّانعة العملاقة المقترية، مذكّرًا نفسه: يجب ألا يكون انتظاري كانتظار المهزّبين، عصبياً ومضطرباً. يجب أن أكون جزءاً من سكّون الصّحراء.

صارت الدودة على بُعد دقيقة واحدة منه، وملأت هواء الصباح بهسيس احتكاكها بالرمال. انتشرت أسنانها العظيمة المتراسة في مغارة فمها الدائرية كبتلات زهرة عملاقة، وتعبّق الهواء برائحة الاسپايس المنبعثة منها.

لم يشعر پول ببذلة التقطير المحكمة حول جسده، ولا بسدّادتي الأنف أو قناع التنفّس على وجهه، فقد طفت تعاليم ستيلجار - تلك الساعات المضنية قضاها على الرمال - على كل شيء آخر.

تذكّر عندما سأله ستيلجار: «ما المسافة التي يجب أن تقف عندها على الرمال الحبيبية بعيداً عن نصف قطر جسد الصّانعة؟».

وقد أجاب بشكلٍ صحيح: «على بُعد نصف مترٍ لكل متر من نصف قطر الصَّانعة».

- «لماذا؟».

- «لتجنُّب دوَّامة مرورها، وفي الوقت نفسه ليكون لديَّ الوقت الكافي للركض بمحاذاتها والتعلُّق بها».

قال ستيلجار: «لقد ركبت الديدان الصغيرة التي نستولدها لطقس البذر وماء الحياة، ولكن ما ستستدعيه لاختبارك ستكون دودة بريَّة، شَيْخة من شَيْخات الصَّحراء. لذا عليك أن تظهر لها الاحترام الكافي».

اختلفت الآن دَقَّات المطراق العميقة مع هسيس الدودة المقترية. أخذ پول نفسًا عميقًا، فشَمَّ رائحة مرارة معدنية في الرمال، حتَّى من خلال مرشَّحاته. لاحت أمامه الصَّانعة البرِّيَّة، شَيْخة الصَّحراء، تكاد تبلغه، في حين ما تقدَّمتها بمسافة موجة رمليَّة تكاد تصل إلى ركبتيه.

فكَّر پول: تعال، تعال أيُّها الوحش الخَّلاب. اقترب. لقد سمعت ندائي. تعال، تعال.

رفعت الموجة قدميه، واكتسحه الغبار السُّطحي. ثبَّت پول نفسه، وقد طغى على مجال رؤيته هذا الجدار الأسطواني المحاط بسحابة رمليَّة، هذا الجرف المجزَّأ، الذي تحدَّد قطاعاته خطوط حلقيَّة واضحة.

رفع پول خُطَّافيه، وصوبهما، ثم مال إلى الأمام شاعرًا بهما ينغرزان ويسحبانه معهما. وثب إلى أعلى، غارسًا قدميه في هذا الجدار، ومال بجسده إلى الخارج مختبرًا ثبات الخطَّافين المنفرزين. كانت هذه هي اللحظة الحاسمة في الاختبار: إن كان قد غرس خُطَّافيه بدقَّة في حافة أحد القطاعات الحلقيَّة

الأمامية البارزة، فاتحاً طيَّةً في ذلك القطاع، فلن تغوص الدودة في الرمال وتسحقه.

أبطأت الدودة من سرعتها، وانزلقت مجتاحةً المطراق فأخرسته، ثم بدأت تدور ببطء إلى أعلى، رافعةً معها شوكتي الخطافين المزعجتين إلى أعلى مستوى ممكن بعيداً عن الرمال التي تهدد بالدخول إلى طيَّات وأنسجة الحلقة الداخلية الناعمة. وجد پول نفسه راكباً فوق الدودة. شعر بنشوة مبهجة، كأنه إمبراطور يتفقد عالمه، وكبح رغبةً فجائيةً في أن يقفز فرحاً، وأن يحوّل مسار الدودة، للتباهي بتحكُّمه في المخلوق.

ثم فهم فجأة لماذا سبق أن حدّره ستيلجار من الشبَّان الطائشين الذين يرقصون ويتلاعبون بهذه الوحوش، فيقفون على أيديهم فوق ظهورها، وينزعون الخطافين، ثم يعيدون غرسهما قبل أن تتمكن الدودة من إلقائهم.

ترك پول خطافاً في مكانه، ونزع الآخر وغرسه في موضع مجاور أسفل الجانب. وحين اختبر ثبات ورسوخ الخطاف الثاني، نزع الأوّل وغرسه بعده، وهكذا شق طريقه نزولاً على الجانب. مالت الصّانعة متدحرجةً على جانبها، وبدت حرجها انعطفت متّجهةً نحو رقعة الرمال الناعمة حيث يقف الآخرون.

رأهم پول يتسلّقونها مستخدمين خطاطيفهم، لكن متجنّبين حواف الحلقات الحسّاسة، إلى أن وصلوا إلى القمة. وفي النهاية، اصطفّوا خلفه في ثلاثة صفوف، متشبّثين بخطاطيفهم. تقدّم ستيلجار مخترقاً الصُّفوف، وتفحّص ثبات خطافي پول، ثم رفع بصره إلى وجه پول المبتسم.

صاح ستيلجار رافعاً صوته فوق صخب هسيس الرمال: «تظنُّ

أنك نجحت، أليس كذلك؟ أهذا ما تظنُّه؟ أنك فعلتها؟»، ثم شدَّ ثامته وقال: «حسنًا، ها أنا أخبرك أن أدائك كان أخرق تمامًا. بيننا صبية لا تتعدَّى أعمارهم اثنتي عشرة سنة يفعلونها أفضل منك. كان على يسارك رملٌ طبلي حيث وقفت تنتظر. ما كنت ستستطيع التراجع إن حدث وانحرفت الدودة في ذلك الاتجاه». تلاشت الابتسامة عن وجه پول: «رأيت الرمل الطبلي بالفعل».

- «إذًا لماذا لم تُشر لواحد منا كي يتَّخذ موقعًا احتياطيًا؟ هذا مسموحٌ به حتَّى في الاختبار».

ابتلع پول ريقه، وأدار وجهه لاتَّجاه هبوب الرياح. قال ستيلجار: «أعرف أنك ترى قلبي هذا الآن إساءةً مني، لكنه واجبي، فأنا أفكّر في أهميتك للقوَّات. لو كنت تعثَّرت في ذلك الرمل الطبلي، لاستدارت الصَّانعة نحوك وسحقتك».

على الرغم من غضبه المتنامي، أدرك پول أن ستيلجار مُحقٌّ، واستغرق دقيقةً طويلةً استجمع فيها كل التدريب الذي تلقَّاه من أمِّه كي يستعيد هدوءه. قال پول: «أعتذر، لن يتكرَّر الأمر».

قال ستيلجار: «في المواقف الصَّعبة، احرص على وجود شخص احتياطيٍّ إلى جوارك ليمتطي الصَّانعة إن أخفقت. تذكر أننا يدٌ واحدةٌ، وفي هذا تكمن قوَّتنا. ألسنا يدًا واحدةً؟».

وافقه پول: «بلى، يدٌ واحدةٌ».

قال ستيلجار بنبرة جافَّة: «أرني مهارتك في التحكُّم في الصَّانعة. على أيِّ جانبٍ نقف الآن؟».

نظر پول إلى سطح الحلقة الحرشفي الذي يقفون عليه، ولاحظ نمط وخصائص الحراشف، وكيف تزداد حجمًا في اتَّجاه اليمين وتصغر في اتَّجاه يساره. كان يعلم أن كل دودة تتحرك بشكل مميز،

وتُفضّل المحافظة على أحد جوانبها لأعلى أغلب الوقت. مع تقدّمها في العمر، يبقى الجانب العلوي علويًا باستمرار، ويزداد حجم الحراشف السفلية، وتصلقها الرمال فتصير أثقل وأنعم. في الديدان الكبيرة، يمكن تمييز القشور العلوية عن السفلية من مجرد النظر إلى حجمها.

بنقل خُطّافيه من موضع إلى آخر، تحرّك پول إلى اليسار. بدأت الدودة تلتف حول نفسها، فأشار إلى مساعدي الجناح من خلفه لفتح القطاعات على امتداد هذا الجانب لإبقاء الدودة في مسارٍ مستقيم. وعندما نجح في قلبها، أشار إلى اثنين من رجال التوجيه بأن يخرجوا من الصّفّ ويتّجهاّن إلى موقعيهما في المقدمة.

صاح بالصيحة التقليدية: «آخ حي يوه!».

ففتح رجل التوجيه على الجانب الأيسر طيّة أحد القطاعات الحلقية من جسد الدودة. استدارت الصّانعة في دائرة مهيبة لحماية قطاعها المفتوح. دارت دورة كاملة حول نفسها وعادت تتّجه صوب الجنوب، عندها صاح پول: «قراط!».

نزع الموجّه خُطّافه، فسارت الصّانعة في مسارٍ مستقيم.

قال ستيلجار: «أحسنّت يا مؤدّب. مع كثيرٍ من الممارسة، قد تصبح راكب رمال بالفعل».

عبس پول مفكّرًا: ألم أكن أوّل الراكبين؟

أتاه ضحك مفاجئ من خلفه، وبدأت الفرقة تهتف، رافعة اسمه إلى عنان السماء.

- «مؤدّب! مؤدّب! مؤدّب! مؤدّب!».

ثم من الطرف البعيد لسطح الدودة، سمع پول إيقاعات النخّاسين وهم ينخسون حلقات الذيل. ازدادت سرعة الدودة، فتطايرت ثيابهم مع الرياح، وارتفع صوت احتكاكهم بالرمال. نظر پول خلفه إلى المجموعة، ورأى وجه تشاني بينهم، وظلّ ناظرًا إليها وهو يتحدث إلى ستيلجار.

- «إذا، هل أصبحت راكب رمال يا ستيل؟»

- «ها اليوم* ! صرت راكب رمال».

- «إذا يحق لي اختيار وجهتنا؟»

- «هكذا جرت العادة».

- «صرت اليوم فرمينًا، هنا في عرق حبانية* . حياتي السابقة

لا تعني شيئًا. كنت طفلًا حتّى يومنا هذا».

قال ستيلجار: «لم تكن طفلًا بالضبط»، ثم أحكم قلنسوته

حول رأسه حيث طيّرتها الرياح.

- «لكنّ عالمي كان مغلقًا بسدّادة، وهذه السدّادة نُزعت».

- «لا توجد سدّادة».

- «سأذهب إلى الجنوب يا ستيلجار، سنقطع مسافة عشرين

مِطراقًا. سأرى تلك الأراضي التي نزرعها، تلك الأراضي التي لم

أرها إلّا من خلال أعين الآخرين».

وفكّر: وسأرى ابني وأسرّتي. أحتاج إلى وقتٍ لأفكر في

المستقبل الذي هو ماضٍ في ذهني. الفتنة آتية، وإن لم أكن

حيث أستطيع ردعها، فستندلع جامعة.

رمقه ستيلجار بنظرة ثابتة متفحّصة. أبقى پول انتباهه على

تشاني، ملاحظًا التشوّق البادي في ملامحها، وكذلك الحماسة

التي أثارتها كلماته في المجموعة.

قال ستيلجار: «الرجال متلهّفون للإغارة معك على أحواض الهراكنة، وهي على مسافة مطراقٍ واحد».

قال پول: «لقد سبق أن شنَّ الفدائيون الغارات معي، وسيغيرون معي كراتٍ أخرى حتّى لا يبقى هاركونني واحد يتنفس هواء أراكس».

أمعن ستيلجار في النظر إليه وهم في رحلتهم، وأدرك پول أن الرجل يرى هذه اللحظة من خلال ذكرى تولّيه زعامة سييتش تابّر، وترأسه مجلس القادة بعد أن مات ليت كاينز.

فكّر پول: لقد سمع أنباء عن اضطرابات بين شباب الفرمن.

سأله ستيلجار: «أتريد أن نعقد اجتماعاً للقادة؟».

اتّقدت أعين شباب المجموعة، وراحوا يراقبون الموقف وهم يتمايلون فوق مطبتهم. لاحظ پول التزعزع في نظرة تشاني من الطريقة التي تنقل بها بصرها بين ستيلجار، عمّها، وپول المؤدّب، خليلها.

قال پول: «ليس بإمكانك تخمين ما أريد».

وفكّر: لا أستطيع التراجع. لا بُدّ لي من الإمساك بزمام السيطرة على هؤلاء القوم.

قال ستيلجار بنبرة رسمية باردة: «أنت مدير* ركوب الرمال اليوم، كيف ستستخدم هذه السُلطة؟».

فكّر پول: نحن بحاجة إلى وقت للاسترخاء، وقت للتفكير بهدوء.

كرّر پول: «سنسافر جنوباً».

شعر ستيلجار بضرورة الاحتفاظ بكرامته، فأحكم لفّ ثوبه حول جسده قائلاً: «سنعقد الاجتماع. سأبعث الرسائل».

فَكَرَّ بُولُ: يَظُنُّ أَنَّنِي سَأُتَحَدَّاهُ، وَهُوَ مُتَيَقِّنٌ مِنْ أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ الصُّمُودَ أَمَامِي.

صَوَّبَ بُولُ وَجْهَهُ نَحْوَ الْجَنُوبِ، وَشَعَرَ بِبُحْبُوبِ الرِّيحِ عَلَى وَجْنَتَيْهِ الْمَكْشُوفَتَيْنِ، مَفْكَرًا فِي الضَّرُورَاتِ الَّتِي تَحْكُمُ قَرَارَاتِهِ. وَخَطَرَ لَهُ: إِنَّهُمْ لَا يَمْرُقُونَ مَا تَخَبَّئُهُ الْأَقْدَارُ.

لَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَتْرَكَ أَيَّ اعْتِبَارٍ أَنْ يَصْرِفَهُ. عَلَيْهِ أَنْ يَظَلَّ ثَابِتًا عَلَى الْخَطِّ الْمَرْكَزِيِّ لِلْعَاصِفَةِ الزَّمْنِيَّةِ الَّتِي يَرَاهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَسَتَأْتِي لِحِظَةٍ يُمْكِنُ فِيهَا تَفْكِيكُهَا، لَكِنْ هَذَا لَنْ يَحْدُثَ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ مِنْهُ حَلُّ الْعُقْدَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ.

فَكَرَّ بُولُ: لَنْ أُتَحَدَّاهُ إِنْ كَانَ هُنَاكَ مَخْرَجٌ، إِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى لِمَنْعِ الْجِهَادِ...

قَالَ سَتِيلْجَارُ: «سَنَخِيْمُ لِنَتَاوَلَ الْعِشَاءَ وَالصَّلَاةَ فِي كَهْفِ الطِّيُورِ، عِنْدَ سَفُوحِ تَلَالِ حَبَانِيَّةٍ».

وَتَبَّتْ نَفْسُهُ بُخْطَافٍ وَاحِدٍ فَوْقَ الصَّنَاعَةِ الْمُتَمَائِلَةِ، وَأَشَارَ بِالْيَدِ الْأُخْرَى إِلَى حَاجِزٍ صَخْرِيٍّ مُنْخَفِضٍ بَارِزٍ مِنَ الصَّحَرَاءِ. تَأَمَّلَ بُولُ صَخُورَ الْجَرَفِ الْعَظِيمَةِ الْمُتْرَاكِبَةِ فِي طَبَقَاتٍ كَالْأَمْوَاجِ. لَا أَثَرَ لَخَضِرَةٍ أَوْ لَازِدْهَارِ نَبَاتَاتٍ تَكْسِرُ حِدَّةَ ذَلِكَ الْأَفْقِ الْجَامِدِ. وَمِنْ خَلْفِ الْجَرَفِ امْتَدَّ الْمَسَارُ الْمُؤَدِّي إِلَى الصَّحَرَاءِ الْجَنُوبِيَّةِ؛ الطَّرِيقُ الطَوِيلُ الَّذِي يَسْتَعْرِقُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ عَلَى الْأَقْلَ، بِأَقْصَى سُرْعَةٍ يُمْكِنُهُمْ حَثُّ الصَّنَاعَةِ عَلَيْهَا. مَسَافَةٌ عَشْرِينَ مِطْرَاقًا.

يَمْتَدُّ الطَّرِيقُ مَسَافَةً أَبْعَدَ بِكَثِيرٍ مِنْ أَقْصَى مَدَى وَصَلَتْ إِلَيْهِ دُورِيَّاتُ الْهَرَائِكَةِ، وَقَدْ كَانَ بُولُ يَأْلَفُ مَعَالِمَهُ جَيِّدًا، إِذْ كَشَفْتَهَا

أحلامه له. في يوم ما من رحلتهم، سيحدث تغيُّر طفيف في لون الأفق البعيد، تغيُّر طفيف جدًا سيظن معه أنه يتخيَّله من فرط توقه، وعندها سيظهر السييتش الجديد.

سأله ستيلجار: «هل يناسب قراري المؤدَّب؟».

لم يبد في صوته إلا مسحة سخرية طفيفة جدًا، لكن آذان الفرمن من حولهما -الآذان اليقظة الحساسة لكل نفمة في صيحات الطيور وكل لحن في رسائل السيلاجو- ميَّزت السخرية وراقبت پول لرؤية ماذا سيفعل.

قال پول: «لقد سمعني ستيلجار وأنا أقسم له بولائي عندما أسسنا فرقة الفدائيين، ومفاويز الموت التابعون لي يعلمون أنني أتحدَّث بشرف. هل يشك ستيلجار في هذا؟».

كان هناك ألم حقيقي بادٍ في صوت پول، فخفض ستيلجار عينيه حين سمع نبرته.

ثم قال: «في أصول، رفيق سييتشي، لن ينتابني شك أبداً. لكنك أيضاً پول المؤدَّب، دوق آل آترديدز، ولسان الغيب، الصَّوت الآتي من عالم آخر، وهذان رجلان لا أعرفهما من الأساس».

استدار پول فرأى تلال حبانية تبرز من سطح الصَّحراء. كانت الصَّانعة من تحتهم ما زالت قويَّة ونشيطة، وبإمكانها أن تقطع بهم ضعف المسافة التي قطعتها أيُّ صانعة أخرى سبق أن خبَّرها الفرمن. كان واثقاً بذلك. لا شيء بخلاف ما يُحكى من قصص للأطفال بإمكانه مضاهاة شيخة الصَّحراء هذه. أدرك پول أنها كانت مادَّة خام لأسطورة جديدة.

أمسكت يده كتفه، فنظر پول إليها، وتتبع ببصره الذراع الممدودة حتَّى وصل إلى وجه صاحبها، فقابل عيني ستيلجار

الداكتين المطلَّتين من بين قناع التنفُّس وقلنسوة البذلة.

قال ستيلجار: «كان زعيم سييتش تابِر السَّابق صديقي. واجهنا الأخطار معًا. كان مدينًا لي بحياته مرَّات عدَّة.. وكذلك أنا».

قال پول: «أنا صديقك يا ستيلجار».

قال ستيلجار: «لا أحد يشكُّ في ذلك»، ثم أبعد يده، وهزَّ كتفيه: «إنما هي الأعراف».

رأى پول أن ستيلجار منغمس في عادات الفرمن ومقيَّد بأعرافهم إلى درجة لا يفكّر معها في احتمالية وجود سبيلٍ آخر. هنا، يتسلَّم الزعيم مقاليد الحكم من بين يدي سلفه الميِّت، أو يتقاتل مع أقوى أفراد قبيلته إذا حدث ولقي الزعيم حتفه في الصَّحراء. لقد صار ستيلجار نائبًا بهذه الطريقة.

قال پول: «علينا أن نترك هذه الصَّناعة في رمالٍ عميقة».

وافقه ستيلجار: «أجل، يمكننا السير إلى الكهف من هنا».

قال پول: «لقد امتطيناها مسافة كبيرة. ستدفن نفسها خردًا ليوم أو أكثر».

قال ستيلجار: «أنت مدير ركوب الرمال، قل متى...»، ثم بتر عبارته، محدِّقًا إلى السماء الشرقية.

استدار پول لينظر إلى حيث نظر. صبغت غمامة الاسپايس الزرقاء على عينيه السماء بلونٍ أدكن، كأنها فلتر لازوردي كثيف وضع معه الوميض الإيقاعي البعيد في تباينٍ حاد.

أورنيثوبر!

قال ستيلجار: «إنها ثوبتر صغيرة واحدة».

قال پول: «قد تكون مركبة استطلاعية. أظنُّ أنهم رأونا».

قال ستيلجار: «من هذه المسافة نحن مجرد دودة تسير على السطح»، ثم أشار بيده اليسرى أمرًا: «اهبطوا وانتشروا على الرمال».

بدأ أفراد المجموعة يهبطون من جانبي الدودة، واثبين على سطح الصحراء، ممتزجين بالرمال، مستترين تحت ثيابهم. حدّد پول مكان سقوط تشاني، وفي النهاية، لم يبق سواه وستيلجار.

قال پول: «أول من صعد، آخر من يهبط». أوماً ستيلجار، وهبط جانب الدودة متشبّثًا بخطّافيه، ثم قفز إلى الرمال. انتظر پول حتّى ابتعدت الصّانعة عن منطقة انتشارهم بمسافة آمنة، ونزع خُطّافيه. كانت هذه لحظة خطيرة مع دودة لم تُستنفد طاقتها بالكامل.

بعد تحرُّرها من مناخسها وخطاطيفها، بدأت الدودة الضخمة تفوص في الرمال. هرول پول بغفّة خلفًا على امتداد ظهرها الفسيح، وحسب بدقّة اللحظة المناسبة للقفز قبل أن يقفز. هبط راکضًا فوق الرمال، واندفع إلى الجانب المنزلق لأحد الكُثبان كما تعلّم، وأخفى نفسه تحت شلال الرمال المتساقط على ثوبه. الآن، حان وقت الانتظار...

أدار پول جسده برفق، وفتح فرجة بين طيّات ثوبه يرى منها السماء، وتوقّع أن الآخرين المنتشرين خلفه على امتداد هذا المسار يفعلون نفس الشيء.

سمع رفرقة جناحي الثوبتر قبل أن يراها. اقترب صوت النّفّاثات البعيد، ثم رأى الثوبتر تحلّق فوق رقعة الصحراء التي يختبئ فيها، قبل أن تنحرف في قوسٍ عريض نحو التلال.

لاحظ پول أن الثوبتر لا تحمل أيَّ شعار.

ثم غابت عن الأنظار وراء تلال حبانية.

شقَّت صيحة طائر الصَّحراء، وتبعتهَا أخرى.

حرَّر پول نفسه من الرمال، وتسَلَّق قَمَّة الكتيب. وقف آخرون

في صفٍّ يمتدُّ بعيداً عن التلال، تعرف بينهم على تشاني

وستيلجار. كان ستيلجار يشير نحو التلال.

تجمَّعوا وبدؤوا السير على الرمال، منزلقين على السطح في

إيقاع مكسور كي لا يجتذبوا أيَّ صانعة في الجوار. أسرع ستيلجار

ليلحقُ بهول على امتداد قَمَّة أحد الكتيبان التي تذرّوها الرياح.

قال ستيلجار: «كانت طائفة مهريين».

قال پول: «على ما يبدو. لكن هذا النطاق العميق من الصَّحراء

بعيد عن عمليات المهريين».

قال ستيلجار: «هم كذلك يواجهون مشكلات بسبب دوريات

الهاكنة».

قال پول: «إن وصلوا إلى هذا العمق، فلربَّما تعمَّقوا أكثر».

- «صحيح».

- «لن يكون في صالحهم رؤية ما يوجد جنوباً، إن جازفوا

بالتعمُّق أكثر. المهريون يبيعون المعلومات كذلك».

سأله ستيلجار: «ألا تظنُّ أنهم كانوا يبحثون عن الاسپايس؟».

قال پول: «لا بُدَّ أن حاملة جويَّة وزخَّافة تنتظران تلك الثوبتر

في مكانٍ ما. يُوجد معنا اسپايس. لننشر بعضه كطعم على رقعة

من الرمال ونوقع ببعض المهريين. يجب أن يتعلَّموا أن هذه أرضنا،

كما أن رجالنا بحاجة إلى التدرُّب على الأسلحة الجديدة».

قال ستيلجار: «هذا هو الكلام! أصول يفكر كالفرمن».

فكّر بول: لكن أصول عليه أن يفسح المجال أمام قراراتٍ
تفضي إلى غاية رهيبة.
وفي الأفق، بدأت عاصفة تتكوّن.

حين ينصهر القانون والواجب في بوتقة واحدة،
بجدوة الدين، يكفُّ المرء عن الاهتمام بذاته والوعي
لها، ويرزح على الدوام في مرتبة أدنى من مرتبة
الفرد المستقل.

من كتاب «المؤدّب: عجائب الكون التسعة والتسعون»
للأميرة إيrolان.

كسرب حشرات يتبع ملكته، حلّقت الحاملة الجوّية الأمّ بمصنع
الاسپايس التابع للمهرّبين محاطةً بحلقة من الأورنيثوبترات الآلية
فوق مجموعة كُثبان مرتفعة. أمام السرب، قبعّت إحدى سلاسل
التلال الصخرية الخفيضة التي تبرز من أرض الصّحراء كمحاكاة
هزيلة لشموخ الجدار الحامي، وقد كنست عاصفة قريبة شواطئها
الرمليّة الجافّة.

في فقّاعة قيادة الزحّافة، مال جيرني هاليك إلى الأمام، وضبط
عدستي نظّارته المعظّمة الزيتيّتين متفحّصًا المشهد العام. خلف
التلال، رأى رقعة رمال داكنة يحتمل أن تكون هبةً اسپايس، فأرسل
إشارة إلى إحدى الأورنيثوبترات للذهاب واستطلاع الأمر. هزّت
الثوبتر جناحيها في علامة على أنها تلّقّت الإشارة، ثم انفصلت
عن السرب وأسرعت باتجاه رقعة الرمال الداكنة، ودارت حولها
ومجسّاتها تتدلّى بالقرب من السّطح.

في الحال تقريبًا، طوت الثوبتر جناحيها وغاصت، ثم دارت
حول الرقعة في الإشارة المتّفق عليها التي أخطرت مصنع
الحصد المُنتظر بالعثور على الاسپايس.

وضع جيرني منظاره في جرابه، عالمًا أن آخرين غيره رأوا الإشارة. أعجبتَه هذه البقعة، فسلسلة التلال الصخرية توفر بعض الحماية والأمان. كما أن هذه المنطقة في عمق الصحراء، وبالتالي هي مكان غير محتمل لنصب كمين. ورغم ذلك، أشار جيرني إلى الفريق للتخليق فوق التلال ومسحها، وأرسل الطائرات الاحتياطية للتمركز في نقاط محيطية حول المنطقة، ولكن على ارتفاع منخفض كي لا تكشفها رادارات الهراكنة من بعيد.

لكنه كان يشك في احتمالية توغل دوريات الهراكنة إلى هذا العمق في الجنوب، فهذه ما زالت منطقة نفوذ الفرمن.

تفحص جيرني أسلحته، لاعتنا القدر الذي جعل دروع الطاقة العديمة الفائدة هنا. يجب تجنب أي شيء يجتذب الديدان بأي الثمن. حكا ندبة الإنكفاين على طول فكه، متفحصًا المشهد، وقرّر أنه من الأسلم أن يترأس مجموعة مشاة لتمشيط التلال. لا شيء بعد أيقن من التفتيش الميداني على الأقدام، والإفراط في الحذر أمر محمود حين يكون الفرمن والهراكنة متناحرين.

كان من يقلقه هنا هم الفرمن. إنهم لا يمانعون المقايضة بأي كميات أسلحة إن كنت تملك المال، لكنهم يصيرون شياطين مستعدين للحرب إن وطأت بقدمك أرضًا منعوك من دخولها، وقد صاروا شديدي المكر في الآونة الأخيرة.

أزعجت براعة ودهاء هؤلاء السكّان المحليين في القتال جيرني، إذ أظهروا تطورًا في أساليب الحرب يضاهي أي شيء سبق أن واجهه، وهو الذي تلقى تدريبه على يد أفضل المقاتلين في الكون، ثم خاض معارك ضارية لم ينج منها إلا قلة متفوّقة.

أجال جيرني بصره في المشهد مجدِّداً، متعجباً من شعوره بعدم الارتياح. ربَّما كان السَّبب تلك الدودة التي شاهدها، لكنها كانت على الجانب الآخر من التلال.

أطلَّ رأسٌ داخل فقَّاعة القيادة من كوة قريبة من جيرني. كان هذا قائد المصنع، وهو قرصان عجوز أعور كُنَّ اللحية، عينه الواحدة زرقاء وأسنانه حليبية من الطَّعام المشبَّع بالاسپايس. قال قائد المصنع: «تبدو رقعة غنيَّة يا سيِّدي، هل أهبط بالزحَّافة فوقها؟».

أمره جيرني: «اهبط قرب حافة تلك التلال كي أترجَّل مع رجالي. بإمكانكم بدء حرق الاسپايس من هناك، أمَّا نحن فسنلقي نظرة على تلك الصخور». - «عُلم».

قال جيرني: «في حالة وقوع مشكلات، أنقذوا المصنع، ونحن سنرحل على متن الثوبترات».

أدَّى له قائد المصنع التحيَّة الرسمية قائلاً: «أمرك يا سيِّدي»، ثم غاب عبر الكوة كما جاء.

عاد جيرني يمسح الأفق ببصره. كان عليه أن يضع في حسبانهِ احتمالية وجود فرمِن هنا، وأنه بهذا يتعدَّى على أراضٍ تابعة لهم وينتهك حرمتها. كانت صلابة الفرمن وغياب القدرة على التكهُّن بأفعالهم يقلقانه. أشياء كثيرة متعلِّقة بهذا العمل تقلقه، لكن المكاسب كانت مغرية. ممَّا كان يقلقه أيضاً هو عجزه عن وضع ثوبترات مراقبة على ارتفاعات عالية، وقد زادت ضرورة الالتزام بالصَّمَت اللاً سلكي وقطع الاتِّصالات من عدم ارتياحه.

استدارت زحَّافة المصنع وبدأت تنزلق هبوطاً برفق فوق

الشَّاطِئُ الجاف عند سفح التلال، إلى أن لمست جنازيرها الرمال. فتح جيرني قَبَّةَ الفَقَّاعَةِ، وفكَّ حزام الأمان. في اللحظة التي استقرَّ فيها المصنع على أرض الصَّحراء، كان قد خرج بالفعل مغلقًا الفَقَّاعَةَ بقوة خلفه، وقفز مهرولًا من فوق واقيات الجنازير لينزلق نحو الرمال متجاوزًا شبكة الأمان. لحق به خمسة من حرسه الشخصي، خارجين من كَوَّةِ المقدِّمة، بينما حرَّر آخرون المصنع من الحاملة الجَوِّيَّة، التي حلَّقت مرتفعةً ما إن انفصلت عنه وراحت تحوم في دائرة منخفضة فوقهم.

على الفور بدأت زحَّافة الرمال الكبيرة تتحرَّك مترنِّحةً إلى الأمام، مبتعدةً عن التلال ومتَّجهةً صوب رقعة الاسپايس الدَّاكنة المنتشرة على الرمال.

غاصت ثوبتر هابطةً في الجوار، وانزلقت متوقِّفةً، ثم تبعها ثانية وثالثة. ترجَّل من الثوبترات رجال فصيلة جيرني، ثم ارتفعت المركبات بعدها لتحوم في الهواء.

تمطَّى جيرني في بذلة التقطير، موقظًا عضلاته. أزال قناع الترشيح من على وجهه، مضغِّيًا برطوبة جسده في سبيل ضرورة أكبر، وهي أن يصل صوته قويًا إلى رجاله حين يصيح بالأوامر. بدأ يتسلَّق الصخور، متفحِّصًا التضاريس، داعسًا بقدميه الحصى والرمال الحبيبية، مُشتِمًا رائحة الاسپايس.

وفكَّر: موقع مناسب لإنشاء قاعدة طوارئ. دفن بعض الإمدادات هنا قد يكون تصرفًا حكيمًا.

ألقي جيرني نظرة سريعة خلفه، مراقبًا انتشار رجاله وهم يتبعونه. كانوا رجالًا أكفاء، حتَّى الجدد منهم الذين لم يملك وقتًا كافيًا لاختبارهم. رجال أكفاء بالفعل، وليسوا من النوع الذي

يجب تكرار عليه ما يجب فعله كل مرة، كما لم يكن بينهم جناء يحملون معهم دروع طاقة إلى الصحراء حيث تستشعر الديدان مجال الدرع، ومن ثم تأتي وتسلبهم الاسپايس الذي عثروا عليه. من موقعه المرتفع بين الصخور، رأى جيرني رقعة الاسپايس على بُعد نصف كيلومتر تقريباً، وشاهد وصول زحافة الرمال إلى حافّتها من الجهة القريبة. رفع بصره إلى ثوابت الغطاء الجوي، ملاحظاً تحليقها على ارتفاع منخفض. أوماً لنفسه، ثم استدار ليستأنف تسلّقه منحدرات التلال.

في تلك اللحظة، اندلعت نيران من بين التلال. شقّ السماء اثنا عشر خيطاً من اللهب، متّجهاً نحو الثوابت والحاملة الجوية في هديرٍ صاخب، ودوى صوت انفجار معدني هائل من المصنع الزّاحف، وقاءت الصخور حول جيرني مقاتلين ملثّمين.

كان لدى جيرني وقتاً للتفكير: بحقّ قرني الأمّ العظيمة! صواريخ! وانتهم الجرأة على استخدام صواريخ! ثم وجد نفسه وجهاً لوجه أمام شخصٍ مقنّع رابض أرضاً، شاهراً سكّينه العاجية، فيما وقف آخران على الصخور أعلاه من اليسار واليمين. لم يبد لجيرني من المقاتل الرابض أمامه سوى عينيه المطلّتين من بين قلنسوة ولثام بُرنس أصفر بلون الرمال، لكن وضعيته الرابضة وتأهّبه أنذراه بأن هذا المقاتل حسن التدريب. كانت عيناه لهما زُرقة أعين فرمن الصحراء العميقة. حرّك جيرني يده ببطء نحو سكّينه، وعيناه مثبّتتان على سكّين الرجل. ما داموا جرؤوا على استخدام الصواريخ، فسيكون معهم أسلحة مقذوفات أخرى. تطلّبت اللحظة حذراً شديداً منه، إذ

عرف من صوت القصف وحده أن جزءاً -على الأقل- من غطائه
الجوي قد تدمّر. كما سمع نغير الرجال، وضجيج صراعات عدّة
تدور من خلفه.

تتبّعت عينا المقاتل الرابض أمام جيرني حركة يده المنسلّة
نحو السكّين، ثم عادت تحدّق إلى عيني جيرني.
قال الرجل: «اترك سكّينك في غمدها أيا جيرني هاليك».
تردّد جيرني قليلاً إذ بدا الصّوت مألوفاً له حتّى عبر مرشّح
البذلة.

ثم قال: «أتعرف اسمي؟».
قال الرجل: «لن تحتاج إلى سكّينك معي يا جيرني». ثم نهض
معتدلاً، وأعاد سكّينه العاجية إلى غمدها المعلق وراء ثوبه، وأردف:
«قل لرجالك أن يكفّوا عن مقاومتهم غير المجدية».
ألقي الرجل قلنسوته وراء ظهره، وأزاح القناع عن وجهه.
تجمّدت عضلات جيرني من صدمة ما رأى.
في البداية ظنّ أنه ينظر إلى صورة شبحية للدوق ليتو
آترديز، ثم ببطء بدأ يستوعب الأمر.
همس قائلاً: «بول!»، ثم بصوتٍ أعلى: «أأنت بول حقاً؟».
سأله بول: «أتكذّب عينيك؟».

قال جيرني بصوتٍ مبجوح: «قالوا إنك مُت»، ثم تقدّم نصف
خطوة إلى الأمام.

قال بول بنبرة آمرة: «قل لرجالك أن يستسلموا»، ولوّح باتّجاه
القطاعات السفلى من التلال.

استدار جيرني، متردّداً في رفع عينيه عن بول. لم ير إلاّ
صراعاتٍ فردية قليلة. بدا رجال الصّحراء الملتّمين في كل مكان،

وكان المصنع الزّاحف هامدًا بلا حراك ويعلوه بعض الفرمن، وفي السماء لم يكن يُوجد أثرٌ لطائرات محلقة.

صاح جيرني: «أوقفوا القتال». ثم أخذ نفسًا عميقًا، وضَمَّ يديه على فمه مضخمًا صوته: «أنا جيرني هاليك! أوقفوا القتال!». ببطء، وبحذر، انفضّ التلاحم، والتفتت الأعين نحوه، متسائلةً. صاح جيرني: «إنهم أصدقاء».

ردّ أحدهم صائحًا: «ونعم الأصدقاء! نصف رجالنا قُتلوا!».

قال جيرني: «كانت غلطة، فلا تتمادوا فيها».

ثم استدار عائدًا إلى پول، وحدّق إلى عيني الشاب الفرمنيتين الزرقاوين.

لاحت ابتسامة على فم پول، لكن كان على وجهه تعبيرٌ جامد ذكر جيرني بالدوق القديم، جدّ پول. ثم رأى جيرني في قسّمات پول صلابة لم يرها في آتريديزي من قبل: خشونة في البشرة، وحِدّة في العينين، ونظرة مأكرة بدت كأنها تزن كل شيء على مرمى البصر.

كرّر جيرني: «قالوا إنك مُت».

قال پول: «وكان في تركهم يظنون ذلك أفضل حماية لي».

أدرك جيرني أن هذا هو الاعتذار الوحيد الذي سيحظى به على التخلّي عنه وتركه وحيدًا ليعتمد على موارده الخاصة ويظنّ أن الدوق الصغير -صديقه- قد مات. ثم تساءل إن كان شيء قد بقي في الصبّي الذي عرفه ودربّه على أساليب قتال الرجال.

أخذ پول خطوة أقرب إلى جيرني، ووجد أن عينيه تتضحان بالألم، فقال: «جيرني...». ثم بدا الأمر كأنه حدث من تلقاء ذاته. تعانقا، وراح كلاهما يربّت على ظهر الآخر، شاعرًا بالطمأنينة بين ذراعي صديقه القويّتين.

ظلَّ جِيرْنِي يَكْرُرُ: «أَيْهَا الشَّبِلُ الصَّغِيرُ! أَيْهَا الشَّبِلُ الصَّغِيرُ».

وبول كذلك: «جِيرْنِي يَا رَجُلُ! جِيرْنِي يَا رَجُلُ!».

ثم ما لبثا أن تباعدا، ونظر كلُّ منهما إلى الآخر.

أخذ جِيرْنِي نَفْسًا عَمِيقًا وَقَالَ: «أَنْتِ إِذَا السَّبَبُ وَرَاءَ تَطَوُّرِ

أَسَالِيبِ الْفَرَمَنِ فِي تَكْتِيكَاتِ الْحَرْبِ. كَانَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَعْرِفَ

حِينَ لَمْ يَنْفَكُوا عَنْ فَعْلِ أَشْيَاءَ كُنْتَ لَأَخْطِطُهَا بِنَفْسِي. لَيْتَنِي

عَرَفْتُ...»، ثُمَّ هَزَّ رَأْسَهُ: «إِنْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ خَبْرًا يَا فَتَى، مَا كَانَ

سَيَمْنَعُنِي عَنْكَ شَيْءٌ. كُنْتَ سَأَتِيكَ رَاكضًا و...».

لَكِنِ النَّظْرَةُ فِي عَيْنِي بُولَ أَوْقَفَتْهُ. النَّظْرَةُ الْجَامِدَةُ الْمَوْزُونَةُ.

تَتَهَدَّدُ جِيرْنِي قَائِلًا: «مَعَكَ حَقٌّ، كَانَ الْبَعْضُ سَيَتَسَاءَلُ عَنْ سَبَبِ

مَفَادَرَةِ جِيرْنِي هَالِيكَ فِي عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَسَيَفْعَلُ آخَرُونَ مَا هُوَ

أَكْثَرُ مِنَ الْاِكْتِفَاءِ بِالسَّوَالِ، وَسَيَخْرُجُونَ بَحْثًا عَنْ أَجُوبَةٍ».

أَوْمَأَ بُولُ، وَأَلْقَى نَظْرَةً سَرِيعَةً إِلَى الْفَرَمَنِ الْوَاقِفِينَ حَوْلَهُمَا،

وَلَا حَظَّ لِنَظَرَاتِ التَّقْيِيمِ الْفَضُولِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الْفِدَائِيِّينَ. نَقَلَ بَصَرَهُ

مِنْ مَفَاوِيرِ الْمَوْتِ عَائِدًا إِلَى جِيرْنِي، شَاعِرًا بِالسَّرُورِ يَمْلُؤُهُ لِعَثْوَرِهِ

عَلَى مَنْ أَسْقَاهُ فَنُونَ الْمِبَارَزَةِ بِالسَّيْفِ. اعْتَبَرَ بُولُ الْمَصَادِفَةَ فَأَلَّا

حَسَنًا، وَعَلَامَةً عَلَى أَنَّهُ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ الْمُسْتَقْبَلِ الْمَشْرِقِ حَيْثُ

كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ.

بَجِيرْنِي إِلَى جَوَارِي...

نَظَرَ بُولُ أَسْفَلَ التَّلِّ مُتَجَاوِزًا الْفِدَائِيِّينَ بِبَصَرِهِ، مَمْعُنًا فِي

النَّظَرِ إِلَى فَرِيقِ الْمَهْرِيِّينَ الَّذِي جَاءَ مَعَ هَالِيكَ.

ثُمَّ سَأَلَهُ: «مَا دَافِعُ رَجَالِكَ يَا جِيرْنِي؟».

قَالَ جِيرْنِي: «جَمِيعُهُمْ مَهْرَبُونَ، دَافِعُهُمُ الرِّيحُ».

قَالَ بُولُ: «مَسْعَانَا رِيحُهُ قَلِيلٌ»، وَلَا حَظَّ لِإِشَارَةِ إِصْبَعِ يَدِ جِيرْنِي

اليمنى الخفية، الإشارة القديمة الخارجة من رحم ماضيهما التي تعني أن بين فريق المهرّبين رجالاً يُخشى جانبهم ولا يؤمن شرّهم. جذب پول شفته علامةً على الفهم، ورفع بصره إلى الرجال الواقفين في تأهب فوق الصخور أعلاهما، ورأى ستيلجار بينهم. برّدت ذكرى المشكلة التي لم تُحلّ مع ستيلجار بعضاً من فرحة پول. قال پول: «ستيلجار، هذا جيرني هاليك الذي سمعتني أتكلّم عنه، رئيس أركان قوّات أبي، وواحد من أساتذة فنون المبارزة الذين تتلمذت على أيديهم، وصديق قديم. يمكن الوثوق به في أيّ مسعى».

قال ستيلجار: «فهمت، فأنت دوقه».

رفع پول عينيه إلى وجه ستيلجار العابس، متسائلاً عن الأسباب التي دفعته لقول ذلك. دوقه. كانت هناك نغمة خفية وغريبة في صوت ستيلجار، كما لو كان يريد أن يقول شيئاً آخر. لم يكن ذلك من شيم ستيلجار، قائد الفرمن، الرجل الذي دائماً ما يبوح بما يجول في خاطره.

فكّر جيرني: دوقي! ونظر إلى پول بشكلٍ جديد. أجل، قبوفاة ليتو، وقع اللقب على عاتقي پول.

بدأ جيرني ينظر إلى أساليب حرب الفرمن على أراكس من منظور جديد. دوقي! بدأ جزءاً بداخله كان قد مات ينبض بالحياة، ولم يركّز على أمر پول لفريق المهرّبين بالتخلّي عن أسلحتهم كي يخضعوا للاستجواب إلا بنصف وعي.

ثم عاد ذهن جيرني إلى كامل وعيه حين سمع احتجاج بعض من رجاله، فهزّ رأسه واستدار صائحاً: «هل أنتم صُمّم؟ هذا دوق أراكس الشرعي. اذعنوا لأمره».

أذعن المهرّيون للأمر متذمّرين.

مكتبة

t.me/t_pdf

اقترب پول من جيرني، وقال في صوتٍ خفيض: «لم أكن أتوقّع منك أن تقع في هذا الشرك يا جيرني».
 قال جيرني: «نلت العقاب المناسب، أراهن أن رقعة الاسبايس ليست أكثر من مجرد فتات سطحي، طعم أقيتموه لاستدراجنا».
 قال پول: «هذا رهان ستفوز به»، ثم نظر إلى الرجال الذين يُجرى تجريدهم من سلاحهم أسفلهم وسأل: «هل هناك مزيد من رجال أبي ضمن فريقك؟».
 - «ولا واحد. تفرّقنا عبر الكوكب. ما زال هناك قلة بين التجّار الأحرار، ومعظمهم أنفقوا أرباحهم لمغادرة هذا المكان».
 - «لكنك بقيت».
 - «أجل، بقيت».
 قال پول: «لأن رابان هنا».
 قال جيرني: «ظننت أنه لم يبق لي إلا الانتقام».
 جاءت صيحة مقطوعة غريبة من أعلى التلال.
 رفع جيرني بصره ليرى فرمنياً يلوح بمنديله.
 قال پول: «صانعة تقترب»، ثم تحرّك -متبوعاً بجيرني- إلى نوءٍ صخري مطلّ على الجنوب الغربي.
 لاح النفق الدودي الشبيه بجبل متحرّك في منتصف المسافة.
 مسار متوجّ بالفبار يشق الكثبان متّجهاً صوب التلال مباشرةً.
 قال پول: «إنها ضخمة بما يكفي».
 دوت قمقعة من المصنع الزّاحف في الأسفل، ودبّت الحياة في جنازيره كحشرة عملاقة، وتحرك بتناقل نحو الصخور.
 قال پول: «من المؤسف أننا لم نتمكّن من الحفاظ على الحاملة الجويّة».

رماء جيرني بنظرة خاطفة، ثم عاد ينظر إلى بقع الحطام والدخان المبعثرة على الرمال حيث أسقط الفرمن الحاملة الجوية والأورنيثوبترات.

شعر بعصرة قلب مفاجئة على الرجال -رجال- الذين فقدوا هناك، وقال: «كان أبوك سيهتم أكثر بالرجال الذين لم يستطع إنقاذهم».

حدّجه پول بنظرة قاسية، ثم خفض بصره، وفي النهاية قال: «كانوا أصدقاءك يا جيرني، أتفهم ذلك. لكنهم في نظرنا مجرد دخلاء، وقد يرون أشياء لا ينبغي لهم رؤيتها. يجب أن تفهم ذلك». قال جيرني: «أفهم ذلك جيّدًا، والآن أشعر بالفضول لرؤية ما لا ينبغي لي رؤيته».

رفع پول بصره فرأى الابتسامة الوحشية القديمة التي يتذكّرها جيّدًا تتلاعب على وجه هاليك، وتتمعّج لها ندبة الإنكفاين على عظام فكّه.

أوما جيرني مشيرًا نحو الصّحراء. كان الفرمن يزاولون نشاطهم بأريحية في أرجاء المشهد، وأذهله أن أيًا منهم لم يبدُ قلقًا من اقتراب الدودة.

تعالى طرق رتيب من الكثبان المترامية وراء رقعة الاسپايس. قرع عميق سمعوه من خلال أقدامهم. رأى جيرني الفرمن ينتشرون على الرمال في مسار الدودة المقتربة.

اندفعت الدودة خارجة من سطح الصحراء كأنها سمكة رملية هائلة، وبلغت العنان، وراحت حلقاتها تتموّج وتتلوّى في الهواء. بعد لحظة، شاهد جيرني -من موقعه المرتفع الذي يراقب

منه الصَّحراء- عملية اقتناص الدودة، وقفزة أوَّل ذي خُطَّافين، واستدارة المخلوق، والطريقة التي تسلَّقت بها جماعة الرجال جانب جسد الدودة الأسطواني الحرشفي اللامع.

قال پول: «هذا أحد الأشياء التي لم يكن ينبغي لك رؤيتها».

قال جيرني: «لقد سمعت القصص والشائعات، لكنه ليس أمرًا يسهل تصديقه دون رؤيته»، ثم هزَّ رأسه: «المخلوق الذي يخشاه كل إنسان على أَرَاكس، تعاملونه كمطية للركوب!».

قال پول: «لقد سمعت أبي وهو يتحدَّث عن قوَّة الصَّحراء يا جيرني. هذه هي. نحن أسياد هذا الكوكب، لا عاصفة أو مخلوق أو ظرف قادر على إيقافنا».

فكَّر جيرني: نحن. إنه يقصد الضَّرمين ويتحدَّث عن نفسه كواحدٍ منهم. رمق جيرني مجددًا زُرقة الاسپايس في عيني پول. كان يعلم أن عينيه هو ذاته بهما مسحة من اللون، لكن المهرَّبين لا يعتمدون بالكامل على طعام أَرَاكس، ويحصلون على أغذية من خارج الكوكب، ولطالما تضمَّن كلامهم تناثرًا خفيًا وتلميحات طبقية مستترة عن لون الأعين. كانوا يتحدَّثون عن «لمسة فرشاة الاسپايس»، قاصدين بها أن الرجل صار محلِّيًّا جدًّا، ولم يعد أهل ثقة تمامًا.

قال پول: «في السَّابق لم نكن نركب الصَّانعة في وضع النهار في هذه الربوع، لكن لم يتبقَّ لرابان طائرات مسح جوِّي كافية ليهدرها على البحث عن حفنة من النقاط الصغيرة في الرمال»، ثم نظر إلى جيرني: «لقد دهشنا من وجود طائرتك هنا».

صيفة الجمع... صيفة الجمع...

هزَّ جيرني رأسه لإبعاد هذه الأفكار عن رأسه، وقال: «لم نُصِّبكم بالصَّدمة التي سبَّبتُموها لنا».

سأله جيرني: «ماذا يُقال عن رابان بين سكَّان الأحواض والقرى؟».

- «يقولون إنهم حصَّنوا قُرى الأخاديد إلى درجة يستحيل معها اختراقها. يقولون إن كل ما عليهم فعله الآن هو الجلوس خلف دفاعاتهم، وترك العدو يرهق نفسه في هجوم لا طائل من ورائه».

قال پول: «باختصار، صارت حركتهم مشلولة».

قال جيرني: «أمَّا أنت فحر، وبإمكانك التقلُّ أينما شئت».

قال پول: «إنه تكتيك تعلمته منك يا جيرني. لقد فقدوا المبادرة، ما يعني أنهم خسروا الحرب».

ابتسم جيرني ببطء، وتشكَّلت ملامحه في تعبير ذي مغزى.

قال پول: «عدُّونا قابع حيث أريد بالضبط»، ثم ألقى نظرة سريعة إلى جيرني: «حسنًا يا جيرني، هل ستتضم تحت لوائي لإنهاء هذه الحملة؟».

حدَّق إليه جيرني في دهشة: «أنضم؟ سيدي، أنا لم أترك خدمتك قط. أنت الذي تركتني أظن أنك لقيت حتفك. وأنا، بكوني ضائعًا، بذلت كل ما بوسعي، منتظرًا اللحظة التي أبذل فيها حياتي في سبيل ما يستحق، أي موت رابان».

خيَّم صمتٌ مُحرج على پول.

تسلَّقت امرأة الصخور قادمةً نحوهما، تتناقل عيناها بين پول ورفيقه من خلف قلنسوة بذلتها وقناع وجهها. توقَّفت المرأة أمام پول، ولاحظ جيرني فيها طبع التملُّك من الطريقة التي التصقت بيول بها.

قال پول: «تشاني، هذا جيرني هاليك الذي سمعتي أتحدّث عنه».

نظرت تشاني إلى جيرني، ثم عادت تنظر إلى پول: «سمعت به».

سألها پول: «أين ذهب الرجال بالصّانعة؟».

- «إنهم يصرفون انتباهها لمنحنا بعض الوقت لإنقاذ المعدّات».

- «حسنًا إذا...»، ثم بتر عبارته وتشمّم الهواء.

قالت تشاني: «ثمّة رياح قادمة».

صاح صوت شخص من أعلى التلال فوقهم: «يا قوم، الرياح آتية!».

الآن لمس جيرني تسارعًا في حركة الفرمن، ورأى تعجُّلاً واندفاعًا أهوج. ما لم تشعله فيهم الدودة أشعله الخوف من الرياح. تحرّك المصنع الزّاحف صاعدًا الشّاطئ الجاف، فانفتح أمامه طريق بين الصخور، قبل أن تُفلق الصخور من خلفه بدقّة شديدة كأن شيئًا لم يكن، حاجبةً الممرّ عن ناظره.

سأله جيرني: «أليكم الكثير من هذه المخابئ؟».

قال پول: «الكثير والكثير»، ونظر إلى تشاني وأردف: «اعثروا على كُربة* . أخبروه بأن جيرني حدّثني من وجود رجال ليسوا أهل ثقة بين فريق المهزّيين الذي تحت إمرته».

نقلت تشاني بصرها بين جيرني وپول، ثم أومأت، وهبطت الصخور متواثبةً في رشاقة الغزلان.

قال جيرني: «هذه امرأتك».

قال پول: «وأمّ ابني البكر. يُوجد ليتو جديد بين آل آتريديز».

استقبل جيرني الخبر بعينين مدهوشتين.

راقب پول الأحداث من حولهم بعينٍ ناقدة. هيمنت صُفرة على السماء الجنوبية، وهبَّت دَفَقَات رِيّاح متقطعة مثيرَةً الغبار حول رؤوسهم.

قال پول: «أغلق بذلتك»، ثم أحكم شدَّ قناعه وقلنسوته على وجهه.

أطاع جيرني أمره، ممتناً للمرشحات.

قال پول وقد صار صوته مكتوماً بسبب القناع: «أيُّ من أفراد فريقك لا تثق به يا جيرني؟».

قال جيرني: «بعض المجنّدين الجدد، إنهم غريباء من خارج الكوكب...»، ثم بتر عبارته متردّداً، متعجباً من نفسه.
غريباء! يا للعضوية التي نطق بها لسانه الكلمة.
قال پول: «غريباء و؟».

قال جيرني: «ليسوا كالباحثين عن الثروة الممتادين الذين نصادفهم، إنهم أقوى شكيمة».
سأله پول: «جواسيس للهراكنة؟».

- «لا أظن أنهم يرفعون تقاريرهم للهراكنة يا سيّدي. أشتبّه في أنهم رجال من الخدمة العسكرية الإمبراطورية، فلهم طابع سالوسا سوكانديس».

رماه پول بنظرة حادة: «ساردوكار؟».

هزَّ جيرني كتفيه: «محتمل، لكنهم متخفون جيّداً».

أوماً پول، مفكراً في السهولة التي عاد بها جيرني يتصرّف كجندي آتريديزي، لكن مع بعض التحفّظات، والاختلافات الطفيفة. لقد غيّرهُ أَرَاكس هو أيضاً.

ظهر فرمانيان مقتنعان أسفلهما بين الصخور المتصدعة، وبدأ يتسلقان. كان أحدهما يحمل صُرة سوداء كبيرة على كتفه.

سأل جبرني: «أين فريقنا الآن؟».

قال پول: «بأمان في الصخور التي أسفلنا. لدينا كهف هناك، اسمه كهف الطيور. سنقرر ماذا سنفعل بهم بعد مرور العاصفة». صاح صوت من فوقهما: «مؤدّب!».

التفت پول إلى مصدر الصيحة، ورأى أحد الحرس الفرمني يشير لهما بالتحرك نحو الكهف. أشار پول إليه أنه سمع. تأمله جبرني بتعبير جديد على وجهه، وسأل: «أنت المؤدّب؟ أنت إرادة الرمال؟».

قال پول: «إنه اسمي الفرمني».

أشاح جبرني بوجهه شاعراً بنذير شؤم قاهر. نصف فريقه ميّت فوق الرمال، والآخرين أسرى. لم يكن يهتم بالمجنّدين الجدد المشتبه فيهم، ولكن من بين الآخرين رجال طيّبون، وأصدقاء، وأشخاص يشعر بالمسؤولية تجاههم. «سنقرر ماذا سنفعل بهم بعد مرور العاصفة». هذا ما قاله پول، هذا ما قاله المؤدّب. تذكر جبرني القصص التي تُروى عن المؤدّب، لسان الغيب، وكيف سلخ جلد ضابط هاركونني ليصنع منه أغشية طبوله الحربية، وكيف يحيط نفسه بمغاوير الموت، الفدائيين الذين يخوضون غمار الوغي وهتافات الموت على شفاههم. هذا هو.

قفز الفرمانيان متسلقين الصخور برشاقة على الرّف الصخري أمام پول، وقال ذو الوجه الأسمر: «كل شيء مؤمن يا مؤدّب. من الأفضل أن نتواري بالأسفل الآن».

- «أجل».

لاحظ جيرني نبرة صوت الرجل نصف الأمرة نصف الراجية. كان هذا من يدعونه ستيلجار، شخصية بارزة أخرى في أساطير الفرمن الجديدة.

رمق پول الصُرة التي يحملها الرجل الآخر وقال: «ما هذه الصُرة يا كُربة؟».

أجاب ستيلجار: «كانت في الزحافة، وعليها الحرفان الأوَّليان من اسم صديقك هذا، وبها آلة باليسِت. لقد سمعتك مرّات كثيرة تتحدّث عن براعة جيرني هاليك في العزف على الباليسِت».

تأمّل جيرني وجه المتحدث، ملاحظاً لحيته السوداء البادية من أسفل قناع بذلة التقطير، ونظرته الصّقرية الحادة، وأنفه المنحوت.

قال جيرني: «لديك رفيق كيُس يا سيّدي. أشكرك يا ستيلجار». أشار ستيلجار لرفيقه كي يناول الصُرة إلى جيرني قائلاً: «بل اشكر مولاك الدوق، فهو من أكسبك قبولك هنا».

أخذ جيرني الصُرة، متحيّراً من المعاني المضمرة في الكلام. كان الرجل يشعُّ بهالة من التحدّي، وتساءل جيرني إن كان الفرمن يشعرون بالفيرة. فها قد أتى شخصٌ يدعى جيرني هاليك كان يعرف پول قبل مجيئة إلى أراكس، رجلٌ تربطه بيول صداقة حميمة عميقة لن تتاح لستيلجار أبداً.

قال پول: «يهمّني أن يكون كليكما صديقاً للآخر».

قال جيرني: «ستيلجار الفرمني اسمٌ ذائع الصيت. أيُّ قاتلٍ للهاكنة أفخر بأن يكون ضمن أصدقائي».

سأل پول: «هلاً تصافح صديقي جيرني هاليك يا ستيلجار؟».

مدّ ستيلجار يده ببطء، وقبض على يد جيرني هاليك الجاسئة التي تستعمل السيف، وقال: «قِلّة من لم يسمعوأ اسم جيرني هاليك»، ثم أرخى قبضته والتفت إلى پول: «العاصفة تهب بسرعة». قال پول: «في الحال».

استدار ستيلجار، وقادهما نزولاً في مسارٍ متعرجٍ وملتو عبر الصخور إلى صدعٍ مظللٍ أفضى بهم إلى مدخل الكهف الواطئ، وأسرع الرجال لإحكام وضع الغطاء العازل خلفهم. أظهرت كرات الإنارة الطافية في المكان حيّزاً واسعاً مقبّب السقف، في أحد أطرافه حافة صخرية مرتفعة يخرج منها ممرٌ.

وثب پول فوق الحافة الصخرية وجيرني في أثره، وتقدّم الطريق عبر الممر، أمّا الآخرون فاتّجهوا إلى ممرٍ آخر على الجهة المقابلة للمدخل. قاد پول الطريق إلى غرفة انتظار، ومنها إلى غرفة حوائطها مغطاة بستائر داكنة بلون النبيذ.

قال پول: «سنحصل على بعض الخصوصية هنا مدة من الوقت، سيحترم الآخرون....».

دوى إنذار صنج نحاسي من الحجرة الخارجية، تلاه صياح واشتباك بالأسلحة. استدار پول وركض عائداً عبر غرفة الانتظار ومنها إلى حافة الحجرة الخارجية المرتفعة. كان جيرني في ظهره، مستلاً سلاحه.

على أرضية الكهف أسفلهما، دارت رحى معركة عنيفة بين أجسادٍ متلاحمة. استغرق پول لحظة لتقييم المشهد، وللتفرقة بين ثياب وبرايق الفرمن وأزياء من يقاتلونهم. التقطت حواسّه -التي درّبتها أمّه على اكتشاف أدق التفاصيل- ملمحاً مهماً: كان الفرمن يتعاركون مع رجالٍ يرتدون أردية المهرّبين، لكن المهرّبين

كانوا رابضين في مجموعات من ثلاث، يعضد أحدهم الآخر، ويكُونون تشكيلات مثلثة حين يتعرّضون للضغط من الخصم. كان ذلك الأسلوب في القتال من كُتب سمةً مميزةً للساردوكار الإمبراطورين.

لمح أحد الفدائيين في المعترك پول، فتردّد صدى صيحته في التجويف الكهفي: «مؤدّب! مؤدّب! مؤدّب». لمحت عينٌ أخرى پول، فشقت سكينٌ سوداء الهواء مندفعةً نحوه. راوغ پول السكين، وسمع النصل يقعق حين اصطدم بالصخور من خلفه، فنظر سريعاً ورأى هاليك يستحوذ عليه. تراجعت التشكيلات المثلثة تحت تأثير الضغط. رفع جيرني السكين أمام ناظري پول، وأشار إلى السلك الإمبراطوري الرفيع الأصفر على عجرة المقبض، وشعار الأسد الذهبي، والأعين المتعددة على جوانبها.

تقدّم پول ووقف على شفة الحافة الصخرية. لم يكن يتبقّ إلا ثلاثة ساردوكار، وعلى أرضية الحجرة في توزيع عشوائي استلقت أجساد الساردوكار والفرمن متشخّطةً بدمائها.

صاح پول: «توقّفوا! الدوق پول آتريديز يأمركم بالتوقّف!». تذبذب القتال، وتردّد أفراد.

صاح پول للزمرة المتبقية: «أنتم من الساردوكار! بأوامر من تهدّدون دوقاً حاكماً؟».

بدأ رجاله يضيّقون الخناق على الساردوكار، فصاح سريعاً: «قلت توقّفوا!».

شدّ واحدٌ من الثلاثي المحاصر قامته، وسأل: «ومن قال إننا ساردوكار؟».

أخذ پول السكّين من جيرني، ورفعها عاليًا: «هذه من تقول إنكم ساردوكار».

سأل الرجل: «من يقول إذا إنك دوق حاكم؟»
أشار پول إلى الفدائيين، وقال: «هؤلاء الرجال يقولون إنني دوق حاكم. إمبراطوركم نفسه منح آل آترديدز حُكم أَرَّاكس، وأنا آل آترديدز».

وقف ضابط السَّاردوكار في صمت عسبي.
تأمل پول الرجل. كان طويلًا، جامد الوجه، وتقطع خدّه الأيسر ندبة من المنتصف. فضح سلوكه ما يعتمل داخله من ارتباك وغضب، لكنه ظلَّ محاطًا بهالة الكبرياء التي يبدو السَّاردوكار عاريًا من دونها، والتي يبدو بها بكامل ثيابه ولو كان عاريًا.
نظر پول إلى أحد ضبَّاط فدائييه وقال: «كُربة، كيف دخلوا ومعهم سلاح؟».

قال الضَّابط: «كانوا يحملون سكاكين مُخبَّأة في جيوب خفية داخل بذلات التقطير».

أجال پول عينيه في القتلى والجرحى عبر الغرفة، قبل أن يعيد انتباهه إلى الضَّابط.

لم تكن هناك حاجة إلى الكلام، إذ خفض الضَّابط عينيه.
سأل پول: «أين تشاني؟»، وانتظر الإجابة كاتمًا نفسه.
- «أزاحها ستيلجار بشجاعة جانبًا»، وأشار إلى الممرِّ الآخر، ثم ألقى نظرة إلى القتلى والجرحى وأردف: «أعلن مسؤوليتي عن هذا الخطأ أيُّها المؤدَّب».

سأل پول: «كم رجلًا من هؤلاء السَّاردوكار كان معك يا جيرني؟».

وثب پول برشاقة إلى أرضية الحجر، وقطعها بخطوات سريعة، ووقف قاب قوسين أو أدنى من المتحدث باسم الساردوكار. توتر الفدائيون، إذ لم يعجبهم تعريض نفسه للخطر هكذا. كان هذا ما نذروا أنفسهم كي لا يحدث، لأن الفرمن كانوا يرغبون في الحفاظ على حكمة المؤدب.

تحدث پول إلى ضابطه دون أن يلتفت: «ما خسائرنّا؟».

- «أربعة جرحى وقتيلان يا مؤدب».

لمح پول حركة وراء الساردوكار، حيث وقفت تشاني وستيلجار في الممر الآخر، ثم أعاد انتباهه إلى الساردوكار، محدثاً إلى البياض الأجنبي البادي في عيني المتحدث. سأله پول: «أنت، ما اسمك؟».

تصلب الرجل، ونظر عن يمينه وعن شماله.

قال پول: «لا تحاول. أنا متأكد من أنك أمرت بالبحث عن المؤدب والقضاء عليه. أراهن أنكم من اقترحتم فكرة البحث عن الاسپايس في أعماق الصّحراء».

فلتت شهقة من جيرني ارتسمت لها ابتسامة خفيفة على شفتي پول، واحتقن وجه الساردوكار بالدماء.

قال پول: «ما تراه أمامك لهو أمر أعظم شأنًا من المؤدب. سبعة منكم ماتوا مقابل اثنين منا، ثلاثة إلى واحد، إنها نسبة ممتازة ضد الساردوكار، أليس كذلك؟».

شبّ الرجل على أطراف أصابعه ليرى، ثم غاص ثانية إذ ضيق الفدائيون الخناق عليه.

قال پول: «سألتك عن اسمك»، ثم أردف مستخدماً غوامض قدرة (الصَّوت): «أخبرني باسمك!».

أجاب الرجل على الفور: «النقيب أرامشام، من قوَّات السَّاردوكار الإمبراطورية»، ثم تدلَّى فكَّه، وراح يحدِّق ذاهلاً إلى پول وقد تلاشت كبرياؤه التي ينظر بها إلى هذا الكهف على أنه جحر أرانب بريري.

قال پول: «حسنًا أيُّها النقيب أرامشام، سيدفع الهراكنة ثمنًا باهظًا لمعرفة ما صرت تعرفه، وكذلك الإمبراطور، فهو قد يضخِّي بأيِّ شيء نظير معرفة أن فردًا من آل أتريديز ما زال حيًّا على الرغم مع خيانتة».

اختلس الرجل النظر يمينًا ويسارًا إلى الرجلين المتبقيين معه. كان بإمكان پول قراءة ما يدور في عقل الرجل تقريبًا. السَّاردوكار لا يستسلمون، لكن على الإمبراطور أن يعلم بهذا التهديد.

قال پول وهو ما زال يستخدم (الصَّوت): «استسلم أيُّها النقيب». قفز الرجل الواقف إلى يسار النقيب نحو پول دون سابق إنذار، ليقابله نصل سكِّين قائده في صدره. تكوَّم المهاجم أرضًا مخضَّبًا بدمائه والسكِّين لا تزال في صدره.

واجه النقيب رفيقه الوحيد المتبقِّي وقال: «أنا من يقرِّر الأفضل لمصلحة جلالته، مفهوم؟».

تراخت كتفا السَّاردوكار الآخر.

قال النقيب: «ألقي سلاحك».

أطاعه السَّاردوكار.

أعاد النقيب اهتمامه إلى پول قائلاً: «لقد قتلت صديقًا من أجلك، تذكَّر ذلك».

قال پول: «أنتما أسيران لدي، وقد استسلمتما لي. مسألة حياتكم أو موتكم لا أهمية لها»، ثم أومأ إلى حارسه لأخذ جندِي السَّاردوكار، وأشار إلى الضابط الذي فتش السجناء بالاقتراب. تحرَّك الحارس، ودفع السَّاردوكار أمامه. انحنى پول نحو ضابطه.

قال الرجل: «أيُّها المؤدِّب، لقد خذلتك في...».

قاطعهُ پول: «أنا المُلام يا كُربة، كان عليَّ أن أوجِّهك إلام تبحث. حين تفتش أسرى السَّاردوكار في المستقبل، تذكر ما حدث. وتذكر أيضًا أن كلاً منهم يضع ظفرًا صناعيًا أو ظفرين على إبهامي قدميه يمكن دمجها مع قطع أخرى مخفاة في أجسادهم لصنع جهاز إرسال فعال، وأنهم يركَّبون في أشداقهم ضروسًا صناعية مميتة كذلك. كما يخفون في شعورهم أسلاك شيجواير رفيعة جدًا تكاد لا تُلاحظ، لكنها متينة بما يكفي لخنق رجلٍ وقطع رأسه في أثناء العملية. يجب فحص السَّاردوكار بالمسح الضوئي، وبالأشعة العاكسة والأشعة السينية الشديدة النفاذية، وإزالة شعر أجسامهم بالكامل. وحين تنتهي، كن متأكدًا من أنك لم تكتشف شيئًا».

ثم رفع عينيه إلى جيرني الذي كان قد اقترب للإنصات.

قال الضَّابط: «من الأفضل أن نقتلها إذا».

هزَّ پول رأسه وهو ما زال ينظر إلى جيرني: «كلَّا، أريدهما أن يهربان».

حدَّق جيرني إليه متعجبًا، وقال لاهنًا: «مولاي...».

- «نعم».

- «رجلك محقٌّ. اقتل هذين السجينين في الحال، ودُمِّر أيُّ دليلٍ على وجودهما. لقد ألحقت الخزي بساردوكارٍ إمبراطورين! عندما يعلم الإمبراطور بالأمر لن يهدأ له بال إلى أن يحرقك على نارٍ هادئة».

قال پول: «من غير المحتمل أن يتمكّن الإمبراطور من فرض سلطانه عليّ». كان يتحدث ببطءٍ وبنبرة باردة. لقد حدث شيءٌ بداخله لمّا واجه السّاردوكار، كأن مجموع قرارات قد تراكم في وعيه. سأل پول: «جيرني، هل رابان مُحاط بالكثير من رجال النقابة؟».

اعتدل جيرني، وضيّق عينيه: «سؤالك ليس له...».

زمجر پول: «أجب عن السؤال!».

- «أراكس يعجُّ بعملاء النقابة. إنهم يبتاعون الاسبياس كما لو كان أغلى شيء في الكون. لِمَ تظن أننا غامرنا إلى هذا العمق في...».

قاطعه پول: «إنه أغلى شيء في الكون بالفعل في نظرهم».

ثم نظر نحو ستيلجار وتشاني اللذين كانا يعبران الحجرة باتجاهه، وأردف: «ونحن نسيطر عليه».

احتجّ جيرني: «الهراكنة هم من يسيطرون عليه».

قال پول: «من هي استطاعته تدمير شيء، هو المسيطر عليه»، ولوّح بيده لإسكات جيرني عن الجدال، وأوماً إلى ستيلجار الذي توقّف أمامه وتشاني إلى جواره.

أمسك پول بسكّين السّاردوكار في يده اليسرى، وقدّمها إلى ستيلجار قائلاً: «أنت تعيش من أجل مصلحة القبيلة، بإمكانك سفك دمائي بهذه السكّين؟».

تذمّر ستيلجار: «إن كان ذلك في مصلحة القبيلة».

قال پول: «استخدم هذه السكين إذا».

سأله ستيلجار: «هل تتحدّاني إلى نزال؟».

قال پول: «إن فعلت ذلك، سأقف دون سلاح وأدعك تقتلني».

أخذ ستيلجار نفساً سريعاً وحاداً.

صاحت تشاني: «أصول!»، ثم ألقت نظرة سريعة إلى جيرني،

وعادت تنظر إلى پول.

وبينما كان ستيلجار يزن كلماته، قال پول: «أنت ستيلجار

المحارب. عندما أشعل الساردوكار جذوة المراك هنا، لم تكن

في الصفوف الأمامية، وأوّل ما فكّرت فيه هو حماية تشاني».

قال ستيلجار: «إنها ابنة أختي، إن كان لديّ أدنى شكّ في

قدرة فدائيك على التعامل مع هؤلاء الحثالة....».

سأله پول: «لِمَ فكّرت أوّل ما فكّرت في تشاني؟».

- «غير صحيح!».

- «أحقّاق».

اعترف ستيلجار: «فكّرت فيك».

سأله پول: «أتظنّ أنك قادر على رفع يدك بالأذى ضدّي؟».

بدأ ستيلجار يرتجف، وغمغم: «هكذا تقتضي الأعراف».

قال پول: «تقتضي الأعراف أيضاً قتل أيّ أغراب يُعثر عليهم

في الصّحراء، وأخذ مائتهم باعتباره هديّة من شيء هولود، ومع

ذلك سمحت ذات ليلة لغربيين أن يعيشا، أنا وأمّي».

ظلّ ستيلجار صامتاً مرتجفاً يحدّق إليه، فقال پول: «الأعراف

تغيّر يا ستيل، لقد غيّرتها بنفسك».

نظر ستيلجار إلى الشعار الأصفر على السكّين التي يحملها.
سأله پول: «حين سأحكم الدوقية من أراكين وتشاني إلى
جواري، أظن أنه سيكون لدي وقت للانشغال بكل التفاصيل
المتعلقة بإدارة سييتش تابر؟ هل سأشغل نفسي بالمشكلات
الداخلية لكل أسرة؟».

واصل ستيلجار تحديقه إلى السكّين.
سأله پول: «أظن أنني أرغب في قطع ذراعي اليمنى؟».
ببطء، رفع ستيلجار عينيه إليه.
قال پول: «أنت! أظن أنني أرغب في حرمان نفسي أو القبيلة
من حكمتك وقوّتك؟».

بصوت خفيض، قال ستيلجار: «الشاب الذي أعرف اسمه،
والذي هو من أفراد قبيلتي، هذا الشاب بإمكانه قتله في حلبة
التحدّي، بإرادة من شيء هولود. أمّا لسان الغيب، فلا أجرؤ على
إيذائه. كنت تعرف هذا عندما سلّمتني هذه السكّين».
وافق پول: «صحيح».

فتح ستيلجار يده، فوقعت السكّين مقعقةً على الأرض، وقال:
«الأعراف تتغيّر».

قال پول: «تشاني، اذهبي إلى أمّي واطلبي منها المجيء إلى
هنا كي يتسنّى لنا مشورتها في...».

قاطعته محتجّة: «لكنك قلت إنك ذاهبٌ إلى الجنوب!».
قال: «كنت مخطئًا. الهراكنة ليسوا هناك، الحرب ليست
هناك».

أخذت تشاني نفسًا عميقًا، وقبلت الأمر كما تقبل المرأة

الصحراوية كل الضروريات في خضم حياة شاقّة يتخطّفها الموت.
قال پول: «أبلغني الرسالة على مسمعي أمّي فحسب. أخبريها
أن ستيلجار يعترف بي دوقًا لأراكس، ولكن يجب إيجاد طريقة
لإقناع شباب القبيلة بتقبُّل ذلك دون نزال».
رمقت تشاني ستيلجار.

زمجر ستيلجار: «افعلي كما يقول، كلانا يعرف أنه يستطيع
التغلب علي، وأنتي لن أستطيع رفع يدي بالأذى ضدّه، تقديمًا
لمصلحة القبيلة».

قالت تشاني: «سأعود وأمّك معي».

قال پول: «بل أرسلها وامكثي أنتِ هناك. كان حدس ستيلجار
صائبًا، أكون أقوى حين تكونين بأمان. ابقِي في السييتش».
همّت بالاحتجاج، لكنها أحجمت وابتلعت احتجاجها.

نطق پول باسمها الحميم الذي يناديها به: «سيهيا»، ثم التفت
بوجهه يمينًا، فالتفت عيناه بعيني جيرني المتقدتين.

كان الحوار الدائر بين پول والفرموني الأكبر سنًا قد مرّ مرور
الكرام على جيرني منذ أن أتى پول على ذكر أمّه.
قال جيرني: «تقول أمّك».

قال پول مشغولًا بافتراقه عن تشاني: «أيدهو أنقذنا ليلة
الغارة، أمّا الآن فعلينا...».

قاطعه جيرني سائلًا: «ماذا عن دانكن أيدهو يا سيدي؟».

- «لقي حتفه بعد أن منحنا فسحة من الوقت للهرب».

فكّر جيرني: السّاحرة ما زالت حيّة! المرأة التي أقسمت على
الانتقام منها ما زالت حيّة! ومن الواضح أن الدوق پول لا يعرف
حقيقة المخلوقة الخبيثة التي أنجبته، الفاجرة التي خانت أباه

سار پول متجاوزاً جبرني وقفز إلى الحافة الصخرية، ثم نظر خلفه ملاحظاً كيف أخلي المكان من الجرحى والقتلى، مفكراً بمرارة أن فصلاً آخر من أسطورة پول المؤدّب دار هنا. ها أنا ذا حتّى لم أستلّ سكينى، وعلى الرغم من ذلك سيحكى أننى في هذا اليوم ذبحت عشرين ساردوكاراً بيدي.

سار جبرني في أثر پول مع ستيلجار، خاطباً فوق أرضٍ لم يشعر بها. كان الغضب يعميه عن الكهف بضوئه الأصفر المتوهّج المنبعث من كرات الإنارة. وأخذ يفكر: السّاحرة على قيد الحياة فيما ترقد عظام من خانتهم في قبورٍ موحشة. لا بُدَّ لي من تدبير الأمر كي يعرف پول حقيقتها قبل أن أذبحها.

كثيراً ما يثور المرء وينكر ما تخبره به نفسه حين
يتملكه الغضب.

من كتاب «أحاديث المؤدّب المجمعّة» للأميرة إيrolان.

كان الحشد المُجتمع في المفارة يشعُّ بهالة القطيع التي
استشعرتها جيسيكّا في اليوم الذي قتل فيه پول جيميس. كانت
الأسن تلهج بتمتماتٍ عصبية، وبين الثياب المحتشدة تشكّلت
مجموعات صغيرة من الأفراد.

دسّت جيسيكّا أسطوانة الرسالة تحت ردائها حين خرجت إلى
الحافّة الصخرية من جناح پول الخاص. كانت قد ارتاحت بعد
سفرها الطويل من الجنوب، لكنها ظلّت مستاءة لأن پول لم يسمح
لهم باستخدام الأورنيثوبترات التي أسروها.

كان ما قاله: «لم نحكم سيطرتنا على الهواء بعد، كما يجب
ألاّ نعتمد الوقود المجلوب من خارج الكوكب. علينا الاحتفاظ بكل
الوقود والطائرات التي نجعلها استعداداً ليوم الجهد العظيم».
وقف پول مع مجموعة من الشباب الأصغر سنّاً قرب الحافّة.
أضفى الضوء الشّاحب المنبعث من كرات الإنارة مسحة من عدم
الواقعية على المشهد. بدا المكان أشبه بلوحة مرسومة، ولكن مع
بعدٍ إضافي جسّدته روائح الاكتظاظ، وأصوات الهمس وتحريك
الأقدام.

تأمّلت جيسيكّا ابنها، متسائلة لماذا لم يحدثها بعد عن
المفاجأة التي يخبئها: جيرني هاليك. كان التفكير في جيرني
يؤرّقها بذكريات ماضٍ أسهل، وأيام من الحب والجمال مع والد
پول.

وقف ستيلاجار منتظرًا بصحبة مجموعة مقرّبة له على الطرف الآخر من الحافّة في صمت، محاطًا بهالة من الوقار أمام قدره المحتوم.

فكّرت چيسیکا: يجب ألا نخسر هذا الرجل. لا بُدَّ لخطّة پول من أن تنجح، فأني نتيجة أخرى ستكون مأساة كاملة.

أسرعت تعبر الحافّة الصخرية، مارةً بستيلجار دون أن تنظر إليه، وهبطت إلى الحشد. أفسح المحتشدون الطريق المؤدّي إلى پول أمامها، ومشى الصّمت على إثرها.

كانت تعرف معنى ذلك الصّمت: أسئلة الشعب غير المنطوقة، وهيبة الأمّ الموقرة.

تراجع الشباب منسحبين من حول پول حين اقتربت منه، وللحظة أفرعها إزعانهم الجديد له. للبني چيسيرت حكمة تقول: «كل من هم أدنى منك يطمعون في منصبك»، لكنها لم ترَ طمعًا في تلك الوجوه. كانت الهالة الدينية المحيطة بزعامة پول تصدّهم عنه. تذكّرت مقولة أخرى من مقولات البني چيسيرت: «عادةً ما يموت الأنبياء ميتةً عنيفة».

نظر پول إليها.

قالت: «حان الوقت»، وناولته أسطوانة الرسالة.

نظر أحد رفقاء پول الأجرأ من الآخرين إلى ستيلاجار وقال: «ألن تتحدّاه إلى نزال يا مؤدّب؟ لا ريب أن هذا هو الوقت المناسب. سيظنون أنك جبان إن لم...».

صاح پول: «من يجرؤ على نعتي بالجبان؟»، وطارت يده إلى مقبض سكّينه العاجية.

حلّ صمتٌ على المجموعة لم يُسمع فيه نفس، وانتشر منها إلى جموع الحشد.

مكتبة

t.me/t_pdf

قال پول إذ رأى انتكاص الرجل بعيداً عنه: «أمامنا عمل يجب إنجازه». ثم استدار مبتعداً، وشقَّ طريقه بين الحشد بكتفيه قاصداً الحافة، وقفز عليها برشاقة مواجهها الناس. صاح أحدهم: «افعلها!».

وتعالى الهمس والغفمة من وراء الصيحة. انتظر پول إلى أن يحل الصمت، الذي نزل ببطء مسبقاً بسعال وهمهمات متناثرة. وحين ساد الصمت المفارة، رفع پول ذقنه، وتحدث بصوتٍ تردّد صده في أبعد الأركان. قال پول: «أعلم أنكم سئتم الانتظار».

ثم انتظر ثانية حتى تخمد الصيحات المجيبة. فكّر پول: لقد سئمو الانتظار بالفعل، وقلّب أسطوانة الرسالة في يده، مفكراً في فحواها. كانت أمّه قد عرضتها عليه، وشرحت له كيف استولوا عليها من ساع هاركونني. كانت الرسالة واضحة: لقد تخلى البارون عن رابان، وتركه ليعتمد على موارده الخاصة! ولم يعد بوسعه طلب مساعدة أو تعزيزات!

رفع پول صوته ثانية وقال: «تظنون أن الوقت قد حان لتحديّ ستيلجار وتغيير قيادة القوّات!»، وقبل أن يتمكّنوا من الردّ، ألقى پول صوته عليهم بغضب: «أتظنون أن لسان الغيب بهذا الغباء؟». وقف الحشد صامتاً في ذهول.

فكرت جيسيكاً: إنه يقبل بالعبادة الدينية! عليه ألا يفعل! صاح أحدهم: «إنها الأعراف!».

قال پول بنبرة جافّة، محاولاً جسّ أحساسهم الخفية: «الأعراف تتغيّر».

ارتفع صوتُ غاضبٍ من أحد الأركان: «نحن من يحدّد ما يتغيّر وما لا يتغيّر!».

تعلّت صيحات اتفاق متفرّقة بين الحشود.

قال پول: «كما تشاؤون».

سمعت جيسكا النفمات الدقيقة حين استخدم قدرة (الصوت) التي علمته إياها.

قال موافقاً: «أنتم من ستحدّدون، لكنكم ستصفون إليّ أولاً».

تحرك ستيلجار بامتداد الحافّة، ووجهه الملتحي جامد بلا تعبير، ثم قال: «الأعراف تنصّ على ذلك أيضاً، إذ يحقّ لأيّ هرميني أن يُسمع رأيه في المجلس، ويول المؤدّب من الهرمين». سأله پول: «مصلحة القبيلة هي أهم شيء، أليس كذلك؟».

قال ستيلجار بنفس النبرة الوقورة الخالية من انفعال: «هكذا تُسدّد خطانا».

قال پول: «حسنًا إذًا، من يحكم هذا الحشد من قبيلتنا؟ ومن يحكم كل القبائل والقوَّات عن طريق مدرّبي القتال الذين درّبناهم على استخدام أسلوب القتال الخوارقي؟».

انتظر پول، متطلّعاً إلى رؤوس الحشد. لكنه لم يسمع إجابة.

في النهاية قال: «هل ستيلجار من يحكم كل هذا؟ هو بنفسه ينفي الأمر. هل أحكمها أنا؟ ستيلجار نفسه ينفذ تعليماتي في بعض الأحيان، وشيوخ القبيلة، الذين هم أحكم حكمائها، يستمعون إليّ ويكرّمونني في المجالس».

خيّم على الحشد صمتٌ مضطرب.

قال پول: «حسنًا، هل أمّي هي من تحكم؟»، وأشار إلى جيسكا الواقفة بينهم في عباءتها الرسمية السوداء. «ستيلجار

وجميع قادة القوّات الآخرين يسألونها النصيحة في كل قرارٍ مهم تقريباً، كلّكم تعرفون ذلك، لكن هل تجوب الأمّ المؤهّرة الرمال أو تقود الغزوات ضد الهراكنة؟».

قُطبت بعض الجباه في الصفوف الأمامية مفكّرةً، لكن المهمّات الغاضبة لم تنقطع.

فكّرت جيسيكّا: هذه طريقة خطيرة لإقناعهم، لكنها تذكّرت أسطوانة الرسالة وفحواها، وفهمت نيّة پول: إنه يفوص مباشرة في أعماق شكوكهم، ليتخلّص منها، والبقية ستتبع.

سأل پول: «لا اعتراف لأحدٍ بالقيادة دون تحدٍّ أو قتال، أليس كذلك؟».

صاح أحدهم: «هذه هي الأعراف».

سأل پول: «ما هدفنا؟ أليس هو خلع رابان، الوحش الهاركونني، وإعادة تشكيل عالمنا ليصبح مكاناً نستطيع فيه تربية أولادنا في سعادة، وفي ظلّ وفرة من المياه.. أليس هذا هدفنا؟».

صاح أحدهم: «المهام الصعبة تتطلّب طرقاً صعبة».

سأل پول: «وهل يكسر المرء سكّينه قبل المعركة؟ سأقول ما سأقول لأنه أمرٌ واقع، لا بقصد التفاخر أو التحديّ: لا يوجد رجل هنا، بما في ذلك ستيلجار، قادر على الصمود أمامي في قتالٍ فردي، وهذا باعتراف ستيلجار نفسه. إنه يعلم هذا، وكلّكم تعلمونه كذلك».

مجدّداً، تعالت هممةٌ غاضبة من الحشد.

قال پول: «كثيرٌ منكم شاركوني في ساحات التدريب. تعلمون أن ما سأقول ليس تفاخراً أجوف، بل هي حقيقة معروفة للجميع وسأكون أحمق إن لم أكن أعلمها بنفسي. لقد بدأت التدرّب على

أساليب القتال هذه في سنّ أصغر منكم، وكان أساتذتي أقوى من أيّ مدرّبين رأيتهم، وإلا كيف تظنّون أنني تغلّبت على جيميس في السنّ التي لا يخوض فيها أولادكم إلّا المعارك التدريبية؟».

فكرت جيسكا: إنه يستخدم (الصّوت) ببراعة، لكن هذا لن يكفي مع هؤلاء القوم. إنهم يتمتّعون بمقاومة جيّدة ضد التحكم الصّوتي. عليه أن يستحوذ عليهم بالمنطق أيضًا.

قال پول: «والآن، نصل إلى هذه»، ورفع أسطوانة الرسالة، وأزال عنها الشريط: «هذه الرسالة استولينا عليها من ساع هاركونني، لذا لا شكّ في صحتّها. إنها موجّهة إلى رابان، وتخبره بأن طلب إمداده بقوّات جديدة قد رُفِض، وبأن حصاد الاسپايس الذي يورّده أقل بكثير من الحصّة المتّفق عليها، ويأنه -بما لديه من قوّة عمل- من المفترض أن يعتصر مزيدًا من الاسپايس من أرأكس».

تحركّ ستيلجار ووقف إلى جوار پول.

سأل پول: «كم منكم يفهم ما يعنيه هذا؟ لقد فهم ستيلجار الأمر على الفور».

صاح أحدهم: «انقطعت الإمدادات عنهم!».

دسّ پول الرسالة والأسطوانة في الوشاح المربوط حول خصره، ثم حلّ من حول عُنقه حبل شيجواير مضفّر، وحرّر خاتمًا معلقًا فيه، ورفع الخاتم عاليًا.

وقال: «هذا خاتم الدوقية الذي كان لأبي، أقسمت على عدم ارتدائه مرّة أخرى حتّى أصير مستعدًا لقيادة قواتي عبر أرأكس والمطالبة به بصفتي الحاكم الشرعي لهذه الإقطاعية». ثم دسّ إصبعه في الخاتم، وضمّ يده في قبضة.

أطبق صمّت مزلزل على الكهف.

سأل پول: «من ذا الذي يحكم هنا؟»، ثم رفع قبضته: «أنا من يحكم! أحكم كل سنتيمترٍ مربّع من أراّكس. هذه إقطاعيتي الدوقية سواء رضي الإمبراطور بذلك أم لم يرض! لقد منحها لأبي وأنا أرثها من بعده!».

شبّ پول على أطراف أصابعه، ثم عاد واستقرّ على عقبيه، فاحصاً الحشد، مستشفّاً انفعالاتهم.
وفكر: إنهم على وشك.

قال پول: «بعض الحاضرين هنا سيشغلون مناصب مهمة على أراّكس حين أستعيد حقوقي الإمبراطورية التي هي ملكي. ستيلجار واحد من هؤلاء الرجال. ليس هذا لأنني أريد رشوته! وليس من باب الامتتان، على الرغم من أنني واحد من كثيرين هنا ممّن سيظلّون يدينون له بحياتهم مدى الحياة. كلّاً ولكن لأنه حكيمٌ وقوي. لأنه يحكم هذه الوحدة العسكرية بذكائه وليس وفقاً للقوانين فحسب. أظننتم أنني غبي؟ أظننتم أنني سأقطع ذراعي اليمنى وأتركها مشحّطةً بدمائها على أرضية هذا الكهف لمجرّد إرضائكم؟».

ثم أجال پول نظرةً حادّةً إلى الحشد: «من هنا ينكر أنني الحاكم الشرعي لأراّكس؟ هل يجب عليّ إثبات الأمر بترك كل قبيلة من قبائل الفرمن في نطاق العرق بلا قائد؟».

توتّر ستيلجار بجانب پول، ونظر نحوه بتساؤل.

سأل پول: «هل أنتقص من قوّتنا ونحن في أمسّ الحاجة إليها؟ أنا حاكمكم وأقول لكم إن الوقت قد حان لتتوقّف عن قتل أفضل رجالنا، ونبدأ بقتل أعدائنا الحقيقيين.. الهراكنة!».

في حركة سريعة، استلّ ستيلجار سكّينه العاجية ووجّها فوق رؤوس الحشد صائخاً: «يحيّا الدوق پول المؤدّب!».

امتلاً الكهف بهديرٍ صاخب يصم الآذان تردّد صدها طويلاً على الجدران، كانوا يهتفون ويردّدون: «يحيّا الشُّهدا*! مؤدّب! مؤدّب! مؤدّب! يحيّا الشُّهدا!».

ترجمت چيسیکا لنفسها: «يحيّا مقاتلو المؤدّب!». ها قد أتى المشهد الذي طبخته مع پول وستيلجار ثماره لم ينقص منها شيئاً.

ثم هدأ ضجيج الحماس ببطء.

حين عاد الصّمت، واجه پول ستيلجار وقال: «اركع يا ستيلجار».

نزل ستيلجار على ركبتيه فوق الحافّة الصخرية.

قال پول: «أعطني سكّينك العاجية».

أطاع ستيلجار أمره.

فكرت چيسیکا: ليس هذا كما خطّطنا له.

قال پول: «ردّد من بعدي يا ستيلجار»، واستحضر كلمات

التصيب كما سمع والده يقولها: «أنا ستيلجار، أتناول هذه

السكّين من بين يدي دوقي».

قال ستيلجار: «أنا ستيلجار، أتناول هذه السكّين من بين يدي

دوقي»، وأخذ النصل الحليبي من پول.

قال پول: «وحيثما يأمر دوقي، سأغمد هذا النصل».

ردّد ستيلجار الكلمات ببطءٍ ووقار.

هزّت چيسیکا رأسها وكبحت دموعها حين تذكّرت مصدر هذا

الطقس، وفكرت: أعرف العلّة وراء ما أشعر، ويجب ألاّ أسمع لها

بأن تحرّكني.

قال پول: «أكرّس هذا النّصل لنصرة دوقي ولسفك دماء أعدائه ما حيننا».

ردّد ستيلجار من بعده.

أمره پول: «قبّل النّصل».

أطاعه ستيلجار، ثم -وفقاً لأعراف الفرمن- قبّل ذراع پول الممسكة بالنّصل. وبإيماءة من پول، أغمد النّصل، ونهض على قدميه.

سرت بين الحشد تنهيدة انبهار، وسمعت چيسیکا كلمات هامسة: «إنها النبوءة، ستُبَيّن امرأة من البني چيسيرت الطريق، وستراه الأمّ الموقّرة»، ثم من مكان بعيد سمعت: «إنها تهدينا الطريق عبر ابنها!».

قال پول: «ستيلجار هو زعيم هذه القبيلة، فلا يُخطئ أحدكم في هذا. إنه يأمر بصوتي، وكل ما يخبركم به، أنا قائله».

فكرت چيسیکا: قولٌ حكيم. يجب ألا يفقد قائد القبيلة ماء وجهه بين من تجب عليهم طاعته.

خفض پول صوته وقال: «ستيلجار، أريد الليلة نشر بعض جوّالة الرمال وإرسال رسائل سييلاجو لاستدعاء مجلس جامع لرؤساء القبائل. عندما تنتهي، أحضر تشات وكربة وعُثيم وضابطين آخرين من اختيارك إلى جناحي لبدء التخطيط للمعركة. يجب أن نحقق انتصاراً نعرضه على مجلس القادة عند وصولهم».

ثم أشار پول برأسه إلى أمّه لمرافقته، وتقدّم الطريق هابطاً من فوق الحافة الصخرية، واخترق الحشد متّجهاً نحو الممرّ المركزي وغرف المعيشة المُعدّة هناك. وبينما كان پول يشقّ طريقه بين الحشد، امتدّت الأيدي لتلمسه، ونادته الأصوات.

- «سيفمد سكّيني حيث يأمر ستيلجار يا پول المؤدّب! الحرب
الحرب يا پول المؤدّب! دعنا نسقي أرضنا بدماء الهراكنة!». لمست
جيسيكا مشاعر الحشد، والنزعة القتالية المتأصلة في
هؤلاء القوم التي تجعلهم متأهبين دائماً، وفكّرت: /إننا نصعد بهم
إلى الذرى.

في الحجرة الداخلية، أشار پول لأُمّه بالجلوس قائلاً: «انتظري
هنا»، وانحنى ماراً من تحت الستائر إلى الممرّ الجانبي.
بعد مفادرة پول، عمّ الحجرة الهدوء، هدوء تام فرضته الستائر
إلى درجة أن الهمهمة الخافتة الصادرة عن مضخّات الهواء التي
توزّع الهواء في السييتش لم تصل إليها.

تعجّبت جيسيكا من خليط المشاعر الغريب الذي ملأ صدرها.
فلطالما كان جيرني وموسيقاه ضليعين في أوقات سعيدة كثيرة
على كلادان قبل الانتقال إلى أراكس. ثم شعرت بأن حياتها على
كلادان قد حدثت لشخص آخر، ففي نحو السنوات الثلاث التي
مرّت منذ ذلك الحين، صارت جيسيكا شخصاً آخر. وأجبرها
اضطرارها إلى مواجهة جيرني على إعادة تقييم تلك التغيّرات.
كانت أداة تحضير القهوة التي ورثها پول عن جيميس - تلك
السبيكة المعدنية المحرّزة المصنوعة من الفضة ومرو الجاسميس -
موضوعة على طاولة منخفضة إلى يمينها. رمقتها جيسيكا وهي
تفكّر في عدد الأيدي التي لمست ذلك المعدن. لقد قدّمت
تشانى له القهوة منها هذا الشهر قبل مغادرتها.

سألت نفسها: ماذا بإمكان امرأة صحراوية تقديمه لدوق
عدا القهوة؟ بالتأكيد لن تزده حسباً أو نفوذاً. پول أمامه فرصة
واحدة فحسب: التحالف مع عائلة نبيلة كبيرة، بل ربّما مع العائلة

الإمبراطورية نفسها، فعلى الرغم من كل شيء، بينهم أميرات
مناسبات للزواج، وكلهن مدربات على نهج البني جيسيرت.
تخيلت جيسيكاً نفسها تترك أراكس، وتستبدل بحياته القاسية
حياة السلطة والأمان التي قد تحياها بصفتها أم زوج ملكي.
نظرت إلى الستائر السمكية التي تحجب صخور هذه الزنزانة
الكهفية، مفكرةً في الكيفية التي وصلت بها إلى هنا: في هودج
على ظهر دودة بين ديدان عِدَّة تتكدّس عليها المحفّات ومنصّات
المتاع والإمدادات الضرورية للحملة العسكرية القادمة.
فكرت جيسيكاً: ما دامت تشاني حيّة، لن يرى پول واجبه. لقد
أنجبت له ولداً، وهذا يكفي.

اجتاحها حنين مفاجئ لرؤية حفيدها، ذلك الصغير الذي
يحمل كثيراً من ملامح جدّه. وضعت جيسيكاً كفّيها على وجنتيها،
ويدأت طقوس التنفّس التي تهدئ المشاعر وتصفّي الذهن، ثم
انحنّت أماماً من عند خصرها في التمرين التعبدي الذي يهيئ
الجسد للامتثال لأوامر العقل.

كانت تعرف أن اختيار پول كهف الطيور مركز قيادته مثاليّاً
ولا غبار عليه، فالى شماله يقع «ممرّ الرياح» الذي يفتح على
قرية محصّنة في حوضٍ محاط بجدران جرفٍ شاهق. كانت قرية
مهمّة، وموطناً للحرفيين والفنيين، ومركز صيانة لقطاع دفاعي
كامل تابع للهراكنة.

سمعت جيسيكاً نحنةً آتيةً من وراء الستائر.
فاعتدلت في جلستها، وأخذت نفساً عميقاً، وزفرته ببطء.
ثم قالت: «ادخل».

أُزِيحت الستائر جانبًا واقتحم جيرني هاليك الحجرة. لم يسعفها الوقت إلا بإلقاء لمحة خاطفة على تكشيرة وجهه الغريبة، قبل أن تجده فجأة خلفها، رافعًا إياها من رقبتها بذراع واحدة مفتولة العضلات.

سألته: «جيرني أيُّها الأحمق، ماذا تفعل؟».

ثم شعرت بطرف السكين على ظهرها، وانتابتها قشعريرة إدراك من لمستته، وعرفت في تلك اللحظة أن جيرني ينوي قتلها. ولكن لماذا؟ عجزت عن التفكير في سبب، فلم يكن جيرني من النوع الذي يخون. لكن ها هي ذي تيقّنت من نيّته، ومع تيقنها، راحت الأفكار تتخبّط عقلها بعنف. هذا رجل ليس من السهل قهره، وهو قاتل يقظ لاستخدام (الصُّوت)، حذر لكل حيلة قتالية، منبته لكل خدعة مميتة وعنيفة. كان أداة ساعدت هي نفسها في شحذها وتدريبها عن طريق تلميحات واقتراحات خفية.

زمجر جيرني: «ظننت أنك نجوت بفعلتك، أليس كذلك أيُّتها السّاحرة؟».

وقبل أن تتمكّن من قلب السؤال في ذهنها أو محاولة إجابته، أُزِيحت الستائر ودخل بول.

- «ها هو يا أمّ...»، ثم بتر عبارته، محاولاً استيعاب المشهد المتوتّر.

قال جيرني: «مكانك يا سيّدي ولا تتقدّم».

هزّ بول رأسه في عدم فهم: «ماذا...».

همّت جيسيكا بالكلام، فشعرت بذراعه تعصر حلقها.

قال جيرني: «لن نتحدّثي إلا حين أسمع لك أيُّتها السّاحرة. أريد لابنك أن يسمع شيئاً واحداً فقط منك. إنني مستعد لإغماد

هذا السكّين في قلبك مع أوّل بادرة هجوم مضاد منك. سيبقي صوتك رتيباً، ولن تحرّكي أو تقبضي عضلاتٍ معيّنة. ستتصرّفين بأقصى درجات الحذر كي تطيلي حياتك ثواني زهيدة أخرى، وها أنا أوّكد لك أن هذا كل ما تبقى لك».

خطا پول خطوة إلى الأمام: «جيرني يا رجل، ما الذي...». صاح جيرني بحدّة: «قف مكانك! خطوة أخرى وستسقط ميّنة!».

انسلّت يدُ پول إلى مقبض سكّينه، وتكلّم بهدوءٍ رهيب: «من الأفضل لك أن تفسّر ما تفعل يا جيرني».

قال جيرني: «لقد أقسمت يميناً أن أذبح خائن أبيك. هل تظنّ أنني أستطيع نسيان الرجل الذي أنقذني من حُفر عبيد الهراكنة، وأعاد إليّ حرّيتي وحياتي وكرامتي، ومنحني صداقته التي أعتزُّ بها أكثر من كل شيءٍ آخر؟ ها هي خائنته تحت نصل سكّيني، ولا يمكن لأحد أن يوقفني عن...».

قال پول: «أنت مخطئٌ بالكامل يا جيرني». وفكرت جيسيكّا: الأمر هكذا إذا! يا للسخرية المريرة! سأله جيرني: «مخطئ؟ دعنا نسمع الأمر إذاً من المرأة نفسها. ولكن عليها أن تتذكّر أنني دفعت الرُشى وتجنّست وداهنت كثيراً للتأكد من هذه التهمة، بل إنني أغريت حارساً هاركوننياً بالسّموتا للحصول على جزء من القصة».

أحسّت جيسيكّا بذراعه الملتفّة حول عنقها ترتخي قليلاً، لكن قبل أن تتكلّم، قال پول: «الخائن هو يُوي يا جيرني. سأقولها لك مرّة واحدة. الأدلّة مكتملة، ولا يمكن الطعن فيها. يُوي هو الخائن. لا يهتمني كيف وصلت إلى استنتاجاتك الواهمة هذه،

لأنها ليست إلا أوهامًا، ولكن إن أذيت أمي...»، بتر عبارته وأخرج سكّينه من غمدها ورفع نصلها أمامه، ثم أكمل: «سأسفك دمك». زمجر جيرني: «يوي طبيب خاضع للتهينة العقلية ليكون مؤهلًا للعمل في بلاط ملكي، يستحيل أن يتحوّل إلى خائن!». قال پول: «أعرف طريقة لإزالة هذه التهينة». أصرّ جيرني: «أريد دليلًا».

قال پول: «الدليل ليس هنا. إنه في سييتش تابر، بعيدًا في الجنوب، ولكن إن...».

قال جيرني مزمجرًا: «هذه خدعة»، وضيّقت ذراعه الخناق على حلق چيسیکا.

قال پول بصوتٍ حمل نبرة حُزنٍ رهيبة مرّقت نياط قلب چيسیکا: «ليست خدعة يا جيرني».

قال جيرني: «رأيت الرسالة التي أخذت من العميل الهاركونني، وقد أشارت بشكل مباشر إلى...».

قال پول: «أنا أيضًا رأيتهَا. أراني أبي إيّاها في الليلة التي شرح لي فيها أنها خدعة هاركوننية تهدف إلى تشكيكه في المرأة التي يحبها».

قال جيرني: «آها! أنت لم...».

قاطعه پول: «صمتًا»، لافظًا الكلمة بنبرة آمرة باردة لا انفعال فيها تفوق كل ما سمعته چيسیکا في صوت آخر. وفكرت: إنه يتمتّع بـ/السيطرة العظمى/.

ارتعشت ذراع جيرني الملتفة حول عُنقها، واهتزّ طرف السكّين الذي في ظهرها في ارتباك.

قال پول: «ما لم تفعله أنت، هو الإنصات إلى بكاء أمي ليلاً على دوقها الفقيد، ولم تر الشرر المتطاير من عينيها حين تتحدث عن قتل الهراكنة».

فكرت جيسكا: لقد سمع بكائي إذاً، وأغشت الدموع عينيها. واصل پول: «ما لم تفعله أنت، هو تذكر الدروس التي تعلمتها في حُضر عبيد الهراكنة. تتحدث عن فخرك بصداقة أبي! ألم تتعلم الفرق بين الهراكنة وآل آترديز لتمكّن من شمّ مكر الهراكنة من العفونة التي تفوح منه؟ ألم تتعلم أن الإخلاص لآل آترديز يُشترى بالحب، بينما عملة الهراكنة هي الكراهية؟ ألم تستطع رؤية طبيعة تلك الخيانة على حقيقتها؟».

غمغم جيرني: «ولكن يوي، كيف؟».

قال پول: «الدليل الذي بحوزتنا هو رسالة من يوي ذاته يعترف فيها بخيانتته. أقسم لك على هذا بالحب الذي أكّنه لك يا جيرني، الحب الذي سأظلُّ أكّنه لك حتّى بعد أن أرديك قتيلاً على هذه الأرضية».

استمعت جيسكا لابنها ودهشت لنضج وعيه، ولبصيرة ذكائه الثاقبة.

قال پول: «كان أبي يتمنّع بحسّ سليم تجاه من يصادق. صحيح أنه كان مقتصدًا في منح حُبّه، لكنه لم يخطئ قط. أمّا نقطة ضعفه فكانت في سوء فهم الكراهية، إذ ظنّ أن أيّ شخص يكره الهراكنة يستحيل أن يخونه»، ثم نظر إلى أمّه: «هي تعرف هذا، لقد أعطيتها رسالة أبي التي يقول فيها إنه لم يشك فيها قط».

شعرت جيسكا بأنها تفقد السيطرة على مشاعرها، فعضّت شفتها السفلى. حين رأت أسلوبه الجامد الرسمي، أدركت ثقل

وطأة ما يتفوّه به من كلمات عليه. أرادت أن تركض نحوه، وتحتضن رأسه في صدرها كما لم تفعل من قبل. لكن الذراع الملتفة حول عنقها لم تعد ترتعش، وعاد طرف السكين ينفز ظهرها بثباتٍ وحدة.

قال پول: «إحدى أفضع اللحظات في حياة الصبي تأتي حين يكتشف أن أباه وأُمّه يتشاركان حُبًّا لن يستطيع تذوّق مثله أبدًا. إنها لحظة خسارة مريرة، لحظة إفاقة يدرك فيها حقيقة أن العالم دار امتحان وبلاء ونحن فيه وحدنا، لحظة تحمل معها حقيقة لا يمكن التّصّل منها. لقد سمعت كيف يتحدّث أبي عن أُمّي يا جيرني. إنها ليست الخائنة».

استطاعت چيسيكا التحدّث، فقالت: «جيرني، أطلق سراحني». لم يكن في كلماتها نبرة أمرة خاصة، ولا حيلة للعب على نقاط ضعفه، ومع ذلك تراخت ذراع جيرني. عبرت چيسيكا الحجرة إلى پول، ووقفت أمامه، دون أن تلمسه.

قالت: «پول، في هذا الكون لحظات مفيقة أخرى. لقد أدركت فجأة كيف استخدمتك وطوّعتك وتلاعبت بك لأضعك على طريق من اختياري أنا، طريق فُرض عليّ اختياره - إن كان في ذلك عذر - بسبب ما تلقّيت من تدريب»، ثم ابتلعت غصّة مريرة في حلقها، ورفعت بصرها إلى ابنها، وقالت: «أريدك أن تفعل شيئًا من أجلي يا پول: اختر طريق سعادتك. تزوّج بامراتك الصحراوية إن كانت هذه رغبتك. تحدّي الناس جميعًا وكل شيء، لكن اختر طريقك بنفسك. أنا...».

ثم بترت عبارتها حين سمعت الغمغمة الخفيضة الآتية من خلفها.

جيرني!

رأت عيني پول ثابتان على ما خلفها، فاستدارت.

كان جيرني واقفاً في مكانه وقد أغمد سكينه وفتح ثوبه من عند صدره كاشفاً عن بذلة تقطير رمادية لامعة أسفلها من النوع الذي يقايض به قاطنو السييتشات مع المهرئين.

غمغم جيرني: «اغرز سكينك في صدري. اقتلني وانته من الأمر، لقد لوّثت اسمي ولطّخت سمعتي. لقد خنت دوقي! أفضل أن...».

قاطعه پول: «اصمت!».

رمقه جيرني.

قال پول: «أغلق هذا الثوب وكفّ عن التصرّف بحمق، لقد نلت كفايتي من الحماقة اليوم».

صاح جيرني غاضباً: «أقول لك اقتلني!».

قال پول: «أنت خير من يعرفني. أيّ أبله تظنّني؟ هل يجب أن أخوض الأمر ذاته مع كل رجل أنا في حاجة إليه؟».

نظر جيرني إلى جيسيك، وقال بنبرة بائسة متوسّلة منافية لطبعه: «أنت إذاً يا مولاتي، أرجوك... اقتليني أنت».

اقتربت جيسيك منه، ووضعت يديها على كتفيه وقالت: «جيرني، لمَ تصرّ على أن يقتل آل آتريديز أحبّاءهم؟»، ثم جذبت الثوب المفتوح من يديه برفق، وأغلقت قماشه وأحكمته على صدره.

قال جيرني مكسوراً: «ولكن... أنا...».

قالت: «كنت تظنّ أنك تردّ صنيع ليتو، لهذا أنا أحترمك».

قال جيرني: «مولاتي»، ثم نكّس رأسه حتّى لامس ذقنه صدره، وأغلق جفنيه بقوة ليمنع انفجار دموعه.

قالت: «لنعدّ الأمر سوء فهم بين أصدقاء قدامى»، وسمع پول ضبطها لصوتها، ونبرة التهذئة فيه: «انتهى الأمر، فلنكن شاكرين أن مثل سوء الفهم هذا لن يتكرّر بيننا».

فتح جيرني عينيه المغرورقتين بالدموع، ونظر إليها.

قالت چيسیکا: «جيرني هاليك الذي أعرفه رجلاً بارعاً مع النصل وفي العزف، ولطالما كنت أميل أكثر إلى عازف الباليست. ألا يتذكر جيرني هذا مدى استمتاعي بتلك الساعة التي كان يعزف فيها من أجلي؟ أما زالت الباليست بحوزتك يا جيرني؟». قال جيرني: «معي واحدة جديدة، ابتعتها من شوسوك. إنها آلة جميلة عذبة، كأنها أصلية صنعتها يد فاروتا، على الرغم من أنها بلا توقيع. عن نفسي أظن أن صانعها تتلمذ على يد فاروتا...» ثم بتر عبارته وقال: «ما هذا الذي أقوله يا مولاتي؟ ها نحن نثرثر عن...».

قال پول: «ليست ثرثرة يا جيرني»، ثم اقترب ووقف إلى جوار أمّه، ونظر إلى جيرني في عينيه: «ليست ثرثرة، بل حديثاً يجلب السعادة ويؤنس الأصدقاء. سأكون ممتناً لو عزفت لها الآن. يمكن أن ينتظر التخطيط للحرب بعض الوقت، فنحن لن نخوض المعركة حتّى يوم غدٍ على أيّ حال».

قال جيرني: «أنا... سأذهب وأحضر الباليست. إنها في الممرّ»، ثم دار حولهما ومراً من بين الستائر. وضع پول يده على ذراع أمّه، ووجد أنها ترتجف. قال لها: «انتهى الأمر يا أمّي».

نظرت إليه من طرفي عينيها دون أن تدير رأسها تجاهه:

«انتهى؟».

- «بالتأكيد، جيرني...».

- «جيرني؟ آه... صحيح»، ثم خفضت بصرها.

أصدرت الستائر حفيفاً مع عودة جيرني حاملاً الباليسيت. بدأ يضبط أوتارها، متحاشياً نظراتهما. كتمت الستائر المعلقة على الجدران رجع الصدى، فجعلت صوت الآلة بسيطاً وحميمياً. قاد پول أمّه إلى وسادة، وأجلسها عليها وظهرها إلى ستائر الجدار السميك. صُدم فجأة من علامات التقدم في السنّ البادية عليها من خطوط جافة حفرتها الصّحراء في وجهها، وتجاوّد عند زوايا عينيها المُغشّاتين باللون الأزرق. وفكر: إنها مُتعبة، علينا إيجاد طريقة لنخفّف عنها أعباءها. ضرب جيرني وترًا.

نظر پول إليه وقال: «لدي... أمور يجب أن أبشرها بنفسي. انتظرني هنا».

أوماً جيرني وقد بدا ذهنه شاردًا بعيدًا، كما لو كان يجلس في هذه اللحظة تحت سماوات كلادان الرّحبة، ويلمح في الأفق سحباً كالصوف يعد بهطول الأمطار.

أجبر پول نفسه على الاستدارة، وانصرف عبر الستائر الثقيلة إلى الممرّ الجانبي. من خلفه، سمع جيرني يبدأ العزف، فوقف لحظة خارج الغرفة مستمعاً إلى الموسيقى المكتومة:

«أمامي البساتين ومزارع الغنب،

والحور النّاهدة،

وكأسّ مترعة.

فلماذا أثّر عن معارك،

وعن جبالٍ دُكّت وصارت غباراً؟

ولماذا أشعر في فمي بمذاق الدموع؟

أبواب السَّمَاوَات مفتوحة

تنهال منها ثرواتها؛

وما عليّ إلّا جمع نعمها .

فلماذا أفكّر في دسائس؟

وفي سُمِّ ذائب في كأس؟

ولماذا تثقلني سنوات العمر؟

أزرع الحب الممدودة تفرني

بمسراتها العارية

جنةً عدن تعدني بالنشوة

فلماذا أتذكر الندوب؟

وأحلم بأنامي القديمة؟

ولماذا أنام مُعانقًا مخاوفي؟ .

ظهر ساعٍ من الفدائيين من زاوية الممرِّ أمام پول . كانت

قلنسوة الرجل ملقاة على ظهره، وأربطة بذلة تقطيره مرخاة حول

عُنقه، علامةٌ على أنه جاء لتوّه من الصَّحراء .

أمره پول بالتوقّف، وترك ستائر الباب، وقطع الممرَّ نحو

السَّاعي الذي انحنى عاقداً يديه أمامه بالطريقة التي يُحيي بها

الأمّ الموقرة أو إحدى سيّادينات الطقوس . قال الرجل: «يا مؤدّب،

بدأ القادة بالحضور من أجل المجلس الجامع» .

- «أبهذه السرعة؟» -

هزّ كتفيه: «هؤلاء من بعث إليهم ستيلجار الرسائل في وقتٍ سابق عندما كنا نظن...».

- «فهمت». قالها پول واستدار ناظرًا إلى حيث ينبعث صوت الباليست الخافت، مفكرًا في الأغنية القديمة المفضلة لأمّه، التي هي مزيج غريب من لحنٍ مرح وكلماتٍ حزينة.

- «سرعان ما سيأتي ستيلجار إلى هنا مع الآخرين. أرشدهم إلى حيث تنتظر أمي».

قال الساعي: «سأنتظر هنا أيّها المؤدّب».

- «أجل... أجل، انتظر هنا».

تجاوز پول الرجل وغاص في أعماق الكهف، متّجهًا إلى المكان السري الذي يضمّه كل كهفٍ من هذه الكهوف: المكان القريب من حوض تخزين المياه. في هذا المكان تُوجد شَيّ هولود صغيرة، مخلوقة لا يتعدّى طولها تسعة أمتار، أوقفوا نُموّها وحبسوها بين خنادق مائية، لأن الديدان الصّانعة -بعد أن تخرج من طور اليرقات الصغيرة- تتحاشى الماء، إذ يصير سامًا لها. إغراق الصّانعة في الماء هو أعظم أسرار الفرمن، إذ إنه العملية التي تنتج عنها المادّة التي توحدّهم: ماء الحياة، السُّمُّ الذي لا تقدر على تغييره سوى أمّ موقّرة.

كان پول قد اتّخذ قراره هذا تحت وطأة الضغط الذي تعرّض له من الخطر الذي هدّد حياة أمّه، فهو لم يكن قد رأى في أيّ مسار من مسارات المستقبل التي تكشّفت له ذلك التهديد من جيرني هاليك. كان المستقبل -المستقبل الضبابي الغائم- بما يحمله من شعور بأن الكون يتّجه إلى نقطة الغليان، معلقًا من حوله كسرابٍ شبحي.

فَكَرَّ بُولُ: لَا بُدَّ لِي مِنْ رُؤْيَا الْمُسْتَقْبَلِ.

كَانَ جَسَدُهُ قَدْ اعْتَادَ نَوْعًا مِنْ جُرْعَاتِ الْأَسْيَاسِ، مَا جَعَلَ
الرُّؤْيَا الْأَسْتَبْصَارِيَّةَ تَقِلُّ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَتَبْهَتُ بِالتَّدْرِيجِ. لِذَا بَدَأَ
الْحُلَّ وَاضِحًا لَهُ.

سَأُغْرَقُ الصَّنَاعَةَ. الْآنَ سَنَعْرِفُ إِنْ كُنْتَ الْكُوزَاتِسْ هَادِيرَاكِ
الْقَادِرَ عَلَى اجْتِيَازِ الْإِخْتِبَارِ الَّذِي سَبَقَ أَنْ اجْتَازَتْهُ الْأُمُّ الْمَوْقَرَّةُ
أُمُّ لَا.

اصطحب الكود انضم إلى مكتبة
احصل على نسخة عالية الدقة
في تيليجرام
@t_pdf



وحدث في السَّنة الثالثة من حرب الصَّحراء أن
رقد پول المؤدّب وحيداً في كهف الطيور، داخل
صومعة، وتحت كسوة* مزدانة بالرسومات القديمة.
كان في رقدته أشبه بالميت، تائهاً في رؤى وتجليّات
ماء الحياة، بعد أن عبرت نفسه إلى ما وراء حدود
الزمن، بنفحة السُّم الذي يهب الحياة. وهكذا
تحقّقت النبوءة بأن لسان الغيب قادر على أن يكون
حيّاً وميتاً في الوقت نفسه.
من كتاب «أساطير أراكس المجمّعة» للأميرة إيrolان.

خرجت تشاني من حوض حبانية في ظلام الفجر، وسمعت
رفرفة أجنحة الثوبتر التي أحضرتها من الجنوب تنزُّ عائدة إلى
مخبأٍ لها في اليهماء الواسعة. من حولها، حافظ حرسها المرافق
على مسافة بينهم وبينها، وانتشروا بين صخور التلال بحثاً عن
أي أخطار محتملة، وليمنحوا لخليلة المؤدّب وأمّ ابنه البكر ما
طلبتّه: مدّة للسير مختليّة بنفسها.

سألت تشاني نفسها: لِمَ استدعاني؟ لقد أخبرني سابقاً أن
عليّ البقاء في الجنوب مع ليتو الصغير وعالية.
ضمّت ثوبها حول جسدها ووثبت بخفّة فوق حاجز صخري،
ومنه إلى الطريق الصاعد الذي لا تستطيع إلا العين المدرّبة تمييزه
في الظلام. راح الحصى ينزلق من تحت قدميها، فتقاشرت فوقه
في وثباتٍ راقصة دون وعي منها لما يتطلّب الأمر من رشاقة.
كان التسلّق منعشاً، وخفّف من المخاوف التي تخمّرت في
نفسها بسبب صمت حرسها المرافق المريب، وحقيقة أنهم أرسلوا

ثوبتراً ثمينة لتأتي بها. شعرت بقلبها يتواثب من الفرحه لاقترب
لَمْ شملها مع پول المؤدّب، حبيبها أصول. قد يكون اسمه صيحة
حرب تدوي في الآفاق «مؤدّب! مؤدّب! مؤدّب!»، لكنها كانت تعرف
رجلاً آخر باسم آخر، هذا الرجل عاشقٌ رفيق، وأبو ابنها.
أطلَّ خيالٌ ضخم من الصخور فوقها، وأشار لها بالإسراع،
فأطاعت مسرعةً من وتيرتها. كانت طيور الفجر قد بدأت
صياحها وتحليقها في السماء، وانتشر خيط ضوء خافت في
الأفق الشرقي.

لم يكن الشخص أعلى الصخور أحد مرافقيها، فتساءلت في
نفسها: *أهو عُثيم؟* متبّعةً حركته وأسلوبه المألوفين. وصلت
إليه، وتعرّفت في الضوء المتزايد على ملامح الضابط الفدائي
العريضة المنبسطة، ورأت أن قلنسوته مفتوحة، وأن مرشّح الفم
غير محكم كما يحدث أحياناً حين يغامر المرء بالخروج إلى
الصّحراء لما لا يزيد على لحظات قليلة.

قال هامساً: «أسرعي»، وقادها نزولاً عبر الصّدع السريّ إلى
الكهف المخفي، وهمس وهو يزيج لها الغطاء العازل: «سيطلع
النهار بعد قليل، الهراكنة -من يأسهم- يرسلون دورياتهم لتجوب
أجزاء من المنطقة. لا يمكننا المخاطرة بانكشاف أمرنا الآن».
دخلا إلى الممرّ الجانبي الضيق الذي يشكّل المدخل المؤدّي
إلى كهف الطيور، فأضيئت كرات الإنارة تلقائياً. تجاوز عُثيم
تشاني قائلاً: «اتبعيني. أسرعي الآن».

قطعا الممرّ في خطى مسرعة، وعبرا من باب آخر مزوّد
بصمام، ثم قطعا ممراً آخر، ومنه دخلا -عبر ستائر- إلى ما

كان خلوة للسيّادينات حين كان الكهف يستخدم استراحة نهائية. صارت الأرضية الآن مغطاة بالسجّاد والوسائد، بينما احتجبت الجدران الصخرية خلف ستائر منسوج عليها شعار الصقر الأحمر. وعلى مكتبٍ منخفض قابع في أحد الأركان، تكسدت أوراق تفوح منها رائحة الاسپايس المصنوعة منه.

كانت الأمّ الموقرة جالسةً بمفردها في مواجهة المدخل تمامًا، وحين رفعت عينيها، رأت فيهما تشاني تلك النظرة الباطنية الشاردة التي تجعل العوام يرتجفون.

شابك عُثيم كُفّيه وقال: «أحضرت تشاني»، ثم انحنى وتراجع خارجًا من خلال الستائر.

فكرت جيسيكا: كيف سأخبر تشاني؟

ثم سألتها: «كيف حال حفيدي؟».

فكرت تشاني: التحية التقليدية، وعادت المخاوف تنهشها: أين

المؤدّب؟ لماذا لم يأت لاستقبالي؟

قالت تشاني: «إنه بصحّة وسعادة يا أمّاه، تركته هو وعالية في رعاية حارّة».

فكرت جيسيكا: أمّاه! أجل، لديها الحق في مناداتي كذلك في

التحية الرسمية، فقد أنجبت لي حفيدًا.

قالت جيسيكا: «سمعت أنهم أرسلوا إليك قماشًا هدية من

سييتش كوانوا».

قال تشاني: «أجل، إنه قماش جميل».

- «هل أرسلت عالية رسالة معك».

- «كلّا، لكن الأمور تسير بسلاسة أكبر في السييتش بعد أن

بدأ الناس يتقبّلون معجزتها».

تساءلت تشاني: لِمَ هذا الاستطراد؟ لقد طرأ أمرٌ عاجل ومُلحٌ جدًّا حتَّى أنهم أرسلوا ثوبتراً لإحضاري، والآن نستطرد في الشكليات.

قالت جيسिका: «يجب أن ندّخر بعضاً من القماش الجديد لنصنع منه ملابس لليتو الصغير».

قالت تشاني: «كما تشائين يا أمّاه»، ثم خفضت بصرها وسألت: «هل من أخبار عن الممارك؟»، وحاولت السيطرة على تعابير وجهها كي لا تكتشف جيسिका أن سؤالها كان عن پول المؤدّب.

قالت جيسिका: «حقّقنا انتصارات جديدة، ووصلتنا مع رُسُل مبادرات حذرة من رابان بخصوص هدنة، لكننا أعدنا إليه رُسُلَهُ دون مائهم. الأمر وصل برابان أنه خَفَّفَ أعباء الناس في بعض قرى الأحواض. لكنها كانت خطوة متأخرة جدًّا، والناس عرفوا أنه فعل ذلك خوفاً منا».

قالت تشاني: «إذا تسير الأمور كما قال المؤدّب»، وراحت ترمق جيسिका، محاولةً إبقاء مخاوفها لنفسها. لقد لفظت اسمه، لكنها لم ترد. يعجز المرء عن استشفاف أدنى انفعال في قطعة الحجر المصقولة هذه التي تسمّيها وجّها... لكنها متحجرة أكثر من اللازم. ما سر هذا الهدوء؟ ماذا حدث لحبيبي أصول؟

قالت جيسिका: «أتمنّى لو كنّا في الجنوب. المزارع كانت جميلة جدًّا حين غادرنا. ألا تشتاقين إلى اليوم الذي تزهر فيه الأرض كلها بهذا الشكل؟».

قالت تشاني: «الأرض جميلة حقًّا، لكن يسكنها حُزنٌ كبير».

قالت جيسिका: «الحزن ثمن النصر».

سألت تشاني نفسها: هل تهينني لتلقي خبر حزين؟ ثم قالت: «نساء كثيرات بلا رجال، وقد شعرن بالغيرة مني عندما علمن بأمر استدعائي إلى الشمال».

قالت جيسिका: «أنا التي استدعيتك».

شعرت بقلبها يفوص، وأرادت أن تغطي أذنيها بيديها خوفاً ممّا قد تسمعه. ومع ذلك، حافظت على هدوء صوتها: «كانت الرسالة مذيّلة بتوقيع المؤدّب».

قالت جيسिका: «أنا التي وقعتها، بحضور ضباطه. كانت حيلة اضطررنا إلى اللجوء إليها»، وفكرت: كم هي شجاعة امرأة ابني پول. إنها تتمسك بأدق التفاصيل حتى والخوف يتكالب عليها. تسأل شيء من التسليم بالقدر إلى صوت تشاني وهي تقول: «الآن بإمكانك قول ما يجب أن يُقال».

قالت جيسिका: «أنا في حاجة إليك لمساعدتي في إنعاش پول». هالك! قد قتلها بالطريقة الصحيحة تماماً. إنعاش. هكذا ستعلم أن پول حيّ وستعلم أنه في خطر في الوقت نفسه، كل هذا بكلمة واحدة.

استغرقت تشاني لحظات لتهدئة نفسها، ثم قالت: «ماذا بوسعي أن أفعل؟»، هي تودّ لو أن تقفز على جيسिका، وتهزّها صارخة: «خذيني إليه!». لكنها انتظرت الإجابة في صمت. قالت جيسिका: «أشكُّ أن الهراكنة تمكّنوا من زرع جاسوس بيننا لتسميم پول. إنه التفسير الوحيد الذي يبدو منطقياً. لكنه سُمّ غير معتاد، فقد فحصت دمه بأساليب دقيقة شتّى ولم أجد أثراً له».

دفعت تشاني نفسها إلى الأمام على رُكبتَيها وقالت: «سُمَّ؟ هل يتألم؟ هل أستطيع أن...».

قالت چيسیکا: «إنه فاقِد الوعي، ووظائفه الحيوية ضعيفة إلى درجة لا يمكن معها قياسها إلا باستخدام أدقِّ التقنيات. أرتعد كلما فُكِّرْتُ في ما كان سيحدث له لو لم أكن أنا من اكتشفه. إنه يبدو ميتًا للعين غير الخبيرة».

قالت تشاني: «تملكين أسبابًا أخرى غير الواجب دفعتك لاستدعائي. أنا أعرفك جيّدًا يا أُمّنا الموقّرة. ماذا تظنّين أنني أستطيع فعله وتمجّزين أنت عنه؟».

فُكِّرْتُ چيسیکا: إنها شجاعة، وفاتنة، وشديدة الذكاء كذلك. كان يمكن أن تصير بني چيسيرت رائمة.

قالت چيسیکا: «تشاني، قد تجدّين صعوبة في تصديق ما سأقول، لكنني لا أعرف بالتحديد لماذا استدعيتك. كان تصرّفها غريزيًا، شيئًا أشبه بحدسٍ فطري. انبثقت في ذهني خاطرة تقول: "استدعي تشاني"».

للمرّة الأولى، رأت تشاني الحزن في ملامح چيسیکا، الألم الظاهر الذي بدّل شرود نظرتها الباطنية.

قالت چيسیکا: «لقد جرّيت كل ما تسمح معارفي بتجريبه، وأنا معارفي تتخطّى المألوف من المعارف إلى درجة يصعب على العوام تخيلها، وعلى الرغم من ذلك... فشلت».

سألت تشاني: «رفيقه القديم، هذا المدعو هاليك. هل من المحتمل أن يكون خائنًا؟».

قالت چيسیکا: «ليس جبرني».

حملت هاتان الكلمتان الزهيدتان معاني حوارٍ كامل، ورأت تشاني فيهما البحث المضني والاختبارات، وذكريات إخفاقات قديمة تسَلَّت إلى هذا النفي القاطع.

ارتكزت تشاني على قدميها، ونهضت وهي تسوي ثوبها الذي بَقَعته الصَّحراء، وقالت: «خذيني إليه».

نهضت جيسيكَا، واستدارت خارجةً عبر ستارة الجدار الأيسر. تبعتها تشاني، لتجد نفسها في غرفة كانت مخزناً في السابق، والآن احتجبت جدرانها الصخرية وراء ستائر ومعلقات ثقيلة. كان بول مستلقياً على حشية ميدانية عند الجدار البعيد، وفوقه كرة إنارة وحيدة تضيء وجهه. كان يغطيه رداءٌ أسود حتَّى صدره، تاركاً ذراعيه عاريتين وممدَّتين إلى جانبيه. بدا عارياً تحت الرداء، وبدت أجزاء جلده المكشوفة شمعية ومتصلبة، ولم يبدُ عليه أدنى أثر لحركة.

منعت تشاني نفسها عن الاندفاع نحوه، وإلقاء جسدها عليها. وجدت أن أفكارها تتَّجه نحو ابنها ليتو، وأدركت في تلك اللحظة أن جيسيكَا واجهت موقفاً كهذا: رجلها يهدِّده الموت، بينما عقلها مجبر على التفكير في ما يمكن عمله لإنقاذ ابنها الصغير. شكَّل هذا الإدراك رابطة شعورية فجائية مع المرأة التي تكبرها سناً، فمدَّت تشاني يدها وأمسكت يد جيسيكَا، التي استجابت لها بقبضة مؤلمة من قوَّتها.

قالت جيسيكَا: «إنه حيٌّ، أوْكد لك أنه حيٌّ. لكن الخيط الممسك بحياته رفيع إلى درجة يمكن معها إغفاله بسهولة. بعض القادة يتهامسون قائلين إن هذا كلام الأمومة لا كلام الأم الموقرة، وأن ابني مات بالفعل وأنني لا أرغب في إعطاء مائه إلى القبيلة».

سألته تشاني: «منذ متى وهو في هذه الحالة؟»، وحرّرت يدها من قبضة جيسيكَا، وتقدّمت خطوات في الحجرة. قالت جيسيكَا: «ثلاثة أسابيع. قضيت ما يقرب من أسبوع أحاول إنعاشه. عقدنا اجتماعات، وخضنا مجادلات، وتحقيقات، ثم أرسلت إليك. الفدائيون يطعمون أوامري، وألاً لما استطعت تأخير ال...»، ثم بترت عبارتها وبلّلت شفّتها بلسانها وهي تراقب اقتراب تشاني من پول.

وقفت تشاني فوقه الآن، متألمة لحية الشباب الناعمة التي تحدّد وجهه، متتبعة بعينيها خط جبينه المرتفع، وأنفه الحاد، وعينيّه المفلقتين. كم كانت ملامحه مسالمة في سكونه الجامد هذا.

سألت تشاني: «كيف يتغذّى؟».

قالت جيسيكَا: «احتياجات جسده ضئيلة إلى درجة لا يحتاج معها إلى طعام بعد».

سألت تشاني: «كم من الناس وصلهم خبر ما حدث؟».

- «فقط أقرب مستشاريه، وبعض القادة، والفدائيون، وبالتأكيد من دسّ له السم».

- «لم تصلوا بعد إلى دليل يشير إلى من سمّمه؟».

قالت جيسيكَا: «مع أننا لم نفرط في التحقيق من شيء».

سألته تشاني: «ما رأي الفدائيين؟».

- «يعتقدون أن پول في غشية جليّة، يجمع فيها قواه المقدسة قبل المعركة الأخيرة. هذه فكرة زرعناها بنفسي».

ركعت تشاني على رُكبتها جوار الحشية، وانحنّت مقتربةً من وجه پول. شعرت على الفور باختلاف في رائحة الهواء المحيط

بوجهه. لكنه لم يكن إلا عبق الاسبائس، الاسبائس الذي تتخلل رائحته كل شيء في حياة الفرمن. ومع ذلك...

قالت تشاني: «أنت لم تتشئي على الاسبائس مثلنا. هل حققت في احتمالية أن تكون هذه ردة فعل جسدية لتناول كمية كبيرة من الاسبائس في طعامه؟».

قالت جيسكا: «فحوصات ردود الفعل التحسسية كلها سلبية». أغلقت تشاني عينيها لطمس هذا المشهد لشعورها المفاجئ بمدى إرهاقها، وسألت نفسها: منذ متى وأنا بلا نوم؟ مدة أطول من اللازم.

قالت تشاني: «حين تُغيّر الأم الموقرة ماء الحياة، تفعل ذلك داخلها، عن طريق وعيها الداخلي. هل استخدمت وعيك هذا لفحص دمه؟».

قالت جيسكا: «دمه قدم أي فرمني، متكيف تمامًا مع الغذاء والحياة هنا».

جلست تشاني على عقيبتها، مفرقة مخاوفها بأفكارها وهي تتأمل ملامح پول. كانت هذه حيلة تعلمتها من مراقبة الأمهات الموقرات، إذ يمكن إخضاع الوقت لخدمة العقل، إن ركز المرء جُل انتباهه.

في النهاية قالت تشاني: «أتوجد صانعة هنا؟». قالت جيسكا وقد تسلل الضجر إليها: «توجد صانعات كثيرة، نكاد لا نخلو منها هذه الأيام، فكل نصر يتطلب مباركة خاصة، وكل طقس قبل الإغارة...».

قاطعتها تشاني قائلة: «لكن پول اعتزل تلك المراسم ونأى بنفسه عنها».

أومأت چيسىكا لنفسها، متذكّرةً مشاعر ابنها المتضاربة تجاه عقار الاسپايس وما يكتّفه من إدراك استبصاري.
سألت چيسىكا: «كيف عرفت هذا؟»
- «الكلام يتناثر».

قالت چيسىكا بمرارة: «كثّر اللفظ».
قالت تشاني: «اجلبي لي ماء صانعة خام».
تصلّبت چيسىكا للنبرة الأمّرة في صوت تشاني، ثم لاحظت التركيز الشديد البادي على الشابة، فقالت: «في الحال»، وخرجت عبر الستائر لإرسال أحد رجال المياه.
جلست تشاني تحدّق إلى پول وتفكّر: إن كان قد حاول تجربة الأمر، وهذا من الأمور التي قد تغريه تجربتها، ف...
ركعت چيسىكا إلى جوار تشاني، حاملةً إبريقًا عاديًا من أباريق المعسكر، ولكن هجمة رائحة السّم المنبعثة منه على منخري تشاني كانت حادّة. غمست تشاني إصبعها في السائل، وقرّبتها من أنف پول.

تجمّد جلد أنفه قليلًا. ثم ببطء، اتّسعت فتحتا منخاره.
فلتت شهقة من چيسىكا.
مسّت تشاني بإصبعها المبلّلة شفة پول العليا.
فسحب شهيقًا عميقًا كالنشيج.
سألت چيسىكا: «ماذا يحدث؟»
قالت تشاني: «ابقي هادئة، عليك أن تحوّلِي كمّية صغيرة من الماء المقدّس. أسرع!».

دون أن تسأل، ولأنها ميّزت نبرة الوعي في صوت تشاني، رفعت چيسىكا الإبريق إلى فمها، ورشفت رشفة صغيرة.

فُتحت عينا پول على اتساعهما، وحدَّق بهما إلى تشاني.
وقال: «ليس من الضروري أن تغيّر الماء». كان صوته واهناً،
لكنه ثابت.

شعرت جيسكا -ورشفة السائل على لسانها- بجسدها
ينشط، ويحوّل السَّم تلقائياً تقريباً. وفي حالة الانتشاء الخفيفة
التي يُدخلها فيها الطقس دائماً، شعرت بوهج الحياة ينبعث من
پول كإشعاع ينطبع على حواسها.

وفي تلك اللحظة فهمت ما حدث.
قالت بغير تفكير: «لقد شربت من الماء المقدّس!».
قال پول: «قطرة واحدة منه. مجرد قطرة ضئيلة جداً».
سألته: «وكيف ترتكب حماقة كهذه؟».

قالت تشاني: «إنه ابنك».

نظرت إليها جيسكا شزراً.

ارتسمت ابتسامة نادرة دافئة ملأى بالتفهّم على شفني پول،
وقال: «أصفي إلى حبيبتي، أصفي إليها يا أمّي، فهي تعرفني جيّداً».
قالت تشاني: «لا بُدَّ له من تجرب ما باستطاعة الآخرين
فعله».

قال: «حين أخذت القطرة في فمي، حين ذقت مذاقها
وشممت رائحتها، حين عرفت ما تُحدثه بي، حينها أدركت أنني
قادرٌ على فعل الشيء الذي فعلته أنت. تتحدّث مشرفات البني
جيسيرت العلى عن الكويزاتس هاديراك، لكنهن يعجزن عن توقّع
الأماكن الكثيرة التي كنت فيها. في تلك الدقائق القليلة...»، ثم
بتر عبارته، ونظر إلى تشاني بتقطعية حائرة: «تشاني؟ كيف جئت
إلى هنا. من المفترض أن تكوني... لِمَ أنت هنا؟».

حاول رفع نفسه مرتكزاً على كوعيه ليعتدل، لكن تشاني دفعته برفق إلى الخلف.

قالت: «استرح يا حبيبي أصول، أرجوك».

قال: «أشعر بوهن شديد»، ثم مشط الحجر ببعصره، وسأل: «منذ متى وأنا هنا؟».

قالت جيسيكاً: «أنت في غيبوبة عميقة منذ ثلاثة أسابيع، بدوت فيها كأن جذوة حياتك انطفأت».

- «لكنني كنت... لقد أخذت القطرة منذ لحظات و...».

قالت جيسيكاً: «لحظات بالنسبة إليك، وثلاثة أسابيع خوف بالنسبة إليّ».

قال پول: «كانت مجرد قطرة، لكنني غيرتها، غيرت ماء الحياة»، وقبل أن تتمكّن تشاني أو جيسيكاً من إيقافه، غمس يده في الإبريق الذي وضعاه بجواره على الأرض، ووضع اليد التي تقطر في فمه، وابتلع ما في راحة يده من سائل.

صرخت جيسيكاً: «پول!».

أمسك بيدها، مواجهاً إياها بابتسامة مريضة، واقتحم ذهنها بوعيه.

لم تكن الصلة التي انعقدت رقيقة أو تتسم بالمشاركة والاحتواء كما كان الأمر مع عالية ومع الأم الموقرة في الكهف، بيد أنها كانت صلة حقيقية: شعوراً باقتسام الكيان نفسه. زلزلتها التجربة، وأضعفها، فانكششت متكوّرة داخل ذهنها خوفاً منه.

قال بصوت عالٍ: «تحدثين عن مكان تعجزن عن دخوله؟ مكان لا تقوى الأم الموقرة على مواجهته، أريه لي».

هزّت رأسها نافية، مرتعدة من مجرد الفكرة.

صاح أمراً: «أريه لي!».

- «لا!».

غير أنها لم تستطع التملّص منه. قهرتها قوّته الرهيبة، فأغمضت عينيها وركّزت داخلياً، إلى الاتجاه المظلم. تدفّق وعي پول من حولها ثم عبرها، ومنه إلى داخل الديجور. رأت جيسिका لمحّة خاطفةً للمكان قبل أن ينغلق عقلها على نفسه من الهلع. ودون أن تعرف السبب، راح كيائها كله يرتجف من هول ما رآته. كان حقلاً تعصف به رياح ويتقدّ فيه شرر، وتتمدّد فيه حلقات من الضوء وتتقلّص، مكان تتدفّق فيه صفوف من أشكال بيضاء منتفخة فوق وتحت الأضواء وحولها، يدفعها ظلام ورياح آتيان من العدم.

في النهاية، فتحت عينيها، ورأت پول يحدّق إليها. كان ما زال ممسكاً بيدها، لكن الصّلة الرهيبة بينهما كانت قد انتهت. هدأت من روعها، ثم ترك پول يدها، فشمرت كأن عكازاً تتكئ عليه قد انتزع منها. ترنّحت بقوة وكادت تسقط لولا أن هبّت تشاني لإسنادها.

قالت تشاني: «أمنّا! ما بك؟».

همست جيسिका: «أنا متعبة.. متعبة جداً».

قالت تشاني: «تعالِي»، وساعدتها على الجلوس على وسادة قرب الجدار.

اطمأنت جيسिका لذراعي تشاني القويّتين، فتشبّثت بها. سألتها تشاني: «هل رأى ماء الحياة حقّاً؟»، وحرّرت نفسها من قبضة جيسिका.

همست جيسيكاً: «أجل رآه»، وعقلها لا يزال يحوم ويموج من دوار الاتصال. كان الأمر أشبه بالخطو على أرض صلبة بعد أسابيع من الإبحار في يَمِّ هائج. شعرت بأن الأمَّ المؤقَّرة المعجوز -وكل الأخريات- يستيقظن داخلها ويسألن: «ما هذا؟ ما حدث؟ ما ذلك المكان؟».

وفي خضم ذلك كله، أدركت أن ابنها بالفعل هو الكويزاتس هاديراك، الشخص القادر على أن يكون في أماكن عدَّة في الوقت نفسه. إنه الحقيقة الخارجة من رحم أحلام البني جيسيرت، وهذه الحقيقة لم تُرحها.

سألته تشاني: «ماذا حدث؟».

هزَّت جيسيكاً رأسها.

قال پول: «داخل كلِّ منا قوَّة قديمة تأخذ وقوَّة قديمة تمنح. لا يجد الرجل صعوبة تُذكر في مواجهة المكان الذي بداخله الذي تسكنه القوَّة الآخذة، لكن يكاد يكون من المستحيل له رؤية القوَّة المانحة دون أن يتحوَّل إلى شيء آخر ولا يعود رجلاً. بالنسبة إلى النساء، الوضع معكوس».

رفعت جيسيكاً بصرها، فوجدت تشاني تحدِّق إليها وهي تصغي إلى پول.

سأل پول: «أنفهميني يا أمَّاه؟».

لم تقو إلا على الإيماء.

قال پول: «هذه الأشياء بدائية وبالغة القدم داخلنا إلى درجة أنها راسخة في كل خلية من خلايا أجسادنا. هذه القوى تشكِّلنا. يمكنك أن تقول لي لنفسك: "أجل، يسهل عليَّ فهم كيف يمكن لشيء كهذا أن يكون"، بيد أنك حين تتظرين داخل ذاتك، وتواجهين

قوى حياتك الخام دون حجاب يحميك منها، ستفهمين خطورتها عليك، وسترين أن تلك القوى قادرة على سحقك، فأكبر خطر على الجبلية المانحة هي القوة التي تأخذ، وأكبر خطر على الجبلية الآخذة هي القوة التي تهب. يسهل الانهزام أمام العطاء مثلما يسهل الانهزام أمام الأخذ».

سألت جيسيكاً: «وأنت يا بني، هل أنت من المانحين أم الآخذين؟».

قال: «أنا نقطة الارتكاز، لا يمكنني المنح دون أخذ، ولا يمكنني الأخذ دون...»، ثم بتر عبارته ونظر إلى الجدار الذي عن يمينه. شعرت تشاني بنسمة هواء على وجنتيها، فالتفتت ورأت الستائر تغلق.

قال پول: «إنه عُثيم، كان ينصت». بتقبلها كلماته، مسَّ تشاني شيئاً من الإدراك الاستبصاري الذي يؤرِّق پول، فأدركت ما سيحدث كما لو كان قد حدث بالفعل. سيحكي عُثيم عمَّا رآه وسمعه، وسيتناقل الآخرون القصة حتى تنتشر كالنار في الهشيم. سيقولون إن پول المؤدَّب ليس كباقي الرجال، وستنتفي الشكوك. إنه رجلٌ، لكنه قادر على الرؤية عبر ماء الحياة كما ترى الأمُّ الموقرة. إنه حقاً لسان الغيب.

قالت جيسيكاً: «لقد رأيت المستقبل يا پول، هل ستخبرنا بِمَ رأيت؟».

قال پول: «لم أر المستقبل، بل الحاضر»، ثم جاهد ليمتدل جالساً، وأشار إلى تشاني كي لا تتحرَّك من مكانها حين همَّت لمساعدته: «سفن النقابة تملأ الفضاء المحيط بأراكس». ارتعدت جيسيكاً من اليقين الذي يتحدث به.

قال پول: «الإمبراطور الپاديشاه بنفسه على متن إحداها»، ونظر إلى سقف صومعته الصخري وأردف: «بصحبة عرافة الحقيقة الأثيرة إلى قلبه، وخمسة فيالق ساردوكار. البارون المعجوز فلاديمير هاركونن بالأعلى كذلك، وإلى جواره ظفير حوَّاط، وسبع سفن مكتظة عن آخرها بكل جندي استطاع حشده. كل عائلة من العائلات النبيلة لديها سفنٌ مقاتلة فوق رؤوسنا الآن... تنتظر». هزَّت تشاني رأسها، عاجزةً عن إبعاد نظرتها عن پول، وقد امتلأت رهبةً من غرابته ونبرة صوته الخافتة والطريقة التي ينظر إليها بها.

ابتلعت چيسيكا ريقها بصعوبة بسبب جفاف حلقها، وقالت: «ماذا ينتظرون؟».

نظر پول إليها: «ينتظرون أن تأذن لهم النقابة بالهبوط، فالسفينة التي تهبط على أراكس دون إذن النقابة لا تغادر سطحه إلى الأبد». سأله چيسيكا: «إذا النقابة تحميننا؟».

- «تحمينا! النقابة هي من تسبَّب في تلك الحملة بنشرها حكايات عمَّا نقوم به هنا، وبتخفيض أجرة نقل الجنود إلى أقلَّ سعر، ما سمح حتَّى لأفقر العائلات بالجلوس فوق رؤوسنا الآن في انتظار نهبنا».

لاحظت چيسيكا غياب المראה عن صوته، وتعبَّبت لهذا. لم يكن ينتابها شكٌ في صحَّة كلامه، فقد كان فيه نفس الحدة التي كانت فيه في الليلة التي كشف لها فيها عن المسار المستقبلي الذي قادهما إلى الفرمن.

أخذ پول نفسًا عميقًا وقال: «أمِّي، عليك أن تُغيِّرِي لنا بعض الماء، فسنحتاج إلى العامل المحفَّز. تشاني، أرسلِي قوَّة

استكشافية للعثور على كتلة اسپايس أولية. أتعلمين ماذا سيحدث إذا وضعنا كمية من ماء الحياة على كتلة اسپايس أولية؟»
تدبّرت جيسيكا كلماته، ثم فهمت معناها فجأة، فشهقت قائلة:
«پول!».

قال پول: «سينتج ماء الموت! وسيكون كالتفاعل المتسلسل»،
ثم أشار إلى الأرضية وأردف: «سينشر الموت بين الصّانعات الصغيرة، قاضيًا على طور دورة الحياة التي تشمل الاسپايس والديدان الصّانعة. سيصبح أراكس خرابًا حقيقيًا، بلا اسپايس أو ديدان».

غطّت تشاني فمها بإحدى يديها مصدومةً من هذا التجديف المتدفّق من بين شفّتي پول.

قال پول: «من في استطاعته تدمير شيء، يكون هو المتحكّم الحقيقي به، ونحن قادرون على تدمير الاسپايس».
همست جيسيكا: «وما الذي يكفّ يد النقابة؟».

قال پول: «إنهم يبحثون عني، فكّري في ذلك! أفضل ملاحٍ النقابة، أولئك الرجال القادرين على سبر أغوار الزمن للعثور على أمن المسارات الفضائية كي تسلكها سفن الهايلاينر السريعة، كلهم يبحثون عني لكنهم عاجزون عن إيجادني، فأني خوفٍ يرجف قلوبهم! إنهم يعرفون إن سرّهم في حوزتي!»، ورفع پول يده المضمومة وأردف: «من دون الاسپايس هم عميان!».
استطاعت تشاني التحدّث: «قلت إنك ترى الحاضر!».

استلقى پول إلى الراء، باحثًا في الحاضر المنتشر الذي تمتدّ حدوده لتلمس المستقبل والماضي، محاولًا -بصعوبة- الحفاظ على بريق وعيه الاستبصاري مع خضوت وانسحاب إشرافة

قال لها: «اذهبي وافعلي كما أمرتك، فالمستقبل يزداد ضبابيةً أمامي وأمام النقابة. مجالات الرؤية تضيق، وكل شيء يتركز هنا حيث يوجد الاسپايس، حيث لم يجرؤوا على التدخُّل من قبل، لأن تدخُّلهم يعني خسارتهم لما يجب أن يحصلوا عليه. لكنهم الآن مستميتون ويائسون، فكل الطرق نهايتها ظلام دامس».

ثم بزغ فجر اليوم الذي صار فيه أراكس محور
عجلة الكون، واستعدت العجلة للدوران.
من كتاب «صحوة أراكس» للأميرة إيrolان.

همس ستيلجار: «انظر إلى حجم هذا الشيء!».

كان پول مستلقياً إلى جواره داخل شقٍّ صخري طولي مرتفع
على حافة الجدار الحامي، وعينه ثابتة على عدسة تلسكوب
فرمني. كانت العدسة الزيتية مركزة على مركبة فضائية خفيفة
مكتوفة في ضوء الفجر في الحوض أسفلهم. كان جانب السفينة
المواجه للشرق يتلألأ في ضوء الشمس الباهت، أمّا الجانب
المواجه للظل فبدت فيه فتحات صفراء تظهر منها كرات الإنارة
الليلية. خلف المركبة، قبعّت مدينة أراكين باردة ومتألّثة في
ضوء الشمس الشمالية.

علم پول أن ما أثار انبهار ستيلجار لم يكن المركبة الخفيفة، بل
المنشأة العسكرية، التي لم تكن المركبة سوى قطعنها المركزية.
المعسكر المعدني الكبير، الذي يرتفع طوابق عدّة، ويمتدّ في
دائرة طولها ألف متر من قاعدة المركبة. الخيمة المكوّنة من
صفائح معدنية متشابكة، التي تشكّل مقرّ الإقامة المؤقت لخمسة
جحافل ساردوكار ولجلالته، الإمبراطور الپاديشاه شادام الرّابع.
من موقعه إلى يسار پول، قال جيرني هاليك: «عددت تسعة
طوابق، لا بُدّ أن المعسكر يأوي عدداً كبيراً من السّاردوكار».
قال پول: «خمسة فيالق».

همس ستيلجار: «نور الصبح آخذ في الازدياد. لا نحب كشفك
لموقعك هكذا يا مؤدّب. لتتوار الآن بين الصخور».

قال پول: «أنا بأمان تام هنا».

قال جيرني: «هذه السفينة مسلّحة بأسلحة مقذوفات».

قال پول: «يظنّون أننا نرتدي دروع الطاقة. لن يهدروا رصاصة واحدة على ثلاثي مجهول حتّى لو رأونا».

حرّك پول التلسكوب ليمسح جدار الحوض البعيد، فرأى الجروف الصخرية المنخرية، والانهيّارات التي تحوي خلفها قبور كثير من جنود أبيه، وانتابه إحساسٌ مؤقتٌ باكتمال الدائرة، وبأن أرواح أولئك الرجال تنظر إليهم في هذه اللحظة. لقد وقعت كل حصون وبلدات الهراكنة في قبضة الفرمن، أو حُوصرت وحُرمت من الإمدادات، فصارت كسيقان نباتٍ قطعت وتركت لتذبل. لم يبق للعدو إلا هذا الحوض ومدينته.

قال ستيلجار: «قد يقدمون على طلعة جويّة بإحدى الثوبترات إن رأونا».

قال پول: «دعهم يفعلون ذلك، لقد أدّخرنا ثوبترات كثيرة لهذا اليوم... كما نعلم أن هناك عاصفة تقترب».

ثم أدار التلسكوب إلى طرف مهبط ميناء أراكين البعيد، إلى فرقاطات الهراكنة المصطفّة هناك، التي ترفرف أسفلها رايات شركة تشوم من سارياتها المغروسة في الأرض. وفكّر في مدى اليأس الذي وصلت إليه النقابة الذي أجبرها على السماح لهاتين المجموعتين بالهبوط، والحفاظ على باقي القوّات في الفضاء. كانت النقابة أشبه برجل يختبر الرمال بإصبع قدمه ليحسّ حرارتها قبل أن ينصب خيمته.

سأل جيرني: «هل من جديد يمكن رؤيته من هنا؟ علينا الاحتماء، فالعاصفة تقترب».

أعاد پول اهتمامه إلى المنشأة العسكرية العملاقة، وقال:
«لقد أحضروا نساءهم معهم، وخدمهم وحشمهم. آه يا عزيزي
الإمبراطور، يا لثقتك بنفسك!».

قال ستيلجار: «أحدهم قادم عبر الطريق السري، ربّما عاد
عُثيم وكُربة».

قال پول: «حسنًا يا ستيل، سنعود».

لكنه ألقى نظرة أخيرة عبر التلسكوب، فاحصًا البطحاء التي
تربض فيها سفن حربية طويلة، والمعسكر المعدني المتألئ،
والمدينة الصامتة، وفرقاطات مرتزقة الهراكنة. ثم انزلق إلى
الخلف هابطًا عبر منحدر صخري، وأخذ مكانه على التلسكوب
أحد الفدائيين.

بلغ پول وهدةً ضحلةً على سطح الجدار الحامي، منخفضًا
أرضيًا يبلغ قطره نحو ثلاثين مترًا، وعمقه نحو ثلاثة أمتار،
تكوينًا صخريًا طبيعيًا أخفاه الفرمن بغطاء مموّه شبه شفاف.
تجمّعت معدات الاتصالات حول حفرة في الجدار ناحية اليمين.
كان الحرس الفدائيون منتشرين في أرجاء المنخفض ينتظرون
أمر المؤدّب بالهجوم.

خرج رجلان من الحفرة بالقرب من أجهزة الاتصالات وتحديثًا
إلى الحرس الواقفين هناك.

نظر پول إلى ستيلجار، وأومأ برأسه في اتجاه الرجلين وقال:
«تلقّى تقريرهما يا ستيل».

تحرك ستيلجار لتنفيذ أمره.

ربض پول وظهره إلى الصخرة، وشدّ عضلاته، ثم اعتدل.
شاهد ستيلجار يرسل الرجلين مجددًا عبر الحفرة المظلمة في

الصخرة، وفكّر في الهبوط الطويل عبر ذلك النفق الضيق المؤدّي إلى قاع الحوض الذي حفروه.
اقترب ستيلجار من پول.

سأله پول: «ما الأمر البالغ الأهمية الذي فضّلاً عدم إرساله في رسالة سيلاجو؟».

قال ستيلجار: «إنهما يدخّران طيورهما للمعركة»، ثم ألقى نظرة إلى معدّات الاتصالات، وعاد إلى پول. «حتّى لو كانت موجات تلك الأجهزة مكثّفة يا مؤدّب، فمن الخطر استخدامها. يمكنهم العثور على مكانك عن طريق تحديد اتّجاه موجاتها». قال پول: «قريباً سينشغلون تماماً عن البحث عني. بِمَ أفاد الجنديين؟».

- «أطلقنا سراح جنديي السّاردوكار اللذين نحتجزهما على الحافة المنخفضة قرب الفلق القديم، وهما في طريقهما الآن إلى سيّدهما. قاذفات الصواريخ وأسلحة المقذوفات الأخرى في أماكنها، والجنود انتشروا كما أمرت. مجرّد تقرير روتيني». نظر پول في أرجاء التجويف الضحل، وتأمّل رجاله في الضوء الخافت المتسرّب عبر غطاء التمويه. شعر بدبيب الوقت يزحف كحشرة تشقّ طريقها عبر صخرة مكشوفة.

قال پول: «سيستغرق جنديا السّاردوكار اللذين أطلقنا سراحهما بعض الوقت مشياً على الأقدام قبل أن يتمكّنّا من التلويح لإحدى حاملات الجنود. هل هما مراقبان؟».

قال ستيلجار: «إنهما تحت المراقبة».

من مكانه جوار پول، تنحنح جيرني هاليك قائلاً: «أليس من الأفضل أن نلجأ إلى مكان آمن؟».

قال پول: «لا مكان آمن. هل تقرير الطقس ما زال مبشراً؟».

قال ستيلجار: «عاصفة هائلة تقترب. ألا تشعر بها يا مؤدّب؟».

قال پول: «الهواء يُنبئُ بها بالفعل، لكنني أحب اليقين المستمد من قراءة أوتاد الرياح».

قال ستيلجار: «ستضرب العاصفة في غضون ساعة»، وأوماً نحو الفجوة المطلّة على معسكر الإمبراطور وفرقاطات الهراكنة وأضاف: «هم أيضاً يعلمون ذلك، فلا أثر لثوبتر في السماء، وكل شيء على الأرض محزوم ومربوط. لقد تلقّوا تقريراً عن الطقس من أصدقائهم الرابضين في الفضاء».

سأله پول: «هل رصدتم أي طلعات استطلاعية أخرى؟».

قال ستيلجار: «لا شيء منذ هبوطهم الليلة الماضية. إنهم يعلمون بوجودنا هنا، وأظن أنهم ينتظرون الآن اختيار اللحظة المواتية للهجوم».

قال پول: «نحن من سيختار اللحظة المواتية».

رفع جيرني بصره نحو السماء، وقال متذمّراً: «إن أعطونا الفرصة».

قال پول: «سيبقى الأسطول في الفضاء».

هزّ جيرني رأسه.

قال پول: «ليس لديهم خيار. بإمكاننا تدمير الاسپايس. لن تجرؤ النقابة على المخاطرة بذلك».

قال جيرني: «اليائسون هم أخطر الناس».

سأله ستيلجار: «أولسنا يائسين؟».

عبس جيرني في وجهه.

نُبَّهه پول: «أنت لم تعش حلم الفرمن. ستيل يفكر في كل الماء الذي أنفقناه على الرُشى، في سنوات الانتظار الإضافية التي زادت جراء ذلك قبل ازدهارة لأرأكس. إنه لا...».. زمجر جيرني عابسًا.

سأل ستيلجار: «لِمَ هو مفتّم هكذا؟».

قال پول: «دائمًا ما يفتّم جيرني قبل المعارك. إنه الحسُّ الفكاهي الوحيد الذي يسمح به لنفسه».

شاعت ابتسامة وحشية في وجه جيرني بدا منها بياض أسنانه: «ما يفمّني هو التفكير في أرواح أولئك الهراكنة المساكين التي سنزهدقها قبل أن تتوب».

قهقه ستيلجار: «إنه يتكلّم كالضدائيين».

قال پول: «وُلِد جيرني مغوارًا»، وفكّر: أجل، فليشغلا ذهنيهما بخفيف الكلام قبل أن نختبر صلابة معدننا أمام تلك القوّة القابعة في البطحاء، ثم ألقى نظر عبر الفجوة في الجدار الصخري وعاد إلى جيرني، ووجد أن المحارب التروبادور قد استأنف عبوسه.

غمغم پول: «القلق يستنزف القوّة، أنت من أخبرني بهذا يومًا يا جيرني».

قال جيرني: «ما يقلقني يا مولاي الدوق هي فكرة لجوئنا إلى الأسلحة الذريّة. إن استخدمت الأسلحة الذرية لفتح ثغرة في الجدار الحامي ف...».

قاطعه پول قائلاً: «لن يجرؤوا على استخدام أسلحتهم الذريّة ضدّنا، لنفس السبب الذي يجعلهم غير قادرين على المخاطرة بتدميرنا مصدر الاسپايس».

- «ولكن أمر المنع...».

مكتبة
t.me/t_pdf

صاح پول: «أمر المنع! ما يمنع العائلات النبيلة من قصف بعضها بعضًا بالأسلحة الذرية هو الخوف لا أمر المنع. نصُّ المعاهدة الكبرى واضح تمامًا: "عقوبة استخدام الأسلحة الذرية ضد أهداف بشرية هي محو الكوكب". ونحن سنستخدمها لتفجير الجدار الحامي لا البشر».

قال جيرني: «الشعرة الفاصلة بينهما رفيعة جدًا».

قال پول: «المُدَقَّقون المُوسَّسون أعلنوا سيرحُبون بأيِّ شعرة»، وأشاح بوجهه بعيدًا متمنيًا لو أنه يَشعر بهذه الثقة فعلًا، ثم قال بعد هنيهة صمت: «ماذا عن سكَّان المدينة. هل اتَّخذوا مواقفهم بعد؟».

غمغم ستيلجار: «أجل».

نظر پول إليه: «ما الذي يورِّقك؟».

قال ستيلجار: «لست مع الثقة التامة في سكَّان المدن».

قال پول: «أنا نفسي كنت من سكَّان المدن يومًا».

- «تعرف أنني لم أقصد يا مؤدَّب...».

- «أعرف ما قصدته يا ستيل. لكن الاختبار الحقيقي لمعدن

الإنسان لا يكمن في ما تظن أنه سيفعل، بل في ما يفعل بالفعل. في عروق سكَّان المدينة هؤلاء تجري دماء الفرمن، كل ما في الأمر أنهم لم يتعلَّموا بعد كيفية التحرُّر من قيودهم. لكننا سنعلِّمهم».

أومأ ستيلجار وقال بنبرة حزينة: «إنها عادات اكتسبها المرء طوال حياته، فعلى السهل الجنائزي تعلَّمنا أن نحتقر سكَّان الحضر».

ألقي پول نظرة إلى جيرني، فوجده يدقُّق في ستيلجار.

- «أخبرنا يا جبرني، لماذا طرد السَّارِدوكار سَكَّان المدينة من منازلهم؟».

- «إنها حيلة قديمة يا مولاي. ظنُّوا أنهم بهذا يثقلون كاهلنا باللاجئين».

قال پول: «لقد مرَّ زمنٌ طويلٌ منذ أن كانت حروب العصابات مؤثِّرة، حتَّى أن الجبابرة نسوا طرائق قتالها. لقد ارتكب السَّارِدوكار أمورًا كثيرةً أضرتَّ بهم وصبَّت في مصلحتنا. أسروا بعضًا من نساء المدن للترفيه عن أنفسهم، وزينُوا راياتهم الحربية برؤوس الرجال الذين عارضوهم، وأذكوا الكراهية في نفوس أناس كانوا بغير هذا سينظرون إلى المعركة القادمة على أنها مجرد مصدر إزعاج لهم، وظرف عابرٍ يحتمل معه أن تحلَّ مجموعة من السَّادة محل أخرى. السَّارِدوكار ساعدونا في تجنيد الناس يا جبرني».

قال ستيلجار: «سكان المدينة يبدوون متلهِّفين للمعركة بالفعل».

قال پول: «الكراهية فيهم طازجة وواضحة، لهذا السبب نستخدمهم كقوات طليعة».

قال جبرني: «المذبحة التي سيتعرَّضون لها ستكون مفعجة»، فأوماً ستيلجار موافقًا.

قال پول: «لقد أخبرناهم بالعواقب، وهم يعرفون أن كل سارِدوكار سيقتلونه سيخفَّف عنا الضغط. لقد صار لهم هدف يموتون من أجله يا سادة. لقد اكتشفوا أنهم شعب، وبدؤوا صحتهم».

صدرت غمغمة تعجُّب من المراقب عند التلسكوب، فتحرَّك پول إلى الشقِّ الصخري وسأل: «ماذا ترى؟».

همس المراقب: «ضجَّة كبيرة عند الخيمة المعدنية العملاقة يا مؤدِّب. جاءت مركبة أرضية مسرعة من ناحية حافَّة الجدار

الغربية، فساد الهرج والمرج كأن صقراً انتقض على عُش طيور
حجل».

قال پول: «ها قد وصل أسيرينا».

قال المراقب: «لقد أحاطوا المهبط برمته الآن بدرع طاقة.
أرى الهواء يتراقص حتّى نهاية ساحة التخزين حيث يحتفظون
بالاسپایس».

قال جيرني: «الآن يعرفون حقيقة من يقاتلون. دع وحوش
الهراكنة يرتجفون، دع الرعب ينهش صدورهم حين يكتشفون أن
سلالة آل أتريديز لم تمت بعد!».

قال پول للفدائي القائم على التلسكوب: «راقب سارية العلم
أعلى سفينة الإمبراطور، إن رُفعت رايتي عليها...».

قال جيرني: «هذا لن يحدث».

لاحظ پول العبوس الحائر على وجه ستيلجار فقال: «إذا
اعترف الإمبراطور بحقيّ في الكوكب، فسيشير إلى ذلك بإعادة
رفع الراية الآتريديزية على أراكس. إن فعل هذا سننفذ الخطّة
الثانية، وسنهاجم الهراكنة فحسب. لن يتدخل السّاردوکار،
وسيتركوننا نصفّي المسألة في ما بيننا».

قال ستيلجار: «لا خبرة لي في هذه السياسات الأجنبية. لقد
سمعت بها، لكن يبدو من غير المرجّح أن...».

قال جيرني: «لا تحتاج إلى خبرة لتعرف ما سيفعلونه».

قال المراقب: «إنهم يرفعون علماً جديداً على السفينة الكبيرة.
العلم لونه أصفر... وفي مركزه دائرة سوداء وحمراء».

قال پول: «تفكيرٌ ذكيّ. علم شركة تشوم».

قال الحارس الفدائي: «إنه نفس العلم الذي ترفعه السفن الأخرى».

قال ستيلجار: «لا أفهم».

قال جيرني: «تفكيرٌ ذكيٌّ بالفعل، فلو كان قد رفع الراية الآتريديزية، لأرغم على قبول ما يعنيه هذا مع كثرة الشهود. من ناحيةٍ أخرى كان بإمكانه رفع راية الهراكنة، وهو ما كان سيُعدُّ إعلان حرب صريح. ولكن لا، لقد رفع راية شركة تشوم، وهو بهذا يخبر من بالأعلى...»، وأشار جيرني إلى الفضاء: «أنه في صفِّ الريح. إنه يعلن صراحة بأنه لا يهتم إن كان الموجود هنا آتريديزي أم لا».

سأل پول: «كم تبقى قبل أن تضرب العاصفة الجدار الحامي؟». استدار ستيلجار مبتعداً، وتشاور مع أحد الفدائيين في التجويف، ثم عاد يقول: «قريباً جداً يا مؤدّب، أقرب ممَّا ظننا. إنها عاصفةٌ عاتيةٌ، ربَّما أعتى ممَّا كنت تريد».

قال پول: «إنها عاصفتي»، ولاحظ الصَّمت المنبهر على وجوه الفدائيين الذين سمعوه: «حتَّى لو هزَّت الكوكب بأسره، فلن تكون أعتى ممَّا كنت أريد. هل ستضرب الجدار الحامي مباشرة؟». قال ستيلجار: «ستكون قريبةٌ جداً بما لا يشكُّ فارقاً».

جاء ساع برسالة من الحفرة التي تقود إلى الحوض: «دوريات السَّاردوكار والهراكنة تتراجع يا مؤدّب».

قال ستيلجار: «إنهم يتوقَّعون أن تسكب العاصفة رمالاً كثيرة إلى الحوض ستعذَّر معها الرؤية، ويظنُّون أننا سنقع في الورطة نفسها».

قال پول: «أخبر رجال مدفعيتنا أن يضعوا نصب أعينهم على

أهدافهم قبل أن تتمدّد الرؤية. عليهم أن يصيبوا مقدّمة كل واحدة من تلك السفن ما إن تدمّر العاصفة دروع الطاقة». ثم تحرّك إلى جدار التجويف الصخري، وأزاح طيّة من غطاء التمويه ونظر إلى السماء. رأى هبّات الرمال الملتوية كذيول الخيل على خلفية السماء القاتمة. أعاد پول الغطاء إلى مكانه وقال: «ابدأ إرسال رجالنا إلى أسفل يا ستيل».

سأله ستيلجار: «ألن تأتي معنا؟».

قال پول: «سأنتظر هنا قليلاً مع الفدائيين».

هزّ ستيلجار كتفيه إلى جيرني في تفهّم، وتحرّك إلى الحفرة في الجدار الصخري، وغاب في ظلامها.

قال پول: «سأترك لك الزناد الذي سيفجّر جانباً من الجدار الحامي. هل ستفعلها؟».

- «سأفعلها».

أشار پول إلى أحد ضبّاط الفدائيين: «عُثيم، ابدأ تحريك دوريات التفتيش بعيداً عن منطقة الانفجار، عليهم الخروج من هناك قبل أن تضرب العاصفة».

انحنى الرجل وتبع ستيلجار.

مال جيرني على الشق الصخري، وتكلّم إلى القائم على التلسكوب: «ركّز انتباهك على الجدار الجنوبي. سيظل بلا دفاعات حتّى نفجّره».

أمر پول: «أرسل سييلاجو بإشارة التوقيت».

قال المراقب: «بعض المركبات الأرضية تتحرّك نحو الجدار الجنوبي، وبعضها يجربّ استخدام أسلحة مقذوفات. رجالنا يستخدمون الدروع الجسدية كما أمرت. المركبات الأرضية

في الصمت المفاجئ الذي تلى ذلك، سمع پول شياطين الرياح تحوم فوق الرؤوس: إنها إرهابات العاصفة. بدأت الرمال تنجرف إلى تجويفهم عبر الفتحات الموجودة في الغطاء، ثم هبت ريح مفاجئة انتزعت الغطاء بعيداً.

أشار پول لفدائييه بالاحتماء، واتجه إلى الرجال الجالسين أمام أجهزة الاتصالات قرب فوهة النفق، وظلّ جيرني ملازمًا له. ربض پول إلى جوار رجال الإشارات اللا سلكية. قال أحدهم: «ما أعتاها من عاصفة يا مؤدّب!».

رفع پول بصره إلى السماء المعتمة وقال: «جيرني، أعط أمراً لمراقبي الجدار الجنوبي بالانسحاب». واضطر إلى تكرار أمره، رافعاً صوته فوق ضجيج العاصفة المتزايد. استدار جيرني لتنفيذ الأمر.

أحكم پول وضع قناع الوجه، وشدّ أربطة قلنسوة البذلة. عاد جيرني.

لمس پول كتفه، وأشار إلى المضجّر الموضوع عند فتحة النفق خلف رجال الإشارة. دخل جيرني النفق، ووقف هناك واضعاً يده على الزناد، مثبتاً بصره على پول.

قال رجل الإشارة القريب من پول: «لا نتلقّى أيّ رسائل. التشويش الاستاتيكي كبير».

أوماً پول، وأبقى عينه على عدّاد التوقيت القياسي أمام رجل الإشارة. بعد هنيهة، نظر پول إلى جيرني ورفع يده، وأعاد انتباهه إلى العدّاد الزمني الذي كان يدور دورته الأخيرة. صاح پول: «الآن»، وأنزل يده.

ضغط جبرني زناد المفجّر.

بدا أن ثانية كاملة مرّت قبل أن يشعروا بزلزلة الأرض واهتزازها أسفل أقدامهم، ودوى هديرٍ آخر أضيف إلى زئير العاصفة. ظهر المراقب الفدائي إلى جوار پول حاملاً التلسكوب تحت ذراعه، وصاح: «اخترق الجدار الحامي يا مؤدّب! العاصفة تجتاحهم، ورجال مدفعيّتنا بدؤوا القصف بالفعل». تخيّل پول العاصفة وهي تجتاح الحوض، وتخيّل الشحنة الاستاتيكية التي يحملها جدار الرمال مدمراً كل دروع الطاقة في معسكر الخصم.

صاح أحدهم: «العاصفة! علينا الاحتماء يا مؤدّب!».

عاد پول إلى صوابه، شاعراً بإبر الرمال تلدغ وجنتيه المكشوفتين، وفكّر: نحن ملتزمون بما بدأناه، ثم وضع ذراعه حول كتف رجل الإشارة وقال: «اتركوا المعدات! المزيد منها في النفق»، ثم شعر بأنه يُجر إلى الخلف، وبالفدائيين يحيطون به ليحمونه، ثم انحشروا في فوهة النفق، مستشعرين الصّمت النسبي داخله، ثم أخذوا منعطفاً ودخلوا إلى حجرة صغيرة تطفو فيها كرات إنارة، وفي نهايتها فتحة نفق آخر.

جلس رجل إشارة آخر في النفق أمام معدّاته.

قال الرجل: «التشويش الاستاتيكي كبير».

ملأت دوّامة رملية الهواء من حولهم.

صاح پول: «اعزلوا هذا النفق!». ساد صمتٌ مفاجئ بعد

صيحته فعلم أنهم تحرّكوا لتنفيذ أمره.

سأل پول: «أما زال الطريق الهابط إلى الحوض مفتوحاً؟».

ذهب فدائي للتقصّي، وعاد يقول: «تسبّب الانفجار في سقوط بعض الصخور، لكن المهندسين يقولون إنه ما زال مفتوحًا. إنهم يكسحون الانهيار بأشعة الليزر».

زمجر پول: «قل لهم أن يستخدموا أيديهم! ثمة دروع طاقة نشطة بالأسفل!».

قال الرجل: «إنهم حريصون يا مؤدّب»، لكنه أسرع لإطاعة الأمر. مرّ بهم رجال إشارة كانوا في الخارج حاملين معدّاتهم. قال پول: «قلت لأولئك الرجال أن يتركوا معدّاتهم!».

قال أحد فدائييه معاتبًا: «الفرمن لا يحبّون التخلّي عن معدّاتهم يا مؤدّب».

قال پول: «الرجال أهم من المعدّات الآن. قريبًا إمّا سيكون لدينا معدّات تفوق احتياجنا وإمّا لن نحتاج إلى معدّات على الإطلاق».

اقترب منه جيرني هاليك وقال: «سمعتهم يقولون إن طريق الهبوط مفتوح. نحن قريبا من السطح أكثر من اللازم يا سيّدي في حال أن حاول الهراكنة ردّ الضربة».

قال پول: «موقفهم لا يسمح لهم بردّ الضربة. لقد اكتشفوا لتوهم أنهم تجرّدوا من دروعهم، وأنهم عاجزين عن مغادرة أراّكس».

قال جيرني: «على أيّ حال، كل شيء جاهز في مركز القيادة الجديد سيّدي».

قال پول: «إنهم لا يحتاجون إلّي في مركز القيادة بعد، الخطّة ستسير من دوني. علينا انتظار ال...».

قال رجل الإشارة الجالس أمام أجهزة الاتصالات: «أتلقي رسالة يا مؤدّب». ثم هزّ رأسه، ضاعطاً سماعة جهاز الاستقبال على أذنه، وقال: «التشويش الاستاتيكي كبير!». وبدأ يخطُّ كلمات على لوح أمامه وهو يهزّ رأسه، ثم ينتظر، ثم يعود فيكتب... ثم ينتظر.

اقترب پول من رجل الإشارة، فتراجع الفدائيون مفسحين له المجال، ونظر إلى ما كتبه الرجل وقرأ:

- «غارة... على سييتش تابر... أسرى... عالية ()... عائلات (ال) موتى... لقد () ابن المؤدّب...».

هزّ رجل الإشارة رأسه مجدداً.

رفع پول بصره فوجد جيرني يحدّق إليه.

قال جيرني: «الرسالة مشوّهة بسبب التشويش. لا يمكنك التأكد من أن...».

قال پول: «ابني مات»، وتأكد وهو يلفظها من أنها الحقيقة. «ابني مات... وعالية أخذت... رهينة». شعر بفراغ هائل يملؤه، كأنه صار هيكلًا أجوف بلا عواطف. كل شيء يلمسه يصيبه الموت والأسى. إنه كمرض قد ينتشر في أرجاء الكون كله.

شعر بحكمة الشيوخ تثقله، وبتراكم خبرات من حيوات أخرى محتملة لا حصر لها. وبدأ شيءٌ بداخله يضحك ويفرك يديه استعداداً.

وفكّر پول: ما أضأل ما يعرفه الكون عن طبيعة القسوة الحقيقية.

ووقف المؤدّب أمامهم وقال: «على الرغم من أننا نحسب الأسير ميّناً، فهي ما زالت حيّة، إذ إن بذرتها بذرتي، وصوتها صوتي، وبصرها ينفذ إلى أبعد حدود الممكنات. أجل، إنها تبصر حتّى الوادي المجهول، لأنها منّي».

من كتاب «صحوة أراكس» للأميرة إيrolان.

وقف البارون فلاديمير هاركونن منكّس الرأس في قاعة الاستقبال الإمبراطورية، ذلك السلامك البيضاء داخل خيمة معسكر الإمبراطور. بنظرات مختلصة، راح البارون يتفحص الغرفة ذات الجدران المعدنية وشاغليها: الضباط النواكر، والفلمان الخدم، والحرس، وجنود الساردوكار المصطفين على امتداد الجدران عاقدين أيديهم وراء ظهورهم أسفل رايات المعارك الدموية الممزّقة التي أسروها، والتي كانت تظهر الزينة الوحيد في القاعة.

تعالّت أصوات من يمين القاعة، وتردّد صداها من جنبات ممرّ مرتفع: «افسحوا الطريق! افسحوا الطريق لجلالته».

خرج الإمبراطور الهاديشاه شادام الرابع من الممر إلى قاعة الاستقبال متبوعاً بحاشيته، ووقف ينتظر إحضار عرشه متجاهلاً البارون وكل من في القاعة. أمّا البارون فعجز عن تجاهل جلالته، وراح يتطلّع إلى الإمبراطور بحثاً عن إشارة، عن علامة تدلّه على الفرض من هذه الاستدعاء. وقف الإمبراطور ينتظر مشدود القامة، تبدو هيئته النحيلة أنيقة في زيّ الساردوكار الرمادي المزخرف بالفضي والذهبي. ذكرّ وجهه النحيف وعيناه الباردة

البارون بالدوق ليتو الراحل منذ زمن طويل. كان يتمتع بذات الملامح الصقرية الحادة، لكن شعر الإمبراطور كان أحمر، لا أسود، وقد احتجب معظمه أسفل خوزة بورسيج بلون الأبنوس يزيّن قمّتها شعار الإمبراطور الذهبي.

أحضر الخدم الغلمان العرش. كان كرسياً عملاقاً منحوتاً من قطعة واحدة من حجر كوارتز حجال، لونه أزرق مخضر نصف شفاف، تتخلّله عروق صفراء نارية. وُضع العرش على المنصّة، فاعتلاها الإمبراطور وجلس عليه.

انفصلت عن حاشية الإمبراطور امرأة عجوز ترتدي عباءة سوداء وتسدل قلنسوتها على جبهتها، واتّخذت مكاناً لها خلف العرش، ساندةً يدها على ظهره المصنوع من المرو. كان وجهها المطلّ من أسفل قلنسوتها أشبه بصورة كاريكاتورية لساحرة: وجنتان غائرتان، وأنفٌ بالغ الطول، وبشرة مبقّعة بارزة العروق. هدأ البارون من روعه حين رآها. إن حضور الأمّ الموقّرة جايس هيلين موهيم، عرّافة الحقيقة الإمبراطورية، كشف له أهمّية هذا اللقاء. أشاح البارون ببصره عنها، وراح يتأمّل باقي الحاشية بحثاً عن دليل يفهمه. كان في القاعة اثنان من عملاء النقابة، أحدهما طويل وبدين، والآخر قصير وبدين، عينا كليهما رماديتان عليلتان. ووسط الأتباع، وقفت إحدى بنات الإمبراطور، الأميرة إيرولان، المرأة التي يُقال إنها تتلقّى أعرق تدريبات البني چيسيرت طرّاً، وإن من المقدّر لها أن تصبح أمّاً موقّرة. كانت طويلة وشقراء، ذات وجه جميل منحوت الملامح، وفي عينيها الخضراوين نظرة شاردة اخترقته دون أن تراه.

- «باروني العزيز».

تكرّم الإمبراطور أخيراً ولا حظ وجوده. كان صوته جهورياً منضبط النبرة، نجح في تجاهله وهو يرحّب به. انحنى البارون، وتقدّم إلى الموقع المتعارف عليه، على بُعد عشر خطوات من المنصة: «جئت بناءً على استدعاء جلالتك». فوقأت السّاحرة العجوز: «استدعاء!».

عاتبها الإمبراطور قائلاً: «على رسلك أيّتها الأمّ الموقرة»، لكنه ابتسم لارتباك البارون، ثم أردف: «أريدك أن تخبرني أولاً أين أرسلت تابعك ظفير حواط».

تلّفت البارون عن يمينه وعن شماله، لاعناً نفسه على مجيئه إلى هنا دون حرسه الشخصي، ليس لأنهم سيكونون نافعين أمام السّاردوكار، وإنّما...

قال الإمبراطور: «ها؟».

- «لقد اختفى هذه الأيام الخمسة يا صاحب السمو. كان من المفترض أن يهبط في قاعدة للمهرّبين ويحاول التسلّل إلى هذا الفرمني المتطرّف الذي يدعى المؤدّب».

قال الإمبراطور: «غير معقول!».

نقرت السّاحرة على كتف الإمبراطور بيدها المخبّية، ومالت عليه، هامسةً في أذنه.

أوما الإمبراطور، وقال: «خمسة أيّام أيّها البارون. أخبرني، لمّ لا أراك قلقاً لغيابه؟».

- «أنا قلقٌ بالفعل يا صاحب الجلالة!».

واصل الإمبراطور تحديقَه إليه، منتظراً. أطلقت الأمّ الموقرة ضحكة مقوّنة.

قال البارون: «ما قصدته يا صاحب الجلالة أن حواط سيلقى

حتفه خلال ساعات على أيّ حال»، وأخبره عن السُّمِّ الكامن في جسده، وعن حاجته إلى الترياق باستمرار.

قال البارون: «يا لك من داهية أيُّها البارون! وأين ابنا أخيك، رابان والشاب هيد راوثا؟».

- «العاصفة تقترب يا صاحب السمو. أرسلتهما لتفقد محيطنا خشية هجوم الفرمن تحت غطاء الرمال».

قال البارون: «محيطنا»، خرجت الكلمة من فمه كأنها ممضوغة: «العاصفة لن تضرب بقوة هنا في الحوض، والفرمن الرعاع لن يهاجموا وأنا هنا بصحبة خمسة فيالق ساردوكار». قال البارون: «قطعاً لا يا صاحب السمو. لكن لا ضير من الاحتياط، ولا تثريب عليه».

قال الإمبراطور: «آها، تثريب. عليّ إذا ألاّ أتحدث عمّا يستهلكه هذا الهراء الأراكسي من وقتي، أليس كذلك؟ ولا عن أرباح شركة تشوم التي نضيّعها على حفرة الفئران هذه؟ ولا عن مهام البلاط وشؤون الدولة التي اضطرتت إلى تأجيلها - بل وإلغائها - بسبب هذا الشأن الغبي؟».

خفض البارون بصره خوفاً من غضبة الإمبراطور، وأقلقته حساسية موقفه: وحيداً، لا يعتمد إلّا على المعاهدة الكبرى وقانون حصانة النبلاء. سأل البارون نفسه: هل ينوي قتلي؟ لن يجرؤا ليس والعائلات النبيلة الأخرى رابضة في الأعلى وتبحث عن أيّ عذر للاستفادة من هذا الاضطراب الدائر على أراكس. سأله الإمبراطور: «هل أخذت رهائن؟».

قال البارون: «لا فائدة من هذا يا صاحب الجلالة، فهؤلاء

الفرمن المجانين يقيمون مراسم دفن لكل أسير، ويتصرفون كأنه قد مات بالفعل».

قال الإمبراطور: «لذلك؟».

تأنى البارون قبل أن يرد، ناظرًا عن يمينه وعن شماله إلى جدران السلامك المعدنية، مفكرًا في الخيمة العملاقة المصنوعة من المعدن المطواع المحيطة به، وما تمثله من ثروة لا محدودة أبهرته هو نفسه. فكر البارون: إنه يجز وراءه خدمًا، وعددًا كبيرًا من أتباعه، ونساءه ووصيفاتهن: مصنفات الشعر، ومصنمات الأزياء، وغيرهن... كل طفيليات البلاط الإمبراطوري الهامشية. الجميع هنا، وكما هو الحال دائمًا، يتملقون، ويتآمرون، ويكيدون، و«يشاركون المشقة» مع الإمبراطور. لقد أتى بهم كي يشاهدوه وهو ينهي هذه المسألة، وكي يخلدوا المعمار في قصائد، ويمجدوا الجرحى، ويكونوا شهودًا على التاريخ.

قال البارون: «رُبَّما لم تسع إلى أسر النوع المناسب من الرهائن».

فكر البارون: إنه يعرف شيئًا. استقرَّ الخوف في بطنه كالحجر، ولم يحتمل معه التفكير في الأكل. ومع ذلك، كان شعوره أشبه بجوع، وراح على إثره يؤرجح وزنه متململاً على مضادات الجاذبية موشكًا على إعطاء أمر بإحضار الطعام، لكن لم يكن يُوجد أحدٌ هنا لتلبية أمره.

سأله الإمبراطور: «ألديك فكرة عن هوية هذا المؤدّب؟».

قال البارون: «واحد من الأمة * بالتأكيد. فرمني متعصب، متطرفٌ ديني. أمثاله يظهرون بانتظام على تخوم الحضارة المدنية. جلالتك تعرف ذلك».

نظر الإمبراطور إلى عرّافته كاشفة الحقيقة، وعاد ليعبس في وجه البارون: «وليس لديك معلومات أخرى عن هذا المؤدّب؟».

قال البارون: «إنه مجرد مجنون، ولكن كل الفرمن مجانيين إلى حدّ ما».

- «مجنون؟» -

- «يصرخ رجاله باسمه وهم يندفعون إلى المعارك، وتلقي النساء بأطفالهن علينا ويقذفن بأنفسهن على سكاكيننا ليفتحن ثغرة أمام رجالهن ليهجموا علينا منها. إنهم يفتقرون... إلى أي... حياة!».

غمغم الإمبراطور: «أهم بهذا السوء؟»، ولم تخف على البارون نبذة السخرية في صوته: «أخبرني يا عزيزي البارون، هل استقصيت مناطق أراكس القطبية الجنوبية؟».

رفع البارون ناظره محدّقًا إلى الإمبراطور، وقد ارتجّ عليه من تغيير الموضوع: «ولكنك... آه، تعلم يا صاحب السمو أن المنطقة برمتها غير صالحة للسكنى، تعصف الرياح بها وتجوب الديدان فيها. اسپايس حتّى غير موجود على خطوط العرض تلك».

- «ألم تردك تقارير من مركبات نقل الاسپايس أن رقعا نباتية خضراء تظهر هناك؟».

- «لطالما تلقينا هذه التقارير، وتحقّقنا من صحّة بعضها، منذ زمن طويل. سُوهّد عدد قليل من النباتات، وفقدنا ثبوتات كثيرة. الأمر مكلف جدّا يا جلالة الإمبراطور. إنها أرض معادية لا يظلّ الرجال أحياء فيها مدّة طويلة».

قال الإمبراطور: «حقّا!». ثم فرقع بإصبعيه فانفتح بابٌ خلف العرش إلى يساره، وخرج من الباب ضابطا ساردوکار يسوقان

أمامهما فتاةٌ صغيرةٌ بدا أنها تبلغ من العمر نحو أربع سنوات. كانت ترتدي عباءة سوداء قلنسوتها ملقاة على ظهرها، كاشفةً عن أربطة بذلة تقطير متدلّيةً حول عنقها. كانت عيناها في زُرقة أعين الفرمن، وتطلّان من وجهٍ دائري ناعم. بدت الطفلة مطمئنةً تمامًا ولا يبدو عليها أدنى خوف، ورأى البارون في نظرتها شيئاً أقلقته دون أن يعرف سبباً لذلك.

حتى العجوز البني جيسيرتية عرّافة الحقيقة أجفلت عند مرور الطفلة بها، وأشارت بيدها مستعيذةً منها. بدا واضحاً أن حضور الطفلة هزّ السّاحرة العجوز.

تتحنن البارون وهمّ بالكلام، لكن الطفلة تكلمت أولاً بصوتٍ رفيع فيه أثار لثغة من رخاوة حنكها الطفل، لكنه كان واضحاً. قالت: «ها هو إذًا. لا يبدو مهيباً، أليس كذلك؟ مجرد رجل بدين مسن أضعف من أن يحمل وزنه من دون الاستعانة بمضادات الجاذبية».

كان كلاماً لا يُتوقّع صدوره من هم طفلة، حتى أن البارون حدّق إليها عاجزاً عن النطق على الرغم من غضبه، وسأل نفسه: /هي قزّمة؟

قال الإمبراطور: «عزيزي البارون، أقدم إليك أخت المؤدّب». - «أخت الـ...»، ثم أدار البارون انتباهه إلى الإمبراطور وقال: «لا أفهم».

قال الإمبراطور: «أنا أيضاً أميل إلى الاحتياط. لقد وصلتني تقارير أن مناطقك القطبية الجنوبية غير المأهولة تظهر أدلة على وجود نشاط بشري».

احتجّ البارون قائلاً: «ولكن هذا مستحيل! الديدان... الرمال مترامية الأطراف حتى...».

قال الإمبراطور: «يبدو أن هؤلاء القوم قادرون على تجنب الديدان».

جلست الطفلة على المنصة إلى جوار العرش، ودللت قدميها من فوق حافتيها وراحت تأرجحهما. بدت شديدة الثقة بنفسها وهي تتفقد محيطها. حملق البارون إلى قدميها المتأرجحتين وكيف يحركان عباؤها السوداء، وفي بروز خفيها من تحت القماش.

قال الإمبراطور: «لسوء الحظ لم أرسل إلا خمس حاملات جنود على متنها قوة خفيفة لأسر بعض الأفراد بفرض الاستجواب. بالكاد أفلتتا مع ثلاثة سجناء وحاملة جنود واحدة. تخيل يا بارون، كاد ساردوكاري أن يهزموا على يد قوة مؤلفة في الغالب من النساء والأطفال وكبار السن. هذه الطفلة كانت تقود إحدى الجماعات المهاجمة».

قال البارون: «أرأيت يا صاحب الجلالة! أرأيت طباعهم!».

قالت الطفلة: «قصدت أن أقع في الأسر، فلم أرغب في مواجهة أخي وإخباره بأن ابنه قُتل».

قال الإمبراطور: «حفنة من الرجال فحسب تمكنت من الهرب. أقول الهرب! أسمعت ذلك؟».

قالت الطفلة: «كنا سننال من أولئك أيضاً، لولا اللهب».

قال الإمبراطور: «استخدم ساردوكاري نقائات التوجيه في حاملاتهم الجوية كقاذفات لهب في مناورة يائسة، لكنها كانت الشيء الوحيد الذي مكّنهم من الفرار بأسراهم الثلاثة. ركّز في ما أقول يا عزيزي البارون: قوة من الساردوكار أُجبرت على التراجع في ارتباك أمام مجموعة من النسوة والأطفال وكبار السن!».

قال البارون بنبرة مهاجة: «يجب أنا نهجم عليهم بقوة ضارية، يجب أن نستأصل شأفتهم...».

زأر الإمبراطور: «اخرس!»، مائلاً إلى الأمام على عرشه: «إياك أن تهين ذكائي بعد الآن. كيف تجرؤ على الوقوف هنا تدعي البراءة الحمقاء و...».

قالت عرّافة الحقيقة العجوز: «جلالتك».

أشار لها بالصمت، وواصل: «تقول إنك لا تعلم بأمر النشاط الذي رصدناه، ولا بطبيعة هؤلاء القوم القتالية»، ثم قام نصف قيام من على العرش وصاح: «ماذا تحسبني يا بارون؟».

تراجع البارون خطوتين إلى الخلف مفكراً: رابان السبب. هو من فعل هذا بي. رابان قد...

غمغم الإمبراطور وهو يفوص في عرشه: «وتلك الخصومة المصطنعة مع الدوق ليتو، ما أبرع تدبيرك لها!».

قال البارون متوسلاً: «يا صاحب الجلالة، ما الذ...».

- «اخرس!».

وضعت البني جيسيرت العجوز يدها على كتف الإمبراطور، ومالت عليه هامسة في أذنه.

توقفت الطفلة الجالسة على المنصة عن أرجحة قدميها وقالت: «أخفه أكثر يا شادام. لا يفترض بي أن أستمع بهذا، لكنني لا أستطيع منع نفسي من التلذذ بما يحدث».

قال الإمبراطور: «اصمتي أيّتها الصغيرة»، وانحنى إلى الأمام، واضعاً يده على رأسها، محدّقاً إلى البارون: «هل هذا معقول أيّها البارون؟ هل أنت بهذه السذاجة التي تقترحها كاهنتي؟ ألم تتعرّف بعد إلى هذه الطفلة، ابنة حليفك، الدوق ليتو؟».

قالت الطفلة: «أبي لم يحالف هذا الرجل قط. أبي ميت، وهذا الوحش الهراكونتي المسنُّ لم تسبق له رؤيتي». أجم الذهول البارون وظلَّ يُحدِّق في بلاهة، وعندما استطاع الكلام، لم يزد عن: «من؟».

قالت الطفلة: «أنا عالية، ابنة الدوق ليتو والليدي جيسिका، وأخت الدوق پول المؤدَّب»، ثم دفعت بنفسها من على المنصَّة، وقفزت على أرضية قاعة الاستقبال مردفةً: «لقد تعهَّد أخي بوضع رأسك أعلى سارية رايته الحربية، وأظنُّ أنه سيفعل». قال الإمبراطور: «صه يا فتاة»، وغاص في عرشه، عابثًا بذقنه، متأملاً البارون.

قالت عالية: «أنا لا آخذ أوامر الإمبراطور»، ثم استدارت، ورفعت بصرها إلى الأمِّ المؤقَّرة وقالت: «وهي تعرف ذلك». نظر الإمبراطور إلى عرَّافته وقال: «ماذا تقصد؟».

قالت العجوز: «هذه الطفلة شُنعة! وأمُّها تستحق عقاباً لم يُعاقب به أحدٌ على مرِّ التاريخ. الموت راحة يجب ألا تتألها هذه الطفلة ولا من أنجبها!»، ثم أشارت العجوز بإصبعها إلى عالية وصاحت: «اخرجي من رأسي!».

همس الإمبراطور: «أهذا تخاطر؟»، ثم أعاد انتباهه سريعاً إلى عالية: «بحقُّ الأمِّ العظيمة!».

قالت العجوز: «أنت لا تفهم يا صاحب الجلالة. ليس هذا تخاطراً، إنها داخل عقلي. إنها كالنساء الأخريات اللاتي سبقنني، النساء اللاتي منحني ذكرياتهن. إنها تقف في عقلي! لا أعرف كيف، لكنها موجودة!».

سألها الإمبراطور: «أيُّ أخريات؟ ما هذا الهراء؟».

شدّت العجوز قامتها، وخفضت يدها التي تشير بها: «لقد تفوّعت بأكثر ممّا ينبغي لي، لكن الحقيقة لم تتغيّر. يجب القضاء على هذه الطفلة التي هي ليست بطفلة. لقد حُذّرنا منذ زمنٍ طويل من مثل هذه الشُّنعة، وقيل لنا كيف نمنع ميلادها، لكن واحدة منا خانتنا».

قالت عالية: «أنت تهذرين أيتها العجوز، ولا تعرفين كيف كان الأمر، ومع هذا تثرثرين بلا توقّف كالأحمق بليد الذهن»، ثم أغمضت عينيها، وأخذت نفساً عميقاً، وكتمته. تأوّهت الأمّ الموقرة وترنّحت.

فتحت عالية عينيها وقالت: «هكذا كان الأمر. حادثة كونية، وقد لعبت دورك فيها». رفعت الأمّ الموقرة كلتا يديها، وراحت تدفع الهواء في اتجاه عالية.

قال الإمبراطور: «ما الذي يحدث هنا؟ أنت أيتها الصغيرة، أحقّ بإمكانك إسقاط أفكارك على عقول الآخرين؟».

قالت عالية: «الأمر ليس كذلك على الإطلاق. لا يسعني التفكير مثلك إلّا إذا وُلدت مثلك».

غمغمت العجوز: «اقتلها!»، وتشبّثت بظهر العرش لإسناد نفسها، ثم كرّرت: «اقتلها!»، وعيناها الغائرتان تحدّقان إلى عالية. قال الإمبراطور: «صمّاً!»، وتأمّل عالية: «يا فتاة، أبامكانك التواصل مع أخيك؟».

قالت عالية: «أخي يعرف أنني هنا». - «أبامكانك إخباره بأن يستسلم مقابل الإبقاء على حياتك؟».

ابتسمت إليه عالية في براءة تامّة وقالت: «لن أفعل ذلك».

تعثّر البارون وهو يتقدّم ليقف إلى جوار عالية، وقال متوسّلاً:
«يا صاحب الجلالة، لم أكن أعلم شيئاً عن...».

قال الإمبراطور: «قاطعني مرّة أخرى يا بارون وستفقد القدرة على المقاطعة.. إلى الأبد»، وأبقى اهتمامه منصباً على عالية، وراح يتأمّلها مضيقاً عينيه: «لن تفعلني، ها؟ أيا مكانك قراءة أفكارٍ لمعرفة ما سأفعله بك إن عصيت أمري؟».

قالت: «سبق أن أخبرتك بأنني لا أقرأ الأفكار، لكن المرء لا يحتاج إلى التخاطر ليطلّع على نيّتك».

عبس الإمبراطور قائلاً: «قضيتك ميؤوسٌ منها يا فتاة. ما عليّ إلّا حشد قوّاتي وتحويل هذا الكوكب إلى...».

قاطعته عالية: «ليس الأمر بهذه السهولة»، ثم نظرت إلى رجلي النقابة وأردفت: «حتّى أسألها».

قال الإمبراطور: «ليس من الحكمة معارضة رغباتي. يجب ألاّ تحرمني ولو أدنى الأشياء».

قالت عالية: «أخي سيأتي الآن، وحتّى الإمبراطور ذاته سيرتجف أمام المؤدّب، لأنه مؤيّد بقوة الحق، والسماء راضية عنه».

اندفع الإمبراطور واقفاً وصاح: «هذه المسرحية طالت أكثر من اللازم. سأطحن أخيك وهذا الكوكب حتّى...».

دمدمت القاعة واهتزّت من حولهما، ثم اندفع شلال رمال مفاجئ من خلف العرش حيث تتّصل خيمة المعسكر بسفينة الإمبراطور. شعر الجميع بجلد بشرتهم يشتدّ وينضغط، في دليل على تفعيل مجال طاقة درعي واسع النطاق.

قالت عالية: «أخبرتكم أن أخي سيأتي».

وقف البارون أمام عرشه، ضاعطاً بيده اليمنى أُذنه اليمنى، مصغياً عبر سماعة السرفوك التي يضعها إلى التقارير الواردة عن الوضع. تراجع البارون خطوتين خلف عالية، في حين ما وثب الساردوكار إلى مواقعهم عند البوابة.

قال الإمبراطور: «سنصعد إلى الفضاء ونعيد تنظيم صفوفنا. أعتذر لك أيُّها البارون، هؤلاء المجانين يهاجمون بالفعل تحت غطاء العاصفة. سنريهم كم هي عاتية غضبة الإمبراطور»، ثم أشار إلى عالية: «ألقوا بها إلى العاصفة».

وفيما كان يتحدث، تراجعت عالية متظاهرةً بالرعب وهي تصرخ: «فلتحصل العاصفة على ما يمكنها أخذه!»، واستمرَّت في التراجع حتَّى وقعت بين ذراعي البارون.

صاح البارون: «أمسكت بها يا صاحب الجلالة! هل ألقى بها
الآ... آAAAAAAAAAAAA»، ثم دفعها أرضاً، وأمسك بذراعه اليسرى.

قالت عالية: «آسفة يا جدِّي، لقد مسَّتك الجوم جبار
الأتريديزية!»، وقامت واقفة مغلَّة إبرة داكنةً من يدها.

سقط البارون على ظهره، جاحظ العينين، يحملق إلى جرح أحمر على كفه اليسرى، وقال: «أنت... أنت...»، وتدحرج جانباً مدعوماً بمضادات الجاذبية، وصار كتلة لحم مرتخية مرفوعة بوصات قليلة عن الأرض، رأسها متهدل وفمها مَفْغورٌ على اتساعه. زمجر الإمبراطور: «يا لجنون هؤلاء القوم! أسرعوا! إلى السفينة. سنظهر هذا الكوكب من كل...».

ومض شيءٌ إلى يساره، وارتدت كُرة برقٍ من الحائط البعيد في ذلك الاتجاه، وفرقت حين لامست الأرضية المعدنية. انتشرت في السلامك رائحة العوازل المحترقة.

صاح أحد ضبَّاط السَّارِدوكار: «درع الطَّاقة!».

- «الدرع الخارجي سقط! إنهم...»

ذابت كلماته وسط زئير معدني، وراح جدار السفينة خلف الإمبراطور يرتجُّ ويهتزُّ.

قال أحدهم: «أصابوا مقدِّمة سفينتنا!».

ثار الغبار في القاعة، فقفزت عالية تحت ستاره، وفرت نحو البوابة الخارجية.

استدار الإمبراطور، ووجَّه حاشيته نحو باب طوارئ انفتح على مصراعيه من جانب السفينة خلف العرش، ثم أعطى إشارة إلى أحد ضبَّاط السَّارِدوكار عبر غيمة الغبار، وقال أمرًا: «سنصمد هنا ونحارب!».

هز اصطدام آخر جنبات المعسكر، فانفتحت الأبواب المزدوجة في طرف القاعة البعيد بقوة على إثره، سامحةً لدخول الرياح المحمَّلة بالرمال وأصوات الصياح. شاهدوا للحظة خيالاً صغيراً في عباءة سوداء على خلفية الضوء، كانت هذه عالية النجبية التي انطلقت كالسهم باحثةً عن سكِّين لقتل جرحى الهراكنة والسَّارِدوكار كما درَّبها الفرمن. اندفع السَّارِدوكار وسط غيام أصفر مخضر نحو الفتحة، شاهرين أسلحتهم في تشكيل قوسي لتأمين الإمبراطور المتراجع.

صاح ضابط سارِدوكار: «أنقذ نفسك يا مولاي! ادخل إلى السفينة!».

لكن الإمبراطور ظلَّ واقفاً بمفرده فوق منصَّته يشير إلى الأبواب، حيث فتح الانفجار فجوة عرضها أربعون متراً في

الجدار، وحيث أبواب السلامك المفتوحة على الرمال المنجرفة. كانت سحابة الغبار التي تهبُّ من مسافة بعيدة عالقةً في الجو، حاجبةً ما يدور في الخارج، تتخلَّلها قرقرة شحنات برقٍ استاتيكية، وشرارات وامضة من دروع الطاقة التي تحترق دواثرها من جراء العاصفة المشحونة بالكهرباء. ماج الحوض بالمتقاتلين، ساردوكار ورجال مسعورين يخرجون قافزين صارخين من رحم العاصفة. كان هذا هو إطار المشهد الذي أشارت يد الإمبراطور إلى هدفٍ في مركزه.

بدت وسط غيمة الرمال كتلة منظمة من الأشكال الوامضة: أقواس ضخمة صاعدة، تحدُّها سنون وامضة، اتُّضح بالتدريج أنها ديدان رمال فاغرة أفواهها، حشدٌ كبيرٌ منها شكَّل جداراً هائلاً. وكان على ظهر كل دودة فرقة من الفرمن المهاجمين، اقتحموا الحوض في هسيسٍ صاخب وثيابهم تخفق مع الريح، قاطعين أرض المعركة.

تقدَّمت الديدان صوب معسكر الإمبراطور، فوقف السَّاردوكار مشدوهين لأوَّل مرَّة في تاريخهم من هجمة صعب على عقولهم استيعابها.

لكنَّ أولئك القافزين من فوق ظهور الديدان كانوا رجالاً، والنصال اللامعة في ذلك الضوء الأصفر المشؤوم كانت شيئاً تدرب ساردوكار على مواجهته، لذا ألقوا بأنفسهم في خضم المعركة. دارت رُحى القتال بينهم رجالاً لرجل في سهل أراكين، فيما دفعت نخبة منتقاه من الحرس السَّاردوکاری الإمبراطور إلى سفينته، وأغلقت الباب عليه، ووقفت مستعدةً للموت عند الباب كجزء من درعه.

في صدمة الصَّمت النسبي داخل السفينة، حدَّق الإمبراطور إلى وجوه حاشيته وأعينهم المتَّسعة عن آخرها، ورأى حُمْرة الإجهاد تشيع في وجنتي ابنته الكُبرى، وأن عرَّافة الحقيقة العجوز تقف كظل أسود وغطاء رأسها مسدل على وجهها، ثم رأى أخيراً الوجهين الذين يبحث عنهما: رجلي النقابة. كانا يرتديان زِيَّ النقابة الرمادي غير المزَّين، الذي بدا أنه يتناسب مع الهدوء الذي احتفظا به على الرغم من اضطراب المشاعر المحيط بهما.

كان الرجل الأطول يضع يده على عينه اليسرى. وفيما كان الإمبراطور يراقبه، اصطدم أحدهم بذراع الرجل، فتحرَّكت يده كاشفةً عن عينه. كان الرجل قد فقد إحدى عدستيه اللاصقتين، فبدت عينه المحدَّقة من غيرها زرقاء قاتمةً، تكاد تكون سوداء كُلَّجَة حبر.

أفسح الرجل القصير لنفسه المجال بين الأجساد مستخدماً كوعه، واقترب من الإمبراطور وقال: «نعجز عن استبصار كيف سينتهي الأمر»، ثم أضاف رفيقه الأطول بصوتٍ بارد، بعد أن أعاد وضع يده على عينه: «حتَّى هذا المؤدَّب لا يعرف كذلك». صدمت الكلمات الإمبراطور فأيقظته من ذهوله. وبذل جهداً واضحاً ليصون لسانه عن السخرية، فلم يكن المرء في حاجة إلى بصيرة ملاحٍ النقابة المركَّزة ليرى النتيجة الوشيكة لتلك المعركة الدائرة في السهل، وتساءل عن تمادي اعتماد هذين على ملكتيهما إلى حدٍّ جعلهما يفقدان القدرة على استخدام أعينهما وعقولهما. قال: «أَيَّتْها الأمُّ المؤقَّرة، علينا أن نضع خطة».

رفعت عرَّافة الحقيقة القلنسوة عن وجهها، وبادلتها التحديق دون أن يطرف لها جفن. حملت النظرة المتبادلة بينهما تفاهماً

كاملاً. لم يبقَ لهما غير سلاح واحد، وكلاهما يعرفه: الغدر.
قالت الأمُّ الموقرة: «استدع الكونت فنرينج من جناحه».
أوما الإمبراطور الباديشاه، وأشار إلى أحد مساعديه لتنفيذ الأمر.

مكتبة
t.me/t_pdf

كان محاربًا وصوفيًا، غولًا وقديسًا، ثعلبًا وحملًا،
نبيلاً وعديم الرحمة، أدنى من الآلهة وأسمى
من البشر. يتعذّر قياس دوافع المؤدّب بالمعايير
المألوفة. ففي لحظة انتصاره، كان قد رأى ما يُحاك
له من موت، ومع ذلك رَضِيَ بالغدر. أيمن قول إنه
فعل ذلك بدافع تحقيق العدالة؟ عدالة من إذا؟ تذكر
أننا الآن نتحدّث عن ذاك المؤدّب الذي أمر بصنع
طبول الحرب من جلود أعدائه، المؤدّب الذي تنكّر
للتقاليد التي يملئها عليه ماضيه الدوقي المشرف
بكل برود مكتفياً بقول: «أنا الكويزاتس هاديراك،
وهذا سبب كاف».

من كتاب «صحوة أراكس» للأميرة إيrolان.

مساء انتصاره، انتقل المؤدّب مع مرافقيه وحرسه إلى قصر
حاكم أراكين، مقر الإقامة القديم الذي شَفَلَهُ آل آتريديز عند
مجيئهم إلى كَثِيب أوّل الأمر. كان المبنى على الحالة التي استلمه
بها رابان، لم يمسه القتال تقريبًا على الرّغم من تعرّضه للنهب
على يد سكّان المدينة، فقط بعض الأثاث في القاعة الرئيسة
كان مقلوبًا أو محطّمًا.

أسرع پول الخطى عبر المدخل الرئيس، يتبعه بخطوة جيرني
هاليك وستيلجار. انتشر الحرس المرافق في أرجاء القاعة
الكبرى، وراحوا يرتّبون المكان ويخلون مساحة للمؤدّب، وبدأت
إحدى الفرق عملية تفتيش للتأكد من عدم وجود شرك خبيثة
في المكان.

قال جبرني: «أتذكّر اليوم الذي جئنا فيه إلى هنا مع أبيك»، ونظر حوله إلى العوارض والنوافذ العالية الضيقة: «وقتها لم يعجبني هذا المكان، والآن قلّ إعجابي به. أيّ كهفٍ من كهوفنا أأمن منه».

قال ستيلجار: «تحدّث كفرمني حقيقي»، ولاحظ الابتسامة الباردة التي رسمتها كلماته على شفتي المؤدّب، فقال: «هلاً تعيد النظر يا مؤدّب؟».

قال پول: «هذا المكان رمز. رابان حكم من هنا، وباحتلال هذا المكان أوكد انتصاري للجميع. أرسل الرجال في أنحاء المبنى، لكن لا تلمسوا شيئاً. فقط تأكّدوا من عدم بقاء أيّ من أتباع هراكنة أو شراكنهم».

قال ستيلجار: «كما تأمر»، وقد بدا الإحجام في صوته هو يستدير لإطاعة الأمر.

سارع رجال الاتصالات إلى القاعة مع معدّاتهم، وشرعوا في وضعها وتجهيزها بالقرب من المدفأة الضخمة. اتّخذ الحرس الفرمني الذي عزّز أعداد الفدائيين الناجين أماكنهم في أنحاء القاعة جميعها. كانوا يتبادلون الغمغمات، وينظرون حولهم في شكّ. لقد مكث العدو في هذا المكان وقتاً طويلاً، لذا لم يكن سهلاً عليهم استساغة فكرة وجودهم فيه.

قال پول: «جبرني، أرسل قوّة لتأتي بأُمّي وتشاني. هل علمت تشاني بما حدث لابننا؟».

- «أرسلنا الرسالة يا مولاي».

- «هل بدأتُم إخراج الديدان من الحوض؟».

- «أجل يا مولاي. أوشكت العاصفة على الانتهاء».

سأل پول: «ما حجم الأضرار الناجمة التي خلّفتها؟».

- «الأضرار جسيمة في مسارها المباشر عبر أرض المهبط وساحات تخزين الاسبياس المفتوحة، لكن الخسائر ناجمة عن المعركة بقدر ما هي ناجمة عن العاصفة».

قال پول: «كلها أشياء لا يعجز المال عن إصلاحها على ما أظن».

قال جيرني: «باستثناء خسائر الأرواح يا سيّدي»، وقد حمل صوته نبرة عتاب كأنه يقول: «ومتى كان آل آتريديز يهتمون بالململكات حين تكون أرواح الناس على المحك؟».

لكن پول كان يصب اهتمامه على عينه الداخلية، وعلى الفجوات التي يراها في الجدار الزمني الذي لا يزال قابلاً في طريقه. ففي كل فجوة كان الجهاد يشتعل على امتداد أروقة المستقبل. تنهّد پول، وقطع القاعة، ورأى كرسيًا يستند إلى الجدار. كان هذا الكرسي مكانه قاعة الطعام في السابق، ورُبّما جلس عليه أبوه ذاته. لكنه في الوقت الحالي لم يكن سوى جماد يريح عليها تعبته ويخفيه عن الرجال. جلس پول، وشدّ ثوبه حول ساقيه، وأرخی أربطة عُنُق بذلة التقطير.

قال جيرني: «ما زال الإمبراطور محتجزاً في حطام سفينته».

قال پول: «واصلوا تحفّظكم عليه هناك في الوقت الحالي. هل عثروا على الهراكنة بعد؟».

- «ما زالوا يفحصون القتلى».

- «ما الرّد الذي تلقّيناه من السفن الرّابضة في الأعلى؟».

- «لم يأتنا ردٌّ بعد يا سيّدي».

تَهْدُ پول في تعب، وأراح ظهره إلى الوراء. ثم قال بعد هنيهة: «أحضر لي أحد أسرى السَّارِدوكار. يجب أن نبعث رسالة إلى إمبراطورنا. حان وقت مناقشة الشروط». - «أمرك يا سيدي».

قالها جيرني والتفت معطيًا إشارة إلى أحد الفدائيين ليتَّخذ موقع حراسة قريب من پول.

همس پول: «جيرني، منذ أن اجتمع شملنا، لم أسمعك تتفوَّه بالاعتباس المناسب للحدث»، ثم التفت، فرأى جيرني يبتلع ريقه، ولاحظ التصلب المفاجئ في فك الرجل.

قال جيرني: «كما تريد يا مولاي»، ثم تتحنح وقال بصوت غليظ: «فانقلب فرح النصر في ذلك اليوم مناحةً عند كل الشعب، لأن الشعب سمع أن الملك حزين على ابنه⁽¹⁾».

أغلق پول عينيه، مجبرًا الحزن على الخروج من ذهنه، تاركًا إيَّاه ينتظر كما سبق أن انتظر لرثاء أبيه. ثم نقل تفكيره إلى الاكتشافات التي تراكمت هذا اليوم: مسارات المستقبل المختلطة، وحضور عالية الغامض داخل وعيه.

من بين كل استخدامات الرؤى الزمنية، كان هذا هو الأغرب. لقد أخبرته عالية: «لقد غامرت بالتوغُّل في المستقبل لأزرع كلماتي في مكانٍ لا يتسنَّى لفيرك سماعها فيه. حتَّى أنت تعجز عن فعل ذلك يا أخي. إنها لعبة مثيرة للاهتمام. وآه بالمناسبة، لقد قتلت جدنا، البارون المُسنَّ الخرف. لم يتألَّم كثيرًا».

ثم ساد الصَّمْتُ، واستشعرت حاسَّته الزمنية انسحاب عالية من وعيه.

(1) سفر صموئيل الثاني، الإصحاح التاسع عشر، آية 2 (بتصرُّف).

- «يا مؤدّب».

فتح پول عينيه فرأى سحنة ستيلجار الملتحية فوقه، وفي عينيه القاتمتين بريق نور المعركة.

قال پول: «لقد عثرت على جثة البارون العجوز».

حل وجوم صامت على ستيلجار، ثم همس: «كيف عرفت؟ لقد عثرنا على الجثة لتونا وسط حطام الكومة المعدنية الهائلة التي شيدها الإمبراطوار».

تجاهل پول السؤال، إذ رأى عودة جيرني بصحبة فرمينيين يدفعان أمامهما أسيراً من الساردوكار.

قال جيرني: «ها هو واحدٌ منهم يا سيدي»، وأشار إلى الحارس كي يقف ممسكاً بالأسير على بُعد خمس خطوات من پول.

لاحظ پول النظرة المصدومة الذاهلة في عيني الساردوكار. كانت على وجهه كدمة زرقاء تنتشر من أنفه إلى زاوية فمه، وكان أشقر الشعر منحوت الوجه، وهي الملامح التي تميّز أصحاب الرتب العالية بين الساردوكار، ومع ذلك لم يحمل زيّه الممزق أي علامة مميّزة باستثناء الأزوار الذهبية ذات الشعار الإمبراطوري، وسَمَل شريط سراويله المجدول.

قال جيرني: «أظن أنه ضابط يا سيدي».

أوما پول وقال: «أنا الدوق پول آتريديز، أتعني هذا يا رجل؟».

حدّق الساردوكار إليه دون أن يتحرّك.

قال پول: «تحدّث وإلاّ مات إمبراطورك».

طرفت عينا الرجل، وابتلع ريقه.

سأله پول: «من أنا؟».

قال الرجل بصوتٍ مبحوح: «أنت الدوق پول آتريديز».

لاحظ پول أن الرَّجل قانت أكثر من اللازم. لم يكن السَّاردوكار قد أُعدُّوا لمواجهة وقائع كالتى حدثت هذا اليوم، فهم لم يذوقوا قبل ذلك سوى طعم النصر، وهو الأمر الذي أدرك پول أنه قد يصبح ضعفاً في حد ذاته. نحى پول الفكرة جانباً للتفكير لاحقاً في إلحاقها ببرنامجه التدريبي.

قال پول: «لديَّ رسالة أريدك أن تبْلِغها إلى الإمبراطور»، ثم صاغ كلماته بالصيغة القديمة: «بصفتي دوقاً من عائلة نبيلة، وممَّن تربطهم قرابة دم بالإمبراطور، أتعهَّد بموجب المعاهدة الكبرى أنه إذا تخلَّى الإمبراطور ورجاله عن أسلحتهم، وجاؤوا إلَيَّ هنا صاغرين، سأحمي حياتهم بحياتي»، ثم رفع ختم الدوقية في يده اليسرى كي يراه السَّاردوكار وقال: «وأقسم على كلامي بهذا».

بلَّل الرجل شفتيه بطرف لسانه، ونظر إلى جيرني. قال پول: «أجل، لا أحد يحوز ولاء جيرني غير فرد من آل آترديز».

قال السَّاردوكار: «سأبلغ الرسالة». قال پول: «خذه إلى مركز قيادتنا على الجبهة وأرسله». قال جيرني: «أمرك يا مولاي»، وأشار إلى الحارس لتنفيذ الأمر، وتقدَّمهما إلى الخارج. أعاد پول اهتمامه إلى ستيلجار.

قال ستيلجار: «لقد وصلت تشاني وأُمُّك، لكن تشاني طلبت بعض الوقت لتختلي بحزنها، أمَّا الأُمُّ الموقرة فأرادت المكوث قليلاً في غرفة العجائب، ولا أعلم السَّبب».

قال پول: «أُمِّي يسقمها الشُّوق إلى كوكب قد لا تراه أبداً، كوكب ينهمر الماء فيه من السماء، وتتمو فيه النباتات بكثافة إلى درجة تعيقك عن السير بينها».

همس ستيلجار في انبهار: «ماء من السماء».

في تلك اللحظة، رأى پول كيف تحوّل ستيلجار من نائب فرمني إلى مخلوق تابع للسان الغيب، إلى وعاء للرغبة والطاعة. كان في الأمر انتقاص من شأن الرجل، وقد شعر پول فيه بطيف رياح الجهاد. وفكّر: لقد شهدتُ تحوّل صديق إلى عابد.

غمر پول شعورٌ بالوحدة، فراح ينقل بصره في أرجاء القاعة، ملاحظاً كيف يصير رجاله منضبطين ومنتبهين في حضوره، واستشعر بروح تنافس خفيّة فخورة في ما بينهم، كلٌ منهم يأمل هي أن يمنّ المؤدّب عليه بنظرة.

وفكّر: المؤدّب الذي هو مصدر كل النعم، وكانت هذه أقبح فكرة مرّت به في حياته. إنهم يشعرون بضرورة تولّي العرش، لكنهم لا يعرفون أنني أفعل ذلك لمنع الجهاد.

تحنح ستيلجار، ثم قال: «رابان مات كذلك»، فأوماً پول.

تتّخى الحرس الواقفون إلى اليمين جانباً فجأة، ووقفوا في وضع انتباه مفسحين الطريق لجيسيكّا. كانت ترتدي عباءتها السوداء وتسير بخطى سريعة كما اعتادت أن تقطع الرمال، لكن پول لاحظ كيف أعاد لها المنزل شيئاً من هويّتها السّابقة: خلية الدوق الحاكم. حمل حضورها بعضاً من حزمها القديم.

توقّفت جيسيكّا أمام پول ونظرت إليه، ورأت الإرهاق الذي يحاول إخفاءه، لكنها لم تشعر بشفقةٍ نحوه، كأنها صارت عاجزةً عن أن تحدوها أيّ عاطفة تجاه ابنها.

دخلت چيسيكاً القاعة الكبرى متسائلةً لماذا يأبى المكان أن يتطابق مع ذكرياتها عنه. ظَلَّت القاعة غريبة عليها، كأنها لم تمش فيها من قبل، ولم تتجول فيها مع حبيبها ليتو، ولم تواجه فيها دانكن أيدهو المخمور... ولم، ولم، ولم...

وفكّرت: كان ينبغي أن تُوجد لفظة مضادة لكلمة أدب التي تصف الذكرى المُلحّة التي تفرض نفسها. كان ينبغي أن تُوجد لفظة تصف الذكريات التي تنكر نفسها.

ثم سألت: «أين عالية؟».

قال پول: «في الخارج تفعل ما يجب على كل طفل فرماني صالح أن يفعله الآن. تقتل جرحى العدو وتعلّم أجسادهم لتتعرّف عليهم فرق استعادة الماء».

- «پول!».

قال: «عليك أن تفهمي أنها تفعل ذلك بدافع الرحمة. أليس غريباً كيف نسيء فهم التضافر الخفي بين الرحمة والقسوة؟». حدّقت چيسيكاً شزراً إلى ابنها، مصدومةً من التغيير الجوهري الذي أصابه، وتساءلت: هل موت ابنه هو السبب؟ ثم قالت: «يروى الرجال قصصاً غريبة عنك يا پول. يقولون إنك تتمتع بكل القدرات التي وردت في الأسطورة، يقولون إن شيئاً لا يُخفى عليك، يقولون إنك تبصر ما يعجز الآخرون عن إبصاره». سألتها: «وهل يليق بامرأة من البني چيسيرت أن تلقي بالاً إلى الأساطير؟».

اعترفت قائلة: «كان لي يد في كل ما وصلت إليه، لكن لا تتوقّع مني أن...».

سألتها پول: «ماذا لو عشت مليارات من الحيوانات؟ ألن تُسج

من حولك الأساطير! فكُري في كل تلك الخبرات، وفي ما تجلبه من حكمة. لكن الحكمة تكسر حدة الحب، وتلبس الكراهية ثوباً جديداً، أليس كذلك؟ كيف يتسنى لك تمييز القسوة إن لم تسبري أغوار القسوة والرحمة معاً؟ عليك أن تخشيني يا أمي، إنني الكويزاتس هاديراك».

حاولت جيسिका ابتلاع ريقها فمنعها جفاف حلقها، ثم قالت في النهاية: «لقد أنكرت يوماً في حضوري أنك الكويزاتس هاديراك». هزّ پول رأسه وقال: «لن أنكر شيئاً بعد الآن»، ثم رفع عينيه لها وأردف: «سيأتي الإمبراطور وحاشيته الآن. سيعلن عن قدومهم في أي لحظة. قفي بجانبني، أريد رؤيتهم بوضوح، فعروسي المستقبلية ستكون بينهم».

صاحت جيسिका: «پول! لا ترتكب الغلطة التي ارتكبتها أبوك!». قال پول: «إنها أميرة، وهي مفتاح جلوسي على العرش فحسب. تقولين غلطة؟ أظنّين لأنك صنعتني على هذا النحو فلن أشعر بالحاجة إلى الانتقام؟».

سألته: «الانتقام حتّى من الأبرياء؟»، وفكّرت: يجب ألا يكرر أخطائي.

قال پول: «لم يعد هناك أبرياء».

قالت جيسिका: «قل ذلك لتشاني»، وأشارت باتجاه الممر المؤدّي إلى الجزء الخلفي من دار الإقامة.

أتت تشاني إلى القاعة الكبرى من هناك، تسير بين حارسين فرمانيين كأنها غير مدركة لوجودهما. كانت فلتنسوتها وغطاء بذلتها ملقيان إلى الخلف، وقناع وجهها متدلّ جانباً. قطعت القاعة بهشاشة وارتباك، ووقفت إلى جوار جيسिका.

رأى پول آثار الدموع على خديها، لقد ذرفت من مائها على الميت. شعر بحزنٍ مؤلم يعتصر روحه، وبدا كأنه غير قادر على الشعور بهذا إلا في حضور تشاني.

قالت تشاني: «لقد مات يا حبيبي. ابننا مات».

نهض پول كابحاً مشاعره، ومدَّ يده ولمس خدَّ تشاني، وشعر ببلل دموعها. «وهو لن يُعوَّض أبداً، لكن سيكون لنا أبناء آخرون. هذا وعد أصول». ثم أزاها جانباً برفق، وأشار إلى ستيلجار. قال ستيلجار: «أمر المؤدّب».

قال پول: «الإمبراطور وحاشيته قادمون من سفينتهم. سأقف أنا هنا. اجمع الأسرى في مساحة واسعة في منتصف القاعة وأبقهم على مسافة عشرة أمتار مني ما لم آمر بغير ذلك».

- «كما تأمر يا مؤدّب»

انصرف ستيلجار لإطاعة الأمر، وسمع پول تمتمات الانبهار من الحرس الفرمني: «أرأيت؟ إنه يعلم! لم يحطه أحدٌ علماً، لكنه يعلم!».

ترامى إلى مسامعهم اقتراب مسيرة حاشية الإمبراطور، فقد كان السَّاردوكار يدندنون إحدى ألعانهم العسكرية لرفع روحهم المعنوية. ثم تعالت جلبة من الأصوات عند المدخل ومرَّ جيرني هاليك عبر الحرس وقطع القاعة ليتشاور مع ستيلجار، ثم تحرَّك ليقف إلى جوار پول وفي عينيه نظرة غريبة.

تساءل پول: هل سأخسر جيرني أيضاً كما خسرت ستيلجار من قبله؟ أفقد صديقاً لكسب مخلوق تابع؟

قال جيرني: «ليست معهم أسلحة يمكن قذفها، تأكّدت من الأمر بنفسي»، ثم أجال بصره في أرجاء القاعة، ورأى استعدادات

بول: «فيد راوثا معهم. هل أستبعده من بين المجموعة؟».

- «أتركه».

- «بينهم رجلا نقابة أيضاً، ويطالبان بمعاملة خاصة ويهددان بفرض حظر على أراكس. أخبرتهما أنني سأوصل رسالتهما إليك».

- «دعهما يهددان».

همست جيسيكاً من خلفه: «بول! إنه يتحدث عن النقابة!».

قال بول: «سأقتلع أنيابهم عمّا قريب».

وفكر في أمر النقابة، في تلك القوة التي مع الوقت زاد تخصصها أكثر فأكثر حتى صارت طفيلية، عاجزة عن البقاء بشكل مستقل عمّا تتغذى عليه. لم يجرؤوا قط على استئلال السيف، والآن لم يعد في مقدورهم استئلاله. كان بإمكانهم الاستيلاء على أراكس حين أدركوا غلطة اعتمادهم بالكامل على المزاج، مخدر طيف الوعي الذي يتعاطاه ملاحيتهم. كان بإمكانهم فعل ذلك، وأن يعيشوا أيام مجدهم ثم يموتون. ولكن بدلاً من ذلك، ظلّوا يعيشون حياتهم لحظةً بلحظة، على أمل أن تنتج البحار التي يسبحون فيها عائلاً جديداً لهم حين يموت العائل القديم.

لقد اتخذ ملاحو النقابة -المتمتعون بقدرة استبصارية محدودة- قراراً مهلكاً: اختاروا المسار الآمن الواضح الذي يؤدي في النهاية إلى الركود.

فكر بول: دعهم ينظرون من كتب إلى عائلهم الجديد.

قال جيرني: «بينهم أيضاً أمٌ موقرة من البني جيسيرت تقول إنها صديقة أمك».

- «ليس لأمي صديقات من البني جيسيرت».

عاد جيرني وأجال بصره في أرجاء القاعة الكبرى، ثم انحنى على أذن پول وهمس: «ظفير حوَّاط بينهم يا سيّدي. لم تتح لي الحديث معه على انفراد، لكنه استخدم إشاراتنا اليدوية القديمة ليخبرني بأنه كان يعمل مع الهراكنة بعد أن ظنّ أنك ميت، وقال إنه يستحق أن يُترك وسطهم».

- «تركت ظفير حوَّاط وسط أولئك ال...».

- «كانت رغبته... ورأيت أن هذا أفضل. إذا وقع خطبٌ ما، سيكون حيث نستطيع تحريكه. وإن لم يقع، سيكون لدينا جاسوس على الجانب الآخر».

عندها جاءت لبول لمحات استبصارية من الاحتمالات المختلفة لهذه اللحظة، ورأى في أحدها ظفير يحمل إبرة مسمومة أمره الإمبراطور باستخدامها ضد «هذا الدوق المغرور».

تتجّى حرس المدخل مشكّكين ممرًا قصيرًا برماحهم. سُمع حفيف ملابس كثيرة في القاعة، واحتكاك الأقدام بالرمال التي انجرفت إلى دار الإقامة.

تقدّم الإمبراطور الپاديشاه شادام الرّابع حاشيته إلى القاعة. كان قد فقد خوزة البورسيج، فبرز شعره الأحمر مبعثرًا في حالة من الفوضى. كان كُمّ سترة زيّه الأيسر ممزّقًا بامتداد دروز الخياطة الداخلية، وكان بلا حزام أو أسلحة، لكن حضوره الطّاغي ظلّ يسير معه كفقاعة درع طاقة تفسح المجال من حوله.

سدّ عليه رمحُ فرمّني الطريق، موقفًا إيّاه حيث أمر پول. احتشد الآخرون خلفه في خليطٍ من الألوان والوجوه المحدّقة. أدار پول بصره في المجموعة، ورأى النساء يخفينّ آثار البكاء، والأتباع الذين أتوا للاستمتاع بمشاهدة انتصار السّاردوكار من

مدرجات الصّفوة يقفون الآن صاغرين مختنقين بصمت الهزيمة. رأى پول عيني الأمّ الموقّرة - عيني الطير الكاسر - تتقدّان بالغضب وراء غمائها الأسود، وإلى جوارها عينا فيد راوثا هاركونن الضيّقتان الماكرتان.

فكّر پول: ها هو الوجه الذي كشفه الزّمن لي، ثم نظر إلى ما خلف فيد راوثا وقد جذبت حركة انتباهه، فرأى هناك وجهًا نحيلًا مأكّرًا لم يسبق له رؤيته من قبل، لا عبر الزمن ولا في الحقيقة. شعر بأنه وجه يُفترض به أن يعرفه، وحمل الشعور مسحة من الخوف.

وتساءل: ما الذي يجعلني أخشى ذلك الرجل؟ ثم مال على أذن أمّه وهمس: «ذلك الرجل شيطاني الملامح الواقف إلى يسار الأمّ الموقّرة، من هو؟».

نظرت چيسिका إليه، وتعرّفت على وجهه الذي رآته في ملفّات الدوق: «الكونت فنرينج، من كان يسكن هذه الدار قبلنا مباشرة. قاتل وُلِدَ خَصِيًّا نتيجة خللٍ جيني».

فكّر پول: هذا ساعي الإمبراطور. صدمت الفكرة وعيه، إذ كان قد رأى الإمبراطور بين ظهري أصحابه وحاشيته مرّات لا حصر لها عبر احتمالات المستقبل، لكن الكونت فنرينج لم يظهر ولو مرّة في تلك الرؤى.

أدرك پول حينئذٍ أنه رأى جثته في قطاعات لا حصر لها من شبكة الزمن، لكنه لم ير لحظة موته مرّة واحدة، فتساءل: هل حرمت من رؤية أيّ لمحة عن هذا الرجل لأنه من سيقتلني؟ دقّت الفكرة نواقيس الخطر في نفسه وملأته بالتشاؤم، فأجبر نفسه على تحويل انتباهه عن فنرينج، وراح يتأمّل بقايا

ضُبَّاط ورجال السَّاردوكار، وما يبدو على وجوههم من مرارة
وأس. لفتت بعض الوجوه بينهم انتباه پول للحظات. كان بعضهم
يفحصون القاعة وما بها من الاستعدادات، ويخططون لطريقة
يمكن بها قلب هزيمتهم إلى نصر.

استرعى انتباه پول أخيراً امرأة شقراء طويلة، خضراء العينين،
تتمتع بجمالٍ أرسطراطي، وشموخ كلاسي المظهر: لم تمسّها
الدموع، ولا يبدو عليها انكسار. تعرّفها پول دون أن يخبره أحد
بهويّتها. إنها الأميرة الملكية، المتدربة على نهج البني جيسيرت،
الوجه الذي شاهده مراراً في أماكن كثيرة من رؤاه الزمنية:
إيرولان.

وفكر: ها هو مفتاحي للعرش.

ثم لاحظ حركة وسط الحشد، وظهر من بينهم وجه ظفير
حوّاط، بملامحه المُسنّة المشقّقة، وشفّتيه المبقّعتين، وكتفيه
المحنيّتين، وهشاشة الشيخوخة البادية عليه.

قال پول: «ها هو ظفير حوّاط. دعه يتقدّم بحرّية يا جيرني».

قال جيرني: «سيّدي».

كرّر پول: «دعه يتقدّم بحرّية يا جيرني».

أوماً جيرني.

تقدّم حوّاط بخطى متثاقلة، فارتفع رُمحُ فرمّني من أمامه
وعاد إلى مكانه من خلفه. رمقت العينان الغائمتان پول، مقيّمتين،
باحثتين.

تقدّم پول خطوة إلى الأمام، مستشعراً الحركة المتوتّرة
المرتقبة بين الإمبراطور وجماعته.

نفذ بصر حوّاط إلى ما خلف پول، وقال الشيخ الهرم: «الليدي

جيسيكَا، لم أعلم إلا اليوم إلى أي مدى ظلمتك بظنوني. أنتِ في حلٍّ من مسامحتي».

ترثتَ پول لحظة، لكن أمه ظَلَّت صامته.

قال پول: «ظفير، يا صديقي القديم. كما ترى، لا أقف وظهري إلى أي الباب».

قال حوَّاط: «الكون مملوء بالأبواب».

سأله پول: «هل صرت أشبه أبي؟».

قال حوَّاط بصوتٍ أجش: «بل تشابه جدَّك أكثر. سلوكه بادٍ فيك، ونظرته تطل من عينيك».

قال پول: «ومع ذلك أنا ابن أبي. ها أنا أقول لك يا ظفير، بإمكانك الآن أن تطلب مني أي شيءٍ تتمنَّاه نظير السنوات الطويلة التي خدمت فيها عائلتي، أي شيءٍ على الإطلاق. لو طلبت حياتي الآن يا ظفير، فهي لك»، وتقدَّم خطوة أخرى، بيدين متدلّيتين إلى جانبه، ولاحظ نظرة الفهم التي تنمو في عيني حوَّاط.

قال پول: إنه يدرك أنني على علم بالغدر.

قال پول بصوتٍ شبه هامس لئلا يبلغ إلا مسمعي حوَّاط: «أنا أعني ما أقول يا حوَّاط. إن كنت ستقتلني، فافعلها الآن».

قال حوَّاط: «كل ما أردته أن أقف أمامك مرَّة أخرى يا دوقي»، وعندها أدرك پول للمرَّة الأولى الجهد الذي يبذله الرجل العجوز كي لا يقع أرضاً. مدَّ پول يده، وأمسك بحوَّاط من كتفيه، شاعراً برجفة عضلاته تحت يديه.

سأله پول: «هل تشعر بآلم يا صديقي القديم؟».

أجابه حوَّاط: «أجل أشعر بآلم يا دوقي، لكن فرحتي أكبر». ثم استدار نصف استدارة بين ذراعي پول، ورفع يده اليسرى،

موجَّهًا راحة يده نحو الإمبراطور كاشفًا عن الإبرة الصغيرة بين أصابعه، وصاح: «أترى يا ذا الجلالة؟ أترى إبرة خائنك؟ هل كنت تظنُّ أن حوَّاط، من نذر حياته لخدمة آل آترديدز، سيضنُّ بها الآن؟».

ترنَّح پول مع تراخي جسد العجوز بين ذراعيه، وشعر بحضور الموت، وبهموده الأخير. برفق، أراح پول حوَّاط على الأرض، واعتدل واقفًا وأشار إلى الحرس كي يحملوا الجثة بعيدًا. لفَّ الصَّمت القاعة في أثناء ما كان الحرس ينفذون الأمر. بدا على الإمبراطور الآن نظرة انتظار ملتاعة. العيانان اللتان لم تعترفان من قبل بالخوف، اعترفت به أخيرًا.

قال پول: «يا صاحب الجلالة»، ولاحظ رعشة الانتباه في الأميرة الملكية الطويلة. كان قد لفظ الكلمات بنبرة بني جيسيرتية مضبوطة، وحملها بكل ما في مقدوره تحميلها به من ازدراء وتحقير.

فكر پول: إنها متدريَّة على نهج البني جيسيرت بحق.

تحنَّح الإمبراطور وقال: «رُبَّما يظنُّ قريبي المحترم أن كل الأمور تسير في صالحه، وهذا في الحقيقة بعيد كل البعد عن الصَّحَّة. لقد اخترقت بنود المعاهدة، واستخدمت الأسلحة الذريَّة ضد...».

قاطعه پول: «لقد استخدمت الأسلحة الذريَّة ضد أحد تضاريس الصَّحراء الطبيعية كان يعترض طريقي. كنت متعجِّلًا للوصول إلى جلالتك، لأطلب منك تفسيرًا لبعض أنشطتك الغريبة».

قال الإمبراطور: «هناك أسطول حاشد من العائلات النبيلة الكبرى في الفضاء فوق أراكس في هذه اللحظة، وبكلمة مني

سوف...».

قال پول: «آه، صحيح. كدت أنسى أمرهم»، وبحث بعينه بين حاشية الإمبراطور حتى رأى وجهي رجلي النقابة، ثم تكلم بشكل جانبي مع جيرني: «أهذان عميلا النقابة يا جيرني؟ هذان الرجلان البدينان في الزي الرمادي؟».

- «أجل يا سيدي».

قال پول مشيراً لهما: «أنتما، اخرجوا من مكانكما فوراً وابعثا رسالة إلى هذا الأسطول قولا فيها إنني أمره بالعودة إلى دياره. بعد ذلك، ستطلبان إذني قبل أن...».

صاح أطول الرجلين: «النقابة لا تمتثل لأوامرك!»، ثم مرّ هو ورفيقه عبر حاجز الرماح التي رُفعت بإيماءة من پول. تقدّم الرجلان مقتربين من پول، ورفع أطولهما ذراعه في وجهه قائلاً: «قد تكون الآن تحت طائلة الحظر بسبب...».

قال پول: «إن سمعت منكما مزيداً من هذا الهُراء، سأمر بتدمير كل إنتاج الاسپايس على أراكس... إلى الأبد».

قال رجل النقابة الطويل: «هل جننت؟»، وتراجع خطوة إلى الخلف.

سأله پول: «إذا تقرّ بأنني أملك القوّة لفعل الأمر؟».

بدا رجل النقابة كمن يحدّق إلى الفراغ للحظة، ثم قال: «أجل، بإمكانك فعل ذلك، ولكن عليك ألا تفعله».

أوما پول وقال: «آها، كلاكما من ملاحِي النقابة، أليس كذلك؟».

- «أجل!».

قال أقصر الرجلين: «بصيرتك أنت أيضاً ستُعَمي إن فعلتها،

وستحكم علينا جميعاً بالموت البطيء. ألدك فكرة عمّا يحدث للمرء حين يحرم من خمر الاسپايس بعد إدمانه عليه؟»
قال پول: «ستُغلق العين التي تُبصر المسارات الفضائية الآمنة إلى الأبد، وستصبح النقابة عاجزة، وسيعيش البشر في مجموعات صغيرة معزولة على كواكبها. أتعرف، قد أفعلها لمجرد النكاية... أو بدافع الملل».

قال رجل النقابة الطويل: «دعنا نتحدّث في ذلك على انفراد. أنا واثق بأننا سنصل إلى حل وسط ير...».

قال پول: «ابعث الرسالة إلى جماعتك الرابضة فوق أراكس. لقد سئمت من هذا الجدل. إن لم يغادر الأسطول الذي فوقنا قريباً، فلن تكون لنا حاجة إلى التحدّث». ثم أوماً إلى رجال الاتصالات الجالسين في طرف القاعة: «بإمكانكما استخدام أجهزتهم».

قال الرجل النقابة الطويل: «علينا أن نناقش الأمر أولاً، لا يمكننا أن...».

صاح پول: «نفذ الأمر! القدرة على تدمير الشيء هي السيطرة المطلقة عليه، وأنت سلّمت بأنني أملك تلك القدرة. لسنا هنا للمناقشة أو للتفاوض أو لتقديم تنازلات. إمّا أن تطيع أمري وإمّا تعاني العواقب الفورية!».

قال رجل النقابة القصير: «إنه يعني ما يقول»، ورأى پول الخوف يسيطر عليهما.

قطع الاثنان القاعة ببطء متّجهين إلى معدّات الاتصالات الفرمنية.

سأله جبرني: «هل سيطيعان الأمر؟».

قال پول: «بصيرتهما الزمنية محدودة وقاصرة. ليس في مقدورهما رؤية عواقب العصيان، إذ يوجد حائط هائل يحجب رؤيتهما. كل ملاح نقابة على كل سفينة فوقنا سيرى الجدار ذاته إذا حاول سبر المستقبل. سيطيغان».

ثم عاد پول والتفت إلى الإمبراطور قائلاً: «عندما سمحت النقابة لك بالجلوس على عرش أبيك من بعده، كان ذلك مشروطاً بضمان تدفُّق الاسپايس. لقد خذلتهُم يا صاحب الجلالة. هل تعرف العواقب؟».

- «لم يسمح أحدٌ لي ب...».

صاح پول: «كفاك ادِّعاء حماقة. مثل النقابة كمثل قرية على ضفاف النهر. إنهم يحتاجون إلى الماء، لكن ليس بوسعهم سوى غرف احتياجهم منه، فهم غير قادرين على بناء سدٍّ للتحكُّم في النهر، لأن ذلك يركِّز الانتباه على ما يأخذونه، ويؤدِّي إلى تدميره في نهاية المطاف. تدفُّق الاسپايس هو نهرهم، وأنا بنيت سدًّا. لكنهم لن يستطيعوا تدمير سدِّي دون تدمير النهر ذاته».

مرَّ الإمبراطور يده بين خصلات شعره الأحمر، وألقى نظرة إلى ظهري رجلي النقابة.

قال پول: «حتَّى عرَّافتك البني چيسيرت ترتجف خوفاً. ثمَّة سمومٌ أخرى يمكن للأُمَّهات الموقَّرات استخدامها في حيلهن، لكنهن بعد أن يستخدمن خمر الاسپايس، تفقد الأنواع الأخرى تأثيرها فيهن».

لَقَّت المرأة العجوز ثوبها الأسود الفضفاض حولها، وتقدَّمت خارجة من بين الحشد ووقفت عند حاجز الرماح.

قال پول: «الأُمُّ الموقرة جاييس هيلين موهيم، قد مرَّ وقتٌ طويل منذ لقائنا على كِلادان».

تجاهلته المرأة ونظرت إلى أُمِّه وقالت: «حسنًا يا چيسيكا، أرى الآن أن ابنك هو المنتظر بالفعل، ولهذا بإمكاننا مسامحتك على كل شيء، حتَّى على إنجابك ابنتك الشُّنعة».

كتم پول غضبه الحاد، وقال: «لا حقَّ لكِ مسامحة والدتي على أيِّ شيء!».

حدّقت العجوز إلى عينيه بثبات.

قال پول: «جربِّي حيلك معي أيتها السّاحرة العجوز. أين الجوم جِبارة؟ جربِّي النظر إلى المكان الذي لا تجرئين على النظر إليه! ستجدينني هناك أحدِّق إليك!».

خفضت العجوز نظرتها.

سألها پول: «أليس لديك ما تقولينه؟».

تمتمت: «لقد رَحّبت بك بين صفوف البشر، لا تلوّث ذلك».

رفع پول صوته: «انظروا إليها يا رفاق! هذه أُمُّ بني چيسيرتية موقرة، امرأةٌ صبور تخدم قضيةً طويلة الأناة. لقد انتظرت هي وأخواتها تسعين جيلًا كي تثمر توليفة الجينات والبيئة المناسبة الشخص الذي يتطلّبه مخطّطهن. انظروا إليها! لقد عرفت الآن أن الأجيال التسعين نجحت في إنتاج هذا الشخص، فها أنا ذا أقف أمامكم... لكنني... لن... أحقّق... لها... مآربها... أبدًا!».

صرخت العجوز: «چيسيكا! أسكّتيه!».

قالت چيسيكا: «أسكّتيه بنفسك».

حدّقت پول إلى العجوز وقال: «بإمكاني أن أمر بخنقك جزاءً لك على الدور الذي لعبته في كل هذا، وبهذا سأسعد»، ثم لمّا

أخذتها العزّة بالإثم صاح فيها: «ولن تستطيعي منعي! لكنني أرى أن أفضل عقاب لك هو أن تعيشي سنوات عمرك الباقية عاجزة عن المساس بي أو استخدامي لتنفيذ ولو رغبة واحدة من رغبات مخططاتك».

قالت العجوز: «جيسिका، ماذا فعلت؟».

قال پول: «سأشهد لكنّ بشيءٍ واحد يا معشر البني جيسيرت. لقد فهمتن جزءاً ممّا يحتاج إليه العرق البشري، لكن فهمكن له كان قاصراً جداً. ظننتن أن بإمكانكن التحكم بالتناسل البشري، وتهجين قلة مختارة وفقاً لخطةكن الكبرى! ما أشدّ جهلكن بطبيعة الـ....».

فحّت العجوز: «لا يجوز أن تتكلّم عن هذه الأشياء!».

زار پول: «صمتاً!». بدت الكلمة كأنها تجسّدت في الهواء من فرط قوّتها وتحكّم پول بها.

ترنّحت العجوز متراجعة فسقطت بين أذرع الواقفين خلفها، وقد شحب وجهها من أثر القوّة الصادمة التي استحوز بها على روحها. ثم همست: «جيسिका».

قال پول: «كما أتذكّر جوم جبارك، تذكّري جوم جباري. بإمكانني إزهاق روحك بكلمة مني».

تبادل الفرمن المنتشرون في القاعة نظرات فهم. ألم تقل الأسطورة: «وسوف تذبح كلمته من يقفون ضد طريق الحق». حول پول انتباهه إلى الأميرة الملكية الطويلة الواقفة بجانب أبيها الإمبراطور، وقال وعيناه مثبّتان عليها: «يا جلالة الإمبراطور، كلانا يعلم المخرج الوحيد من هذا المأزق».

نظر الإمبراطور إلى ابنته، وعاد إلى پول: «كيف تجرؤ؟ أنت! أيُّها المغامر بلا عائلة، أيُّها النكرة بلا...».

قال پول: «لقد اعترفت بهويَّتي منذ قليل وناديتني بالقرب الملكي. فلنكفُ عن هذا الهُراء».

قال الإمبراطور: «أنا إمبراطورك».

نظر پول إلى رجلي النقابة الواقفين عند أجهزة الاتصالات يحدِّقان إليه. ثم أوماً أحدهما له.

مكتبة

t.me/t_pdf

قال پول: «بإمكانني إرغامك».

صاح الإمبراطور: «لن تجرؤ!».

واصل پول تحديقه اللا مُبالي إليه.

وضعت الأميرة الملكية يدها على ذراع والدها وقالت: «أبي»، بصوتٍ ناعم كالحرير ومهدئي للأعصاب.

قال الإمبراطور: «لا تمارسي حيلك معي»، ثم نظر إليها: «لست مجبرة على فعل ذلك يا بُنيَّتي. لدينا وسائل أخرى يمكننا...».

قالت: «ولكن هذا رجلٌ يليق بأن يكون ابنك».

شَقَّت الأمُّ الموقرة العجوز طريقها -بعد أن استعادت رباطة جأشها- ووقفت إلى جوار الإمبراطور، ومالت على أذنه وهمست. قالت چيسيكا: «إنها تحبُّه على الموافقة».

لم يُنزل پول عينيه عن الأميرة ذات الشعر الذهبي، ثم سأل أمه على حِدَّة: «أليست هذه إيرولان، كبرى أخواتها؟».

- «بلى».

اقتربت تشاني ووقفت إلى جوار پول وقالت: «أتريدني أن أغادر يا مؤدِّب؟».

نظر إليها قائلاً: «تفادرين! لن تفارقي جانبي مرَّةً أخرى».

قالت تشاني: «ليس بيننا رباطٌ ملزم».

نظر إليها پول صامتاً لبرهة، ثم قال: «لا تكذبي عليَّ يا سيَّهياتي»، وعندما همَّت بالردِّ، وضع إصبعه على شفثيها ليسكتها وقال: «الرباط الذي بيننا لا فكاك منه. الآن، أريدك أن تراقبي ما يدور جيِّداً، لأنني سأرغب لاحقاً في رؤية ما دار في هذه القاعة من خلال منظورك الحكيم».

كان الإمبراطور وعِرافته يخوضان جدالاً محتدماً بصوت خفيض.

قال پول إلى أمِّه: «إنها تذكره بأن جزءاً من الاتفاق المبرم بينهم يلزمه بوضع امرأة من البني جيسيرت على العرش، وإيرولان هي التي أعدوها لهذا الأمر».

سألت جيسيكاً: «هل كانت هذه خطتهم من البداية؟».

سألها پول: «أليس هذا واضحاً؟».

احتدَّت جيسيكاً قائلة: «أعرف هذا! قصدت بسؤالِي تذكيرك بأنه لا ينبغي لك تعليمي الأمور التي علَّمتك إياها».

نظر پول إليها، ورأى ابتسامة باردة تتلاعب على شفثيها.

مال جيرني متدخلاً بينهما وقال: «أذكرك يا سيَّدي بوجود أحد الهراكنة بين أفراد هذه المجموعة»، وأوماً برأسه إلى فيد راوثا ذي الشعر الداكن المتكئ على حاجز الرماح إلى اليسار: «صاحب العينين الضيقتين هذا الواقف إلى اليسار. إن الشَّر البادي في ملامحه لم تسبق لي رؤية مثله. لقد وعدتني ذات مرَّة أن...».

قال پول: «شكراً لك يا جيرني».

قال جيرني: «إنه ولي عهد البارونية، وهو البارون رسمياً الآن بعد موت العجوز. سيصلح لما أعددت له من...».

- «هل بإمكانك التغلب عليه يا جيرني؟».

- «سيدي يمزح بالتأكيد!».

- «لقد طال الجدل بين الإمبراطور وساحرته بما يكفي، ألا تظنين ذلك يا أمي؟».

أومات قائلة: «بلى».

رفع پول صوته وصاح بالإمبراطور: «يا جلالة الإمبراطور، هل يوجد بينكم أحد الهراكنة؟».

كشف الازدراء الملكي عن نفسه في الطريقة التي استدار بها الإمبراطور لينظر إلى پول: «ظننت أن حاشيتي تحت حماية وعدك الدوق».

قال پول: «سؤالي كان للعلم فقط. أرغب في معرفة إن كان أحد الهراكنة جزءًا من حاشيتك بشكل رسمي، أم هو يختبئ بدافع جبنه وراء الشكليات».

كانت ابتسامة الإمبراطور مأكرة ومحسوبة وهو يقول: «أي شخص قبلت وجوده تحت لوائي الإمبراطورية هو جزء من حاشيتي».

قال پول: «أعطيتك كلمة الدوق، أمّا المؤدّب فقد يكون له رأي آخر، وقد لا يعتدّ بتعرفيك لكلمة حاشية. صديقي جيرني هاليك يتمنى أن يقتل أحد الهراكنة، ولو...».

صاح فيد راوثا: «أطالب بالكانلي!»، ثم مال على حاجز الرماح وأردف: «أبوك هو من دعا إلى هذا الثأر يا آتريديز. أتعتني أنا بالجبن وأنت تختبئ بين نسائك، وترغب في إرسال خادمك لمواجهةي؟».

همست عرافة الحقيقة المعجوز شيئاً بحدة في أذن الإمبراطور،

لكنه دفعها جانباً وقال: «الكانلي إذا؟ للكانلي قواعد صارمة».

قالت جيسيكا: «بول، ضع حداً لهذا الأمر!».

قال جيرني: «سيدي، لقد وعدتني باليوم الذي سأثار فيه من الهراكنة».

قال بول: «لقد حظيت بيومك معهم»، وشعر بمرحٍ لعوب يطفئ على مشاعره. ثم خلع ثوبه وأنزل قلنسوته من فوق كتفيه وسلمهما لأمه مع حزامه وسكّينه العاجية، وبدأ يفك أربطة بذلة التقطير شاعراً بأن الكون برمته يركّز على هذه اللحظة.

قالت جيسيكا: «لست مضطراً إلى ذلك يا بول، فتمّة طرائق أسهل».

خلع بول بذلة التقطير، واستلّ السكّين العاجية من غمدها الذي في يد أمّه، وقال: «أعرف هذا. القتل بالسّم، أو تعيين مفتال... كل الطرائق المألوفة».

همس جيرني: «وعدتني بأن أقتل هاركوننيا»، ولاحظ بول الغضب البادي على وجهه، والطريقة التي برزت بها ندبة سوط الإنكفاين، داكّة وممثلة. «أنت مدين لي بهذا يا سيدي!».

سأله بول: «هل عانيت منهم أكثر مني؟».

قال جيرني بصوت مبحوح: «أختي، وسنوات العذاب في حُفر العبيد...».

قال بول: «وأبي، وصديقي ورفيقي الطيّبان، ظفير حوّاط ودانكن آيداهو، والسنوات التي قضيتها هارباً بلا رتبة ولا راحة. وضمف إلى كل هذا شيئاً آخر: لقد احتكم إلى الكانلي، وأنت أعلم بالقوانين التي يجب التزامها».

تراخت كتفا جيرني وقال: «سيدي، لو قام هذا الخنزير... إنه ليس إلا بهيمة تركلها بقدمك ثم تتخلص من حذائك بعد أن لوئته. استدع جلاًداً إن لزم الأمر، أو دعني أنا أفعلها، لكن لا تعرض نفسك...».

قالت تشاني: «المؤدّب لا يحتاج إلى فعل هذا».

نظر پول إليها، ورأى في عينيها خوفها عليه.

فقال: «لكن الدوق پول يجب أن يفعلها».

قال جيرني بصوت مبحوح: «إنه مجرد حيوان هاركونني!».

تردد پول وكاد يكشف عن أصوله الهاركونية، لكن النظرة الحادة من أمه أوقفته، فلم يزد عن: «لكن هذا الكائن له هيئة بشرية يا جيرني، ويستحق القليل من الشك في صالحه».

قال جيرني: «لو حدث أن مسّ....».

قاطعه پول: «تتح جانباً من فضلك»، واختبر السكين العاجية في يده، وأزاح جيرني جانباً برفق.

قالت جيسيك: «جيرني!»، ولمست ذراعه: «إنه يشبه جدّه في هذه الحالة المزاجية. لا تشكّه، هذا كل ما بإمكانك فعله الآن»، وفكرت: بحق الأم العظيمة! يا لها من مفارقة!

تأمل الإمبراطور فيد راوثا، متفحّصاً منكبيه العريضين، وعضلاته القويّة. ثم التفت ونظر إلى پول، فرأى شاباً نحيلاً كحبلٍ مجدول، ليس عاجفاً كالسكان المحليين، لكن ضلوعه بارزة ويمكن عدّها، وغائرة في خواصره بحيث يستطيع المرء تتبّع حركة العضلات تحت الجلد.

مالت جيسيكاً مقتربةً من پول، وقالت بصوتٍ خفيض كي لا يسمعه غيره: «سأخبرك بنصيحة واحدة يا بُني. في بعض

الأحيان تُهيئ أخوات البني جيسيرت الأشخاص الخطرين عن طريق زرع كلمة في أعماق وعيهم، باستخدام أساليب المتعة والإيلام القديمة. الكلمة المستخدمة عادةً تكون أروشنور. إن كان هذا الفتى قد خضع للتهيئة -كما أظن بشدة- فنطق الكلمة في أذنه سيجعل عضلاته ترتخي و...».

قاطعها پول: «لا أحتاج إلى أفضلية على هذا الشخص. تراجعني وابتعدي عن طريقي».

تحدث جيرني إليها: «ماذا يفعل؟ أفكر في تعريض نفسه للقتل ليصير شهيداً. أهذا الهراء الديني الفرمني هو ما يملأ عقله ويؤثر في حكمه؟».

أخفت جيسيكاً وجهها في يديها، مدركة أنها لا تعرف السبب وراء اتّخاذ پول هذا المسار. شعرت بالموت يخلع برده على القاعة، وعرفت أن تفكير پول بعد تبدّله قد يكون منصباً بالفعل على ما ذكره جيرني. صرخت فيها كل مواهبها كي تنقذ ابنها، ولكن لم يكن بيدها شيء.

عاد جيرني يسأل بإصرار: «أهذا بسبب الهراء الديني؟».

همست جيسيكاً: «اصمت، وأدعُ له».

ارتسمت على وجه الإمبراطور ابتسامة مفاجئة، وقال: «إن كانت هذه رغبة فيد راوثا هاركونن، الذي هو من حاشيتي، فأنا أعفيه من كل القيود وأمنحه حرية اختيار طريقه بنفسه»، ثم أشار الإمبراطور بيده إلى أحد الفدائيين وقال: «واحد من رعاعك أخذ حزامي ونصلي القصير. إن رغب فيد راوثا في ذلك، فبإمكانه مواجهتك ونصلي في يده».

قال فيد راوثا: «أجل، أرغب في ذلك»، ورأى پول الابتهاج
بالنفس يملأ وجه الرجل.
فكّر پول: إنه مفطر الثقة بنفسه، وفي هذا أفضلية طبيعية
لا يضيرني قبولها.

قال پول: «هات نصل الإمبراطور»، وراقب الحارس وهو يطيع
أمره، ثم قال: «ضعه هنا»، وحدّد المكان بقدمه، وواصل: «أبعد
رعاع الإمبراطور وأوقفهم قبالة الحائط، ودع الهاركونني واقفاً
مكانه».

صاحب تنفيذ أمر پول أصوات حفيف الملابس، واحتكاك
الأقدام بالأرض، وأوامر واحتجاجات خفيضة الصّوت. ظلّ رجلاً
النقابة واقفين بالقرب من معدّات الاتصالات، ينظران إلى پول
في عبوسٍ حائر واضح.

فكّر پول: لقد اعتادا استشراف المستقبل، لكنهما في هذا
الزمان والمكان ضريان... مثلي تماماً. جرّب پول تذوّق رياح
الزمن، فشعر فيها بالاضطراب، وبمحور العاصفة المرتكز الآن
على هذه اللحظة الزمكانية. حتّى الفجوات الصغيرة صارت مغلقةً
الآن. كان يعلم أن جنين الجهاد الذي لم يُولد بعد حاضر هنا، أن
الوعي الجمعي للجنس البشري الذي عرفه من قبل باسم الغاية
الرهيبة حاضر هنا، أن سبباً كافياً لوجود الكويزاتس هاديراك أو
لسان الغيب أو حتّى مخططات البني جيسيرت المبتسرة حاضر
هنا. لقد شعر الجنس البشري بخموله، شعر بأنه صار آسناً، ولم
يعد يعرف الآن إلا الحاجة إلى الدخول في فوضى تختلط فيها
الچينات تتجو بعدها الأخلاط الجديدة لتورث صفاتها. كل البشر
كانوا حاضرين في تلك اللحظة، ككائن حي واحد غير واعٍ، يمرّون

بنوع من الإثارة الجنسية القادرة على التغلب على أي حاجز. أدرك پول كم كانت الجهود التي بذلها لتغيير ولو جزء صغير من الأمر غير مجدية. كان يظن أنه سيقاوم الجهاد بداخله، لكن الجهاد قادم لا محالة. ستتطلق جحافل خارجة من أراكس في حماسة جنونية مسعورة، فكل ما كان ينقصهم هي الأسطورة التي صارها. لقد أهداهم الطريق، بل وأعطاهم السلطة حتى على النقابة التي يعتمد وجودها على الاسپايس.

اجتاحه شعورٌ بالفشل، ورأى عبره فيد راوثا هاركونن يخلع عنه زيّه الممزق، ويتجرّد من كل شيء إلا حزام القتال العريض المدعّم بصفائح معدنية.

فكّر پول: ها قد بلغنا الذروة. من هنا، ستفتتح آفاق المستقبل، وستنشع الغيوم كاشفةً عن مجدٍ بطريقةٍ أو بأخرى. إذا مُت، سيقولون إنني ضحيت بنفسي في سبيل أن تقودهم روحي. وإذا عشت، سيقولون إن لا شيء قادر على اعتراض طريق المؤدّب.

صاح فيد راوثا: «هل الأتريديزي جاهزون؟»، مستخدماً كلمات طقس الكانلي القديمة.

اختار پول أن يجيبه على الطريقة الفرمنية: «عسى أن تنكسر سكينك وتنهشم»، وأشار إلى نصل الإمبراطور الموضوع على الأرض، معلناً أن على فيد راوثا التقدّم وأخذه.

مبقياً انتباهه على پول، التقط فيد راوثا السكين، وقلّبه في يده للحظة مختبراً وزنه. اشتعلت الإثارة فيه، إذ كان هذا هو القتال الذي كان يحلم به: رجلٌ لرجل، مهارة ضد مهارة، بلا دروع. رأى بعين الخيال طريق السُّلطة يفتح أمامه، لأن الإمبراطور بلا شك سيكافئ من سيقتل هذا الدوق المزعج، وقد تتضمّن

المكافأة تلك الابنة المعتدة بنفسها، ونصيباً في العرش. وهذا الدوق الجلف، هذا المغامر القادم من عالم بدائي، يستحيل أن يكون ندًا لهراكونني تدرب على استخدام كل أداة وكل حيلة غدر عبر ألف قتال في الحلبة. كما أن هذا الجلف لا يعلم أنه يواجه هنا أسلحة أكثر من مجرد سكين.

فكر فيد راوثا: لنرى إن كنت منيعاً ضد السم! ثم حيا پول بنصل الإمبراطور قائلاً: «قابل حتفك أيها الأحمق».

سأله پول: «هلاً تقاتلنا يا ابن العم؟»، وتقدم إلى الأمام في حذر القطط، عيناه على النصل المتأهب، وجسده رابض أرضاً، مشهراً سكينه العاجية التي في بياض الحليب كأنها امتداد لذراعه.

دار أحدهما حول الآخر، واحتكت أقدامهما العارية بالأرض، وراقب كل منهما غريمه بعينين متأججتين متأهبتين لاقتناص أقل فرصة.

قال فيد راوثا: «ما أجمل رقصك».

فكر پول: إنه ثرثار، وهذه نقطة ضعف أخرى. الصمت يؤثر.

سأله فيد راوثا: «هل اعترفت بذنوبك ونلت المغفرة؟».

واصل پول دورانه في صمت.

ارتجفت الأم الموقرة العجوز وهي تراقب القتال من مكانها وسط حاشية الإمبراطور. لقد نادى الفتى الآتريديزي الشاب الهاركونني بابن العم، وهذا يعني أنه يعلم الأصل الذي يتشاركانه، وهو أمر سهل فهمه لكونه الكويزاتس هاديراك. لكن الكلمات أجبرتها على التركيز على الأمر الوحيد الذي يهمها هنا.

قد تكون هذه طامة كبرى على برنامج تناسل البني جيسيرت.

لقد رأت شيئاً ممّا رآه پول هنا، أن فيد راوثا قد يتمكّن من قتله، لكنه لن يخرج منتصراً. لكن فكرة أخرى باغتها واستحوذت عليها. المنتجان النهائيان لهذا البرنامج الطويل والمكلف يواجه أحدهما الآخر في قتال حتّى الموت قد يقضي على كليهما. إن مات الاثنان هنا، فلن يتبقّى غير ابنة فيد راوثا النّفلة التي لم تزل طفلة، والتي تُعدّ بالتالي عنصراً مجهولاً لم يقاسِ بعد.. وعالية الشّنة.

قال فيد راوثا: «ربّما لم تجد هنا إلا طقوساً وثنية. أتريد أن تجهّز كاهنة الإمبراطور روحك لرحلتها؟».

ابتسم پول، وهو يدور إلى اليمين، يقظاً، قامعاً أفكاره السوداء تلبيةً لاحتياجات اللحظة.

قفز فيد راوثا مراوغاً بيده اليمنى، ونقل السكّين بسرعة خاطفة إلى يده اليسرى.

تفادى پول هجمته بسهولة، ملاحظاً التردّد البادي في اندفاعه فيد راوثا الناتج عن ارتباط عقله الشرطي بوجود الدرع. ومع ذلك، لم يكن هذا أكثر اعتماد على الدرع الذي رآه پول، وشعر بأن فيد راوثا سبق له أن قاتل خصوماً غير مدرّعين.

سأله فيد راوثا: «هل يفرّ الآتريديزي أم يبقى ويقا تل؟».

واصل پول دورانه في صمت، وتذكّر كلمات أيدهو التي سمعها في مران قديم في حجرة التدريب على كلادان: «استغل اللحظات الأولى في دراسة الخصم. قد تضيق بهذا فرصة تحقيق نصرٍ سريع، لكن لحظات الدراسة تلك ستضمن لك النجاح. خذ وقتك وكن متيقّناً».

قال فيد راوثا: «رُبَّمَا تظُنُّ أن هذا الرقص سيُطيل حياتك لحظاتٍ إضافية، حسنًا إذا»، ثم توقَّف عن الدوران، واستقام. كان پول قد رأى ما يكفي منه للتوصُّل إلى تقدير مبدئي بشأنه. تقدَّم فيد راوثا بجانبه الأيسر، مقدِّمًا ساقه اليمنى كما لو أن حزام القتال المعدني قادر على حماية جانبه بالكامل. كانت هذه هجمة رجل تدرب على استخدام الدروع واستعمال السكين بكلتا يديه.

أو... ثم تردَّد پول... قد لا يكون الحزام مجرَّد حزام!

بدا الهاركونني واثقًا بنفسه أكثر من اللازم أمام الرجل الذي قاد قوَّاته اليوم للانتصار على خمسة فيالق من السَّاردوكار. لاحظ فيد راوثا تردُّده فقال: «لماذا نوجِّل المحتوم؟ أنت تؤخِّرني عن ممارسة حقوقي على كرة التراب هذه».

فكَّر پول: لو كان به قاذفة سهام، فهي مخفأة ببراعة. لا يظهر على الحزام أي آثار عبث.

صاح فيد راوثا: «لِمَ لا تتكلَّم؟».

استأنف پول دورانه المتفحَّص، سامحًا لنفسه بالرد بابتسامة باردة على نبرة القلق البادية في صوت فيد راوثا التي تدلُّ على أن صمته يضغط على أعصابه.

قال فيد راوثا: «أبتسم؟»، ووثب عليه قبل أن يكمل سؤاله.

ولأنه كان يتوقَّع التردُّد البسيط السابق، كاد پول يخفق في مراوغة النصل الذي هوى عليه، وشعر بطرفه يجرح ذراعه اليسرى. كتم الألم الذي يشعر به، وغمر عقله إدراك أن التردُّد السابق كان خدعة، خدعة مزدوجة. يبدو أن خصمه أدهى وأبرع ممَّا توقَّع. سينطوي القتال على مكر محبوبك في مكر محبوبك في مكر، حيل بعضها فوق بعض.

قال فيد راوثا: «علّمني مِنّاتك ظفِير حَوَّاط بعض الحيل، وبفضله كنت أوّل من يسفك الدم. لسوء الحظّ أن الأحقّق العجوز لم يعيش ليرى الأمر بنفسه».

تذكّر پول شيئاً قاله آيداهو ذات مرّة: «لا تشغل بالك بغير القتال، بهذه الطريقة لن تتفاجأ أبداً».

ومن جديد استأنف الاثنان الدوران، رابضين، حذرين. لاحظ پول الابتهاج بالنفس يعود إلى خصمه، وتعجّب له. كيف ينتشي إلى هذه الدرجة من مجرّد خدش؟ إلا لو كان النصل مسموماً! ولكن كيف؟ رجاله أنفسهم هم من جلبوا السلاح، وقد تأكّدوا من خلّوّه من السّموم قبل تركه على الأرض. إنهم حسّنو التدريب ولن يفوتهم شيء كهذا.

سأل فيد راوثا: «تلك المرأة التي كنت تتكلّم معها هناك؟ الضيّلة الجسد. هل لها مكانة خاصّة عندك؟ ربّما هي حيوانك المدلّل؟ هل تستحقّ اهتماماً خاصّاً مني؟».

ظلّ پول صامتاً، يفحص نفسه بحواسه الداخلية، ويختبر دم الجرح، حتّى عثر على أثر مخدّر من نصل الإمبراطور. أعاد ضبط عمليات أيضه لتتناسب مع هذا التهديد ولتغيّر جزيئات المخدّر، لكن الشكوك انتابته. لقد جاؤوا مستعدين بمخدّر على النصل، والمخدّر -عكس السّم- مادّة لن يكتشفها كشّاف السّموم، لكنه قوي بما يكفي لإبطاء عمل عضلاته. لقد جاء أعداؤه وفي جمعيتهم الخطّة تلو الخطّة، مستعدين بطبقات من الغدر.

قفز فيد راوثا طاعناً مرّة أخرى.

بابتسامة جامدة على وجهه، تفادى پول الطعنة ببطء كما لو أن المخدّر يعوقه، وفي اللحظة الأخيرة راوغ ليقابل الذراع الهاوية

عليه بطرف سكينه العاجية.

تملّص فيد راوثا جانباً وتراجع، وانتقل نصله إلى يده اليسرى، دون أن يفضح الألم الحارق الذي شعر به من جرح پول له سوى شحوب طفيف اعتلى وجهه.

فكّر پول: دعه يحظى بشكوكه الخاصة، دعه يرتاب في أن النصل مسموم.

صاح فيد راوثا: «خيانة! لقد سمّمني! أشعر بالسّم يسري في ذراعي!».

خلع پول عنه فروة الصّمت، وقال: «ليس سُمّاً، بل القليل من الحمض المضاد للمخدر الذي على نصل الإمبراطور».

انتحل فيد راوثا ابتسامة پول الباردة، ورفع النصل في يده اليسرى بتحيّة هازئة، واشتعلت عيناه بالغضب وراء السّكين.

نقل پول سكينه العاجية إلى يده اليسرى، حاذياً حذو خصمه، ومن جديد راحا يدوران في حذر الضواري.

بدأ فيد راوثا يضيق المسافة الفاصلة بينهما، متسللاً بخفّة، مشهراً سكينه عالياً، والغضب باد في ضيق عينيه وصرامة فكّه.

راوغ بحركة خادعة سفلية في اتجاه اليمين، ثم التحم الرجلان وأمسك كل منهما بيد الآخر الممسكة بالسّكين، وانخرطا في صراع.

أجبر پول كليهما على الانعطاف يميناً، لخوفه من فخذ فيد راوثا اليمنى حيث يشتبه في وجود قاذفة سهام مسمومة، وكاد

يفشل في رؤية سنّ الإبرة المتأهّب للانطلاق من تحت الحزام، ولم يحذّره منه إلاّ تغيّر وتراخ طراً على حركة فيد راوثا. أخطأت

سنّ الإبرة الرفيعة جسد پول بقيد أنملة.

ذَكَرَ بُولُ نفسه: غدر محبوبك في غدر محبوبك في غدر. ثم استخدم عضلاته التي تدرّبت على أساليب البني جيسيرت، وأرخی جسده ليلتقط ردة فعل من فيد راوثا، لكن اضطراره إلى تجنب السن الصغيرة البارزة من فخذ خصمه جعله يترنح وتزل قدمه، فسقط بقوة على الأرض، وفيد راوثا فوقه.

همس فيد راوثا: «أترى ما على فخذي؟ إنه موتك أيها الأحق.»

وبدأ يثني جسده، مقرّباً الإبرة المسمومة أكثر فأكثر: «ستصاب عضلاتك بالشلل، وسيجهز عليك سكينى. ولن يبقى في جسدي أثر لسُم يمكن اكتشافه!».

شدّ بُولُ جسده، منصّباً إلى الصرخات الصامتة في عقله. كان أسلافه المحفّورون في خلاياه يطالبونه باستخدام كلمة السر لإبطاء فيد راوثا، وإنقاذ نفسه. قال لهاثا: «لن أقولها!».

حدّق إليه فيد راوثا فاعرّأ فمه، واعترفته لحظة تردّد خاطفة، لكنها كانت كافية كي يعثر بُولُ على نقطة ضعف في توازن إحدى عضلات ساق غريمه، ويستغلّها لصالحه ويقلب وضعيهما. استلقى فيد راوثا جزئياً إلى الأرض رافعاً فخذ اليمنى عاجزاً عن الاستدارة بسبب سنّ الإبرة الدقيقة العالقة في الأرض أسفله. لوى بُولُ يده اليسرى وحرّرها بمساعدة لزوجته الدم النازف من ذراعه، ودفع نصله بقوة تحت فك فيد راوثا، فانزلق النصل مخترقاً العظام واستقرّ في المخ. انتفض جسد فيد راوثا وتراخى

على الأرض، وهو لا يزال مرفوعاً جزئياً بسبب الإبرة المفروسة في الأرض.

دفع پول نفسه بعيداً عنه وهو يتنفس بعمق لاستعادة هدوئه. ثم نهض، ووقف فوق الجسد، والسكين في يده، ورفع عينيه ببطءٍ متعمدٍ ناظرًا عبر الغرفة إلى الإمبراطور.

قال پول: «يا جلالة الإمبراطور، نقصت قوّاتك واحداً. هلاً نتوقّف الآن عن الزيف والتظاهر؟ هلاً نناقش ما يجب أن يكون؟ ستكون ابنتك زوجةً لي، وبها سيتمهد الطريق أمام فرد آتريديزي للجلوس على العرش».

التفت الإمبراطور ونظر إلى الكونت فنرينج، فبادلته الكونت النظرة. واجهت العينان الرماديتان نظيرتيهما الخضراوين، وسرى بين الرجلين فهمٌ متبادل، إذ مكّنتهما صداقتهما الطويلة وماضييهما المشترك من التفاهم بمجرد نظرة.

كانت نظرة الإمبراطور تقول: اقتل حديث النعمة المغرور هذا من أجلي. صحيح أن الآتريديزي شاب وواسع الحيلة، لكنه أيضاً منهلك من الصراع الطويل، ولن يكون ندّاً لك على أيّ حال. ادعوه للنزال الآن... أنت تعلم الطريقة. اقتله.

تحرك رأس فنرينج ببطء في التفاتة مطوّلة حتّى واجه پول. همس الإمبراطور: «افعلها!».

صبّ الكونت تركيزه على پول، ناظرًا إليه بعينين درّبتيهما الليدي مارجو زوجته على نهج البني جيسيرت، مدركاً الغموض والعظمة الخفية في هذا الشاب الآتريديزي. فكّر فنرينج: بإمكانني قتله، وهو متيقن من ذلك.

لكن شيئاً نابعاً من أعماق الكونت منعه، وقد لمح -بشكل

خاطف وقاصر- الأفضلية التي يمتاز بها على پول: خفاؤه عن الشاب، وشبحية شخصيته ودوافعه التي تعجز أي عين عن اختراقها.

أمّا پول، الذي أدرك بعضاً من هذا من الطريقة التي كان المحور الزمني يفلي بها، فهم أخيراً لماذا لم ير الكونت فنرينج في أي من رؤاه المستقبلية على امتداد شباك الاستبصار. كان فنرينج واحداً من المرشّحين المحتملين لأن يكونوا الكويزاتس هاديراك، لكن خلافاً جينياً أصابه في طور التكوين وجعله خصياً، فتركزت موهبته على الدهاء والعزلة الداخلية. شعر پول بتعاطف عميق مع الكونت، وكان هذا أوّل شعور أخوة لمسّه على الإطلاق. قال فنرينج وقد قرأ ما يجيش صدر في پول: «أنا مضطر إلى الرفض يا جلالة الإمبراطور».

سيطر الغضب على شادام الرابع، فتقدّم خطوتين عبر حاشيته، وصفح فنرينج بقوة على وجهه. احتقن الدم في وجه الكونت وسوّده، فنظر بحدّة إلى عيني الإمبراطور، وقال ضاغطاً على مقاطع كلماته: «نحن صديقان منذ زمن صاحب السمو، ما أفعله الآن أفعله بدافع الصداقة. سأنسى أنك صفعتني».

تنحّج پول وقال: «كنا نتحدّث عن العرض يا صاحب الجلالة». استدار الإمبراطور، وحدّق إلى پول وصاح: «أنا من يجلس على العرش!».

قال پول: «سيكون لك عرش على سالوسا سوكانداس». صاح الإمبراطور: «ألقيت بسلاحي وجئت إلى هنا بناءً على كلمة شرف منك! كيف تجرؤ على تهديد...».

قال پول: «أنت آمن في حضوري، لقد وعدك الآتريديزي بذلك. أمّا المؤدّب، فيحكم عليك بالنفي على كوكبك السجني. لكن لا تخش شيئاً يا جلالة الإمبراطور. سألطف من قسوة المكان بكل الإمكانيات المتاحة لي. سيصبح كوكباً غنّاء، مملوءاً بالأشياء اللطيفة».

مع اتّضح دلالات كلمات پول في ذهن الإمبراطور، حدّق إليه عبر القاعة، وقال ساخرًا: «الآن نرى دوافعك الحقيقية».

قال پول: «بالفعل».

سأله الإمبراطور: «وماذا عن أراكس؟ هل سيصبح هو الآخر كوكباً غنّاء مملوءاً بالأشياء اللطيفة؟».

قال پول: «لقد أعطى المؤدّب كلمته للفرمن. سيتدفّق الماء في مسطّحات مائية لا يبلغ البصر مداها، وستزدهر واحات خضراء غنية بالنعم. لكن علينا التفكير في الاسپايس أيضًا. وبالتالي، ستكون هناك صحار دائمة على أراكس، ورياح عنيفة، ومصاعب كي يعتاد الرجال خشونة العيش. نحن معشر الفرمن لدينا حكمة تقول: "خلق الربُّ أراكس لتدريب المؤمنين"، ولا يمكن لأحد أن يخالف كلمة الرب».

كان لعرّافة الحقيقة العجوز -الأمّ جايس هيلين موهيم- وجهة نظرها الخاصة للمعنى الخفي في كلمات پول، إذ لمحت فيه الجهاد، فقالت: «لا يمكنك إطلاق أولئك الناس على الكون!».

صاح پول: «ستحنّين وقتها إلى أساليب السّاردوکار الرقيقة!».

همست قائلة: «لا يمكنك».

قال پول: «أنت كاشفة حقيقة، أعيدي النظر في كلامك»، ثم ألقى نظرة إلى الأميرة الملكية، وعاد إلى الإمبراطور وقال: «من الأفضل أن ينتهي الأمر سريعًا يا صاحب الجلالة».

نظر الإمبراطور إلى ابنته نظرةً ملتاعةً، فلمست ذراعه وقالت بنبرة مهدئة: «هذا ما تدرّبت من أجله يا أبي».

أخذ الإمبراطور نفساً عميقاً.

تمتعت الأمُّ العجوز: «لن تتمكّني من تهدئة هذا الشيء».

شدَّ الإمبراطور قامته، ووقف في شموخ متذكّراً هيئته ومقامه الرفيع: «من سيتفاوض باسمك يا نسيبي؟».

استدار پول، ورأى أمّه تقف بجفنين مسدلين إلى جوار تشاني وسط مجموعة من الحرس الفدائيين. اقترب منهم، ووقف ينظر إلى تشاني.

همست تشاني: «أنفهم الأسباب. افعل ما تراه صواباً يا أصول».

أحسنّ پول في صوتها بما تكتمه من دموع، فلمس وجنتها وهمس: «لا تخشي شيئاً يا سيّھياتي، أبداً»، ثم أنزل ذراعه، وواجه أمّه قائلاً: «ستتفاوضين باسمي يا أمّاه، وتشاني إلى جوارك. إنها حكيمة ونافذة البصيرة. صدق من قال إن لا أحد يساوم أفضل من الفرمني. ستنظر إلى الأمر بعين حبها لي، وستفكر في مصلحة أبنائها المستقبليين. أصفي إليها يا أمّي».

أحسنّت چيسيكا بما يدور في عقل ابنها من حساباتٍ غليظة، فكتمت رجفة اعترتها، وسألته: «ما تعليماتك؟».

قال: «ستكون حصّة الإمبراطور الكاملة في شركة تشوم مهري».

- «كاملة؟». صدمها الأمر حتّى كاد يعجزها عن النطق.

- «سيُجرّد من كل شيء. أيضاً أريد لجيرني هاليك أن يُمنح رتبة نبيل وأن يكون له مقعداً في مجلس إدارة تشوم، وأن يُمنح

حكم إقطاعية كلادان. ستمنح ألقاب وصلاحيات لكل ناج من أتباع آل أترديدز دون استثناء، حتى أهل الجنود رتبة». سألته جيسيك: «ماذا عن الفرمن؟».

قال پول: «الفرمن أتباعي، وما سيحصلون عليه سيوزعه عليهم المؤدب. سيبدأ الأمر بتعيين ستيلاجار حاكمًا على أراكس، لكن يمكن لهذه الأمور أن تنتظر».

مكتبة

t.me/t_pdf

سألته جيسيك: «وماذا عني؟».

- «أترغبين في شيء معين؟».

قالت: «كلادان رُبّما»، وهي تنظر إلى جيرني: «لست متأكّدة. لقد صرت فرمنية إلى حدّ كبير، وأُمهم الموقرة كذلك. أحتاج إلى مدّة من السلام والسكون أفكّر فيها».

قال پول: «لك هذا، وأي شيء آخر نستطيع أنا وجيرني توفيره لك».

أومأت جيسيك، وقد شعرت فجأة بأنها عجوز منهكة، ثم نظرت إلى تشاني: «وماذا عن الخليفة الملكية؟».

قالت تشاني: «لا أريد ألقابًا ولا أي شيء. أتوسّل إليك».

نظر پول في عينيها، وتذكّر مظهرها حين وقفت ذات يوم محتضنة ليتو الصغير بين ذراعيها، ابنتها الذي قضى نحبه في هذه الشدّة، فهمس لها: «وها أنا أقسم لك الآن أنك لن تكوني في حاجة إلى لقب. تلك المرأة الواقفة هناك ستصير زوجتي، وستبقين أنت مجرد خليفة، لأن هذا شأن سياسي فحسب، ولأن علينا فرض السلام بدايةً من هذه اللحظة كي نكسب عائلات مجلس اللاندسراد الكبرى في صفّنا. لا بُدّ لنا من أتباع القوانين».

أمّا تلك الأميرة فلن تحصل مني سوى على اسمي. لا ابن، ولا لمسة، ولا نظرة حانية، ولا لحظة اشتهاء».

قالت تشاني: «هذا ما تقوله الآن»، ورنّت عبر الغرفة إلى الأميرة الطويلة.

همست لها جيسيكّا: «ألم تعرفي طبع ابني بعد؟ انظري إلى تلك الأميرة الواقفة هناك في شموخ واعتداد بالنفس. يقولون إن لها طموحات أدبية. لنأمل أن تجد العزاء والسلوى في هذه الأمور، إذ لن يكون لديها شيء آخر»، وقالت ضحكة مريرة من جيسيكّا، قبل أن تردف: «فكّري في الأمر يا تشاني، تلك الأميرة ستحمل اسمه، لكنها ستعيش حياتها أقل شأنًا من حظيَّة، ولن تذوق لحظة حنان واحدة من الرجل الذي ارتبطت به. أمّا نحن يا تشاني، من نُعت بالخليلات، سيسمّينا التاريخ زوجات».

ملحقات

الملحق الأول: بيئة كثيب

في المساحات المحدودة، تتزايد الأعداد حتَّى تبلغ نقطة حرجة تتضاءل بعدها الحرّية. ينطبق هذا على البشر الذين يعيشون في مساحة محدودة داخل نظام بيئي كوكبي، كما ينطبق على جزئيات الغاز في قارورة محكمة الغلق. لكن في حالة الوضع البشري، لا يتعلق السؤال بعدد الأشخاص القادرين على البقاء أحياء داخل النظام، بل بنوعية الحياة التي سيعيشها أولئك الناجون.

پاردو كاينز

عالم البيئات الكوكبية الأول على أراكس.

عادةً ما يترك أراكس انطباعاً على عقل الوافد الجديد بأنه أرضٌ قاحلة. قد يظنُّ الغريب أن لا شيء يمكن أن يعيش أو ينمو في هذا العراء، وأن الكوكب مقفر بحق، وأنه لم يكن خصباً من قبل ولن يكون أبداً.

أمّا في نظر پاردو كاينز، لم يكن الكوكب سوى شكل من أشكال الطاقة، آلة تحرّكها شمسها، وما كان ينقصه هو إعادة تشكيله ليلائم احتياجات الإنسان. لذا اتّجه تفكيره على الفور إلى الكتلة السكّانية التي تتنقّل بحريّة على سطحه: الفرمن. يا لهم من أداةٍ ويا له من تحدٍّ. الفرمن: إنهم قوّةٌ بيئيةٌ وجيولوجية ذات إمكانات غير محدودة تقريباً.

كان باردو كاينز رجلاً عملياً وبسيطاً، وسأل نفسه إلام يحتاج المرء لبدء خطته؟ تجنّب القيود التي يفرضها الهراكنة؟ ممتاز. إذا فليتزوج بامرأة فرمينة. وحين تنجب له ابناً فرمينياً يبدأ به، يبدأ بليت كاينز وبالأطفال الآخرين، فيثقّفهم بيئياً، وينشئ لغة جديدة برموز تسلّح العقل وتعلّمه كيفية التلاعب ببيئة كوكبية كاملة: بمناخها، وبحدودها الموسمية. وفي النهاية تؤهّله لتجاوز كل أفكار السُلطة والوصول إلى الوعي الباهر بمفهوم النظام.

قال كاينز: «أيُّ كوكب ملائم لحياة البشر يتمتّع بجمال داخلي يبدو للمرء في حركته وفي توازنه. في هذا الجمال ترى استقراراً دينامياً ضرورياً لجميع أشكال الحياة وذا هدف بسيط: الحفاظ على إنتاج أنماط إحيائية متضافرة شديدة التنوّع، فالحياة هي التي تمدّ النظام المغلق بأسباب الحياة. الحياة - كل أشكال الحياة - تعمل على خدمة بعضها بعضاً. العناصر الغذائية الضرورية تصنعها الحياة من أجل الحياة، وتزداد تنوّعاً مع ازدياد تنوّع أشكال الحياة. وفي النهاية تنبض البيئة كلها بالحياة، وتمتلئ بالعلاقات، وبالعلاقات ضمن العلاقات».

قال باردو كاينز هذا الكلام في محاضرة ألقاها على فصل في أحد السيتشات.

لكن قبل المحاضرات، كان عليه أن يقنع الفرمن. ولتفهم كيف حدث هذا، عليك أولاً أن تفهم عقليته المتفرّدة الجبّارة، والبراءة التي يتعامل بها مع أيّ مشكلة. لم يكن باردو كاينز ساذجاً، ولم يسمح لأيّ شيء بأن يشكّك تفكيره.

في ظهر يوم حار، كان كاينز يستكشف بيئة أراكس في مركبة أرضية فردية، حين شاهد مصادفةً مشهداً مؤسفاً معتاد الحدوث.

سِتَّة قتلة من الهراكنة -مدرَّعون ومسلَّحون بالكامل- يحاصرون ثلاثة شبَّان من الفرمن في العراء خلف الجدار الحامي بالقرب من قرية ويندساك. في نظر كاينز، كانت معركة بلهاء، هزلية أكثر منها واقعية، حتَّى أدرك أن الهراكنة ينوون قتل الفرمن. حينها، كان أحد الشبَّان قد سقط مقطوع الشرايين، وأسقط معه اثنان من القتلة، وتبقَّى أربعة رجال مسلَّحين ضد شابَّين أعزَّلين. لم يكن كاينز رجلاً شجاعاً، ولم يكن في جعبته سوى رجاحة العقل والحذر. لكن الهراكنة كانوا يقتلون الفرمن، ويدمِّرون الأداة التي ينوي استخدامها في إعادة تشكيل الكوكب! لذا فعَل كاينز درع الطاقة الذي يرتديه، وخاض المعركة، وقتل اثنين من الهراكنة بنصلٍ مُنسلٍّ قبل أن يشعروا بوجود شخص خلفهم. ثم رافع طعنة سيف آخر، ونحره بضربه أنيقة، وترك القاتل الأخير للشابَّين الفرمنيين، محوَّلاً انتباهه إلى إنقاذ الفتى المستلقي على الأرض. وبالفعل نجح في إنقاذه، فيما كان الهاركونني السَّادس يلقي جزاؤه.

الآن، صار الجميع في موقفٍ محرج! لم يعلم ثلاثي الفرمن ماذا يفعلون بكائنز. كانوا يعرفونه بالطبع، فلا أحد يبطأ بقدمه أراكس دون أن يصل للفرمن ملفٌ كامل عنه. وما كانوا يعرفونه عنه أنه موظَّف إمبراطوري.

لكنه قتل الهراكنة!

لو كان رهط الفرمن هذا من البالغين، لرُبَّما هزُّوا أكتافهم أسفاً وهم يرسلون روحه لتتضم إلى أرواح الرجال الستَّة الصرعى على الأرض. لكن هؤلاء كانوا شابَّاباً يافعِينَ، غير ذوي خبرة، وكل ما شعروا به أنهم مدينون بحياتهم إلى هذا الموظَّف الإمبراطوري.

بعد يومين، انتهى الأمر بكايـنـز في أحد السيـتـشـات المـطـلّة على «ممرّ الرياح». بالنسبة إليه، كان كل شيء طبيعيًا جدًّا. راح يكلم الفرمن عن الماء، وعن كثبان رملية يغطيها العشب ويثبتها في مكانها، وعن مزارع خضراء زاخرة بنخيل التمر، وعن قنوات مائية ممتدة تتدفق عبر الصحراء. راح يتكلم ويتكلم ويتكلم بلا انقطاع.

ومن حول كايـنـز، احتدم نقاش لم يلتفت إليه. ماذا نفعل مع هذا المجنون؟ لقد صار يعرف مكان سييتش رئيس. ماذا نفعل؟ ماذا عمّا يقول، هذا الحديث المجنون عن جنة على أراكس؟ مجرد كلام. إنه يعرف أكثر ممّا ينبغي. لكنه قتل هراكنة! ماذا عن عبء الماء؟ منذ متى ونحن ندين للإمبراطورية بأي شيء؟ لكنه قتل هراكنة. أي شخص بإمكانه قتل الهراكنة. لقد فعلتها بنفسـي.

لكن ماذا عن هذا الكلام الذي يقوله عن ازدهار أراكس؟

الجواب سهل: أين الماء الكافي لكل هذا؟

يقول إن الماء موجود! ولا تتس أنه أنقذ ثلاثة منا.

أنقذ ثلاثة حمقى أوقعوا أنفسهم في قبضة الهراكنة! كما أنه

رأى سكاكين عاجية!

كان القرار الذي توصّلوا إليه معروفًا قبل ساعات من نطقه، فرابطة الطاو التي تجمع بين أفراد السييتش توحى لهم بما يجب عليهم فعله، مهما كانت الضرورة مريرة. أرسلوا مقاتلاً متمرّسًا بسكينٍ مكرّسة لتنفيذ المهمة، وتبعه اثنان من رجال الماء للحصول على ماء الرجل. كانت ضرورة مريرة.

على الأرجح، لم يعلم كايـنـز من الأساس بأمر هذا القادم

لقتله . كان يتحدث إلى مجموعة منتشرة حوله على مسافة حذرة، وكان يسير في دائرة قصيرة وهو يتكلم، معبراً بيديه . كان يتحدث عن مسطحات مائية شاسعة، وعن المشي في العراء دون بذلة تقطير، وعن برك يمكن اغتراف الماء منها ! وعن ثمار البرتقال ! كان ذلك حين واجهه حامل السكين .

قال كاينز له ببساطة: «انصرف»، وواصل كلامه عن مصايد رياح سرّية. تجاوز كاينز الرجل، ووقف بظهرٍ مكشوف أمام الطعنة الطقسية.

لا أحد يعرف ما دار وقتها في ذهن هذا الجلّاد المكلف بتنفيذ بالمهمة. هل أنصت إلى كاينز وصدّق كلامه؟ من يعرف؟ أمّا ما فعله فمعروف وموثّق. كان اسمه أولييت، أي لييت الأكبر. مشى أولييت ثلاث خطوات وهوى بجسده عامداً على نصل سكّينه، وبهذا يكون قد «صرف نفسه» بالفعل. أيعدُّ هذا انتحاراً؟ يقول البعض إن شَيّ هولود هي من ألهمته لفعل هذا .

يا له من نذير!

منذ تلك اللحظة، لم يكن على كاينز إلا أن يشير قائلاً: «اذهبوا إلى هناك»، فتتحرك قبائل كاملة من الفرمن. يموت الرجال وتموت النساء ويموت الأطفال، لكنهم يذهبون.

عاد كاينز إلى عمله الإمبراطوري، مديراً لمحطات التجارب البيولوجية. وبدأ الفرمن يظهرون ضمن موظفي المحطة. نظر الفرمن بعضهم إلى بعض في عدم تصديق. كانوا الآن يخترقون «النظام»، وهو أمر لم يخطر على أذهانهم من قبل. بدأت أدوات المحطة تجد طريقها إلى السييتشات، خاصّةً قواطع الليزر التي كانت تستخدم لحفر أحواض التجميع الجوفية ومصايد الرياح الخفية.

بدأ الماء يتجمّع في الأحواض. أصبح واضحاً للفرمن أن كاينز لم يكن مجنوناً تماماً، بل مجنوناً بما يكفي ليكون مقدّساً. كان يرويه من الأمة، تابعي الأنبياء. كانت روح أولييت قد ارتقت إلى مصاف السّادة، القضاة السماويين.

كان كاينز -العملي الشديد العزم- يدرك أن الأبحاث التي على درجة عالية من التنظيم لا تنتج شيئاً جديداً. لذا أنشأ وحدات تجارب صغيرة تتبادل البيانات بصورة منتظمة لتحقيق ما يُدعى بتأثير تانسلي، وترك كل مجموعة تصل إلى نتائجها الخاصة. كان عليهم أن يراكموا ملايين الحقائق الصغيرة. نظّم كاينز اختبارات تشغيل أولية معزولة، لوضع الصعوبات التي يواجهونها في منظورها الصحيح.

أخذوا عينات جوفية من جميع أنحاء البيداء، ورسموا خرائط لتقلّبات الطقس الطويلة الأمد، أي المناخ. وجد كاينز أن في الحزام العريض المحصور بين خطّي الـ 70 درجة شمالاً وجنوباً، لم تتجاوز درجات الحرارة لآلاف السنين نطاق الـ 254 إلى 332 درجة مطلقاً، وأن لهذا الحزام مواسم إنبات طويلة تتراوح درجات الحرارة فيها ما بين 284 إلى 302 درجة مطلقاً. هذا هو «المدى الذهبي» لازدهار الحياة، ما إن يجدوا حلاً لمشكلة المياه.

سأل فرمني: ومتى سنجد حلاً؟ متى سنرى أراكس جنة؟ وبطريقة المعلمين في إجابة طفلٍ يسأل عن حاصل جمع 2 و2، قال لهم كاينز: «من ثلاثئة إلى خمسمئة سنة».

لو أن قوماً أقلّ جلدًا سمعوا هذا لناحوا جزعاً وإحباطاً. لكن الفرمن كانوا قد تعلّموا الصبر من كثرة السّياط المسلّطة على ظهورهم. صحيح أن المدّة الزمنية كانت أطول ممّا يتوقّعون،

لكنهم جميعاً كانوا متيقنين من أن اليوم المبارك آتٍ لا ريب فيه. لذا شدُّوا زنايرهم وعادوا إلى العمل. بطريقةٍ ما، جعلت خيبة الأمل وعد الجنة المرتقبة أوقع في نظرهم.

لم تكن مشكلة أراكس الرئيسة في الماء، بل في الرطوبة، إذ كانت الحيوانات الأليفة شبه منعدمة، والماشية نادرة. كان بعض المهريين يستخدمون حميراً صحراوية مستأنسة تُدعى كولون، لكن ثمن الماء الذي ينفقونه نظير ذلك ظلَّ مرتفعاً، حتَّى بعد تزويد الحمير ببذلات تقطير معدلة.

فكر كاينز في إنشاء وحدات استخلاص لاستعادة الماء من الهيدروجين والأكسجين المحبوسين في الصخور الطبيعية، لكن عامل كلفة الطاقة كان باهظاً جداً. أمّا الغطاءان الجليديَّان القطبيان (بغض النظر عن الإحساس الزائف بالأمان المائي الذي يمنحانه لكادحي الكوكب) فكانا يحتفظان بكمية مياه قليلة جداً لا تكفي لمشروعه، فضلاً عن أن كاينز كان قد بدأ يشتبه في المكان الفعلي لوجود الماء. كانوا يرصدون معدّل زيادة مطّرد في الرطوبة على الارتفاعات المتوسطة، وفي ظلّ هبوب رياح معيّنة. كان الدليل الأساسي واضحاً في نسب الغازات في الغلاف الجوي الذي يتكوّن من: 23% أكسجين، 75.4% نيتروجين و0.23% ثاني أكسيد الكربون، مع كمية قليلة من الغازات الأخرى.

كانت تُوجد نبتة جذرية محلية نادرة تنمو في المنطقة الشمالية المعتدلة على ارتفاع 2500 متر، درنة طولها مترين، وتنتج نصف لتر من الماء. وبالإضافة إليها، تُوجد نباتات إعادة تشكيل سطح الصحراء، التي أظهرت الأنواع القويّة التحمّل منها بواذر إزهار عند زراعتها في المنخفضات وتبطينها بمكثّفات الندى.

ثم رأى كاينز الغور الملحي.

كانت ثوبتره تحلق بين المحطات في عمق البیداء، حين انحرقت عن مسارها بفعل عاصفة. بعد مرور العاصفة، رأى الغور: منخفض بيضاوي عملاق عرضه ثلاثمئة كيلومتر تقريباً، مفاجأة بيضاء تتلألأ في الصَّحراء المفتوحة. هبط كاينز بثوبتره، وتذوق سطح الغور الذي كنسته العاصفة

مكتبة

t.me/t_pdf

هذا ملح.

الآن تیقن.

في الماضي، كان على أراكس مسطح مائي. بدأ يعيد النظر في الأدلة البادية على الآبار الجافة، التي ظهرت بها نضائض ماء، ثم ما لبثت أن اختفت ولم تعاود الظهور قط.

أرسل كاينز خبراء المسطحات المائية الفرمنيين الجدد إلى العمل: خيظهم الأساسي هو البقايا الجلدية الملمس التي يُعثر عليها أحياناً مع كتلة الاسپایس الأوَّلية بعد خروجها من باطن الأرض في هبة. كانت هذه البقايا تُسبب إلى «سمكة الرمال» الخيالية في قصص الفرمن الشعبية. لكن مع تحوُّل الحقائق إلى أدلة، برز مخلوق ليشرح هذه البقايا الجلدية: سباحة رملية تحجز الماء في جيوبٍ خصبة بين الطبقات المسامية السفلية في درجة حرارة أسفل 280 درجة مطلقة.

كانت «سارقات المياه» هذه تموت بالملايين مع كل هبة اسپایس من جوف الأرض، فأیّ تغیر طفيف في الحرارة بمقدار خمس درجات قد يقضي عليها. أمّا القلّة الناجية فتدخل في حالة سُباتٍ كيسي شبه خامل، وتخرج منه في غضون ستّ سنوات وقد تحوَّلت إلى ديدان رملية صغيرة (طولها نحو ثلاثة

أمتار). من بين هذه، قلة قليلة تتجح في تحاشي أخواتها الأكبر حجمًا وجيوب الاسپايس الأولي المائية، لتصل إلى مرحلة البلوغ، وتصبح شَيّ هولود عملاقة (يعلم الفرمن منذ زمنٍ طويل أن الماء مادة سامة لشَيّ هولود، ولطالما استخدموا هذه المعلومة في إغراق «الديدان المتقرّمة» النادرة التي تعيش في نطاق العرق الأصغر لإنتاج مخدر طيف الوعي الذي يسمونه «ماء الحياة». «الدودة القرمة» هي نوع بدائي من شَيّ هولود لا يزيد طوله على تسعة أمتار).

الآن صاروا يدركون العلاقة الدائرية: تصنع يرقات الصّانعة الصغيرة كتلة الاسپايس الأولية، ثم تتحوّل الصّانعات الصغيرة إلى شَيّ هولود. تبعثر شَيّ هولود الاسپايس الذي تتغذى عليه كائنات مجهرية تُسمّى العوالق الرملية، وتتغذى شَيّ هولود على العوالق الرملية، والأخيرة تتخذ لها جحورًا في الرمال، حيث تنمو وتتحوّل إلى يرقات الصّانعة الصغيرة.

حوّل كاينز ورجاله اهتمامهم من هذه العلاقات المعقّدة، وركّزوه على النظام البيئي الدقيق، مبتدئين بالمناخ: كثيرًا ما تتراوح درجة حرارة سطح الرمال بين 344 إلى 350 درجة مطلقّة. مسافة قدم واحد تحت السطح تكون حرارته أقل بمقدار 55 درجة، ومسافة قدم واحد فوق سطح الأرض السطح تكون حرارته أقل بمقدار 25 درجة، ويمكن أن توفر أوراق النباتات والمناطق الظليلة درجة حرارة أقل بـ 18 درجة إضافية. ثانيًا، تأتي المغذّيات: أغلب رمال أراكس ناتجة عن هضم الديدان، أمّا الغبار (وهو المشكلة الحقيقية الأكبر المنتشرة في كل مكان) فينتج عن عمليات الزحف السطحي المستمرّة، أو ظاهرة «القفز

الرملي» التي تسببها حركة الرمال المستمرة. تتراكم حبيبات الرمال الخشنة على جوانب الكثبان المعاكسة لاتّجاه الريح، أمّا الجوانب المواجهة للريح فتتكوّن من حبيبات ناعمة وخشنة. عادةً ما تكون الكثبان القديمة صفراء (مؤكسدة)، في حين ما تكون الكثبان الحديثة بلون صخورها الأمّ، غالباً رمادية.

شكّلت جوانب الكثبان القديمة المعاكسة لاتّجاه الريح أولى المناطق الزراعية. استهدف الفرّمن في البداية إنشاء دورة حياة نوع من العشب ينمو بسهولة في الترب الجافّة والمقفرة له أهداب شعرية شبيهة بالخث، كي يتشابك بعضه ببعض ويغطّي الكثبان، ومن ثمّ يثبتها في مكانها بحرمان الريح من أهم أسلحتها: حبيبات الرمال القابلة للتحريك.

بعدها خُصّصت مناطق واسعة قابلة للتكييف في أقصى الجنوب، بعيداً عن أعين بضّاصي الهراكنة، وزُرعت بأعشاب التربة الجافة المتطفّرة أولاً على طول جوانب كثبان مختارة معاكسة لاتّجاه الريح تعترض مسار الرياح الغربية السائدة. بعد تثبيت الجوانب المعاكسة للريح يزداد ارتفاع الجوانب المواجهة للريح أكثر فأكثر، فينتقل العشب إليه لمواكبة هذا الارتفاع. بهذه الطريقة، نجحوا في إنتاج أسياف حاجزة عملاقة (كثبان مرتفعة ذات قمم متعرجة) يزيد ارتفاعها على 1500 متر.

عندما وصلت الكثبان الحاجزة إلى ارتفاعات كافية، زُرعت الجوانب المواجهة للريح بأعشاب أمتن ذات أوراق حادّة، وثبّت كل هيكل من هذه الهياكل العملاقة على قاعدة سمكها ستة أضعاف ارتفاعها.

ثم جاؤوا بفسائل ذات جذورٍ أعمق: بدؤوا بالنباتات المؤقتة (كرجل الأوز، والزربيع، والقطيفة). ثم أدخلوا نبات الوزّال،

والترمس المنخفض، والطفاء، والصنوبر الملتوي، وعارشة الأوكالبتوس (من النوع المتكيف للعيش في قطاعات كلالان الشمالية). ثم وصلوا إلى النباتات الصحراوية الفعلية: الفرييون الشمعي، والساجوار، وصبار بيسنجا، وصبار البرميل. وحيثما كانت تنمو، زرعوا مريمية الجمل، وعشب البصل، وعشب جوبي الريشي، والبرسيم البري، وشجيرة الجحور، وزهرة غندور الرمال، وزهرة الربيع المسائية، وشجيرة البخور، والشجرة الدخانية، وشجيرة الكريوزوت.

انتقلوا بعد ذلك إلى الحياة الحيوانية الضرورية. الكائنات التي تحفر جحوراً في الأرض، لفتح التربة وتهويتها: الثعلب القزم، وفأر الكنغر، وأرنب الصحراء، وسلاحف الرمال. وكذلك المفترسات اللازمة للحفاظ على التوازن البيئي: صقر الصحراء، والبومة القزمة، وعقاب الصحراء، وبومة الصحراء. ثم الحشرات التي ستملأ المنافذ التي تعجز هذه المفترسات عن الوصول إليها: العقارب، والحريشة، والعناكب الجحرية، والزنبور اللادغ، وذبابة الدودة الحلزونية. وخفّاش الصحراء ليعمل على حفظ أعداد هذه.

ثم جاء موعد الاختبار الحاسم: نخيل التمر، والقطن، والشمّام، والقهوة، والنباتات الطبيّة: أكثر من 200 نوع من النباتات الغذائية المختارة التي يجب اختبارها وتكييفها.

قال كاينز: «الشيء الذي لا يدركه الجاهل بيئياً بشأن النظام البيئي، أنه نظام. نظام والأنظمة تحتفظ باستقرار هش قد يُدمر بزلّة واحدة في موقع واحد. يتمتع النظام بترتيب معيّن، ويتدفّق من نقطة إلى أخرى. لو أعاق شيء هذا التدفق، ينهار الترتيب.

قد لا يلتفت غير المتمرسين إلى هذا الانهيار حتى يفوت الأوان، لهذا فإن أهم وظائف علم البيئة هو فهم التبعات والعواقب».

هل نجحوا في تخليق نظام؟

راقب كاينز ورجاله، وانتظروا. فهم الفرمن الآن ما كان يقصده كاينز حين مدَّ توقُّعه إلى خمسمئة عام.

ثم جاء تقرير من مزارع النخيل:

عند الحافة الصحراوية للأراضي المزروعة، تتسمَّم العوالق الرملية عند تفاعلها مع أشكال الحياة الجديدة. السبب: عدم توافق البروتين. تتكوَّن مياه سامة عند الحافة تأبى الحياة الأكسجية أن تمسَّها، وأحاطت المزارع منطقة جدباء حتى شَيَّ هولود لا تدخلها.

ذهب كاينز إلى المزارع ليرى بنفسه، قاطعًا مسافة عشرين مطراقًا (في هودج على ظهر دودة كأنه رجل جريح أو أمٌّ موقرة، لأنه أخفق في تعلم أن يكون راكب رمال). اختبر كاينز المنطقة الجدباء (التي تتصاعد منها رائحة زنخة تزكم الأنوف) وخرج منها بمكافأة: هدية من أراكس.

أدت إضافة الكبريت والنيتروجين الثابت إلى تحويل المنطقة الجدباء إلى تربة زراعية خصبة صالحة للحياة المستوطنة، وصار بإمكانهم توسيع الرقعة الزراعية متى شاؤوا!

سأل الفرمن: «هل سيختصر هذا المدَّة الزمنية؟».

راجع كاينز معادلاته الكوكبية. في ذلك الوقت كانت أعداد مصايد الرياح آمنة إلى حدٍ كبير. كان سخيا في مخصَّصاته، مدركًا أنه لا يستطيع رسم خطوط دقيقة وواضحة حول المسائل البيئية، لذا كان لا بُدَّ من تجنب قدرٍ معيَّن من الغطاء النباتي

لتثبيت الكتبان الرملية، وقدر معيّن لاستخدامها مواد غذائية (للشجر والحيوانات)، وقدر معيّن لحبس الرطوبة في الجذور وإمداد المناطق الجافة المحيطة بالمياه. بحلول ذلك الوقت، كانوا قد رسموا خرائط للقطاعات الباردة المتقلّة في البيداء، إذ كان لا بُدّ من إدراجها في المعادلات. حتى شَيّ هولود كان لها مكان في معادلاتهم، فهذه يجب ألا تُدمر أبداً، وإلا ستنفد ثروة الاسپايس. لكن «مصنع» الديدان الهضمي الداخلي، بتركيزاته الهائلة من المواد العضوية والأحماض، كان مصدراً هائلاً للأكسجين. الدودة متوسطة الحجم (التي يصل طولها إلى 200 متر تقريباً) تطلق في الغلاف الجوي قدرًا من الأكسجين يوازي ما تطلقه عشرة كيلومترات مربعة من المساحات الخضراء التي تؤدّي عملية التمثيل الضوئي.

كان عليه التفكير في أمر النقابة أيضًا، فرُشّ الاسپايس التي تُدفع إلى النقابة نظير أن تمنع أقمار الطقس الصناعية ووسائل المراقبة الأخرى من الدوران حول أَرَاكس كانت قد وصلت إلى أرقام فلكية بالفعل.

ولاً يمكن تجاهل الفرمن كذلك. بالذات الفرمن، بمصايد الرياح التي تحت أيديهم، وحيازتهم العشوائية الأراضي المحيطة بالموارد المائية. الفرمن بثقافتهم البيئية الجديدة، وحلمهم بتغطية مناطق شاسعة من أَرَاكس بالغابات، عبر المرور بمرحلة انتقالية من المراعي الصناعية.

وأخيراً، وصلت حساباته إلى رقم محدّد، أبلغهم كاينز به: ثلاثة بالمئة. إذا تمكّنوا من جعل ثلاثة بالمئة من الحياة النباتية على أَرَاكس تبدأ تكوين مركبات الكربون، ستشأ دورة مكتفية ذاتياً.

سأله الفرمن: «ولكن متى؟».

- «أوه، بعد نحو ثلاثمئة وخمسين عامًا».

إذا كان ما قاله هذا الأمة منذ البداية صحيحًا: لن يتحقق الأمر في حياة أي شخص ممّن على قيد الحياة الآن، ولا في حياة ثمانية أجيال من الأحفاد، لكنه سيتحقق في النهاية. وهكذا، استمرّ العمل بلا انقطاع: بناء، زراعة، حفر، تدريب أطفال.

ثم مات كاينز الأمة في انهيارٍ صخري في حوض الجصّ. في وقت وفاته، كان ابنه، لبيت كاينز، في التاسعة عشرة من عمره، فرمنياً كاملاً، وراكب رمال قتل أكثر من مئة هاركونني. بطبيعة الحال، كان طلب التعيين الإمبراطوري الذي تقدّم به كاينز الأب باسم ابنه قد قوبل بالموافقة. في هذه الحالة بالتحديد، حقق نظام فارفلوشس الطبقي الصّارم غرضه المطلوب على النحو الأمثل، فقد كان الابن مدرّياً على اتّباع خُطى أبيه. بحلول هذا الوقت، كان المسار قد حُدّد، وواصل خبراء البيئة الفرمنيين سعيهم فيه، وما كان على لبيت كاينز إلّا أن يراقب الهراكنة ويتجسّس عليهم ويقضّ مضاجعهم. إلى أن جاء اليوم الذي ابتلي فيه كوكبه بمجيء بطل.

الملحق الثاني: ديانة كثيب

قبل مجيء المؤدّب، كان فرمن أراكس يعتنقون ديانة تبدو جذورها المستمدة من العقيدة الماومثية السارية واضحة لعين أيّ باحث، وكثيرون تتبّعوا اقتراضها المفرد من ديانات أخرى. المثال الأكثر شيوعاً هو «ترنيمة الماء»، التي هي اقتباس مباشر من دليل الطقوس الكاثوليكي البرتقالي ودعاء يطالب بسُحْب المطر التي لم يشهد أراكس مثلاً قط. لكن تُوجد نقاط اتفاق أعمق وأوضح بين كتاب العبر الفرمني، وتعاليم الإنجيل والعلم والفقه.

يجب أن تبدأ أيّ مقارنة بين المعتقدات الدينية التي سادت الإمبراطورية حتّى وقت ظهور المؤدّب بالقوى الرئيسة التي شكّلت تلك المعتقدات:

1- أتباع الحكماء الأربعة عشر، أصحاب كتاب الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي، الذين عبّر عن آرائهم في التعليقات والأدبيات الأخرى الصادرة عن لجنة المترجمين المسكونيين، أو ما سُمّيت اختصاراً (سي إي تي).

2- طائفة البني جيسيرت، التي تتكر أنها منظّمة دينية، لكنها تمارس أعمالها وراء ستار مبهم من الطقوس الصوفية، والتي يصطبغ تدريبها ورموزها وتنظيمها وطرائق تدريسها الداخلية بصبغة دينية شبه تامة.

3- الطبقة الحاكمة اللا أدريّة (بما فيها النقابة)، التي تنظر إلى الدين على أنه نوعٌ من عروض الدُمى، الفرض منه تسلية الشعوب وإبقاؤها طيعة، والتي تؤمن -بشكل أساسي- بأن كل الظواهر -بما فيها الظواهر الدينية- يمكن تفسيرها بطرائق مادية.

4- ما يُسمَّى «التعاليم القديمة»، بما فيها تلك التعاليم التي حافظ عليها الجوّالة الزنُسنيون من الحركات الإسلامية الأولى والثانية والثالثة، والمسيحية النافوية من كوكب شوسوك، والتنوّعات الإسلامية السائدة على كوكبي لانكفيل وسايكون، ومزيج كُتب الماهايانا لانكفاراتا، والزن هيكجانشو على كوكب دلتا باهونيس الثالث، والتوراة والزيور التلمودي الناجيان على كوكب سالوسا سوكانداس، وطقوس عبّية المنتشرة، وقرآن مُعّاذ التي بقيت تعاليم علمه وفقهه سليمة لم تُحرّف بين مزارعي الأرز البُندي على كوكب كلادان، والبقايا الهندوسية المتفرّقة هي أرجاء الكون وسط أقليّات كادحة، وأخيرًا، الجهاد البطلري. هناك قوّة خامسة شكلت العقائد الدينية، لكن تأثيرها الشامل والعميق يجعلها جديرة بأن تُفرد لها مساحة خاصّة.

هذه القوّة -بلا شك- هي السفر عبر الفضاء، التي تستحقّ، في أيّ استعراضٍ للدين، أن تُكتب هكذا، بحروف بارزة:

السفر عبر الفضاء

ترك تنقّل البشر عبر الفضاء الشاسع بصمة فريدة على الدين خلال مئة وعشرة القرون التي سبقت الجهاد البطلري. في بدايته، كان السفر عبر الفضاء -على الرغم من انتشاره- غير منظم إلى حدّ كبير، وبطيئًا، ومحفوفًا بالمخاطر. وقبل احتكار النقابة، كان يتم بخليط غير متجانس من أساليب مختلفة. كانت خبرات الفضاء الأولى -التي كثيرًا ما يُساء فهمها وتعرض لتحريف كبير- معيّنًا لا ينضب للتأمّلات الصوفية.

على الفور، أعطى الفضاء نكهةً ومفهوماً مختلفاً لأفكار الخلق. هذا الاختلاف ظهر حتى في أكبر الإنجازات الدينية لتلك المرحلة. وعبر كل الديانات، أثّرت فوضى ظلام الفضاء الخارجي في الشعور بقدسية الإله.

بدا كأن زُوس -وكل صوره اللاحقة- قد تراجع إلى رحم الظلام الأمومي، وطفلت عليه ذاتٌ أنثوية ملأى بالغموض، يحمل وجهها المرعب أهوالاً شتى.

تداخلت الصيغ القديمة، وانعقد بعضها ببعض، ووُفّق وُجِع بينها لتلبية احتياجات الفتوحات الجديدة والرموز الدينية الجديدة. كان عصر صراع بين الصلوات والأدعية القديمة من جهة أخرى، وشياطين وحشية من جهة. ولم ينته الصراع بقرارٍ حاسم.

خلال تلك المرحلة، قيل إن سفر التكوين أُعيد تفسيره بحيث تكون كلمات الرب:

«أثمروا واكثروا واملؤوا الكون، وأخضعوه، وتسَلَّطوا على كل أنواع الدّواب الغريبة، وعلى كل الكائنات المحلّقة في سماءات لا حصر لها، وعلى كل ما يدبُّ تحتها على أراضٍ لا حصر لها⁽¹⁾». كان عصر ساحراتٍ قوَّتهن حقيقية، وتبدّت في حقيقة أنهن لم يتفاخرن قط بطريقة قبضهن على الجمرة.

ثم جاء الجهاد البطلري: جيلان كاملان من الفوضى سقط بعدهما منطق الآلة في أعين الناس، وبزغ مفهوم جديد:

(1) من سفر التكوين، الإصحاح الأول، آية 28: «أَثْمَرُوا وَاكْثَرُوا وَامْلُؤُوا الْأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ».

«لا يجوز استبدال الإنسان».

كان هذان الجيلان من العنف بمنزلة وقفـة تأمُّلية للبشرية جمعاء. نظر البشر إلى آلهتهم وإلى طقوسهم فرأوا أنها ملاءى بأشنع المعادلات: سيطرة الخوف على الطموح.

بشيء من التردُّد، بدأ زعماء الأديان التي سفك أتباعها دماء المليارات يلتقون لتبادل وجهات النظر. كانت هذه خطوة شجَّعتها نقابة الفضاء، التي كانت قد بدأت تأسيس احتكاكها الرحلات جميعها بين النجمية، وشجَّعتها كذلك طائفة البني جيسيرت، التي كانت تجمع كل السَّاحرات تحت مظلة واحدة.

ومن رحم تلك الاجتماعات المسكونية الأولى، خرج تطوُّران رئيسان:

الأوَّل: إدراك أن كل الأديان تشترك في وصية واحدة على الأقل: «لا تشوُّهوا الروح».

الثَّاني: لجنة المترجمين المسكونيين (سي إي تي).

عقدت اللجنة المسكونية اجتماعاتها على جزيرة محايدة على كوكب الأرض القديم، مهد الأديان. التقى أعضاء اللجنة متَّفقين على أن «الكون جوهرًا إلهيًا». حضر ممثلٌ من كل ديانة يفوق عدد أتباعها المليون، ووصلوا في سرعة مذهشة إلى اتفاق فوري حول بيان هدفهم المشترك:

«جئنا إلى هنا لنزع سلاح أساسي من أيدي الأديان المتنازعة. هذا السلاح هو ادِّعاء امتلاك الوحي الحقيقي الوحيد».

لكن الابتهاج بالتوصُّل إلى هذه «العلامة على توافق عميق» أثبت أنه سابق لأوانه. فأكثُر من عام قياسي، كان هذا البيان هو الإعلان الوحيد الصَّادر عن اللجنة المُسكونية. بدأ الناس يتحدَّثون

بمرارة عن التسويف، وألّف التروبادور -الشعراء المطربون- أغاني
لودعية ساخرة عن «الشيخو المتعنتين» المئة وواحد وعشرين،
وهو اللقب الذي اشتهر به أعضاء اللجنة المسكونية (اشتقَّ
اللقب من نكتةٍ بذيةٍ لعبت على أحرف الاختصار الأولى، «سي
إي تي»، تصف الأعضاء بأنهم «خرّاطون متعنتون لعناء»⁽¹⁾). ما
زالت إحدى تلك الأغاني مشهورة إلى اليوم، ويُعاد إحيائها بشكلٍ
دوري. الأغنية بعنوان «استجمام بين أذرع سمراء»، وتقول كلماتها:

«فكر في أكاليل الزهور،
والاستجمام بين أذرع سمراء
ومأساة كل هؤلاء
المتعنتين!
كل هؤلاء المتعنتين!
الكسالى الخاملين، الكسالى الخاملين.
طوال الوقت نائمين.
لقد أزف وقت

سيدي إيرل ساندوتش»⁽²⁾

من حينٍ إلى آخر، تسرّيت شائعات من جلسات اللجنة. قيل
إنهم يقارنون النصوص، ثم -بتهوّر- ذُكرت أسماء تلك النصوص.
أثارت مثل هذه الشائعات أعمال شغب مناهضة للجنة المسكونية،
وبلا شك، كانت مصدر إلهام لنكاتٍ جديدة.
ومضى عامان... وازدادا عامًا.

(1) ترجمة بتصرف.

(2) يبدو من كلمات الأغنية أنها تلمّح إلى أن أعضاء اللجنة يجتمعون على «جزر
هاواي» الأرضية.

توقّف المفوضون -الذين مات تسعة منهم- عن العمل مؤقتًا ليشهدوا مراسم تنصيب الأعضاء البدلاء، وأعلنوا أنهم يعملون جاهدين لإنتاج كتاب واحد يتجنبون فيه كل «أعراض الماضي الديني المرضية».

قالوا: «نحن ننتج آلة حُبّ يمكن عزفها بطرائق شتى».

يستغرب الكثيرون كيف تسبّب هذا البيان في اندلاع أسوأ موجة عنف ضد اللجنة المسكونية. استعدت عشرون طائفة مندوبيها، وانتحر أحدهم بسرقة فرقاطة فضائية والاتّجاه بها نحو الشمس.

يقدّر المؤرخون أن أعمال الشغب أودت بحياة ثمانين مليون شخص، أي بمتوسط ستة آلاف شخص تقريباً من كل كوكب مقيد في رابطة اللاندراد وقتها. بالنظر إلى الفتن التي سادت ذلك العصر، قد لا يكون هذا التقدير مفرطاً، بيد أن أيّ ادّعاء بأن الرقم دقيق هو مجرد ادّعاء، فالتواصل بين الكواكب في ذلك الوقت كان في أدنى مستوياته.

وبطبيعة الحال، كانت الفتن منجم ذهب للشعراء التروبادور. في إحدى المسرحيات الموسيقية الكوميدية الشهيرة في تلك المرحلة، يظهر واحد من أعضاء اللجنة جالساً على شاطئ رملي أبيض، مستظلاً بشجرة نخيل، ويغني:

«في سبيل الرّب والنساء وروعة الحب

إنّا هنا قاعدون، بلا مخاوف أو هموم.

أيا التروبادور! أيا التروبادور! دندن لي أغنية أخرى،

عن الرّب والنساء وروعة الحب!»

وما الفتن والكوميديا إلا شهودٌ على عصرها، تكشف تفاصيلها العميقة، وتفضح ما سادها من مناخ نفسي وشكوك عميقة ومساعٍ حثيثة لما هو أفضل، بالإضافة إلى الخوف العميق من ألا يتمخض شيء من كل هذا.

كانت السدود الكبرى التي تقف في طريق الفوضى في ذلك العصر هي النقابة الوليدة، وطائفة البني جيسيرت، ومجلس اللاندراد، التي واصلت ثلاثتها عقد اجتماعاتها على مدار 2000 سنة على الرغم من العقوبات الهائلة. بدا دور النقابة واضحاً، فقد وفّرت انتقالات مجّانية لكل أنشطة وأعمال اللاندراد واللجنة المسكونية. أمّا دور طائفة البني جيسيرت فكان أشدّ غموضاً. كانت هذه هي المرحلة التي أحكم فيها قبضتهن على السّاحرات، واستكشفن تأثير عقاير الوعي، وطوّرن أساليب الهرانا بيندو، وأسّسن فرقة المِسيونيرا بروتاكتيفا، المبشّرات الحاميات، ذراعهن السوداء لنشر الخرافات. لكنها كانت كذلك المرحلة التي شهدت صياغة تعويذة درء الخوف وتجميع كتاب الأزهر، تلك الأعجوبة البيبليوجرافية التي تحفظ الأسرار العظمى لأقدم المعتقدات.

ربّما يكون تعليق المؤرّخ إنجسلي هو أفضل تعليق ممكن: «كانت عصوراً تعجُّ بتناقضات عميقة».

وهكذا، واصلت اللجنة المسكونية جهودها لما يقرب من سبع سنوات، ومع اقتراب الذكرى السنوية السابعة لتأسيسها، أعدّ أعضاؤها الكون لترقب إعلان تاريخي، وفي يوم الاحتفال، كشفوا النقاب عن «الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي».

قالوا: «هذا كتاب شريف عميق الجوهر. إنه وسيلة لجعل البشرية تدرك أنها خليفة من صنع الرب». شُبّه رجال اللجنة المسكونية بعلماء آثار ينقبون عن الأفكار، ألهمهم الرب عظمة إعادة الاكتشاف. قيل إنهم أخرجوا إلى النور «حيوية المثل العظيمة التي طمرتها رواسب القرون»، وإنهم أعادوا شحذ التعاليم الأخلاقية الأساسية النابعة من الضمير الديني».

مع الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي، طرحت اللجنة المسكونية كتاب «دليل الشعائر، والتفاسير»، الذي كان عملاً أهم ليس فقط بسبب إيجازه (إذ كان أقل من نصف حجم الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي)، بل لصراحته، ولمزجه بين رثاء الذات وتزكية النفس. كانت مقدّمة الكتاب مناشدة واضحة للحكّام اللا أدريين: «حين لم يجد البشر أجوبة عن السّئِن * (عشرة الآلاف سؤال ديني التي تتطرحها الشريعة*)، بدؤوا يطبّقون منطقهم الخاص. كل البشر يسعون إلى الاستتارة، والدين هو أقدم وأشرف طريقة جاهد الإنسان من خلالها إلى فهم كون الرب. يسعى العلماء التجريبيّون إلى اكتشاف القوانين التي تحكم الظواهر، أمّا مهمّة الدين فهي مواءمة الإنسان مع هذه القوانين».

لكن في خاتمة «التفاسير»، بدت نبرة المخاطبة قاسية، وتبنّت بمصيرهم على الأرجح:

«كثيرٌ مما سُمّي ديانات كان يحمل موقفاً عدائياً غير واع تجاه الحياة. على الدّين الحق تعليم الناس أن الحياة ملأى بالمتعّ التي ترضي عين الرب، وأن المعرفة دون العمل غير مجدية. يجب أن يدرك جميع البشر أن تعليم الدين بالقواعد والاستظهار ما هو

إلّا خُدعة. المذهب الصحيح يُدرك بسهولة، وتستطيع تمييزه دون خوف من الفشل لأنه يُوقظ فيك إحساسًا بأنك كنت تعلمه منذ البداية».

ساد شعور غريب بالأمان حين دارت المطابع وآلات النسخ على الشيجواير، وانتشر الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي في أنحاء الكون المعمور جميعها. فسّر البعض الأمر على أنه علامة من الرب، وتفاؤل بالاتحاد.

لكن حتّى أعضاء اللجنة المسكونية صرّحوا بأن هذا الأمان خادع حين عاد كلُّ منهم إلى طائفته. أُعدم ثمانية عشر منهم دون محاكمة في غضون شهرين، وأقر ثلاثة وخمسون منهم بخطئهم وتابوا عنه في غضون سنة.

اتّهم الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي بأنه كتاب نتج عن «غرور العقل»، وقيل إن صفحاته ملأى باهتمام مُفوّ بالمنطق، وبدأت تظهر نسخٌ معدّلةٌ منه موجّهةٌ إلى الفئات الشعبية المتعصّبة دينيًا. اعتمدت هذه النسخ على الرموز الدينية المتعارف عليها (الصليب، والهلال، والشخشيخة الريشية، والحواريين الاثني عشر، وبوذا النحيل، وغيرها) وسرعان ما صار واضحًا أن الحركة المسكونية الجديدة لم تتجح في امتصاص الخرافات والمعتقدات القديمة. تلقّف مليارات من المتحمّسين وصّف هالوأي لجهد السنوات السبع الذي بذلته اللجنة المسكونية بأنه «حتمية مجرّية»، وفسّروا حرفيه الأوّلين على أنهما اختصار لعبارة «لعنة الرب»⁽¹⁾.

(1) في الإنجليزية، الحرفان الأوّلان من مصطلح Galactophasic Determinism هما ذاتهما الحرفان الأوّلان لعبارة God-Damned. الترجمة الأكمل لمصطلح Galactophasic Determinism هي «حتمية مرحلية مجرّية».

رئيس اللجنة المسكونية توري بوموكو، أحد علماء* الرُنْسُنِيِّين، وواحد من الأعضاء الأربعة عشر الذين لم يتراجعوا قط (المعروفين بـ«الحكماء الأربعة عشر» في التاريخ الدَّارِج)، بدا كأنه يعترف أخيراً بأن اللجنة المسكونية أخطأت.

فقد قال: «ما كان ينبغي لنا أن نحاول خلق رموزٍ جديدة. كان علينا أن ندرك أنه لم يكن يفترض بنا بثّ الشكوك في المعتقدات السَّائدة، ولا أن نثير الفضول حول الرب. إننا نواجه يوميًا بعدم استقرار مرعب في الشؤون البشرية شتّى، ومع ذلك نسمح لأدياننا بأن تصبح أكثر تشدّدًا وتحكُّمًا، وأكثر تقييدًا وقمعًا. ما هذا الظل المخيم على درب الأوامر الإلهية؟ إنه تحذير ينبئنا بأن المؤلَّفات تدوم، وبأن الرموز تدوم بعد أن تفقد معناها، وبأنه لا توجد خلاصة لكل المعرفة المتاحة».

لم يفضل منتقدو بوموكو عن نبرة هذا «الاعتراف» المريرة مزدوجة المعنى، وقد أُجبر بعدها بوقت قصير على الفرار إلى المنفى، واعتمدت حياته على تعهّد النقابة بسريّة مكانه. يقال إنه مات على كوكب تيوباييل، عزيزًا مكرَّمًا، وإن كلماته الأخيرة كانت: «يجب أن يظل الدين متفَسِّسًا للأشخاص الذين يقولون لأنفسهم: "لست الشخص الذي أريد أن أكونه"، ويجب ألا يتغلغل أبدًا في مجتمع الرّاضين عن أنفسهم».

من الممتع الاعتقاد أن بوموكو كان مدركًا للنبوءة التي تحملها كلماته: «المؤلَّفات تدوم»، فبعد تسعين جيلًا، كان الإنجيل الكاثوليكي البرتغالي وكتاب التفاسير قد تغلغلا في كل الأديان عبر الكون.

حين وقف پول المؤدّب واضعًا يده اليمنى على الضريح الصخري الذي يضمُّ جمجمة أبيه (اليد اليمنى التي يستخدمها

المباركون، لا اليسرى التي يستخدمها الملعونون)، اقتبس كلمة بكلمة من كتاب «تراث بوموكو» قائلاً: «أنتم يا من هزمتونا تقولون لأنفسكم إن بابل سقطت وحُبطت أعمالها. ها أنا أقول لكم إن البشر ما زالوا قيد المحاكمة، كل إنسان في قفص اتِّهامه، كل رجل يخوض حربه الصَّغيرة».

يقول الفرمن عن المؤدِّب إنه أشبه بأبي زيد، الذي تحدَّث فرقاطته قوانين النقابة وسافرت يوماً إلى «هناك» وعادت. في هذا السياق الخاص بأساطير الفرمن، تعني كلمة «هناك» أرض الروح، عالم المِثال الذي تُزال فيه جميع القيود المادية.

تسهل رؤية التشابه بين هذه الواقعة ومفهوم الكويزاتس هاديراك. فاسم الكويزاتس هاديراك الذي سعت طائفة البني جيسيرت لاستيلاده عبر برنامجها الاصطفائي يعني «اختصار الطريق» أو «القادر على الوجود في مكانين في الآن ذاته».

ولكن من الممكن إثبات أن كلا التفسيرين ينبعان مباشرة من كتاب التفاسير: «حين يصبح القانون والواجب الديني شيئاً واحداً فيك، تشتمل ذاتك على الكون». قال المؤدِّب عن نفسه: «أنا شبكة في بحار الزمن، حُرِّفي حصد المستقبل والماضي. أنا غشاء متحرك لا يفلت منه أدنى احتمال».

كل هذه الأفكار واحدة ومتماثلة، وتعود إلى الآية 22 من سفر الكلمة في الإنجيل الكاثوليكي البرتغالي: «سواء نُطِقت الأفكار أم لم تُنطق، فهي شيء حقيقي ولها سلطة على الواقع».

وعندما ندقّق في تعليقات المؤدِّب الواردة في كتاب «أعمدة الكون»، تلك التي فسَّرها كهنته المفوضون بالكرارة، نرى حقيقة ما يدين به للجنة المترجمين المسكونيين والفرمن الزنسنيين.

قال المؤدّب: «القانون والواجب شيء واحد، حسنًا لا بأس. ولكن تذكر أنك هكذا لن تصبح واعيًا لذاتك أبدًا، أنك هكذا ستظلّ مستغرقًا في شيوعية الطاو، أنك هكذا ستظلّ دائمًا أدنى مرتبةً من كونك فردًا». صياغة مطابقة لنصّ الإنجيل الكاثوليكي البرتغالي (سفر الرؤيا، آية 61).

قال المؤدّب: «كثيرًا ما يُساهم الدين في ترسيخ أسطورة التقدّم الذي يحمينا من أهوال المستقبل المجهول».

صياغة مطابقة لنصّ تفاسير لجنة المترجمين المسكونيين (يعزو كتاب الأزهر هذه المقولة إلى الكاتب الديني نيشو، الذي عاش في القرن الأول، ولكن بصياغة مختلفة).

قال المؤدّب: «إذا حرّض طفل، أو شخص عديم الخبرة، أو جاهل، أو مجنون، على المتاعب، فهذا خطأ من السُّلطة لعدم توقُّعها ومنعها تلك المتاعب». يقول الإنجيل الكاثوليكي البرتغالي: «يمكن أن تُعزى أيُّ خطيئة -بشكل جزئي على الأقل- إلى نزعة السوء الطبيعية الخارجة عن الإرادة المقبولة عند الرّب». (يعزو كتاب الأزهر هذا النصّ إلى التوراه السامية القديمة).

المؤدّب: «مد يدك وكلّ ممّا رزقك الرّب، وحين تمتلئ سبّح بحمده».

صياغة أخرى لنصّ الإنجيل الكاثوليكي البرتغالي

بالمعنى ذاته. (يُرجع كتاب الأزهر أصل هذا النصّ -بصياغة مختلفة قليلاً- إلى الحركة الإسلامية الأولى).

المؤدّب: «الإحسان هو بداية القسوة».

يقول كتاب العبر الفرمني: «إن سلطان الرّب العطوف لشيء مخيف. ألم يهبنا الرّب الشّمس الحارقة (اللات)؟ ألم يمنحنا الرّب أمّهات الرطوبة (الأمّهات الموقّرات)؟ ألم يبتلنا الرّب بالشیطان (إبليس)*، بعليزول؟ وألم نتعلّم العجلة من الشیطان ويطلّنا أذاها؟

(هذا هو مصدر مقولة الفرمن: «العجلة من الشیطان». تذكّر أنه مقابل كل سعر 100 يحرقها الجسم في أثناء الحركة [العجلة]، يتبخّر نحو 170 جراماً من العرق. كلمة الفرمن التي تصف العرق هي بُكاء أو دموع، ويمكن ترجمتها وفقاً لإحدى اللهجات إلى: «جوهر الحياة الذي يعتصره الشیطان من روحك»).

وصف كونيويل مجيء المؤدّب بأنه «موقوت دينياً»، لكن لم يكن للتوقيت علاقة كبيرة بالأمر. فكما قال المؤدّب نفسه: «أنا هنا، إذا...».

ومع ذلك، من الضروري لفهم التأثير الديني للمؤدّب ألا تغيب عن الأذهان حقيقة واحدة: أن الفرمن كانوا قوم صحراء، تأقلم أسلافهم على العيش في البيئات المعادية، والجنوح نحو الصّوفية

ليس بالأمر الصَّعب حين تقضي كل لحظة من حياتك محاولاً النجاة من العدائية المحيطة بك من كل جانب. «أنت هناك، إذا...».

في ظل هذه التقاليد المتوارثة، تُقبل المعاناة، رُبَّما كمقاب غير واع، لكنه مقبول. ومن الجدير بالذكر أن طقوس الفرمن تعفي المرء بالكامل تقريباً من الشعور بالذنب. لا يرجع هذا بالضرورة إلى التطابق بين قانونهم وديانتهم، ما يجعل العصيان خطيئة، بل رُبَّما الأقرب إلى صواب أن نقول إنهم طهَّروا أنفسهم من الشعور بالذنب بسهولة لأن وجودهم اليومي تطلَّب منهم اتِّخاذ قرارات قاسية (كثيراً ما تكون مهلكة)، قرارات لو اتُّخذت في عالم أرغد لأثقلت كاهل البشر بشعور لا يطاق بالذنب.

وهذا على الأرجح هو أحد جذور تركيز الفرمن على الخرافات (بغض النظر عما زرعه المبشَّرات الحاميات في أرضهم منها). ما المهم في صفير الرمال كي يؤخذ على أنه نذير شؤم؟ وما معنى أن تضمَّ راحة يدك في قبضة حين ترى القمر الأوَّل للمرَّة الأولى؟ جسد الإنسان ملكه، أمَّا ماؤه فملك للقبيلة. ولغز الحياة ليس سؤالاً يحتاج إلى إجابة، بل حقيقة تُعاش. التطيُّر يساعذك على تذكر هذه الأمور. و«لأنك هنا»، ولأنك صاحب الدين الحق، فالنصر لن يفلت منك في النهاية.

أو كما كانت طائفة البني جيسيرت تقول في تعاليمها لقرون طويلة، قبل اصطدامها بالفرمن:

«حين يركب الدين والسياسة العربية نفسها، وحين يكون قائد هذه العربية ولياً تقياً (بركة*)، لا شيء يستطيع أن يقف في طريقهما».

تقرير عن دوافع وأهداف البني جيسيرت

في ما يلي مقتطف من الخلاصة التي أعدها عملاء الليدي جيسيك -بناءً على طلبها- بعد أحداث أراكس مباشرة. صراحة هذا التقرير تجعل قيمته التاريخية لا تُقدَّر بثمن.

نظرًا إلى أن طائفة البني جيسيرت عملت لقرونٍ عدَّة خلف ستار مدرسة شبه صوفية في أثناء تنفيذ برنامجها التناسلي الانتقائي بين البشر، فإننا نميل إلى منحها مكانة تفوق ما يبدو أنها تستحقها. إن تحليل «تقييم الوقائع» الذي أعده الطائفة بشأن أحداث أراكس ينمُّ عن جهل المدرسة العميق بدورها. يمكن القول إنه لم يكن بوسع البني جيسيرت سوى فحص الحقائق المتاحة لهم، وإنه لم يكن لديهم وسيلة تمكُّنهم من سبر شخصية النبي پول المؤدَّب. لكن المدرسة سبق لها أن واجهت عقبات أكبر وتغلَّبت عليها، لذا فخطؤها هنا أعمق.

كان الهدف من برنامج البني جيسيرت هو العثور على الشخص الذي يطلقن عليه اسم «الكويزاتس هاديراك»، وهو مصطلح يشير إلى «القادر على أن يُوجد في أماكن عدَّة في الوقت نفسه». بعبارة أيسر، ما كُنَّ يسعين خلفه هو إنسان يتمتَّع بقدرات عقلية تسمح له بفهم واستخدام أبعاد زمكانية أعلى.

كُنَّ يحاولن استيلاء منتجات خارق، حاسوبٍ بشريٍّ يتمتَّع ببعض القدرات الاستبصارية التي يتمتَّع بها ملاحو النقابة.

الآن، اقرأ الحقائق الآتية بعناية:

كان المؤدّب، المولود باسم پول آتريدس، وابن الدوق ليتو، رجلاً رُقيبت سلالته بعناية لأكثر من ألف عام. أمّ النبي، الليدي جيسيكّا، كانت ابنة بيولوجية للبارون فلاديمير هاركونن، وتحمل صفات چينية عُرِفَت أهمّيّتها القصوى لبرنامج التزاوج الاصطفائي منذ ما يقرب من ألفي عام. كانت بني چيسيرتية النشأة والتدريب، لذا كان من المفترض أن تكون أداة لينة في يد المشروع.

أمرت الليدي جيسيكّا بإنجاب ابنة آتريديزية، وكان من المخطّط تزويج هذه الابنة بفيد راوثا هاركونن، ابن أخ البارون فلاديمير، في ظلّ احتمال كبير أن ينتج عن هذا الزواج كويزاتس هاديراك. ولكن بدلاً من ذلك، ولأسبابٍ اعترفت هي نفسها بأنها لم تكن واضحة تماماً لها، عصت الليدي جيسيكّا العظيمة الأوامر الصّادرة لها وأنجبت ولداً.

هذا وحده كان يجب أن ينبّه النبي چيسيرت إلى احتمالية تسأل متغيّر شاذ إلى مخطّطهن، ولكن كانت هناك مؤشّرات أخرى أهمّ شأنًا بكثير كن قد تجاهلنها تماماً:

1- منذ صغره، أظهر پول آتريديز القدرة على التنبؤ بالمستقبل، وكان من المعروف أن رؤى استبصارية دقيقة وثاقبة تأتيه في المنام، رؤى لا يمكن تفسيرها بالزمكان الرباعي الأبعاد.

2- الأمّ الموقرة جاييس هيلين موهيم، إحدى مشرفات النبي چيسيرت العلى التي اختبرت بشرية پول وهو في الخامسة عشرة، شهدت بأنه تحمّل ألماً يفوق ما تحمّله أيّ شخص آخر خاض الاختبار. ومع ذلك، لم تُورد ملاحظة خاصّة تشير إلى ذلك في تقريرها!

3- عندما انتقل آل آتريديز إلى كوكب أراكس، هُلل السُّكان الفرمن للشَّاب پول واستقبلوه باعتباره نبيًا، أو «الصَّوت الآتي من عالم آخر». كان البني جيسيرت يعلمن جيّدًا أن الظروف القاسية على كوكب مثل أراكس، بأرضه الصحراوية، وبافتقاره الشديد للمسطّحات المائية، وتركيزه الشديد على ضرورات البقاء الأكثر بدائيةً، تنتج حتمًا نسبة مرتفعة من الحساسية تجاه الروحانيات. وعلى الرغم من ذلك، أغفلت مراقبات البني جيسيرت ردّة الفعل الفرمنية هذه، وأغفلن كذلك العنصر الواضح الخاص بتشبّع الطعام الأراكسي بالاسپايس.

4- عندما أعاد الهراكنة وجنود الإمبراطور الهادي شاه المتعصّبون احتلال أراكس، وقتلوا والد پول ومعظم القوَّات الآتريديزية، اختفى پول وأُمّه. ثم -على الفور تقريبًا- وردت تقارير عن ظهور زعيم ديني جديد بين الفرمن، رجلٌ يدعى المؤدّب، نُودي هو الآخر به «الصَّوت الآتي من عالم آخر». وذكرت التقارير بوضوح أنه مصحوب بأُمّ موقّرة جديدة من السَّيادينات، وأنها «المرأة التي أنجبته». ذكرت السجّلات المتاحة للبني جيسيرت بصريح العبارة أن أساطير الفرمن عن النّبي تحتوي على هذه الكلمات: «وستنجه ساحرة من البني جيسيرت».

(قد يُقال هنا أن البني جيسيرت أرسلن المبشّرات الحاميات إلى أراكس منذ قرونٍ خلت لبذر مثل هذه الأسطورة كإجراء وقائي في حالة احتجاج أيٍّ من أعضاء المدرسة على الكوكب واحتياجها إلى ملاذ، وأن أسطورة «الصَّوت الآتي من عالم آخر» كان من البديهي تجاهلها كذلك لأنها تبدو للرائي كالأحاييل البني جيسيرتية المعتادة. لكن هذا لن يكون صحيحًا إلا إذا سلّمنا بأن

الْبَنِي جِيسِيرَتِ لَمْ يُخْطِئْنَ فِي تَجَاهِلِهِنَّ الْأَدْلَةَ الْأُخْرَى الَّتِي تُشِيرُ إِلَى بُولِ الْمُؤَدَّبِ).

5- حين بدأت الأحداث تغلي على أَرَاكُس، بدأت النقابة بالكلام مع الْبَنِي جِيسِيرَتِ، وَلَمَّحَتْ إِلَى أَنْ مَلَّاحِيهَا -الذي يستخدمون عقار الاسپايس المستخرج من أَرَاكُس لإنتاج قدرتهم الاستبصارية المحدودة اللازمة لإرشاد السُّفْن عبر الفضاء- كانوا «قلقين من المستقبل»، وأنهم رأوا «اضطرابات تلوح في الأفق». لا يمكن أن يعني هذا غير أنهم رأوا محورًا، نقطة التقاء تحتشد فيها قرارات حسَّاسة لا حصر لها، تعجز العين المستبصر عن رؤية الطريق بعدها. كان هذا مؤشِّرًا واضحًا على أن قوَّة ما كانت تتدخَّل في الأبعاد الزمكانية الأعلى!

(قِلَّة من الْبَنِي جِيسِيرَتِ كن يعلمن منذ وقتٍ طويل أنه ليس بإمكان النقابة التدخَّل بشكل مباشر في مصدر الاسپايس الحيوي، لأن مَلَّاحِي النقابة كانوا يتعاملون بالفعل -بطريقتهم الخاصة غير الكفوَّة- مع أبعادٍ زمكانية أعلى جعلتهم يدركون أن أقل زلَّة قدم لهم على أَرَاكُس قد يكون لها تبعات كارثية. كان من المعروف أن مَلَّاحِي النقابة غير قادرين على التنبُّؤ بطريقة يمكنهم بها السيطرة على الاسپايس دون إنتاج محور كهذا. لذا فإن الاستنتاج المنطقي هو أن شخصًا يتمنَّع بقدراتٍ أعلى كان يفرض سطوته على مصدر الاسپايس، لكن الْبَنِي جِيسِيرَتِ أغفلن هذه النقطة تمامًا).

في مواجهة هذه الحقائق، يصل المرء إلى استنتاج لا مفرَّ منه، وهو أن سلوك الْبَنِي جِيسِيرَتِ -الذي لم يتَّسم بالكفاءة في هذه الأحداث- كان نتاج خطَّة أعلى غفلن عنها بالكامل!

الملحق الرَّابِع:

تاريخ الأشراف

(مختارات من سير العائلات النبيلة)

شادام الرَّابِع (10134 - 10202)

الإمبراطور الهادي شاه، الحادي والثمانون من سلالة عائلته (آل كورينو) الذي اعتلى عرش الأسد الذهبي. تولّى شادام الحكم منذ عام 10156 (تاريخ موت أبيه، إلرود التاسع، مسمومًا بسُمّ شاومركي) إلى أن حُلّت محلّه ابنته الكبرى إيrolان وصيّةً على العرش عام 10196. يشتهر عهده بشكل أساسي بثورة أراكس، التي أعزاها كثيرٌ من المؤرّخين إلى تهاون شادام الرَّابِع في مهام البلاط وانشغاله بأُبّهة المنصب. تضاعفت أعداد رتب البورسيج في السّنة عشر عامًا الأولى من حكمه، وتناقصات مخصّصات تدريب السّاردوكار بمعدّلٍ ثابت في الثلاثين سنة الأخيرة قبل ثورة أراكس. كان لديه خمس بنات (إيrolان، وتشاليس، وونيشيا، وچوزفيا، وروجي) ولم يحظ بذكور شرعيين. أربع من بناته رافقنه في تقاعده. تُوفّيَت زوجته أنيرول -التي كانت بني چيسيرتية مجهولة الرتبة- عام 19176.

ليتو آترديدز (10140 - 10191)

أحد أقرباء آل كورينو من طرف الأمّ، وكثيرًا ما يُشار إليه بالدوق الأحمر. حكم آل آترديدز إقطاعية كلادان لعشرين جيلًا، إلى أن أرغموا على الانتقال إلى أراكس. يشتهر ليتو بشكل أساسي بأنه أبو الدوق پول المؤدّب، الأمّة وصي الدوقية. رفات

الدوق ليتو موجودة في «مقبرة الجمجمة» على أراكس. تُعزى وفاته إلى خيانة طبيب من مدرسة سوك، وهي مكيدة تُنسب إلى البارون السيريدار، فلاديمير هاركونن.

الليدي چيسیکا (حاملة لقب آتریدیز شرفياً) (10154 - 10256)
الابنة البيولوجية للبارون السيريدار فلاديمير هاركونن (وفقاً لسجلات البني چيسيرت)، وأمُّ الدوق پول المؤدّب. تخرّجت في إحدى مدارس البني چيسيرت على كوكب والاك 9.

الليدي عالية آتریدیز (10191 -)
الابنة الشرعية للدوق ليتو آتریدیز وحظيّته العُرفية الليدي چيسیکا. وُلدت الليدي عالية على أراكس بعد نحو ثمانية أشهر من وفاة الدوق ليتو. تعرّضها وهي جنين لمخدّر طيف الوعي هو السّبب الذي يُذكر بشكل عام عند تفسير وصف البني چيسيرت لها بأنها «ملعونة». اشتهرت في التاريخ الدّارج بلقب القديسة عالية، أو عالية حاملة السكّين (للحصول على تاريخ مفصّل، راجع كتاب «القديسة عالية، صائدة مليار عالم»، تأليف باندر أولسون).

فلاديمير هاركونن (10110 - 10193)
يُشار إليه عادةً باسم البارون هاركونن. لقبه الرّسمي: بارون سيريدار (أي حاكم كوكبي). فلاديمير هاركونن هو السليل الذكر المباشر للبشار أبولورد هاركونن، الذي نُفي بتهمة الجبن بعد معركة كورين. تُعزى عودة آل هاركونن إلى السُلطة بشكل عام لتلاعبهم الماكر بتجارة فراء الحيتان، ثم إدماج هذا لاحقاً بثروة

المزاج من أراكس. لقي البارون السيريدار حتفه على أراكس خلال الثورة، وانتقل اللقب لمدة وجيزة إلى ولي عهده، فيد راوثا هاركونن.

الكونت هاسيمير فنرينج (10133 - 10225)

أحد أقرباء آل كورينو من طرف الأم، ورفيق الطفولة لشادام الرابع. (يروي كتاب «تاريخ قراصنة آل كورينو» -الذي كثيرًا ما يُطعن في مصداقيته- حكاية غريبة تقول إن فنرينج هو من دسَّ سُمَّ الشاومركي الذي قضى على إلرود التاسع). تتفق جميع الروايات على أن فنرينج كان أقرب صديق حظي به شادام الرابع. من ضمن المهام الإمبراطورية التي أداها الكونت فنرينج هي اضطلاعُه بمنصب الوكيل الإمبراطوري على أراكس خلال مدة حكم الهراكنة، ثم توليه لاحقًا منصب سيريدار غيابي على كلادان. انضمَّ فنرينج إلى شادام الرابع في تقاعده على سالوسا سوكانداس.

الكونت جلوسو رابان (10132 - 10193)

جلوسو رابان، كونت لانكفيل، هو ابن الأخ الأكبر للبارون فلاديمير هاركونن. كان جلوسو رابان وفيد راوثا رابان (الذي أخذ لقب هاركونن حين أُختير ليكون ضمن آل بيت البارون السيريدار) الابنين الشرعيين لأبولورد، الأخ نصف الشقيق للبارون السيريدار. تخلى أبولورد عن لقب هاركونن وجميع حقوقه فيه حين مُنح حُكم المقاطعة الفرعية «رابان لانكفيل». رابان هو لقب عائلة أم الكونت جلوسو.

مسرد المصطلحات المستخدمة في الإمبراطورية

عند دراسة الإمبراطورية الفضائية، وكوكب أراكس، وعموم الثقافة التي ساهمت في تشكيل شخصية المؤدّب، يصادف المرء الكثير من المصطلحات غير المألوفة. ولأن تحسين الفهم هدف نبيل، ارتأينا تفصيل التعريفات والتفسيرات الواردة أدناه⁽¹⁾.

(أ)

آخ/ إلى اليسار (ACH)

صيحة يقولها قائد الدودة للمساعدين الذين يوجّهون مسارها.

اختبار مشهود (TEST-MASHAD)

أيّ امتحان يكون فيه الشّرف -الذي يُعرّف بأنه موقف الشخص الروحي- على المحك.

أدب (ADAB)

الذكرى المُلحّة التي تفرض نفسها على الشخص رغماً عنه.

أكارسو (AKARSO)

نبات موطنه الأصلي كوكب سايكون، أحد كواكب النجم 70 أوفيوتشى إيه، يتميز بأوراق مستطيلة الشكل تقريباً. تشير

(1) في حال أن تكون قد تخطّيت التوطئة، أودّ التأكيد مرّةً أخرى أن بيان أصول الألفاظ المشتقة من كلمات عربية التي ستجدها في هذا المسرد بين القوسين المعكوفين [...] هو إضافة من المترجم، ولم يورده فرانك هيربرت في النص الأصلي. ارتأيت إيراد هذا الشرح لخصوصية ترجمة النص إلى العربية، ولكثرة اقتباسه من الموروث الثقافي العربي وألفاظه ومعانيه. (المترجم).

الخطوط الخضراء والبيضاء على أوراق الأكارسو إلى المناطق المتوازية التي يتبادل فيها الكلوروفيل حالتَي النشاط والخمول.

أمپولیروس (AMPOLIROS)

المعادل الفضائي لسفينة «الهولندي الطائر» الأسطورية.

الأمتال أو قانون الأمتال (AMTAL or AMTAL RULE)

[محرّفة عن العربية: أمثال.]

قانون شائع على الكواكب البدائية. في ظلّه، يُوضع الشيء تحت الاختبار لمعرفة حدوده أو عيوبه. عمومًا هو: اختبار حتّى التدمير.

أراكين (ARRAKEEN)

المستعمرة الأولى التي سُيّدت على كوكب أراكس، وظلّت وقتًا طويلاً عاصمة الحكومة الكوكبية.

أراكس (ARRAKIS) [محرّفة عن العربية: الرّاقص، وهو اسم

نجم في السماء.]

الكوكب المعروف كذلك باسم «كثيب»، ثالث كواكب النجم كانوبوس (سهيل).

أنبوب الماء (WATERTUBE)

أحد أنابيب بذلة التقطير أو خيمة التقطير التي تحمل الماء المستعاد إلى جراب التجميع، أو تنقله من جراب التجميع إلى مرندى البذلة.

أوماس (AUMAS) [محرّفة - على الأرجح - عن اللفظة العربية: عَماس، بمعنى الشَّدِيد].
سُمَّ يُوَضَّع في الطعام (على وجه التحديد: في الأطعمة الصلبة).
يُنطَق في بعض اللهجات: شوماس.

آيات (AYAT)
علامات الحياة (راجع: البرهان).

أقارب (COUSINES)
صلة الدم الأبعد من أبناء العمومة.

أنصاف الأشقاء (DEMIBROTHERS)
أبناء حظيَّات مختلفات من أبٍ واحد.

اجتماع (GATHERING)
دعوة رسمية لقادة الفرَمَن ليشهدوا نزلاً يُحدِّد زعامة إحدى القبائل. يختلف «الاجتماع» عن «المجلس الجامع»، فالأخير اجتماع للتوصُّل إلى قرارات تشمل جميع القبائل.

آل جناز (HOUSE OF GINAZ)
حلفاء الدوق ليتو آتريديز في السابق. هُزِموا في حرب اغتيالات ضد كوكب جرومان.

الإخوان البدويين (ICHWAN BEDWINE)
الأخوية التي تضم جميع قبائل الفرَمَن على أَرَاكس.

استصلاح (ISTISLAH)

قانون للصالح العام، عادةً ما يكون تمهيداً لوقوع ضرورة مريرة.

أخدود (GRABEN)

صدع جيولوجي طويل ينشأ حين تهبط الأرض بسبب حركة طبقات القشرة الأرضية تحتها.

انضباط الماء (WATER DISCIPLINE)

التدريب القاسي الذي يؤهل قاطني كوكب أراكس للمعيشة عليه دون إهدار الرطوبة.

آل / عائلة نبيلة (HOUSE)

المصطلح الشائع الذي يصف العشيرة الحاكمة لأحد الكواكب أو الأنظمة الكوكبية.

إعجاز (IJAZ)

النبوءة التي لا سبيل إلى إنكارها؛ النبوءة الرأسخة.

«إخوتي!» (IKHUT-EIGH)

النداء الذي يرفعه باعة الماء على أراكس (أصل الكلمة غير مؤكد). (راجع: سو... سو... سوق!)

إنكفاين (INKVINE)

جنس من النباتات، موطنه الأصلي كوكب جيدي برايم. كثيرًا

ما تستخدم جذور الإنكشافين سياطاً في حظائر العبيد، وتترك على أجساد الضحايا علامات بلون البنجر يستمرُّ ألماً لسنواتٍ طويلة.

مكتبة
t.me/t_pdf

اسپایس (SPICE)
(راجع: المِزاج)

أورنيثوبتر (ORNITHOPTER)
(اختصاراً: ثوبتر): أي طائفة تحلق بجناحين أو أكثر على غرار الطيور.

إيكس (IX) [نشأ الاسم في الأصل من إساءة قراءة الرقم الروماني ix (9)].
كوكب. (راجع: ريشيس).

أعين العباد (EYES OF IBAD)
التأثير المُميّز للأطعمة الغنية بالمِزاج التي تحوّل بياض الأعين وبؤبؤها إلى اللون الأزرق الغامق (تُعد أعين العباد مؤشراً على درجة عالية من إدمان المِزاج).

ألياف كريمسكل أو حبال كريمسكل (KRIMSKELL)
(FIBER or KRIMSKELL ROPE)

أو «الألياف المخلبية»: حبال تُنسج من عروق نبات الهفوف الذي ينمو على كوكب عكاظ. تضيق عُقد الكريمسكل وتتعدد أكثر

-إلى نسب مُحدَّدة مسبقًا- كُلُّمَا شُدَّتْ (للاطلاع على دراسة أكثر تفصيلًا، راجع كتاب هولچانس فونبروك «كرمة عكاظ الخانقة»).

أوبفاير (OPAFIRE)

حجر كريم من الأوبال، واحد من جواهر كوكب حجال النادرة.

أوتاد الرمال (POLING THE SAND)

حرفة دقُّ أوتاد بلاستيكية ونسيجية في قفار أَرَاكس الشَّاسعة وقراءة الأنماط التي تحفرها العواصف الرملية عليها للتنبُّؤ بالطقس.

الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي (ORANGE CATHOLIC BIBLE)

أو «الكتاب التراكمي»: النص الديني الذي أنتجته لجنة المترجمين المسكونيين، والذي يحتوي على عناصر من معظم الديانات القديمة بما في ذلك الماومثية السارية، والمسيحية الماهايانية، والكاثوليكية الزنُسْنِيَّة، والتقاليد البوذية الإسلامية. وصية الإنجيل الكاثوليكي الكبرى هي: «لا تشوُّهوا الروح».

أوتفرين / برَّاني (OUT-FREYN)

لفظة جلاكية بمعنى «أجنبي»، أي: مَنْ ليس مِنْ دائرتك المقرَّبة، أو مَنْ ليس مَعَّن انتقيتهم لصحبتك.

أرز بُندي (PUNDI RICE)

أرز متطفَّر وراثيًا غني بالسكر الطبيعي يصل طول حبَّاته إلى 4

سنتيمترات. من صادرات كوكب كلادان الأساسية.

أنايبب القسطرة (RECATHS)

الأنابيب المتصلة بالجسم التي تربط فتحات الإخراج البشرية
بمرشحات إعادة التدوير في بذلة التقطير.

أُم موقرة (REVEREND MOTHER)

في الأصل، هو لقب مشرفات البني جيسيرت العلى اللاتي نجحن
في تحويل «السَّم المنير» داخل أجسادهن، وارتقين بأنفسهن إلى
حالة أعلى من الوعي. تبنّى الفرمن اللقب ومنحوه لزعيماتهم
الدينيات اللاتي وصلن إلى حالة «نورانية» مماثلة. (راجع أيضاً:
البني جيسيرت، وماء الحياة).

الأم العظيمة (GREAT MOTHER)

الإلهة ذات القرنين، الجوهر الأنثوي للفضاء (في الاستخدام
الشائع: الفضاء الأم): الوجه المؤنث لثالوث الذكورة والإنوثة
والخنوثة المقدس الذي تعتبره أديانٌ عديدة في الإمبراطورية
الوجود الأعلى.

أمواج الرمال (SANDTIDE)

مصطلح آخر لظاهرة المدّ الغباري: التفاوت في المستوى داخل
بعض الأحواض الملأى بالغبار على كوكب أراكس الناتج عن تأثير
جاذبية شمس الكوكب وقمره.

أمة (UMMA)

واحد من تابعي الأنبياء (مصطلح ازدرائي في الإمبراطورية،

يُوصف به الشخص «المُهَوَّس» الذي سلَّم عقله للنبوءات
المتطرِّفة).

أُروشنور (UROSHNOR)

واحد من أصوات عِدَّة بلا معنى تزرعها البني جيسيرت في عقول
ضحايا مختارين لأغراض السيطرة. يتجمَّد الشخص المُسيطر
عليه عند سماع الصَّوت.

أصول (USUL)

في لغة الفرمن: «قاعدة العمود».

(ب)

بِكَاء (BAKKA)

في أساطير الفرمن: الباكي الذي ينوح على البشرية جمعاء.

بِقلاوة (BAKLAWA)

مُعجَّات ثقيلة تُحلَّى بشراب التمر.

باليسِت (BALISET)

آلة موسيقية تساعية الأوتار انحدرت مباشرةً من آلة الزيثير،
مضبوطة على سلَّم كوكب شوسوك الموسيقي. تُعرَف بالاليسِت
بالنقر على أوتارها، وهي الآلة المفضَّلة للشعراء المطربين في
الإمبراطورية.

بركة (BARAKA)

الولي الذي يتمتع بكرامات وقدرات خاصة.

باشار (BASHAR) [من الاسم العربي: بَشَّار]

حاكم مقاطعة (في الغالب يُسمَّى: عقيد باشار): رتبة في قوَّات السَّاردوكار تعلو رتبة العقيد في التصنيف العسكري الموَّحد. أنشئت تلك الرتبة للحكَّام العسكريين على مقاطعة كوكبية فرعية (أما مصطلح «باشار القوَّات» فيقتصر على الاستخدام العسكري).

بن قرطيبا (IBN QIRTAIBA) [من اللقب العربي قرطبي، نسبةً إلى مدينة قرطبة الأندلسية]

أو «هكذا تقول الكلمات المقدَّسة...»: مفتتح ابتهالات الفرمن الدينية الرسمية (مستمَّد من «نبوءات بانوليا»).

بيلا تيجيوس (BELA TEGEUSE)

الكوكب الخامس في نظام كوانتينج النجمي: ثالث محطة توقَّف فيها الفرمن الزنسُنيون في أثناء هجرتهم القسرية.

بني جيسيرت (BENE GESSERIT)

[المقطع الأوَّل - على الأرجح- هو تحريف لنطق كلمة «بَني» أو «بنو» بمعنى قوم، أمَّا المقطع الثَّاني فربَّما يكون محرَّفًا عن كلمة «جيزويت»، أي «يسوعي»]

مدرسة قديمة للتدريب العقلي والبدني أنشئت بشكل أساسي للإناث بعد أن دُمِّر «الجهاد البطلري» ما يُسمَّى به الآلات المفكِّرة والروبوتات.

بوتاني جيب (BHOTANI JIB)

لغة قديمة (راجع: تشاكوبسا).

بلا كيف (BI-LA KAIFA) [تركيبٌ لغويٌّ مأخوذ من قول السلف في أسماء وصفات الله: «أمروها كما جاءت بلا كيف ولا معنى»].

بمعنى: آمين (حرفيًا تعني: «أمر لا فائدة من شرح معناه أو الخوض في كيفيته»).

بيندو (BINDU)

حالة خاصة بتدريب أعصاب الجهاز العصبي البشري، غالبًا ما يُعبّر عنها بالتركيب المزجي «بيندو عصبية».

(راجع: پرانا).

بيداء (BLED) [على الأرجح محرّفة عن بيد، جمع بیداء، أو بلاد، جمع بلد]

الصحراء الواسعة المترامية التي لا ماء فيها.

برقع (BOURKA)

غطاء عازل يرتديه الفرمن في الصحراء المفتوحة.

برهان (BURHAN)

بيّنات الحياة (عادةً: آيات وبراهين الحياة). (راجع: آيات).

بدويون (BEDWINE)

(راجع: الإخوان البدويون)

بورسج (BURSEG)

قائد عام: رتبة عسكرية في قوَّات السَّاردوکار.

بارجة فضائية (MONITOR)

سفينة فضاء مدرَّعة يحميها درع طاقة. تتكوَّن البارجة من عشرة أقسام قابلة للانفصال، وذلك للإقلاع بها بعد إنزالها على أيِّ من الكواكب.

پولاذ (PLASTEEL)

فولاذ شديد الصلابة مدعَّم بألياف استرايديم تنمو في هيكله البلُّوري.

بندقية ليزر (LASGUN)

سلاح يُطلق أشعة ليزر متتابعة صار استخدامه محدوداً بعد انتشار دروع الطاقة، بسبب الانفجار الناري الذي يحدث عند اصطدام شعاع الليزر بمجال طاقة أحد الدروع (الذي هو في حقيقته اندماج دون ذرِّي).

پلنيسنتا (PLENISCENTA)

زهرة خضراء غريبة تنمو على كوكب عِكاظ تشتهر برائحتها الحلوة.

بوصلة پاراویة (PARACOMPASS)

بوصلة تحدّد الاتجاه عن طريق الشدوذ المغناطیسی، تستخدم عند توافر المخططات المناسبة، وحين يكون المجال المغناطیسی الكلي للکوکب غیر مستقر أو محتجب بسبب عواصف مغناطیسیة شديدة.

پرانا (جهاز پرانا العضلي الهيکلي) (PRANA)

عضلات الجسم عند التعامل معها كوحداث منفصلة يجب أن تخضع إلى أقصى أنواع التدريب. (راجع: بيندو).

باب الطوارئ أو حاجز الطوارئ (PRUDENCE DOOR (or PRUDENCE BARRIER)

درع طاقة خماسي لا يُمرّر غير أشخاص محدّدين مسبقًا، ويُستخدم للهرب في حالات المطاردة (راجع: درع خماسي).

بدلة التقطير (STILLSUIT)

لباس يغلّف الجسم ابتكر على أراکس. نسيجه مكوّن من طبقات رقيقة تؤدي وظائف تبديد الحرارة وتنقية الإفرازات الجسدية. الماء المُستعاد عن طريق بدلة التقطير يكون متاحًا للشرب عبر أنبوب متّصل بجراب التجميع.

پوريترين (PORITRIN)

ثالث کواکب النجم إيسيلون آلانج. يُعدّه كثيرٌ من الرخّالة الزنسنّيين کوکبهم الأصلي، على الرغم من أن الدلائل في لغتهم

وأساطيرهم تظهر جذورًا كوكبية أقدم بكثير.

برتقال (PORTYGULS)

فاكهة.

بلاغ شفوي (PROCES VERBAL)

بلاغ شبه رسمي يتهم شخصًا بارتكاب جريمة ضد الإمبراطورية. من الناحية القانونية: هو إجراء يحتل منطقة وسطى بين الادعاء الشفوي المُستَرسَل وتوجيه تهمة رسمية.

(ت)

تأثير هولتزمان (HOLTZMAN EFFECT)

تأثير التناثر السلبي الذي ينتج عن مُولّدات دروع الطاقة.

تشوم (CHOAM)

الأحرف الأولى من عبارة «الائتلاف المجريّ لأقطاب التجارة الأشراف»⁽¹⁾: المؤسسة التتموية المجريّة التي يسيطر عليها الإمبراطور والعائلات النبيلة، تساهم فيها نقابة الفضاء والبنّي جيسيرت كشريكين صامتين.

التجار الأحرار (FREE TRADERS)

لقب آخر للمهربيين.

(1) في النصّ الأصلي: Combine Honnete Ober Advancer Mercantiles.

تحدي البرهان (TAHADDI AL-BURHAN)

اختبار نهائي لا استئناف فيه (لأنه يجلب الموت أو التدمير عادةً).

التحدي (TAHADDI CHALLENGE)

أحد التقاليد الفرمنية: قتال حتى الموت، يلجأ إليه عادةً للبت في مسألة هامة.

تقوى (TAQWA)

حرفياً: «ثمن الحرية»: شيء له أهمية كبيرة. ما يطلبه الإله من الفاني (والخشية التي يثيرها الطلب في قلبه).

تعاليم الظلام (DARK THINGS)

مصطلح يصف الخرافات التي تنشرها المبشّرات الحاميات (المسيونيرا بروتاكتيفا) بين الحضارات البدائية التي يرى فيها استعداداً للتأثر بها.

تليلاكس (TLEILAX)

كوكب النجم ثاليم الوحيد، يشتهر بأنه مركز تدريب منشق للمنتات، وهو مصدر المنتات «المنحرفين».

تشاكوبسا (CHAKOBSA)

تُسمّى أيضاً بـ«اللغة المغناطيسية»، وهي لغة مشتقة جزئياً من اللغة البوتانية القديمة: البوتاني جيب (حيث جيب تعني لهجة).

تتكوّن التشاكوبسا من مجموعة من اللهجات القديمة التي عُدلت وطُوّرت بفرض الاستخدام السريّ، لكنها في المقام الأوّل لغة الصيد التي يستخدمها البوتانيّين، المغتالين المأجورين الذين شاركوا في «حروب الاغتيالات» الأولى.

تدريب (TRAINING)

يُفترض أن يكون لهذا المصطلح الشائع معنى خاصاً حين يطبّق على طائفة البني جيسيرت، إذ يشير إلى تهيئة وتدريب الأعصاب والعضلات إلى أقصى حد تسمح بها وظائفها الطبيعية. (راجع: البيندو والپرانا)

تيوبایل (TUPILE)

أو «الملاذ الآمن»: ملجأ العائلات المهزومة في الإمبراطورية (في الغالب هو كواكب عدّة). لا يعلم موقع الكوكب (الكواكب) إلا النقابة، التي تحافظ على عدم انتهاك حرمة بموجب «السلام النقابي».

التهيئة العقلية الإمبراطورية (IMPERIAL CONDITIONING)

تقنية رفيعة طوّرتها كليات سوك الطبية، تمثّل أعلى تجهيز يخضع له الأطباء الإمبراطوريون لسلبهم القدرة على قتل أيّ شخص. الخاضعون للتهيئة يحملون وشماً على هيئة ألماسة على الجبهة، ويُسمح لهم بإطالة شعورهم وعقسه بطوق سوك الفضّي.

ثلاثي الموت (DEATH TRIPOD)

في الأصل، هي منصّة إعدام ثلاثية القوائم يُعلّق فيها جُلادو الصّحراء ضحاياهم. عُرِفَ يشير المصطلح إلى الأشخاص الثلاثة الذين يكوّنون «أخوية الكراهية» ويقسمون على الأخذ بثأر معيّن.

الثورة الكبرى (GREAT REVOLT)

المصطلح الشائع للجهاد البطلري. (راجع: الجهاد البطلري).

(ج / چ)

جمود البيندو (BINDU SUSPENSION)

حالة خاصة من التخشب الجسدي المستحث ذاتيًا.

الجهاد البطلري (BUTLERIAN JIHAD)

الحملة الكبرى ضد الحاسبات والآلات المفكّرة والروبوتات الواعية التي بدأت عام (201 ق ن) وانتهت عام (108 ق ن)، والتي حُرّم بعدها على البشرية صنع أيّ آلة ذكيّة. الوصية الأساسية لتلك الحرب التاريخية، «لا تصنعوا آلات تُحاكي العقل البشري»، ما زالت في الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي. (راجع أيضًا: الثورة الكبرى).

جيب التجميع (CATCHPOCKET)

الجراب المسؤول عن تجميع وتخزين الماء المُقطّر في بذلات التقطير.

جامعو الندى (DEW GATHERERS)

العمّال الذين يجمعون الندى على أَرَاكس باستخدام حصّادة ندى شبيهة بالمنجل.

الجلابية (GALACH)

لغة الإمبراطورية الرسمية. خليط من اللغات الأنجلوسلافية، بها آثار قوية من مصطلحات ثقافية متخصصة تُبْنِيَت خلال سلسلة طويلة من الهجرات البشرية.

جامونت (GAMONT)

الكوكب الثالث من النجم نيوشيه. يشتهر بثقافته الحسّية وبالممارسات الجنسية الغريبة.

جيدي پرايم (GIEDI PRIME)

أحد كواكب النجم 36 أوفيوتشى بي وموطن آل هاركونن. كوكب متوسط القابلية لإيواء الحياة، ومستوى التمثيل الضوئي عليه ضعيف.

الجدار الحامي (SHIELD WALL)

سلسلة جبلية تقع في ربوع أَرَاكس الشمالية وتحمي منطقة صغيرة من هَوّة عواصف كوريوليس الكوكبية.

الجوم جَبّار (GOM JABBAR) [كلمة JABBAR مشتقة

-على الأرجح- من جَبّار]

أو العدو المتسلط: الإبرة المسمومة بالسيانيد التي تستخدمها
ناظرات البني جيسيرت في اختبارهن المميت لشوكة الوعي
البشري.

جَوَال الرمال (SANDWALKER)

أَيُّ فرمِني تدرَّب على أساليب البقاء في الصَّحراء المفتوحة.

جرومان (GRUMMAN)

ثاني كواكب النجم نيوشيه، يشتهر بشكل رئيس بسبب العداء
القديم بين عائلة موريتاني التي تحكمه وآل جناز.

جهاد (JIHAD)

حملة (حرب) دينية متعصبة.

جُبَّة (JUBBA CLOAK)

رداء متعدّد الاستخدامات (يمكن ضبطه ليعكس الحرارة أو
لامتصاصها، وتحويله إلى مظلة أو فراش معلق للقبولة) عادةً ما
يُلبس فوق بذلة التقطير على كوكب أَرَاكس.

جُرّة لترية (LITERJON)

حاوية من البلاستيك المقوَّى المقاوم للكسر لها غطاء محكم
وسعتها لتر واحد، تُستخدم لنقل الماء على أَرَاكس.

الجوديشار (GIUDICHAR)

الحقيقة المقدّسة. (عادةً ما يظهر اللفظ ضمن مصطلح

الجوديشار مانتِي: الحقيقة الأصلية الدائمة).

(ح)

حاملة جَوِّيَّة (CARRYALL)

وتعرف أيضًا بالجنح الطائر (أو «الجنح»): العمود الفقري للمركبات الجَوِّيَّة على أَرَاكس. تُستخدم الحاملات الجَوِّيَّة لنقل المعدات الضخمة التي تتطلبها عمليات التنقيب عن الأسياخ واستخراجه وتكريره.

حاويات التفريغ (DUMP BOXES)

المصطلح العام لأي حاية بضائع ذات شكل غير منتظم ومجهزة بدرع حراري ومنظومة كوابح معلقة. تُستخدم لإنزال المواد من الفضاء على سطح أحد الكواكب.

حجال (HAGAL)

الكوكب الشهير بـ«كوكب الجواهر» (وهو الكوكب الثاني في نظام ثينا شاوي النجمي الثنائي). استُنفدت موارد الكوكب في عهد الإمبراطور شادام الأول.

«حي يوه!» (HAIIII-YOH!)

صيحة يقولها قائد الدودة للمساعدين الذين يوجهون مسارها، بمعنى: هيا.

حج (HAJJ)

رحلة مقدَّسة.

حارمونثب (HARMONTHEP)

يقول المؤرخ إنجسلي إن كوكب حارمونثب هو ثالث محطة كوكبية في هجرة الرخالة الزنسنيين. يُفترض أن الكوكب كان تابعاً للنجم دلتا بافونيس، لكنه لم يعد موجوداً الآن.

حصادة عملاقة أو مصنع حمص (HARVESTER or HARVESTER FACTORY)

آلة حصاد ضخمة (طولها 120 متراً وعرضها 40 متراً) تُستخدم في استخراج الاسپايس، وتعالج عادةً رواسب الاسپايس الفنية غير الملوثة (توصف عادةً بـ«الزخافة» لهيكلها الشبيه بالحشرة الذي يقف على أقدام مستقلة).

حيرق (HIEREG)

مخيم صحراوي مؤقت ينصبه الفرمن على الرمال المفتوحة.

حافة الجدار (RIMWALL)

المنحدرات الوعرة التي تكوّن الحافة العليا الثانية في بدن الجدار الحامي على أراكس. (راجع: الجدار الحامي).

حوض (SINK)

منطقة منخفضة صالحة للسكن على أراكس، مُحاطة بأراضٍ مرتفعة تحميها من العواصف السائدة.

حوض المدّ والجذر الغباري (TIDAL DUST BASIN)

أَيُّ مِنَ المنخفضات الواسعة التي امتلأت بالغبار على مر القرون على سطح أَرَّاكس، والتي رُصدت فيها ظاهرة المدُّ والجذر الغباري على أرض الواقع. (راجع: أمواج الرمال).

حقيبة لوازم (REPKIT)

عُدَّة تصلح بذلة التقطير التي تضم قطع الغيار الأساسية.

حَوَامَة المراقبة المركزية (SPOTTER CONTROL)

طائرة الأورنيثوبتر الخفيفة المكلفة بالمراقبة والرصد والحماية التي تصاحب مجموعات التنقيب عن الاسبايس.

حاملة الجنود (TROOP CARRIER)

أَيُّ من سفن النقابة المصمَّمة خصيصًا لنقل الجنود بين الكواكب.

حرب اغتيالات (WAR OF ASSASSINS)

شكل الحرب المحدود المسموح به بموجب المعاهدة الكبرى والسلام النقابي، الذي يهدف إلى الحدِّ من تورُّط الأبرياء غير المعنيين بالصراع. تنصُّ القواعد على إعلان نِيَّات رسمي من الأطراف الضالعة، والتقيُّد بالأسلحة المسموح بها.

(خ)

خلاء (KHALA)

دعاء تقليدي لطرد الأرواح الفاضية من المكان الذي يسمُّيه المرء في الدعاء.

خنجل (KINDJAL) [خنجر]

سلاحٌ طاعنٌ قصير ذو حَدَّين طوله نحو 20 سنتيمتراً، ونصله مُقوَّس قليلاً.

خارطة تضاريس (SINKCHART)

خريطة لسطح أَرَاكس عليها إشارات أكثر مسارات البوصلة الباراوية موثوقية. تُستخدم للتنقُّل بين أماكن الإيواء. (راجع: بوصلة باراوية).

خوارقي / عجائب (WEIRDING)

مصطلح يصف كل ما يتعلَّق بالروحانية أو السحر.

خُطَّافا الصَّانعة (MAKER HOOKS)

الخُطَّافان اللذان يُستخدمان للتعلُّق بدودة أَرَاكس الرملية، ومن ثم امتطائها وتوجيهها.

خيمة التقطير (STILLTENT)

خيمة صغيرة محكمة الغلق مصنوعة من طبقات رقيقة مُصمَّمة لاستعادة الرطوبة من أنفاس شاغليها وتحويلها إلى ماء صالح للشرب.

(د)

دليل المغتالين (ASSASSINS' HANDBOOK)

كُتِبَ يضم معلومات عن مجموعة سموم تعود إلى القرن الثالث شاع استخدامها في حروب الاغتيالات. لاحقاً توسَّع الكتاب

ليشمل الوسائل المميّنة المسموح باستخدامها بموجب «السلام النقابي» و«المعاهدة الكبرى».

درع خماسي (PENTASHIELD)

درع طاقة يُولد مجالاً من خمس طبقات، مناسب للاستخدام في المساحات الضيقة كالمداخل أو الممرات (دروع التعزيز الكبيرة تصبح غير مستقرة بشكل متزايد مع كل طبقة تالية)، لا يستطيع عبوره أي شخص لا يرتدي جهازاً ضُبط وفقاً لرموز الدرع (راجع: باب الطوارئ).

دار الحكمان (DAR AL-HIKMAN)

مدرسة معنية بالترجمة والتفسير الديني.

دير/ إلى اليمين (DERCH)

صيحة يقولها قائد الدودة للمساعدين الذين يوجّهون مسارها.

دودة الرمال (SANDWORM)

(راجع: شَي هولود).

درع دفاعي (DEFENSIVE SHIELD)

مجال الطاقة الواقية الذي ينتجه مُولّد هولتزمان عن طريق تسخير «الحالة الأولى» لتأثير إبطال مضادات الجاذبية الذي ينشأ عنه قوى تنافرية. لا شيء يستطيع اختراق الدرع الدفاعي غير الأجسام المتحركة بسرعة بطيئة (تتراوح هذه السرعة من

سنة إلى تسعة سنتيمترات في الثانية وفقاً لإعدادات الدرع)، ولا يمكن تعطيله إلا بتعريضه لكم هائل من الطاقة الكهربائية يعادل متوسط استهلاك مقاطعة برمتها.

(ذ)

ذو الخطافين (HOOKMAN)

الفرمني المسلح بخطافين بفرض امتطاء إحدى ديدان الرمال العملاقة.

(ر)

رباط الكراهية (CHEREM)

أو أخوية الكراهية (رھط من الفرمن يتحدون عادة من أجل الشار).

الرمل الطبلي (DRUM SAND)

انضغاط الرمل بطريقة تجعل أي ضربة مفاجئة على سطحه تُنتج صوت قرع طبل مُميّز.

روح (RUH-SPIRIT)

في معتقدات الفرمن، هي ذلك الجزء من كينونة الإنسان المتجذر دوماً في العالم الغيبي (والذي يستطيع المرء استشعاره). (راجع: عالم المثال).

رجال الكثبان (DUNE MEN)

الوصف الشائع للعاملين في الصحراء المفتوحة، والمنقبين عن الاسپايس، وغيرهم. يُعرفون أيضًا بعمّال الرمال وعمّال الاسپايس.

راشاج (RACHAG)

مادّة منبّهة شبيهة بالكافيين، تُستخرج من التوت الأصفر الذي ينمو على كوكب أكارسو. (راجع: أكارسو).

رمضان (RAMADHAN)

مدّة دينية قديمة تشتهر بالصيام والصلاة. تاريخيًا، هو الشهر التاسع من التقويم الشمسي القمري. يحتفل الفرمن بقدومه حين يبلغ القمر الأوّل خط الزوال في دورته التاسعة.

ريشيس (RICHESE)

رابع كواكب النجم إيريداني إيه، ويصنّف مع كوكب إيكس على أنهما الأهم في ثقافة الآلة، ويشتهر بتكنولوجيا تصغير الأجهزة. (للاطلاع على دراسة مستفيضة عن كيفية نجاة كوكبي ريشيس وإيكس من آثار الجهاد البطلري الوخيمة، راجع كتاب «الجهاد الأخير» لمؤلفيه سومر وكواتمان).

راكب الرمال (SANDRIDER)

اللقب الذي يطلقه الفرمن على من يستطيع قنص دودة الرمال وامتطائها.

(ز)

الزنسُنيون (ZENSUNNI)

أتباع فرقة منشقة انفصلت عن تعاليم ماومث (المعروف أيضًا بهـ «مُحمّد الثالث») نحو عام (1381 ق ن). تشتهر الديانة الزنسُنية

في المقام الأول بتركيزها على الباطنية الروحانية، والعودة إلى «طرق الآباء». يقول أغلب الباحثين إن علي بن أوهاشي كان زعيم الانشقاق الأصلي، لكن بعض الأدلة تشير إلى أن أوهاشي ربّما كان مُجرّد الذكر المتحدّث باسم زوجته الثانية، نيساي.

زحّافة الرمال (SANDCRAWLER)

مصطلح عام يضم تحته كل الآلات المصمّمة للعمل في التنقيب عن المِزاج وجمعه من صحراء أراكس.

زجاج متحوّل (METAGLASS)

زجاج يُصنع عن طريق نفخ غاز عالي الحرارة في صفائح من مرو الجاسميس. يتميّز بتحمّله الشديد للضغط (نحو 450 كيلوجرامًا لكل سنتيمتر مربع بسماكة سنتيمترين) وفعاليتّه للعمل كمرشح انتقائي للإشعاع.

(س)

سائق الاسپايس (SPICE DRIVER)

من يقود المركبات الأرضية في صحراء أراكس.

سو... سو... سوق! (SOO-SOO SOOK!) [في اللغة

التركية، Su تعني ماء]

نداء باعة الماء على أراكس. (راجع: إخوتي!)

سولاري (SOLARI)

العملة الرسمية المستخدمة في الإمبراطورية. تُحدّد قوّة السولاري

الشراعية في مفاوضات تقام كل أربع سنوات بين النقابة ومجلس
اللاندراد والإمبراطور.

سلك شيجواير (SHIGAWIRE)

إفراز معدني يخرج من كرمة أرضية (اسمها العلمي: نارفي
نارفيام) تنمو على كوكبي سالوسا سوكانداس ودلتا كايسينج
الثالث. يتميز الشيجواير بقوة مقاومة شد عالية.

سييتش (SIETCH)

في لغة الفرمن هو «مأوى للتجمّع في أوقات الخطر». لكن لأن
الفرمن عاشوا مدداً طويلة في خطر، صار المصطلح يُستخدم
للإشارة إلى أيّ مغارة يتخذها أحد مجتمعاتهم القبلية مقراً.

سيهيا (SIHAYA)

في لغة الفرمن: الربيع الصحراوي المحمّل بدلالات دينية تشير
إلى وقت الإثمار و«الجنة الآتية».

السرائ (SIRAT)

فقرة في الإنجيل البرتقالي تصف حياة الإنسان كرحلة على جسرٍ
ضيّق (السرائ): «الجنة عن يميني، والجحيم عن يساري، وملك
الموت من خلفي».

مكتبة
t.me/t_pdf

السلامك (SELAMLIK)
البلاط الإمبراطوي.

سَمُوتَا (SEMUTA)

ثاني العقاقير المشتقة من بقايا خشب الإلاكا المحترق (يُشتق عن طريق الاستخلاص البلوري). بعض الذبذبات الموسيقية اللا نمطية تضاعف من تأثير المخدر (الذي يُوصف بأنه نشوه لا تُسسى ولا تقدّر بثمن). يُشار إلى تلك الذبذبات بموسيقى سَمُوتَا.

سِرْهوك (SERVOK)

آلية مضبوطة لأداء مهام بسيطة؛ إحدى الأجهزة الأوتوماتية المحدودة المسموح باستخدامها بعد الجهاد البطلري.

سَيَّادِينَا (SAYYADINA) [مُحرّفة عن سيّدنا]

مساعدة الكاهنة في منظومة الفرمن الدينية.

سدّادة المرشّح (FILT-PLUG)

وحدة التصفية الأنفية التي تلبس مع بذلة التقطير لالتقاط الرطوبة من الزفير.

السافو (SAPHO)

سائل غني بالطاقة مستخرج من جذور أحد نباتات عكاظ، يشيع استخدامه بين المَنَنتات ويُقال إنه يُعزّز القدرات العقلية. تظهر على أفواه وشفاه المتعاطلين بقعٌ حمراء داكنة.

السَّارْدُوكَار (SARDAUKAR)

جنود الإمبراطور الهادي شاه المتعصّبون. رجال قادمون من خلفية

بيئية شديدة الضراوة لدرجة أنها تقتل نصفهم تقريباً (6 أفراد من كل 13 فرداً) قبل سن الحادية عشرة. ينصبُّ تدريبهم العسكري على القسوة وتجاهل السلامة الشخصية بشكل شبه انتحاري. تعلَّموا منذ الطفولة استخدام القسوة سلاحاً أساسياً، وإضعاف خصومهم بالرعب. في ذروة هيمنتهم على الشؤون الكونية، قيل إن مهاراتهم في فنون المبارزة واستعمال السيف تضاهي المستوى العاشر لآل جناز، وقيل إن قدراتهم الماكرة في القتال قريب المدى تقترب من مهارات مقاتلات البيني جيسيرت. تساوي قوَّة الواحد منهم قوَّة عشرة من مُجنَّدي اللاندسراد العسكريين العاديين. بحلول عهد شادام الرابع، فيما كانوا لا يزالون مهيبين الجانب، بدأت قوَّتهم توهن بالتدريج من فرط ثقتهم بالنفس، وكذا خفت وهج هالة الغموض المحيطة بشريعتهم القتالية من جراء ما نالوه من تهكُّم.

السَّادة (SADUS)

أو القضاة. اللقب الذي يُطلقه الفرمن على القضاة المقدَّسين، من يعادلون القديسين.

سالوسا سوكانداس (SALUSA SECUNDUS)

ثالث كواكب النجم جاما الحوت. تحوَّل الكوكب إلى مقرٍّ للسجون الإمبراطورية بعد نقل البلاط الإمبراطوري إلى كوكب كايتين. سالوسا سوكانداس هو موطن آل كورينو الأصلي، ومحطَّة التوقُّف الثانية في هجرات الرِّحالة الزنسُنيين.

السُّمُّ الْكَامِنُ (RESIDUAL POISON)

ابتكار يُنسب إلى المِنتات بايتر دي فريس، عن طريقه يُحقن الجسم بمادّة سامة لا شفاء منها، ويُسيطر عليها بإعطاء الشخص الترياق بشكل مستمر. إذا حُرِمَ الجسم من الترياق في أيّ وقتٍ تحدث الوفاة.

سجِّلُ النِّكاح (MATING INDEX)

سجِّلُ مشروع البني جيسيرت الأساسي لتهجين السلالات البشرية الذي يهدف إلى استيلاد الكويزاتس هاديراك عن طريق الاصطفاء الجيني.

السيال (EL-SAYAL)

«مطر الرمال»: ظاهرة سقوط الرمال التي حملتها إحدى العواصف الكوريوليسية إلى ارتفاع متوسّط (نحو 2000 متر). كثيرًا ما يجلب السيل الرطوبة إلى سطح الأرض.

السَّاحِقَات (CRUSHERS)

سفن فضاء عسكرية تتكوّن من سفن صغيرة عدّة معقودة معًا ومصمّمة للإسقاط على موقع العدو وسحقه.

السَّكِّينُ العَاجِيَةُ (CRYSKNIFE) [بالنقحرة: كريسنائف،

الترجمة الحرفية: السكّين الكريستالية أو البلّورية]
سكّين الفرمن المقدّسة. تُصنع من أسنان ديدان الرمال النافقة بحالتين: مستقرّة وغير مستقرّة. يجب أن تبقى السكّين غير

المستقرّة بالقرب من مجال الجسد البشري الكهربائي كي لا تتحلّل، أما السكاكين المستقرّة فتُعالج بطريقة معيّنة بفرض التخزين. يبلغ طول السكّين العاجية نحو 20 سنتيمتراً.

سري لاجو (CIELAGO)

أيّ من ثدييات أراكس الخُفّاشيّة المعدّلة التي تكيّفت لحمل الرسائل المكوّدة.

سوندا جي (SONDAGI)

زهرة التوليب السرخسية من كوكب توبالي.

(ش)

شوماس (CHAUMAS) (أوماس في بعض اللهجات)

نوع من السُّموم يُوضع في الأطعمة الصلبة، ويختلف عن السُّموم الأخرى التي تُستخدم بطرائق مختلفة.

شاومركي (CHAUMURKY)

(مسكي أو مركي في بعض اللهجات): سُمٌّ يُوضَع في الشراب.

شيوبس (CHEOPS) [اسم الملك خوفو في اليونان القديمة]

شطرنج هرمي مكوّن من تسعة مستويات. ربح المباراة يكون عن طريق تحقيق هدفٍ مزدوج: وضع الوزير على قمّة الهرم، ومحاصرة ملك الخصم.

شوسوك (CHUSUK)

الكوكب الرابع من النجم ثينا شاليس. يشتهر الكوكب بجودة آلاته الموسيقية، ويُعرف بـ«كوكب الموسيقى» (راجع: فاروتا).

شال النيزوني (NEZHONI SCARF)

الوشاح الذي ترتديه نساء الفرمن المتزوجات أو «المرتبطات» تحت قلنسوة بذلة التقطير بعد إنجاب الابن الأول.

شادوات (SHADOUT) [أغلب الظن مُحرفة عن شواديف:

جمع شادوف]

الفارفة من البئر. لقب شرفي عند الفرمن.

شَي هُولود (SHAI-HULUD) [من العربية: الشَيء، الخالد،

شيخ الخلود]

ديدان الرمال العملاقة التي تعيش على أراكس («عجوز الصَّحراء»، «شيخة الخلود»، «جدة الصَّحراء»). من الجدير ذكر أن الاسم -عند ذكره بنبرة معينة أو كتابته بأحرف كبيرة- يشير بشكل أساسي إلى إلهة الأرض في معتقدات الفرمن الخرافية. تنمو ديدان الرمال إلى أحجام عملاقة (شُوهدت في أعماق الصَّحراء عِيَّات يصل طولها إلى أكثر من 400 متر)، وتعيش الواحدة منها أمدًا طويله ما لم تقتلها دودة أخرى أو تفرق في الماء. معظم رمال أراكس تكوَّنت بفعل نشاط الديدان الرملية. (راجع: الصَّانعات الصغيرة).

شیطان (SHAITAN)

الشريعة (SHARI-A)

ذلك الجزء من «نبوءات پانوپلیا» الذي يستعرض الطقوس الخرافية. (راجع: المبشرات الحاميات).

الشاهنامة (SHAH-NAMA)

الكتاب الأوّل شبه الأسطوري للرحالة الزنسّیین.

شلاح (SCHLAG)

حيوان موطنه الأصلي توبایل، تعرّض قديماً للصيد الجائر بسبب جلده الرقيق المتين حتّى أوشك على الانقراض.

(ص)

الصّاعق (STUNNER)

قاذفة بطيئة تُطلق سهاماً مسمومة أو مخدّرة. فعالية الصّاعق محدودة وتتحدّد بناءً على اختلاف إعدادات درع الهدف، والحركة النسبية بين الهدف والقذيفة.

«صباح الخير» (SUBAKH UL KUHAR)

تحية فرمّنية بمعنى: «كيف حالك؟».

«صباح النور» (SUBAKH UN NAR)

الرد المعتاد على التحية أعلاه؛ بمعنى: «بخير، وأنت؟».

الصرفة (SARFA)

الابتعاد عن الرب.

الصَّانعة (MAKER)

(راجع: شَيِّ هولود)

الصُّوت (VOICE)

قدرة خاصة تكتسبها أخوات البني جيسيرت عن طريق تدريب ذهني عضلي مشترك، وتسمح لمن يبرع فيها بالتحكم في الآخرين باستخدام طبقات صوت محدّدة.

الصَّانعة الصغيرة (LITTLE MAKER)

الطور الأوّل من دورة حياة ديدان أراكس الرملية. متعضّية حية نصف نباتية نصف حيوانية. تعيش يرقات الصَّانعة الصغيرة في الرمال العميقة، وفضلاتها هي التي تكوّن كتل الاسپايس الأولى.

صِيادة متعقّبة (HUNTER-SEEKER)

جهاز اغتيال شائع: شظية فتّاحة تسبح في الهواء، وتوجّه عن طريق وحدة تحكّم قريبة.

صورة الذات المُجسّدة (EGO-LIKENESS)

صورة تصدر عن مسلاط شيجواير قادرة على إعادة إنتاج تفاصيل دقيقة يُقال إنها تعبّر عن جوهر الذات التي تجسّدها.

(ض)

الضمير المتقد (PYRETIC CONSCIENCE)

ويعرف أيضًا بـ «الضمير الناري»: مستوى الوجدان الذي تُؤثر فيه التهيئة العقلية الإمبراطورية (راجع: التهيئة العقلية الإمبراطورية).

(ط)

الطاو (THE TAU)

في مصطلحات الفرمن، هو الترابط بين أفراد مجتمع السييتش الذي تعزّزه الأطعمة غنية بالاسپايس، وبالأخص نشوة الطاو الجماعية الناتجة عن شرب ماء الحياة التي تصهر أفراد المجتمع في بوتقة واحدة.

(ع)

عباءة (ABA)

رداء فضفاض ترتديه نساء الفرمن، عادةً يكون أسود اللون.

عالم المِثال (ALAM AL-MITHAL)

عالم المتشابهات الروحاني الذي تُزال فيه جميع القيود المادية.

عرّافة الحقيقة (TRUTHSAYER)

الأُمّ المؤقّرة المؤهّلة للدخول في غشية الحقيقة، وكشف النفاق والباطل.

عقل (AQL)

اختبار الحكمة، وهو يتكوّن في الأصل من «سبعة أسئلة صوفية»، تبدأ بالتالي: «من المفكر الأول؟».

عُليّا (AULIYA)

في ديانة الرّحالة الزنُسُنِّيَّين، هي الأنثى الجالسة على يسار الرّب، أو: حظيَّة الرّب.

عاصفة كوريوليسية (CORIOLIS STORM)

أيّ عاصفة رملية كبرى على أَرَاكس يساهم دوران الكوكب حول نفسه في زيادة سرعة هبوب رياحها عبر الصحاري المنبسطة، حتّى تبلغ سرعتها 700 كيلومتر في الساعة.

عكاظ (ECAZ)

الكوكب الرّابع من النجم ألفا سنتوري بي. يُلقَّب الكوكب بـ«جنَّة النّعّاتين» لكونه موطن أشجار الضباب، وهو جنس من النباتات يُمكن نحته وتشكيله في مكانه بقوة التفكير البشري وحدها.

عرق (ERG)

منطقة كثبان شاسعة، بحر من الرمال.

عمود النار (PILLAR OF FIRE)

صاروخ ناري بسيط يُستخدم للإشارة عبر الصّحراء المفتوحة.

عُدَّةُ الْفَرَمِن (FREMKIT)

عُدَّةُ النجاة في الصَّحراء التي يصنعها الْفَرَمِن.

العائلات الكبيرة (HOUSE MAJOR)

حُكَّامُ الإقطاعيات الكوكبية، رجال أعمال بين الكواكب. (راجع: آل / عائلة نبيلة).

العائلات الصغيرة (HOUSE MINOR)

طبقة المتعهدين وأصحاب المشاريع المقصورين على أحد الكواكب.

العدسة الزيتية (OIL LENS)

زيت نبات الهفوف المحتجز في حالة توتُّر ساكنة عن طريق حقل قوة مُغلق داخل أنبوب شفاف ليعمل كجزء من مكونات عدسة مكبرة أو أي جهاز آخر للتلاعب بالضوء. نظرًا لإمكانية تعديل كل عنصر من عناصر العدسة على حدة بمقدار ميكرون واحد في المرة، تتمتع العدسة الزيتية بدقة قصوى في التلاعب بالضوء المرئي.

علم (ILM)

علم أصول الدين، أو علم التقاليد الدينية: أحد الأصول شبه الأسطورية لعقيدة الرِّحالة الزنسنيين.

علماء (ULEMA)

رجال الدين الزنسُين.

عبء الماء (WATER BURDEN)

مصطلح فرمِني: التزام مُهلك.

عملات الماء (WATERCOUNTERS)

حلقات معدنية مختلفة الأحجام، تحدّد كلٌّ منها كمًّا معيَّنًا من الماء يمكن سحبه من أرصدة الماء في مخازن الفرمن. لحلقات الماء دلالات عميقة (أبعد بكثير من فكرة المال المعتادة)، خصوصًا في مسائل الولادة والموت وطقوس التودّد.

عرّاف الطقس (WEATHER SCANNER)

شخص تدرب على أساليب التنبؤ بالطقس على أراكس، ولديه القدرة على قراءة الرمال وأنماط الرياح.

(غ)

غطاء عازل (DOORSEAL)

غطاء بلاستيكي متنقل يُستخدم لضمان عدم خروج الرطوبة من معسكرات المبيت اليومية التي ينصبها الفرمن في الكهوف.

غَفْلَة (GHAFLA)

تسليم النفس للإلهاءات، ما يجعل الشخص غافلاً لا يمكن الوثوق به .

غَنِيْمَة (GHANIMA)

ما يُكتسب في معركة أو قتال. الغنيمة عادةً تذكّار من القتال يحتفظ المرء به لتنشيط الذاكرة.

غُور (PAN)

على أَرَاكس، هو أيُّ منخفض ناتج عن انهيار أرضي. أمّا على الكواكب التي تحوي ماءً، فيشير الغور إلى منطقة كانت مغطاة سابقاً بمسطح مائي قبل أن تجفّ. يُظنُّ أن أَرَاكس يضمُّ غوراً واحداً على الأقل من هذا النوع، لكن هذا الأمر ما زال محل جدل.

غَزْوَة (RAZZIA)

غارة مسلّحة من بعض أهدافها الرجوع بالمغانم.

غَشِيَة الْحَقِيقَة (TRUTHTRANCE)

حالة من الغشية تشبه التنويم الإيحائي، يستحثُّها أحد عقاقير «طيف الوعي» الكثيرة، وفيها يستطيع المراقب الذي تعثره الغشية أن يستشعر خلجات الكاذب المتعمّد ويكشف كذبه. (لاحظ أن عقاقير «طيف الوعي» كثيراً ما تكون قاتلة إلا على من تحصّنوا تدريجياً منها وصاروا قادرين على تغيير تركيب السُّمِّ داخل أجسامهم).

فارفلوشس (FAUFRELUCHES)

نظام التمييز الطبقي الصَّارم الذي تفرضه الإمبراطورية والذي يتلخَّص في شعار: «يُوجد لكلِّ رجلٍ مكان، وعلى كلِّ رجل أن يلزم مكانه».

الفرمن (FREMEN)

القبائل الحرة التي تقطن كوكب أَرَّاكس، سكَّان الصَّحراء، ما تبقى من نسل الرِّحالة الزنُسُنِّيَّين (ينعتهم القاموس الإمبراطوري بـ«قراصنة الرمال»).

القدانيون / القدانيين (FEDAYKIN)

كتائب المفاوير من الفرمن. تاريخياً: هي مجموعة تكوَّنت وتعهَّدت بالتضحية بحياتها لتصحيح كل خطأ.

الفرقاطة (FRIGATE)

أكبر سفينة فضاء تستطيع الهبوط على سطح أحد الكواكب والإقلاع منه بسلامة.

فيلم ميكروني (MINIMIC FILM)

سلك شيجواير قُطره ميكرون واحد، يُستخدم في الغالب لنقل معلومات التجسُّس والتجسُّس المضاد.

فقهه (FIQH)

المعرفة أو الشريعة الدينية: أحد الأصول شبه الأسطورية لديانة
الرحالة الزنسنيين.

فيء (FAI)

ضريبة المياه: ضريبة أساسية على أراكس.

فيلق إمبراطوري (IMPERIAL LEGION)

عشرة ألوية عسكرية (30 ألف رجل).

فاروتا (VAROTA)

صانع آلات الباليست الموسيقية الذائع الصيت، من سكان
تشوسوك الأصليين.

فرايت (VERITE)

إحدى عقاقير عكاظ السالبة للإرادة. يجعل الشخص غير قادر
على الكذب.

(ق)

قائد (CAID)

رتبة ضمن قوات الساردوكار تُمنح للمسؤولين العسكريين الذين
تتطلب مهامهم في الغالب التعامل مع المدنيين، وتُمنح كذلك
للحكام العسكريين على قطاع كوكبي كامل. القائد رتبة أعلى من
الباشار، وأدنى من البورسج.

قاطع ليزري (CUTTERAY)

نسخة معدلة قصيرة المدى من بندقية الليزر، تُستخدم غالباً أداة قطع أو مبضع جراح.

قانون الحصانة (DICTUM FAMILIA)

القانون الوارد في «المعاهدة الكبرى» الذي يحظر قتل شخص من العائلة المالكة أو أحد أفراد العائلات النبيلة عن طريق خيانة غير مشروعة. يحدد القانون الخطوط العريضة للقتل المسموح به، ويحدد من عمليات الاغتيال.

القمر الأول (FIRST MOON)

أكبر الجرمين التابعين لكوكب أراكس، وأولهما طلوعاً في الليل. يتميز بأن التضاريس على سطحه تأخذ شكل قبضة يد بشرية.

قور (GARE)

تل منعزل شديد التحدر.

قراط / إلى الأمام (GEYRAT)

صيحة يقولها قائد الدودة للمساعدين الذين يوجهون مسارها.

قاضي الفترة الانتقالية (JUDGE OF THE CHANGE)

مسؤول يُعيّنه مجلس اللاندسراد الأعلى والإمبراطور لمراقبة فترة انتقال ملكية إحدى الإقطاعيات من عائلة إلى أخرى، أو للتحكيم بين الأطراف المتنازعة في مفاوضات الكانلي، أو في معركة رسمية

في إحدى حروب الاغتيالات. لا يجوز الطعن في سلطة القاضي
التحكيمية إلا أمام المجلس الأعلى، وبحضور الإمبراطور.

قفل راحة اليد (PALM LOCK)

أي قفل يُفتح بملامسة راحة يد الشخص الذي اقترن به.

قناة (QANAT)

ترعة مفتوحة لنقل مياه الري بطريقة عبر الصحراء في ظل
ظروف محكومة بضوابط.

قرطيبا (QIRTAIBA)

(راجع: بن قرطيبا).

القمر الثاني (SECOND MOON)

أصفر الجرمين التابعين لكوكب أركس، يشتهر بتضاريس سطحه
التي تأخذ شكل فأر الكنغر.

(ك)

كلادان (CALADAN)

ثالث كواكب النجم دلتا بافونيس، ومسقط رأس المؤدب.

كانتو ورسپوندو (CANTO and RESPONDU)

طقوس ابتهاج، وجزء من «نبوءات پانوپليا» التي تبذرهما المبشرات

الحاميات (المسيونيرا بروتاكتيفا): ذراع الخرافة السوداء لطائفة
البنّي جيسيرت. (راجع: المبشّرات الحاميات).

كرة إنارة (GLOWGLOBE)

مصباح إنارة مكتف ذاتيًا يطفو في الهواء (تعمل كرات الإنارة
عادةً بالبطاريات العضوية).

الكانلي (KANLY)

حقّ النزاع أو الثأر الرسمي الذي تضبطه قيود صارمة بموجب
قوانين «المعاهدة الكبرى» (راجع: قاضي الفترة الانتقالية). سُنّت
القوانين في الأصل لحماية الأبرياء غير المعنيين بالنزاع.

الكارما (KARAMA)

معجزة؛ تدخل من العالم الروحي.

كيسوة (KISWA)

قمّاش مزدان برسومات مستوحاة من أساطير الفرمن.

كتاب العبر (KITAB AL-IBAR) [الاسم مُستوحى من كتاب

ابن خلدون]

كتاب طوّره الفرمن على أراكس يجمع بين دليل نجاة في الصحراء
وكُتّيب إرشاد ديني.

«كل واحد» (KULL WAHAD) [ترجم المصطلح في

النص إلى: وا عجباه!]

أسلوب تعجب شائع في الإمبراطورية بمعنى «أنا متأثر بشدة»،
ويختلف تفسيره الدقيق حسب السياق (يُقال إن المؤدب رأى ذات يوم
فرخ صقر صحراوي يخرج من بيضته فهمس مشدوهاً: «كل واحد!»).

كتاب مرثي (FILMBOOK)

أي من الكتب التي توضع في مسلاط الشيجواير وتحمل نبضات
ذاكرة، وتستخدم في التدريب.

كشاف سموم (POISON SNOOPER)

جهاز تحليل إشعاعي يعمل ضمن طيف حاسة الشم ويُستخدم
للكشف عن المواد السامة.

كولون (KULON)

نوع من الحمير الوحشية كان يعيش في سهوب آسيا على كوكب
تيرا (الأرض) وتكيف للعيش في بيئة أراكس.

كويزاتس هاديراك⁽¹⁾ (KWISATZ HADERACH)

«مختصر الطريق». اللقب الذي أطلقته أخوية البني جيسيرت

(1) كويزاتس هاديراك Kwisatz Haderach: مصطلح مُحرف عن المصطلح العبري «كنيتزات هادريك Kefitzat Haderech» الذي يعني حرفياً «تقليص الدرب»، وهو مفهوم أقرب إلى «طلي الأرض» في الموروث الثقافي العربي، إحدى كرامات «أهل الخطوة»، الذين يزعمون امتلاك قدرة خارقة على قطع مسافة طويلة جداً في لمح البصر. المعنى قريب جداً من الوصف القرآني لأصف بن برخيا الذي عرض إحصار عرش بلقيس ملكة سبا أمام النبي سليمان: «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ مُرْفَقٌ». مفهوم فرانك هريبرت عن الكويزاتس هاديراك يُشبه ويرتبط بقوة بمفهوم الكنيتزات هادريك، أو «صاحب الخطوة».

على «المجهول» الذي يسعين لاستيلاده عن طريق برنامج التهجين والاصطفاء الجيني: إنه ذكر من البني جيسيرت سيتمكن بقدراته العقلية العضوية القفز في المكان والزمان.

كتلة الاسپايس الأولية (PRE-SPICE MASS)

المادة الناتجة عن امتزاج إفرازات الصناعات الصغيرة (الديدان الصغيرة) بالماء. في هذه المرحلة، تنمو كتلة الاسپايس نموًا مفرطًا كنمو الفطريات في باطن الأرض، ثم تنفجر تحت تأثير الضغط انفجارًا غازيًا مُميزًا، وتحل المواد الخارجة من جوف الأرض محل المادة الموجودة على سطحها. هذه المادة بعد تعرضها للشمس والهواء- تُصبح المِزَاج. (راجع أيضًا: المِزَاج وماء الحياة).

الكادحون (PYONS)

القروئون أو العمَّال القاصرون على كوكبٍ ما. إحدى الطبقات الدنيا في نظام فارفلوشس الطبقي. بموجب القانون، هم في كفالة الحكومة الكوكبية.

كاهن الماء (WATERMAN)

الشخص المكلف بأداء الشعائر المتعلقة بالماء العادي و«ماء الحياة».

(J)

اللات (AL-LAT)

شمس البشر الأصلية. شاع استخدام الاسم للإشارة إلى الشمس الأساسية لأي كوكب.

لغة المِعارِك (BATTLE LANGUAGE)

أي لغة خاصة بمصطلحات محدّدة طوّرت للتواصل بشكل واضح لا لبس فيه في أوقات الحرب.

«لا، لا، لا» (LA, LA, LA)

صيحة حزن فرمّنية.

لَبْن (LIBAN)

اللبن في لغة الفرمن هو ماء ممزوج بالاسپايس مع دھيق اليوكا. في الأصل هو مشروب اللبن الرائب.

لسان الغيب (LISAN AL-GAIB)

أو «الصّوت الآتي من عالم آخر». في أساطير الفرمن المسيانية، هو نبي أت من كوكب آخر. أحياناً ما يُترجم اللقب إلى «مانح الماء». (راجع: المهدي).

(م)

مصيدة الرياح (WINDTRAP)

جهاز يُوضع في مسار الرياح الشديدة قادر على تكثيف الرطوبة من الهواء الذي يدخله، عادةً عن طريق انخفاض حاد وواضح في درجة الحرارة داخل المصيدة.

ماء الحياة (WATER OF LIFE)

«سَمٌّ مُنِير» (راجع: الأمّ الموقرة): السائل الذي تفرزه دودة الرمال لحظة موتها غرقاً (راجع: شَيّ هولود)، والذي تشربه إحدى

الأُمّهات الموقّرات ويُحوّله جسدها إلى عقار يُستخدم في طقس نشوة الطّاو. أحد عقاقير «طيف الوعي».

مصنع الاسپايس (SPICE FACTORY)
(راجع: زخّافة الرمال)

المجلس الأعلى (HIGH COUNCIL)
دائرة اللاندسراد الداخلية المفوّضة بالعمل كمحكمة عُليا للفصل في النزاعات التي تنشأ بين العائلات النبيلة.

مطراق (THUMPER)
قَضيب قصير مُزوّد بمِدقّة تعمل بزنبرك، يُغرّز في الرمال لإرسال نبضات تستدعي شَيّ هولود. (راجع: خطاطيف الصّانعة).

مضادات الجاذبية (SUSPENSOR)
الاستخدام الثانوي (البطيء في استهلاك الطاقة) لمولّدات هولتزمان. تلغي المضادات عمل الجاذبية ضمن حدود معينة تحدّدُها كتلة الجسم النسبية ومقدار استهلاك الطاقة.

مجسّم سوليدو (SOLIDO)
الصورة الثلاثية الأبعاد التي يعرضها مسلاط سوليدو باستخدام إشارات مرجعية (أو صور مأخوذة بتقنية 360 درجة) مطبوعة على بكرة شيجواير. تُعدُّ مسالط السوليدو المصنوعة على كوكب إيكس هي الأفضل.

منشاق الرمال (SANDSNORK)

جهاز يضخ الهواء إلى داخل خيمة تقطير غطتها الرمال.
المفوضون بالكرارة (QUIZARA TAFWID)
كهنة الفرمن (بعد المؤدّب).

مشرفة عليا (PROCTOR SUPERIOR)

واحدة من أمّهات البني جيسيرت الموقّرات التي تتقلّد أيضاً منصب ناظرة إقليمية لإحدى مدارس البني جيسيرت. (عادةً ما تُوصف بـ"بني جيسيرت ذات بصيرة").

المهدي (MAHDI)

في أساطير الفرمن المسيانية، هو «من سيقودنا إلى الجنة».

مانتين (MANTENE)

الحكمة الأساسية، الحُجّة الداعمة، المبدأ الأول. (راجع: جيوديتشار).

مولي (MAULA)

عبد.

مسدّس المولي (MAULA PISTOL)

سلاح مقذوفات مُزوّد بزُنبرك يطلق سهاماً سامة، مداه نحو أربعين متراً.

المزاج (MELANGE)

صفوة الاسپايس: المادّة النفيسة التي يتفرّد بها كوكب أراكس.

يسبَّب الاسپايس -الذي يشتهر قبل كل شيء بتأثيره المضادة للشيخوخة- إدمانًا بسيطًا عند استهلاكه بكمّيات صغيرة، وإدمانًا شديدًا عند تناوله بكمّيات تزيد عن جرامين يوميًا لكل سبعين كيلوجرامًا من وزن الجسم. ادّعى المؤدّب أن الاسپايس كان مفتاح قدراته التنبؤية، كما ادّعى ملاحو النقابة أمورًا مماثلة. أحيانًا يصل سعر الاسپايس في السوق الإمبراطوري إلى 620 ألف سولاري لكل ديكاجرام⁽¹⁾. (راجع: أعين العباد، ماء الحياة، مادة الاسپايس الأولية).

منتجات (MENTAT)

فئة المواطنين الإمبراطوريين الذين تدرّبوا لبلوغ أعلى درجات التفكير المنطقي. «حاسبات بشرية».

محنة (MIHNA)

موسم اختبار شباب الفرمن الراغبين في أن تقبلهم القبيلة بصفّتهم رجالًا.

مشمش (MISH-MISH)

فاكهة.

مشرف الرمال (SANDMASTER)

المشرف العام على عمليات استخراج المِزاج.

(1) الديكاجرام الواحد يساوي 10 جرام. (المترجم).

المِصر/ مصر (MISR)

المصطلح الزنسنّي التاريخي الذي يطلقه الفرمن على أنفسهم،
بمعنى: «الشَّعب».

المبشّرات الحاميات (مسيونيرا بروتاكتيفا) (MISSIONARIA PROTECTIVA)

ذراع البني جيسيرت السوداء المنوطة بنثر بذور الخرافات
المُعديّة على الكواكب البدائية، ومن ثمّ تمهيد الطريق أمام البني
جيسيرت لاستغلال تلك الكواكب. (راجع: نبوءات بانوپليا).

المؤدّب (MUAD'DIB) [في النطق الغريبي: موادّيب]

فأر الكنغر المتكيّف مع بيئة كوكب أراكس، المرتبط في
ميثولوجيا الفرمن الروحية أرضية المنشأ بقمر الكوكب الثاني
بسبب تضاريس سطحه التي تأخذ هيئته. تنظر قبائل الفرمن
إلى المخلوق بتقدير لتمكُّنه من مهارات البقاء في الصَّحراء
المفتوحة.

مدير الناحية (MUDIR NAHYA)

اللقب الذي أطلقه الفرمن على رابان الوحش (الكونت رابان من
كوكب لانكفيل)، ابن أخ البارون هاركونن الذي ظلّ الحاكم الكوكبي
على أراكس سنوات كثيرة. عادةً ما يُترجم الاسم إلى «الحاكم
الشيطاني».

مُشتمل (MUSHTAMAL)

حديقة صغيرة أو فناء حديقة.

مُسْكِي (MUSKY)

سُمُّ يوضع في الماء. (راجع شاومركي).

«موزين والله!» (MU ZEIN WALLAH)

بمعنى «هذا ليس بالشئ الجيد». مفتاح لعنة فرمينة متوارثة
ضد الأعداء.

المعاهدة الكبرى (GREAT CONVENTION)

الهدنة الكونية التي تستمد قوتها واستمراريتها من توازن القوى
بين النقابة والعائلات النبيلة وسُلطة الإمبراطور. يحظر بند
المعاهدة الرئيس استخدام الأسلحة الذرية ضد أهداف بشرية،
ويبدأ كل بند من بنودها بعبارة: «لا بُدَّ من إطاعة الأعراف...».

شبكة تسخين (GRIDEX PLANE)

آلة فصل مواد تستخدم فارق الجهد (التفريغ الكهربائي) لفصل
الرمال عن كُتَل مَزَاج الاسبایس في المرحلة الثانية في عملية
تكریر الاسبایس.

المعدن المطواع (FANMETAL)

معدن يتكوّن من نمو بلورات الجاسمिम في وسط من الديورالومين،
ويتميّز بصلابته الشديدة مقارنةً بوزنه. الاسم مشتق من استخدامه
الشائع في الهياكل القابلة للطّي التي تُفتح بفرد طبّاتها.

مُخَدَّرُ الإِلَاقَةِ (ELACCA DRUG) [أغلب الظن، النطق

الغربي للكلمة العربية: عِلَاقَة]

عقار يُستخلص عن طريق حرق خشب الإِلاقَة الحُبِيبِي الأحمر الموجود على كوكب عِكاظ. يعمل المخدَّر على سلب الشخص إرادة الحفاظ على حياته، يُستخدم عادةً لإعداد المصارعين العبيد قبل دخولهم إلى الحلبة. يتحوَّل لون جلد الشخص المُخدَّر إلى لون الجزر.

مُسْتَخْلَصَات الندى أو مُكثِّفَات الندى (DEW COLLECTORS or DEW PRECIPITATORS)

لا ينبغي الخلط بينها وبين «جامعو الندى». المستخلصات أو المكثِّفات هي أجهزة على أشكال بيوض قطرها نحو أربعة سنتيمترات، مصنوعة من بلاستيكيات خضراء يستحيل لونها إلى الأبيض العاكس عند تعريضها للضوء، وتعود إلى شفافيتها في الظلام. للمستخلصات أسطح شديد البرودة يتكثَّف عليها الندى فجراً، ويستخدمها الفرمن لتبطين المنخفضات الزراعية المقعَّرة، حيث توفَّر مصدرَ مياه زهيد ولكن مستداماً.

المُكَوِّدَات (DISTRANS)

جهاز يضع بصمة عصبية مؤقتة على الجهاز العصبي للتدبُّيات الخُفَّاشية أو الطيور. عند استخدامه، تحمل صيحة الحيوان الطبيعية بصمة الرسالة التي يمكن فصلها عن الموجة الحاملة باستخدام مُكَوِّد أخرى.

معركة كورين (BATTLE OF CORRIN)

معركة الفضاء التي استمدّت منها عائلة كورينو الإمبراطورية اسمها. درات رُحى المعركة بالقرب من النجم الصافي (سيجما دراكونيس) في عام 88 ق ن، ووطّدت لهيمنة العائلة الحاكمة القادمة من كوكب سالوسا سوكانداس.

مخروط الصّمت (CONE OF SILENCE)

مجال جهاز التشويش الذي يحد من انتشار الصّوت أو أيّ اهتزاز آخر عن طريق تثبيط الاهتزازات بترددٍ معاكس 180 درجة.

مسدّس باراداي (BARADYE PISTOL)

مسدّس هواء ذو شحنة ثابتة طُوّر على كوكب أراكس، يُستخدم لنثر بقعة واسعة من الصبغة على الرمال.

(ن)

النقابة (GUILD)

أو «نقابة الفضاء»: إحدى الركائز السياسية الثلاث التي تحافظ على المعاهدة الكبرى. النقابة هي ثاني مدرسة للتدريب النفسي والبدني أنشئت بعد الجهاد البطلري (راجع: البني چيسيرت). يُعدُّ احتكار النقابة للسفر والنقل عبر الفضاء، وكذلك الخدمات المصرفية المجريّة، نقطة بداية التقويم الإمبراطوري.

النواكر (NOUKKERS)

ضباط الحرس الإمبراطوري الذين تربطهم صلة دم بالإمبراطور.

رُتْبة تقليدية تُعطى لأبناء الحظيَّات الإمبراطوريات.

نبوءات پانوپليا (PANOPLIA PROPHETICUS)

المصطلح الذي يشمل الخُرافات التي تستخدمها أخوية البني جيسيرت لاستغلال الكواكب البدائية. (راجع: المبشُرات الحاميات).

النصل المُنسل (SLIP-TIP)

أي نصل رفيع قصير (عادةً ما يكون مسموم الطرف) يُمسك باليد اليسرى ويستخدم في قتال الدروع.

نقابة الفضاء (SPACING GUILD)

(راجع: النقابة)

نهج البني جيسيرت (BENE GESSERIT WAY)

القدرة على ملاحظة أدق التفاصيل.

نائب (NAIB)

الشخص الذي أقسم ألا يأسره العدو حيًّا على الإطلاق؛ قسم مُتوارث يحلفه قادة الفرمن.

(٥)

«ها اليوم!» (HAL YAWM)

بمعنى: «الآن! أخيرًا». إحدى صيحات الفرمن.

هايلالينر (HEIGHLINER)

اسم حاملة البضائع الأساسية في أسطول النقل التابع لنقابة الفضاء.

هَجَر (HARJ)

رحلة صحراوية.

هجرة (HAJRA)

رحلة بحث.

(و)

والاك 9 (WALLACH IX)

الكوكب التاسع التابع للنجم لوجين، وموقع مدرسة البني جيسيرت الأصلية.

ولي (WALI)

شاب فرمني لم يُختبر بعد.

ولي العهد (NA-)

الوارث الذي سيتقلد الحكم بعد وفاة الحاكم الحالي أو إقصائه عن الحكم.

وهدات الغبار (DUST CHASM)

أَيُّ صَدْعٍ أَوْ مُنْخَفِضٍ عَمِيقٍ فِي صَحْرَاءِ أَرَاكُسٍ امْتَلَأَ بِالْغَبَارِ وَلَا تَبْدُو هَيْئَتُهُ مُخْتَلَفٌ عَنِ السَّطْحِ الْمَحِيطِ. وَهَدَاتُ الْغَبَارِ أَفْخَاخٌ مَمِيتَةٌ تَبْتَلَعُ الْبَشَرَ وَالْحَيَوَانَاتِ. (رَاجِعْ: حَوْضُ الْمَدِّ وَالْجَذْرِ الْغَبَارِيِّ).

(ي)

يالي (YALI)

الْمَأْوَى الشَّخْصِي دَاخِلَ السَّيِّتَشْ.

«يَا يَوْم» (YA) YA) YAWM)

تَرْنِيمَةٌ فَرْمَنِيَّةٌ تُرَدَّدُ فِي أَثْنَاءِ طُقُوسٍ شَدِيدَةِ الْأَهْمِيَّةِ، عَادَةً مَا تُتْرَجَمُ إِلَى «اسْمَعُوا وَعَوَا».

«يَحْيَى الشُّهَدَا» (YA HYA CHOUHADA)

صِيحَةٌ الْفِدَائِيِّينَ الْحَرَبِيَّةِ. كَلِمَةُ شُّهَدَا تَعْنِي «الْمُقَاتِلِينَ ضِدَّ الظُّلْمِ»، وَلَهَا دَلَالَةٌ مَعَيَّنَةٌ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُقَاتِلِينَ لَا يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ أَيِّ شَيْءٍ، بَلْ فِي سَبِيلِ شَيْءٍ مَعَيَّنٍ فَحَسَبَ.

تعليقات على الخريطة

مقياس تحديد الارتفاع: سطح البيداء الكبرى.

خط الطول المرجعي: خطُ الزوال المار عبر جبل المرصد.

مستوى الغطاء القطبي الجليدي: 500 متر تحت مستوى سطح البيداء.

مدينة قرطاج: تبعد نحو 200 كم شمال شرق مدينة أراكين.

كهف الطيور: يقع في تلال حبابية.

السهل الجنائزي: عرق مفتوح (كثبان رملية مترامية).

البيداء الكبرى: صحراء شاسعة مستوية، على عكس منطقة العرق/الكثبان. تمتدُّ الصحراء المفتوحة من خط عرض 60 درجة شمالاً إلى خط عرض 70 درجة جنوباً. أغلب البيداء الكبرى رمال وصخور، تتخللها بعض التكوينات الناتئة المكوّنة لشبكة السراييب الجوفية.

الفلاة الكبرى: منخفض صخري مترامي الأطراف يندمج في صحراء العرق، ويرتفع عن مستوى سطح البيداء بـ 100 متر. في مكانٍ ما من الفلاة، يُوجد الغور الملحي الذي اكتشفه باردو كاينز (والد لبيت كاينز). تُوجد أيضاً نتوءات صخرية يصل ارتفاعها إلى 200 متر تمتدُّ من سييتش تاير جنوباً إلى مجتمعات السييتشات المبيّنة.

مضيق حرق: بطلٌ ضريح جمجمة ليتو على هذا المضيق.

الأراضي المزروعة في الجنوب: لا تظهر على هذه الخريطة. تقع على خطِّ عرض 40 درجة جنوباً تقريباً.

الفلق القديم: صدع في جدار أراكين الحامي يبلغ طوله 2240 متراً: الفلق فجّره بول المؤدّب.

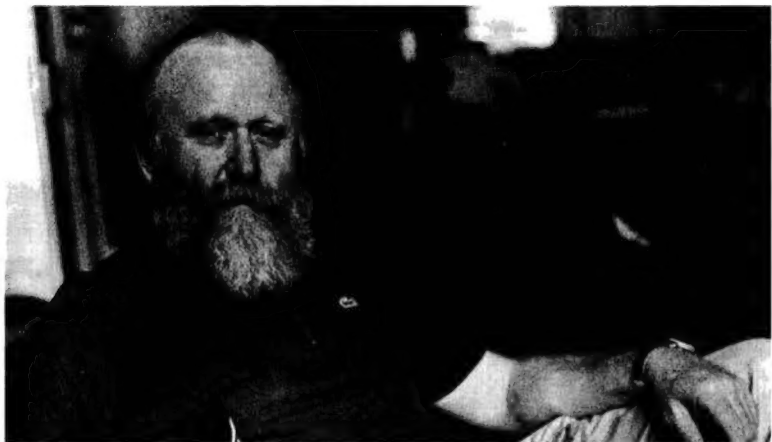
الهوة الحمراء: هاوية يبلغ عمقها 1582 متراً تحت مستوى سطح البداء.

حافة الجدار الغربية: منحدر شاهق (ارتفاعه 4600 متر) يبرز من جدار أراكين الحامي.

ممر الرياح: مجرى تحدّه التلال من الجانبين يفضي إلى قُرى الأحواض.

حدود الديدان: خطٌّ دائري يحدّد أبعد مسافة سُجّل وصول الديدان إليها شمالاً (ازدياد الرطوبة -وليس البرودة- هو العامل المقيّد للديدان الذي يرسم حدود تلك الدائرة).

مكتبة
t.me/t_pdf



وُلِدَ فرانك هيربرت، مؤلّف سداسية «كثيب» التي حقّقت أعلى المبيعات، في مدينة تاكوما في ولاية واشنطن، وتخرّج في جامعة واشنطن في سياتل. خلال حياته، عمل هيربرت في مجموعة مختلفة من الوظائف، من بينها مصوّر تلفزيوني، ومعلّق إذاعي، وسائق شحن، ومدرّب مهارات بقاء، ومحلّ نفسي غير متخصص، ومدرّس كتابة إبداعية، ومحرّر صحفي في مجموعة من صحف الساحل الغربي، قبل أن يصبح كاتبًا متفرّغًا.

في عام 1952، نشر فرانك هيربرت أولى قصصه في الخيال العلمي بعنوان «البحث عن شيء» في مجلّة قصص مذهلة Statling Stories. لكن شهرته الحقيقية لم تبدأ حتّى عام 1965، حين نشر رواية «كثيب»، التي تبعها بعد ذلك بخمسة أجزاء هي: «مسيح كثيب»، و«ذريّة كثيب»، و«الإمبراطور الإله»، و«هراطقة كثيب»، و«كثيب: مقرّ الأخويّة». ألّف هيربرت نحو عشرين رواية أخرى، من ضمنها «الطّاعون الأبيض» و«تجربة دوسادي» و«الوجهة: الفراغ»، وتوفّي عام 1986.

«معلم من معالم أدب الخيال العلمي الحديث».

- شيكاغو تريبيون

«كثير الآن قد تكون أهم بكثير ممّا كانت حين نُشرت أوّل مرّة».

- ذا نيو يوركر

رائعة فرانك هيربرت الكلاسيكية: انتصارٌ للخيال، وواحدة من أكثر روايات الخيال العلمي مبيعاً في التاريخ.

تدور أحداث رواية «كثير» في المستقبل البعيد بعد أكثر من 20 ألف سنة، على كوكب أراكس الصحراوي، وتسرد قصّة الصبيّ پول أتريديز -الذي صار يُعرف باسم المؤدّب- في مزيج مذهل من الخيال العلمي والمغامرة والصوفية والقضايا البيئية والسياسية.

فازت «كثير» بأوّل جائزة نيبولا عام 1966، وتشاركت جائزة هيوغو مناصفةً في العام نفسه، وشكلت حجر الأساس لواحدة من أعظم الملاحم في تاريخ أدب الخيال العلمي.

«متفرّدة في عمق شخصياتها الروائية وفي تفاصيل العالم الاستثنائي الذي خلقته. لا أعرف عملاً يمكن مقارنته بها غير سيّد الخواتم».

- آرثر كلارك

«قويّة، ومقنعة، وعبقريّة تماماً».

- روبرت هاينلاين

«ظاهرة مذهلة في أدب الخيال العلمي».

- واشنطن بوست

telegram @t_pdf



9 789921 730746

kalemat
www.kalemat.com

